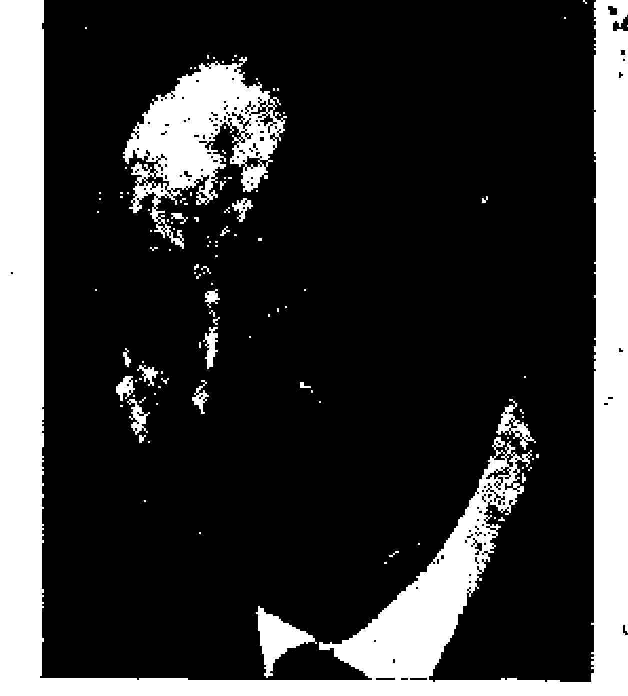
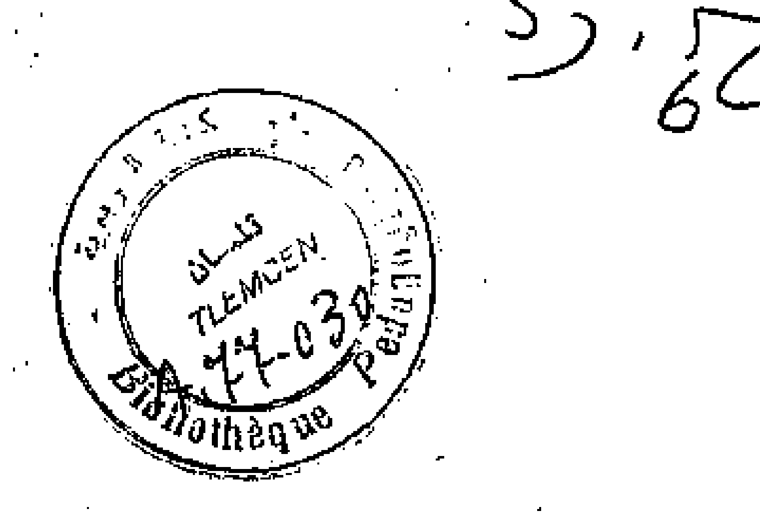

ترجمة: المنجي سليم - الطيب المهيري - الصادق المقدم - فتحي زهير - الحبيب الشطي
شارل-أندري جوليان
افريقيا الشمالية تسير
القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية
الدار التونسية للنشر
http://albordj.blogspot.com



تصوير جاك ارهـاكس 1971

شارل اندري جوليان

- ولـد فـي 2 سبتمبر سنـة 1891 بمدينة كان بفرنسا ٠
- قدم الى الجزائر وهو في الخامسة عشر من عمره ٠
- عمل ثلاثين سنة في التعليم الثانوي وستة عشر سنة في التعليم العالي بمدرسة فـرنسا لاقطـار مـا وراء البحار وبمعهد الدراسات السياسية وبالمدرسة القومية للادارة وبجامعة السربون (قسم تاريخ الاستعمار)٠
- مؤسس كلية الآداب بمدينة الرباط وعميدها (1957 – 1961) ٠
- كاتب عـام للجنـة العليا للبحـر الابيض المتوسط والريقيا السوداء لـدى رئاسة الحكومـة الفـرنسيـة (1936 – 1939) ٠
- مستشـار للـوحدة الفرنسيـــة (1947 – 1958) ٠


TLEMCEN
77-030
Bibliothèque

تار

إفريقيا الشمالية تسير

القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية

إفريقيا الشمالية تسير

القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية

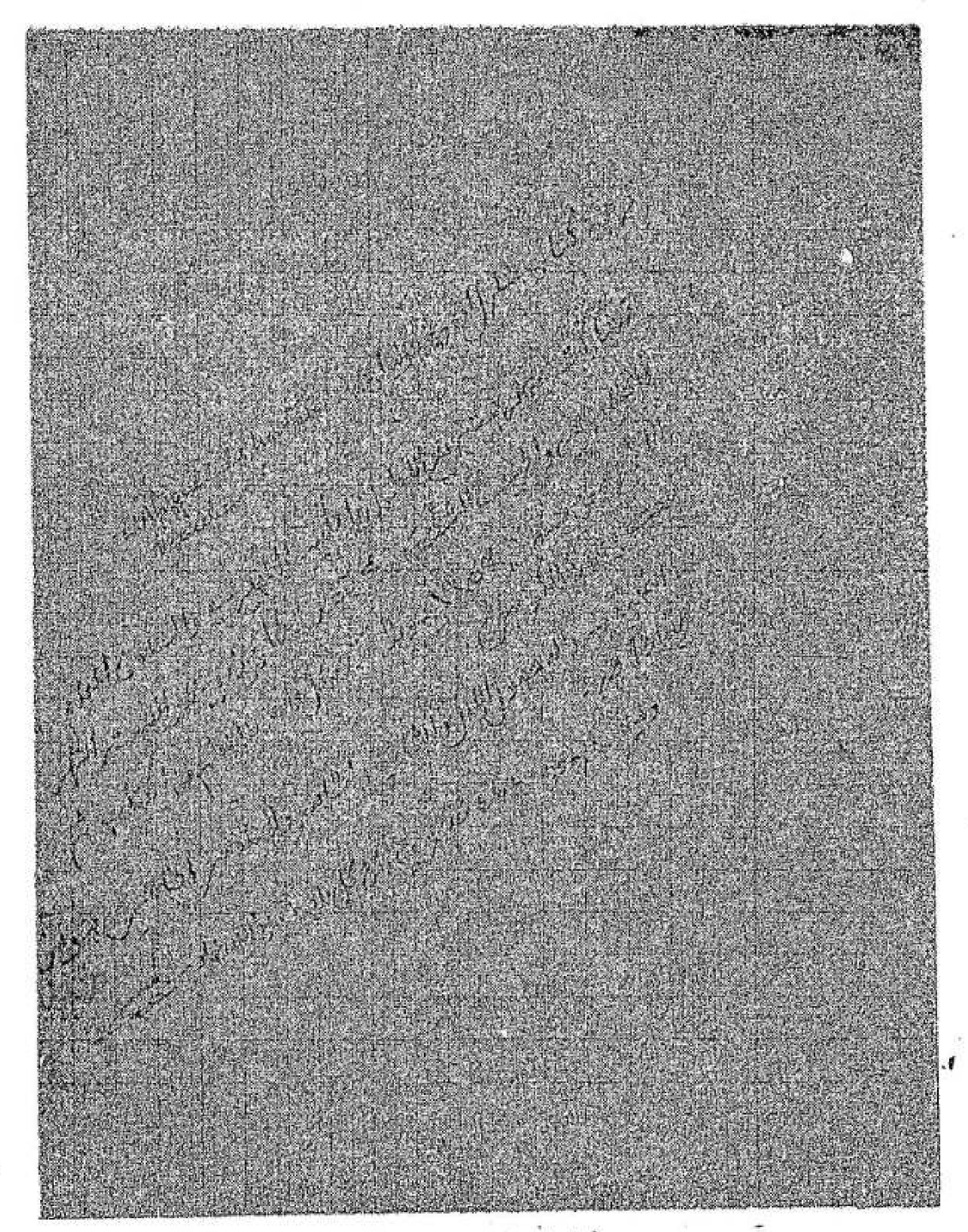
تأليف
شارل - أندري جوليان
الأستاذ الشرفي بجامعة السربون
العميد الشرفي لكلية الآداب بالرباط

ترجمة
المنجي سليم - الطيب المهيري - الصادق المقدم
فتحي زهير - الحبيب الشطي

مراجعة
فريد السوداني

الدار التونسية للنشر
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر

1976/1396
تونس



وثيقة الترجمة بخط

المرحوم المسنجي سليم

كتبها بمحتشد تطاوين.

نص وثيقة الترجمة

ترجمة كتاب شارل آندرى جوليان L'Afrique du Nord en marche

تشاركت في ترجمته مع الاخوان الطيب المهيرى والصادق المقدم وفتحي زهير والحبيب الشطي بمحتشد تطاوين في بحر الستة اشهر الاخيرة من سنة 1953 ٠

وقد اختص كل واحد منا بقسم من الكتاب ثم جمعت بهذا الكراس ٠

التمهيد ـ والفصول الاول والثاني والخامس والسادس الخاصين بتونس مع الخلاصة ٠

وهي عبارة عن 224 صفحة في ركن كل واحدة منها الامضاء سليم

إلى رُوح "بيـارفيـنُو"

« أنه لا يعقل امام المصالح الوطنية السياسية والادبية العليا المعرضة للخطر ان يلازم الراى العام جهلا مفرطا الى هذا الحد ••• وان عطفنا على اهالى افريقيا الشمالية ليفرض علينا فرضا ان نهتم بالمصير الذى يعد لهم » •

ج • لادرى لاشاريــار
جريدة « كليما » ، 22 جوان 1950

تقديم
الطبعة الثالثة

كان « روني جوليار » كثير الاهتمام بالوضع السياسي في افريقيا الشمالية، فطلب مني سنة 1952 ان اؤلف بكل حرية كتابا ابسط فيه دور الوطنيين المغاربة وردود فعل السلط الفرنسية • فتحمست لهذا العمل • وابتدات المخطوط يوم 2 اوت ، واسترسلت فيه بلا انقطاع الى ان اتممته يوم 4 اكتوبر ، وصدر كتاب « افريقيا الشمالية تسير » يوم 14 نوفمبر •

وقد ابتكر هذا العنوان طالب في الطب في المغرب الاقصى ، كان يعنى خاصة بالدعاية لفائدة حزب الاستقلال ، وهو احمد العلوي الذي تولى مناصب وزارية بالرباط منذ الاستقلال • واستوجب اقبال الجمهور طبعة ثانية برزت في 20 فيفري 1953 ، وسرعان ما نفدت • وان اعادة طبع الكتاب ستمكن بمرور الزمن من تمييز من احسن ادراك الوضع بالمغرب : وهو المؤلف ام منتقدوه •

فموقف السلط المدنية والعسكرية وكذلك الاخصائيين في التاريخ وعلم الاجتماع لبلاد شمال افريقيا كان يتسم على اقل تقدير بالتحفظ • ويرجع الفضل الى نفوذ وحزم « جان ـ بول سيكار » رئيسة ديوان وزير الدفاع الوطني « روني بليفن » ، وهي الى ذلك مبرزة في التاريخ ، في سماح جنرالات افريقيا بتداول كتاب تشتم منه رائحة الكبريت • وقد تعلل الجنرال « قرباي » القائد الاعلى للجيوش الفرنسية بتونس انه حجر الكتاب « عملا بامر لدى هوتكلوك » فاكد هذا المقيم العام من جديد العظمة السلبية التي تتميز بها عبقرية السياسة • ولم يسبق لكاتب الدولة للشؤون الخارجية « موريس شومان » مجرد علم باجراء غير مناسب للظرف ، تأسفت له نزعته التحررية • ورفع التحجير في ظرف 48 ساعة ، ولكن لم يتغير الوضع الا قليلا (1) •

---

1) ـ حسب المعلومات التي ادلت بها « جان بول سيكار » ، وهي تفيد بالمكالمات الهاتفية التي دارت بين « بليفن » و « قرباي » و « موريس شومان » يوم 16 جانفي 1953 •

وفي المغرب الاقصى كان الجنرال « قيوم » ضد كتاب « يفرط في العناية بالسياسة » (2) ، فعهد الى شرطته بتعطيل توزيعه • وفي مارس 1953 لم يتيسر لي اقتناء ولو نسخة واحدة بالرباط والدار البيضاء • ولم يبد اصحاب المكتبات في كامل اقطار المغرب حماسا لنشر الكتاب ، ومنهم من رفضوا حتى جلبه لحرفائهم • لكن ذلك لم يمنع تداوله تحت المعطف • ولم تكتب بشأنه اية مجلة كبرى بمدينة الجزائر او بعاصمة تونس او بالرباط ولو كلمة واحدة • ولم يتمكن مدير اهم مجلة وهي « لاروفي افريكان » (المجلة الافريقية) من العثور على مؤرخ يقبل التحدث عنه وكنت انضممت الى اسرتها منذ سنة 1919 • وقد كتب الي يوم 11 جانفي 1953 يقول : « سلمت « لوترنو » نسخة من الكتاب بعد مطالعتها ، فرفض ان يعطي عنه بسطة لانه لا يريد ان يقوم بنقد شديد لمؤلف هو من جهة اخرى عضو الاسرة التي ينتمي اليها » • واضاف انه ان تولى ذلك بنفسه فستحتوي بسطته « على نقد لاذع شديد » • فلم تصدر هذه البسطة ابدا • وعبثا الححت على الفائدة التاريخية التي تحصل من تحاكك وجهات النظر ، خصوصا على قدر ابتعادها في الزمن ، فلم اظفر بشيء ، واني ما زلت انتظر منذ عشرين سنة المقال الذي قد ينازعني الحقائق الواقعية التي اوردتها او يشير الى ما قد تغافلت عنه عمدا •••

وبالعكس تقبل العلماء والصحافيون الاجانب الكتاب تقبلا حسنا • ولم يضع من قميته شيء ، والدليل على ذلك ما اقترحه بشأنه الاخصائي الامريكي في شؤون المغرب الحديث ، الاستاذ « ريشارد م • برايس » ، سنة 1971 في احدى المجلات الرئيسية المختصة في شؤون الشرق الاوسط ، من ترجمة « افريقيا الشمالية تسير » الى الانكليزية ، مع ادخال التعديلات اللازمة (3) • ونال وقعا عميقا باقطار المغرب • فقد قرأه السلطان محمد الخامس واعاد قراءته من اوله الى آخره ، والح على بمحضر مستشار الحكومة المغربية لان اواصل دراسة التاريخ المغربي الحديث • وسلم « آلان سافاري » نسخة منه الى الحبيب بورقيبة ، وهو اذ ذاك مبعد بجزيرة جالطة النائية ومحروم

2) ـ تصريح ادلى به يوم 28 فيفري 1953 الى « برا » « انصاف المغرب الاقصى » 1953 ، ص 59 •

3) ـ « ميدل ايست جورنال » ، صائفة 1971 ، ص 430 : •

من المطالعة • فوجد فيه (المجاهد الاكبر) تسلية (4) • واخيرا اعطاه احد قادة جبهة التحرير الوطني الجزائري الاجلاء ، وهو العربي بن مهيدى ، الى احد الثوار الشبان حتى يتعرف منه على تاريخ بلاده •

ولنصف الموقف المناهض الذى وقفته السلط ووقفه الاخصائيون ينبغي الا ننسى الجو السائد في ذلك العهد • وكان المؤلف يقارع الافكار المنقولة التي كانت صلابتها تشبه صلابة القواعد الدينية ، ويدخل الشك في متانة النفوذ الفرنسي ومحاسن النظام الاستعماري ومساوي الوطنيين فالتشهير بعبث سياسة القوة والدفاع عن حق الشعوب المستعمرة في صيانة ثقافتها الخاصة بها وتحليل الاسباب العميقة للمعارضة والتفكير في نيل الاستقلال ، كل ذلك كان يبدو من قبيل الكفر • ولتقدير الفوارق يكفي أن نقارن بين خلاصتي فيما يخص الجزائر بوجهات نظر « روبار مونتاني » ، الشخصية التي تصغي اليها أكثر من غيرها الاوساط السياسية والعلمية • وبينما كنت أكتب في أواخر سنة 1952 ان « سد السبل الشرعية الطبيعية في وجه ثمانية ملايين من البشر » يفضي الى وضعهم الى جانب « الذين يطمحون في تسوية المشكل الجزائري بالعنف » ، كان « مونتاني » سنة 1953 يشيد « بالاطمئنان الرائع الذى تتمتع به الجزائر اليوم (5) ويجد القارئ في نهاية التوجيه المتعلق بالمراجع فقرات من التقرير السرى الذى سلمته « فانسان اوريول » يوم 20 ماي 1952 ، وقد نبهته فيه الى العواقب الوخيمة التي قد يسفر عنها خلع سلطان المغرب الاقصى المحتمل ، في حين ان سائر المختصين كانوا يرون فيه ترياقا • فالمغرب لم يكن في أى جزء من أجزائه عرضة للقضاء والقدر ، وانما ضحية للكفاف الاستعماري •

وبمجرد ما نفدت الطبعة الثانية رغب « روني جوليار » في طبعة جديدة • وامام تهاطل الاحداث فكر في ملحق يشتمل على 100 أو 200 صفحة ، بدا لي قصيرا جدا بالنسبة للعهود السابقة ، وربما أخل بتوازن الكتاب • ولم تكن اعادة سبكه لتحافظ على لهجته ونفسه الشخصي • فضبط الحل لهذا المشكل

---

4) ـ الحبيب بورقيبة ـ كتاب « تونس وفرنسا » ، نشر « جوليار » ، 1954 ، ص 365 • وقد كتب في مارس 1953 : « انه عمل للحقيقة وعن حسن نية يشرف من صنفه • وربما كان ذلك سبب في ان الصحافة لم تكتب عنه الا قليلا • لكن الافكار التي عبر عنها ستاخذ طريقها ، فالاحداث لا يسعها الا ان تؤكدها في المستقبل • »

5) ـ « روبار مونتاني » ـ « ثورة في المغرب الاقصى » • منشورات الامبراطورية بالفرنسية ، 1953 ، ص 344 • وانظر ايضا ص 358 و ص 367 وكذلك الملخصات عن محاضرته التي القاها بالرباط في 13 نوفمبر 1953 ، وعنوانها « لماذا يسود الهدوء الجزائر ؟ » •

باتفاق مع ادارة منشورات «جوليار» التي اشكرها على الثقة الواسعة التي وضعتها في • وهو يقتضي اكمال الكتاب بذكر مجموعة دسمة من المراجع (6) مكنتني من بياض بعض الحقائق ، خاصة فيما يتعلق بردود فعل « كليمانصو » سنة 1919 تجاه معارضة المعمرين ومشروع « بلوم ـ فيوليت » ، وبتهمة الاغتيال الموجهة ضد الشيخ العقبي ، وبتعاطي أعمال التعذيب ، وبثورة جهة قسنطينة سنة 1945 ، وبالمحاولة الفرنسية لفرض السيادة المزدوجة على تونس في ديسمبر 1951 • ولم تستهدف التغييرات سوى تيسير استعمال الكتاب • وحذفت لقب السيد والسيدة وعوضتهما بقدر الامكان بأسماء مثلما كان الامر بالنسبة للشخصيات التاريخية • وستمكن عناوين فرعية القراء من معرفة طريقهم عبر نص قد سلطت عليه الاضواء •

وقد تناول اهم تجديد بابين هما : فهرس اسماء الاشخاص والتوجيه الخاص بالمراجع (7) المتبوع بقائمة المؤلفات المذكورة • وليس من اليسير ان نعد فهرسا اذا اردنا ان نضيف الى الالقاب الاسماء التي تشخص الافراد • وقد تمكنت من سد سائر الثغرات متكبدا تحقيقات مضنية واحيانا مخيبة للامل • واعترضتني في بعض الاحيان حالات طريفة • فمنها ان « المكتبة الفرنسية » و « بيبليو » (Biblio) وفهارس اخصائيين ممتازين في شؤون المغرب تظن ان لقب الكاتب الجزائري الكبير كاتب ياسين هو ياسين وان اسمه كاتب ، بينما هو العكس • وفي ذلك بلا شك ضبط لجزئية ولكنه ضروري ، وهو ما ادى بي الى وضع ياسين في مادة كاتب حتى لا يضل القارىء الطريق (8) •

وتطلب مني اعداد التوجيه والمعلومات الخاصة بالمراجع اكثر من ضعف الوقت الذي قضيته في تحرير الكتاب • وان عملا من هذا النوع سيستدعي انتقادات تتناول اختيار التاليف وسلم القيم • وقد منحت الاسلام عن طيب خاطر مكانا واسعا بالرغم عن انه ليس من اختصاصاتي قط • وارى ان للمجادلات الكلامية التي شنت حول شخصيتي الافغاني وعبده اهمية بالنسبة

6) ـ نشرت المراجع في آخر هذا الكتاب كما هي بدون ترجمة لانها كلها غير عربية ، ولا تفيد الا من عرف اللغات التي كتبت بها ، وخاصة الفرنسية •

7) ـ نشر التوجيه (l'Orientation) في آخر هذا الكتاب باللغة الفرنسية لانه تقديم لمراجع غير عربية لا يفيد الا من اتقن اللغة التي كتبت بها وخاصة الفرنسية •

8) ـ « برا » (دوتيز) ـ الامل والكلام • اشعار جزائرية جمعتها « دوتيز برا » • نشر دار « سيغيرس » ، 1963 ، ص 247 : « اسم كاتب ياسين » هو ياسين ولقبه كاتب • ولكنه يمضي كاتب ياسين لانه يريد ان يدعى باستمرار كما ظل يدعى على مقاعد المدرسة الابتدائية » •

للمغاربة الذين لهم تراث اصلاحي ... ومهما كانت الثغرات والنقائص في المراجع التي هي امتداد للكتاب فاني اعتقد انها حرية بان تقدم خدمات لجميع الذين تهمهم المشاكل المغربية ، وعددهم في ازدياد .

وان الطبعة الجديدة لكتاب « افريقيا الشمالية تسير » تدخل في نطاق مجموعة تحتوي على كتابين آخرين سرت في تحريرهما اشواطا بعيدة ، وهما : نهاية المحميات وحرب الجزائر . وهو المؤلف الذي افضله عن سواه من بين جميع مؤلفاتي ، والذي كتبته باكثر حماس ولهجته متأثرة بذلك (9) . ويلمس فيه عزمي على رد الفعل على شكل من التاريخ المغربي الحديث ، يسيء فيه الحذر التقليدي وانعس من ذلك التظاهر بالنزعة التحريرية للحقيقة خاصة بما يقع السكوت عنه . فالملك يبقى عاريا ولو تعنتت حاشيته في رؤيا الثياب التي لا يرتديها . واليوم وان اضطررت لمراجعة بعض القيم بعد التجربة الحاصلة في ظرف ستين سنة من النزاع الاستعماري والدروس التي ينبغي استخلاصها من ظروف ارتقاء المغاربة الى الاستقلال فان ذلك لا ينال من اخلاصي للاختيارات التي غذت كتاب « افريقيا الشمالية تسير » .

شارل اندري جوليان
(27 اكتوبر 1971)

(9) - وصفه «الدليل الفهرسي الموجز للتاريخ العسكري والاستعماري الفرنسي» المفيد جدا والذي نشرته مصلحة التاريخ التابعة لاركان حرب جيش البر (المطبعة الوطنية الفرنسية ، 1969 ، 522 صفحة) في الصفحة 373 بهذه الالفاظ : « كتاب يتصف بالحماس » وبطابع جدلي ، لكنه عمل من الطراز الاول ، فهو يعطي بسطة عن الوطنية المغربية من اصولها الى بروزها . وهو يكون مجموعة وثائق هامة جدا » .

مُقدّمة

الإسْلَام المغْربي والوحْدة العَربيّة

اعتناق المغرب للاسلام

اندمجت افريقيا الشمالية في الشرق باعتناقها للاسلام • وقد اصطدم الفتح العربي ، حامل الديانة الاسلامية الذى ابتدأ سنة 647 بعد المسيح ، بعنت مقاومة طال امدها من طرف القبائل البربرية ، بعضها مسيحية او يهودية وغالبها متعاطى عبادات الطبيعة • واخذت عنصرية « المغرب الماكر » لا في الثورات فقط بل وفي الارتداد عن الدين اثر كل خيبة تلحق المحتل وفي الكفر والخروج عن السنة في قالب وطني ، وقد روى ان الخليفة عمر كان حذر من مكائده منذ اوائل القرن السابع •

دخل الاسلام البلاد اواخر القرن السابع ، واكتسحها من الشرق الى الغرب على مراحل سالكا طريق الزحفات التاريخية • غير انه لم يستقر نهائيا الا بعد انتصار الموحدين في القرن الثاني عشر • ومع ذلك فان المغرب لم يسمح للمذاهب السنية ان تعمه بعد اعتناقه للاسلام الا بعد ان استصاغها لطبيعته الخاصة •

الشعب البربرى :

فالبرابرة ، ومنهم يتركب العنصر الاصل لسكان شمال افريقيا ، لا يكونون جنسا بالمعنى الفني لهاته الكلمة • بل مركبا جنسيا لم تغيره الزحفات التى توالت عليه تغييرا محسوسا • فلهم لغة خاصة من اصل مجهول ، حافظت على كيانها امام الفينيقية واللاتينية وحتى العربية • وبقيت تجد الآن في كامل المغرب • وهذا اللسان او بالاصح هاته الالسن التى لا

تعرف الكتابة ، هي مندثرة تقريبا في تونس (٪ 1) ، وراسخة جدا في الجزائر (٪ 29) وخاصة في المغرب الاقصى (٪ 42) •

ومهما كان تنوع الاصناف الجنسية التي يشتمل عليها الشعب البربري فانه على ما يظهر يتصف باستقرار عجيب في الاخلاق والعادات • فقد حافظ على نظامه في قبائل تكتلت اثناء التاريخ لا في امم بل في جماعات غير قارة تربطها رابطة اصلية واحدة تتمثل في نفوذ الرئيس وقوته • ولئن التأم مع السيطرة المادية للشعوب الاجنبية التي اتصلت به حتى تأثر بمؤثراتها الخارجية بسرعة ولكن بصورة سطحية ، فانه ظل مستعصيا نافرا من اثرها الروحي محافظا اثناء القرون المتعاقبة على مدنيته التي بقيت على ما هي عليه او كادت •

وامتازت ديانة البرابرة دائما ، وهم اهل فلاحة ورعي ، بخصائصها القوية الصلبة التي حافظت على نفسها امام تأثير العبادات الفنيقية واستيلاء الوثنية الرومانية ، وانتشار اليهودية والمسيحية ، وحتى امام انتصار الاسلام •

العبادات والطقوس التقليدية :

فقد استمر عندهم الاعتقاد الاصلي في الارواح والجن وخاصة الشريرة منها التي يعتقدون انها تعيش تحت الارض وفي الغيران او الاماكن المرتفعة والتي ينبغي اتقاء شرها بطقوس سحرية • فاصبح الاعتقاد في « الجنيوس » (Genius) اللاتيني ، واصبح الاعتقاد في « الجن » عند المسلمين منهم • وتولدت عنه عبادة الحيوان وبالاخص عبادة الاشجار والجبال والمياه والكهوف والطقوس الفلاحية القديمة الرامية الى تيسير الازدواج الروحي بين الارض، وهي العنصر المؤنث ، وبين المطر ، وهو العنصر المذكر ، قد بقيت في الاحتفالات الرمزية ذات الصبغة العتيقة التي يحتفل فيها اليوم بزفاف الارض،المتمثلة بعروس«تزليت» (Taslit) الى المطر وهو زوجها « آستي » (Asti) فتراهم اليوم في المغرب الاقصى يحملون مغرفة كبيرة البسوها ثياب عروس ويجوبون بها الشوارع • كما تتجسم عادة في قتل اله النبات في المهرجانات المثالية ، فلا تراهم يذبحون الاها مذكرا كما في الشرق ، ولكن يذبحون آلهة مؤنثة تمثل الارض •

وعبادة الاصنام وهي مأوى الارواح ، السابقة للتسرب الفنيقي ، قد بقيت آثارها في تقديس الاحجار المقدسة مثل الحجارة السوداء الموجودة بمدرسة السفارين بفاس • وعلامة « تانيت » (Tanit) ذات التمثيل

الفلكي ، و « الخمسة » او « يد فاطمة » الحافظة من العين وهما من آثار قرطاجنة ، قد حافظتا على خصائصهما الواقية ، بالرغم من انتشار الاسلام •

لقد اقيم الدين الاسلامي على انقاذ المعتقدات القديمة في الارواح والطقوس السحرية ، دون ان يتمكن من محوها تماما • وقد اخذ العلماء واساتذة الشريعة المعترف لهم بنيابة المشرع في القيام بحملات عنيفة على بقايا الوثنيـــة •

التصلب والعقلية الاستقلالية :

فالبربري بطبيعته قليل التمسك بالمبادىء النظرية ، والتفقه في الاصول الا أنه متشبث بمعتقداته ومتصلب في عباداته ، ووجد منه دائما المنادون بالرجوع الى صفاء الديانة اذنا صاغية لمقاومة الانحرافات التي دخلت سواء على المسيحية او الاسلام • كما وجد دعاة البدع المتطرفة أرضا صالحة لدعاياتهم في المغرب • فمن الاربعة مذاهب السنية التي يجوز للمسلم اتباعها ، كان المذهب المالكي المتمسك بالنصوص والمعارض للتاويل المنطقية هو الذي تبناه المغرب • ولم ينجح المذهب الحنفي الاقل تشددا ولم يتمركز في غير المدن بالرغم عن الحكم العثماني الذي أيده في القرن السادس عشر ، ولم يبق له اليوم من الاتباع سوى أقلية ذات أهمية من أصل تركي بتونس وعدد من العائلات بمدينة الجزائر وتلمسان •

وصلابة البرابرة الدينية وليدة عقليتهم الاستقلالية ، بل هي في غالب الاحيان الصيغة المثلى التي تتجسم فيها تلك العقلية • فمن العسير ان يصبروا على الرضوخ لسلطان خصوصا اذا كان أجنبيا • وسرعان ما تبرز معارضتهم في صورة ثورات اجتماعية او قومية • وقد يحمل ذلك في غالب الامر على « التعصب » الاسلامي • والحقيقة ان الدين لم يكن الا اللحمة التي تجمع ارادة الاستقلال وتبرر انفجار الثورات التي لها نفس الخصائص مهما كانت عقيدة أصحابها •

فعندما اثقلت الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع على الناس وطأة سلطانها بتاييد من هيأة الكنيسة الكاثوليكية العليا ، ارتمى الاهالي في شقاق « دونات » الديني يؤازرهم في ذلك قساوسة البوادي • وكان الامر اذاك يرمي في الظاهر الى الاحتجاج على تعيين أسقف لقرطاجنة تؤيده الحكومة ويبغضه الشعب ، لكنه في الواقع يقصد الى الثورة على الولاة وكبار مالكي الارض • لذلك نرى الثورة التي نشبت في نوميديا في مقاطعة قسنطينة

الحاليـة ، تنقلب بغاية السرعـة حربا اجتماعيـة ضد اللاتينيـة المتعسفـة والسركونسيليون (Les circoncellions) وهم فلاحون ثائرون كانوا يهيمون حول مخازن الحبوب (Circum cellas) ويعملون كمصلحين مقومين لـلاخطاء ، اعتنقوا مذهب « دونات » لانه يمكن تعطشهـم الى الثورة مـن مذهب ديني يرتكز عليه • فلم يكن ذلك الشقاق الديني في حقيقة الامر سببا في الثورة ، بل مبررا لها ، حتى ان الشعب آظهر اجلالا لضحايا الاضطهاد كما لو انهـم كانوا شهداء •

لقد اعترض الحكم العربي في المغرب من الصعوبات ما كان اعترض الحكـم الروماني فيه • فمناهضة الولاة الذين أقاموا نظاما من الجبروت والارهاب ، حمل البرابرة المقاومة تلقائيا الى الميدان الديني الاسلامي • فـانحازوا فـي القرنين الثامن والتاسع الى شقاق جديـد خلقي يرمي الى المساومـة ، وهـو شقاق الخوارج المطالب بـأن يختار الخليفـة ، وهو رئيس الديانـة ، مجمـع المسلمين بدون اعتبار لاى ميزة عنصرية « ولو كان عبدا أسود » • وقد دامت الثورة التى اندلعت ضد السنية العربية وهيمنة الدواوين العربية ، وهما لا تنفصلان عن بعضهما بعضا ، ما يزيد عن القرنين • ولم يتيسر التغلب عليها الا بعد 375 واقعة وعدد كبير من المجازر • وتشتت البقية الباقية من الخوارج في صحراء الجزائر وتونس بعد انقراض ملك تاهرت الخارجي سنة 909 • وبقي اليوم أحفادهم يعيشون جماعات منكمشة متعصبة في جزيرة جربة وفي ورقلة وخاصة في مزاب حيث تقوم مدن غارداية ومليكة وبني يزقن الطاهرة ذات الصوامع العارية من كل زخرف •

وبعد ان آثبت الموحدون في القرن الثاني عشر انتصار الاسلام في المغرب ، استرجع الاسلام الصبغة التى كـان عليها في أول عهـده بجزيرة العـرب ، من ديانة حضرية تساير ظروف الحياة في المدن ، خصوصا في مراكز العلوم المالكية الكبرى مثل القيروان ومدينة تونس في البلاد التونسية وبجاية في الجزائر وفاس في المغرب الاقصى • لقد أسلم بدون شك حتى البدو من جبال القبائل والاوراس والاطلس الاكبر • ولكن المظنون انهم لم يكترثوا كثـيرا بالفقه والتوحيد ، واكتفوا بما في هذا الدين من مظاهر خارجية تتفق تماما وعقائدهم في الجن والارواح وتقاليدهم السحرية •

بغض الاجنبي والدين

وكان تدخل المسيحيين في المغرب هو الذى حرك يقظة الاسلام ، فكـان

الزاحفون ضحاياه • وهنا ايضا نجد ان بغض الاجنبي ، وهو الصورة البدائية للوطنية ، يسبق التحفز الديني ويثيره • وكان يعترض الآمال الشعبية في المقاومة ما كان « للمخزن » من التحذر وميل لمجاراة الظروف وقد بعثه على الامتناع من اطلاق لفظة « دار حرب » على الجهات التي يحتلها الكافر مادامت تقام فيها الشعائر الاسلامية ولو جزئيا • فمن ذلك العهد اصبحت الجماهير الثائرة المنظمة تحت قيادة زعماء دينيين ، تنديدة التعلق بالاسلام في اصفى مظاهره واعلاه ، اندفعا منها في رد فعل الغاصب المسيحي •

ان كل تدخل اجنبي يفيد التمسك بالسنة الاسلامية • فقد كفى ان شهر علماء الاصلاح الجزائريون بالزوايا ومشائخ الطرق بوصفهم مساعدين للحكومة الفرنسية ، لينفصل عنهم اتباعهم الذين كانوا خاضعين لتعاليمهم خضوعا اعمى • والحملة التي اثيرت ضد الظهير البربري الصادر في سنة 1930 والذي صور كمحاولة للاقامة العامة لتنصير المسلمين افضت الى تثبيت قدم الاسلام في القبائل البربرية بالمغرب الاقصى • وكذلك كان الامر عندما انتشر الخبر في الجبل بان الجنرال « جوان » قصد في اوائل سنة 1956 اهانة السلطان • فقد اعلن الاهالي بصورة صريحة استنكارهم للعمال الذين كانوا يعتبرونهم متواطئين مع السلطة الاجنبية • وفي الوقت الحاضر يبدو ان الوطنية مرتبطة بالاسلام لا تنفصل عنه • فالصدمات التي تلحقها تثير حمية التضامن الديني ، لكنها هي التي تمثل القوة الكبرى • وكلما ازدادت وثوقا الا وازدادت استقلالا عن المعتقد •

الإسلام الصوفي

وبجوار الاسلام السني انتشر وترعرع اسلام صوفي • فالصوفية الذين اشتق لهم هذا اللقب ـ على ما يظهر ـ من لباسهم جلبابا من الصوف ، اقاموا في اواخر القرن الثامن « خلوات » اخذوا يحاولون فيها ، عن طريق امتحانات وتعبدات زائدة عن التعبدات المطلوبة ، ان يصلوا من القيام بالفرائض الشرعية حسب النصوص الى الحقيقة الربانية على مراحل نفسانية وقد انتشرت الصوفية في المغرب من القرن الثامن ، وبلغت اوج انتشارها في القرن الخامس عشر خاصة في المغرب الاقصى حيث جهزت الطرق الصوفية المقاومة ضد الزحف المسيحي • وقد نشأت وانبسطت حتى الى القرن التاسع عشر طرق القادرية والشاذلية والجزولية والرحمانية والتيجانية والدرقاوية والسنوسية بمجهودات بعض مشائخ الطرق •

فمن ذلك العهد أصبحت الزوايا الكبرى تحتل المقام الاول من اهتمام المريدين • فهي في آن واحد معابد ومدارس وفنادق يأوي اليها عابر السبيل وهنالك يقيم كبير الطريقة ، الشيخ المتلقي من الله البركة التي تمكنه من الاتيان بالكرامات • وينطلق من الزوايا في كامل البلاد المقدمون وهم نواب الشيخ الحاملون لتعاليمه وأوامره الى جماهير المتحمسين وهم الاخوان •

وينتظر الاخوان من الزوايا أن تزودهم بمعرفة الطريقة والشعائر الدينية وخاصة الاوراد التي يذكرونها الى ما لا حد له والتي تمكنهم من الارتقاء الى السعادة في هاته الدنيا وفي الآخرة • لذلك انتهى الامر بالزوايا الى حصر العبادة في طاعة ضيقة تراعي الشكليات والتعليم في طرق عتيقة متكلفة مملة • والطلبة المتخرجون من كليتي القرويين بفاس والزيتونة بتونس الكبيرتين ، لهم تكوين يشبه ما كانت تمنحه كليات أوروبا الغربية في القرن الثالث عشر ، فلا تتسنى لهم مسايرة ضروريات الحياة العصرية الا بجهد جهيد •

وقد عرف أصحاب الزوايا كيف يستعملون نفوذهم في العاب السياسة ضد سلاطين بني مرين بفاس ، وضد الاتراك في عاصمة الجزائر ، وضد الفرنسيين • فهم تقليديا مشكوك في اخلاصهم للمخزن الشريفي ، وهم عرضة لحملات علماء الجزائر الاصلاحيين • وما انفك تأثيرهم يضعف بالرغم من عطف ادارة فرنسا عليهم •

والصوفية هي التي نشرت في الاسلام تقديس الاولياء بما نسبت لبعض الرجال من نفوذ خارق للعادة • فكانت بالرغم من صريح القرآن ترضي ميولا شعبية ظهرت بوادرها في عهد الرسول • وتقديس الاولياء المسلمين الذي حل في غالب الاحيان محل عبادة الآلهة القديمة وفي نفس الاماكن التي كانت تقدس فيها ، وقد ساعد كثيرا على ابقاء العادات الوثنية •

فالولي الصالح فاز لفضائله بما جعله « حبيب الله » • فيستطيع حماية الناس والتوسل لفائدتهم • وبفضل البركة التي تحصل عليها والتي يورثها ذريته ، كان الولي قبل كل شيء رجل الكرامات • فيستنجد الاتباع بنفوذه ويحاولون أن يظفروا بنصيب من بركته بالعبادات والصلوات والوعائد وطقوس سحرية ، وخصوصا بالاتصال بجسده مدة حياته وبقبره او مقامه بعد الوفاة •

وانتشر تقديس الاولياء والمرابطين (رؤساء رباط او منسك) بصورة خاصة

في المغرب • وتعدد الاولياء الشعبيون ومن بينهم أحيانا النساء حول كبار الاولياء أمثال الشيخ محرز بعاصمة تونس والشيخ بومدين بتلمسان ومولاى ادريس بفوليبيلس ، ورفعتهم الدهماء تلقائيا الى منزلة الالهة العائلية القديمة ، ولما كان في حياتهم من التقشف او بدا عليهم من مظاهر الالهام ، ولو كانوا معتوهين • لذلك كانت الطريقة في خلق مستمر •

وللمرابطين ـ سواء المتصل منهم بطريقة او المنفرد ـ تاثير عظيم على المريدين ، بقدر ما يشفي غرائز الشعب الدفينة وقد استطاع اصحاب الكرامات هؤلاء اثارة الاعتقاد فيهم حتى من طرف المسيحيين واليهود • واعمالهم هي التي يوجه علماء الاصلاح الجزائريون اهم هجوماتهم ضدها • فهم يشهرون بالمقامات والقبور الضخمة والعقائد الطبيعية المتمثلة في الاشجار التي ترشق بالخزف والوعائد « والزردات » والقرابين وبيع الاشماع المباركة واستعمال السحر والطلاسم الكتابية والتمائم ، وكل ذلك من آثار الوثنية التي قاومها محمد صلى الله عليه وسلم • وهنا ايضا يتصل العمل الديني بالعمل السياسي • فقد تمكنت الحكومة الفرنسية من استجلاب الطريقة الى جانبها ، فتمدها بالمساعدات وتحميها • فكان من الطبيعي في نظر العلماء ان يصبح خدمة الوثنية خدمة للاجنبي ودعائمه • وقد اعلن احدهم انه لا سبيل للجزائريين ان يظفروا باستقلالهم ما لم يبتعدوا عن المرابطين • وهكذا جعل الاسلام السني نفسه في خدمة التحرير • فتقهقر الطرقية وانتشار حركة المطالبة يسيران جنبا الى جنب •

الشرق والوحدة العربية

فالاسلام المغربي يتخذ حينئذ ثلاثة اشكال متعاصرة متماسكة في غالب الاحيان:الاسلام السني المقامة شعائره في المساجد حسب الطقوس التقليدية المعروفة والمقننة تعاليمه التشريعية العامة في الفقه الشرعي ، واسلام الزوايا والمرابطين الصوفي ، واسلام العقائد في الجن والارواح ، وبعض طقوسه من بقايا الوثنية • ولم يكن هذا الاسلام منقطعا عن غيره او متجمدا او سالما من التاثيرات الخارجية • فمن سنة 637 الى سنة 1060 كان مرتبطا بالشرق تمام الارتباط • ثم من النصف الثاني للقرن الحادي عشر انسلخ عن التاثير الشرقي ، وولت العائلات المالكة البربرية من مرابطين وموحدين وبني مرين وجوهها قبل الاندلس • ثم رجع هذا

الاسلام المغربي من جديد لنفوذ الشرق باستيلاء الاتراك عليه في القرن السادس عشر • واليوم يتلقى المغرب التموجات القادمة من مصر وسوريا وباكستان ، فلا يستطيع ان يبقى في معزل عن حركات النهضة والتحرير الاسلامية الكبرى •

ان حركة الوحدة العربية التي نادى بها مفكرون في القرن التاسع عشر فنشرتها في اوائل القرن العشرين رابطات واحزاب مقيمة في اوربا وفي الشرق ، اخذت تمام انتشارها بعد الحرب العالمية الاولى • ونشات تلك الحركة التي عبر عنها المؤلفون العرب بالنهضة في الامبراطورية العثمانية ، وقد زعزعت اركانها وجات تسببت في تفكيكها • واستثمر السلطان عبد الحميد لقب الخليفة الذي يجعله رئيسا للملة الاسلامية ، فحاول ان يجعل من القسطنطينية قاعدة دولة اسلامية كبرى تنادي بتضامن جميع المسلمين • وقد اطلق كاتب فرنسي سنة 1881 على هاته النظرية اسم « الوحدة الاسلامية » (Panislamisme) بمعنى سياسي مضبوط ، لا يجوز اطلاقه بدون افراط على غيرها من الحركات مثل الوهابية او السنوسية التي لا ترمي في جوهرها الى غاية توحيدية او مثل الجامعة العربية التي لا تربط تحقيق الوحدة بالهيمنة التركية •

اسلام الاصلاحيين

لقد مكن تسرب الافكار والفنون الاوربية الى العالم الاسلامي المغلق النهضة العربية من وسائل نموها • وهنا ايضا كان « ليونبارت » دور المولد • فمن بعده اخذت مصر في عهد محمد علي تتمدن بحماس المعتنق الجديد لبعض الاديان • فناضلت عن كرامة الفكر العربي واللغة العربية بفضل الصحافة الرسمية التي انشاتها منذ سنة 1827 وتنمية التعليم • وكان جمال الدين الافغاني (1839 ــ 1897) بدون شك اقوى شخصية من بين جميع الشخصيات التي كونت ذخيرة النضال القلمي العربي في الميدان الثوري ، وقد بث برنامج تحرير الدول الاسلامية بلسانه اكثر مما بثه بقلمه •

فما انفك يطالب باستقلال البلاد العربية حتى تحقق لنفسها الرقي اللازم بمؤسسات حرة • وهو في نفس الوقت يطالب بجمعها في امبراطورية متسعة الاطراف تحت امرة خليفة واحد كي تتمكن من مقاومة السيطرة الاوربية • ودعا بعده محمد عبده (1849 ــ 1905) تلميذه المصري الى الرجوع الى بساطة الاسلام الاولى والتامل من منبعي الدين اللذين مازالا على

حيويتهما وهما القرآن والسنة • وعمل على التوفيق بين الدين والعلم الحديث ، فبين ان الحقائق التى جاء بها العلم الحديث لا تتناقض والقرآن ، بل تطابق ما كان لمح اليه النبىء من مغانم الرقى • وهكذا تمكنت حركة الاسلام الاصلاحية من اخذ جميع مكاسب العلوم بدون تنازل عن تقاليده الدينية ، مصوبا ضد الغرب نفس الاسلحة التى تلقاها منه وقد ذهب بعض تلامذة محمد عبده ، مثل العالم الدينى السورى الشيخ رشيد رضا بالاخص ، الى استخراج اقصى ما يمكن من النتائج من تاكيد محمد عبده وجوب تطهير الاسلام من التاثيرات والبدع المعفنة ، حتى اصبحوا لا يقبلون تقليدا صحيحا الا تقليد مجمع السلف الصالح • ونشرت جريدة المنار ، وهى لسان السلفين نظرياتهم المطهرة من البدع وحملتها من الجزر الهندية الهولندية ، (1) حيث انعشت الاسلام ، الى المغرب ، حيث تاثرت بها جمعية العلماء الاصلاحيين الجزائريين ، مما كون لها نجاحا مطردا •

المحن والآمال

وانعقد اول مؤتمر عربى بباريس سنة 1913 بدعوة من سوريين ولبنانيين كانوا مقيمين بفرنسا فلم يتناول المسائل الفقهية الدينية بل وضع الرغبات السياسية ، وطالب خاصة باللامركزية • وراجت هاته الرغبات فى الامبراطورية العثمانية ، وكانت المحرّك لمقاومة الولايات العربية الثورية خصوصا مدة الحرب العالمية الاولى • وقد ذكى المقاومة اذ ذاك الامل فى استقلال قومى كان الحلفاء يشجعون العرب عليه • لكن الحرب انتهت بضربة قاسية للآمال التوحيدية ، بفشل الامير فيصل بن الحسين ومملكته العربية ، وباقرار الصهيونيين بفلسطين ، وبالوثبة الوهابية المنتصرة فى الجزيرة العربية ، واحداث الوصايا فى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وتكليف فرنسا وانقلترا بها •

بيد ان المحن ، عوض أن تفشل المطامع العربية ، زادتها متانة ورسوخا بما وجدته فى الجماهير الشعبية من التاييد حتى اصبح الامير شكيب ارسلان باعث النهضة العربية ، يرى فى تلك المحن خيرا عائدا على العالم العربى • فمن جهة تنبه العالم العربى من خليج فارس الى المحيط الاطلسى ، فتعلق اكثر من ذى قبل بوحدته الدينية والثقافية مع تضامن مصالحه امام اروبا • ومن جهة اخرى ، شعر كل جزء من هاته الوحدة اكثر من ذى قبل بذاتيته ،

(1) اندونيسيا حاليا (ملحوظة للمترجم) •

وهو يرغب في تحقيق تحريره القومي • فحركة الوحدة العربية والحركة القومية ، المتناقضتان في الظاهر ، قد نمتا جنبا الى جنب كعزم مزدوج على مقاومة الغرب •

العقلية التوحيدية

لقد تعثر الطموح التوحيدي في اول أمره في المشاكل السياسية المتولدة عن تصفية حساب الحرب العالمية الاولى فالحدود التي فصلت كل دولة عن جاراتها احدثت نزاعات قومية لم يكن الاستقلال كافيا لفضها • ومبدا القومية ، الذي اعتنقه أصحاب النظريات من المسلمين عند اتصالهم باروبا ، لم يقع التشبث به ضد الدول الغربية فقط بل ضد الدول الاسلامية ايضا • وهكذا اخذ يبرز شيئا فشيئا داخل المجمع الاسلامي كله وجود أمم متميزة عن بعضها بعض ، ملتفتة الى ماضيها حتى ما كان منه قبل الاسلام ، ولكن تربطها مع ذلك في المجال الروحي والثقافي وحدة الدين والثقافة •

ولم تدخل المشاكل العملية الفشل على الميول التوحيدية • فقد وقع التذكير بسابقية المانيا وايطاليا اللتين نجحتا في وحدتهما بالرغم من التنبؤات والمعارضات الخارجية ، وبالامكانيات التي لا حد لها لفتوة شعوب آسيا وافريقيا العربية ، وبوحدة العالم الاسلامي التاريخية والثقافية التي تحمل في طياتها « أمة المستقبل » ، الامة العربية • ولم يزل التضامن الاسلامي يبرز ويتأكد • فالمؤتمر الاسلامي العام المنعقد بجنيف سنة 1931 أخذ صبغة قارة • وحملت الصحافة المصرية الكبرى المجهزة كاحسن ما يكون الى حيدر اباد وبتافيا والجزائر وفاس ، مثل الوحدة العربية العليا في الميدان الوطني والثقافي والاجتماعي والسياسي • وكانت هاته الدعاية ترتكز على ثلاثة مبادىء رئيسية ترجع الى اللغة والجنس والتاريخ •

المفهوم اللغوي :

ان اللغة العربية لغة دين ، فلا يمكن لها ان تفي بحاجيات التعبير عن التفكير العصري لانها صالحة للتعبير عن التعاليم والاوامر الدينية اكثر منها لمجاراة دقائق المنطق وارتباط معانيه • الا ان المجامع العلمية ، وخاصة مجمع القاهرة ، تمكنت بمعونة الشبيبة المثقفة من بعث لغة جديدة فيها نوع من المرونة جعلها صالحة للافصاح عن المشاكل الثقافية والاجتماعية والسياسية للعصر الحاضر ، وذلك باشتقاق كلمات جديدة من أصل عربي بحت •

فانتشرت هاته اللغة عن طريق الصحافة وخاصة الصحافة المصرية • واكسبت العالم الاسلامي لغة راقية مآلها اقصاء اللغات المحلية • فاصبحت لهذا السبب أداة سياسية ولغة امبراطورية يؤدي انتصارها الى تشكيل مرحلة نحو الغاية التوحيدية • نعم ، نجد تقدمها معطلا باستعمال حروف لا يعرف اختزالها الحروف الصلبة المعروفة في الهجاء اللاتيني • لكن بالرغم من ثقل هذا العبء الذي تجرأت على التخلص منه روسيا السوفياتية وتركيا الكمالية بتبني الحروف اللاتينية فانها مازالت تمثل فيما نظن أمتن صورة للوحدة العربية •

المفهوم الجنسي :

يجزم دعاة النهضة العربية بوحدة « الجنس العربي » ، وليس القدح منها بدعة علمية • فالبحث العلمي الجنسي لعرب آسيا ، مهما كان ناقصا ، يسمح مع ذلك بنفي وجود جنس عربي ربما حتى في القديم ، نظرا لما انتاب شعوبا مختلفة الاصل من المزج • وفي العصر الحاضر يختلف الشكل الارستوقراطي المكي عن شكل أهل نجد اختلافا محسوسا ، وفي اليمن يظهر ان الطبقات الاجتماعية متمثلة باشكال مختلفة • فمن الاحرى ان لا تثبت الوحدة الجنسية للعالم الاسلامي أمام البحث والتحليل ، لكنها تمركزت لاسباب تاريخية • فقد أصبح القبطي والبربري من الاشراف بعد اسلامهما وأخذا يبحثان لنفسهما عن آباء من بين القادة الفاتحين • وعلى هذا النمط نشأت تلك الشجرات المتشعبة الانساب التي استندت اليها تآليف طبقات العرب الجاهلية للحقائق الترابية • والظاهر ان مجرد الاتصال بالاعراب البدويين الفاتحين قد كفى لتستميل الشعوب التي اسلمت ابناء اسماعيل ، فتبث فيهم مع الدين واللغة جميع الاخلاق الاساسية الخاصة بالقيسيين واليمنيين من جزيرة العرب • فمن الصعب ان يسلم أهالي افريقيا بان الزحفين العربيين قد ذابا في السواد البربري • والحقيقة الواقعية الوحيدة هي انهم مسلمون وانهم يتكلمون العربية • وهكذا نجد اليوم عقيدة جنسية واحدة تسعى في توحيد المسلمين من افريقيا وآسيا والدنيا حتى تجعل من الكتلة العربية سدا تعارض به تدخل الاجنبي الغربي •

المفهوم التاريخي :

يتحلى « الجنس العربي » بشرف ياخذه من تاريخ مشترك قد اشاد المؤرخون بمجده الماضي • والعصر الذي انتصر فيه الاسلام على قوات المسيحية بين القرن السابع والقرن الثاني عشر ، بقيادة الخلفاء الاولين ، الامويين من

دمشق والعباسيين من بغداد ، هو العصر الذي عرف فيه العالم ارقى مدنية . واضطر الغرب الى التتلمذ عن الشرق العربي ليتخلص من الوحشية ، لكنه كالطفل العاق ما لبث ان ثار على ابيه . والمسلم بدوره الآن يضطر الى الاقتباس من الثقافة والعلوم الغربية ما يصلح له للدفاع عن قيم الشرق المعنوية والفكرية من المادية الاروبية . ويكرر مختصر التاريخ ومعلم المدرسة باستمرار الى الطفل ان ذلك الماضي المجيد ينتظر استقلال الشعوب العربية ليحيا من جديد . ولكل مسلم وطن اعظم هو الاسلام .

ينبىء التاريخ بان الانحطاط تبع الاحتلال في كل بلد خضع للاجنبي . فتتمثل الحسرة على الحرية المفقودة عند ذاك في ذكرى « سالنت » (Salontes) بلد السعادة او ذكرى العصور الذهبية . فيستند انبه الكتاب الى وثائق منفردة يتغافلون عن نقدها وتمحيصها ليصفوا تونس الحسينية وجزائر الدايات والمغرب الاقصى العلوي بالوان يبالغون في بهائها . وتدفعهم قوة الاحساس الوطني الى اعتبار فحول الجاهلين امثلة تترجم سيرتهم لفائدة الدعاية . « فيوغرطة » الذي قاوم الرومان جسم وطنية المقاومة ، بينما « جوبا »الثاني الملك الفنان الذي بالغ في الخضوع للاجنبي حتى ساعده بالجيوش ضد الثائر « تكفاريناس » بطل الاستقلال البربري ، يعتبر متعاونا دنيئا . وهكذا اصبح التاريخ ، في شكله المزدوج العربي والقومي ، يستغل لتاييد المسلمين في افتخارهم بالماضي وثقتهم بالمستقبل .

شكيب ارسلان والمغرب :

لقد تسربت روح النهضة العربية الى المغرب عن طريق الكتب والصحافة والطلاب الذين تخرجوا من كليات مصر او سوريا او الذين تعرفوا في الحي اللاتيني بباريس بزملائهم من الشرق الادنى ، وعن طريق اسفار الحجاج ايضا . وقد نادى العالم الاسلامي بكل صراحة بحقه في افريقيا الشمالية وان كان يعتبرها متاخرة متوحشة نوعا ما . وقد شارك نواب من المغرب ، وخاصة مصالي الحاج بجنيف ، في المؤتمرات التي انعقدت بالقدس (ديسمبر 1931) وجنيف (سبتمبر 1930) والقاهرة (اكتوبر 1938) لكن الفضل في انتشار المبادىء التوحيدية العربية في المغرب يرجع قبل كل شيء الى نفوذ الامير شكيب ارسلان ونشاطه .

انها شخصية عجيبة تلك التي لهذا الاقطاعي اللبناني الذي بث طيلة ثمانية عشر عاما من مكتبه بجنيف تعليماته الى الاسلام في البحر الابيض المتوسط ،

والذي لم يمس نفوذه بالرغم من جميع الازمات وجميع الورطات • وبرز عمله خاصة ككاتب وداعية • واكسبه تضلعه في اللغة العربية لقب « امير البيان » ورئاسة المجمع العلمي العربي بدمشق • فهو متخرج من مدرسة جمال الدين الافغاني والشيخ عبده وهو زميل رشيد رضا • واتضح انه كفء لقيادة الرجال ببراعة نادرة لما كان له من نشاط لا يعرف الكلل وتاثير شخصي • فبربط الصلة مع زعماء الإسلام ورجال الدولة الاروبيين وبالخصوص مع موسوليني ، وباتخاذ موقف الحكم في المشاكل الاسلامية وبتوجيه تعليمات مستمرة او حلول للخلافات الى رؤساء الاحزاب ، وبتحرير عدد كبير من الفصول والرسائل الخاصة ، وبنشر مجلة باللسان الفرنسي « الامة العربية » المتسع ذيوعها من جاوة الى المغرب الاقصى بين النخبة المستنيرة والتي نجد فيها شرح الوثائق والاصول المذهبية ، بذلك كله جعل ارسلان من الدار الكائنة بشارع « ارناست هنتش » (Ernest Hentsch) حيث نصب مكتب استعلاماته ، سرة العالم الاسلامي •

لقد تفطن الامير منذ عهد بعيد الى اهمية افريقيا الشمالية في رقعة الشطرنج العالمي • فمن مناهل فكره التي تنضب كرعت الحركة الوطنية المغربية التي كان غالب زعمائها قد تكونوا عنه او استلهموا منه • وقد اتصل منذ عهد طويل بالشيخ صالح الشريف التونسي وعبد السلام بنونة احد اعيان تطوان من المغرب الاقصى • واتخذ مساعدا له في اعمال جمعية الشرق التي انشاها في برلين المبعد التونسي محمد باش حانبة اخو علي باش حانبة ، احد مؤسسي حزب الشباب التونسي سنة 1907 والذي توفى بين يديه سنة 1920 •

وبمجرد ما عين في جنيف على راس الوفد القار للجنة السورية ـ الفلسطينية التي تالفت بالقاهرة سنة 1921 ، اخذ الامير في الاتصالات والتدخلات وعددها ، ففي تونس ربط صلات متينة مع زعماء الحركة الدستورية : الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي كان يرى فيه زعيم الحركة الاسلامية في افريقيا الشمالية ، والشاذلي بن خير الله بن مصطفى رغم ضعفه ومناقصه عندما اضطر الى الذهاب الى ايطاليا سنة 1935 نائب الحزب الحر الدستوري في باريس ، الامر الذي ادى الى طرده من فرنسا ، وفي النهاية المحامي الحبيب بن علي بورقيبة الذي التقى به في باريس في فيفري 1937 والذي خصص له في 8 جوان عددا كاملا في جريدة « العمل التونسي » •

وفي الجزائر كان تاثيره خاصة على مصالي الحاج زعيم جمعية « نجم شمال افريقيا » منذ سنة 1927 ، والذي لازمه في جنيف مدة نفيه • وقد ساعد الامير شكيب ارسلان على إبعاده عن الحزب الشيوعي وتوجيهه لمقاومة مشروع « بلوم ـ فيوليت » حسب تعليمات اعطيت كذلك الى لجنة العمل المغربية والى الحزب الدستوري الجديد • وحاول بالعكس من ذلك تقريب الشقة بين « نجم شمال افريقيا » وبين العلماء الاصلاحيين الجزائريين •

اما في المغرب الاقصى فان شكيب ارسلان كان احد الموعزين بالحملة التي قامت ضد الظهير البربري • فقد ذهب اذاك الى طنجة ، فاطرد منها ، ثم الى تطوان عند الحاج عبد السلام بنونة ، واصبح مرشد اعضاء لجنة العمل المغربية ، واتخذ كاتبا له محمد الحسن الوزاني المثقف ثقافة غربية والمتخرج من مدرسة العلوم السياسية الحرة Ecole libre des sciences politiques، وهو كثير التحمس للتطور العصري • فحذرهم جميعا من الآمال التي علقوها سنة 1936 على «الواجهة الشعبية» (Front populaire) واثر عليهم لاستمالتهم الى « الجنرال فرانكو » مثل اخوانهم من المنطقة الاسبانية كعبد الخالق الطريس الذي تولى وزارة الاحباس والمكي الناصري الرباطي الاصل الذي ناضل عن فكرة وحدة المغرب المتحرر في جريدة « الوحدة المغربية » ، وكان الامير ايضا هو الذي كلف بالتحكيم في الخلاف الذي نشب بين نزعتي لجنة العمل المغربية السابقتين اثر انحلال هاته اللجنة سنة 1937 •

ولم يقتصر شكيب ارسلان على تشجيع الوطنيين المحليين ولم يكن لاحد ما كان له من عمل للمناداة بان الجزائر وتونس والمغرب الاقصى اجزاء من المجمع الاسلامي الذي تربطهم به وحدة الدين واللغة والثقافة • وكان المغرب، وهو المتمسك بالرجوع الى الاصل ، قد تعود بعد توجيه انظاره الى صورة الاسلام المتشفة الاولى • فقد تغلبت اللغة العربية على اللهجات المحلية وطولب بكل حزم بامتياز تعليمها وتفوقه ، واصبح البربري يفتخر بانتسابه الى الشعب العربي • وبنى الوطنيون نظرياتهم وطرق عملهم على مثال البلاد الشرقية • وهكذا وجدت مبادئ الوحدة العربية قابلية كبرى من ليبيا الى المغرب الاقصى •

ولقد اعلن « الميثاق العربي » الذي تمت المصادقة عليه في مؤتمر القدس سنة 1931 « وحدة البلاد العربية ، وحدة كاملة لا تتجزأ » • كما اعلن واجب

كل بلد عربي في العمل على تحقيق غاية واحدة هي الاستقلال التام والوحدة وضرورة مقاومة الاستعمار بجميع ما اوتي من قوى • فاصبح هذا الميثاق ملهم زعماء الاحزاب الوطنية في المغرب ورائدهم • ومن تامل في الاحداث مليا يستطيع افتراض ان الامير شكيب ارسلان هو الذى اكتشف الموقف المتين الخلق الذى اتخذته الاحزاب المغربية الوطنية قبيل الحرب العالمية الثانية للتوفيق بين ما تقتضيه تعهدات الميثاق العربي وضروريات العمل ، فليس من باب الصدف على ما نظن ان يقع الجزم من تونس الى فاس ، في نفس الوقت وبعبارات متشابهة ، بان الواجب يقضي بالسير نحو الاستقلال القومي بمساعدة فرنسا التي تكون بهاته الصورة قد وفت بما تقتضيه عبقريتها الخاصة ، فتضمن لنفسها صداقة لا تنفصم من قبل الشعوب المغربية المتحررة ولكن المرتبطة بها باواصر الاعتراف بالجميل والدفاع عن المصالح المشتركة • ذلك هو نفس الموقف الذى وقع الرجوع اليه وتوضيحه بكل قوة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية •

- غاية الوحدة المغربية :

ومثل ما حدث في الشرق ، فان الحدود السياسية كانت سببا في ابراز القومية التونسية وقومية المغرب الاقصى وفي بعث القومية الجزائرية • وقد اخذت الدعاية تمجد ذكرى الخليفة الموحدى عبد المؤمن ، « الموحد » الذى مسك بقبضته في القرن الثاني عشر كامل البلاد من برقة الى المحيط الاطلسي • فالمؤرخ الجزائرى المدني يقول : « كان عبد المؤمن وخلفه موحدين حقيقيين بكل ما في كلمة التوحيد من معان ، فوحدوا الدين بحصر العبادة في الله دون سواه ، ووحدوا الامة بجمع افريقيا الشمالية باكملها تحت سلطانهم ، ووحدوا المجتمع المغربي بتحجير جميع الكتب المنافية للسنة ، وامروا الشعب بالرجوع الى كتاب الله والسنة التي جمعها المهدى مؤسس بيت الموحدين في المجلة التي وضعها » •

ان هاته الغاية التي يمكن ان نعبر عنها « بالوحدة المغربية » قد حركت بعض المساعي الرامية الى تقريب هيئات البلاد الثلاثة الثقافية والسياسية الى بعضها ، سواء كان ذلك بفرنسا او بافريقيا الشمالية ، وهكذا جمعت جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا في بريس يوم 22 فيفري 1937 في مادبة يراسها شكيب ارسلان كلا من مصالي الحاج ، رئيس « نجم شمال افريقيا » ، والاستاذ الحبيب بورقيبة ، الامين العام للحزب الدستوري الجديد ومحمد الخلصي نائب لجنة العمل بالمغرب الاقصى •

ان مؤتمرات الطلبة المغاربة التي انعقدت قبل الحرب في تونس والجزائر وباريس ، ولم يرخص بعقدها في المغرب الاقصى ، عملت على نشر غايات الوحدة العربية والوحدة المغربية بايمان فعال . وقد اثر برنامج الاصلاحيين في مقررات المؤتمر الخامس المنعقد بتلمسان في سبتمبر 1930 ، فهي تتعلق خاصة بتعليم العربية وتوصي « بتوحيد التربية الصالحة » لايقاد الشعور بوحدتنا القومية بشمال افريقيا ، وحدة ترتكز على عقلية موحدة ودين واحد وشعور مشترك ، ولا يمكن لقائل ان يقول باننا نؤلف وحدة وهمية مصطنعة . كلا ! الف كلا ! فما عملنا هذا الا احياء لوحدة قديمة سجلها التاريخ وضمنها » .

والبرنامج الذي اعده عبد الخالق الطريس ، الزعيم الوطني للمنطقة الاسبانية من المغرب الاقصى للمؤتمر السادس الذي وقعت محاولة عقده بتطوان في اكتوبر 1936 ، كان يوصي فيما يوصي « بربط الصلة من جديد بين الاقطار الثلاثة تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، وربط الصلة بين هاته الاقطار وبين البلاد العربية والاسلامية . » وكان يبدو من الضروري لتحقيق هاته الغاية التوحيدية ، توحيد اقسام التعليم ، وتاليف « كتاب مشترك لدراسة التاريخ في الاقطار الثلاثة . وفي هذا المعنى حاول شاب وطني تونسي ، وهو محمد العيد الجباري ، تاسيس جمعية شباب شمال افريقيا سنة 1936 ، يتعهد اعضاؤها « بالاعتراف بشمال افريقيا وحدة لا تتجزأ ... كوطن واحد يجب على ابنائه تكوين جبهة واحدة للدفاع عنه » . ويجمع هذا النداء بغاية الحذق بين الجملة الشهيرة التي جاءت في دستور 1793 الفرنسي وبين طريقة الجبهة المشتركة المقتبسة فكرتها من الدعاية الشيوعية . فلم يقع تمازج طلبة شمال افريقيا المسلمين في ظل الجامع الاعظم بتونس فحسب ، ولكنه جرى ايضا على سطوح مقاهي الحي اللاتيني بباريس . فقد كانت باريس اكثر من غيرها البوتقة التي اندمجت فيها الوطنيات المغربية ، وباريس ايضا هي التي سعى فيها الطلبة عند اتصالهم بالاحزاب الديمقراطية والثورية ان يضعوا مذاهب جامعة تختلط فيها التقاليد المحلية بمطامع اروبية الشرب . فهم اعوان استعلامات لرفاقهم من وراء البحر ، يشعرون بما لهم من موهبة للقيادة بعد التحرير المقبل .

التضامن المغربي :

وقد ظهرت عزيمة التوحيد كذلك داخل الاحزاب الوطنية للاقطار الثلاثة .

فمنذ سنة 1936 وضع كل من جمعية « نجم شمال افريقيا » التي كانت تشتغل خاصة بالجزائر بالرغم من عنوانها ، والحزب الدستوري التونسي الجديد ، ولجنة العمل المغربية قواعد العمل المنسق . وربط الشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء الجزائريين الاتصالات مع حزبي الدستور اثناء سفراته الى تونس . وفي هذا المضمار ايضا كانت باريس هي التي التأمت فيها اهم الاجتماعات . وبمناسبة الاضراب العام الذي حدث بتونس في 20 نوفمبر 1937 بعنوان « التضامن مع ضحايا اضطهاد الواجهة الشعبية » في الجزائر والمغرب يقول الهادي نويرة : « ان كل حادث له نوع ما من الاهمية يقع في احدى اقطار شمال افريقيا الثلاثة ، يجد حالا في القطرين الاخرين انعكاسا فوريا ورد فعل تلقائي » . وكذلك دعا حزب الشعب الجزائري ، وارث « نجم شمال افريقيا » ، الى تشكيل « جبهة دفاع واحدة بين التونسيين والجزائريين والمراكشيين ضد الجبهة الاستعمارية » . وقبيل الحرب ، نجد الشيخ الهادي السنوسي ، مؤسس هيئة « الثقافة الاسلامية » بباريس يذكر الاعضاء المجتمعين في 4 فيفري 1939 بان ابناء شمال افريقيا ما هم الا من شعب واحد ، وبان الحدود الفاصلة بينهم ما هي الا حواجز مصطنعة .

انه من المجازفة ان نستنتج من النزعة الاستقلالية البربرية القديمة ان هاته المساعي التوحيدية مآلها الفشل . فقد كان البرابرة يوحدون المغرب بوسائلهم الخاصة في مناسبتين اثنتين : الاولى تحت امرة الاقليد «مسينيسة» في القرن الثاني قبل المسيح ، والثانية تحت ملوك صنهاجة . وقد قضي على هاتين التجربتين من قبل الامبراطورية الرومانية ومن قبل الزحف الهلالي . فاستنتج من ذلك انه لا سبيل الى نجاح مثل تلك المساعي . لكن الوطنيين المغاربة يرون ، بعكس ذلك ، انه بزوال الاستيلاء الاجنبي يتم القضاء على اهم الحواجز . فان غاية الوحدة المغربية يمكن ان تصبح مبدأ رئيسيا متينا يقدر على اثارة الجماهير والقضاء على حزازات الزعماء الشخصية . ولا يهم كثيرا ان الاتصالات لم يتيسر لها ان تجرى من وراء الحدود الا بين المثقفين والعلماء . فالشعوب تشعر عن طريق غرائزها الطبيعية باخوتها المتينة .

ان ظروف الكفاح التي فرضتها الاوضاع السياسية والادارية هي التي زادت الفوارق والميزات الخاصة بروزا واتضاحا فالاحزاب والهيئات الجزائرية والتونسية والمغربية اضطرت الى تنظيم نفسها على أساس قطري والى تقديم طلبات محلية خاصة بالرغم من عزمها على توحيد صفوفها والوطنية والوحدة

المغربية والوحدة العربية تتخلل بعضها بعضا بدون ان تتناقض ، وانما تختلف حركة وتفاعلا حسب البلد والزمان • فهي وجوه ثلاثة لشكل واحد تسعى كل حركة وطنية لحله على ضوء ظروفها المحلية الخاصة •

الباب الأول

معطيات المشكل

التقسيم الاداري :

مهما كان من أشكال للمعارضة التي تصادم الحضور الفرنسي فانها ترتكز على ارادة عامة واحدة هي تحقيق الاستقلال • بيد أن رد فرنسا للفعل لا يقع الا على جبهة مبعثرة بسبب تشعب الاوضاع بشمال افريقيا • فالظروف التاريخية حملت فرنسا على الحاق الجزائر ضمنيا سنة 1834 ، لكنها حملتها على ابقاء الباي الحسيني والسلطان العلوي سنة 1881 و 1912 مع اخضاع تونس والمغرب الاقصى الى نظام الحماية • فأصبح المغرب هكذا مقسما اداريا بين وزارتين تختلفان في أساليب عملهما ، وتجهل احداهما الاخرى : وزارة الداخلية التي تتبعها الجزائر ، ووزارة الشؤون الخارجية التي يرجع اليها الامر في كل من تونس والمغرب الاقصى • حتى لاحظ بعضهم سنة 1935 ان العلاقات كانت محكمة بين الهند الصينية وافريقيا الغربية الفرنسية التابعتين لوزارة المستعمرات أكثر منها بين قطرى المغرب الاقصى والجزائر اللذين يتعمد كل منهما جهل الآخر تماما •

وضعيـة الجـزائـر :

غداة احتلال مدينة الجزائر سنة 1830 ، رفض الجنرال « دوبرمون » مساعدة الموظفين الاتراك وكانوا لا يلتمسون سوى خدمته • فأصبح من الضرورى ارتجال ادارة كاملة بكلياتها وجزئياتها لتسيير شؤون جماهير من أهالي كنا نجهل عنهم كل شيء زيادة عن أقلية متصلبة من الاوروبيين • فكان نظام البلاد من صنع العسكريين وخاصة مكاتب الشؤون الاهلية التي كان دورها ذا مفعول مثمر جدا خصوصا في أول الامر • لكن المعمرين أجمعوا الرأى على « نظام السيف » الى ان انهار مع انكسار سنة 1870 • ثم بعد خيبة سياسة الالحاق التي كانت توزع المسؤوليات الادارية على شتى الوزارات الباريسية ،

حاولت الحكومة في أواخر القرن التاسع عشر تحرير الادارة الجزائرية عن السلطة المركزية • فمكنت الوالي العام من نفوذ فعلي ، وأحدثت مجالس نيابية لعموم البلاد ، ومنحت الجزائر الشخصية المدنية والاستقلال المالي • واستمرت البلاد على هذا النظام حتى الحرب العالمية الثانية • وصادف ذلك ازدهار الجزائر ، فارجع الفضل في هذا الازدهار الى ذلك النظام •

وتحتل الجزائر من اول الامر مكانة ممتازة بين الممتلكات الفرنسية • وكم امتد الجدال واحتدمت المناقشات في ما اذا كانت مستعمرة ام تعتبر مجرد امتداد لفرنسا • ومع انها منقسمة الى مقاطعات ، تنتخب كل واحدة منها نوابا في البرلمان الفرنسي ومجلس الشيوخ مثل فرنسا نفسها ، فان لها جهازا عاما خاصا بها • والصعوبة كانت في الظفر باللقب المواتي لها •

فيتخلص الحقوقيين من ذلك بان يقولوا : « هي خلقة خاصة بذاتها » •

فهل يكون لاهلها الحق في قانون ذاتي خاص بهم او مطابق تماما لما لاهل فرنسا ؟ ان الطبيعة الموروثة من العهد القديم ، الشديدة التمسك بالادماج واخضاع جميع الامور الى السلطة المركزية كانت تعمل على المطابقة • والمعمرون ، وحتى « ذوو القفاز الصفر » منهم ، لا يتصورون امكانية التقدم الا بتطبيق النظام الفرنسي ، اذا كان مما لا شك فيه ان القوانين الفرنسية تمكنهم من امتلاك الاراضي الاهلية بكل حرية ومن ابقاء المغلوب « تحت سيطرة عادلة » • فلا يتسنى للعربي ان يتمدن الا اذا تعلم اللغة الفرنسية وتطبع بالطباع الفرنسية بدون ان يكون له الحق طبعا في الطمع بامتيازات المعمرين•

ذلك هو المعنى الذي يفهمونه من ادماج الاهالي •

معمرو الجـــزائــر :

ان نظريات المعمرين ، الادماجية طورا ، والاستقلالية عن ام الوطن طورا آخر ، لا تخضع لمبادىء عامة ، وانما كانت تقودهـا المصالح • فقـد لاحظ « جونار » بعد ، في التقرير الذي وضعه عن ميزانية سنـة 1893 ، انهـم ما تحصلوا على الحريات والضمانات الادارية ، التي ما انفكوا يطالبون بها ، حتى راحوا يطلبون « ميزانية خاصة » ، واكثـر من ذلك ، نوعا مـا من برلمـان محلي » • فلم يكن للمعمر الفرنسي بالجزائر فكر سياسي ابدا ، فهو يحتـج ضد « البايليك » (beylik) كلما ظهر له منه مس بامتيازاتـه ، وان

كان يطالب بعنت بمؤازرته له في الساعات الحرجة ويرجع دائما تبعتها عليه فهو من خلقته البيولوجية معارض بكل تصميم وعنت لكل اصلاح في الميدان الاهلـــي ·

لقد اصدر رجل دولة لا تشوبـه مظنة المعارضة للاستعمار وهو « جـول فيطري » ، حكما معللا على عقلية المعمر الجزائري فقال : « تأملنا منه عن قرب، وفحصناه من خلال مظاهره الخاصة والعامة فوجدناه ضيق الافق · ولم تكن هاته الذهنية قطعـا لتسمح بتحكيم المعمر فـي مصير الاهالي ولو بنصيب يسير · فله من الخصال الشيء الكثير ، له جميع خصال العامل الحازم الوطني ولكـن ليس لـه مـا قـد نعبـر عنـه بخصال الغالـب مـن انصاف ذهنـي وعاطفي وذلك الشعور بحق الضعيف الذي لا يتنافى مع الحـزم في القيادة · فمن العسير اقناع المعمر الاوربي بوجود حقوق غير حقوقه فـي بلاد عربيـة وبان الاهلي ليس هو من جنس يسترق بدون حساب ولا عقاب ··· فالمعمرون يعلنون ، ما استطاعوا ، ان هذا الجنس (جنس المغلوب) غـير قابـل لاصلاح امره ولا للتربية ، وهم لم يحاولوا البتة ، منذ ثلاثين عاما ، انقاذه من التعاسة الفكرية والاخلاقية التي هو عليها · وما صيحة الفزع والاشمئزاز التي غمـرت عموم المستعمرة من اقصاها الى ادناها عندما اخذ البرلمـان الفرنسي عـلى عاتقه ان يضع مشروعا للمدارس الاهلية ، الا شاهد غريب على تلك الذهنية ، وهنا ايضا نبحث عن راي ينظـر للصالح العام ووجهـة نظر شاملة ، فلا نعثر للمعمرين على نظريات عامة فيما يخص السياسـة التي ينبغـي سلوكها نحو الاهالي · فهم لا يتصورون ازاء الثلاثة ملايين من الاهالي ، غير سياسة الضغط · وهم لا يفكرون ـ بدون شك في محقهم من الوجود ، ويذهبون الى التبري من نية دفعهم الى الصحاري ، الا انهم لا يهتمون بشكاويهم ولا بعددهم الذي اخذ على ما يظهر في النمو بقدر ما تفقروا · فالشعور بامكانية الخطر سائد ، لكن لا يتخذ اي تدبير لاتقائه » (1) ·

العنصرية الاجتماعية والسياسية :

ستين عاما بعد ذلك ياتي الجنرال « جورج كاترو » ، وهو الضابط السامي الذي دربته مهنته على الحقائق الواقعية الاهلية المغربيـة ، والذي اكتسب ـ على غرار التقاليد التي وضعها « ليوتي » فكرا نقادا لا يستسلم للتعصب ،

(1) ـ جول فيري ـ حكومة الجزائر ـ 1892 ـ ص : 80 ـ 82 ·

فيصدر على المعمرين الجزائريين احكاما تماثل تماما ما قاله فيهم « جول فيري » ويقول :

« ان هذا الفكر المحافظ الضيق « الذي تتصف به » الطبقات المالكة في ممتلكاتنا منذ عشرات السنين » (2) نتج من جهة عن شعور بالتفوق طالما اكدوه بكل وضوح ، ومن جهة اخرى على خوفهم من ان تكتسحهم موجة المسلمين المتصاعدة • ولم تتغير حججهم منذ عهد « ملكية جويلية » الفرنسية (1830)(La monarchie de Juillet) فالاهالي « قاصرون » خلقة ؛ فلا « يرضون ولا يمكن ان يساسوا الا بطريقة الشدة » • ولا تنفذ المبادىء الديمقراطية الى عقولهم ولا يستطيعون تطبيقها « لان مجتمعاتهم « لا تعرف » غير احد الامرين : اما النظام الاقطاعي ، واما الفوضى » (3) • الم يؤكد مجلس الجزائر الاعلى سنة 1898 ان « العربي من جنس منحط لا سبيل الى تأديبه ؟ لذلك كانت التدابير التي تقررها فرنسا لفائدتهم تحت تاثير رجال ينظرون الى المثل العليا او سياسيين لا يعرفون شيئا عن الشؤون الاهلية ، توصف باعمال جنونية تعرض بالامن في الجزائر • فالمساواة الجبائية بحذف الضرائب العربية Les impôts arabes والمساواة المدنية بحذف القانون الاهلي l'indigénat والمساواة الثقافية بتنمية التعليم ، كل هاته الاجراءات اصطدمت بمعارضات عنيدة •

وفي الواقع ، لئن عارض المعمر في تطبيق ما في التدابير المعمول بها في فرنسا من امور تصلح حال العربي ، فهو في نفس الوقت يؤيد نظرية اخضاع الملكية الاهلية الى التشريع الفرنسي الذي سنته قوانين سنتي 1873 و 1887 • ذلك لانها تمكنه مقابل مبالغ مالية زهيدة من اشتراء املاك مشاعة ، يطلب المعمر بيعها ، حسب القانون الفرنسي ، بمجرد ما يشتري حقوقا ضعيفة جدا في بعض الاحيان من شريك عربي في ملكيتها وبهاته الوسيلة اصبح المشاركون في الملكية يطالبون بدفع 11•000 فرنك كمصاريف للاجراءات بعد ان قبضوا 80 فرنكا • ولم تثر في الجزائر النتائج العملية لهذه السياسة الادماجية ما اثارته في فرنسا من سخط وغضب •

(2) ـ « كاترو » ـ داخل المعمعة ـ 1949 ـ ص : 432 •
(3) ـ العبارات من كتاب « كاترو » الآنف الذكر ـ وهي تنطبق على اراء المعمرين •

اليهود وأمر « كريميو »

لكن الميدان السياسي هو الذي يتجلى فيه التنافر بين الجانبين بصورة لا تترك مجالا للوفاق • فالاهالي ، مسلمون ويهود ، قد اعترف بهم قانون 1865 كفرنسيين مع بقائهم تحت مفعول قانونهم الشخصي الخاص ، واصبحوا رعايا فرنسيين بالنسبة للمواطنين الفرنسيين • ومنح امر « كريميو » (décret Cremieux) سنة 1870 جميع « الاهالي الاسرائيليين بمقاطعات الجزائر » صفة المواطن • فعارضه الراي العام ، ونسب له سبب ثورة القبائل البربرية التي اندلعت سنة 1871 وان لم تكن لها اية صلة به (*) وبلغت المعارضة درجة من الضغط على الحكومة حتى كاد « تيار » يبطله لو لم يكن في حاجة الى « الفونس دو روتشيلد » صاحب البنوك الشهير لمساعدته على قرض التحرير • وبقي الكثير من الفرنسيين بالجزائر يعتبرون الاسرائليين « من جنس منحط ، يتحملونهم في التجارة والصناعة ، وينظرون اليهم بدون اي سرور في المهن الحرة ، ويرمقونهم بشيء من الاشمئزاز والمهانة في ميدان التعليم » (4) وهنالك ميدان يرفضون قبولهم فيه بتاتا ، هو الميدان السياسي بتعلة تاثير مجالس الطائفة الدينية على دهماء اليهود • فاصبح العداء للعنصر الاسرائيلي مرتعا للدعاية الانتخابية ولم تجر المذابح العنصرية التي تعرض اليها الاسرائليون سنة 1897 الا بتواطئ ادبي من قسم عظيم من السكان • كما انتخب « دروغون » بفوز عظيم في عاصمة الجزائر سنة 1898 ، وهو مؤلف كتاب «فرنسا اليهودية» La France juive ، وينسب جميع الكوارث التي لحقت فرنسا الى عمل اليهود • وكذلك زعيم الحزب المضاد لليهود « ماكسيميليانو ريجيس » ، وهو حديث عهد بالجنسية الفرنسية ، اصبح شيخ مدينة الجزائر ، ولم يبلغ من العمر سوى الخمسة والعشرين ، مع مساعد له كان برنامجه ينحصر في لفظة : « يجب ان ينقرض جميعهم » • لكن هاته الحركة انهارت بمجرد ما قبض « فالداك روسو » على الامر بيد من حديد • ففشل اصحاب العنصرية ضد اليهود ، ويئسوا من الوصول الى الغاء امر « كريميو » فجنحوا « للتصالح » وقد دام ثلاثين سنة • لكن المفاوض كانت خادمة لا غير • فمثال هتلر والحقد

*) ـ لقد اقامت الدليل على ذلك اطروحة « كل • مارتان » : اليهود الجزائريون ص : 148ـ150
4) ـ « السكي » ـ « يهود الجزائر » ص : 49 •

على الواجهة الشعبية التي يقودها اليهودي « ليون بلوم » وعملا الحزب الاجتماعي الفرنسي .P. F. S والحزب الشعبي الفرنسي .P. P. F على القيام بدعاية شديدة الحماس ليس بين الاوروبيين فقط بل بين العرب ايضا • وهكذا شن « جاك دوريو » في نوفمبر 1983 حملة من عاصمة الجزائر تحت عنوان « الغاء قانون كريميو » كانت خاتمتها تحت حكومة « فيشي » التي انجزت تلك الغاية •

اما المسلمون فانهم عوض ان يغبطوا حالة الاسرائليين ، اوجسوا خيفة من صدور امر عام يشملهم فيمنحهم حق المواطن الفرنسي ، ويسحب عنهم حالتهم الشخصية • وكانت تلك احدى الحجج التي استغلها اصحاب الطرق للنداء بالجهاد في جبال القبائل (5) • لكن لم يفكر البتة في مشروع كهذا • وبقي للاهالي الحق في ان يطلبوا « منحهم حق المواطن » ، وهو ما عبر عنه « بالتجنيس » غلطا اذ انهم يعدون فرنسيين قانونيا ، وذلك بان يقدموا طلبا للادارة التي تتخذ قرارا في الموضوع وهي مخيرة فيه • وظلت المكاتب الادارية ابعد ما تكون على ان تسهل على المسلمين الحصول على حق المواطنة ، فعرقلته بانتظام • وان السيد الفاسي ـ وهو عضو هيئة التعليم وصاحب تاليف نقدي متزن عن حالة الجزائر عنوانه « ذكريات معلم جزائري من اصل اهلي » (6) وطبع سنة 1931 ـ قد روى لنا الصعوبات التي لقيها للتحصيل على صفة المواطن الفرنسي ، اذ يقول له موظف من الولاية العامة : « عجيب ! انت اهلي ، ولا يكفيك ذلك ؟ اتظن انه ليس هنالك ما يكفي من الفرنسيين •• ؟ » وبدخل قاسطون طمسون واميل مورينو سنة 1912 لان لا يقتبل وزير الداخلية الفرنسية وفدا من المنتخبين المسلمين قدموا عليه للمطالبة باصلاحات من شانها تعميم الحقوق الفرنسية • فهم يعيبون على الاهالي عدم مطالبتهم بصفة المواطن الفرنسي ويستعملون جميع الحيل حتى لا يتمكنوا منها : تلك هي السياسة التي دابت الادارة الجزائرية والمعمرون عليها •

اقصاء الاهالي عن السياسة

لزوم الانتظار بعد ذلك 54 سنة ليجعل قانون 1919 من المواطنة الفرنسية صفة لكل من يطلب الاعتراف له بها من المحاكم الابتدائية عند توفر بعض شروط

---

5) ـ « مارتان » الاسرائيليون من : 157 حسب شهادة القبطان « فيي » امام لجنة البحث •
6) ـ ص • الفاسي ـ الجزائر تحت رعاية فرنسا ضد الاقطاعية الجزائرية ص 1936 •

اهلية متسعة . لكن الاجراءات التي جعلت لذلك كانت مفشلة مملة من جهة ، ومن جهة اخرى لم تشجع الادارة الجزائرية على التحصيل على تلك الصفة بينما المعمرون اكثروا من انتقاد نتائجها . فقام سنة 1935 نائبان ماليان من الجزائر باشد الاحتجاج ضد الاغلبية الانتخابية التي احرز عليها المتجنسون في بعض بلديات القبائل مما يخل « بالتفرق الفرنسي » ، وطالبا بان ترجع تلك البلديات التي اصبح لها كامل النفوذ مثل بلديات فرنسا ، الى حالة البلديات المختلطة الخاضعة لسلطة الموظفين ، حتى تتحقق بذلك سيطرة الادارة والعنصر الاروبي . لقد قال الوالي العام «فيوليت» ذات يوم الى النواب الماليين: « حذاري ! فان اهالي الجزائر ليس لهم لحد الآن وطن نتيجة عملكم ، فهم يبحثون عن وطن ويطالبون بالوطن الفرنسي . فلتمكنوهم منه عاجلا ، والا كونوا لانفسكم وطنا آخر » . بيد ان الجزائريين يريدون الدخول في الوطن الفرنسي مع المحافظة على حالتهم الشخصية التي هي رمز مدنيتهم . لذلك لم يتجنس بالجنسية الفرنسية سوى 2500 شخص بين سنة 1865 وسنة 1934 ، اي بنسبة 34 في العام تقريبا . وفي ذلك خيبة كبرى تلقتها الادارة بقلب هادىء لا يبالي ، وقد سيطر عليها كبار المعمرين .

لقد منح قانون « كريميو » للاسرائليين الحق الانتخابي ، وجعل منهم قوى يخشى جانبها . وبالعكس من ذلك استمر اقصاء المسلمين عن الميدان السياسي . بيد انه منذ سنة 1866 سمح لهم بانتخاب نواب بلديين ، مكنوا بعد ذلك بعشر سنوات من المشاركة في انتخاب رئيس البلدية . وعندما صادق البرلمان الفرنسي سنة 1884 على قانون البلديات الهام تحصل المعمرون ، المطالبون بكل الحاح بقاعدة الادماج ، على تطبيقه في الجزائر . غير ان نوابهم في البرلمان استطاعوا ان يسحبوا من الاهالي حق المشاركة في انتخاب البلديات ، بدعوى ان رئيس البلدية ونوابه موظفون عموميون يمثلون الحكومة مباشرة وبصورة رسمية . فهم يتخذون بذلك نفس الحجة التي عارضت بها السلطة التنفيذية المجالس البلدية في فرنسا عندما كانوا يحتجون على تعيين السلطة المركزية لرئيس البلدية ، تلك الحجة التي استندت اليها فيما بعد حكومة « فيشي » للرجوع الى نفس الطريقة (7) . وينسون ان البلدية ، عندما تباشر جزءا من السيادة القومية ، تمثل في نفس الوقت

7) — ان النظرية التي سادت بفضل «جالة» العضو في مجلس الشيوخ قد نددها مستشار الحكومة في الجزائر « لوي رين » بقوة . يراجع « ازولاي » الحالة السياسية ص : 77 — 78 .

مصالح الاهالي ومصالح الفرنسيين • وفي نهاية الامر ، لم يكن للمسلمين الحق في ترسيم اسمائهم في جداول الناخبين البلديين بصورة مبدئية مثل المواطنين الفرنسيين ، بل كان عليهم ان يطلبوا ذلك الترسيم طلبا صريحا • وهكذا كان القانون الادماجي يدعم التفوق الفرنسي المطلق ، ويسجل في نفس الوقت رجوعا بالاهالي القهقرى • ولم تكن اذ ذاك حركة للوحدة العربية ولا حركة وطنية يدعى خطرهما او التخوف منهما بل كان هنالك مجرد دفاع غريزي عنصري ضد خطر بينت الايام انه وهمي بحت •

بيد انه ظهر في الجزائر وفي فرنسا رد فعل مزدوج ، كان مفعوله اقوى وانجع في باريس • فجميع التدابير التي من شانها تحديد حقوق الاهالي كانت تجد تاييدا من الراي العام الفرنسي بالجزائر ، مثلما تجد منه التدابير التي كانت لفائدة اليهود امتعاضا • ولا تختلف في ذلك احزاب اليسار عن احزاب اليمين الا بشدة اللهجة والحماس • فمثلا طالب الراديكاليون Les radicaux والماصونيون « Les Francs-maçons » في الجزائر بفسخ امر « كريميو » حتى جلبوا لانفسهم استنكار وتبرء الراديكاليين بفرنسا وكذلك محفل الشرق الكبير الماصوني بفرنسا Grand Orient • وكم اثارت مواقف السياسيين اليساريين في الجزائر تجاه المسائل الاهلية من تعجب الراي العام بفرنسا ! ذلك لجهله بان الاحزاب في شمال افريقيا تخضع للنزعات العاطفية بمثل ما تخضع للمبادىء ، وان اتخاذ عنوان سياسي لا ينجر عنه وجوبا اعتناق برنامج •

الحزب الاشتراكي

على ان الجزائر لم تخل من نفسيات ثورية ، وكثيرة العدد مع هذا • وقد برز مفعول عملها بكل جلاء عند انشاء بلدية عاصمة الجزائر وفروعها سنة 1870 • وكان غالب اعضائها فدرالي النزعة • فالحزب الاشتراكي الذي التقط انصاره الاولين من بينهم ، مال اول الامر لنظرية الحكم الذاتي الجزائري ، ولم يتخل عن هاته النظرية الا سنة 1912 ، فاصبح يقول بوجوب الادماج المطلق ، مطالبا بحذف الولاية العامة والهيئات النيابية المالية وبالحاق كل مقاطعة بوزارة الداخلية مباشرة •

لقد دفعت الحملات الصحافية القائمة في فرنسا الحزب الاشتراكي الى اتخاذ موقف في الشؤون الاهلية • فيقول جوراس « بانه يعتقد شخصيا في امكانية منح الحقوق السياسية دفعة واحدة لعموم العرب ، ولا ينتج عن ذلك

سوى توسيع دائرة اشعاع فرنسا الروحي وقوته بدون خطر » • ولئن تبدو هاته الوسيلة « جريئة » ، فليشرع في تنفيذها في الاقل على مراحل بمنح الحقوق السياسية لجميع قدماء العساكر ولاولئك القليلين الذين تلقوا في المدارس الفرنسية « ما يشبه زيارة اولى اداها اليهم فكر فرنسا النبيل » •

اما في الجزائر فان الحزب الاشتراكي ، بدون ان يذهب الى هذا الحد في المبادىء ، اتخذ موقفا كان مثار الدهشة محليا • فقد اعلن حزب العملة في المؤتمر الخامس المنعقد بقسنطينة سنة 1902 ان حالة الاهالي « يجب ان تسترعي اهتمام الطبقة الشغيلة الجزائرية التي من واجبها المحتم الذود عنها في كل مناسبة » لان « تقرير اي اصلاحات لا ترمي الى تمدن العربي وتحريره امر لا يجدي بل لا خير يرتجى من ورائه » • ومن البديهي ان المدنية المعنية لا يتصور ان تكون سوى تلك التي ياتي بها التكوين الفرنسي •

وقد وضح مؤتمر العفرون ، المنعقد عشر سنوات بعد ذلك ، ما يجب ان تكون الاصلاحات السياسية • فبعد ان اعترفت الجامعة الاشتراكية الجزائرية بضآلة النيابة الاهلية في المجالس الجزائرية ومضارها طالبت « بتوسيع دائرة الحق الانتخابي الاهلي ومنحه لجميع الرعايا الفرنسيين المسلمين المتحصلين على اجازات من الكليات والموظفين والمتقاعدين والتجار وارباب الصناعات ، وذلك ريثما يقع تعميم هذا الحق • كما طالبت بالمساواة في الحقوق بين جميع المنتخبين في المجالس الجزائرية سواء كانوا اهالي او اوروبيين » • وهذا موقف متقدم ، فيه جراة حقيقية بالنسبة لزمانه •

قانون 4 فيفري 1919

اما في باريس، فان جريدة « لوطان » ذات التاثير الواسع و « لاروفي انديجان » لصاحبها « بول بوردارى » وجمعية حقوق الرجل ، وبعض نواب برلمانيين امثال « البان روزى » وجورج لاق وهنري دوازي حملوا حملة شعواء من جهة ضد ما في القانون الاهلي من اجحاف ونظام البلديات المشتركة حيث يسيطر المتصرفون ، ومن جهة اخرى ضد ادماج الاهالي تدريجيا في جميع الميادين • ويعارض الاشتراكيون المعمرين بانه لا سبيل للاهالي مطلقا في ان يتحصلوا على تحسين جوهري لحالتهم الاقتصادية ما لم يمنحوا قبل ذلك تحريرهم السياسي • ولم يسجل التاريخ حملة لصالح الاهالي اشد من تلك الحملة حماسا واتساع نطاق • على ان الوعود التي قطعها « بوانكاري »

بشأن منح الاهالي تعويضات مقابل تحميلهم الخدمة العسكرية المفروضة عليهم من سنة 1912 ، والنداء الانذاري الملح الذي وجهه « كليمانصو » و « جورج لاف » الى رئيس الحكومة باسم لجنتي الشؤون الخارجية في 25 نوفمبر 1914 ، كل ذلك لم يسفر عن نتيجة ، نعم ، خفف قانون 15 جويلية 1914 من وطأة القانون الاهلي ، لكنه لم يغير النظام السياسي • ومع ذلك فقد اثار ذلك القانون ضجة من الاحتجاجات العنيفة في الصحافة الجزائرية •

واولا حزم « مريوس موتي » المتواصل وتاثير جول ستيق في مجلس الشيوخ وبالاخص لولا نفوذ « كليمانصو » في باريس و « جونار » في الجزائر ، لما اضطرت الحكومة لانجاز تعهداتها فان قانون 4 فيفري 1919 ، الذي يمكن اعتباره اهم قانون في التشريع الجزائري قبل نظام سنة 1947 ، لم يقتصر على تسهيل الدخول في المواطنة الفرنسية فحسب ، بل احدث او وفر حقوق الاهالي السياسية مع المحافظة على حالتهم الشخصية ، ففتح جميع المجالس البلدية في وجوههم بدون تقرير المساواة في العدد مع الفرنسيين، ولكن مع تشريك نواب الاهالي البلديين في انتخاب رئيس البلدية واعضاده• واصبح جميع الاهالي البالغين من العمر الخمسة والعشرين والمنتمين الى اصناف متسمة جدا مسجلين وجوبا في القائمات الانتخابية •

وبمجرد ما شاع خبر وضع المشروع المذكور ثارت ثائرة الراي العام الفرنسي بالجزائر ، معارضا بكل شدة لكل توسيع في الحقوق السياسية لفائدة الاهالي • مدعيا انه يترتب على ذلك انقلاب عظيم ينذر بتحطيم السيادة الفرنسية • وهكذا قامت المجالس العمالية والمجالس النيابية وقام البرلمانيون ما استطاعوا بالتشهير والانذار من الخطر القاتل الذي داهم الجزائر • وتوسط الحملة ولاة المقاطعات الثلاث • فهذا والي وهران يبشر بدخول « اشد العناصر الرجعية تعصبا في مجالسنا الجمهورية » وهذا والي قسنطينة يحذر من الرجوع « الى التطاحن بين الشيع والصفوف والى الاضطرابات الدامية والثورة » • وهذا والي عاصمة الجزائر يحذر من نشوب « بذور فتن خطيرة لاقصى حد بالنسبة لمستقبل مستعمرتنا عوضا عن الالفة والوئام اللذين طالما ظهرا جليا للعيان » • وحتى عميد كلية الحقوق « موران » ، الاختصاصي الماهر في التشريع الاسلامي ، خاض هو بدوره المعركة لاقامة الحجة على خور جميع الاصلاحات السياسية ما لم يتمكن الاهالي من تحسين حالهم بتحسين معرفتهم للغة الفرنسية ، وبتعودهم العمل وحبهم

له ، وبالتسامى » الى مبدا النظر الى المسائل من خلال المصالح المشتركة العامة غير المصالح العائلية او مصالح الصف » ، حتى يساهموا فى الحياة البلدية بواسطة البلديات المشتركة .

وقد اثارت مسالة انتخاب شيخ البلدية ابلغ حماس ، فمقرر الهيئات النيابية المالية يختم تقريره بقوله : « يستحيل على الاغلبية الفرنسية ان تقبل بحال ان تتغلب على ارادتها ارادة الاهالى الذين لم يقبلوا حق المواطنة الفرنسية » ، لان الاصلاحات المزمع اقرارها « ستجر اسوا النتائج على الامن العام » . وصرحت اللجنة على لسانه « بمعارضتها ، بجميع قواها ، لادخال جمهرة انتخابية اهلية فى الهيكل الانتخابى الاوروبى » . وبالرغم من جميع التدخلات وما استعمل من وسائل الضغط والترهيب فقد وافق البرلمان على ذلك القانون ، ولم تحصل اية كارثة من تلك التى سبق التهديد بها . وهكذا تبين خطا جميع الاختصاصيين فى السياسة والادارة والقانون ، وغلط جميع اولئك الذين عارضوا فيه « المشوشين من فرنسا » . ولم يتجاسر ولو واحد منهم بعد التجربة على طلب الرجوع فى تلك التدابير التى كانوا اعلنوا بانها جنونيـــة .

معــارضة الاصلاحـات

بيد ان ذلك لم يمنعهــم مــن الالتجاء الى نفس المــوقف واستعمــال نفس الوسائل بمناسبة مشروع بلوم ـ فيوليت ، وقــد نجحوا هاته المرة فــى احباطه . وبمناسبة الاحتفال الذهبى الذى اقيم لفيوليت فى جويلية 1952 ، اعترف « جاك شوفالييى » وهو من ابرز النواب البرلمانيين لعاصمة الجزائر ، بان ذلك الوزير السابق كان مصيبا فى مشروعه ، واشهد علنا عن الخطا الذى كان هو عليه . الا انه منذ بضعة ايام قبل ذلك الاحتفال ، حمل امام البرلمان على مشروع الحكومة الفرنسية الرامى الى ادخال اصلاحات بتونس ، كانت بالنسبة للظروف الراهنة اقل جسارة بكثير من التى جاءت فى مشروع بلوم ـ فيوليت عام 1936 ، بينما عــاد نائب برلمانى آخر من الجزائــر الى الاساليب العتيقة للثورة على فرنسا . فاعلن عزمه على تنظيم المقاومة بتكتيل الفرنسيين بشمال افريقيا .

فى كامل المغرب ، يجب ان تفرض الاصلاحات من باريس فرضا على جالية فرنسية شيمتها التقليدية الجفول . وبعبارة اوضح ، لا تفلح فى امر كهـذا

سوى حكومة تدرك تماما ماذا تريد ، وتخرق الركود البرلماني • فكليمانصو اجبر مجلسا برلمانيا رجعيا على المصادقة على قانون 1919 • ولو طلب ليون بلوم الاقتراع على الثقة فيه بمناسبة مشروع فيوليت لكان من العسير قلب حكومته ، خلافا لما كانت تخشاه حاشيته نظرا لمعارضة مجلس الشيوخ • ولربما كان النجاح يغير مجرى تاريخ شمال افريقيا اذ المأساة التي نعانيها منذ التحرير بخصوص المشاكل المغربية ، ناتجة عن عجز الحكومات عن تصور سياسة عامة تشمل جميع المشاكل عن تطبيقها فرضا اكثر منها عن خطورة الحالة •

التعليم والادماج

بقي ميدان آخر كان في ميسور سياسة ادماج الاهالي ان تعطي فيه نتائج عظيمة القيمة ، هو ميدان التعليم • ولا جدال في ان قانون 1888 اقتصر على نقل الالتزامات والبرامج المعمول بها في فرنسا بدون ملائمتها مع مقتضيات الوضع المحلي ، مما كان له في بعض الاحيان نتائج مضحكسة جعلت خصوم التعليم اللائكي يتخذون منها ضده حجة مطردة • فلحد اليوم (9) يتفكه بدرس الاملاء المعروف « بوخز ضمير » « فريديقونده » اثر مقتل « برونهو » • على انه في قضية الحال ليس محققا ان صغار البرابرة لا يتأثرون اكثر من التلامذة الفرنسيين من حدة التنافس القبلي الذي كان في « قولة » الفرنكية ، او انهم لا يقدرون اكثر منهم الاجراءات المعمول بها في قصاص « الرقبة » او « دين الراس » ، تلك الديون التي كان يطالب « الاسترازيون » les austrasiens « والنستريون » les Neustriens بدفعها من دم اي عضو من اعضاء العائلة المنافسة ، حسب مبادىء عدالة قريبة جدا مما هو عند القبائل • ثم من الغريب أن يجهل نص هاته الاملاء ترتيب تواريخ الحوادث الى حد جهله ان الملكة « فريديقنده » ، المتوفية خمس عشرة سنة تقريبا قبل ان يربط ابنها العجوز « برونهو » في ذيل حصانه لا يمكن ان يوخزها ضمير وهي في القبر • وفي صورة الحال ، فان هذا المثال ، مثل النوته التي اتخذت للاستهزاء بالتعليم الابتدائي ، قد اخذ من مجمع اساطير كثيرا ما استعملت ومحصت تمحيصا ، فصار حتى ذوو الفكر المستنير يستعملونها تقليديا مع ما فيها من سوء القصد دون أن يتثبتوا

9) — « ج • لامبار » دروس ••• ص : 243 — 244 •

من صحتها • لكن الامر الوحيد الذى يهمنا هو ان اولوية الثقافة الفرنسية كانت اذذاك مبدا مسلما به لا من الادارة فقط بل من جميع المعلمين تقريبا • فاشهر استاذ في التشريع الجزائرى « لارشى » يجزم بانه « لا سبيل انجع لفرنسا من التعليم الابتدائي لتخليص السكان المسلمين من الافكار المسبقة التى تحول بهم دون مدنيتنا والرفع مستواهم الادبى والثقافى » (10) •

وسرعان ما تبين ان الاهالى يطالبون بالمدارس حتى للبنات • واتخذت جمهرة من المعلمين الاهليين تشارك في تحمل هذا العبء الثقيل خاصة على الذين يعيشون بين العشائر (وهم كثيرون فى بلاد القبائل حيث تجد تاثير الإسلام اقل منه في غيرها من الجهات • مما أدى الى ان بلغ عدد الذين اعتنقوا حق المواطنة الفرنسية سنة 1934 مائة وعشرة من بين اربعمائة وخمسة معلم• وقد رسموا على جريدة جمعيتهم هذا العنوان : « بعيدون عن الاحزاب ، بعيدون عن العقائد ، في سبيل تطور الاهالى عن طريق الثقافة الفرنسية » • وكانت مجلتهم « لافوا دى زامبل » (صوت المساكين) جريئة حقا ، طرقت جميع المشاكل الجزائرية بكل تجرد منذ ثمانية عشر عاما باشراف معلمين بارزين مثل الفاسى وطهرات ولشانى • وتختلط فيها بصورة عجيبة نزعات فلسفية مختلفة ، من التى تنتمى الى النظريات التى لا تقر الا ما يقبله العقل الى التى تنتمى الى نظريات « كونت » الواقعية ، الى التى تنتمى الى نظريات « سورال » • وتقول المجلة في اكتوبر 1928 : « الحقيقة هى ان المسلم اذا بلغ درجة ما من الرقى ، اصبح من العسير عليه ان يبقى مؤمنا • فلا يعود يؤمن الا بدين واحد هو دين الانسانية الذى يامر بان كل الناس إخوة وانهم متضامنون مع بعضهم بعضا » • ولم يعتنق هذا المبدا النظرى الانسانى الا نفر قليل ، ومن المستحيل ضبط التاثير الذى كان له على الشباب •

ولم تترك هاته النظرية الادماجية فى ميدان التعليم مجالا فسيحا للتعليم العربى الا فى « المدارس » ، وهى مهتمة بتكوين موظفين لهيأة العدالة الاسلامية اكثر من اهتمامها بالثقافة • وقد جلب التعليم العالى الشباب العربى ، خاصة من متوسطى الحال الذين تحصلوا على اجازاتهم العليا ، متكبدين تضحيات جسيمة ، مخيرين كليات فرنسا عن كلية الجزائر حيث كانوا يجدون معاملات شاذة من اقرانهم وفي بعض الاحيان حتى من اساتذتهم•

---

10) ـ « لارشى » الكتاب الابتدائى ••• الجزء الاول ـ ص 623 •

اما رجوعهم الى الجزائر فيخبيء لهم مفاجآت مؤلمة ، فلا يجدون الصداقة المبنية على المساواة ، سر مدن فرنسا الخلاب • ولم تعد عائلاتهم تفهمهم ، ومن العسير ان يجدوا زوجة ترضي اذواقهم • أما الزوجات الفرنسيات اللاتي رجع بعضهم بهن ، فهن يتألمن اكثر منهم من التواضع المصطنع المحتقر الذي يعامل به اجهل الاروبيين ازواجهن وان كان قريب العهد بنزوله من « اليكانت » Alicante او « مرسى ماهون » Port Mahon او « ترابانى » •

عقليـة المتطـوريـن

وكم نسبوا لهم عقوقهم لفرنسا التي هم مدينون لها بتكوينهم الثقافي • ويابون التسليم بان تلك الثقافة هي التي جعلتهم يحسون بالظلم اكثر من غيرهم • فالمثقف « يلقى مثلا في الطـريق زميله فـي الليسي سابقا ، ابـن لباش آغا ، وكان آخر التلامذة في القسم ، وهو اليوم « قائد » ثرى ابن اخ لاحد « الاولياء » جاهل متعال ساخر ، يترقب ارث عمه على نغمات الرقص والمجون » • فيتأكد له ان قيمة الاشخاص الاجتماعية تخالف في الغالب وعلى نسبة تسعة من عشرة قيمتهم في المدرسة (11) • فالمثقف وان اصبح ذا مكانة اجتماعية ، يشعر بانه متضامن مع جميع ضحايا الاستعمار لانه يعتبر نفسه واحداً منهم • فيسعى بجميع ما اوتي من جهد للتشبث بالتقاليد الاسلامية التي ترتكز عليها شخصية اخوانه في الدين • من ذلك تعلقه بحالته الشخصية في حال ان له زوجة واحدة ولم يخطر بباله طلاقها قط ، ومن ذلك ذوده عن اللغة العربية التي لا يحسن في الغالب التكلم بها • وقـد كتب فـرحـات عباس (12) : « اقولها صراحة ان معلوماتي باللغة العربية ضئيلة مع الاسف، وتلك هي حال اغلبية رفاقي » •

نعم ، يقدر « المتطـورون » اللغة الفرنسيـة ، فجريـدة « لاريبوبليك الجيريان » (الجمهورية الجزائرية) لسان الاتحـاد الديموقراطـي للبيـان الجزائري ، مثل جريدة « ميسيون » (الرسالة) لسان الحزب الدستـوري الجديد ، ومثـل جريدة « الاستقـلال » ، الصادرة بالفرنسيـة ، تدل على انهم متشبعون بها ، عالمـون بجميـع دقائقها • وكم يتمنـى المرء لو كان

(11) — « ا • بارك » — المثقفون الجزائريون — ص 130 — يرجع هذا الحكم الى احد مديري الشؤون الاهلية ، وهو مع ذلك من ذوي الثقافة الواسعة •

(12) — « الشاب الجزائري » — 1930 — ص 89 •

الصحافيون الفرنسيون بالمغرب يكتبون بمثل قلمهم • وللمثقفين المسلمين تعلق خاص باساتذتهم السابقين الذين يمثلون لديهم « انبل ما في الروح الفرنسي ، وهم الذين من اجلهم تحب الجزائر الجديدة فرنسا » • غير ان ذلك كله لا يمنعهم من الشعور بالحسرة اذ « ان الاسلام يبقى هو عقيدتنا الطاهرة والايمان الذي جعل للحياة معنى ، ووطننا الروحي » •• الم يكن في فقدان الصلة بالعربية ضرب من الانفصال عن الاسلام الذي هي اداته •• ؟ لذلك كانت الحركة الوطنية ، المغذاة بدعاية العلماء المتخرجين من الازهر او الزيتونة والجاهل اغلبهم الفرنسية ، تضع تعليم العربية الاجباري في طليعة مطالبها •

لقد كان في ميسور الادارة ، عندما فصلت الشباب الاهلي عن قواعد كيانه اللغوية ، ان تبرر موقفها بنشر التعليم الابتدائي الفرنسي نشرا متسعا • لكن كل ما بذل من مجهود كان قليلا جدا • فالعميد « جانمار » كان يتذمر سنة 1898 من ان « الصغار بقوا بنسبة 97 في المائة أجانب عن لغتنا، بعيدين عن اي عمل تمديني » • والى قبيل الحرب العالمية الثانية لم تتحسن الحالة ، اذ من بين 1•150•000 طفل يتراوح سنهم بين السادسة والرابعة عشر كان 110•000 فقط يجدون مقاعد في المدارس ، وذلك بعد ما يزيد على قرن كامل من الاستعمار • ويعاني كل من تونس والمغرب الاقصى نفس الداء • ومهما تكن الجهود الفاضلة المبذولة اليوم ، فمن المشكوك فيه ان تسمح حتى إيواء الفائض السنوي للولايات في المدارس • وفي هذا الميدان تتجلى خيبة سياسة الادماج على الطريقة التي سلكتها وفيه اكبر مطعن لها • فقد تركت المجال فسيحا امام جمعية العلماء الجزائريين لتعديد المدارس القرآنية التي يريدون اخراج اساتذتها وبرامجها عن مراقبة الدولة • فمن المحقق انه لو بذلت الادارة المجهودات اللازمة في سبيل التعليم ، لكان لنزعة العروبة اقل حماس وشدة •

الوطنية وتشتت المجتمع

فالوطنية لم تظهر في الجزائر الا مؤخرا ، بعد الاحتلال بقرن تقريبا • ولم تكن الظروف مواتية لها مثل ما كانت مواتية في تونس والمغرب الاقصى • فالمجتمع في الجزائر كان مشتتا منذ قانون 1863 وقانون 1873 اللذين ، كما

قال « جول كامبون » خضعنا شوكة العشائر واعاذنا عنها بغبار من العباد وتطبيع بغير راع من اجل الملكية العقاريـــة ٠

لقد فقد اشراف السيف الكثير من هيبتهم ونفوذهم بانهيار ثرواتهم وانحطاط عائلاتهم وتزاحم الزوايا والمرابطين والانقلابات التى بعثرت سلم القيم الاجتماعية ٠ فالارسطوقراطيون المتكبرون في القرن السابق اصبحوا موظفين منقادين عن غير اقتناع ٠ ولم تعد طبقة الاسياد غير رسوم لعصر انقرض وافنى مواهبه ٠

اما برجوازية المدن ، الاندلسية الاصل او المختلط دمها بدم الاتراك (الكولغلية) ، فقد شاهدت ، اكثر مما وقع في تونس والمغرب الاقصى قيام برجوازية جديدة امامها ، تركبت في غالبها من النازحين عن بلاد « القبائل » وتخرجت من المدارس الفرنسية ، واختلطت بالجالية الاوروبية ٠ وكذلك نجد في عاصمة الجزائر وفي تلمسان وقسنطينة ووهران وعنابة بورجوازية صناعية وتجارية لها اضطلاع بالاساليب العصرية ، وينمو عددها ويزداد ٠ ان هاته الطبقة الصاعدة التي كانت تتألم من الحيف السياسي وعدم المساواة ، اقتصرت على المطالبة بالاصلاحات مدة من الزمن ٠ وعندما خابت آمالها اصبحت متاهلة لاعتناق الوطنية وتزويدها بالاطارات اللازمة ٠ على انه لا وجود بالجزائر لاى مدينة اسلامية كبرى مثل مدينة تونس او فـاس تستطيع ان تكون قطب التجمع ودليل الرأى العام الاسلامي ٠

اذا استثنينا الطبقة العمالية في المدن ، والمتحدة اتحادا متينا مع الطبقة العمالية الفرنسية داخل العمل النقابي ، فـان الاغلبية الساحقة للسواد الاهلي تتركب من دهماء الفلاحيـن والرعاة بين ابناء القرى الجبليـة ورحل ضعاف او متوسطي الحال يغلب عندهم عنصر الزرع على عنصر الرعى ٠ فمن نتائج الاستعمار الفرنسي الاستحواذ على خمسى الاراضى المحترثـة واخصبها ٠ ولما صادف انتزاع الملكية هذا تضخم عظيم في عدد السكـان اصبح عدد كبير من صغار المالكين عمال يومهم يتقاضون اجورا ضعيفـة ٠ وقد اثبت البحث الذى اجرى سنـة 1948 أن ستين في المائـة من العائلات البدوية في حالة « فقر مدقع كامل » بينما الادارة الجزائرية نفسهـا تضـع العمال الفلاحيين في صف الفقراء الاجتماعيين ومن اجل معارضة المعمرين لم يقع تطبيق قانون « مارتان » القاضي باخذ نصيب من الضيعات الكبـرى

التي ارتفعت قيمتها بسبب الري ، كما ان الادارة الجزائرية تخلت عن مشروع التعمير . فلا غرابة حينئذ اذا شاهدنا هجرة العملة الجزائريين ، خاصة من القبائل الى فرنسا . فقد كانوا خمسة الاف سنة 1912 ، فصاروا مائة الف سنة 1924 ، بالرغم من تشكيات اصحاب المشاريع والمعمرين الذين كانوا يخشون فقدان اليد العاملة ، وبالرغم من التدابير التي اتخذتها الولاية العامة بالجزائر لمضايقة تلك الهجرة مضايقة ابطلها مجلس الدولة بحكمه الصادر في سنة 1926 ، لما فيها من افراط في السلطة . ولما اطمانت الجزائر قبيل الحرب على سير عدد السكان المتصاعد ، مما يضمن وجود ذخيرة من اليد العاملة ، لم تعد تطالب بتنظيم تلك الهجرة . فلم يعد المشكل يهم الجزائر ، بل يشغل بال فرنسا .

واليوم تمتد ماساة البؤس الجزائري الى تراب فرنسا . فالعامل الجزائري المعينة له الاشغال العادية الخالية من الاختصاص ، المستثمر من الاعراف واصحاب الفنادق الذين تستعملهم الشرطة عوض ان يضع حدا لفضائح الغرف والفروش المسوخة باثمان مرهقة ، المحروم من فوائد الضمان الاجتماعي لعائلته الباقية بعده بالجزائر بالرغم من تحملة اعباء ذلك الضمان ، المضطر الى خصم نصيب من اجرته لتوجيهه الى اهله ، المؤوود الى مرض السل بطبيعة الحياة التى يعيشها ، ذلك العامل يشعر بعصبه عنصرية تغذيها الصحافة الكبرى الفرنسية . فهو دائما ذلك المشبوه فيه الذي ينعته الراي العام الى السلط والذي يقع ايقافه وايداعه السجن لاوهى القرائن ، خصوصا اذا كان منضويا تحت لواء كتلة وطنية . وهكذا يستدرج الامر الى « ذلك الفوز المخزي الذي يجعل من الجزائري » « سيدى » او « بيكو » (bicot) (13) ومن اختلافه عن الفرنسي ما يفزع منه ثقات القوم ، ومن وجوده بفرنسا مشكلة . وهي مشكلة لا يتصورون لها بالطبع حلا غير الحل البوليسي (14) .

---

13) – بمعنى جديا . (ملحوظة للمترجم) .

14) – م . موسكا و م . بوجو مبن الاجتمار الى العنصرية – ص 605 – تؤكد جريدة « لورور » (الفجر) فى 5 نوفمبر 1949 ان « العربي هو فى الحقيقة المطابقة للواقع اللص الذي يراقب المار المتاخر في زاوية من المنعرج ، فيضربه بالعصا ، ويختلس منه ساعته » . وهو يستثرى من السرقة والسوق السوداء (« لانترانزيجان » فى 17 سبتمبر 1948) . « اصبح اليوم من المستحيل ضمان حياة العملة الاجانب والمواطنين » (« لورور » فى 7 سبتمبر 1949) . ان ابناء شمال افريقيا يفسدون اثاث الفنادق بتكدسهم فى الغرف (« فرانس – ديمانش » (فرنسا يوم الأحد) فى 13 جوان 1948) . هم يقضمون ناموس

الفرنسيون الدخلاء والفرنسيون الاصليون

من جملة 725 ٠ 8٠681 ساكن بالجزائر – حسب احصائية 31 اكتوبر 1948 يبلغ عدد غير المسلمين 107٠960 ، منهم 120٠000 يهوديا غالبهم من اصل اهلي . ولئن كانت الجالية الاسبانية التي تعمر ثلثي ولاية وهران تحافظ اشد المحافظة على خصائصها الملية ، فاغلبية ابناء الاجانب يصيرون فرنسيين طبق قانون « التجنيس الآلي » الصادر في 26 جوان 1889 بمجرد ما يتنازلون عن جنسية ابائهم في السنة التي تتبع بلوغهم الرشد . وتبقى فرنسا دائما مجهولة لديهم في غالب الاحيان . فهم لا يعتبرون انفسهم اسبانا او اطاليين او فرنسيين بل جزائريين . ذلك ما يفتخر به « كاقايوس » مثل صغار باب الواد من عاصمة الجزائر .

ولا يختلف عنهم الفرنسيون الاصليون كثيرا ، بل اصبح الفرق بينهم يتضاءل مع الزمن . فهم يمرون من المدرسة او الكلية مباشرة الى الورشة او المكتب او المزرعة . ولا يغادر الطالب في جامعة الجزائر الوسط الذي يعيش فيه ، وهو يتزود من ثقافته بما يدعم ميوله الخاصة . وباستثناء صدف الحياة العسكرية او الاستجمامات القصيرة في اوساط مدن الميدان المعدنية تلك الاوساط المصطنعة ، فان فرنسي الجزائر لا يعيش الا في بيئته بين اناس يفكرون مثله ، ويشعرون مثله بنفس الاحاسيس وبنفس الاحقاد البدائية . ومع ذلك فهو شجاع وجندي باهر يخوض المعامع بتضحية كاملة في سبيل وطن يعرفه معرفة سطحية ويحبه قليلا . « فالوطنية عنده انعكاس لا شعوري الغريزة البدائية » (15)

فرنسيو فرنسا وفرنسيو الجزائر

اما « فرنسيو فرنسا » الذين طالما اشاد الاهالي بذكرهم ، فان فرنسي الجزائر ينظرون اليهم بشيء من الاحتقار ، كقوم متاخرين لا يدركون الحياة

الاتحاد الفرنسي (« لوفيقارو » في 15 ابريل 1948) . هم يجرون خطر الموت مثل عملة معامل الذكير بعدم مبالاتهم بالامور واستهلاكهم للكفر (« باري ـ بريس » – (صحافة باريس) في 19 ماي 19 49) . اصبحوا لا يطيقون مراقبة البوليس الخاص (« لوفيقارو » في 22 سبتمبر 1949) . مثل فرقة البوليس الشمال الافريقي الذي ليست لديه ثلاثون الف بطاقة استعلامات فقط ، بل له « غاية اجتماعية » (جريدة « لوماتان » في 7 ماي 1948) . ينبغي طرد وارجاع الذين لا يملكون شغلا معينا والقضاء على العناصر المشكوك فيها والمشوشة بالنفي والسجن والموت (« لوروور » في 16 سبتمبر 1949) . تلك هي خلاصة الامثلة التي اقتبسها « بربو » في المقال المذكور آنفا .

15) – جنرال « كاترو » – في المعركة – ص : 433 .

العصرية . فهم اولائك « الفرنكاويون » الذين يتحدث عنهم كما لو كانوا اجانب .. فاثناء جلسة للهيئات النيابية المالية les délégations financières بينما كان « فيوليت » يحاول اقناع « قوم اظهروا عدم تفهم كلي » بضرورة القيام بعمل لمصلحة الاهالي ، اجابه بعض النواب : « ياسيدي الوالي العام ، انك تفكر تفكير فرنسي من فرنسا ، لكن نحن نفكر تفكير فرنسيين من الجزائر » (16) واذا لمح المعمر « برنسا » في شوارع باريس فهو يسرع اليه . فتسقط عند ذلك النفرة المحلية . ويشعر فرنسي الجزائر بانه اقرب للعربي في تصوره للحياة منه لمواطنيه ، وكم اصبحوا بعيدين عنه . وقد انقطعت الصلات التي كان المهاجرون الاولون من فرنسا يحافظون عليها .

وفرنسيو الجزائر هم في الغالب اهل مدن ، يشغلون مناصب ذات مسؤوليات . وهم مقتنعون بانهم لم يخلقوا الا ليشغلوها . فهم « قبل كل شيء مخاليق يخضعون لدوافع الغريزة اكثر مما يخضعون لاستنتاجات العقل ولتاثير المثل العليا . فقد بقوا بالوراثة على ما كان عليه اباؤهم عندما انتصبوا بافريقيا بناة ورجال عمل ومنقطعين . وهم مع هذا يواصلون مشاريع ذات صبغة ومنافع شخصية بكد عجيب ونجاح باهر . فلهاته الاسباب يؤلفون مجموعة شخصيات اكثر مما يكونون مجتمعا له اطار ونظام مرتكز على جملة من المبادى والتقاليد . فلا يجتمعون الا للدفاع عن مصالحهم ، غير ان هاته المصالح هي مصالح طبقة لا تتفق دائما مع مصالح فرنسا . ولهؤلاء الرجال حسن استعداد في الواقع ، وقد غير كدهم المتواصل الاراضي الافريقية القاحلة الى اراضي خصبة . وينقصهم مع الشعور بالقيم الادبية ، ان يتصوروا العلاقات بين البشر ، وبالتبعية المشكلة الجزائرية ، على قواعد اقل مادية وانانية ، ينقصهم المحرك النبيل المتولد عن ثقافة مجردة من الاغراض ، وتذوق الافكار التي اصبح فقدانها يتضاعف عندهم بمرور السنين وتزايد الثراء » (17) .

استعمار ذو نزعة فردية ميال الى الشدة والباس

فرنسيو الجزائر هؤلاء – والكثير منهم عجيب بديع – يجمعون من ابسطهم الى اكثرهم تطورا ، عدا قلة محترمة ، على اليقين باضمحلال الجزائر لو لم يبق

(16) – « جورنال اوفيسيال » – (الجريدة الرسمية) – غرة مارس 1946 ، ص 507 – (تصريح لفيوليت) .

(17) – « كاترو » – الكاتب المذكور آنفا – ص : 433 .

اهاليها واضحين لسيطرة شديدة • ولربما يفضلون المطالبة بالحكم الذاتي وانفصالهم عن فرنسا ، على الخضوع لاضغـات احلام ام الوطـن •• ذلك لان الاخطار تحدق بهم • وعدد الاهالي الجزائريين الذى كان أربعة ملايين سنـة 1901 ، فقارب الثمانية ملايين سنة 1951 ، تضاعف في مدة نصف قـرن • وفي ذلك في الواقع اكبر حجة يعارض بها الاستعمار الطاعنين فيـه • فـلا جدال في أن الامن الفرنسي والوقاية الصحية كان لهما تاثير حاسم اذ أنزلا نسبة الوفايات من العشرين الى الحادية عشر في الالف في بحر ثلاثين سنة • غير ان المسالة متشعبة أكثر مما تلوح لاول وهلة • والا فكيف نفسر حالة مصر التي يشهر المعمرون – عن صواب – بالبؤس الاجتماعـي فيهـا بينمـا يتزايد تضخم عدد السكان فيها أكثر مما في الجزائر ؟ ان اضعف المجتمعات حالا اكثرها نسلا ، والعله ليس من علامات الخصب والثراء ان يزاحم خصب التناسل عند الاهالي الجزائريين خصبه عند البولونيين واليابانيين • واثنـاء الثلاثين سنة التى ارتفعت فيها نسبة الولادات عند المسلمين بالجزائر من 24 الى 30 في الالف ، نزلت تلك النسبة من 26 الى 22 في الالف عند الاوروبيين المتمتعين بنفس الامن ووقاية صحية احسن ، وذلك من غير شك لان ظروف الحياة عندهم احسن وارقى •

لقد تمتع المعمرون الجزائريون بقرن كامل من الهناء السياسي • وبـلغ سلطانهم اوجه في بحر الاربعين سنة الاولى للقرن العشرين • فلم يكن خاليا من العظمة • وكان مجلس النيابات المالية معقلهم الذى تحصنوا به وسيطـر على البلاد بين سنة 1898 وسنة 1945 • فهـذا المجلس الـذى يصادق عـلى الميزانية الخاصة بالجزائر كان يمثل لا الاشخاص بـل « مصالح » حـتى فـي اغلبها مصالح كبار مالكي الارض • فقسم الاربعـة وعشرين معمـرا يجمـع وراءه 12•512 صوتا وهو بالطبع منسجم ، ولكن من الاربعة وعشرين نائبا غير المعمرين والممثلين لـ 38•593 صوتا ، ومن السبعة عشر عربيا والسبعة من القبائل ، العديد يملكون اقطاعيات شاسعة ، ولا يختلفون كثيرا عـن الاولين • فهؤلاء المختصون المنتخبون من قبل هيئات انتخابية محدودة ، لم يكونوا اولئك المحترفـين للسياسة الخالـين مـن الضميـر ، كما شهر بهـم خصومهم • فهم يعملون لخير « مصالح » الجزائر الممتزجة بمصالحهم • وكـان عملهم المادى اضخم بكثير من عملهم الاجتماعي ، وهم يفتخرون به بحق ، ولكن ينقصهم « ذلك البصيص من الحب » الذى يعتبره ليوتي ضروريا • فلانه كانت لهم نزعة فردية ، ولم يهتدوا الى فهم الانفعالات الجماعية ، ولم يروا فيها غير

عمل من تاثير المحركين • ولانه كانت لهم ميول واقعية ، فقد اعوزتهم ، فى غالب الاحيان ، حاسية الشعور الانسانى ، فاعتقدوا فى امكانية اسعاد البشر بمجرد تجهيز الطرقات والسدود والهاتف • ولانهم كانوا ميالين الى الشدة والباس ، لم يهتدوا الى مسايرة حساسية عواطف « المتطورين » ولا الى تبوئهم مقاعد فى المجتمع • فلما اخذت المعارضة المطالبة ثوبا قوميا لم يكونوا متاهلين لا لتفهمها ولا لمصالحتها حتى يخففوا وطاتها ومفعولها •

نظام الحماية

فى تونس والمغرب الاقصى تسيطر على الوضع مشكلة العمل بنظام الحماية • فهذا النظام ، الذى وضعته فى 8 جوان 1883 اتفاقية المرسى التى ذكرت لفظة « الحماية » لاول مرة لم يتولد عن رغبة فى تمكين التونسيين اكثر استقلال مما لشعوب المستعمرات ، بل عن داعى تجنب مضاعفات دولية • وعلاوة على ذلك صادف ميولا كانت سائدة فى العشرة سنين الاخيرة للامبراطورية الفرنسية الثانية • وكان يغلب على الظن اذذاك عند غالب الناس ان هذا الوضع ما هو الا صيغة موقتة تمكن ، بدون ادنى مصادمة ، من الالحاق النهائى الذى كان البرلمانيون الفرنسيون من الجزائر يطالبون به بكل الحاح • لكنه ما لبث ان ارضت مرونته الجميع وخاصة الموظفين بوزارة الخارجية الفرنسية الذين هم من وزارة لا تباشر الادارة ، فاصبحوا فرحين بنظام يضمن لهم فضل العمل ومزيته عند النجاح ، ولا يعرض بهم الا لاضعف ما يمكن من المسؤولية عند الخيبة (18) وقد امتد نفس النظام الى المغرب الاقصى مع تعديلات جديدة فى معاهدة فاس فى 30 مارس 1912 •

لقد ابقت الحماية على الاسرتين المالكتين الوراثيتين الحسينية والعلوية ففى تونس لا يورث العرش من الاب الى الابن الاكبر ، بل ان اكبر العائلة سنا على العموم هو الذى يخلف الملك على العرش • ويحمل الوارث للعرش لقب « باى الامحال » • اما فى المغرب الاقصى فينبغى ان يكون السلطان منتخبا من قبل علماء فاس الممثلين مبدئيا لعموم المجتمع الاسلامى ، على ان شرعية تستوجب ان يكون سليل قبيلة قريش التى منها محمد ولا يتوفر هذا الشرط الا فى الفرع العلوى المنحدر من ابنة رسول الله

---

18) – « ميليو » النظام الفرنسى – 1932 – ص : 644 •

فاطمة ومن علي وابنهما الحسن ومنذ تولى مولاى عبد الرحمان سنة 1822 ظل مجلس التنصيب يصادق دائما على التعيين الصادر عن الجالس على العرش قبل وفاته .

المقيمون العامـــون الولاة

لقد عانت العـائلات المالكة الاسلامية ازمات متكـررة لفقـدان قوانيـن وراثية واحدة يرضخ لها الجميع ، وخاصة لفقدان مبدا الوراثة من الاب الى الابن (19) ويشعر ملوك المغرب بهذا الخلل ، ويرغبون في اصلاحه باقرار مبدا الوراثـة المباشرة . وقد اثار المشكلـة احمد باى لفائدة ابنه الطيب سنة 1934 . فالمكانة التي يحتلها اليوم الامير الشاذلي برضى والده وهـو رئيس ديوانه السياسي ، تجعل منه الوارث المعين فـي نظر الراى العـام الذى صار يجهل حتى اسم باى الامحال . ومن المتوقع في تونس ان يكون اول عمل يقوم به برلمان تونسي هو تعويض قاعدة الوراثة من الاكبر الـى الاكبر سنا بقاعدة الوراثة المباشرة من الاب الى الابن (20) اما في المغرب الاقصى فان الاستمرار الذى داب عليه السلطان في تشريـك ابنـه الاكبر مولاى الحسن في الحياة العامة ، حتى صار المغاربة يطلقون عليه ولي العهد، لا يجعل ريبا في نواياه . غير ان المقيمين العامين معارضون كل المعارضة في اصلاحات تحـد من تدخلاتهم فـي شؤون العائلات المالكة . ان الطريقة الارث في الملك بتونس علـى قاعدة الاكبر فالاكبر سنا مزيـة تولية بايات اثقلهم السن ، فغدوا لا يميلون كثيرا الى المجازفات . ولا يمتنع المقيمون العامون ، كما فعل « بول كامبون » عند تولى علي باى (21) سنة 1882 ، من اشعار البايات ، بكل لطف واحتشام ، بانهم هم الذين يولونهم الملك . وقد يستعمل التظاهر بتاييد باى الامحال كوسيلة ضغط على الملك . وبهـذا المعنى فسر الراى العام التونسي حضور عز الدين باى بجانب المقيم « جان دو هوتكلوك » فـي احتفالات 14 جويلية 1952 عندمـا امتنع الامين باى من حضورها . واثناء الحوار التاريخي مع سيدى محمد بن يوسف في 26 جانفي

(19) ـ « بوسكي » : الاسلام المغربي .
(20) ـ جريدة « لوموند » ـ (العالم) ـ 24 جانفي 1952 .
(21) ـ جاء في النص الفرنسي ان المعنى بالامر هو « محمد الصادق على » والصواب ما اثبتناه . (ملحوظة للمترجم) .

1951 بالرباط » لم يترك الجنرال « جوان » للملك شكا في الخطر الذى يهدد عرشه ان رفض طلباته » واخذت اذ ذاك الصحافة تتداول موضوع خلع السلطان واختيار خلف له من لدن السلط الفرنسية كأنه امر طبيعي وهكذا تلى مكتوب « لبول ايتيان فلاندان » في مؤتمر الحزب الجمهوري الاشتراكي المنعقد في 30 جانفي يقول فيه : « نحن الذين ولينا السلطان ، هل ينبغي لنا الآن خلعه ؟ ان لدينا الوسيلة العملية لذلك ، لانه يمكن خلع السلطان من قبل العلماء » وفي ذلك اعتراف غير حقي بان مجلس التنصيب في فاس يجب ان يكون تحت امر الاقامة العامة « ان اقران ملوكيات دستورية في المغرب قد يجر ، على ما يظهر ، تغييرا في طريقة الارث ، الا انه ما من شك في انه ما دامت وزارة الخارجية الفرنسية تدير سياسة الحمايات ، فانها ستبقى محافظة على الموقف الذى اكده المقيم مارسال بيروطون سنة 1934 ، وهو انه لا يمكن بحال ادخال اى تغيير على الوضع الراهن » .

الملوكيتان

ان للباى والسلطان ، كملكين مسلمين ، السلطة المطلقة بدون تعقيب على اساس الحكم الاستبدادى الفردى المستمد نفوذه من الدين . فكل منهما امام الائمة بالنسبة لرعاياه ، وباسمه تقام الصلاة ، وهو حامي الدين ، فيجب عليه الحرص على ان يكون المجتمع محافظا على ما يفرضه الدين ، ولئن كان تاويل الشريعة من خصائص العلماء ، فهما المشرعان في جميع المسائل التى لم يتعرض لها المشرع ، وهما اللذان يرجع اليهما هذا الحق ، فيتصرفان فيه عن طريق الاوامر العلية او الظواهير ، وهما صاحبا السلطة التنفيذية ورئيسا العدلية وقاضيا القضاة . ان هذه السلطات التى تمارس ، حسب فقه التشريع الشرقى ، لا على اساس ترابى بل على اساس دينى ، لم تكن تمتد على كامل التراب التونسي ولا المغربى ، قبل ان يخضع نظام الحماية القبائل والعروش . وحالة السلطة المائعة هاته ، التى نعتها بالفوضى بعض المشرعين والسياسيين المتشبعين بالمقاييس الغربية للسلطان ، تظهر طبيعية جدا لزملائهم في تونس وفاس . ومن المظنون ان بنود معاهدة قصر السعيد ، التى رتبت العلاقات بين تونس وفرنسا والتى تولد عنها نظام الحماية ، لم يقع تاويلها على قواعد مبدئية واحدة من قبل محرريها ومن قبل الذين فرضت عليهم ، اذ كان لكلا الطرفين تصورات خاصة للقانون العام لا تتفق مع تصورات الطرف الآخر .

في الواقع لا نجد للملوكية التونسية والملوكية المغربية طابعا واحدا ، نعم ،

يدعم ملك الايالة العثمانية سابقا سلطانه بحمله لقب باشا باي صاحب المملكة التونسية ، لكنه ليس الا حفيدا لاغا صبايحية ، من اصل تركي • وحتى انتصاب الحماية كان البلاط عامرا برعايا الدولة العثمانية القادمين من الاناضول والبانيا واليونان ، اولئك « المماليك » الذين لم يكن العرب الاقحاح يرغبون في الاختلاط بهم كثيرا • فلا يمكن ان يقاس ولاء التونسيين للعائلة الحسينية بالاجلال الذي يكنه المغاربة للعلويين آل رسول الله • فشرف النسب هو الذي جعل للسلاطين قداسة دينية لا تنكرها حتى القبائل الثائرة عليهم • ومن البركة المنحدرة اليهم من الاربعين وليا الذين يحلقون كل صباح فوق رؤوسهم تحصل رفاهية البلاد ويحصل خصبها • لذلك كان كل اعتداء تلحقه بهم سلطة اجنبية يكتسي صبغة التعدي على الدين، فيكون له صدى خطير حتى على البربر • ولم يكن في العائلة الحسينية ملوك ذوو تاثير عظيم كمولاي اسماعيل (1672 – 1727) ومولاى عبد الرحمان (1822 – 1859) ومولاى الحسن (1873 – 1894) • ولم تكن البلاد التونسية قوية الدعائم مثل المغرب الاقصى •

باي تونس

ولهذا اليوم نجد الفرق واضحا بين الملوكيتين • فالامين باشا باي كانت بداية ملكه صعبة • فقد كان في سن الاربعة والستين عندما خلع الجنرال جوان المنصف باي سنة 1943 • فاعتبره رعاياه غير شرعي طيلة اربعة اعوام ، ليبرهنوا جهلا اتباعهم لمهانته • ولئن لم ترجع اليه وفاة المنصف باي سنة 1948 الهيبة فقد ارجعت اليه على الاقل الشرعية ، واعترف له بها الحزب الدستوري ، فجلب بذلك حوله الوطنيين • ان صموده اوت 1952 قد جلبا اليه سمعة ومحبة شعبية تعزز ثمنها لديه ذكرى سنين المحنة السالفة • فاصبح « الملك الديموقراطي » عند شعبه • ولئن كان يقوم باعباء وظيفته الملكية بكل اباء وشرف فان بعض افراد اسرته برزت شخصيتهم اكثر : فابنه الاكبر الامير الشاذلي ، البالغ من العمر الواحد والاربعين ، لا يخفي ميله الى الدستور الجديد وعطفه عليه ، ويتخذ علنا مواقف سياسية تجلب له عطفا كبيرا • وابنته بالخصوص الاميرة زكية ، زوجة الحكيم ابن سالم احد اعضاء وزارة شنيق • وحلية قصر حمام الانف بجمالها وذكائها ، قد اكتسبت اوسمة الوطنية من يوم اتهامها في ماى 1952 بانها تمد بالمال « لجنة مقاومة » تقوم بعمل ارهابي • ان غالب الحسينيين ، وهم اقارب الباى ويعدون

المائة تقريبا ، يجبرهم مقامهم السامي على البطالة • وهم يعيشون في ضواحي مدينة تونس على حساب ميزانية « الدائرة السنية » الضعيفة القدر او من ابواب ارتزاق خفية في الغالب • ولا يخفى زعماء الدستور انهم يفضلون ان يشارك افراد العائلة في الحياة الاجتماعية باتخاذ وظائف معلومة • اما رجال الساعة الحقيقيون فهم الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الدستوري الجديد منذ تاسيسه سنة 1934 ، وعضده صالح بن يوسف ، الامين العام للحزب والماسك لشبكة الاطارات ، واليوم اصبح فرحات حشاد الامين العام للاتحاد العام التونسي للشغل •

سلطان المغرب الاقصى

لقد ارتقى السلطان محمد بن يوسف ، المولود في سنة 1902 ، على العرش وهو في الثامنة عشر من العمر • ونظرا لانه قضى شبابه تحت نظام الحماية مال « ستيق » المقيم العام اذذاك الى تعيينه من قبل العلماء دون اخوته الاكبر منه سنا ، معتقدا انه سيكون سهل الانقياد ، فارتكب في ذلك غلطا فادحا • فلصغر سنه كان السلطان يشاطر المطامح الجديدة ، وابى ان يقنع بدور صوري ، مثلما اتضح ذلك لمطلع خبير منذ سنة 1934 (22) وبالفعل اخذ سيدي محمد بن يوسف يثبت شخصيته سنة بعد سنة • فهو ذو ثقافة اسلامية متينة ، ويتكلم الفرنسية جيدا ، لكنه لا يستعمل الا العربية في المواكب الرسمية ، واظهر ادراكا سياسيا متسعا جدا •

وهو كثير التدين ، ميال الى التامل ، ذو منطق ممتاز ، كثير الولع بالتقدم العلمي حتى انه اظهر لروزفيلت تاسفه من ان بلاده لم تنجب عددا اكبر من المهندسين والاخصائيين (23) ويحب الرياضة ، خصوصا ركوب الخيل ، ويواظب عليها • وهو ولوع بالبناء والتعمير مثل جده مولاى اسماعيل • ويقال انه « اصبح اكبر مالك في سلطنته في بحر اثنى عشر عاما » (24) غير انه متعلق اكثر من كل شيء بتعليم الجماهير المغربية • ويعتبر بدون شك انه على الملك العصري ، الذي يريد معارضة الضغط الغربي ، ان يكون متشبعا بالثقافة الاروبية • لذلك نراه يطلب من ابنائه ان يتعلموا تعليما صحيحا • فابنه الاكبر مولاى الحسن المولود في 9 جويلية 1924 يزاول اعداد

---

(22) — الجنرال « كاترو » — في المعركة — ص : 431 •
(23) — « اليوت روزفيلت » — قال لي ابي — ص : 140 •
(24) — « مونتاني » — افاق مغربية — 1951 — ص 268 •

الدكتوراه في الحقوق ، وهو محبوب كثيرا عند الشباب المغربي ، شغوف بالسياسة ، تتهمه ادارة الحماية بتشجيع حزب الاستقلال ، بينما يعتبره بعض المغاربة اقل تصلبا من ابيه . ويزاول الآن اخوه مولاي عبد الله المولود سنة 1935 تعليمه بالمدرسة السلطانية بالرباط باشراف اساتذة فرنسيين ومغاربة . اما للا عائشة ، اكبر بنات السلطان الثلاث ، فانها احرزت على شهادة البكالوريا في جوان 1952 ، وهي تعمل منذ سنين على تحرير المرأة المغربية ، وينشر حزب الاستقلال صورتها بنشريات الدعاية في حالة القائها الخطاب امام المصدع ، وهي تدعو المغربيات اللاتي « طالما بقين في معزل عن الحياة » الى الحصول على « تكوين تقليدي وعصري في آن واحد » . وهي لم تكتف بتنحية الحجاب واتخاذ الازياء الباريسية ، بل غدت تتجول بكل حرية بين الناس ، وتتعاطى الالعاب الرياضية . ومن الطبيعي ان سلوكا كهذا في بلد تسعة اعشار من نساء مدنه لا يخرجن الا مرتديات الحجاب ويعشن في معزل عن العالم ، يحدث دهشة اصحاب العمائم والمحافظين ، غير ان طابعه الثوري يثير حماس الشباب . واخوات للا عائشة تقتفين اثرها . لقد اصبحت العائلة السلطانية ، بتمسكها بتراث الماضي وبجراتها العصرية ، مثلا يحتذيه المغاربة . ويلاحظ الخبراء ان شانها يعظم يوما فيوما من اقصى البلاد الى اقصاها سواء في الجبال البربرية او في السهول المتعربة .

القانون والواقع في تونس

لقد فقد ملوك تونس والمغرب الاقصى حقيقة الحكم من يوم انتصاب الحماية. وفي هذا الموضوع يجب ان نفرق بين القانون الضامن لبقاء سيادة الباي والسلطان الشريفي ، وبين الواقع المتضمن لوضع يد السلطات الفرنسية على جميع دواليب الدولة وانشاء شكل من الادارة المباشرة . وهذان الامران لا يتفقان الا عند بعض رجال القانون في البيانات والادلة التي يقيمونها ، وقد تكشف لنا استنباطهم عن صورة من اللانهاية . فالقانون وضعته معاهدة قصر السعيد المعروفة بمعاهدة باردو في 12 ماي 1881 واتفاقية المرسى في 8 جوان 1883 بعد الحملة العسكرية التي شنت ضد تونس . والواقع انشاء مقيم من نوع ممتاز هو « بول كامبون » الذي اكد غداة تعيينه في مارس 1882 عزمه على « ان يكون شيئا فشيئا وزارة للباي من الفرنسيين، وان يحكم تونس باسم الباي من اعلى الدرجات الى اسفلها » .

ففي مرحلة اولى ، قررت معاهدة قصر السعيد ، وكانت ترمي قبل كل شيء الى تجنب المشاكل الدولية ، حرمان الدولة التونسية من حق التمثيل الدولي

الايجابي ، فعهدت الى « ممثلي فرنسا الديبلوماسيين وقناصلها في البلاد الاجنبية ... بحماية مصالح التونسيين ومواطني الايالة » . وسجلت كذلك على الباي تعهده « بان لا يبرم اي وثيقة لها صبغة دولية دون ان يحيط حكومة الجمهورية الفرنسية علما بها . وبدون ان يتفق معها بشأنها » . وهذان الالتزامان يحددان من السيادة الخارجية للدولة التونسية بتعليق مباشرة خصائصها على الكيفية التي تباشر بها الحكومة الفرنسية نفس الخصائص ، لكنهما لا يحذفانها من الوجود ؛ ولئن منح الباي المقيم العام بامر 9 جوان 1881 وظيفة وزير الشؤون الخارجية ، فان الفصل السادس من المعاهدة يمكنه من اخذ قسط مباشر في ابرام الوثائق الدولية ، اذ كان الشرط الوحيد المفروض عليه هو الاتفاق مع فرنسا قبل ذلك . غير ان هنالك بندين آخرين من المعاهدة ، هما اشد وطأة من ذلك : بند يسمح للسلطة العسكرية الفرنسية « باحتلال النقط التي تراها ضرورية لارجاع الامن الى نصابه وحفظ سلامة الحدود والسواحل » الى ان « تقر السلطتان العسكريتان الفرنسية والتونسية باتفاق بينهما انه اصبح في مقدور السلطة المحلية ضمان حفظ الامن » (الفصل الثاني) . وهذا الاتفاق لما يشك كثيرا في امكانية حصوله ، اذ كان الجنرال الفرنسي القائد الاعلى للجيوش بتونس هو نفسه وزير حكومة الباي للحربية ، فيجب حينئذ ان يتفق مع نفسه على تقرير سحب جيوشه . ويلزم البند الثاني حكومة الجمهورية الفرنسية « بمد يد المساعدة والتاييد المستمر الى سمو الباي بتونس ضد اي خطر يهدد شخصه او عائلته المالكة او يعرض بسلامة قطره » . (الفصل الثالث) .

اما اتفاقية المرسى فانها تمس بالسيادة الداخلية للبلاد التونسية وتحد منها . وذلك بمقتضى التعهدين اللذين قطعهما الباي على نفسه وهما : « اجراء الاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التي تراها الحكومة الفرنسية صالحة » . (الفصل الاول) و « ان لا يبرم في المستقبل اي قرض لحساب الايالة التونسية بدون موافقة الحكومة الفرنسية » . (الفصل الثاني) . ولا ينتج عن ذلك البتة ان الباي قد تنازل عن سيادته او فوضها لغيره . وكان يحصل ذلك ، لو تمت المصادقة على الاتفاقية التي حمل « بول كامبون » في 30 اكتوبر 1882 علي باي (25) على توقيعها كهدية تولية العرش . فهي تمكن الحكومة الفرنسية من حق مباشرة الخصائص الادارية والعدلية كما تشاء

25) ــ جاء في النص الفرنسي ان الامر يتعلق بالباي محمد الصادق . والصواب ما اثبتناه . (ملحوظة للمترجم) .

ومن حق تقرير الجباية لفائدتها وتقرير قدرها وكيفية توزيعها وقبضهـا ، ومن حق ترتيب كيفية استعمال المداخيل • واذ كان « بـول كامبون » لم يتوصل بالرغم من مجهوداته الى اقنـاع « اوجين دوكـلار » رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية اذ ذاك بعرض هذا النص على مصادقة البرلمـان ، ثم لم يحاول من جديد العودة الى الموضوع لما رجع « عرفه » « جول فيري » الى الحكم ، فكل ذلك يقيم الدليل على ان كلا من الحكومة ومجلسي البرلمان كان يتمنع مـن احـلال الادارة المباشرة الفرنسيـة قانونيا محـل السيـادة الداخلية لباي تونس •

« ليوتي » يدافع عن المراقبة

وطرحت نفس المشكلة من جديد عندما تم توقيع معاهدة فاس • فـان هاته المعاهدة تقرر ان النظـام الجديد ، الذي حصـل الاتفاق عليـه بين الجمهورية الفرنسية والسلطان ، يتضمـن « الاصلاحات الادارية والعدليـة والمدرسية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الفرنسية من المصلحة ادخالها على تراب المغرب الاقصى » • (الفصل الاول) ، مـع توضيح ان « التدابير التي يستوجبها وضع الحماية الجديد يتم اقرارهـا ، بعد العرض الصادر من الحكومة الفرنسية ، من قبل صاحب الجلالة الشريفية او من قبل السلط التي يكون قد فوض لهـا الامر » • واما التفويض الذي منحته الحكومة الفرنسية للوزير المقيم » بان يصادق ويدرج ••• جميـع القوانين الصادرة عن جلالة السلطان (الفصل الخامس) فما هو الا نسخة من التفويض الذي منحه رئيس الجمهورية للمقيم بتونس بمقتضى امر 10 نوفمبر 1884• فبعد عشرين عاما من العمل بنظام الحماية هل كانت فرنسا تشعر بحاجـة الى التنصيص عـلى اخذ امتيازات في الادارة المباشرة ؟ انهـا حاولت ذلك ، ولكنها اصطدمت بمعارضة « ليوتي » الصريحة • فلما عرض عليه مشروع « فرمان شريفي » يمكن المقيم العام من ان يباشر باسم السلطان « جميع السلط السياسية والعسكرية والادارية » التابعة لسيادته « احتج الجنـرال في 6 جوان 1912 على هذا المشـروع الذي يعتبر الحاقـا حقيقيـا بجميع نتائجه » (26) •

(26) ـ « اسبيرانديو » ليوتي والحماية • ص : 138 ـ 139 •

كان هذا الموقف الجلي عنوانا لفكرته في نظام الحماية ، وقد بينها في تقرير رسمي وضعه في 3 ديسمبر 1920 ، وقال : « ان تصور الحماية هو تصور بلد محافظ على مؤسساته ، يحكم ويدير نفسه بنفسه ، عن طريق دواليبه الخاصة ، تحت مجرد مراقبة دولة اروبية ، وهي تحل محله فيما يتعلق بالتمثيل الخارجي ، وتتسلم غالب ادارة جيشه وماليته ، وتسيره نحو تقدمه الاقتصادي • فالامر الذي يغلب على هذا التصور ويميزه هو صيغة « المراقبة » بالمقابلة مع صيغة « الادارة المباشرة » (27) ففي نظر هذا الاستاذ المدرب الخبير بالحماية ، لم يكن الامر يتعلق بمباشرة سيادة مشتركة ، ولا بادارة مباشرة ، ولكن هنالك بمجرد مراقبة دولة حافظت على خصائصها في الحكم والادارة •

وفي هذا المجال لم يتزحزح ليوتي عن موقفه ابدا • فهو يقول سنة 1922 : « ان السلطان وحده الصفة القانونية للتشريع في المغرب الاقصى كلما كان الامر يتعلق برعاياه الذين ليسوا بمتبوعيه السياسيين فحسب بل متبوعيه الدينيين ايضا • ذلك ما لا ينبغي التغافل عنه لحظة واحدة • فلا يمكن ان تقرر هاته المسألة (28) الا بالظواهر الصادرة عن السلطان وحده ، مع موافقة الدولة الحامية وممثلها ، ولا يمكن ان يحصل ذلك بقوانين او اوامر صادرة عن فرنسا » (29) فلا مجال ايضا ، مع هذا التعبير ، لاى التباس : فللسلطان وحده يرجع النفوذ الداخلي ، ولا يستطيع المقيم ايجاد حلول للمشاكل الا « بالاتفاق » معه • وقد الح الجنرال مرارا عديدة على الفوائد المترتبة في الميدان الداخلي والخارجي عن « صيانة السلط الشريفية باكملها » (30) • فهو عظيم الهمة لدرجة انه لا يحس باستنقاص في شخصه عندما يعترف بالوضع الشرعي ، حتى انه صرح سنة 1918 للاعيان المغاربة بان « مصدر كل السلط هو سيدنا (اى السلطان) » ، وبانه هو نفسه ، ممثل حكومة فرنسا ، يتشرف بان يكون اول خادم لسيدنا (31) وفي الميدان الخارجي نفسه ، فانه يعتبر « من المؤسف جدا » ان لم يتم

---

27) ـ « لوكلار » في المغرب الاقصى مع ليوتي ، 1947 • ص 116 •
28) ـ تتعلق المسالة بمشروع قانون لتجنيد العساكر •
29) ـ « اسبيرالديو » ليوتي • ص : 141 •
30) ـ في 29 جوان 1922 بمناسبة مشروع احداث مندوبية سامية لشمال افريقيا • « اسبيرالديو » ـ ليوتي ـ ص : 133 •
31) ـ « ليوتي » ـ اقوال للعمل ، ص : 122 •

تشريك السلطان ومستشاريه في مؤتمر الصلح سنة 1919 بالرغم من مساعيه الملحة (32) ·

الحكـــم المباشـــــر

لكن كم كان البون شاسعا بين النظرية والتطبيق · فالادارة الفرنسية وارثة ثلاثة قرون من العمل بمركزية النفوذ والادماج في المستعمرات ، لا تغير طرقها واساليبها بسهولة · وسواء في بلاد الحماية او الانتداب او في بلاد الوصاية فانها لا تتصور ولا تطبق غير الحكم المباشر تاركة للمقننين تبرير الامر بعد وقوعه · لقد كان « ليوتي » يقول : ان الفرنسيين « تنشأ الادارة المباشرة في جلدتهم » ، وانهم « يميلون الى النظر للاهالي بوصفهم من جنس منحط وكمية مهملة » · وصاح بالويل والخطر ، لكنه عجز عن توقيف تيار الموجة المتصاعدة التي اكتسحت المغرب الاقصى بعد تونس · (33)

فان « بول كامبون » ، الذي كان في اول امره والى مقاطعة ، وضع الايالة التونسية « من الاعلى الى الاسفل » تحت تصرف موظفين فرنسيين ، عملا وتنفيذا للغايات التي كان يرمي اليها · « فالاعلى » كان المقيم العام محفوفا بالمديرين للحكم وبالكاتب العام للادارة ، وفي « الاسفل » نجد المراقبين المدنيين الذين زادهم حرية في العمل انعدام وسيلة لمراجعتهم عند افراطهم في السلطة · اما الباي ووزراؤه « من الاعلى » والقياد « من الاسفل » فلم يعد لوجودهم الا صورة شكلية ·

وفي المغرب الاقصى حاول « ليوتي » ابقاء « المخزن السعيد » على حاله · فالحكم المطلق المرتكز على التقاليد والعقيدة كان يمثل في نظر هذا الملكي الكاثوليكي الصورة المثلى للدولة · فتعلق بالمحافظة عليها بكل غرام ، لكنه عمل في ظل مبدا الحماية النظري كمستبد نير ، ولم ينجح بالرغم من براعته الفائقة في ان يبقي جنبا الى جنب مخزنا من عهد القرون الوسطى وادارة عصرية ، فمحت الثانية الاولى حتما ، ولم يعد السلطان والوزير الاكبر والباشوات والعمال يمثلون في المغرب الاقصى ولا في تونس ، الا دورا صوريا لقد حافظ ليوتي على الظواهر ولم يقدر على دفع المحتوم ·

---

32) — التقرير العام عن حالة جيش الاحتلال ، في 21 فيفري 1920 ، ص : 18 — 19 ·
33) — فقرات من تقرير 3 ديسمبر 1920 ·

ولا يستطيع الفرنسيون ، على عكس الانكليز ، ان يكتفوا بتسجيل حالة مجردة ، دون ان يستخرجوا منها قاعدة • فمن بينهم ، والحمد لله ، مقننون فطاحل مستعدون لاكساب جميع التعديات صبغة مشروعة • فبفضلهم تكونت في القانون العام نظرية تقضي بان الحالة في تونس تنكشف عن « مركب سيادتين : سيادة اهلية ابقتها معاهدة الحماية ، اى معاهدة باردو ، ولكن افرغتها اتفاقية المرسى من جزء من اختصاصاتها لتسلمها الى السيادة الفرنسية • فانتهى الامر الى ظهور تراكب سيادتين اثنتين في تونس » (34)

لذلك تولدت نظرية عزيزة على المتفوقين تقضي بان السيادة المشتركة « مرتكزة على تاويل معاهدات الحماية تاويلا اتت به النصوص التى اتخذت لتطبيقها » (35) فلما وضع الباى ختمه على « نصوص تابعة للمعاهدات » ، غيرت صبغة الحماية الاصلية ، بدون ان يصدر اى احتجاج عن الدول الاجنبية ، اصبحت تلك النصوص تقيم السيادة المشتركة مقام المراقبة بصورة محققة • و « من سوء حظ وجهة النظر هاته انه لا يجوز الجزم بان الباى تنازل بمحض ارادته وطوعا منه عن جزء من سيادته بالتوقيع على بعض الاوامر او بالتغاضي عن بعض الاعمال الخاصة بالسيادة » (36) تلك الاعمال والاوامر المفروضة عليه من الدولة الحامية بعنوان الامتيازات المشروطة عليه في الفصل الاول من اتفاقية المرسى •

تلك هي السيادة المشتركة التى اكدتها رسالة وزير الخارجية الفرنسية في 15 ديسمبر 1951 بدون ان تسميها ، وقد اوجبت ردود فعل اندهشت الحكومة من غزارتها ، لجهلها اهمية المشكل • وهي ايضا التى تثير احتجاج السلطان سيدي محمد بن يوسف ، وان لم يقع التصريح بها بمثل ذلك الوضوح ، ولكن مع شدة التمسك بها •

كل ذلك لا يكفي عند بعض المقننين ، امثال عميد بارز لكلية الحقوق بعاصمة الجزائر ، وقد ذهب بهم الامر الى استخلاص انه لا وجود في بلاد الحماية الا لسيادة واحدة هي سيادة فرنسا • فان هؤلاء المقننين يرون ان نظرية السيادة

34) — « ل • ميليو » — ملوك وسيادة ، 133 ، ص : 613 •
35) — « مونتيتي » — معطيات المشكل التونسي ، 1952 ، ص 459 •
36) — الكتاب المذكور آنفا •

الاهلية كانت لها مزايا جسيمة اذ مكنت من تجنب « تدخل البرلمان الفرنسي » ، وسمحت « باقامة لا مركزية ادارية واسعة » ، غير ان هاته النظرية لا تصمد امام التحليل لما فيها من « مخالفة لحقيقة الواقع » • والاستمرار على هذا الغلط ، بينما قامت الادلة على ان فرنسا « لم تتنازل عن سيادتها » يدل « على جهل لا يغتفر او ينبيء على تردد فى بسط الامور كما هى » (37)

عشرون عاما بعد ذلك يركب أحد وكلاء مجلس الدولة المتقاعد جواده ليشن الغارة على السيادة المغربية ، فلا يتأخر عن الوصول الى اقصى النتائج للواقعية السياسية (38) • ومنطقة فى غاية البساطة ، فلئن وجد المغرب الاقصى ، « فذلك يرجع الى عمل فرنسا » التى نظمته ورتبت شؤونه • ومن مبادىء المدنية الاساسية « ان الاشياء ملك لمن ابتدعها » • فيجب حينئذ « الاعتراف والتسجيل بان المغرب الاقصى ملك لفرنسا ، على الاقل فى كثير من اجزائه » • و « بما ان هناك مدنيتين ، فهناك سيادتان » لا ينبغى ان يضحى باى واحدة منهما ، خصوصا الفرنسية التى هى « اكثر حقيقة وتشعبا » ولما كان المغرب الاقصى من صنع فرنسا « فان فرنسا هى صاحبة السلطة والسيادة فيه بكل شرعية » • وتركيب السيادتين « بديع جدا على الصورة التى عليها النظام الحالى » •

ثمة بدون شك ، معاهدة فاس • وكان على هذا المقنن ان يستند اليها بينما هو لا يذكرها مجرد الذكر • وثمة بدون شك احكام « لليوتى » ، ذلك الخبير العظيم بشؤون المستعمرات الذى يمجده الجميع بدون ذكر اقواله المحرجة وكان من المفروض التأمل منها بهذا الشأن • ولكن ما الفائدة من ذلك ! فالامر المقضى يقوم مقام المبادى والاصول ، والتعدى يخلق الحق • ولم يبق لنا الا ان ننتظر تمجيد « السكواتر » (Squatter) الذى يعتبر « ان الاشياء ملك لمن ابتدعها » ، بعد احتلاله لدار هرمة فتجديد بنائها فتجميلها ، فيطالب بالملكية المشتركة ، مؤكدا ان العقار له « على الاقل فى كثير من اجزائه » •

مخاوف « ليوتى »

وكم كان ليوتى حصيف الراى عند ما توقع الاخطار الناتجة عن مثل هاته

37) — « ل • ميليو » — الكتاب المذكور آنفا •
38) — « ماترى تاكسيى » ، المشكلة المغربية • 1952 •

المواقف ٠ ٠ » ان الامر يجرنا بسرعة متزايدة ، في الواقع ، الى الحكم المباشر ٠ وهاته الحالة تجرنا الى اكبر الاخطار فضلا عن انها تعاكس تماما روح الحماية ٠ فمن الغرور الفادح الاعتقاد بان المغاربة غير شاعرين بوضعهم وفي معزل عن الشؤون العامة ٠ فهم يتأملون من ذلك ويتحدثون عنه ٠ ولم تعد تفصلهم سوى خطوة واحدة عن اليوم الذى يصبحون فيه متأهلين لتلقي الايعاز بالمطالبة بحقوقهم وتقبل البواعث المعادية ، وسيدركون شيئا فشيئا قيمتهم وقواهم ٠ وهم ليسوا بالمتوحشين ولا بالجامدين ، وهم ولوعون باستكشاف ما يجرى في العالم ، وهم مطلعون عليه كثيرا ٠ وهم متعطشون للتعلم فيتطبعون بغاية السهولة ٠ لقد تكونت فيهم شبيبة تشعر بحيويتها فتريد العمل ، ولها ذوق التعلم والتجارة ٠ وعندما تفقد هاته الشبيبة ميادين العمل التي تقترها عليها ادارتنا تقتيرا ، وفي مناصب ثانوية للغاية ، فانها ستبحث عن طريقها في غير هذا الاتجاه ، من جهة لدى هيئات اروبية مستعدة لقبولها قصد استعمالها للمعارضة ، او لدى اجانب ، او لدى هيئات اسلامية خارجية. وفي نهاية الامر ستحاول ان تجمع كلمتها لتصوغ مطالبها ٠٠٠ » (39)

جاء ذلك الرأى سنة 1920 ، السنة التي نشأ فيها الحزب الشيوعي الفرنسي ، واربعة عشر عاما قبل نشر برنامج الاصلاحات المغربية ، وخمسة وعشرين عاما قبل توقيع ميثاق جامعة الدول العربية ! يا له من تحليل دقيق صائب للحالة وسوء عواقبها ، وفي نفس الوقت يا له من اعتراف بالعجز ! اذ تمكن ليوتي ، طيلة الخمس سنوات الاخيرة لحكمه في المغرب الاقصى ، من مشاهدة استفحال الداء بصورة مستمرة بدون ان يجد حيلة لاستئصاله ، رغم نفوذه وسمعته الخاصة ٠ ان هاته الحالة الواقعية ، التي تجد الادارة فيها راحتها ويراها المقننون شرعية ، يدرك شعب الحمايتين نقائصها شيئا فشيئا بقدر ما يتطور المجتمع فيها مثلما لاحظ ذلك الجنرال ٠

* الاهالي التونسيون والاستعمار

لئن استمر عدد من كبار مالكي الارض في تونس ، على استثمار املاكهم الشاسعة وشاركوا احيانا في الحركة التجارية والصناعية ، فقد افلست البقية وظل ابناؤها يتعاطون المهن الحرة ، وفي بعض الحالات وظائف خالية من الوجاهة ٠ ولقد ورثت هاته البرجوازية المماليك شعورا بالتقاليد والتفوق

(39) ـ « ماكس لوكلار » ٠ الكتاب المذكور آنفا ، ص : 119 ـ 120 ٠

الاجتماعي جعلها منعزلة ، فاقدة للنفوذ والتاثير • لكن هنالك برجوازية اخرى متوسطة الحال كثيرة العدد ، تنجب الفلاحين والتجار الناشطين ، وتغذي برؤوس اموالها المشاريع الصناعية ، والكثير من ابنائها يحرزون على شهادات الكليات ، وتبرز صفاتهم كديموقراطيين ميالين الى المبادىء العصرية ، فهم يعتبرون انفسهم مهضومي الجانب باحتكار فرنسا للوظائف العمومية • ويشعر خريجو الزيتونة منهم بعدم الاستقرار ، تتقاذفهم القوى التقليدية والجاذبيات العصرية ، فينضمون الى هاته او تلك ، حسب حفائظهم الشخصية • وهنالك ايضا برجوازية ضعيفة الحال ، تصطبغ شيئا فشيئا بصبغة الكادحين ، وهي تشمل الموظفين — وغالبهم من ذوى المكانة الثانوية ومن مستخدمي المتاجر والمكاتب وصغار ارباب الصناعات ، وهم يتصارعون مع الحياة وشدائدها ، ويتطلعون الى تغيير سياسي يجر وراءه تحسين حالة معاشهم • اما اجور العملة فانها اضعف بكثير مما هي عليه بفرنسا ، والتشريع الاجتماعي مازال غير مستقر •

في تونس يبلغ عدد سكان البوادي مليونا وثمانمائة الف نسمة تقريبا • وكان يقدر ، قبل الحرب ، ان ثلاثة ارباع الكهول هم من سكان البوادي (450•000 من جملة 600) ، والفوارق بين اقسام هاته الطبقة الفلاحية اوضح منها في الجزائر ، وهي تخضع الى التغييرات الاجتماعية التي تتولد عن اختلاف محصول الفلاحة حسب السنين وصنفها • فنجد فيها قليلا من كبار المالكين ، وعددا اكبر من متوسطي الفلاحين وصغارهم الذين يتركون مزارعهم بمجرد ما يستطيعون ذلك ، فيسوغونها للغير او يتركونها الى « خماس » • ومنها المتصرفون الوقتيون في اراضي الاوقاف ، وهي املاك حبست لفائدة مراجع دينية ، فهم يتصرفون فيها مقابل كراء ابدي (الانزال) ومنها ايضا صغار الشركاء بالربع او الخمس (الخماسة) • ومنها العملة الفلاحيون (100•000 تقريبا) والرعاة •

ان اعتداءات الاستعمار على اراضي العروش او القبائل لم يتوقف تيارها الا سنة 1881 الى سنة 1892، مدة ما عبر عنه بالاستعمار الخاص، تملك خمسون شخصا من اصحاب رؤوس الاموال الفرنسية بقدر 443•000 هكتار من املاك « العائلات الكبرى » التي اصبحت في حاجة الى المال • ومن بين هؤلاء المالكين نجد ستة عشر مالكا يملكون 416•000 هكتارا ومن بينهم شركات كبرى خفية الاسم • وبعد سنة 1892 نظمت الدولة الاستعمار الرسمي على

حساب املاكها التي توسعت فيها على حساب اراضي الاوقاف واراضي العروش ، وهي ملك القبائل منذ عهد بعيد . فبيعت اماته الاراضي الى معمرين جدد مع تسهيلات في دفع الثمن . فاستقر هكذا وبدون شك بين سنتي 1897 و 1932 ، عدة اشخاص وشركات في ما بين الاربعمائة والخمسمائة الف هكتار . وفي سنة 1937 كانت اربع شركات خفية الاسم تملك وحدها ثلاثة وعشرين في المائة من الاملاك الفرنسية . فاصبح عشرات الآلاف من الفلاحين الذين اقتلعوا من اراضيهم التي كانت في ملكهم او حيازتهم ، يكونون « يدا عاملة » للزراعة والمناجم والمصانع وشركات النقل ، تحررت من كل قيد ، ولا تملك من وسائل العيش سوى بيع قواها الشغيلة لراس المال » (40) .

ان الكثير من الفلاحين التونسيين يعيشون على حالة مزعجة من النقص الغذائي . وقد اجرى الدكتور « بونسي » في سنتي 1937 — 1938 بحثا شمل مائة عائلة ، فبين ان 11 تقريبا تتناول غذاء كافيا او يكاد (من 2000 الى 2400 كالوري) و 16 ناقصة التغذية (من 1500 الى 2000 كالوري) و 22 تعاني نقصا غذائيا خطيرا او خطيرا جدا (من 1000 الى 1500 كالوري) و 17 تعيش في حالة بؤس غذائي حقيقي (دون 1000 كالوري) . ويعيش عدد من النازحين من الجنوب بغذاء يتراوح بين 280 و 434 كالوري ، الامر الذي ادى بهذا العالم الباستوري الى ابداء الملاحظة الآتية : « مطابق للمشاهدة ، مجاعة لا يكاد يصدق بها » (41) ان غالب الفلاحين يعيشون — بطبيعة الحال — عيشة القلة فما اقربهم لبغض الاجنبي ! .

الاهالي المغاربة والاستعمار

اما في المغرب الاقصى ، حيث قلب راس المال في بضعة اعوام اقتصادا شبيها باقتصاد القرون الوسطى راسا عن عقب ، وزعزعت المدنية الغربية تقاليد مرت عليها القرون ، فقد دخلت على المجتمع تغييرات عميقة . فبرجوازية المدن تتعاطى التجارة بمهارتها المالوفة ، خاصة في الدار البيضاء حيث تشارك في ازدهار المدينة اللانهائي . والشبان المتحصلون على

(40) — « ب . صباغ » = تونس 1951 — ص : 45 .
(41) — نفس المصدر ص : 163 .

الثقافة الفرنسية والذين بقوا بعيدين عن المخزن القديم يتذمرون من انعدام مواطن الشغل لانهم لم يتلقوا تكوينا يمكنهم من مزاحمة الفرنسيين في الوظائف العمومية فلم يعودوا يشعرون بارتياح في « مغرب ليوتي » الذي جمد الاوضاع في قوالب عتيقة بالية • ويتجلى تاثيرهم خاصة في مدن الرباط وفاس والدار البيضاء ، ويشع منها على كامل المغرب الاقصى وحتى على جبال الاطلس • اما الطلبة المتكونون على الطريقة القديمة في جامع القرويين بفاس ، فانهم على نفس الحالة التي عليها طلبة الزيتونة من عدم الانسجام مع العصر الحاضر • وعانت هيئات الصناعات القديمة كثيرا من مزاحمة منتوجات المعامل المجلوبة من اوروبا •

لقد ظهرت نتائج الاستعمار بصورة ملحوظة خاصة في البوادي • فباعت بعض القبائل اراضيها ، مثل بني مطير من سهول مكناس الذين لم يبق لهم سوى احترات اراضي المرتفعات الحجرية • وتمكن بعض المعمرين من تعمير اراضي جماعية اهلية بفضل شكل من « الكراء الابدي » مقابل اثمان رمزية • وحرم تسرب الاستعمار واقرار القبائل على رحل الاطلس الاوسط اراضي المرعى التي ورثوا الرعي فيها عن اجدادهم • ان الامر الذي آلت اليه سياسة « ليوتي » من توحيد البلاد تحت سيطرة المخزن ، قد تركت القبائل البربرية الجنوبية تحت رحمة رؤساء مخلصين وعشائرهم ، فتمكنوا من وضع يدهم على الثروتين الاساسيتين الارض والماء • فكان لهذا الانقلاب الاجتماعي والاقتصادي الذي آل الى احتكار الاعيان للارض اخطر النتائج في الاطلس الاعلى حيث جاز لعمال متوقة وغندافه وقلاوة المحميين من الاقامة العامة ان يتمكنوا بدون عقاب من انتزاع املاك القبائل المغلوبة ، ومن استعباد الاهالي واستثمارهم بصورة منظمة ، تاركين لهم مجرد الخيار بين الفاقة او النزوح •

لكن مهما اتسعت المزارع فان عدد الاهالي ينمو باكثر سرعة من الاراضي الجاهزة • فالفلاح المرتدى الاسمال والناقص تغذية ، يقود المحرات الخشبي على الارض العائلية التي حفظها له ظهير عام 1945 ، ذلك المحرات الذي لا يشق الارض ولكن ، كما قال هانري بوسكو ، « يكتفي بقشرة الارض وجلدتها » • وبعد مرور اربعين سنة من عهد الحماية ، نلاحظ ان الجهاز الاقتصادي الذي يثير اعجاب السواحين ، تقابله ضآلة عدد المحاريث الحديدية بالنسبة الى

المحاريث الخشبية ، بالرغم من ان الفلاح هو العماد الجوهري في المغرب الاقصى ، ونجد ان ازدهار الاستعمار العجيب المؤيد من الادارة تاييدا كليا ، يقابله فشل المحاولات التي بذلت لادخال الاساليب العصرية على الفلاحة المغربية .

ولذلك نرى آلافا من اهل البوادي ، ضحايا انقلاب اقتصادي لم تراع عواقبه ولم تتخذ التدابير اللازمة لتحديد اضرارها ، ينزحون من السهول ومن الجبال ، وبخاصة من الجنوب ليستقروا في المدن الاهلية التي ما لبثت ان احاطت بها الاحياء الاوروبية (الدروب) ، او ليتجمعوا حول المدن في تلك المدن القصديرية المكونة من اقمشة لف البضائع ومن اخشاب بالية او من صفائح قصديرية مفصلة (42) والتي تسيج المدن بسياج قذر بائس . فضواحي الدار البيضاء القصديرية وبيوتها الخشبية الجذمية التي تباين ناطحات السماء وبياضها الفاخر ، تشمل تسعة عشر في المائة من سكان المدينة المسلمين اي خمسة وسبعين الف ساكن (43) تقريبا ، يعيشون على حالة صحية تعيسة . ولا يستقر مستوى عدد السكان في القرى القصديرية بازدياد العناصر الجديدة النازحة اليها باستمرار ، لما فيها من ارتفاع نسبة وفايات الصغار ومن تفشي الامراض التناسلية . بيد ان الاخلاق الاجتماعية فيها بقيت على متانتها بفضل شدة التمسك بالتقاليد البدوية . فالجرائم الخطيرة قليلة نسبيا ، غير ان البغاء متفش والطلاق كثير .

ان هذا النوع من البشر الذي اصبح دون مستوى المتمشين من كد يمينهم يكون عالما خاصا في معزل لا عن المجتمع الاروبي فقط ، بل عن سكان المدن التقليديين ايضا . فقسم ضئيل منهم يستقرون بازواجهم وابنائهم ، والقسم العظيم من هؤلاء اللاجئين يتطلعون الى العودة الى بلدهم الذي نزحوا منه لاشتراء الاراضي او استرجاعها ولقاء العائلات التي تركوها فيها . ان هؤلاء البدويين فاقدون للمؤهلات الصناعية ، فلا يتيسر لهم ان يجدوا مرتزقا كافيا في مصانع قد عرقلت نموها صناعة فرنسا المعدنية الكبرى . فيصير غالبهم اجراء بسطاء ، وبعضهم تجارا ، مثل العطارة « النازحين من قبائل الاطلس الجنوبي » . وتعترض الكثير منهم مشكلة كادت تكون مستحيلة الحل ، وهي ان لم تكن مشكلة اقتناتهم الى حد الكفاف ، فهي مشكلة اضطقائهم احياء على

---

(42) — « دراش » ، اضطرار الناس الى العيش من كد اليمين ، ص : 57 .

(43) — « آدام » (المدينة القصديرية) بابن مسيك ، 1950 ، ص 68 .

الاقل . ولا تفارق البوليس التخوفات من تحيلات العاطلين . فهم بعيدون عن قبيلتهم ، وسريعا ما يفقدون كل صلة بها ، فيصبح هؤلاء المقتلعين « قطائع منعزلة ، سهلة الاستعمال ، ذات متاع ثقافي واجتماعي هزيل وبال » (44) . انهم لا يهتمون كثيرا بالسياسة ، وهم غير منظمين اجتماعيا لفقدان نقابات مستقلة . ولم يكن الوطنيون البرجوازيون خاليي البال من الحيرة والتساؤل عن مستقبل هاته الدهماء الاجنبية عنهم بظروف حياتها وآمالها ، والتي لا يهمهم بؤسها بقدر ما تهمهم القوة التي قد تضعها في صفوفهم ، والتي اصبحت لغز الغد ، عندما يصبح جميع الاطفال المولودين في المدن من هؤلاء البدويين المتنقلين رجالا مكتملين .

الاوروبيون المقيمون بالمحميتين

ان الاوروبيين المقيمين بالمحميتين اقل عددا نسبيا من الذين هم في الجزائر . فهم 239.549 في تونس (1946) و 325.000 في المنطقة الفرنسية من المغرب الاقصى (1947) مقابل 3.280.952 و 8.505.000 من الاهالي . الا ان لهم تاثيرا اقوى لما يتمتعون به من تاييد مستمر من ادارة لا عليها الا قليل من المراقبة ، ونعني بذلك على الاصح اولئك الذين سموا انفسهم « المتفوقين » ، وهم كبار المعمرين ورجال الاعمال . فهم بالنظر الى عددهم يحمرون كثيرا من الاراضي والاكثر خصبا : في تونس 770.000 هكتار محترث من جملة 3.500.000 تعمرها 6.100 عائلة ، وفي المغرب الاقصى 900.000 هكتار من جملة 7.530.000 ، بمعنى خمس الاراضي في تونس وثمنها في المغرب الاقصى . ومنهم من جمع ثروات طائلة في بضعة سنين . وهم ليسوا بالاقطاعيين لما بقي فيهم من الطباع المتعجلة ، المختلطة والمصطدمة بعضها ببعض ، مزيج من الثقة في عبقريتهم ومن العجب المغذى بالنجاح الذي تقدر قيمته نقدا ، ومن فساد الذوق . فمثال « المعمر » ، من سكان جزر « الأنتيل » في القرن السابع عشر الى المالكين الحاليين لاراضي « ساحل او « الغرب » ، له اشكال واحدة تكاد لا تتغير .

والاوروبيون هم الذين يستغلون ثروات ما تحت الارض . ففي تونس جميع المناجم على ملك الدولة عدى الفسفاط المعتبر من جملة المقاطع ، على انه تم اقطاعها الى الشركات . وفي المغرب الاقصى كان « ليوتي » يعارض بغاية

---

44) ـ هـ « قريف » نشأة الطبقة الكادحة المغربية . 1952 ، ص : 3244 .

الحزم ضغط البنوك ، فكلف ديوانا شريفيا باستغلال الفسفاط . وعلى نفس القاعدة اسس « ابريك لابون » شركات مختلطة ، بيد ان قسما عظيما من صناعةاستخراج ثمرات ما تحت الارض بقي في يد الخواص مثل استخراج الرصاص من طرف « الشركة الشريفية للمناجم زليجة » التي اسستها جماعة « ولتر » حسب طريقة عملية مجربة . وفي سنة 1952 وبطلب من الجنرال « جوان » باعت « شركة جرادة المشتركة للفحم » اغلبية اقساطها التي كانت بملك الدولة الى خواص من اصحاب رؤوس الاموال الامية على امل ان تتوفر لهم امكانية الدفاع عن انفسهم ضد موجة الوطنيين .

لقد نشأت بفضل الازدهار الاقتصادي طبقة من رجال الاعمال الحاذقين والناشطين اكثر تفهما للمشارب الجديدة من المعمرين ، وهي مستعدة ، ان لزم الامر ، القبول بعض التنازل ، على شرط ان لا تمس التغييرات السياسية الجديدة مصالحها التي هي مستعدة للدفاع عنها بجميع الوسائل . فالمناجم والمصانع وحتى الزراعة هي في غالبها تحت نفوذ شركات البنوك الكبرى . وقد انتشر راس المال في كامل المغرب عن طريق تشكيلات متشابكة تظهر من خلالها نفس الهيئات ويظهر نفس الرجال في مظهر شركات مستقلة بعضها عن بعض وهي : بنوك ميرابو ـ هونتجلو البروتستنتية و البنك العقاري للجزائر وتونس والبنك القومي للتجارة والصناعة بافريقيا الشمالية ، والبنك الصناعي والتجاري الذي يعمل في الجزائر وتونس مع ما له من المصالح في المغرب الاقصى ، وخاصة بنك باريس والبلاد المنخفضة وهي اكبر قوة في المغرب الاقصى تراقب اقتصاده .

اما الموظفون الفرنسيون فانهم يدافعون بكل قوة عن امتيازاتهم قصد الاحتفاظ بها لابنائهم . فبالرغم من توصيات « بول كامبون » صارت بلاد الحماية « مستعمرات من الموظفين » باقصاء الاهالي عن الوظائف العمومية حتى ولو كانت مؤهلاتهم تعينهم اليها . ويستنكف كبار الموظفين من العمل تحت رئاسة غير مواطنيهم . لذلك نجد احد المديرين يخاطب الوزير الاول التونسي بعبارات من الوقاحة المقصودة لانه يعتبره في منزلة الدون ويشغل المتوظف المتوسط باعتبار منشئه وظائف النفوذ ، او يستحوذ على النفوذ في مباشرة وظائفه ، فيعظم بذلك في نظر نفسه . ولو رجع الى نفس الوظيف في فرنسا ، ولم تبق له نفس الامتيازات لشعر بحطة واستنقاص . واخيرا ، من يدعى « الابيض الصغير » ، وهو الموظف البسيط في الديوانة او البريد برتبة

مستكتب او حتى عامل ، فهو يدافع عن كيانه بشدة متزايدة بقدر ما يشعر بما يهدده من خطر • ويتجلى ذلك خاصة في تونس حيث توجد جالية من ابناء « كرسيكا » كبيرة العدد ، متضامنة مع بعضها بعضا • وكلما شعرت طبقة اخرى من الموظفين بخطر يهددها من حين لآخر الا ودافعت على نفسها بنفس الشدة والحماس • فالرجال الذين تدفعهم وضعيتهم الاجتماعية في فرنسا الى الاحزاب الشمالية المتطرفة ، يتقمصون في بلاد الحماية ثوب المستعمرين الالداء • وليس من باب الصدف ان يكون « نائب الفرنسيين بتونس لدى مجلس الشيوخ » الفرنسي موظفا صغيرا سابقا ، وهو مؤسس التجمع الفرنسي بتونس •

انتصار الاسر البرجوازية

من اجل هاته المتنافرات الجوهرية ، فان المجتمعين الفرنسي والاسلامي، عوض ان يندمجا في بعضهما بعضا ، اصبحا يسيران نحو الميز المتصد الذي يزيد في اثارة التناقضات • ان مجمع المعمرين الفرنسيين يجسم ، تحت ستار بعض القوالب والاوضاع المعروفة من الجميع ، قوة لا يقدر عليها لا والي الجزائر العام ولا المقيمان العامان بتونس والمغرب الاقصى • وفي المغرب تتجلى حقيقة في ابهج صورة ، سيطرة « هاته الاسر البرجوازية » التي وصفها « بودى لوماني » وحلل طرائق عملها في فرنسا بكل دقة • فكبار المالكين للاراضي ورجال الاعمال وكبار الموظفين واصحاب الجرائد ورجال السياسة ينسجون على منوال واحد • والصحافة المغربية تخضع لعدد ضعيف جدا من الاسياد الذين ينقاد لهم غالب مراسلي الجرائد الباريسية • ورجال عديدون من العاصمة الفرنسية ذوو النفوذ مرتبطون ، مباشرة او عن طريق عائلاتهم بالمصالح الشمال افريقية ، مثل ما كانت مختلف الاوساط في فرنسا مرتبطة بمصالح الجزر في القرن الثامن عشر •

بيد ان هؤلاء جميعا يشعرون بخطر يهددهم بدرجات متفاوتة من جراء مطامع الاهالي ورغائبهم التي يعارضها في سد واحد الاتباع المحليون للاحزاب الفرنسية ، من التجمع الشعبي الفرنسي R. P. F. الى « الحزب الراديكالي » • « اما الحزب الشيوعي » الذي نظم صفوفه ، في الاقطار الثلاثة في اطار قومي ، فانه كان دائما في طليعة الوطنية ، حتى انه في جانفي 1952 طلب من منظمة الامم المتحدة تكوين جيش وطني تونسي •

غير ان المغاربة والتونسيين ينفرون من مشاركته في العمل ولا يثقون من نزاهتها ، وقد قام الاشتراكيون بتونس بدور الرواد والادلاء » (45) لما كان « لجواكيم دورال » الاستاذ بالليسي في العاصمة من الكانة والحذق ثم انهم اتخذوا مع « اندري بيدي » والحكيم « ايلي كوهين حضرية » مواقف جريئة فيما يتعلق باستقلال البلاد كم جلبت لسياستهم من الخيبات ·
اما في المغرب الاقصى فانهم استظهروا بمصاعب واخطار ، هي موجودة حقيقة ، ليجنحوا في غالبهم الى المبادئ الاصلاحية ضمن الحماية ولمعارضة الفكرة الوطنية ·

لقد اتضح ان نظام الحماية عاجز عن معارضة القوات الاقتصادية والاجتماعية المسيطرة على السياسة ومقابلتها بسياسة مستقلة · فالادارة تمد المتفوقين بالمساعدة وتزيد على ذلك اذ تتلقى اهانتهم بدون شرف ولا اباء · فهم يشعرون علانية بالمقيمين العامين غير المنطاعين اليهم · ولا يراعون الضرر الذي يلحقه عملهم ذاك بالنفوذ الفرنسي · ففي برقية موجهة في 29 نوفمبر 1951 الى « روبار شومان » ، يصرح الممثلون بجميع الهيئات المنتخبة الفرنسية ان الجالية الفرنسية « تنكر على « م بريلييي » حق التكلم باسم الفرنسيين بتونس ، وقد خان ثقتهم » ، وانهم سوف يدافعون عن صنيع فرنسا « بجميع الوسائل » · فتمت نقلة لوي بريليي بتاثير تهديداتهم ، مثلما جرى ذلك « لجان مونص » · اما في المغرب فان « ايريك لابون » تلقى لنزعته التحررية هجمات المعمرين والعسكريين المنذرين بقرب ثورة عامة في درجة من الشدة والعنف حتى انه سقط بعد خطاب طنجة · وقد سها السلطان عن ذكر الجملة الخاصة بصنيع فرنسا في المغرب الاقصى ، تلك الجملة التي وضعت في الخطاب باتفاق مع الاقامة العامة · فلم يبق للمقيم ، بعد هاته الاهانة ، الا ان يعلق في المشنقة · وذلك ما اظهره القوم له بدون ادنى التباس ·

فما لنا حينئذ نجد الحكومة الفرنسية تقتصر على ابداء مجرد ملاحظات الى الامين باي اثر الخطاب الذي القاه في 15 ماي 1951 ، وهو لم يكن خاليا من اي اعتراف بجميل فرنسا فحسب ، بل لم يقع عليه
موافقة المقيم العام ؟ وما لنا نجدها تبقى دوهوتر

---

45) ـ « 1 · كوهين حضرية » ـ تونس ـ ص : 269 ·

الحق به نفس الباى سبة كبرى بجمعه مجالس غرة اوت 1952 الديموقراطية؟ ذلك لان فى ابقاء لابون كانت ضربة قاضية لنفوذ فرنسا ، واصبح ابقاء دى هوتكلوك يدعم اركان ذلك النفوذ • فالصواب فى المغرب الاقصى يصبح خطأ فى افريقية • ولا ينبغى مع ذلك الظن بان مكانة فرنسا لا يلحقها مس الا اذا وافقت اهواء المتفوقين •

استحالة الاصلاحـــات

لتلك الاسباب اصبـــح من المستحيل عـــلى اكثـــر المقيمين اندفاعا ان يقـــوم بعمل جرىء انشائى • واتضح ذلك جليا فى المغرب الاقصى عند محاولـــة ادخال الاساليب العصرية على جهاز البادية • وقد شرع فيها بكل اندفـــاع ، وثبات احد الشبان المراقبـــين وهـــو جاك بـــارك ذو الثقـــافـــة الاجتمـــاعيـــة الواسعة • وكانت المسالة تتعلق باحداث هياكل جديدة لفائدة الفلاحـــين ، تجمع بين اقسرار الاخصائيين الفرنسيـــين وتحرير الجماعات القديمة فـــى الميدان البلدى • فنادى القوم بالويل والثبور ، ومسحت زوبعة المتفوقين البرنامج باجمعـــه ، فوضعت الادارة على ذمـــة « بارك » شغلا آخر هادئا فى قلب الاطلس الاعلـــى •

ذلك لان الامر فى المغرب الاقصى ، مثل ما هو فى تونس ، لا يعنى العمل الانشائى فى حد ذاته بل رأى صاحب النفوذ فيه • فان اكبر قوة فى المغرب الاقصى ليست للمقيم العام بل « لاوكوتوريى » المعمـــر الثرى بجهـــة مكناس ويتعجب المرء لمشاهدة الدور الذى يلعبه فى المملكة الشريفية المعمر الفلانى وهو قوى البنية وقح اللسان ، كثير الكد وجيد الصحة ، لكنه ذو عقليـــة فلاح بسيط اصبح فى وقت قصير يملك الملايين ، وهو لا يستطيع معها فى فرنسا ان يسترعى اكثـــر من اهتمام مجلس العمل (Conseil général) بيد ان الرجل يتبجح بقدرتـــه علـــى خلق المقيمين العامين ، وعلـــى تحطيمهـــم ، ولا يستطيع احد ان يجزم بان ذلك التبجح مجرد لغو ومفاخرة(46) فكانت لبيار فيينو وحده الشجاعة الكافية ، فى الخطاب الذى القاه بعاصمة تونس فى غرة مارس 1937 ليعلن ، « ان بعض مصالح الفرنسيين لا تندمج وجوبا فى مصالح فرنسا » ، نعم ، يمكن للمرء ان يتمنى ، مجرد امنية خير ، ان « تتخلص السلط العامة من

46) « لوموند » • 14 فيفرى 1951 •

العبء الثقيل الذى تحملها ازاء عصابة من الاوروبيين حديثي عهد بالثراء في خدمة مصالحهم المرهقة » كما يمكن له ان يتمنى حتى تشجيع تلك السلط على عدم تحمل ذلك الضغط الذى يتقبله بغاية الارتياح بعض الموظفين المشاركين في الاجرام عن قصد او عن غير قصد » (47) غير ان ذلك التمني ليس هو الا تسجيل لعجز الادارة عن ردع حالة واقعية اضطرت في نهاية الامر الى اعتبارها امرا طبيعيا ٠

توقف المحميتين عن التطور

فلا سبيل الى النجاح ، الا اذا وجد جهاز نافع ٠ غير ان الحماية تدور على عكس الطبيعة ٠ فهي من عهد « كامبون » وخاصة من عهد « ليوتي » تتعثر في نفس العقبات ٠ وكم جمعت لجان بحث محلية ، مثل التي جمعت في المغرب الاقصى سنتي 1927 و 1933 او في تونس سنة 1933 فلم يلد الجبل ولو فأرا ٠ فلئن فرضت فرنسا اصلاحات ، مثل التي فرضتها في تونس في فيفري 1951 ، فانها تثير الراى العام الفرنسي ضدها ٠ وفي عالم سريع التحرك فان تونس والمغرب الاقصى تظهران كالمحركات العتيقة البالية ذات الدواليب الثقيلة المتعثرة ٠ فالقوم يهزؤون من المطالب الوطنية ، لكنهم عاجزون عن معارضتها ببرنامج انشائي ، تصوروا الحماية وزتبوها كدائرة مراقبة مدنية ٠ فلا احد هو حقيقة رئيس للدولة ٠ ولا احد هو حقيقة رئيس للحكومة ٠ بل لا وجود لحكومة اصلا ٠ وفقدت الادارة المركزية ذوق الانشاء ، وغدت تتشبث تشبث اليائس من غير ايمان بسيل للسيطرة اخنى عليه الدهر ٠ والشبان الموظفون القابلون لروح الاصلاح يشعرون بعجزهم ٠ والعمال ، باستثناء قياصرة الاطلس ينكمشون في مهانتهم عند فقدانهم لكل ابتكار ، فلا ينشطون كثيرا ٠ وتترقب الادارة تعليمات حازمة من باريس وهاته لا تمدها بها ٠ ولا احد يعلم الغاية التى تسير اليها الامور ، فتتخلص السياسة في تداول متسلسل بين التسامح ورد الفعل العنيف ٠ ويزيد ضغط الراى العام العالمي ارتباكا للامور ، مهيجا للامال ، معجلا بالمقررات ، ومفقدا السلط التنفيذية رشدها ٠

لقد كان للادارة ، وهي التي لا تعرف الشك ، ان تنام على وسادة نعمة تلذ لدماغ معوج الخلقة ، ما دامت واثقة من وظيفتها ومن نجاحها ٠ لكن ثمة طبقات جديدة نشأت في المجتمع الاسلامي ، واخذت في تعيير النقائص ولو مع تضخيمها ٠ فضد وضع تعامى عن ادراك ضرورة التنازلات اللازمة تكونت النظريات والاحزاب الوطنية ٠

---

47) ـ « لوموند » ٠ 14 فيفري 1951 ٠

الباب الثاني

نشأة الوطنية التونسية



تونس بــاب المشــرق

تعد تونس من بين بلدان افريقيا الشمالية البلد الذى اثـر فيـه الشرق اشد التاثير • وذلك لموقعها الجغرافى الذى جعلها منذ تاسيس القيروان سنة 675 م القاعدة الاولى لانتشار الاسلام • وعند فجر حركة الوحدة العربية امها زوار من الشرق كشفوا لها عن مرامى تلك الحركة • كما تعتبر الى يوم التاريخ جامعة الزيتونة القرآنية — او جامع الزيتونة — حامية الدين والتقاليد والسنة بافريقيا الشمالية باسرها ، ويمتد تاثيرها حتى المغرب الاقصى • ولم تنتشر دعوة العلماء فى الاوساط الحكومية من المخزن المواظبة على الدروس والاملاءات القرآنية فحسب ، بل فى اوساط المثقفين ثقافة فرنسية ايضا • فانضم هؤلاء الى حركة أولئك العلماء الرامية الى الاصلاح الروحى • وهكذا تالفت كتائب من الأنصار المنحدرين من الطبقة المتوسطة المشتملة على سكان المدن وأصحاب التجارة والصناعة فى الساحل وبنزرت وصفاقس ، وهم عازمون على اتباع المنهج الدينى ومقاومة المتجنسين لانهم كانوا يعتبرون مرتدين • وان رجال الاعمال المحرزين على تاييد الحجر التجارية والفلاحية والتعاضديات الاهليـة للقرض ، وقد كانوا دائما يتوجهون الى السلط العمومية بشواهد الاخلاص ، تراهم قد اضطروا الى مسايرة ذلك التيار الدينى الذى يصطبغ احيانا بصبغة البغض للاجانب • ومن جهة اخرى توجد 19 طريقة تمثلها فى البلاد التونسية 500 زاوية ، ينتمى اليها ما يقرب من 300٠000 مـن « الاخـوان » • زد على ذلك 40٠000 من سلالة الاولياء واتباعهم الذين يخدمون 178 زاوية طرقية ، واخيرا 622 من قبور الصالحين المقدسة ، قد اثر مجموع ذلك التاثير البليـغ خاصة على العناصر المحافظة والشعبية من اعراب وعمال ، بالرغم من هجمات العلماء الناجعة • وقد حافظت الطرق عـلى اتباع لها فى الطبقـات العليـا ، حتى فى القصر الملكى • أما الاقلية من المتطورين فقد تشبعوا بمذهب العلوم الصحيحة والابتعاد عن التقليد الاعمى ، وذلك خاصة اثناء أسفارهم بفرنسا وبترددهم على أوساط خاصة « كجمعية اخوان الصفا » التى تدين بتفوق العقل المشتقة من نظرية فولتـار •

فما انفك علماء الزيتونة القدماء المحافظون المتعصبون يتقهقرون أمام العلماء الاصلاحيين امثال اتباع الشيخ عبده ، الرامين الى تطهير الدين من الادران التي علقت به وانعاشه بالرجوع به الى عظمته الاولى . وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي أول العاملين من أجل ذلك الاصلاح . وهو ابن عدل من أصل جزائري ومن خريجي المعهد الزيتوني ، وكان له تأثير كبير في أوساط الشباب / ومن سنة 1908 تظافرت مجهودات الخواص لمضاعفة عدد الكتاتيب القرآنية العصرية لتلقين الاطفال مبادىء اللغة العربية وأصول الدين الاسلامي حسب طرق التعليم الحديثة . وقد اعتبر هذا العمل انقلابا حقيقيا في الميدان الاجتماعي وحتى الديني . وأخيرا انتشرت الاملاءات القرآنية منذ عام 1935 انتشارا ملحوظا في المساجد للدفاع عن كرامة الاسلام الذي حط به الصليب وتعليم القرآن حتى بمسايرة الاتجاه العصري / وقد بعث هاته الحركة رجل شديد التقى وهو الشيخ عبد العزيز المباوندي الاستاذ بالمعهد الزيتوني . فتجاوب عمله هذا مع حركة العلماء الجزائريين .

/ لقد استجاب المسلمون التونسيون باجمعهم لصدى الشرق في حماس بليغ، واشتد الاهتمام بالمقاومة العنيفة التي شنها الوهابيون في جزيرة العرب على عبادة الاولياء وتقديس الاضرحة . وقد أخذت أوساط الجامعة الزيتونة عن المصريين علوم التفسير وسلوكهم في اعلاء كلمة الله . ومن مصر ايضا وردت النشريات العلمية والادبية والفنية والكتب التقليدية ، كما استقدمت منها الافلام والفرق المسرحية . وعلى هذا النحو شاركت البلاد التونسية في انتشار حلم الوحدة العربية . وتبوأ الثعالبي مقعدا ممتازا في مؤتمر القدس سنة 1931 / كما ان معاهدة 1936 بين سوريا وفرنسا اوقعت اثرا عميقا في تونس ، وبعثت فيها الامال الجسام . والحق ان الاتصال بحزب الوفد المصري والحزب القومي السوري لم يكن مباشرا بل كان منشؤه حب التطلع والشعور بالعطف نحوهما . اما الانتشار الحقيقي لتاثير فكرة الوحدة العربية ، فهو يرجع الى بداية الاتصالات التي تمت بين شكيب ارسلان من جهة والحبيب بورقيبة والهادي نويرة من جهة اخرى اوائل سنة 1937 . ومع هذا فقد ظهرت آثار ذلك الانتشار في ميدان الوطنية اكثر منه في ميدان العروبة .

« الشبان التونسيون »

ونشأت الحركة الوطنية في الاعوام التي عقبت انتصاب الحماية لما امتعضت الطبقة المثقفة من اقصائها عن الميدان العام . فاستخدم « الشبان التونسيون »

les jeunes tunisiens الذين زاولوا تعليمهم في فرنسا ثقافتهم لاثبات وضعية بلادهم الخاصة واثبات تضامنها مع الاقطار الاسلامية قاطبة ، واضعين بذلك حدا للاخطاء التي اقترفها تخليدا لذكرى ابن خلدون المؤرخ الكبير اصيل مدينة تونس، وكانت ترمي الى تزويد المسلمين بالعلوم العصرية ، اسسها سنة 1896 البشير صفر رئيس جمعية الاوقاف واحد مؤسسي الحركة الوطنية الاجلاء بمساندة ثابتة من المقيم العام « روني ميي » وقد تمكنت من احياء تمجيد الحضارة العربية القديمة . والثانية جمعية انشاها قدماء المدرسة الصادقية التي اسسها سنة1875 الوزير المصلح خير الدين حسب مقتضيات البيداغوجيا الغربية . وكانت مبادرة لعلي باش حانبة المحامي التركي الاصل ، ترمي الى بعث الثقافة الحديثة . فمن الطبيعي ان تؤول جمعيتان مثل الخلدونية وقدماء الصادقية الى نواد سياسية ، اختلط فيها خريجو الزيتونة المتشبثون بتربيتهم الدينية الراجعة الى القرون الوسطى بخريجي المعاهد الفرنسية المنعوتين باللائكية ، وجميعهم يطلب التحصيل على الثقافة العصرية .

وقد تجلى ذلك المظهر السياسي في 24 مارس 1906 يوم قدم البشير صفر مشروعا لبعض الاصلاحات التي كان يطالب بها الشعب التونسي امام المقيم العام « ستيفان بيشون » علانية في لهجة معتدلة لا تعوزها الصراحة . فاثارت هاته المبادرة الاحتجاج والسخط في جرائد «المعمر الفرنسي Le colon français و «تونس الفرنسية La Tunisie Française وامتاز فيكتور دوكارنيار بتهجمات عنيفة لا مثيل لها ، وكان رئيسا لجمعية المعمرين الفرنسيين والناطق بلسان المتفوقين الفرنسيين الى سنة 1914 .

الحزب التقدمي وقضية الزلاج

وفي عام 1907 قام البشير صفر وعلي باش حانبة بتنظيم « الحزب التقدمي» للدفاع عن مصالح الاهالي على صفحات جريدة اسبوعية تصدر باللسان الفرنسي تحت اسم «التونسي» Le Tunisien والتحق بهما سنة 1909 الشيخ الثعالبي الذي تعهد باصدار نفس الجريدة باللسان العربي . وتجلى نشاط هذا الحزب في الدعاية الواسعة التي قام بها لفائدة الطرابلسيين ايام الزحف الايطالي سنة 1911 . وفي اثناء تلك الفترة التي بلغ فيها التحمس للدفاع عن الاسلام اقصى حد اقدمت بلدية تونس على تسجيل اراضي مقبرة الزلاج التي يجلها التونسيون ، فاثارت بصنيعها هذا قلاقل خطيرة ، ولا ينازع احد اليوم

في ما اكتساه موقف البلدية اذ ذاك من سوء تدبير فادح • وبالفعل فقد اضطرت الى العدول عن مشروعها بعد ان فات الفوات ، واندلعت حوادث دامية يوم 7 نوفمبر 1911 • فلم يظفر الجنود باسترجاع المقبرة والحي المرابط لها الا بعد خوض معركة حقيقية • وكانت تلك اول مرة اصطدمت فيها القوة المسلحة مع الشعب التونسي، فاسفرت المعركة عن قتل ثمانية من الفرنسيين والايطاليين، ولم يعرف حتى اليوم عدد القتلى من التونسيين • واثر تلك الحوادث انتصبت حالة الحصار ولم ترفع الا سنة 1921 • وصدرت احكام على خمسة وثلاثين من المتظاهرين وحكم على سبعة منهم بالاعدام •

ولم ينتبه اذ ذاك الملاحظون وحتى الحاذقون منهم الى النتيجة الرئيسية لحوادث الزلاج • فلم يروا فيها الا هيجان دهماء تعصبت لحادث طارئ طفيف، بينما بينت تلك الحوادث ان روح المقاومة ولدت في الجماهير بعد ان كانت لا تشعر بها الا نخبة المثقفين وحدها • ولم تلبث ان برزت حركة معادية للاجانب انقلبت الى معارك ذات صبغة اجتماعية • فبمناسبة حادث ذهب ضحيته طفل تونسي تسبب في قتله سائق ايطالي يوم 9 فيفري 1912 قرر المسلمون في تأثرهم باخبار وردت من حرب طرابلس مقاطعة « الترامواي » • وانتهز العمال العرب هاته الفرصة للمطالبة بنفس الاجور التي كانت تدفع للعمال الايطاليين القائمين بنفس العمل • فلم ينل ذلك المطلب من تصلب موقف الشركة واعلنت الحكومة عندئذ بالرغم عن الاحتجاجات الصادرة عن باش حانبه • ان مقاطعة « الترامواي » تعتبر مؤامرة سياسية ضد الادارة الفرنسية • وبعد ان مني انذارها بالفشل ، أمرت بنفي باش حانبه والثعالبي والمحاميين حسان قلاتي ومحمد بن حمودة نعمان من البلاد التونسية • وكان باش حانبه الوحيد الذي لم يعد الى تونس • وبقيت الحركة سرية طيلة ست سنوات بعد أن قضى على قادتها •

« تونس الشهيدة »

لم ينقطع اخلاص الوطنيين التونسيين قط ولم تصدر عنهم أي حركة معادية أثناء الحرب العالمية الاولى • كما انه لم ينسب اليهم احد ثورة الجنوب سنتي 1915-1916 • واثر الحرب فكر « حزب تونس الفتاة » Parti Jeune Tunisien الذي انقلب سريا الى الحزب التونسي Parti Tunisien ان الوقت قد حان للعمل في سبيل التحصيل على دستور وتعلق اهتمامه بالنظام الذي منحته ايطاليا الطرابلسيين وببرنامج «وودرولسن» المحتوي على اربعة عشر

فصلا .وبمناسبة اقامة رئيس الولايــات المتحدة بروما برز الحزب للوجــود لاول مرة ، اذ أرسل اليه في افريل 1919 مذكرة تتضمن الاجراءات الواجب اتخاذها لتطبيق مبادئه في تونس . وبعد شهرين سافر الثعالبي الى باريس حيث نشر في نوفمبر «تونس الشهيدة»(1) وهو كتاب ذو صبغة نقدية لم يذكر مؤلفه ، وقد قابل فيه بين الاضطهاد الفرنسي والنظام التحرري الذي ساد البلاد قبل سنة 1881 . كما طالب فيه باسناد السلط التشريعية الى مجلس أعلى يتركب من ستين مواطنا تونسيــا ينتخب معظمهم بطريقــة حرة بقــدر المستطاع ، ويكون الملوك الوراثيون مسؤولين أمامه ، وباحداث مجالس لهــا حق المداولة والتقرير في الاعمال والقرى ، وتمكين كل اجنبي ولد بالتــراب التونسي من التحصيل على الجنسية التونسية بعد الاقامة بها مدة عشر سنوات، وبتأسيس سلطة عدلية مستقلة ، وبحرية التعليم ونشره ، وبمنح الحق في تاسيس جمعيات صناعية ، وبتشريع اجتماعي . فلا غرابة ان نرى الثعالبي ، الرجل الذي يعتبر عصر البايات الاصلاحيين العصر الذهبي ، يتأثر في وضع برنامجه بعهد الامان الصادر عن محمد باي سنــة 1857 تحت ضغط الـدول الكبرى وبالدستور الذي منحه محمد الصادق سنــة 1861 . وقــد اقتبست « تونس الشهيدة » أهم ما جاء في ذلك الدستور ، خاصة فيما يتعلق بالمجلس الاعلى ، وقد حافظ حتى على عدد اعضائه الستين ، مع تعديله حسب مقتضيات الظروف الجديــدة .

المشكل الدستوري :

كان هذا التعلق الظاهر او الخفي بما منحته العائلة الحسينية من حريات شديدا في نفوس التونسيين لحد جعلهم يتساءلون هل بقي لذلك الدستور الممنوح كيانه الشرعي وهل كان يتماشى مع وجود الحماية . وصدرت في 10 جويلية 1921 فتوى ذات أهمية كبرى في الموضوع من « جوزاف بارتلمي » استاذ القانون الدستوري في جامعة باريس باتفاق مع « اندري فايس » استاذ القانون الدولي العام في نفس الجامعة وكاهية رئيس المحكمة الدولية بلاهــاي .

1) ـ كان الثعالبي يجهل الفرنسية فاستعان بالاستاذ احمد الصافي الدكتور في الحقوق ، ومندوب الحزب التونسي القار في باريس .

فبناء على مبدا اقره القانون العام ، اثبت هذان الاستاذان ان للدستور الممنوح مفعولا ابديا ولو وقع الملس به ، وان انتصاب الحماية ليس من شأنه تغيير النظام الدستوري في البلاد التونسية اذ تحترم الحماية سيادة الملك الداخلية على الصورة التي تجدها عليها يوم انتصابها ، أي محددة بما منحه الملك من حريات الى شعبه • ويبدو هذا الاستنتاج القانوني بديهيا ، اذ « لا يمكن لحماية تنصبها جمهورية ذات الاراء التحررية ان تعزز نظاما استبداديا في البلاد المحمية » • فيكفي حينئذ ان « يتفق جلالة الباي مع الحكومة الفرنسية » ليرجع العمل بالدستور ولو بعدما أهمل تطبيقه • ويقر الاستاذ « بارتملي » ـ بدون ان يثبت هل كان حق المبادرة باحياء الدستور راجعا الى الملك ام لا ـ بانه « لا ينكر ان للباي حق اجراء محادثات مع الحكومة الفرنسية وتقديم مقترحات اليها ترمي الى رفاهية شعب ما يزال مسؤولا عنه » • ثم تختم الفتوى من جهة بان « النظام الدستوري يتفق في طبيعته وروحه مع نظام الحماية » ، ومن جهة أخرى بانه « ليس هنالك تناقض مبدئي بين وجود حريات سياسية في البلاد المحمية وبين نظام الحماية » • وحينئذ عندما طالب الناصر باي والمنصف باي والامين باي بنظام دستوري اتباعا لاجدادهم البايات المصلحين ، فقد اتفقوا في الراي مع اثنين من أعلم علماء القانون الفرنسيين ، كان ثانيهما ، زيادة على ذلك ، هو مستشار وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية بالذات •

« الدستـور » وبرنامجـه

وبالرغم من مجهودات الادارة فقد تم في البلاد التونسيـة توزيع كتاب « تونس الشهيدة » في طي الخفاء • واقبل عليـه القراء اقبالا رائعـا • وفي فيفري 1920 عوض الحزب التونسي بالحزب الحر الدستوري التونسي المدعو عادة « الدستور » • فنشر بيانا يطالب فيه بتحرير الشعب التونسي من قيود الاستعباد ومنحه دستورا بموافقة الباي يمكنه من حق حكـم شؤونه بنفسه دون سواه باشراف العائلة الحسينية ، ويكون البرلمان منتخبا من التونسيين فحسب ، وتكون الحكومة مسؤولة امامه ، وعلى نفس القاعدة تنتخب المجالس البلدية والحجر التجارية والفلاحيـة • ولا يتألف الجيش التونسي الا مـن التونسيين • وينبغي ان يخضع جميع السكان الى العدالة التونسية ، الا فيما يتعلق بقانون الحالة الشخصيـة • ويجب اتخاذ اجراءات لاسترجاع أراضي الاستعمار واحياء الملكيـة الاهليـة :

وبدون شك لم يكن الدستوريون يعلقون آمالا عريضة على امكانية قبول ذلك البرنامج الشامل ، اذ يقتضي زوال الحماية بموافقة السلط الفرنسية • ولئن كان ذلك البرنامج قد حدد الغاية الواجب بلوغها فانه لا ينفي امكانية التحصيل على اصلاحات بكفاح يقوم به الشعب التونسي مع مساع ديبلوماسية تجرى في باريس ، وقد تعددت في البلاد التونسية الحملات الصحافية والمظاهرات في الشوارع والمقاطعات في الميدان الاقتصادي طيلة سنتي 1920 و 1921 • وسعت الادارة الفرنسية بوحي المتفوقين سعيا غير موفق لجعل الاحباس الخاصة في متناول الاستعمار الفرنسي • فاحدث انزعاجا مزدوجا في نفوس التونسيين ، اذ كانوا يخشون من جهة أن يحرموا من كراء أراض تمثل الثلث من الاراضي الصالحة للحراثة وذلك باثمان بخسة ، ومن جهة أخرى أن يروا تلك الخيرات المخصصة للمشاريع الاسلامية تخرج عما أعدت اليه أصلا ، والحال انها غير قابلة للتفويت بمقتضى القانــون •

واتخذ أصحاب العمائم العتيقة والدستوريون لمقاومة ما أزمع اتخاذه مــن تدابير تعتبر ماسة بالدين الاسلامي • وظنت الحكومة انها تستطيع قمـع القلاقل بالقاء القبض على الشيـخ الثعالبي بتهمة التآمر على أمـن الدولة • وقد نقل الى تونس ليمثل امام مجلس حربي • وبعد اعتقال دام تسعة أشهر صدر في شأنه حكم بعدم سماع الدعوى ، واستمر في نشاطه وبالخصوص في تكوين شعب محلية بأسلوب ورثه عنه الحزب الدستوري الجديد •

على أن خلافات داخلية أدخلت بعض الضعف في صفوف الحزب الدستوري ، فاضطر الى تحوير برنامجه وتكييفه بمقتضى الامكانيات • وفي لائحة الرغائب التي قدمها أوائل سنة 1921 أربعون شخصية من اعيان البلاد الى المقيم الجديد « لوسيان سان » لم يطعن في نظام الحماية ، بل وضعت لتركيزه تسعة مطالب جوهرية : تاسيس مجلس تشريعي يتألف من تونسيين وفرنسيين ، ينتخبون من كافة السكان ويتمتعون بنفس الحقوق ، تاسيس حكومة مسؤولة أمـام ذلك المجلس ، التفريق بين السلط التنفيذية والتشريعية والعدلية ، تمكين التونسيين من جميع الوظائف التي يكونون اكفاء لها ، تساوي الاجور عند تساوي العمل ، احداث مجالس بلدية منتخبة ، حرية الصحافة وتأسيس الجمعيات ، حرية التعليم وانتشاره ، حق التونسيين في شراء أراضي الاستعمار •

وكان الكثير من تلك الرغائب متزنا وجديرا بالاهتمـام • لكنها أثـارت استنكارا بالغا في الرأي العام الفرنسي بتونس • فاكتفى المقيم العام برفع

حالة الحصار والاعلان عن تفريق السلط • وأسس بمقتضى ذلك وزارة للعدل • وامتنعت سلط الحماية من البحث في أصل الموضوع زاعمة أن معاهدات سنتي 1881 و 1883 تحول دون ذلك •

زيارة « ميلران » والازمة التي أثارها الناصر باي

فحاول الحزب مجاراة لمعاهدة الحماية اقناع الباي بان يطرح المشكلة بنفسه على الحكومة الفرنسية قبيل زيارة رئيس الجمهورية « ألكساندر ميلران » حتى تجد حلا لخلاف يكون قائما بين الاقامة العامة والقصر الملكي • ونشر اذذاك مراسل جريدة « لوبوتي جورنال » بوحي من المكلف بقسم الصحافة في الاقامة العامة الذي هيأ المقابلة تصريحا للباي يستنكر فيه الدعاية الشيوعية ، ويشهر لدى الشعب باخطار الحزب الدستوري ، كما يعلن انه لا فائدة في منح دستور للبلاد • زد على ذلك أن تلك التصريحات المنسوبة الى الباي قدمت كموقف رسمي له • لكن الباي كذب تكذيبا قطعيا تلك التصريحات ، وطلب من المقيم العام أن يقف نفس الموقف ، فرفض • واشتدت الازمة حتى قدم الناصر باي في 4 افريل تنازله عن العرش الى المقيم • وما انتشر الخبر حتى أغلقت الدكاكين أبوابها ، وامت الجماهير القصر الملكي بالمرسى يوم 5 أفريل ، وهو نفس اليوم الذي نزل فيه الرئيس « ميلران » بالمغرب الاقصى • فتوجه « لوسيان سان » وهو رجل شدة وبأس ، الى الباي في موكب فاخر ، وطلب منه بيانات قطعية عن موقفه ، وتحصل على نشر تصريح يكذب فيه الباي بصفة باتة جميع الاشاعات التي راجت حوله » (2) وكان الموكب الذي قدم فيه المقيم يتركب من فيلق من الجنــود طوق بلدة المرسى • واسفرت مقابلة المقيم عن تعويض الوزيــر الاكبر واطراد صحافيين اثنين اصبح وجودهما غير مرغوب فيه •

بيد انه اثناء هذا الخلاف سلم الباي الى المقيم العام برنامجا يحتوي على ثمانية عشر نقطة ، يتضمن بعضها منح دستور للبلاد واختيار علــم وطني يكون رمزا للبلاد التونسية • وهدد بالتنازل عن العرش ان وقع رفض تلك المطالب • وتذكر الاوساط الرسميــة ان ذلك الانذار صدر يوم 3 افريل فــي بداية الازمة ، يؤكد الثعالبي انه صدر بعد التكذيب المذاع يوم 5 افريل (3) •

---

2) — « كامبون » ، تاريخ الايالة التونسية ، ص 221 •

3) — تصريح للشيخ الثعالبي الى « م• روسي » نشر في « اوريانتي مودارنو » الشرق العصري 15 سبتمبــر 1923 •

مشروع ميثاق برلمانـــي

تم سفر « ميلران » الى البلاد التونسية دون ان تجري حوادث ، لكن الانذار كان شديدا • فلقد تبين ان سياسة « كامبون » التي كانت ترمي الى استمالة اصحاب العمائم العتيقة بكل حذر بـاجتناب التحويرات في الوضع القديم لم تعد ملائمة خاصة بعد وفاة الكاتب العام « برنار روا » سنة 1919 ؛ وهو المعتبر احذق ممثل لتلك السياسة ، وكان يخشى ايضا من نتائج اتحاد الدستوريين والشيوعيين الذين اصبح نشاطهم ملموسا •

وكان حل المشكلـة يقتضـي من دون شك ادخال اصلاحات جوهرية على مؤسسات البلاد ، وقد تيسر ذلك بعد رفع حالـة الحصار في مـارس 1921 • وهنا ما رآه ثلاثة وعشرون من اعضاء البرلمان بسعي من « بيار تيتنجير » ، وكان يعتبر بعضهم من اكثـر العناصر اعتدالا فـي مجلس به عدد كبيـر مـن المعتدلين (4) فقدموا بهذا الشان فـي 2 فيفري 1922 مشروع لائحة يعلق منح قرض الى البلاد التونسية على توفير جـو من التفاهم بين الملـك والدولـة الحامية ، يتسنى فيه للمملكة الظفر بدستور يتضمن تفريق السلط وتاسيس مجلس تشريعي منتخب انتخابا حرا ينظر في شؤون الميزانية وتكون الحكومة مسؤولة امامه • وبعد مناقشات دارت حول القضية التونسيـة يومي 4 و 5 جويلية 1922 ، قـرر مجلس النواب الفرنسي المحافظـة على نفوذ فرنسـا وحقوقها في جميع الحـالات وتنشيط الاملاك الاستعماريـة ذات المساحـة الصغرى والمتوسطة بخلاف الاملاك الشاسعة التي يستغلها من يقطن خـارج البلاد ، ووافق في النهاية على اصلاحات سياسية واسعة النطاق •

المجلس الكبير

واتخذت في شهر جويلية 1922 جملة من الاوامر ، احدثت مجالسا للاعمال في التراب المدني ، تتركب من الاهالـي فحسب ، وتستشار فـي الشؤون الاقتصادية المحلية • كما انشئت مجالس للجهـات مختلطة التركيب ، لهـا نفس الخصائص في النطاق الجهـوي ، ولها حق التصرف فـي مداخيل من

---

4) ـ من جملة الموقعين على اللائحة يوجد موريس باراس، بول اسكوديـي، بول دي كاسانياك، البستور ادوار سولي ، موريس دي روتشيلد ، البرنس جواكي ميرا ، بول بانلوفـي ، الكولونيل اميل بيكو ، الكولونيل ادولف جيرو ، جوزاف برتلمي ، جورج نوبلومار، جان فابري •

الصنتيمات الاضافية ، وكانت قد انشئت سنة 1896 لجنة استشارية لا تشتمل على غير نواب الجالية الفرنسية ، وتمد المقيم العام بارائها فيما يتعلق بالمصالح الاقتصادية والنظام الجبائي المتبع في تونس . وفي سنة 1907 قرر المقيم العام « قبريال الابتيت » اضافة قسم الى اللجنة الاستشارية يتركب من الاهالي ، وكان يرغب في ان تعقد جلسات مشتركة ، الا ان نواب المعمرين ابوا في كبرياء ان يجلسوا بجانب حاملي البرانس (كذا) (5) .

وهكذا قضى تعصب المتفوقين على سعي للادارة تقصد به القيام بتجربة ادماج كانت تحصل عنها في ذلك العهد نتائج هامة . ونزولا عند رغبتهم صدر امر علي بتاريخ 27 افريل 1910 يقتضي اجتماع كل من القسمين التونسي والفرنسي على انفراد . وهكذا انجر عن هذا الامر فتح هوة اخذت تتسع شقتها شيئا فشيئا تحت تاثير التنافس القومي بين الطرفين . ومن اهم ما جاء في اصلاحات 1922 تعويض اللجنة الاستشارية بالمجلس الكبير ، وقد صدر امر علي ثان سنة 1928 يجدد تراتيبه . وحافظت المؤسسة المحدثة على القسمين فرنسي وتونسي ، فكان الاول يعد ستة وخمسين عضوا ، يمثل اثنان وعشرون منهم المصالح الاقتصادية ، وينوب الباقون الجالية الفرنسية نيابة جهوية بواسطة انتخابات بالاقتراع العام . وكان القسم الثاني يتركب بمقتضى امر سنة 1934 من واحد واربعين عضوا ، تتولى تعيينهم مجالس الجهات والحجر الفلاحية والتجارية .

ان تلك الاصلاحات عززت جانب امتيازات المتفوقين وكذلك جانب الاعيان الاهليين المخلصين لفرنسا . كما انها لم تمنح المجلس الكبير الا مهمة استشارية ، مخولة للمقيم العام امكانية صرف النظر عما يتفق عليه القسمان في شؤون الميزانية لاسباب تتعلق بالامن العام او بمصالح فرنسا الادبية والمادية . فلم تكن تلك الاصلاحات لتحل المشاكل الحقيقية ، بل تجاهلتها . ولئن احرزت على استحسان « الاصلاحيين » وعلى راسهم الاستاذ حسن القلاتي الجزائري الاصل ، فقد اعتبرها الدستور هزيلة جدا .

---

5) ـ « كوهين حضرية » ، تونس 1952 ، ص 25 .

وفي السنة الموالية هدد الشيخ الثعالبي بفتح تتبعات ضده ، فغادر البلاد التونسية قاصدا ايطاليا فمصر فالعراق دون ان يثير خروجه اكتراث التونسيين . لكنه لم يأل جهدا من العمل في سبيل انتشار فكرة الوحدة العربية ، خصوصا بمشاركته في مؤتمر القدس ، الى ان رجع الى بلاده سنة 1937 رجوع المظفر . وبعد خروجه من تونس تابع المحاميان احمد الصافي وصالح فرحات سياسته . واستمرت الاضطرابات في صورة مظاهرات واضرابات عنيفة احيانا . وهاج الراي العام الوطني بالخصوص اثر صدور قانون فرنسي في 20 ديسمبر 1923 يقضي باسناد الجنسية الفرنسية الى التونسيين اذا ما توفرت فيهم بعض الشروط . وحكم على المتجنسين بالارتداد ، وخشي من ان تستطيع الامتيازات المتعلقة بالجنسية الفرنسية استجلاب التونسيين الساخطين للحالة المنقوصة التي هم عليها . واصر على الراي بان ذلك القانون يمس بسيادة الباي . ولما وافق سيدي محمد الحبيب الباي على نشره في الرائد الرسمي التونسي فشلت تلك الحملة .

حركات عمالية ورغائب سياسية

واخطر من تلك الحملة نشوب اضطرابات في اوساط العملة ، ترجع من جهة الى التاييد الشيوعي والى روح المقاومة التي ظهرت في الجامعة العامة للشغل (C.G.T.) المستقلة ، وقد تاسست في 12 اكتوبر 1924 بالرغم عن الاشتراكيين اصحاب الفكرة النقابية الذين اعتبروا المنظمة الجديدة بلدا عاقا . وكانت اضرابات عملة شركة حمام الانف للاسمنت والعملة الفلاحين بمزرعة برج السدرية (Domaine de Pottinville) وعملة الرصيف بتونس (ديسمبر 1924 جانفي 1925) ، وقد اعتدى اثناءها بالعنف على المتخاذلين من العملة ولاول مرة يوم 25 جانفي 1925 منع العملة التونسيون بالقوة العمال الاوروبيين من استئناف العمل بمعامل شركة المياه بحمام الانف . فثارت الجالية الفرنسية لذلك الحادث حتى كتبت احدى الجرائد الناطقة بلسانها : « يحق لنا ان نتكهن بان العملة الاوروبيين من فرنسيين وايطاليين سوف لا يباشرون عملهم الا برضى محميينا الذين اصبحوا سادة اليوم » (6) فقامت السلط العمومية برد فعل عنيف ، والصقت

6) — جريدة « تونيزي فرانساز » (تونس الفرنسية) في غرة جانفي 1925 .

تهمة المشاركة مع الحزب الدستوري بالشيوعيين والنقابيين ، واحالتهم على المحاكم ، فحكم عليهم بالسجن .

واحتج الحزب الدستوري احتجاجا صارما على تهمة التعاون مع الشيوعيين الموجهة ضده ، خاصة وهو يامل قبول مطالبه من حكومة الجبهة اليسارية المؤلفة في غرة جوان 1924 برئاسة « ادوار هريو » . ولذلك الغرض ذهب وفد الى باريس في شهر نوفمبر يتقدمه احمد الصافي ، لكنه لم يحظ بمقابلة رئيس الحكومة . فقدم مذكرة ينتقد فيها الحزب الدستوري اصلاحات سنة 1922 انتقادا طويلا ، ويتذمر من تعيين شيخ التراب للاعيان في مجالس الاعمال . كما يتذمر من حرمان « العملة واصحاب الصناعات الصغرى في المدن وصغار الفلاحين » من حق الانتخاب . وفعلا فقد تبين منذ بداية تطبيق الاصلاحات ان عدد الذين اختارتهم الادارة كان يفوق عدد المنتخبين في مجالس الجهات . اما المجلس الكبير فلم يكن اعضاؤه « ممثلين للشعب على الوجه الصحيح » وكان التفاوت بين عدد النواب الفرنسيين والتونسيين « يبرهن على عدم المساواة الفادح الذي يجسم اكبر خلل » يتصف به ذلك المجلس . وعلاوة على ذلك فان للمجلس الكبير « اختصاصات ضيقة جدا » . لانه ليس له في الواقع سوى صوت استشاري في شؤون الميزانية تحد من مفعوله عدة قيود . واخيرا فان انقسام المجلس الى قسمين ، يعمل كل منهما على انفراد ، لم يعرقل بحث المسائل المعروضة عليه فحسب بل جعل الاتصال صعبا بين نواب الجالية الفرنسية ونواب الشعب التونسي ، والحال ان للجميع فائدة كبرى في العمل بتعاون متين والتعارف المتزايد وربط اواصر الاخوة بينهما في شعور مشترك بالصالح العام . ثم ذكر الحزب الدستوري من جديد بالنقط التسعة الرئيسية من برنامجه مع شرحها .

وفي 22 جانفي 1925 قدم القسم التونسي للمجلس الكبير من جهته الى المقيم العام برنامج اصلاحات ملموس يرتكز على احترام نظام الحماية ، ويرمي الى تحسين اوامر سنة 1922 بانجاز النقط التالية : التساوي بين النواب الفرنسيين والتونسيين بالمجلس الكبير الذي يصبح له مطلق النظر في شؤون الميزانية وحق مراقبة المصاريف مراقبة فعلية ، انتخاب اعضاء مجالس الاعمال عن طريق الاقتراع العام ، التفريق بين السلط الادارية والعدلية ، تمكين التونسيين من جميع الوظائف العمومية مع المساواة في المرتبات ، وحرية الصحافة والاجتماعات العامة . وقد اتفقت تلك المطالب مع ما تقدمت به من

المقترحات (7) الكتلة الاشتراكية بالمجلس الكبير يوم 26 أوت 1924 • وعلى اثر تصريحات للنائب البرلماني الشيوعي « اندري برطون » ذكر فيهـا ان لفرنسا « حقا واحدا بتونس هو الجلاء ! » تأسست جبهة تتالف من الحزب الدستوري والقسم التونسي للمجلس الكبير والحـزب الاشتراكي واتحـاد النقابـات • وهكذا برزت « علامات الوحدة والتآلف فـي صفوف اصدقائنـا الاهالي حول ما يحتويـه برنامج الحزب الاشتراكي من انجازات عاجلـة (8) ولكن الدستوريين لم يرضـوا بحل الجامعة العامـة للعمال التونسيين (C.G.T.T.) وقد طالب بـه الاشتراكيون ، بينما قام الشيوعيون بحملـة عنيفة على المنظمة الجديدة •

وتأكدت ضرورة التفاهم والوفاق من يوم لبى الرئيس « هريو » رغبـة وفد من نواب المجلس الكبير ، فارسل الى تونس لجنة تبحث عن تدابيـر تتماشى مع المعاهدات ، ويمكن للحكومة الفرنسية عرضها علـى الباي (17 فيفري) • وعند عودتها الى فرنسا في شهر ماي لم توص اللجنة المذكورة باصلاحات جوهرية بل بمجرد تحسينات ادارية • فخابت ظنون الدستور من هذا الموقف خيبـة مرة واسترجع حريتـه في العمل ، ولكنه شعر بضعف كبير لحق بصفوفه ، فالتجأ الى العمل السري او ما يشبهـه •

« الاوامر الاستثنائية العاتية » الصادرة في 6 ماي 1933

وكانت المظاهـرات العمومية التي قام بهـا الكاثوليك (9) اثنـاء مؤتمر قرطاج الافخاريستي وكذلـك الاحتفال بمرور قرن على احتلال الجزائر سنـة 1930 سببا في بعث النشاط الوطنـي من جديد • فان الاقامة العامـة قدمت من جديد بسوء تدبيرها فرصة ثمينة للمعارضة في مشكلة هي ، مثل حوادث الزلاج ، ذات انعكاس ديني • وكان الحزب الدستوري يعتبـر المتجنسين مرتدين ، ويعـارض فـي دفنهم بالمقابـر الاسلامية • فطلبـت الحكومـة الفرنسية سنة 1933 من المجلس الشرعي اصدار فتوى تثبت بقاء المتجنسين

7) — نشرتهما جريدتا « النهضة » بتاريخ 28 اوت 1924 و « الريك فرانسـاز » (الريفيـا الفرنسية) في سبتمبر 1924 • ولاحظت جريدة « تونس سوسياليست » (تونس الاشتراكية) بتاريخ 2 فيفري 1925 ذلك التشابه بغاية الارتياح •

8) — « تونس سوسياليت » (تونس الاشتراكية) في 20 فيفري 1925 •

9) — كان تدشين تمثال « الكاردنال لا فيجري » وهو يحمل الصليب على ابواب المدينة العربية قد اثار بعض احتجاجات في نوفمبر 1925 •

في الحضيرة الاسلامية كما القى « اميل موريتو » وهو النائب البرلماني عن مقاطعة قسنطينة والمناضل السابق للفكرة المناهضة للسامية ولسان حال كبار المعمرين ، خطابا على منبر مجلس النواب الفرنسي في شان المتجنسين عاد عليهم بالوبال بصورة نهائية • وبلغ الهيجان اقصى حده في اوساط الطلبة على الخصوص من دون ان تنشب حوادث •

واعترفت الاقامة العامة في الآخر بانها اتبعت منهجا لا يتماشى مع الظرف السياسي • فقررت احداث مقابر خاصة للمتجنسين ، ولكنها في الوقت نفسه عمدت الى القضاء على المعارضة • فاستصدرت امرين عليين في 6 ماي 1933 عبر عنهما « بالاوامر الاستثنائية العاتية » تحدث وضع الاقامة تحت الرقابة الادارية ، ثم سلطت على الجرائد التونسية الصادرة باللسان الفرنسي وسائل زجرية ، فالحقت بها نظام التوقيف المتعلق بالصحافة العربية • وفي النهاية اعلنت حل الحزب الدستوري (31 ماي) • فرأت جريدة تونس الاشتراكية من العمل المشرف ان تفتح اعمدتها الى رجال حرموا من حرية التعبير ، فلم تنل الدعاية اى خسارة • واقتبس الحزب الدستوري من تلك المحنة نفسها قوة متضاعفة بالرغم عن ضعف وقتي تولد عن انسلاخ الشاذلي خيرالله عنه • ومن ذلك الحين كانت له ثمانون شعبة ، وقد أعلن بكل حزم تعلقه بالسيادة التونسية والنظام التمثيل البرلماني اثناء مؤتمره القومي المنعقد في 10 ماي • وتبين مدى تاثيره اثر مظاهرات الطلبة ومحاولات ترمي الى مقاطعة المنتوجات الفرنسية والاضرابات الاحتجاجية التي تمت يوم غرة جوان •

انشقاق الحزب الدستوري بمؤتمر قصر هلال

وانزعجت الجالية الفرنسية لهذا الوضع ، فطالبت باريس بارسال مقيم يمتاز بالشدة والبأس ، فمدتها « بمرشال بيرطون » (29 جويلية 1933) (10) وقد تجلت له خطورة الحالة عند نشوب حوادث المنستير ، وهي مسقط رأس الحبيب بورقيبة ، بمناسبة دفن ابن موظف متجنس بالجنسية الفرنسية جرى تحت حراسة الجند ، فأصبح قبر احد المتظاهرين قتل برصاصة محل زيارة مقدسة • بيد ان المقيم الجديد حاول بادىء الامر سلوك سياسة ترمي الى التقارب

(10) — وصفه الجنرال « جيرو » الى الجنرال « دي قول » في مقابلة بانفا في جانفي 1943 بانه « رجل شدة وباس » ذكر ذلك « سوستال » في كتابه « ضد كل شيء » ، الجزء الثاني ، ص 125•

باحداث لجنة لدرس الاصلاحات التونسية . وكان الظرف يسمح باتباع سياسة الانتظار نظرا للانقسامات التي اخذت تتفاقم في صفوف الحزب الدستوري : اذ طلع فريق من العاملين ذوي آراء أكثر تقدما وتحررا والتف حول المحامين الاخوين الحبيب ومحمد بورقيبة والبحري قيقة والطاهر صفر والحكيم محمود الماطري ، وتصدى لمقاومة اللجنة التنفيذية التي سيطرت عليها شخصيتا احمد الصافي وصالح فرحات . فاسفرت النتيجة عن انشقاق تم اثناء مؤتمر قصر هلال في مارس 1934 . واصبح من ذلك التاريخ حزبان دستوريان : الحزب الدستوري الجديد الذي جر خلفه الاغلبية الساحقة في البلاد ، والحزب الدستوري القديم الذي انكمش وظل يترقب ساعته .

وما انفكت الخلافات القائمة بين الحزبين المتنافسين تتضاعف شيئا فشيئا وهما من اوساط اجتماعية متباينة ولهما تصورات متناقضة . فالحزب الدستوري الجديد ينتدب اطاراته من بين المثقفين المتوسطي البيئة غالبا والبعيدين عن الارسطوقراطية والبرجوازية اللتين لا يشعر باي عطف عليهما . والكثيرون من اعضائه كانوا ناضلوا في فرنسا داخل الاحزاب اليسارية . ويظهر موقف الدستوريين العقائدي في مظهر قوي جدا . فقد تشبعوا في مدارسنا بذكريات « فرسانجيتوريكس » و « جان دارك » و « فالمي » Valmy وهم ينتسبون الى مبادىء الحرية القومية التي تلقنوها بوصفها أساس العظمة الفرنسية ، وهم أمام الاستيلاء الاجنبي يتمسكون ويؤكدون « السيادة التونسية » المظهر الشرعي « للامة التونسية » ذات الخصائص الروحية والادبية في القانون العام وفي القانون الدولي . واما تلك السيادة فان « الشعب التونسي » هو الذي يجب ان يعبر عنها عن طريق الاقتراع العام وان ينظمها في صورة سلطة تنفيذية مسؤولة لديه . وينبغي ان تكون السلطة العدلية والسلطة الادارية منفصلتين تماما عن بعضهما بعضا . كما ان ضمان الحرية الشخصية ، سواء الخاصة بالمواطنين او الخاصة بالمقيمين الاجانب ، لا يمكن ان يناط الا بعهدة السلطة العدلية وحدها . وفي مثل هذا النظام لا يكون للجالية الفرنسية او الاوروبية او الاسرائيلية الا مقام على نسبة قيمتها العددية . فلا يمكن لافرادها ان يكونوا في سلم المجتمع الا كمستاجرين ، ولا مجال للحديث في المستقبل لا عن الامتيازات القنصلية الممنوحة للعدلية الفرنسية ولا عن اختصاصات هاته العدلية في القضايا المتعلقة بامن الدولة .

ولم يتاثر البرنامج الدستوري بنظام الحكم الشرقي الاستبدادي المستمد

سلطانه من الدين والذى يمثله الباى ، بل يستوحى فى الميدان النظرى من اصول القانون العام الغربى التى تلقاها المحامون الشبان على مقاعد كليات فرنسا ، وفى الميدان العملى من عهد الامان ودستور 1861 اللذين فرضهما الضغط الاروبى على البايات المصلحين · ذلك لان الدستور الجديد فى حقيقة الامر كان يتحمس للفكرة القومية اكثر منه لفكرة الوحدة العربية · ويوجه اهتمامه الى المطالب التى لا مساس لها بالدين اكثر منه الى الطموح الاسلامى فذلك الاعتبار للمصلحة التونسية المسيطر على كل شىء ، والذى ما انفك يبرز وتتضاعف قوته يوما بعد يوم ، هو الذى يميز الحزب الدستورى الجديد عن الحزب الدستورى القديم ·

وقد ساعد المنشقين الدستوريين فى الظرف الحاسم رجل اقتصادى من عاصمة تونس وهو السيد محمد شنيق ، رئيس التعاضد المالى ، وكان الحزب القديم شديد الانتقاد على موقفه الاصلاحى · وقام بدور الوساطة السيد حمدان بدرة كاتبه ومستشاره ، وهو برجوازى من عاصمة تونس ذو ثقافة واسعة · فانجر عن ذلك التحالف اعانات مالية ثمينة الى الحزب الدستورى الجديد ، والى التعاضد المالى التخلص من مضايقات الرقابة الادارية ·

دعاية الحزب الدستورى الجديد :

واصل الدستور الجديد مع تلك المساعدة حملاته فى سبيل المطالبة باندفاع متزايد وطرق عملية عصرية مقتبسة من الشيوعيين والفاشيين · واتخذت دعايته جميع الوسائل الصالحة للتاثير على المخيلة : دخول الزعماء للمدن فى مواكب رهيبة ، واستعراضات وشارات ، وشبيبة مرتدية أزياء خاصة ، وتزيين المنصات ، ونشيد وطنى ملحن تلحين النشيد المصرى ، وطاقم موسيقى عربى يعزف على الآلات النحاسية · وشرعت الصحافة فى نقد النظام نقدا دقيقا مبدئيا ، وعددت المطالب · وبعثت الاجتماعات العمومية حماسا بالغا فى نفوس الجماهير ، وعملت الشعب المحلية على استمرار تلك الشعلة المقدسة · ولقد بانت طريقة الحزب الدستورى الجديد العملية على جانب عظيم من المرونة اذ كان يستحيل عليه أن يعرض برنامجه المبنى على اصول السيادة الشعبية والتسامح فى المعتقد وتفريق السلط ، على جماهير يعسر عليها ادراك تلك المبادىء ، دون أن يكيفها ويقربها الى عقليتها الدينية وغرائزها · ويتحتم عليه من جهة أخرى ان يعتبر الوضع الواقعى الذى أحدثته معاهدة قصر السعيد واتفاقية المرسى الواضعتان للحماية · فكان

القادة يلحون على بند من البرنامج دون سواه ، ويمرون على جناح السرعة على غيره بحسب المخاطب من الباي او الخارجية الفرنسية او الجماهير في الاجتماعات العامة . فتارة يعلنون مبدا السيادة التونسية المنفردة في البلاد دون غيرها وتارة لا يجدون بدا من التغاضي على التدخل الفرنسي على امل التحرر منه على مراحل . وكان لبرنامجهم صبغة المقترحات أكثر مما يحتوى على عروض عملية واضحة . وخلافا لمبدئهم المتعلق بالسيادة ، فانهم لا يطلبون من الباي تجديد دستور ممنوح للبلاد . بل يتوجهون الى فرنسا لتفرض دستور على ملكهم المطلق النفوذ .

الحزب الدستوري القديم والحركة الاصلاحية :

بيد ان الالتباس الذى اكتساه ذلك الموقف وفرضته مقتضيات العمل ، لم يفت الحزب الدستوري القديم . فلئن أظهر هذا الحزب اتفاقه مع المنشقين على المبادىء الجوهرية الخاصة بالامة والشعب والوطن والدستور والسيادة . فقد أمسك أكثر من منافسه عن عرض برنامج ايجابي . ولما كان الدستوريون القدماء معارضين كل المعارضة لتقسيم الحكم فقد امتنعوا عن اى تعاون مع ممثل الحكومة الفرنسية مؤكدين انه لا يرجى منهم شيء.وكانوا من أشد أنصار فكرة الوحدة العربية ، فوضعوا نصب أعينهم القيم المعنوية والغايات الروحانية ، واعرضوا عن القوانين الاجتماعية التى تمس بسلم الرتب المعهودة ، وسبحوا فى أحلام اعادة نظام ديني تقليدي فى تونس . وهكذا بحث الحزب الدستوري القديم عن اتباع فى الاوساط البرجوازية المتزمتة بالخصوص وفى البلاط الملكي وأوساط العدلية . وكانت له جرائده الخاصة . ولما تغلب عليه الحزب الدستوري الجديد ركن الى ترقب فرصة للاخذ بالثار معتقدا ان الله ينصر الذين اتبعوا السراط المستقيم الذى أوصى به الاسلام .

واما الحركة الاصلاحية التى كان الشاذلي خيرالله يحاول احياءها فقد اقتصر عملها على الدفاع عن خصائص تونس من ثقافة وعادات وتقاليد . وفيما عدا ذلك فهى مستعدة للبحث عن حلول للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية باتفاق مع السلط الفرنسية ، وهي تتسم بمجاوزاتها لنطاق مشمولاتها . ولم يكتب النجاح لهذا الموقف الوسط بسبب اعراض الاقامة العامة عن كل اصلاح اساسي ، وهو غير كفيل لا بتحميس الجماهير ولا باستمالة طبقة البرجوازية التى لم تكن خالية من التاثر لاندفاعات الراى العام .

ولاية بيروطون « الطاغية » :

ان الوقت الذي كانت فيه الاحزاب التونسية ترتب مراكزها هو الذي نشب فيه الخلاف بين الحزب الدستوري الجديد و « بيروطون » • وكان هذا المقيم لم يتخذ من التدابير السياسية سوى توسيع تمثيل التونسيين في المجلس الكبير لفائدة المثقفين (6 جانفي 1934) • فلم تقبل الصحافة الدستورية ذلك بالاستحسان • وانتشرت دعاية الحزبين الدستوريين في البلاد مطالبة باصلاحات جوهرية • وكانت قلة الصابة والمجاعة التي حملت السلط على دفع البؤساء عن المدن بشدة ، وكذلك اخبار الحوادث الدامية التي حصلت بين العرب واليهود في قسنطينة ، كان كل ذلك من جملة العوامل التي ساعدت على توتر الاعصاب •

لقد ظن بيروطون من الحكمة السياسية ان يسبق الحوادث باتخاذ سلسلتين من التدابير : اولاهما تتعلق بتعطيل الجرائد بقرار اداري ، ومنع الاجتماعات العمومية والتمكن من الابعاد بمجرد قرارات للمقيم العام (سبتمبر 1934) ، وثانيتهما تسلطت على الهيئات المسيرة للحزب الدستوري الجديد • فابعد الى التراب العسكري بالجنوب ثمانية من أعضائها ، من بينهم الاخوان بورقيبة والحكيم الماطري • والحق بهم ستة أعضاء مسلمين ويهود من الحزب الشيوعي قصد ادخال بعض الغموض الذي من شأنه أن يعود بالفائدة •

ثم ردا على الهيجان الذي تجلى في كل من مدينة تونس بغلق الاسواق واستعراضات احتجاجية صاخبة ، والساحل باصطدامات دامية ، شدد المقيم العام وسائل الاضطهاد ، وجمع « المبعدين » في « برج لوبوف » (11) قرب الحدود التونسية الطرابلسية ، مهددا بنقلهم الى جزيرة « مدغشقر » • وزاد في عدد الابعادات ، ومنها ارسال قافلة من المحامين البحري قيقة والطاهر صفر وصالح بن يوسف الى الجنوب ، واطرد من البلاد ثلاثة أعضاء من الحزب الشيوعي والجامعة العامة للشغل الموحد (C.G.T.U.) منهم نائب برلماني ، وقد أوفدوا الى تونس ، وذلك بمقتضى قرار اتخذه « لوي السادس عشر » سنة 1778 ، وهو يمكن القناصل الفرنسية من التخلص من الاشخاص غير المرغوب فيهم من بلاد الشرق • وأمر بمنع جريدتي « لو بوبيلار » (الجريدة الشعبية) و « ليمانتي » (L'humanité)

---

11) ـ المعروف اذ ذاك ببرج القصيرة والآن ببرج بورقيبة (ملحوظة للمترجم) •

من الدخول الى تونس • وعطل بروز جريدة « تونيس سوسياليست » لانها قبلت نشر مقـالات دستوريـة عـلى أعمدتهـا ، وهكـذا ساد الهـدوء البلاد التونسيـة •

كان « بيروطون » يحمل مسؤولية الازمة على « المتطورين » وبطبيعة الحال على ثقافتهم ، وهو يعتبر انهم لم يهضموها • فلو كان الامـر مـوكولا اليـه ـ حسب اعتقاده ـ لتيسر اجتناب تضخم عدد الحامليـن للشهـادات الذيـن كانت ابواب الادارة موصودة في وجوههم ، وذلك بمنع التلامذة التونسييـن من متابعة دراستهم او التقدم لامتحانات «الباكلوريا في احدى مـدن فرنسـا بدون الترخيص لهم في ذلك من المقيم العام ، وباتخـاذ التدابيـر اللازمـة لتعديل عدد المحرزين سنويا على الباكالوريا الى عشرين ، وحتى اقل من ذلك ان امكن ، وبان لا يرخص للطلبة في مزاولة تعليمهم الا في كليات من فرنسا يعينها المقيم العـام حتى لا يستطيعوا الاختـلاط فيها لا بالطلبـة المصريين ولا السوريين ولا الاناميت • لكن سياسة « التحديد العددى » والتفريق العنصرى لم تحظ برضى الحكومة الفرنسية ، خصوصا وقد اخذ يتضاعف التيار فـي الاحزاب اليسارية ضد سياسة القمع التي سلكها ذلك « الطاغية » • فقـد وصلت السياسة في تونس الى مأزق لا منفذ له • ولما اقتـربت الانتخـابات الفرنسية ، تم التغلب على الصعوبة بصورة رشيقة اذ نقل « بيروطون » من تونس الى الرباط في 21 مارس 1936 ، وعين « ارمان قيبون » مكانه •

مقيم تحررى : « أرمان قيون »

لقد كان الفرق كبيرا بين الرجلين • فبينما تعرب بـيروطون عـلى الشؤون الادارية في « الطوقو » le Togo وفي « افريقيا الغربيـة الفرنسيـة » كان « قيون » بفرنسا ترأس « الديوان العمومي للصحة الاجتماعية » في مقاطعة «السين» la Seine قبل أن يسمى واليا على مقاطعة « الشمال » حيث توجد طبقة شغيلة منظمة من الضروري اعتبارها • فالاول يشغـل باله الشغـف بالشدة والسلطان ، والثاني بالدوافع الانسانية • والاول يـركـن الى القـوة بمجرد ما تفشل جاذبيته الطبيعية الحقيقية، بينما الثاني لا يضطر الى الوسائل الزجرية الا بعد استيفاء جميع الطرق الدبلوماسية • وقبل السفر الى تونس في 14 افريل 1936 اعلن « قيون » عزمه عـلى اتخاذ تدابير حلم باتفـاق مـع

الحكومة الفرنسية • وفي الاسبوع التالى صدر العفو على الطلبة الزيتونيين الذين حكم عليهم لقيامهم بمظاهرة عمومية • واطلق سراح أثنين وخمسين مبعدا • وسمح لجريدة « تونس سوسياليست » بالبروز من جديد ، كما سمح للصحافى « سارج ممطى » بالعودة الى تونس بعدما اطرد منها لمقال حرره ضد المعمرين •

وتسببت عودة المبعدين فى مظاهرات عمومية بهيجة في جميع الاماكن التي مروا بها • واستانفت العلاقات بين الحكومة والحزب الدستورى الجديد • وتمكن هذا الاخير من مواصلة دعايته بفضل الرجوع الى حرية الصحافة والاجتماع في 11 اوت 1936 • وما فتيء هذا الحزب يحرز على نجاح مطرد حتى جاز له ان يؤكد اعتماده على عدد من الشعب المحلية يتراوح بين الخمسة والستين والسبعين ، وهي موزعة على جامعات نظامية • ولا شك فى انه استطاع تنظيم ما يقرب من المائة الف عضو ، يسيرهم قادة يتجولون فى سيارات تملوها الاعلام بمعية اطارات ومراقبين وفرق خاصة وكشافة اسلامية وشبيبة ترتدى اقمصة واحذية سوداء • وعلاوة على ذلك فان الحزب الدستورى الجديد فاز بعطف السكان الادبي في المدن وضواحيها • وسعى الى استجلاب الجماهير الشغيلة التى كانت تميل الى العمل النقابى وكذلك السكان القرويين فى المراكز الفلاحية الاوربية وخاصة الفرنسية كباجة وسوق الاربعاء (12) وسوق الخميس (13) ومناجم الجبل ولابيض •

رجل الدولة : « بيار فيينو »

كان الدستور الجديد فى عنفوان نشاطه عندما مكنت الانتخابات الفرنسية « الواجهة الشعبية » من تسلم مقاليد الحكم • فاسند « ليون بلوم » شؤون تونس والمغرب الاقصى الى « بيار فيينو » بوصفه كاتب الدولة المساعد لـ « ايفون دلبو » وزير الشؤون الخارجية • وعهد الى « شارل اندرى جوليان » بالكتابة العامة للجنة العليا للبحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا المكلفة بتنسيق الشؤون ولاسلامية لدى رئاسة الحكومة • ولم تعد وزارة الخارجية ولا مقر رئاسة الحكومة يمثلان المراجع العليا التى لايستطيع ان يؤمها سوى الشخصيات الرسمية والمعمرين،

(12 ـ جندوبة حاليا •
(13 ـ بوسالم حاليا •

ورجال الاعمال فللمرة الاولى وجد الجزائريون والمغاربة والتونسيون امكانية التعبير عن ارائهم بكل حرية لدى السلط العمومية • فشعروا بان كرامتهم البشرية اعيدت اليهم • ولا يفهم من ذلك ان « بيار فيينو » تنازل قيد انملة عما تفرضه وطنيته من واجبات • فان ذلك البرجوازي الكبير يحمل في مظهره الارسطوقراطي شعورا شديدا بمسؤوليات الدولة ، وهو بالرغم من حداثة سنه يعرف طريقة اعطاء الاوامر والحصول على الطاعة • وكان على برودته الظاهرية شديد التاثر بالآلام البشرية • وكانت الرسالة التي بعث بها من مصلحة الامراض الصدرية ، مناديا بالغوث لفائدة اعزائه المغاربة ضحايا المجاعة على تاثير بالغ في سموها • وكانت له تلك الخصلة النادرة عند رجال الدولة ، وهي خصلة النظر للمشاكل في مجموعها وعلى ضوء المستقبل • فكان يعلم حق العلم الى اين يسير ، ويقدر النتائج البعيدة التي تنجر عن القرارات التي يتخذها • وكان يبذل جهده ليتوقع المصاعب حتى يتسنى له اجتنابها • بالطرق الملائمة • وتلك هي طريقته التي توخاها في اعداد المعاهدة السورية الفرنسية بالرغم عن اجماع موظفي وزارة الخارجية في معارضتها • وسوف يحكم التاريخ بانه كان من وزراء الجمهورية الثالثة الاكثر حصافة في الراي •

لقد تعرف « فيينو » بافريقيا في مدرسة « ليوتي » المباشرة ، وكان يحبها فاعتنى بها بكل شغف • ومنذ شهر اوت وضع حدا للتدابير الاستثنائية التي اتخذها « بيروطون » • فحذفت « الاوامر الاستثنائية العاتية » وتحررت الصحافة من قيودها ، وعادت حرية الاجتماعات العمومية والمظاهرات في الطريق العام • ثم اتخذ فيينو سنة 1937 تدابير ذات صبغة اجتماعية •

لقد تلقى المعمرون تسلم « الواجهة الشعبية » بمثابة الكارثة النازلة من السماء • واعتبروا « بيار فيينو » المسيح الدجال • بيد ان العناصر اليسارية ، على العكس من ذلك ، اكتسبت جراة لم يسبق لها مثيل • ففي 22 جانفي 1937 تقدمت الهيأة الجهوية « للتجمع الشعبي بتونس » (Rassemblement populaire de Tunisie) برنامج مدقق من المطالب السياسية والاقتصادية . وكانت الهيأة تجمع « الحزب الراديكالي والراديكالي الاشتراكي » (Parti radical et radical-socialiste) الحكم والحزبين الاشتراكي والشيوعي ، والجامعة العالمية للشغل C. G. T. وقدماء المحاربين وثلاثة رابطات من بينها « رابطة حقوق الرجل والمواطن » • ومما طالبت به تعويض المجلس الكبير « بجمعية شعبية وحيدة يقع انتخابها

على الطريقة الديموقراطية بالانتخاب الحر العام ، وتتركب من فرنسيين وتونسيين تنتخبهم هيأتان اثنتان من الناخبين » • وتتمتع هاته الجمعية بحق المبادرة في شؤون الميزانية ، وتكون قراراتها نافذة على شرط موافقة الحكومة الفرنسية • وتطالب بانشاء مجلس اقتصادي وبلديات منتخبة انتخابا حرا عاما مع التمتع بجميع ما للبلديات في فرنسا من اختصاصات ، واصلاح نظام سلك العمال ، وامتداد نظام الادارة المدنية الى كامل تراب الايالة ، والتساوي في الاجور ، وتمكين التونسيين من جميع الوظائف العمومية ، واقرار الفلاحين في الارض ومدهم بجميع الاراضي الشاغرة ، واصلاح النظام الجبائي ، وتاميم المصالح المحتكرة فعلا دون نص قانوني •

اما النقابات التي توحدت تحت لواء الجامعة العامة للشغل الجديدة على غرار ما وقع في فرنسا فقد اخذت تشعر بحيوية جديدة •

خطاب تونس

وقبل التفكير في ان تضع الحكومة الفرنسية حلا للمشكلة التونسية كان ينبغي ان تضبط الحالة ضبطا نزيها ، وان تبحث عن الوسائل الكفيلة بجعل حد لكل تعد • فقام فيينو بتحقيق على العين ، اخص نتائجه في خطاب بسط فيه برنامجه والقاه عن طريق اذاعة تونس في غرة مارس 1937 • وقد بين في ذلك الخطاب اهم الامراض التي تعانيها البلاد التونسية فذكر : « بعض التردد وبعض التهاون في تسيير الشؤون الحكومية والادارية ••• راجعان بنسبة كبيرة الى عدم وضوح سياسة فرنسا » ، والميل الى خلط مصالح خاصة للمواطنين الفرنسيين بمصلحة فرنسا العامة والقومية ، والتخوف من الاصلاحات الرامية الى تشريك « فرنسا وتونس في تسيير الحكم مشاركة فعلية وبكل اخلاص » ، وضعف سياسة التعليم ، وعدم التناسب بين تضخم الادارة تضخما مريعا وبين قلة موارد الميزانية ، واختلال النظام في الدواليب المركزية اختلالا يتعذر معه التوازن بين المجهود والانتاج ، والشكوك التي تحوم حول نزاهة الادارة نتيجة بعض الاخلالات الفردية ، والامتيازات التي يتمتع بها اصحاب المصالح العمومية المستلزمة على حساب المستهلكين ، وفوق كل شيء فظاعة البؤس الذي يتخبط فيه الفلاح وقد فقد ارضه •

ولمعالجة تلك الامراض عرض الادوية التالية : الدفاع عن الحقوق الخاصة في حدود لاتتعارض فيها مع مصلحة فرنسا العامة ، مراجعة العقود المستلزمة

بطريقة التراضي او بالطريقة العدلية ، توسيع نطاق المشاركة التونسية في الحكم ، تحسين سير المجلس الكبير ، توسيع دائرة اختصاصات المجالس الجهوية ، تاسيس لجنة تشريعيـة استشاريـة ، تنظيم المراقبة على صرف الميزانية ، احداث مدارس قرويـة من نوع جديد تخصص لها 4 ملايين من 50 المعدة للاشغال الكبرى ، اختصار المصالح الادارية وتخفيض عدد موظفيها ، تعزيز المهام التي تضطلع بها الكفاءات التونسية ، تسليط العقوبات الصارمة على كل عمل مخل بالثقة والنزاهة ، وخاصة بذل الجهد لتخصيص اعتمادات من الميزانية لمسـاعدة التونسيين انفسهـم على تعمير الاراضي التونسية باقرار الفلاح في الارض • ولكن سياسة الاصلاحات هاته لا يمكن ان تنجـز الا في نطاق الحماية التي لا سبيل لتغييرها حسب ما اكده « فينو » مرة بعد مـــرة •

وما يلفت النظر بالخصوص فـي ذلك الخطاب الذي القـاه كاتب الدولـة هي النزاهة • فهو لم يحاول فيه ان يتملق الى احد ، وهو امام الواقع يكشف الحقيقةالمجردة غير مبال من باب الاحتشام السياسي بتغطيتهـا بازار نوع وقـد استحسن الدستوريـون آراءه التحريريـة وان بـدا لهـم بـرنـامجـه محتشمـا • فكتب الحكيم المـاطري : « ان السكـان التونسيين باسرهم على استعداد للمشاركة في ادخال السياسة الجديدة حيز التنفيذ » • ومن باريس ادلى الحبيب بورقيبة ، وقد اصبح الزعيم الحقيقي للحزب ، بتصريح الـى احدى الصحف يقول فيه : « ان الاتحاد الذي لا تنفصم عراه بين فرنسا وتونس يعد اساسا لجميع مطالب الحزب الدستوري الجديد » • واما المعمرون فقد بلغ غيضهم درجة لا مثيل لهـا ، وقد سبق فـي 23 جانفي ان وجـه «فيناك» رئيس الحجرة الفلاحية الفرنسية رسالة شتم وتهديد الى « فيـون » ختمهـا بقوله : « ان لم تتخذ تدابير حازمة وعاجلة فان الدم سيسيل • واني اعتبرك مسؤولا عن ذلك » ، وهو ما حقق له اعـادة انتخابه بانتصـار باهـر اثنـاء الانتخابات التي جرت بعد ذلك ببضعة اسابيع • وقـد احتج اذ ذاك الحـزب الدستوري الجديد واعضاء المجلس الكبير التونسيـون على حملـة الترهيب التي كان يقوم بها رئيس الجالية الفرنسية •

النزاعات الاجتماعية والقمع

لقد اصبحت اقل شرارة تشعل النار في البارود • وفعـلا فقـد اشتعلت بمناسبة نزاع اجتماعي • وسياسة الواجهة الشعبية ولم تحـرز على رضـا

الضباط العسكريين ولا الموظفين . وكان لا سبيل الى الاعتماد عليهم لا لاظهار التعقل فى المشاكل الاجتماعية ولا لتيسير مهمة المقيم العام . وبعد مضى تسعة اشهر من الهدوء حدث ان اطلق الجند الرصاص على المتظاهرين فجندلوا منهم خمسة عشر عندما هاجمهم المضربون عن العمل بمناجم الفسفاط فى المتلوى ، وقد جرت هاته المأساة غداة سفر « قيـون » الى فرنسا . ونشبت نزاعات نقابية اخرى أسفرت عن مقتل اثنين من العملة فى مناجم جريصة وستة فى حضائر الاشغال بالماتلين قرب بنزرت .

واثارت تلك الحوادث الدامية حملات صحافية عنيفة . فاخـذت الجرائـد اليمينية تبين بالحاح ما احرزت عليه الجامعة العامة التونسية للشغل (C.G.T.T.) الحديثة العهد من تقدم وانتشار ، وكان لا ينخـرط فيها غير الاهـالى ، على حساب الجامعة العامة للشغل التى كان الانخراط فيها مزدوجا ، وقـد افلت من ايديها زمام التحكم فى الاضرابات . واخذت تحمل تبعـة الاصطـدامات الدامية على الدعاية الاستعمارية التى ساعدها ضعف الحكومة . اما الجرائـد الفرنسية اليسارية والصحافة النقابية والعربية ، فانها على العكس من ذلك نددت باضطهاد مقصود لا هوادة فيه ، يجعل الضحايا دومـا من صف واحد وشهرت باعتزام اصحاب الاموال اثارة الاشتباكات الدامية قصد القضاء على سلطة المقيم العام ونفوذه . وقد ابدى الحزب الدستورى الجديد حماسا شديدا خاصا فى التشهير « بمجازر » العملة الاهليين . وبعد سقوط وزارة « بلوم » (21 جوان 1937) ، اتهم الحكـومـة الجديدة بنيـة الرجوع الى سياسة القـوة التى دلت عليها اصطدام منجم الونزة (30 اوت) وحوادث مكناس الداميـة (غـرة سبتمبر) وايقـاف مصالى الحاج (27 اوت) . وحكـم المتطرفـون مـن الدستوريين بالافلاس على سياسة « الواجهة الشعبية » وبعقم وعود الاصلاح، واكدوا وجوب القيام بعمل حازم وتضاعف تاثيرهم اثناء النزاع الذى نشب بين الحزبين الدستوريين على اثر عودة الشيخ الثعالبى الى تونس .

فشل الثعالبى :

نزل الشيخ الثعالبى بتونس لما اذن له بالرجوع اليها يوم 5 جويلية 1937 فى وقت بلغت فيه سمعة قادة الحزب الدستورى الجديد اوجها . وكان الحبيب بورقيبة يمسك فى قبضته 400 من الشعب الحزبية . وكان تكتيـل شبيبـة متحمسة وتنظيمها متواصلا بفضل الجولات التى يقوم بها نواب « الشبيبـة

الدستورية » ، وبفضل تاسيس منظمات كشفية مثل « الكشافة الاسلامية التونسية » ، وكان الدستور الجديد ، وهو واثق من قواه ، يشهر بعدم تماشي الاسلام مع المبادىء الماركسية (6 جوان) ويشجع الجامعة العامة التونسية للشغل (C.G.T.T.) على فصل عملها عن الجامعة العامة للشغل • فأمام الحزب الدستوري الجديد وما اكتسبه من عطف شعبي وحيوية واندفاع كان الحزب الدستوري القديم تبدو عليه علامات من « التبرجز » والتحجر تزداد مع الايام وضوحا وجلاء • وهكذا طرح رجوع الشيخ الثعالبي مسالة خطيرة مجهولة الحل : من الذى سينتفع بسمعته التى اكتسبها باتصالاته بالعالم الاسلامي وعززتها اسطورة قيامه بدور الوساطة حتى الى أقصى بلاد الهند ؟ •

لا يمكن للشيخ الثعالبي المتشبع بما تكتسيه النهضة العربية من المثل الروحانية التوحيدية او ينظر بعين الاستحسان الى الحزب الدستوري الجديد فى نزعته القومية المبني والاساس ولا في طريقته العملية التى تتحاشى التعصب الديني وترى فى تعاليم الدين وسيلة لا غاية • فاتجه عطفه تلقائيا الى الحزب الدستوري القديم ، ذى النزعة التقليدية المتدينة ، والذى يسيره علاوة على ذلك أصدقاؤه القدماء فى اللجنة التنفيذية وقد حاول أن يوحد من جديد الحزبين الدستوريين تحت قيادتهم • فكان جواب بورقيبة بتحكيم الجماهير الشعبية ، مطالبا باجراء استفتاء شعبي قبل ذلك ، الامر الذى زاد اتجاه برنامجه وضوحا • واضطر الشيخ الثعالبي فى الساحل الى الرجوع على أعقابه • ولما نفره الشعب ، اقتصر على العمل فى دائرة جماعات ضئيلة العدد •

تصلب الحزب الدستوري القديم

واثناء المؤتمر العام الذى عقده الحزب الدستوري الجديد في اكتوبر ـ نوفمبر 1937 وحضره سبعمائة نائب ، ظهر اتجاه جديد قوى لفائدة سياسة حازمة خالية من التنازلات تجعل حدا لكل مشاركة • وكان يقود ذلك التيار الحكيم سليمان بن سليمان الذى أصبح مراقبا للحزب والهادى نويرة المحرز على اجازة في الحقوق والصحافي المقتدر ، والحبيب بوقطفة النائب عن شعبة بنزرت • فتخلص المؤتمر من الاختيار بين الاتجاهات بسحب ثقته من حكومة « شوطان » مع الاحتفاظ بها لـ « فيسون » •

أفقد سحب « حسن القلى » الحزب الدستورى الجديد النفوذ الذى انجر اليه عند الجماهير من الاتصالات التي جرت بينه وبين السلط ، وكان يحيطها باشهار حكيم • وبدون الفوائد العملية التي تحصل له من مشاركة لم يكن انصار الحزب ولا حتى العاملون به ليسخروا منها ، كان يقع فى الانعزال البديع المتمسك به الحزب الدستورى القديم • فينال سلوك الحزب التقليدى تأييدا رائعا لدى الرأى العام • فادرك الشبان ان الحزب يقع فى أكبر الاخطار ان لم يتقدم الحوادث ، ولم يؤكد عمليا تضامنه مع بقية المغرب الاسلامى بوسيلة الاضراب والعمل الايجابى ، فكان اضراب 20 نوفمبر 1937 • وهو وان لم يات بالنتائج المرغوبة فقد أحرز على نجاح لا يستهان بـه ، على الرغم من امساك الحزب الدستورى القديم المغرض وتحفظ المنظمتين النقابيتين وتصريحات المقيم العام الحازمة ، واستعدادا للمعارك المقبلة أخذ الحزب الدستورى الجديد يعمل على الافاضة بالتطرف على الحزب الدستورى القديم وعلى التسرب فى الجامعة العامة التونسية للشغل (C. G. T. T.) وحمل القسم التونسي للمجلس الكبير على اتخاذ موقف مناهض للحكومة بالامتناع من المصادقة على الميزانية • فتخوف الحكيم الماطرى من هذا الاتجاه الجديد ، وقدم استقالته من رئاسة الحزب في أواخر ديسمبر 1937 • فنتج عن ذلك لا فقدان الحزب لشخصية محترمة عند جميع الناس لعفتها ولباقتها فحسب بل أيضا تغلب نزعة المتطرفين التى تجسمت فى المظاهرات الرامية لاظهار القوة خاصة اثناء الاضراب النقابي التضامني الذى وقع في بنزرت ، وفى عملية استيلاء الهادى نويرة والدستوريين الجدد على نادى الجامعة العامة التونسية للشغل بالمدينة ، وقد أقروا العزم على السيطرة على الحركة النقابية الاهلية •

ازمة سنة 1938

ومن ذلك الحين ، اندفعت « سفينة الدستور الجديد السكرى » ، حسب تعبير جريدة الحزب الدستورى القديم ، بسرعة جنونية على الصخور الهدامة التي اوشكت ان تتحطم عليها • فرفض كل تحالف ، وأعلن ان تحرير التونسيين « لا يكون غير تحريرهم لانفسهم بأنفسهم دون غيرهم ، بصورة طبيعية وحتمية » - فلا تضحية تدخر في سبيل ذلك • وشرع في تذكية روح الاستشهاد بتلاوة الآيات القرآنية التى تمجد الذين يستشهدون فى سبيل ايمانهم اثناء الاجتماعات العمومية • وحرض الدعاة الشعب على

العصيان والامتناع من دفع الضرائب • وبذل مجهود جديد لادخال طلبة المعهد الزيتوني وتلاميذ المدرسة الصادقية في المعمعة • ولما أذاع السيد علالة البلهوان ، الاستاذ الشاب المتخرج من مدرسة اللغات الشرقية بباريس رسالة بعثت بها اليه ادارة العلوم والمعارف تهدده فيها بتعطيله عن العمل بمجرد ما يقع حادث عمومي في المدرسة ، أعلن التلامذة تضامنهم معه • فلما نفذ التهديد ، أجاب التلامذة بالاضراب العام ، فأغلقت الحكومة أبواب المدرسة • وفي أوائل شهر افريل 1938 كانت البلاد بأسرها على استعداد لاسوأ الطوارىء ، ولعل الدستور الجديد كان يستنتج من استسلام فرنسا « للانشلوس » (l'Anschluss) انها قد تقبل أيضا انفصال تونس كأمر مقضي توضع أمامه ؟ لكن السلط العامة ، بالعكس من ذلك ، قامت برد فعل عنيف ، وأوقفت عشرين من قادة الحزب الدستوري الجديد • فأجاب الديوان السياسي للحزب بتوجيه نداء للاضراب العام ليوم 8 افريل وللتظاهر يوم 9 افريل • ولما علم الحكيم الماطري بنشوب الحوادث الاولى ، التمس بالحاح من الحبيب بورقيبة أن يضع حدا لها بأمر منه ، وكان زعيم الدستور الجديد اذذاك مريضا وعلى حالة بالغة من الحماس • فرفض بلهجة شديدة النصائح التي أسداها اليه مخاطبه اعتقادا منه انه موعز اليه من قبل المقيم العام (14) فاصبح التصادم لا مفر منه • وحدث يوم 9 افريل في ظروف تجاوزت أسوأ التقديرات • فعلى اثر صيحات النجدة الصادرة عن المتظاهرين الذين شتتوا أمام المحكمة الفرنسية حيث القى القبض على علي البلهوان بدون ادنى احتشام • اندلعت الثورة مثل الحريق في الاحياء الشعبية • واصطدمت جماهير تعد بالآلاف بالقوة العمومية • وأصيب أحد الجندرمة غير مباشر لوظيفه بضربة سكين قطعت رقبته • فأطلقت الشرطة ، لا الجند ، النار • واتمت الدبابات الرشاشة عملية التشتيت • ودامت المظاهرة والثورة من الساعة الثانية والنصف بعد الظهر الى السادسة مساء تقريبا • وترك المتظاهرون في الميدان اثنين وعشرين قتيلا وما يزيد عن المائة والخمسين جريحا • بيد انه علق في ذهن الرأي العام ان عدد الضحايا كان أعظم بكثير ، والدستوريون يحصرونه في المائتين من القتلى •

كان الاضطهاد سريعا دون شفقة • وأعلنت حالا حالة الحصار • وتم اعتقال الكثير من المناضلين من بينهم الطاهر صفر والحبيب بورقيبة • وصدر

---

(14) ـ « لا ناسيون اراب » (الامة العربية) ، سبتمبر ـ ديسمبر 1938 ـ ص : 1248 ـ وقد نشرت تصريحات السيد بورقيبة •

قرار في حل الحزب الدستورى الجديد • وبلغ عدد الاعتقالات ــ على حد قول الدستوريين ــ ما بين الالفين والثلاثة آلاف •

انها لخيبة خطيرة أصيبت بها خطة الحزب السياسية ، حتى أكد الزعيم ان المظاهرة أمام المحكمة التي نتج عن تشتيتها نشوب الثورة كانت تلقائية ، ولم يكن يعلم بها • أما الحزب الدستورى القديم فانه أخذ يدوس تحت أقدامه خصمه الصريح بدون رحمة ، ويغتبط للعقاب العادل الذى ناله عن خيانته له • وذهب الامر بالثعالبي أن أدلى بشهادة ضد السيد بورقيبة لا شفقة فيها • وهكذا أرغم الحزبان الوطنيان الاول على موقف العاجز عن العمل والثاني على موقف الترقب •

ديبلوماسي غير عادي : « ايريك لابون »

لقد أصبحت الفرصة سانحة لسلوك سياسة جريئة بادخال اصلاحات في مأمن من كل ضغط • فغداة الحوادث الدامية صرح المقيم العام بانه لا ينوى الرجوع في سياسته المتحررة • ووضع في الحين على بساط البحث مسألة تحسين حالة الفلاحة والصناعة التقليدية • وبينما خمد كل نشاط سياسي، أصبحت الشؤون الاقتصادية تحتل المكان الاول ، ولكن من الصعب تحديد نصيب الرجعية في ذلك • فقد طالب المعمرون بالاخذ بالثار ، وظفروا بذلك • وأتت أوامر غرة جويلية 1938 تحد من التشريع الخاص بالصحافة والجمعيات والمنظمات السياسية والمظاهرات والتجمعات والاجتماعات العمومية • وأدرك الراى العام التونسي ان سياسة سنة 1936 التحررية قد وقع التنكر لها • فلم يعر أى اهتمام ما احدث من مجلس اقتصادى واجتماعي لتسهيل التعاون التونسي الفرنسي ولا الاوامر المتعلقة بتنظيم ادارة الاحباس الخاصة وتسيير المدارس القرآنية •

بيد ان ازمة شهر سبتمبر 1938 دلت لا على ان الهدو ظل مستتبا في تونس فحسب بل ايضا على ان توقع حرب عالمية جعل الاهالي يشعرون شعورا اوضح بالروابط التي تربطهم بفرنسا ، بالرغم من ان الحزبين الدستوريين اللذين اضطرا الى العمل السرى لم يتخذا موقفا علنيا بوصفهما حزبين منظمين • وتلقى التونسيون خبر اتفاقات مونيك (Munich) بارتياح حقيقي ، ولكنهم تأثروا شديد التأثر بتعويض المقيم فجأة « ايريك لابون » سفير فرنسا ببرشلونة (24 وكتوبر 1938) • فان « قيون » قد احرز في نفوس

التونسيين على ثقة لم يزعزعها الاضطهاد والتدابير الاستثنائيـة الا قليـلا • واما الحزب الدستوري القديم فقد رأى في تعويضه علائم تغيير كلي في مبادئ الحكومة وطرقها •

ولا يوجد في فرنسا رجل يختلف عن المعتاد اكثر من « لابون » فقد كان طويل القامة نحيفا تعلو وجهه المعظم ابتسامة ، ويحمل رقاب أقمصته عـلى شكل بالغ من الطول ، ويكسو أطرافه الطويلة باقمشة غامقـة الالـوان • وبالرغم من انتسابه الى السلك الديبلوماسي فلم يكن محافظا ولا مقلـدا ، ولا يتردد على الحفلات ، بل يفضل التناقش مع الاخصائيين على حضور حفل استقبال • وبذكائه كان يحكم على الرجال وعـلى الاشياء بدون شفقـة ، ولا يخشى التصريح بذلك الحكم • وقد ظهرت فراسته العجيبة في التقارير التي قدمها عن الحالة في موسكو • وهو على غرار كبار الملهمين رجل واقعي ، يتتبع حتى الجزئيات ، لكنه يعلق الاجتماعيات على الاقتصاديات لحد يقيم حاجزا من المعادن والمحركات بينه وبين النظر الى الانسان • على ان ذلـك لا يمنعه مـن الاصغاء الى الافكار النبيلة •

عندما قدم الى تونس في 22 نوفمبر وجد وضعا هادئا • ولـم تكـن بعض المظاهرات التي نظمها الحزب الدستوري الجديد في طريق المقيم العـام عنـد مرور ركبه وشاركت فيها النساء ، ولا تلميحات الصحافة العربية ، تقصد غير الفات نظر المقيم الجديد الى حالة المساجيـن السياسييـن والى المطـالب الوطنية • فلم يظهر المقيم العام بتاتا تسرعا لتعيين قضية التسعة عشر متهما امام المحكمة • كما انه بدا قليل الكلام والاتصالات • فتاثر النواب التونسيون تاثرا بالغا لسلوك غير مالوف ، وكانوا يتتبعون الموقف الـرسمي لتحديـد موقفهم الذاتي • فبقوا في انتظار وحذر • وتمت دورة المجلس الكبير (29 سبتمبر ـ 28 نوفمبر 1938) دون تسجيل اى حادث يذكر •

المطامع الايطالية

كانت الهواجس والمخاوف تتجه نحو ميادين اخرى • فاتفاقيات « لا فال ـ موسوليني » التي ابرمت في 7 جانفي 1935 لم ترض المطامع الايطاليـة ، وزادها احتلال الحبشة حمية وحماسا • فكان « موسوليني » يريـد ارجـاع اتفاقيات 1896 التي ضمنت بقاء حقوق الايطاليين على الـدوام • وفـي 30 نوفمبر تلقت حجرة « مونتشيتوريو » (Montecitorio) خطاب الكونت

« قليوزو شيانو » بالهتافات التالية : « تونس » ، « جيبوتي » ، « كرسيكا » ، وفي 17 ديسمبر ابلغت « الكونسلتا » (Consulto) وزارة الخارجية الفرنسية ان الحكومة « الفاشية » صارت لا تعترف باتفاقيات 1935 ·

اما المعمرون الفرنسيون بتونس فانهم ، مع ما يبدونه من المعارضة التي لا تلين نحو الايطاليين ، كانوا يعلنون اعجابهم المتناهي بسلوك « الدوتشي » وطرقه ، حتى انهم كانوا يهمسون بانه ان افلس النفوذ الفرنسي فلا يكون من المستحيل ان يجدوا تعويضات من ايطاليا · وعلى العكس من ذلك ، فان التونسيين لم يكونوا يشعرون ابدا باي تقدير نحو ايطاليا بالرغم من التاثر الحاصل في نفوسهم من جراء الطموح الى العظمة التي طالما اكدتـه الفاشيـة بكل وضوح · فان جوار طرابلس لم يترك في نفوسهم ادنى شك حول حقيقة سياسة « الدوتشي » الاسلامية ، حتى عندما تقلد سيف الاسلام · وان ضم ليبيا الى التراب القومي الايطالي ، وتعمير اراضي برقة العربية بعشرين الفا من المعمرين ، على ان يلحق بهم فيما بعد مائة الف آخرين ، قد احدثـا فـي البلاد الاسلامية شعورا من الاستنكار والضغينة اضطـر شكيب ارسلان الى ان قرا له حسابه بالرغم من « تقديره البالغ » للدوتشي (15) ·

زيارة « دالاديي »

فبين « الاستعمار » الايطالي والاستعمار الفرنسي لا يمكن ان يخطر ادنى تردد ببال دستوري ، ولو كان من المتطرفين · وعلى اثـر مظاهـرة « مونت شيتوريو » كان رد الفعل الاهلي سريعا وتلقائيا وعميقا · وتجلى بكل وضوح بمناسبة رحلة الرئيس « ادوار دالاديي » الى تونس (3 ـ 5 جانفي 1939) · تلك الرحلة التي اثارت مظاهرات حماسية تجاوزت الحـدود فـي مغزاهـا ومرماها · ففي ساعات الخطر برهن السكان الاهليون انهم يفضلون فرنسا على ايطاليا · لكن الحزب الدستوري الجديد رأى من واجبه ان يوضح ان ذلك الموقف لا يقتضي بتاتا التنازل عن رغائبه · واكد الحزب الدستوري القديم ان فرنسا تعزز سمعتها في نظر الاسلام«ولو منحت ممتلكاتها نظاما دستوريا» · وحتى العناصر الاكثر حذرا مثل شنيق ، نائب رئيس المجلس الكبير اذ ذاك فقد انتهزت الفرصة لتذكير فرنسا بواجباتها · فاجماع الراي العـام الاهلي

---

(15) ـ « لاناسيون اراب » ـ سبتمبر ـ ديسمبر 1938 ـ ص 1197 ·

ضد الرغائب الايطالية لا سبيل الى اعتباره بدون اجحاف تحبيذا للسياسة الفرنسية بتونس •

ان نشاط الحزب الدستوري الجديد ، الذي اخمده الاضطهاد الموالي لحوادث مدينة تونس الدامية ، سرعان ما برز من جديد عندما رفعت حالة الحصار واطلق سراح مائة وخمسين سجينا، وذلك بادارة طبيب شاب من بورجوازية مدينة تونس ، وهو الحبيب ثامر ، وساعده في اقرب وقت ابن خاله الطيب سليم • وانحصر ذلك النشاط في حملة لفائدة سراح قادة الحزب التسعة عشر المسجونين بتهمة التآمر • واما الحزب الدستوري القديم الذي ما زال متحلا منذ سنة 1933 ، ، فقد حافظ على هيكله النظامي والتسعة آلاف من المنخرطين فيه والمائة والسبع والستين شعبة وهيآته الادارية التي يراسها تاجر سابقا اصبح صحافيا وهو محي الدين القليبي • ويشغل امانته العامة الاستاذ صالح فرحات ، كما بقي الشيخ الثعالبي مستشاره الخفي الثمين الذي يحافظ له على نزعته العربية التوحيدية قبل كل شيء •

هزيمة فرنسا وفقدان نفوذها

لقد وجد مجموع الدستوريين في انهيار فرنسا العسكري دليلا على انحطاطها وعجزها عن استبقاء سيطرتها على تونس طويلا • وكانت الدعاية الالمانية تصل اليهم عن طريق اصوات معروفة لديهم • وقد بادر شكيب ارسلان الى احباط مساعي مفتي بيروت الذي كان يحرض المسلمين على حمل السلاح الى جانب الحلفاء • واخذ يؤيد وجهة نظره بامثلة عديدة من التعديات الاستعمارية بشمال افريقيا حيث يسلك الفرنسيون سياسة الادماج ويقضون على اللغة العربية ويضايقون الدين (16) • وفي اذاعة برلين كان يتكلم يونس بحري العراقي الذي اقام بمدينة تونس سنة 1937 و «الدكتور مراد» ، وما هو الا دستوري في ماضيه ، وكان تاثيرهما سلبيا بالخصوص اذ زادا في اضعاف نفوذ فرنسا •

لقد شعر الحزب الدستوري القديم بابتهاج بالغ لسقوط النظام الجمهوري اللائيكي الفوضوي ، جعله يبدي اعجابه الى الماريشال « بيتان » ويعلق عليه الامال • فصرح الثعالبي ان « الاسلام يحب القوة والعدل ، وقد اظهر تفضيله للقادة » • اما الدستوريون الجدد فقد ولوا انظارهم ، بالعكس من ذلك ، الى

(16) ــ التصريح الذي ادلى به شكيب ارسلان الى جريدة بتطوان في ماي وجوان 1940 ترجم الى الايطالية ونشر في جريدة « اوريانتي مودارنو » ، 1940 ــ ص 377 ــ 383 •

احمد باي ، ولم ييأسوا منه بالرغم من عدم اكتراثه ، ونبهوه الى ان مهمة فرنسا قد انتهت ، واعادوا المظاهرات للمطالبة بسراح المساجين ·
واستمرت طوال سنة 1941 اعتقالات القادة السريين الذين كانوا يتعاقبون على العمل · فالقى القبض في شهر جانفي على الدكتور ثامر والطبيب سليم حينما اوشكا على اجتياز الحدود الطرابلسية ، فكان لاعتقالهما شديد الوقع في البرجوازية التونسية ، خاصة وقد حكمت عليهما المحكمة العرفية بعد ثلاثة عشر شهرا بالاشغال الشاقة لمدة عشرين سنة بالرغم من مرافعة تحمس فيها الاستاذ « تيكسيي ـ فينيانكور » الذي ما انفك منذ ذلك التاريخ يقوم بالتدخلات لفائدتهما ولكن الذي كان ينبىء اكثر من ذلك عن الحالة واخطارها هو ما كان يجري من حين الى آخر من عمليات التخريب والحركات المعادية للدساميين التي نشبت في جهة الكاف حيث جندلت قوات الامن اربعة عشر من المتظاهرين (اوت 1940) وفي قابس (ماي 1941) ومن الهيجان في الجريد ولئن كان الدستوريون يخشون فوق كل شيء امكانية استيلاء ايطالي ، واخذوا يشكون في انتصار المحور ، وقد ندد الحبيب بورقيبة بسياسته من اعماق سجنه ، فان سلطة فرنسا اصبحت في نظرهم لا تحتمل خاصة في شكلها العسكري (17) ·

عمل المنصف الباي وشعبيته

توفي احمد باي في 19 جوان 1942 غير ماسوف عليه اذ لم يتحصل الوطنيون في عهده الطويل الا على ترضيات طفيفة · فقبل تتويج خلفه سيدي محمد المنصف باي بمزيد الترحاب · وكان نجل الناصر باي سنة 1941 الواسطة سابقا بين والده ووفد الاربعين · فلما تصدر العرش اصبح « الباي الدستوري » الذي قبل احتمال ان يصبح « الرئيس الاول للجمهورية التونسية » · واحرز على شهرة شعبية عظيمة على اثر ابطال بعض التقاليد التشريفاتية في البلاط الملكي وخاصة موكب تقبيل الراحة ولحسن معاملته وتدينه وهو بالنظر الى شخصية الاميرال « جان بيار استيفا » العادية الذي عوض « لابون » في جويلية 1940 قد ظهر في مظهر القائد الحقيقي الذي اخذ

17) ـ في بحثها المتسع المفيد خاصة لتقدير سلم القيم المتعلق « بمؤسسات الحماية السياسية » لا تخصص جريدة « ميسيون » الدستورية الا ثلاثة سطور لفترة 1932 ـ 1942 في عددها بتاريخ 12 اكتوبر 1952 الذي تدرس فيه درسا طويلا « فترة الانتقال الكبرى » بين 1938 و 1943 ·

يؤكد حقوقه علنا وبكل قوة . فصرح للعمال بانهم نوابه في البلاد ، ولهم ان يشتكوا المراقبين المدنيين اذا عرقلوا اعمالهم ، وبانه يسلط عليهم العقاب ان استغلوا نفوذهم ، ويجازي المحسنين منهم .

وفي شهر اوت 1942 قدم المنصف الباي الى المقيم العام برنامجا يحتوي على اثني عشر نقطة . ومن جملة ما كان يطالب به « تاسيس مجلس استشاري تشريعي يتمثل فيه العنصر التونسي تمثيلا لائقا متسما ، وتمكين التونسيين من جميع الوظائف العمومية ، والتساوي في المرتبات والاجور .. ومراجعة الادارة المركزية وتنظيمها من جديد في النطاق التونسي ، ورجوع المراقبين المدنيين الى وضعهم الاصلي فيكون دورهم مقتصرا على الرقابة .. والتعليم الاجباري لكافة التونسيين مع تعليم العربية في جميع المعاهد .. ، وانتزاع الملكية لفائدة الدولة من جميع الشركات ذات المصلحة العامة (الكهرباء ووسائل النقل ، الخ) .

وفي 12 اكتوبر جد حادث خطير في قصر باردو بمناسبة تقديم التهاني بحلول عيد الفطر . فقد تذمر المنصف باي من رؤساء الادارات اذ لا وجود لتونسي بينهم . فأجاب الاميرال في عبارات لا تتماشى في حدتها مع التشريفات الا قليلا قائلا انه لا يقدر غير الفرنسيين على مسك مناصب القيادة . فلما تحقق المنصف باي مما جاء في عبارات المقيم ابرق الى الماريشال « بيتان » يطلب منه نقل المقيم من تونس . فاجابه رئيس الدولة الفرنسية برسالة خاصة يعطيه فيها جميع التطمينات . لكن التوتر الذي زال رسميا بقي على حاله مستمرا عندما احتلت الجيوش الالمانية شرقي البلاد التونسية (11 نوفمبر) .

لقد حرص المنصف باي على ملازمة تونس للحياد ، وابلغ ذلك رسميا الحلفاء ودول المحور . على ان مهمة الباي في ذلك لم ييسرها ضغط الالمان والاميرال « استيفا » وبعض افراد عائلته . فتخلص من تلك المصاعب على الوجه الاكمل . وليست مزية يستهان بها ، وان كانت نتيجة براعة كبيرة ، تلك التي ترجع اليه في امتناعه من فسخ المعاهدات التونسية الفرنسية ومن تسخير اليد العاملة المدنية ومن الاحتجاج على رمي مدينة القيروان بالقنابل الجوية . وهو لم يسمح بتقليد الضباط الالمان بالنياشين الا بعد صدور الاذن الكتابي عن المقيم العام الذي ضمن لذلك صبغة الحياد . وعلى العكس

من ذلك فلا منازع في ان قسما من السكان رحبوا بالالمان حتى ان عشرة آلاف من التونسيين سلطت عليهم تتبعات عدلية على اثر التحرير ٠

اكد المنصف باي ارادته الملكية عندما شكل في 13 ديسمبر 1942 دون ترقب موافقة الاقامة العامة وزارة قومية ، يراسها المنتخب الاول في البلاد محمد شنيق ، ويساعده خاصة الحكيم الماطري وصالح فرحات وشيخ المدينة العزيز الجلولي ٠ وباختياره خاصة لشخصيات معتدلة لا يمكن اتهامهم بعداء مبدئي للحماية جعل المنصف باي وزارته في مامن من انفعالات الاقامة العامة لاظهار سلطتها ٠ وكانت مشاركة صالح فرحات تضمن له تاييد الحزب الدستوري القديم بينما تبقى سمعته الخاصة سالمة من الخدش في نظر الحزب الدستوري الجديد ٠

ولاح لاصحاب الاذهان المتيقظة ان الملك كان يعتبر وزارة شنيق مرحلة اولى نحو تشكيل حكومة منسجمة تتخلص من رؤساء المصالح الفرنسية وكان من الجنون حتى بالنسبة للمتطرفين عرقلة تجربة عهد بها الى رجال معترف بخبرتهم ٠ وقد ابدى الباي ووزراؤه احسن الاستعداد للتعامل مع الاقامة العامة ٠ غير ان سكان داخل المملكة كانوا يظهرون معاداتهم للفرنسيين بنهب ضيعاتهم والغارات التي تعرضت اليها المراكز القريبة من الواجهة الحربية والمظاهرات الموالية للالمان ٠ وان الوثائق الرسمية تكذب تكذيبا قطعيا وجهة نظر الحزب الدستوري الجديد القائلة بان البلاد الحقيقية كانت باجمعها الى جانب الحلفاء ٠

كان السلوك الذي اتخذه المنصف باي يدل على صفات عجيبة خاصة برجال الدولة ، وقد جلبت له انتصارات حقيقية : منها الغاء امر 30 جانفي 1898 المتعلق بامتلاك الاحباس بطريقة المعاوضة العقارية او المالية ، وظل الوطنيون يقاومون ذلك الامر منذ 45 سنة ، ومنها مد الموظفين التونسيين بمنحة 28% المعادلة لمنحة زملائهم الفرنسيين ٠ فلم يوجد منذ 1880 باي برهن بمثل ما برهن عليه المنصف باي من القوة والنجاح في التمسك باستقلاله ٠ ومع ذلك لم يعرقل حياده الرسمي استعادة الدستور الجديد لنشاطه ٠ وقد اهتم خاصة « بالشبيبة الدستورية » التي كان نظمها الهادي نويرة ٠ واخذ المناضلون المحنكون يرجعون لقيادة جنودهم ٠

لم يذعن الحبيب بورقيبة لضغط المحور

ففي غرة ديسمبر 1942 امر الاميرال « استيفا » بفتح ابواب السجون . اما مساجين مرسيليا الذين تدخل لفائدتهم بدون جدوى من يوم ارتقائه للعرش ، فقد اطلق سبيلهم في 18 نوفمبر ، وسلموا الى السلط الايطالية التي نقلتهم الى روما في 9 جانفي 1943 على امل جعلهم دعاة لفائدتها وكان الدستوريون الجدد يتطلعون الى رجوع الحبيب بورقيبة قائدهم الحقيقي . وفي انتظار ذلك قاموا بتنظيم الشعب الحزبية من جديد ، وعادوا الى تنظيم المظاهرات في الشوارع ، وتدخلوا مباشرة في الشؤون العامة حتى ادخلوا احيانا القلق على الوزراء التونسيين .

ومن سجنه في مرسيليا كان زعيم الدستور الجديد قد حذر رفقاءه من الاعجاب المفرط بالمحور . ولما اقتبلته الحكومة الايطالية بكل ابهة وحفاوة وانزلته بقصر « فيورنتيني » (Fiorentini) عرف كيف يحدد المعونة المرتجاة منه الى اضعف ما يمكن .

وبما ان الوثائق الرسمية بشأن مفاوضات زعيم الدستور الجديد في روما مفقودة فليس لدينا سوى وثائق الحزب الدستوري الجديد . وهي تقول :

لما اضطر الى توضيح وجهة نظره كتابيا حرر مذكرة الى الحكومة الايطالية وضع فيها شرطا اساسيا لاي مشاركة من الحزب الدستوري الجديد يتعذر طبعا على الحكومة الايطالية قبوله الا وهو الاعتراف باستقلال تونس التام وفتح مفاوضات مباشرة بين الحكومة التونسية ودول المحور لضبط نطاق تلك المشاركة ومرماها » (18) وفي 6 افريل 1943 تكلم لاول مرة في اذاعة روما ، فالقى خطابا كان يحتوي على تلاميح الى الاعتداءات المفرطة التي قام بها الاستعمار الفرنسي ، ولكن بالخصوص على تحذير لمواطنيه من بعض المطامع الاجنبية ، وعلى نداء لتوحيد الصفوف حول العرش ، وبعد ذلك بيومين رجع الزعيم الى تونس ، خمس سنوات بالضبط بعد ايقافه .

ولا وجود لاي وثيقة تسمح بتصريح كالذي صدر على منصة مجلس الشيوخ ، بان اذاعة « باري » (Bari) كانت في نوفمبر 1942 تستعمل دعاية بورقيبة الذي كان يطلب من العالم العربي حمل السلاح ضد نزول

---

18) ـ مذكرة في حياة الحبيب بورقيبة في 16 جوان 1950 .

جيوش الجنرال « ايزنهاور » على سواحل شمال افريقيا ، (19) فلو وجد أي شك حول هذا الموضوع لما كان الجنرال « جوان » يقرر توقيف التتبعات ضده على اثر المقابلة التي جرت بين الحبيب بورقيبة والجنرال « مورو » في 9 جوان • وتعترف الاوساط الاكثر اطلاعا في الاقامة العامة بان الزعيم الدستوري لم يخدم ركاب ايطاليا ، وبانه لم يرضخ لتهديدات رجال المحور الديبلماسيين الذين كانوا يريدون الذهاب به الى اروبا عند دخول الحلفاء لتونس ، وبانه امر مواطنيه بان لا يغادروا التراب التونسي مثل ما فعل بعض الدستوريين كالدكتور ثامر والطيب سليم •

خلع المنصف باي

ان احتلال الحلفاء لتونس وضع حدا للتجربة المنصفية بصورة فجئية عنيفة فقد كانت سلط الجزائر تعتقد ان ذلك الباي كان متعاونا مع المحور ، وحملت الحلفاء على مشاطرتها ذلك الاعتقاد • وفي 7 ماي هجم البريطانيون على قصر حمام الانف ، وساقوا تحت حراسة قوية ذلك الملك الى عاصمة تونس حيث اطلق سراحه بفضل تداخل الكاتب العام « جان بينوفي » وطلب للانقليز بعد ذلك ان اعترفوا بغلطهم ، لكن العسكريين الفرنسيين لم يحذوا حذوهم• ففي يوم 13 ماي قام الجنرال « جوان » بزيارة الى الباي في قصره بالمرسى ، وطلب منه التنازل عن العرش • ولما رفض ، اتخذ الجنرال « جيرو » القائد الاعلى المدني والعسكري في افريقيا الفرنسية قرارا جاء في مقدمته : « حيث كان وجود صاحب السمو باي تونس على عرشه في الظروف الحالية من شانه ان يثير صعوبات بشان المحافظة على الامن الخارجي والداخلي للايالة التونسية اللذين تعهدت فرنسا بضمانهما » ، وجاء في فصله الاول : « خلع صاحب السمو سيدي محمد المنصف باشا باي صاحب المملكة التونسية • » وكان نص ذلك القرار يستند الى معاهدة 12 ماي 1881 والى اتفاقية المرسى في 8 جوان 1883 • ولم يسبق ابدا ان اتخذ منذ انتصاب الحماية مثل هذا القرار الجائر • وفي اليوم نفسه حمل الباي في سيارة « جيب » الى مطار العوينة حيث اقلته طائرة الى الاغواط في جنوب الجزائر • وتقبل الشعب التونسي الخبر كنعي حادث قومي •

وبالرغم مما جاء في الفصل الثاني لذلك القرار من ان خلف الباي المنصف على العرش « يتم تعيينه حسب تراتيب العائلة الحسينية » فسرعان ما وقع

(19) — خطاب « هانري طوريس » في « جورنال اوفيسيال » (الجريدة الرسمية) ، جويلية 1950 •

التفطن الى ان قرار جنرال لا يكفي لفرض « باي فرنسي » كانت شرعيته محل شك . فاشعروا بذلك المنصف باي . فوجه من الاغواط في 3 جوان رسالة اولى الى الجنرال « جوان » يبسط فيها موقفه ، ويعطي امثلة من امتناعه عن التعاون مع المحور ، ويعبر عن استعداده للتنازل بشرط ان تخصص له منحة شهرية وان يسمح له بحق الاقامة في مقره الخاص بالمرسى . ثم عرض من جديد رغبته في الابتعاد عن الحياة العامة حسب ما كان يتمناه منذ يوم التحرير واختيار مقر اقامة بمقاطعة عاصمة الجزائر او وهران في رسالة ثانية الى الجنرال « شارل ماست » الذي تسلم مهام وظيفته كمقيم عام بتونس في 24 جوان . وفي 6 جويلية صرح بتنازله عن العرش لاسباب صحية لفائدة خلفه المحبوب ، سيدي الامين باي حفظه الله برعايته العلية ووفقه في جميع اعماله » . فنقل الملك السابق من الاغواط الى تناس بالجزائر ثم الى مدينة « بو » Pau بفرنسا حيث توفي سنة 1947 .

وذكرت شخصية سامية حضرت الاجتماع الذي اتخذ اثناءه قرار « خلع الباي باتفاق تام مع الحلفاء » بالتبجيل والعناية التي احيط بهما في شرشل (20) وفي « بو » (21) ، ونسيت بفقدان ذاكره عجيب مرحلة الاغواط التي دامت ثمانية اسابيع . وبالفعل لم تنكر حاشية المنصف باي تلك العناية ، الا انها تؤكد ان ما كان يردده الضباط عن تعفن نواحي مدغشقر جعله يخشى نقلته الى تلك الجزيرة . واليوم يبدو انه لم يبق من يتحدث عن تعاون او خيانة ، كما كان الشان في السنين الاولى التي عقبت تحرير تونس . نعم ، قد اشيع همسا سنة 1946 انه عثر بين الوثائق الالمانية على رسائل للدكتور « راهن » فيها اتهامات خطيرة ، لكنها كانت تدل بالعكس من ذلك حسب المطلعين اطلاعا ثابتا على ما ابداه ذلك الباي من صمود امام الضغط الالماني . وها ان الباحثين النزهاء بداوا يذكرون ما حف بقرار الخلع من خفة : « لقد هيئ الملف بصورة متعجلة . وبعد مضي بضعة اشهر صار القادة الفرنسيون من مدنيين وسياسيين يتساءلون هلا وقعوا في الخطأ اذ تبين ان تعاون المنصف باي هو اتفه مما كان يلوح لاول وهلة » (22) .

---

(20) ـ لا شك انه يعني تناس .

(21) ـ رسالة « لقابريال بيو » سفير فرنسا ، المقيم العام سابقا في المغرب الاقصى ، نشرتها جريدة « لوموند » في 15 مارس 1951 .

(22) ـ « بيار فريديريكس » : سيدي الامين باي ـ جريدة « لوموند » في 24 جانفي 1956 .

لكنه بقي مخلوعا لان الحكومة ، بعد ان ساورها الندم ، ظلت تتردد في اتخاذ حل لاصلاح الخطأ اصبح حتميا ، وذلك حتى لا تظهر في مظهر الاستنكار لاعمال جنرال ٠

اما الخضوع واما الاستقالة

وفي الحقيقة كان السبب الاصلي لذلك العمل الاستبدادي امرا آخر ، وقد كشفه لنا الكاتب العام السابق للحكومة التونسية والمقيم العام في المغرب « قابريال بيو » المدافع المتحمس عن اختصاصات الدولة الحامية وقد شارك بدون شك بصورة فعلية في عمل السلط الحليفة وهو يقول : « وفيما يتعلق بقضيته ، فهنالك ايضا (23) عدم تطبيق للمعاهدة ، فان المنصف باي اطرد وزراءه وعين مكانهم وزارة جديدة دون مصادقة المقيم العام احتجاجا على قرار اتخذه هذا الاخير في تعزيز قوات الجندرمة الفرنسية (24) ٠ فشجع بسلوكه ذلك اعمال العنف التي صدرت عن بعض رعاياه ضد الفرنسيين بالارياف والجنود البريطانيين والامريكيين (25) ولم يشر السفير ولو بمجرد التلميح لا الى خيانة ولا حتى الى تعاون ما . وهو في نص آخر يذكر « خلع الباي الذي لم يحترم معاهدة الحماية » (26) ٠

فالآن اصبح الامر مفهوما ٠ فقد اقترف الملك جريمة لا تغتفر حين اختار وزراءه بنفسه ٠ فلا شيء غير النفي كان يكفر عن ذلك الذنب ٠ ولكن لماذا حينئذ تبذل كل تلك الجهود لاخفاء السبب الحقيقي عن الراي العام ؟ فقد كانت اول عملية يجب القيام بها اثر تحرير تونس بمقتضى منطق السياسة التي كان « بيار فيينو » الوحيد في قطع سيرها ، هي اعادة تركيز نظام الحماية برمة سلطته بالقضاء على ازالة جرثومة العدوى بالطرق الجراحية ٠ غير ان ازالة المنصف من الميدان خلق النزعة المنصفية التي كان لها ان تكسيب الحركة الوطنية حدة لم يسبق لها مثيل ٠

23) ـ اللفظ يقصد به موقف سلطان المغرب الاقصى من الجنرال « جوان » ٠
24) ـ يتعلق الامر في الحقيقة بحادث جرى بين الاميرال « استيفا » ووزير العدل السيد عبد الجليل الزاوش ٠ فان هذا الاخير اعرب عن تحفظاته بشان اقرار اعتمادات للجندرمة ٠ فصرح المقيم العام علنا بانه لا يسمح باى ملاحظة بخصوص تلك الفرقة الممتازة ٠ فمن اجل تلك السبة التي لحقت وزيره ولا من اجل اصل الموضوع كان فصل الباي لوزرائه الذين لم يظهروا في نظره ما يكفي من الحزم ٠
25) ـ « لوموند » في 15 مارس 1951 ٠
26) ـ جريدة « مارشي تروبيكو » (الاسواق الاستعمارية) في 7 افريل 1951 ، ص 922 ٠

الباب الثالث
نشأة الوطنية الجزائرية

ظلت الجزائر مدة طويلة أكثر البلدان الاسلامية اعراضا عن الافكار الجديدة • ففي سنة 1904 لم يثر مرور الشيخ محمد عبده انتباها خاصا • وقد تحدث مفتي القاهرة أمام جمع صغير من المستمعين بمسجد متواضع من حي « بلكور » Belcourt • ولم يخطر ببال احد على ما يظهر ان ذلك العالم المفسر كان باعث النهضة السياسية والدينية والثقافية الاسلامية ، ما عدا في قسنطينة حيث تفتحت بعد بعض الافكار النيرة الى تأثيرات الشرق •

المرابطون والطرق

لقد استمر نفوذ المرابطين والطرق في عدوه حتى جماعات حملة العلماء • وساعد ما للمرابطين من تأثير ذي صفة سحرية على الفلاحين لا فقط على انحطاط الدين ، ولو ان قسما من الاتباع كان يتعاطى زهدا خالصا جدا ، بل على تكاثر الدجالين • ولم يكن للمرابطين ومن خلفهم سلوك منسجم تجاه السلط الفرنسية ، بل اختلف طبقا للتقاليد البربرية حسب اعتبارات اجتماعية أكثر منها دينية • فالمرابطون الصغار الذين يعيشون في بؤس بقرب قبر ولي صالح محلي كونوا طبقة كادحة تميل الى المعارضة وتتأثر بوعظ العلماء • وعلى العكس من ذلك ، فالمرابطون الكبار يشكلون أريستوقراطية عقارية كسبت قوة جديدة على انقاض نبالة السيف المتدهورة •

وكانت مصالح أصحاب الاملاك الكبيرة رهينة استغلال للفلاح مقام على النظام المضمون من السلط العمومية • وقد مكن ولوعهم بالابهة ، وعلى الاخص بالاوسمة والالقاب الشرفية ، مديري الشؤون الاهلية المحتالين من جعلهم معاونين ممثلين للادارة • واحتلوا مكانا مشرفا بين الذين دأبهم الاجابة بنعم ، المستعدين دائما للتصويت لفائدة لوائح التاييد ، والمتلهفين لارضاء أسيادهم • وقد انضموا بحماس الى صف « الماريشال بيتان » الذي استعمل شغفهم بالمظاهر الخلابة • وجلب لهم احترامهم للنظام

القائم تقدير المصريين الذين يرون فيهم الممثلين لاسلام سليم ومتسامح بالمقابلة مع تعصب طائفة العلماء ·

على ان تاثير الاولياء ما انفك يضعف منذ سنة 1930 · فافلت منهم قسم من زبائنهم ، وقد بدلته الخدمة العسكرية واقامته بالمدن · وتقهقر تقديس الاولياء بالخصوص من جراء حملات العلماء على بدع المرابطين النزهاء وخرافات اللؤماء ودناءة المرابطين الموالين للادارة · وقد كتبت جريدة الشيخ ابن باديس مرشد العلماء تقول : المرابطون حيوانات الاستعمار الدجنة ، فهم اليد التي تنفذ الاوامر المشؤومة والجسر الذي يفتح له الطريق· وما انفكوا يناقضون الله في ظهورهم بمظهر الانفة أمام الشعب والعبودية ازاء المستعمرين والرؤساء الاداريين الطغاة (1) ·

وكانت للطرق نفس النقائص ، فتعرضت لنفس التقهقر · وقد قدر انها لم تعد سنة 1930 تشتمل سوى على 256·000 مريدا · وكانت أهمها ، وهي الطريقة الرحمانية بالقبائل المؤسسة نحو سنة 1770 ، تعد منهم وحدها نحو 133·102 في سبعة وسبعين زاوية · ولا تغرنك دقة هذه الارقام فان تقديرات أخرى في سنة 1939 انتهت الى 400·000 منخرط ، نصفهم تقريبا باراضي الجنوب · وقد وضعت الحكومة يدها عليها بدون احتشام · وكان يضرب المثل في الماضي باحداها ، وليست اقلها شأنا ، فزواياها السبعة تجتمع كل عام لانتخاب رئيسها الروحي · فيتنازل الشيخ المعين بالتصويت بمجرد انتخابه ليترك المكان لمرشح الشؤون الاهلية · وكان كل واحد على بينة من اختصاصاته : فللاول البركة الروحية ، وللثاني البركة الادارية ·

وحاول بعض المرابطين وبعض أعضاء الطرق من الرحمانية والدرقاوة رد الفعل ، مبدين شبه ارادة استقلالية ، محاولين تجديد نفوذهم على اساس وقار الخرافات ، وتجديد مذهبهم · لكن ادارة الشؤون الاهلية ما كانت لتسمح حتى بظواهر الاستقلال ، وتفرض امتثالا تاما وعلنيا ولما كان المرابطون يفقدون القادة المقتدرين وحرية العمل ، فان نشاطهم اقتصر على مجادلات مع العلماء الاصلاحيين وتأسيس بعض المدارس القرآنية والاحتفال بالاعياد تكريما للاولياء الصالحين · ولما كانوا خالين من الارادة البناءة ومن الايمان

---

(1) ـ جريدة البصائر · 3 سبتمبر 1937 ·

الفعال ، فانهم لم يقدروا على مواجهة حملات خصومهم الا بالاهتزازات من حين لآخر او بخلوع محزن • وكان العلماء هم الذين احيوا حقيقة الاسلام بالجزائر بالتي فيه وعيا دينيا وقوميا •

النزوح عن تلمسان

لم يكن للاهالي عمل منظم طيلة الثلاثين سنة الاولى من القرن العشرين ، وانما بوادر استياء فردية من النظام الاستعماري • وظهرت خطورة الوضع سنة 1911 لما عزم 800 ساكن من تلمسان على مغادرة المدينة للاستقرار بسوريا • وبين التحقيق كثرة مآخذهم وخطورتها ، فهي التجنيد الذى يجبر الشبان المسلمين على الخدمة العسكرية تحت راية الكفار ، نتائج القانون الفاصل بين الدين والدولة والمصادر للاحباس ، مشروع لتسجيل العقارات ووضعها تحت القانون العقارى الفرنسي خلافا لما جاءت به الشريعة ، القانون الاستثنائي الاهلي الذى يعرض بالمثقفين والوجهاء بصورة آلية الى تسليط الغرامات والعقوبات بالسجن لادنى شكوى ، وجوب رخصة السفر ، سير المحكمة الزجرية والمحكمة الجنائية حيث « ان القضاة المساعدون والمحلفون المسلمون مجرد آلات للتصويت يتصرف الرئيس في زمامها » ، تزايد الضرائب ، حراس الليل الاجباريون وغير المأجورين ، تعويض القضاة الشرعيين بقضاة عدليين لتعاطي قضاء تكاليفه باهضة وغير مطابق للعرف ، النقص في تمثيل الاهالي بالمجالس المنتجبة وعجزهم من جهة بسبب المستشارين البلديين المسلمين من انتخاب الهيئة البلدية ومن جهة اخرى لان هيئة الناخبين تابعة تبعية تامة للادارة ، فلا توجه الى المجالس الاقليمية والاستعمارية سوى المرشحين الرسميين الممثلين الى والي المقاطعة او الى مندوب الحكومة ، المكلف بان يعطي الاشارة للهتافات وبان يعين بقاطع الورق الوقت الذى يجب عليهم فيه ان يرفعوا الايدى ليصادقوا على اللائحة المختومة بطابع الحكومة ، التغييرات الاقتصادية التي افلست من جرائها النشاطات المحلية وبالخصوص مزاحمة الصناعات الاوروبية الكبرى التي تقضي على الصناعات الصغيرة ، تفوق اليهود على المسلمين ، تخريب التعليم من قبل المجالس الجزائرية بمساعدة السلط الاكاديمية ، الصلابة المتزايدة في نظام الغابات التي تفقر الاهالي المنتزعة منهم اراضيهم بالسهول من اجل احداث قرى للاوروبيين : فاعتزال هؤلاء المساكين بالجبال يحرمهم من الاراضي الكافية للفلاحة • ولا يستطيعون التعيش الا من منتوج ماشيتهم ••• واذا

عشر علي عنز في الغابـة وجب ان يباع القطيع لدفع الغرامـة وثمن المحضر والمصاريف ... واذا شاهد حارس امراة مسكينة تحمل حزمة حطب عنف بها حالا ولاحقها وادانها بل اودعها السجن ان لم تستطع في الابـان تسديـد الغرامة التي فرضت عليهـا » ، الاتعاب التي تتسبب فيها القمارق وعقوباتها عبء الضرائب العربية بالدواور وتقديرها غالبا بصورة مجحفة وغير صحيحة ، فقدان الاطباء الرجال للياقـة عند تلقيح النساء المسلمات على رؤوس الملا ، حماية متصرفي البلديات المختلطة لماموريتهم حتى فـي تعدياتهم والفقدان التام للمراقبة من قبل المقاطعات والوالي العام وهـم يمهدون باجراء الابحاث بشأن الشكاوى الى اولئك الذين وجهت ضدهم (2) .

لقد اجابت الادارة واجاب البرلمانيون الفرنسيون بالجزائر بان الاسباب الحقيقية « راجعة كلهـا تقريبـا الـى النداءات المثيـرة الواردة مـن الخـارج لا سيما من تركيا» ، لكن « ابال فيري » واجه « اوجين ايتيان » « وبول كوتولي » في المجلس (3) بتقرير لاحد اساتذة مدرسة تلمسان ، اصبح اليوم احد كبـار المستشرقين في العالم ، وهو « وليام مارسي » الذي تعمق في الامر (4) . فالمجتمع التلمساني اضاع الحياة لان الاستعمار قضى على الظروف التقليدية لحياته المادية والروحيـة : « وقد اعوزتـه الوسيلة وفقـد الميـل للتكيـف بالظروف الجديدة ، ولكنه استمد من حيويته ذاتها القـدرة على الالم ، فتـالم صامتا سنوات عديدة ، ثم رد الفعل فجأة ، وكان مآل الانفصال ثورة مسلحة عند الرحل المحاربين ، فكان استسلاما بلا قيد ولا شرط عند اهل المدينـة المسالمين الواعين لقوتنـا » . ففي ذلك تفسيـر اقل بساطـة من القائـل « بمبعوثين من تركيا » ، وهو يؤكد مسؤوليات المستعمرين وفقدانهم لحصافة الراى : « لا استطيع ان امتنع عن القول بان السلطات المحلية الفرنسية كانت حقيقة قليلة التبصر لما طلت عليه من عدم الاكتراث وقلة الاهتمام والعطف – وهي امور تشكل مجموعة لا تتجزأ ، وبان تطـور الداء ببطء يبدو انـه لم يلفت نظرها في اي وقت من الاوقات ، وبانها فوجئت بالانفجار النهائـي لألم كبت طويلا ، وبانها تصرفت تصرفا سيئا لانها – حسب قـاعدة مشهورة – لم

---

2) اخذ تعداد هذه المآخذ عن تقرير لجنة البحث التي تراسها النائب العالي « باربودات » فـي الـدراسة الـرسميـة التي نشرتهـا الـولايـة العامة بـالجزائـر : النـزوح عن تلمسان سنة 1911 ، ص 24 – 29 .

3) الجلسة الاولى في 16 ديسمبر 1913 .

4) اهم ما جاء في التقرير الماخوذ مـن رسالـة الوالي العام الى وزير الداخلية في 28 فيفري 1913 . نشر في « النزوح عن تلمسان » ص 53 – 57 .

تحسب للمستقبل اى حساب ، ونستطيع ان نضيف ايضا انها لم تحسب للمستقبل اى حساب لانها لم تحب » (5) ٠

وضوح تفكير « ابـال فـيرى »

اشار « ابال فيرى » الى خطر يبـدو ان الادارة والبرلمـانيين الممثليـن للجزائر لم يعيروه اى اهتمام . وقد حرمت موتـه بخط القتال الاهـلى من احد المدافعين عنهم الاكثر انسانيـة ووضوح فى التفكيـر ٠ فردد نـائب « نانسى » Nancy جملة لرئيس لجنة البحث عن ميلاد « طبقة كادحـة اهلية » ، اقر انها تولدت عن « نمو الاستعمار (الذى) قضى على المالكيـن للارض سابقا » ، وبين عواقب التحول الاجتماعي وقال : « ستغدو الطبقـة الكادحة الفلاحية طبقة كادحة عمالية ٠ فقد اظهر بعد اهل القبائل فى جميع مناجم الشمال وصناعات مرسيليا وباريس انهم عملة ٠ وسيمـلاون مناجـم الونزة ، وستكون لكم طبقة كادحة عمالية بالجزائر فى ظرف خمس وعشرين سنة ٠ والتاريخ يبين ان للمشاكل الاجتماعيـة قوة انفجار لا مثيل لها اذا مـا استمدت قوتها من المضاعفات الدينية والضغائن القومية » ٠

وبين هذا الفرنسى الخصب الخيال بما له من بصيرة عجيبة تتباين وضلال الفنيين المحليين ما ستتكون منه العناصر الاساسية للوطنية الجزائرية ، وشهر بالنظرية الرسمية القائلة بتطور العرب فى كنف حضارتهم التى بصدد المآل الى « الوسادة الملائمة » لسياسة ضغط » ، ولما ناشد الحكومة ان تسلك حالا سياسة « عدل وانصاف واسعين » سمع « كوتولى » يرد عليه بقوله : « سياسة عدل وانصاف ، نعم ، لكن لا تنازل » ، وهو ما يعني فى تعبير جزائرى قح الابقاء على السياسة الابوية الاستبدادية والاقلاع عن الاصلاحات ٠

معارضة المعمرين الجبلية للاصلاحات

يتضح لمن يطالع صحافة الجزائر ومحاضر المداولات البرلمانية قبيل حـرب سنة 1914 ان المعمرين يعارضون فى كل تغيير لوضع الاهالى مهما كان ضالته ٠ فهم يرفضـون الغاء الضرائب العربيـه وتوحيد النظـام الجبائى ٠ ويفرضون الابقاء على النظام الاهلى الذى بدونه ينخرم الامن بالجزائر ٠ ويستنكرون تكوين المثقفين الاهليين الذين يرونهم عاجزين عن هضم الثقافة الحقة ، ويصبحـون متنكرين لمراتبهم الاجتماعية ناقمين ومطالبين ٠ ويمانعون في منح المواطنـة

---

5) خاتمـة لا توجد فى تقرير الوالى . لكن ذكرها « ابال فيرى » وقـد اعلنت الحملـة الاخيـرة ست سنوت قبل الاوان عن « النطقة من العصب » التى يرى « ليوتى » انه لا سبيل بدونها ان يتم التصرف الحسن « اقوال للعمل » ص 275 ٠

في نطاق النظام الذي تطالب به النخب ، والذي من شأنه أن « يثير احتجاج جميع الفرنسيين القاطنين بالجزائر بالاجماع (6) وحتى الذين هم اكثر تحررا فانهم يعتبرون انـه « لا يقبل بحال ان يستمد شيخ المدينة سلطه من اصوات رعاياه المسلمين » (7) ويذهب بهم الامر الى حد الرفض لتجنيد الاهالي لا فقط خشية « ثورة ممكنة » بل ولاجل « ارتفـاع الاسعار الذي لا بد ان ينتج عن تجنيد الجنود الشبان » (8) ٠

انهم يمتنعون بتاتا عن مشاهدة مظاهر البؤس والاستماع الى الشكـاوى حتى ولو لفت اليها انظارهم مدافعون عن الاستعمار بالجزائر ٠ وهكذا حاول « اوجين ايتيان » بمجلس النواب ان يرجع التقريـر الرسمي للنائب المـالي « باربودات » بالرغم عن انه ممضـى من اربعة موظفين (9) الى وثيقـة تشتمل على « انطباعات شخصية » قد تقابل بصورة محضة بتحقيقات اخرى اكثر استقلالة واسلم ، بينما وجد فيه نواب من احزاب مختلفة مثل « ابان فيري » و « جـورج لاق » و « ادولـف مـاسيمـي » و « لوسيـان ميللـوفـوا » و « اليان روزي » رئيس لجنة الشؤون الخارجية عناصر « برنامج ادنى لسياسة جزائرية » ٠ وفي سنـة 1913 نشر ناشر من قسنطينـة كتابـا عن زحف الوطنية العربية في العالم ، قدم فيه المسلمين العاجزين عن كل وفـاء والذين لا تؤثر فيهم الا القوة كنتاج جنس منحط ٠ فاخرج منه ثلاث طبعات في اقل من ثلاثة اشهر بالرغم عن ان المعمرين ليسوا بطبيعتهم قرائين (10) ٠

ولم تعدل الحرب العالميـة الاولى المواقف فـي شيء ٠ فقـد مـدح الجنـود الاهليون الامجـاد مدحا جزيلا ، لانهم قاتلـوا قتالا ناجعا من اجل قضيـة الحرية ، ولكن من غير ان يعترف لهم بما اكسبتهـم تضحيتهم مـن حقـوق سياسية ٠ وصرح نائب وهران بمجلس الشيوخ « مارسال سان جرمان » قائلا : « قام الاهالي بواجبهم نحونا ، واستحقـوا المجازاة ٠ ولكن هل من الضروري ان نلتجيء من اجل ذلك الى اجراءات التهور ؟ » (11) ولم يتردد

---

6) ـ النزوح عن تلمسان ، ص 47 ٠
7) ـ نفس المصدر ، ص 38 ٠
8) ـ نفس المصدر ص 46 ٠
9) ـ « هانري دوبيف » مستشار الولاية المساعد ومدير الامن ٠ « اوكتاف دوبون » المتفقد العام للبلديات المختلطة ومدير ديوان الوالي العام ، « جان ميرانت » المترجم الملحق بديوان الوالي ، اليس رئيس المكتب المساعد بولاية وهران ٠
10) ـ « أ ٠ سارفيي » الوطنية الاسلامية ٠
11) ـ « ازولاي » ، الوضع السياسي ، ص 17 ٠

« كليمانصو » ، الذى لم تخفه الضوضاء الجزائرية ، في ارتكاب هذا التهور • فقام بعمل ذى ابعاد ثورية عندما نال من حصن امتيازات المعمرين •

المتزمتون والمثقفون الشبان

لقد سجلت السنوات العشرة التي عقبت الحرب تطورا ملموسا للسكان الاهليين تحت تاثير اقاماتهم بفرنسا وعمل الاحزاب الثورية والتضامن النقابي • وصار العربي شخصا اقل جمودا واقل طواعية مما كان عليه في الماضي بمفعول الشعور بالكرامة وعاطفة الاستقلال وادراك المصالح ومعرفة الحقوق • نعم ، بقي المتزمتون بدون تغير ، ملتفين في الظاهر فقط حول السلط العمومية ، في انتظار المهدى الامام المرسل من الله الذى سيأتى فى الساعة المناسبة ليضع حدا لهيمنة الكفار ، بيد ان المتطورين كانوا يبحثون عن طريقهم ، وقد اعوزهم المذهب ، باذلين اوفر قسط من مجهوداتهم في العمل النقدى •

ولا احسن مظهر لما تتخبط فيه افكارهم من الشك والتناقضات من مواقف الطلبة المسلمين بجامعة الجزائر العاصمة • فلا يخفون ميلهم الى الحزب الاشتراكي ، خاصة لما يناله « ماريوس موتي » من جهود لفائدة قضيتهم ، لكن ابتعادهم العميق عن الغايات الاشتراكية لا يقل عنه شدة ، وهم يعترضون عليها بالحجج التقليدية المتعلقة بالحرية والربح • ولا يفهمون وجود العملة والاعوان في الشعب الحزبية • ولا يؤمنون الا بالذكاء والثروة وهم يترددون في الاختيار بينهما • فالمسلمون المسنون وذووا التاثير يدفعونهم الى الاثراء ، وقد اهتدوا بصفة طبيعية الى توجيهات « قيزو » الذى قال : « ابنائي لا تشتغلوا بالسياسة • اثروا قبل كل شيء • ان الثروة تاتي بالحرية » • وهم يحسون ببؤس اخوانهم فلاحين وعملة ، ولكن بقدر ما كان المستثمر اوروبيا • وعندما يتصدقون طبقا لتعاليم القرآن يظنون انهم يقومون بعمل اشتراكي • وبصفة عامة يتارجحون بين معارضة مركزة وضرورة مجاملة السلط العمومية ، معتمدين فضلا عن ذلك على عمل المناصرين للعرب بباريس حتى لا يعرضوا بانفسهم للشبهة مع عناصر اقصى اليسار بالجزائر •

موقف فرحات عباس

كان لمجموعة الدراسات المكتوبة بين سنتي 1921 و 1930 ، والتي جمعها

فرحات عباس في مجلد (12) تاثير بالغ على الشباب الاهلي ، وهي تشكل وثيقة هامة لدراسة نشأة الوطنية . فماذا نجد فيها ؟ شعور حاد جدا بالكرامة التي جرحها عدم الاعتبار واحكام الاحتقار المسلطة على المتطورين الجزائريين وعلى الاسلام ، وارادة خلق اسطورة الجزائر القديمة بالقاء مسؤولية انحطاطها على نظام القرصنة من قبل الاتراك ، انبذة من المناهضة للسامية تتضح في اختيار الامثلة وتشبيه اليهود بالاسبان واهل « نابولي » Napoli والمالطيين الذين ياتون « لاخذ مكانهم » بين فرنسا والاهالي ، ورفض تناول المشكل الاشتراكي والشيوعي وفي الحقيقة جوهر المسالة الاجتماعية بالوقوف عند حد سؤالين بلا جواب ، ونقد لطيف ولكنه صارم للسياسة الفرنسية ودفاع حار عن الحضارة الاسلامية . وتغلب في ذلك الناحية السلبية على الناحية الايجابية .

وتتلخص فكرة الكتاب في ضرورة « الانتصار على الاستعمار » قبل كل شيء لكي يتحقق الوفاق المطلوب بين الفرنسيين والمسلمين . على انه توجد في الكتاب اعتبارات تميز ذلك العهد ولا تخلو من قيمة . فلا كلام عن الامة الجزائرية ولا عن الوطنية : « ان الجزائر ارض فرنسية ، واننا فرنسيون لنا نظام اسلامي لاحوالنا الشخصية . والمرغوب هو السير من المستعمرة الى المقاطعة » ، والمعلن عنه ليس ثمة في « الكتاب المقدس ما من شانه ان يمنع جزائريا مسلما من ان يكون من الناحية القومية فرنسيا ذا يدين قويتين وذكاء يقظ وقلب صادق ووعي بالتضامن القومي . وليس ثمة شيء ما عدا الاستعمار » . فمقالات فرحات عباس تسجل مرحلة في تفكير المتطورين الجزائريين ، امتدت الى سنة 1936 ، وهي مرحلة الادماج التدريجي للنخبة الاهلية في المواطنة الفرنسية بدون التخلي عن نظام الاحوال الشخصية ، وهي نظرية لا تتفق بتاتا مع نظرية الاستقلال القومي . ولذا من الصعب ــ كما صرح به استاذ عربية بارز ــ ان تقبل بان البيان كان « ضمنيا في مجلد الشاب الجزائري » (13) .

واكد فرحات عباس موقفه في مقال صدر سنة 1936 ، وهو كثيرا ما يذكر بحق لاهميته المذهبية : قال « نحن اصدقاء الدكتور ابن جلول السياسيون قد قد نكون وطنيين . فليست هذه التهمة بجديدة . ولقد تحادثت في هذه

---

12) ــ عباس ، الشاب الجزائري ، 1931 .

13) ــ م . محداد في كتاب فرحات عباس : النظام الاستعماري ص 5 .

المسالة مع شخصيات مختلفة • فموقفي معروف : الوطنية هي هذا الشعور الذي يدفع شعبا ما الى الحياة داخل حدوده الترابية ، الشعور الذي خلق هذه الشبكة من الامم • ولو اكتشفت الامة الجزائرية لكنت وطنيا ، وما احمر وجهي من ذلك كما لو احمر من جريمة • فالرجال الذين ماتوا من اجل طموحهم الوطني يكرمون يوميا ويحترمون • ولا قيمة لحياتي اكثر من قيمة حياتهم • على اني لن اموت من اجل الوطن الجزائري لان هذا الوطن لا وجود له • فاني لم اعثر عليه • وسالت التاريخ ، وسالت الاحياء والاموات ، وزرت المقابر : فلم يحدثني عنه احد ••• فلا يقام البناء على الريح • وقد ابعدنا نهائيا السحب الكثيفة والاوهام لتربط نهائيا مستقبلنا بمستقبل صنيع فرنسا في هذه البلاد •••

وليس هناك من يؤمن بصورة جدية بوطنيتنا • ومما يراد محاربته من وراء هذه الكلمة انما هو تحررنا الاقتصادي والسياسي ••• فبدون تحرر الاهالي لا تكون هناك جزائر فرنسية دائمة ••• (14) فليس في هذا النص اي غموض لائمة امة جزائرية ولا وطن جزائري ، بل هناك جزائر فرنسية ، ويعد النعت بالوطنية افتراء •

ان العمل الوحيد الذي تم القيام به لفائدة استقلال الجزائر ثم لفائدة تمثيل الاهالي بالبرلمان سنة 1926 هو عمل الامير خالد حفيد عبد القادر • فهو الذي كان رائد الوطنية الحقيقي الذي انتسب اليه الجميع حتى الشيوعيون بعد وفاته مبدئيا سنة 1937 (15) لكن احتجاجات الامير لم تسفر في حياته عن اي نتيجة عملية ، ما عدا ما اثارته من صدمة نفسانية يسرت مهمة الدعاة في المستقبل ، وما احدثته من اهتزاز جماعي في الراي العام الاوروبي الذي خون خالدا ، الضابط في الجيش الفرنسي والتلميذ والصديق للكولونيل « ايميل دريان » •

العلمـــاء

كان العلماء هم الذين ايقظوا الراي العام الاهلي من سباته الذي شبهه شاعر عربي فيما بعد « بغرفة الانتظار للموت » • ولهم مذهب ديني قد يصلح اساسا

---

14) ـ جريدة « لانتات » (الوفاق) 23 فيفري 1936 •

15) ـ « الميدان » • ١٥ جويلية 9937 ، جريدة عربية كانت تصدر بتبسة عن جامعة المنتخبين، نشرت له حديثا عن الجنة في خطاب مؤتمر موجه الى ابناء الجزائر المسلمة : « يلـحق العزيز • شعبي الذي استرجعته بتضحياتي » وقد عقد الحزب الشيوعي مظاهر التكريم على شرف « القائد الوطني الكبير » وتمسك بتراث « الابطال القوميين الجزائريين عبد القادر والمقراني وخالد » •

لمطامح وطنية • فهم امثال الوهابيين يرفضون الاجتماع وكـل بدعة لانـه لا منبع للحقيقة سوى القرآن والسنة • ويعتبرون اشـراكا زيارة قبر ولي صالح او ذكر اسمه في صلاة ، ويحرمون المشروبات المخمرة والدخان والموسيقـى والرقص والميسر • ولاعتناقهم اصول الدين والصرامة في الدين يوصفـون احيانا بالوهابيين الجدد بالرغم من انهم يختلفون عن الوهابيين مذهبا وطرائق عمل • فلقب علماء اصلاحيين يناسبهم احسن لانهم يستلهمون خاصة تعاليم الشيخ عبده وتلميذه رشيد رضا اللذين اشارا عليهم بالرجوع الى تعاليـم الفقيه السورى في القرن الـرابع عشـر ابن تيمية المناهض اللدود للبدع المنكرة وباستعمال العلم الحديث لتحقيق النهضة الثقافية • واخيرا تلقوا على الصعيد العلمي دروس شكيب ارسلان ، واستفادوا من خطة الدستوريين الجدد وتجاربهم •

وقد تامل جمـع من المثقفين اثناء الحرب العالمية الاولـى في انحطاط الاسلام المحروم مـن المرشدين ، ففكر فـى تاسيس هيئة لاحيائـه • ولم تتاسس جمعية العلماء الجزائريين الا يوم 5 ماى 1935 ، وجمعت العلماء على مختلف مشاربهم ، حتى المنتمين الى الزوايا ، لكن النفوذ الحقيقي فيهـا كان للعلمـاء المتخرجين من الشرق او من تونس • ولم يكتمل الجمع قوته الحقيقية الا عندما وجد رئيسا في شخص الشيخ ابن باديس من قسنطينة •

المشائخ ابن باديس والعقبى والابراهيمـــى

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس اقوى شخصية اسلامية مغربية • وقد انحدر عن عائلة بربرية قديمـة اشتهر احد اسلافها بمقاومته للبدع فـى القرن الحادى عشر • وكانت له خصال من المرتبة الاولى : ايمان فيـاض بانتصار الاسلام وبلاغة جدلية فعالة في الجمهور وفي المثقفين معا • وسرعان ما اصبح بالنسبة للجزائر لا فحسب « معلم العلم المنطقـى والعلم التقليدى » و « المليم » ، بل و « المرشـد الكبيـر للطـريق السـوى » و « مرشـد المجموعة » واخيرا « ولي الله » • وبفضل ارادته وقوة لسانه وعـن طريـق توزيع مجلته الشهرية « الشهاب » وجريدته الاسبوعية « البصائـر » التى الهمها من وحيه ، واجه بقوات العلماء المتصوف والمرابطـة وناصر غـايات التجديد التي اخذها عن معلمه الشيخ عبده •

لقد اعتمد مثل الثعالبي بتونس على قوى الاسلام دون سواها لاحياء بلاده والسير بها نحو الاستقلال • وامتنع عن كل تورط مع الاحزاب الفرنسية ، ولم يهتم الا بالاجراءات التي تتماشى مع برنامجه الاصلاحي • لذلك لم يظهر ميلا الى مشروع « بلوم ـ فيوليت » ، ونزعته الادماجية تتضارب ودعايته • وفي فتوى بتاريخ 14 جانفي 1938 اعتبر ردة التجنس بجنسية غير اسلامية واستئناف حكم اصدره القاضي طبقا للشريعة امام محكمة اجنبية ، والزواج بغير المسلمة مع العلم التام بما يترتب عنه من عواقب فيما يخص ديانة الابناء ورفض مثل الحزب الدستوري القديم كل تصريح تضامني مع المصالح الفرنسية اثناء الحرب العالمية الثانية •

وكان الشيخان الطيب العقبي والبشير الابراهيمي ، وللاثنين نفس الشخصيتين الرئيسيتين اللتين اثر عملهما في مقاطعتي عاصمة الجزائر ووهران وكان لكلاهما نفس التكوين الذي كان لابن باديس • وقد ولد الشيخ العقبي بجهة بسكرة ، وقضي خمسا وعشرين سنة في الحجاز قبل ان يستقر بمدينة الجزائر • وجلب له مقامه بمكة والمدينة ومعرفته للجزيرة العربية الوهابية سمعة فائقة • وهو رجل عمل وسياسي محنك ، وتبين بالخصوص انه خطيب فصيح لكن بدون الصلابة الفقهية ولا الادارة المتطرفة اللتين كانتا لابن باديس • وانحدر الشيخ البشير الابراهيمي (ويدعى الطالب البشير) من عائلة فلاحين بجهة قسنطينة • واقام سنوات عديدة بمصر وسوريا ، وتشبع بالثقافة والمثل الشرقية • وصار ابتداء من سنة 1932 يسيطر من تلمسان على جهة وهران ببصيرة وهدوء • وخلف ابن باديس بعد وفاته في ماي 1940 ، وذاع صيته حتى في الهند •

برنامـــج وعمل العلمـــاء

كان برنامج العلماء دينيا وثقافيا في آن واحد • فمن الوجهة الدينية ارادوا الرجوع بالاسلام في الجزائر الى نقاوته الاصلية ، ولو ادى ذلك بالمسلمين الى ترك المراجع التقليدية للمذهب المالكي ، واتخذوا في سبيل ذلك مقاومة « المعتقدات الباطلة والسحر » • ومن الوجهة الثقافية سعوا الى لم شتات المجموعة الاسلامية بالتقريب بين السنيين والخوارج والعرب والبرابرة بدون ميز في الجنس او الاصل قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين• وقد اهتموا اولا وبالذات بالناحية التربوية ، فبثوا تعليما مهيئا على الطريقة الشرقية تقليديا ومستوحى من مبادىء الوحدة العربية في آن واحد • وحصل

ذلك في شكل دروس منتظمة ووعظ ومحاضرات • ومكن نشر المراجع التاريخية الطفل من التشبع بعظمة الماضي الجزائري والمغربي وظلت تفاسير القرآن ودروس المعلمين تتخللها روح النقد للعلم الحديث حتى يتمكن الطالب — حسب عبارة ابن باديس — من هضم « كل العلوم والمعارف العصرية وكل ثقافة هذا العصر بواسطة اللغة العربية » •

لذلك انشأ العلماء حتى في الدواور مدارس حرة تشبه المدارس القرآنية لنشر مبادىء النحو والتربية الدينية والقانـون الشرعي • وتـردد عليهـا الاطفال وحتى الكهول • وكانت اهمها مدرسة قسنطينة التي انشئت تحت اشراف ابن باديس ، واستوعب ما يقرب من ثلاثمائة طفل • وفـي المدارس الكبرى القيت دروس في الفقه والفلسفة والفنون والادب والتاريخ اعـدت لتكوين المعلمين • ونظمت عمليات مثمرة لجمع التبرعات من اجـل تاسيس مدارس حرة • وكان الهدف الاسمى الذي لم يبلغ هو انشاء جامعـة كبـرى بعاصمة الجزائر على غرار الجامعة الزيتونية ، تكون مركـز اشعـاع للثقافـة العربية • وامتدت حركة العلماء حتى الى المراكـز الصناعية بفـرنسا حيث اسسوا نوادي تربوية ترمي الى انقاذ الاخوان الذين هم بصدد « الانغماس في الرذيلة وفي الشارع » ومدهم « بتربية الفكر حسب التعاليم الدينية » •

وشنوا حربا شعواء ضد المرابطـين والزوايا • وفـي الميـدان السياسي احترزوا من كل ارتباط مثل الدستوريـين القدامى • وان قبلـوا احلافـا او مساعدات وقتية فلم يحيدوا عن الهدف الذي كانوا يطلبونه • واجتنبوا كل لبس في المذهب وفي العمل • وبـرزت وطنيتهـم الشقيقة لوطنيـة الحزب الدستوري او وطنية « العمل المغربي » في تعبير مماثل اذ اكدت شخصيـة البلاد التي لا سبيل الى خلطها بفرنسا وشخصية سكانها الذين لا سبيل الى ادماجهم مع الفرنسيين • لذلـك كـان كل اجـراء ادماجي سواء بالتاميم او بالنظام الانتخابي يثير معارضتهم • وقد صرحوا بانه على الجزائـر ان تسير نحو الاستقلال بقيادة فرنسا ، وهو موقف التمسك بـه اعسر من التمسك بموقف الحزب الدستوري او « العمل المغربي » اللذين في وسعهما الاستناد الى سيادتي الباي والسلطان •

وبعد شهرين من تصريح فرحات عباس بتنكره للوطنية اصدع ابن باديس بشخصية الجزائر بقوة لا مثيل لها ، فقال « لقد بحثنا في التاريخ وفي الحاضر ورأينا ان الامة الجزائرية المسلمة قد تكونت وهي موجودة مثلما تكونت جميع

الامم على وجه الارض • ولهذه الامة تاريخها الذى تميز باعظم المآثر • ولها وحدتها الدينية واللغوية • ولها ثقافتها وتقاليدها ومميزاتها الحسنة او السيئة كما هو الحال بالنسبة لكل امة على وجه الارض • ونقول بعد ذلك ان هذه الامة الجزائرية ليست فرنسا ، ولا سبيل الى ان تكون فرنسا ولو انها ارادت الاندماج • ولها ترابها المضبوط الذى هو الجزائر بحدودها الحالية (16) •

وبعد ان اقر الشيخ ابن باديس مبدأ ان « الاستقلال حق طبيعي لكل شعب على وجه الارض » (17) اكد انه عندما تصل الجزائر الى طور ما من تطورها المادى والادبي فانها تصبح « دومنيون » على غرار الكندا ، وقال : « ستتمتع الجزائر باستقلال واسع ، وتستطيع فرنسا اذ ذاك ان تعتمد عليها كما تسطتيع امة حرة ان تعتمد على امة حرة اخرى • فهذا هو الاستقلال كما نتصوره ، لا الاستقلال الدامى والمحرق مثل ما يتمثله خصومنا المجرمون • وعلى هذا الاستقلال نستطيع ان نعول بطول المدة وبارادة فرنسا » (18) •

رد فعل الادارة

ذعرت الادارة لنجاح دعاية العلماء • وقد دك تعليمهم الحر التعليم بالمدارس وباهم المساجد حيث كان الاساتذة المنتدبون من ادارة الشؤون الاهلية يعدون الناشئة الى مناصب الموظفين الشرعيين • وهدد مجهودهم لبعث الاسلام مقدمي الطرق ومشائخ الزوايا وموظفي الشعائر والعدلية : ايمة الجوامع والمفاتي والقضاة • ولم تستطع الولاية العامة بالخصوص ان تتحمل نمو دعاية لا تراقبها ، وهي التي تعودت التعامل مع اسلام الطرقية والصوفية الذى لا يمتنع عن مراضاتها • فحاول الوالى « كارد » الخروج من هذا الوضع باجراءات تعسفية اكتسبت من الوجهة الدينية خطورة قصوى •

فقد جمعت الادارة سنة 1930 في كل مقاطعة لجان استشارية للشعائر لتلافي سوء سير الشعائر الاسلامية المحدثة تطبيقا لقانون التفريق بين الدين والدولة ، وكان احداث هذه اللجان « متنازع فيه من الناحية القانونية ومن ناحية مناسبته للظرف السياسى » (19) فهنالك منشور بتاريخ 16 فيفرى

---

16) ـ الشهاب • افريل 1936 •
17) ـ الشهاب ـ جوان 1936 •
18) ـ الشهاب ـ جوان 1936 •
19) ـ « بوسون دوجانسيلس » الشعائر • ص 130 •

1933 ، حرره الكاتب العام لولاية الجزائر العاصمة « فيرنان جول ميشال ظل من بعد مشهورا فى الجزائر باسم « منشور ميشال » ، وقد أصدر الامر للسلط المحلية بمراقبة اعوان الشيوعية والعلماء والوهابيين عن كثب ، وهم متهمون « بمحاولة النيل من مصالح فرنسا » • وتوجه التهديد بالاخص ضد الشيخ الطيب العقبى الذى كان لوعظه الصدى البعيد •

وجاءت ثلاثة قرارات تحرم الشعائر الدينية بمدينة الجزائر من الانتفاع بمساجد الدولة ، وتخص الايمة والمفتى باحتكار الوعظ والارشاد ، وعهدت برئاسة المجلس الاستشارى المحدث الى « ميشال » • وكان الاجراء الثانى يتعارض مع السنة الاسلامية التى تجيز لكل مثقف اخذ الكلمة وتفسير القرآن • واكتسى الاجراء الاخير صبغة الفضيحة لانه يمنح حق التدخل فى ممارسة الدين نفسها شخصا من غير المسلمين وهو علاوة على ذلك موظف • فكان الامر ــ كما صرح به وزير الداخلية فيما بعد ــ « رعونة كبرى ••• ، وقلة ذوق ••• ، وخطأ اخلاقى وغلطة فادحة » (20) ومما يميز العقلية الاستعمارية تمييزا واضحا هو ان الكاتوليكيين بالجزائر وجدوا فى هذا التعدى امرا عاديا لانه تم القيام به ضمانا للنظام ، وهم الذين يغيرون غيرة شديدة على استقلال أسقفياتهم • وصارت حرية الشعائر نقطة الارتكاز للمعارضة تنافست الاحزاب الوطنية فى استغلالها •

ولم يقل منع الوعظ بالمساجد فى شىء من نفوذ العلماء كما اتضح اثناء الانتخابات المتوالية • وقد برز تاثيرهم فى مداولات المؤتمر الاسلامى الجزائرى المنعقد فى 7 جوان 1936 وفى تحرير ميثاق الرغائب • وشارك ابرزهم تمثيلا فى الوفد الذى اقتبله رئيس الحكومة يوم 22 جويلية 1936 • واثارت مبادرتهم احتجاج الموظفين الدينيين الموجهين من ادارة الشؤون الاهلية • وفى برقية الى رئيس الحكومة شهر المفتى المالكى بعاصمة الجزائر ، وهو ابن دالى محمود المدعو « كحلول » المدرس بالمسجد الاعظم ، « بالعلماء الجزائريين الذين ليس لهم لا مستندات ولا شهادات ••• وتتبرأ منهم الاغلبية الساحقة » و « لا يمثلون سوى شرذمة من المشوشين الذين يحاولون بث الفوضى فى البلاد » •

---

(20) ــ د م• دوبرو » بمجلس النواب ، 27 اوت 1947 •

وبعد ذلك بخمسة عشر يوما على اثر تقديم الوفد لنتائج مقابلته ، خر كحلول صريعا متاثرا بضربات رجل ذي سوابق عدلية ودور مشبوه فيه وهو « عكاش » الذى اكد انه تسلم من يد الطيب العقبي خنجرا من صنع بوسعادة و 30٠000 فرنكا ٠ وسمحت المكيدة بالرغم عن فظاعتها بالقاء القبض على الشيخ الذى اطلق سراحه بعد ان تراجع « عكاش » في وشايته اثناء مكافحة له ٠ وغادر العقبي السجن بهالة الضحية ، وخرجت الادارة من المغامرة فاقدة للاعتبار في نظر المسلمين وثقاة الناس ، لكن الشيخ بقي عرضة للتتبعات العدلية ، مما اثر في موقفه السياسي ٠ وفي سبتمبر 1938 قدم استقالته من عضوية الهيئة للمجالس الادارية لان ابن باديس رفض ان يوجه شهادة ولاء الى الحكومة ، واظهر لفرنسا ابتداء من سنة 1939 ولاء لم يحد عنه فيما بعد ٠ وكان سلوكه فرديا لم ينل في شيء من نفوذ ابن باديس ٠

مصالي الحاج ونجم شمال افريقيا

مثلما كان ازدهار جمعية العلماء رهين قائد له نفوذ ، فقد استمد « نجم شمال افريقيا » L'Etoile Nord-Africaine قوته من مزاج خطيب شعبي هو مصالي الحاج ٠ وبالرغم عن عنوانها فقد كادت حركة النجم تنحصر في جموع العمال بمعامل باريس ٠ وولدت في مارس 1920 في ظل الحزب الشيوعي بدفع من الحاج علي عبد القادر عضو الهيئة الادارية للحزب ، من اجل « الدفاع عن مصالح مسلمي شمال افريقيا المادية والادبية والاجتماعية » و « تربية اعضاء الجمعية » وكانت سنة 1929 تضم آلاف عضو ، وعززت دعايتها بواسطة المناشير والجرائد والمحاضرات ٠ واحتفظت من خلال منخرطيها بطبيعتها الكادحة والثورية وميل بارز الى العمل المباشر ٠ وصمدت وطنيتها التهجمية بل العنيفة امام القمع الذى ما انفك ينهال عليها ٠ وقد تم حلها منذ سنة 1929 لانها دعت الاهالي الى الثورة ضد السيطرة الفرنسية مطالبة باستقلال شمال افريقيا ٠ وكان يقودها اذ ذاك منذ عامين مصالي الحاج ، وهو عسكري قديم له من العمر تسعة وعشرون عاما ، ثقافته محدودة لكنه على بلاغة بسيطة ونافذة سواء بالفرنسية او بالعربية وله مواهب ممتازة في التنظيم وارادة لا تتزعزع ٠

وبعد بضعة سنوات من الدعاية السرية « استعاد نجم شمال افريقيا المجيد » نشاطه العلني سنة 1933 بقيادة مصالي الحاج ، ويساعده اماش

عمار المتحمس والرافض لكل حل وسط ، وبلقاسم • وقد اعتقلوا الثلاثة لاعادة تكوين منظمة منحلة بصورة غير شرعية ، ثم من جديد « لحث العسكريين على العصيان والحث على القتل لغاية دعاية فوضوية » • وبدا الانهيار على المنظمة وقد حرمت من قادتها ، الا انها تكونت من جديد منذ شهر فيفرى تحت اسم « الاتحاد القومي لمسلمي شمال افريقيا » وقد بعث فيها الثقة من جديد قرار لمحكمة التعقيب بتاريخ 16 افريل 1935 ، نقض الاحكام التي ادانت مصالي واصدقاءه لان حل الجمعية سنة 1929 لم يكن قانونيا • واستانف مصالي دعايته بعد اطلاق سراحه يوم غرة ماى ، منظما اجتماعات اسبوعية في المقاهي وقاعات الافراح وحتى في مقار البلديات بالاحواز • وكانت توجد في سبتمبر 1935 سبعة فروع • بيد ان مصالي كان على وشك الاعتقال ، فالتجأ الى جنيف ، بينما القى القبض على اماش عمار وبلقاسم • الا ان حركة النجم تواصلت بقيادة مساعديهم ، واستمر مصالي يوجه اوامره اليهم •

وبمجرد تاليف « الواجهة الشعبية » انظم اليها « النجم » وشارك في مظاهراتها • وظهر مصالي من جديد في الاجتماعات العامة بعد ان رخص له بالعودة وظهر اماش عمار وبلقاسم بعد اطلاق سراحهما ، فكانت فرصة لمظاهرات صاخبة • واستانفت الدعاية نشاطها • وزعم النجم حوالى اكتوبر 1936 ان له 11•000 منخرط ، خاصة في الجزائر حيث لم يكن له تاثير يذكر • وقد بدات الحملة في الجزائر يوم 2 اوت 1936 باجتماع عام ضم 10•000 من الاهالي بالملعب البلدى بالعاصمة ، وفيه نادى مصالي باستقلال شمال افريقيا • واستمرت بسلسلة من المحاضرات خاصة في جهة تلمسان مسقط راس مصالي وهكذا تاسس ثلاثون فرعا ، واستقر الراى على انشاء واحد وثلاثين اخرى •

واثارت حركة مصالي معارضة حتى في اوساط المسلمين • فبعد خطاب ملعب مدينة الجزائر اكد الدكتور ابن جلول رئيس المؤتمر الاسلامي ، الذى لم يخف مناهضته للوطنية ، ارادة الاهالي في التطور في المحيط الفرنسي • ولم تكن معارضة الحزب الشيوعى دون ذلك • فلضرورة خطة ظرفية تخلت دعايته عن صلابة مواقفها السابقة ، وقبلت امكانية السيادة الفرنسية ونشاة التسامح الديني ونجاعة العمل التمديني الذى يقوم به الغرب • وفي ذلك كان عرضة لانصار مصالي الذين لم تكن وطنيتهم حتى في عهد الواجهة الشعبية تتحمل اى حل وسط ، وظل عملهم من اجل الطبقات الكادحة يجلب

العملة المسلمين الذين خيب املهم اعتدال الشيوعيين فـي سبيل انتهاز الفرص وبعد ان تكررت الاتصالات مع المصاليين انتهت خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة من سنة 1936 ، وشن الحزب الشيوعي حملة شعواء ضد النجم بباريس واحوازها ، وكـان اثبت مؤيديه • فشهر بـه كحزب متحالف مع المعمرين الفاشيين وبالتالي عدو الطبقة الكادحة الاهلية • وهاجمه علانية بن علي بوخرت نائب الجزائر في المؤتمر القومي للحزب المنعقد بباريس فـي جانفي 1937 • وفي 24 جانفي اثناء المؤتمر الاسلامي المنعقد بمدينة الجزائر والذي ضم الف نائب ، اطرد الحاضـرون بعنف وبمساعـدة الشيوعيين الفعلية مائة عضو من النجم ، وقد انشدوا نشيد الاستقلال •

حـل النجـم

وبطلب من الوالي العام اعلن قـرار مؤرخ في 26 جانفـي 1937 حل النجم وقد اتضح ان عمله « موجه ضد فرنسا بصورة جلية » • وفاجا القرار مصالي الذي كان يعتمد على تسامح حكومة « بلوم » • وتدخلت بباريس هيأة للدفاع بدون جدوى ان لم يكن تدخلها بدون حماس • ولم يتخذ موقفا مناهضا للحل سوى حـزب الجبهـة (Le Parti Frontiste) الذي يتزعمه قاستون بـارجوري وقد فتح اعمدة جريدته الاسبوعيـة لنشر احتجاجات مصالـي (21) ونـدد بالاجراء الشق الموالي « لبيفار » من الحزب الاشتراكي الفرنسي وكذلـك المنشقون انصار « تروتسكـي » من الحزب الشيوعي • وبـدا الشيوعيون متحفظين في تعاليقهم الى حد ان زعمـاء النجم شهروا بهم علـى انهم اوعزوا بالقمع •

وظهر رد الفعـل في الاوساط الاهلية ضعيفا • فقد ارسلت فروع النجم برقيات احتجاج الى الحكومـة ذات معنى واحد ، لكن لم تكن هناك محاولـة للمقاومة بالعنف • ومن بين الاوروبيين مناهضون للسامية لم يستطيعـوا اخفاء حلمهم نحو حزب اهلي لا يتردد اعضاؤه في المناداة : « ليسقط اليهود » مع رفع جمع الكف • وطاب لهم ان يؤولوا قرار الحل كعمل انتقامي قامت به حكومة يسيطر عليها اليهود • وقد كتب زعيم المناهضين للسامية بعاصمة الجزائر الى « هانري كوسطون » يقول : « ظهر بلوم » بحله لهذا التجمع في مظهر من يشدد العقاب على نواة مناهضة لفرنسا ، بينما لم يكن يضع نصب عينيه سوى حماية عنصره الخاص وامته الخاصة ، العنصر اليهودي والامـة

---

(21) ـ جريدة « لافلاش » •

اليهودية . فليع مصالي الحاج ذلك وعيا كاملا ، وليفكر فيه قليلا ان كان له متسع من الوقت : ان العدو الالد لجميع الشعوب لا يزال اليهودي . وان خصوماتنا سنحسمها من بعد عندما يزول الداء الذي ينخرنا . ومن يستطيع ان يجزم اننا لن نجد مجالا للوفاق مع جميع المسلمين الجزائريين بما فيهم من هم اكثر مناهضة (حاليا) للوصاية الفرنسية اذا ما ابعدنا المنتفع الوحيد من انقساماتنا ؟ » وهذه النزعة نفسها هي التي جعلت « النجم » ينظر بعين الارتياح الى تقارب مع الجبهة الاجتماعية الفرنسية le Front social français الذي يواجه « الواجهة الشعبية » بكل القوى اليمينية بالجزائر ، ويمسك عن كل اتصال بالواجهة الشعبية .

حزب الشعب الجزائــري

تميز « النجم » عن الاحزاب الاهليــة الاخرى بمذهــب له اساس جوهره ديني ، ولكن له ايضا صبغة قومية وشعبية واضحــة ، وقد بثتها جريدتـه الصادرة باللغة الفرنسية وهي « الامة » . وضبطت الجلسة العامة المنعقدة في 18 ماي 1933 برنامجه . فعلــى الصعيد الديني اعلنت الاخــوة والوحــدة الاسلاميتين ، واكدهما نوابه بالمؤتمر الاسلامي الاوروبي المنعقد بجنيف في 12 سبتمبــر 1935 . وعلى الصعيد الاجتماعــي شهرت « بــالقانون الاهلــي الشنيع » ، وبسيطرة الفرنسيين علــى الثروات الاقتصادية التي ينبغــي ان تسترجعها الدولة الجزائرية « وباغتصاب الاملاك الكبــرى التي استاثر بهــا الاقطاعيون المتحالفون مع المحتلين والمعمرون والشركات المالية » والتــي ينبغي تسليمها الى الفلاحين . وطالبت بالحق النقابي وبالقوانين الاجتماعية وتوسيع القرض الفلاحي . وعلى الصعيد القومي طالبت بالاعتراف باللغــة العربية كلغــة رسمية وباستعمالها كذلك في التعليم ، وبالخصوص احــداث « برلمان وطني منتخب انتخابا حرا مباشرا » ، وقد اكدت فيما بعد ان هذا البرلمان ينبغي ان يقوم بدوره « بــدون ميــز عنصري ولا دينــي » . وهــذا البرنامج يختلف عن برنامج العلماء بما يحتوي عليه من رغائب اجتماعيــة ، خاصة فيما يتعلق بتوزيع الارض علــى الفلاحين سواء كــان اصحاب الاملاك اروبيين او من الاهالــي .

وفي المؤتمر المنعقد بعاصمــة الجزائر في 7 جــوان 1936 اعلن مصالــي بصراحة وبكل تاكيد « ان النجم لا يوافق على « ميثاق الرغائب فيما يخص

الحاق اقطارنا بفرنسا والتمثيل البرلماني » • واتخذ موقفا ضد مشروع « بلوم ـ فيولات » ، السبب فيه يعود الى انه يقسم السكان المسلمين اذ لا يمنح « حق الانتخاب الا لطبقة معينة من المسلمين الجزائريين » اقل مما يعود الى انه يحدث جاذبية نحو المواطنة الفرنسية تحيد بالافكار عن القومية وبسط مصالي جوهر مذهبه في تصريح نشره لسان حزب « الجبهة الاجتماعية الفرنسية » غداة حل النجم • فكان التعداد الطويل للاصلاحات التي تمنى انجازها وتصريحه بان النجم لم يكن ابدا « ضد فرنسا ، بل بالعكس » ، وانما كان « ضد سياسة معينة » ، لا يذكران الا من بعيد بفكرة « الحرب الطبقية » التي تخلى عنها علانية بانفصاله عن الشيوعيين ليحتفظ فقط بشعار استقلال الجزائر •

وتلاشت الرغبات الاجتماعية ببعد الطبقة الكادحة الاهلية « بباريس » و « ليون » ، وتفوقت عليها المرامي الوطنية • مع انه صار يرى انه لا سبيل الى تحقيقها الا « بفضل التعاون الوثيق بين الجزائريين والفرنسيين » وقد التحق مصالي بالعلماء الجزائريين والدستوريين الجدد « والعمل المغربي » ، وهو يطالب للجزائر بالاستقلال بعيد ينجز بالتعاون مع فرنسا • وانضم الى البرنامج المتين والحكيم والحاذق جدا الذى كان قادة الاحزاب المغربية يدافعون عنه بوحي من شكيب ارسلان • وتقدمت نزعة المسلم نزعة الثورى • وصوب النجم اهم ضرباته ضد حكومة « بلوم » التي اصبحت امبريالية مثل سالفاتها وضد الحزب الشيوعي الذى مر من النزعة الدولية الى القومية الاستعمارية •

وقرر مصالي تحويل « نجم شمال افريقيا » الى حزب مصرح به قانونيا ، حزب الشعب الجزائري ابتداء من II مارس 1937 اقتداء « بصليان النار » الذين التاموا من جديد تحت عنوان « الحزب الاجتماعي الفرنسي » وعاد البرنامج الجديد في الفاظ اكثر حذر الى رغائب « نجم شمال افريقيا » • على ان حزب الشعب حصر نشاطه في النطاق الجزائري ليتميز قانونيا عن النجم القديم الذى كان يهتم بمجموع المغرب ، وذلك على غرار الحزب الحر الدستوري الجديد والعمل المغربي • ونظم صفوفه في البداية بجهة « باريس » ثم بجهتي « الاردان » Les Ardennes « وليون » • وقد اصبحت مهمته اصعب بسبب عداوة الشيوعيين واندساس العلماء الخفي في صفوفه ،

وحاول ايضا بدون جدوى « اقـامـة تجمع للشعوب المستعمرة » يوحـد جميع الوطنيين بالامبراطورية الفرنسية ·

القاء القبض على مصالي وانصاره

ارتمى مصالي في المعترك مـن جديد باندفاعه المعهود عند عودتـه الـى الجزائر في جوان 1937 · ولاول مرة قدم مرشحين الى الانتخابات البلدية بالعاصمة حيث احرز على سبع الاصوات · ولما طرد من المؤتمر الاسلامي الثاني دعا الجماهيـر الـى مقاومـة السيطـرة الشيوعيـة علـى الحركـة الاسلاميـة · وفي استعـراض « الواجهـة الشبيـة » بمناسبـة 14 جويليـة جمع عدة آلاف مـن الاهالي حـول علـم حزب الشعب الجزائـري الاخضـر · فالقى عليه القبض يوم 27 اوت بتهمة « التحريض على القيام باعمال الاضطراب ضد سيادة الدولة » ، وحكم عليه بالسجن لمدة سنتين ، وحرم من حقوقـه المدنية والوطنية والسياسية ؛ وحلق راسه ونتف حاجباه واعتقـل بسجن « بربروس » بمدينـة الجزائر · وقد أستنكر خـالا فرحـات عبـاس عضـو مجلس مقاطعة سطيف (22) والشيخ محمد (بالفتح) الزاهري عن العلماء (23) اجراء يرياه غير مناسب للظروف وارعن ، مع انهمـا تبرآ مـن مصالي · ووقف الحزب الشيوعي نفس الموقف بعد صدور الحكم ·

وحاول المصاليون العثور على التاييد لدى عناصر اروبية ، وقد سدد لهم القمع ضربات قاسية ولم يان الى ان نزل الاميكان بارض الجزائـر · وارادوا ان يستغلوا منشقين عن الحزب الشيوعي كاعوان اتصال مع الواجهة «الشعبية» فاسفر الامر عن نتائج ضعيفة · وفي بداية سنة 1938 جاء أرزقي حكـال ، وهو محل ثقة مصالي ، وقد توفي بعد ذلك بقليل انهيارا بالسجن ، ليقوم بمسعى حثيث لـدى « جـان سال » كي ترعى « الجمهوريـة الفتية » مصالح حزب الشعب الجزائري · ولمـا تركت الحركـة وشانها ضعفـت لان ابرز مناضليها كانوا معتقلين · لكن ان كان الرجال وراء الجدران فان الفكرة بقيت حرة وحية · وقـد اول انتخاب الاستاذ احمد بومنجـل في مجلس البلديـة بمدينة الجزائر فـي نوفمبـر 1938 على انـه دليل على ما للمعتقلين بسجن

(22) — جريدة « لاتنانت » ، 2 سبتمبر 1937 ·
(23) — جريدة « اوران ريبوبليكان » (وهران الجمهورية) 3 و 10 سبتمبر 1937 ·

« بروبروس » او لرغائبهم من تاثير ، وكان بومنجـل المدافع المتحمس عن « النجـم » في الاجتماعات الشعبية بباريس ، وقد ايده المصاليون ٠

وفي افريل 1939 انتخب غون للارتال ، وهو دوار ، عضو مجلس مقاطعة ، وكان يصرح بانتمائه الى الحـزب ، واستطاع ان يـؤسس جريدة جـديـدة « البرلمان الجزائري » ٠ وقدر عدد اعضاء حزب الشعب في الجزائر قبيل اندلاع الحرب بنحو ثلاثة آلاف ، لكن اتضح انه كان لحد بعيد أكثر الاحزاب شعبية ، الذي يعبر نشاطه احسن تعبير عن مطامح الجماهير الاهلية ٠ وقد ادركت الادارة ذلك ادراكا جيدا الى حد انها ضاعفت صرامتها بعد اطلاق سراح مصالي يوم 27 أوت 1939 ، وكان عمله يوشك ان يعرض بالدفاع الوطني للخطر ٠ فتم حل حزب الشعب يوم 29 سبتمبر ، ومنعت « الامة » ، وسجن او اعتقل مصالي وعشرات من انصاره مع الشيوعيين في نفس الوقت ٠ ومن بينهم كان خليط من المناضلين الحقيقيين والمناصرين له غير البارزين امثال سائق لسيارة اجرة متهم بنقل الزعيم في عربته وشبان ساهموا في اكتتاب لفائدة نساء واطفال المعتقلين ٠ وقد حرمت عائلات المعتقلين من حق التمتع بالمنح ٠

وان صدقنا مصالي فقـد عرض عليه رسميا « التعاون على قدم المساواة بين الفرنسيين والمسلميـن ، لكن شريطـة ان يتخلـى عـن الانتخـاب الحـر المباشر (24) والبرلمان الجزائري ، الخ » ٠ وقد طالب مصالي باطلاق سراحه قبل كل شيء وبامكانية النظر مـع اصدقائه فيمـا اذا كـان هنالك مـوجب « لاتخاذ موقف جديد بسبب الوضع الجديد الداخلي والخارجي » ٠ وتوقف التعاون عند هذا الحد لانه حكم على مصالي بالاشغال الشاقة لمدة سبعة عشر عامـا وبحظر الاقامـة لمدة عشرين سنة ٠ وسجلت السلطات اقوالا لجنـود ومدنيين قليلة المحاباة لفرنسا ، لكنها لم تسجل اى عمل منسق ٠ وكان حزب الشعب الجزائري ينتظر ساعته وقد سقط صريعا ولكنه لم يحطم ٠

كانت هنالك سياسة تحمل في طياتها من الامل والحماس المدخر ما يكفي لمعاكسة مفعول الوطنية من حيث كره الاجانب ، وهي سياسة ادماج المجتمع الاهلي تدريجيا في المجتمع الفرنسي ٠ وقد عرضت منذ سنة 1911 على الراى العام واكدتها خيبة امر سنة 1919 الخاص بالتجنيس ٠ واتضح انـه قـد لا

---

(24) — « ج ٠ مسرد » الترددات ، ص 12 ، وهو يذكر هذا النص ، ويرى ان الامـر يتعلـق بالتخلي عن الهيكل الانتخابي الموحد ، وقد تكون الادارة ربطت في ذهنها فكرة الانتخاب الحر المباشر بفكرة البرلمان الجزائري ٠

يتخلى الا عدد قليل من المسلمين عن النظام الخاص باحوالهم الشخصية الذى يمتزج بحضارتهم • فوجب اذن للخروج من الركود ان تقحم اصناف كاملة من المسلمين ضمن المواطنة الفرنسية ، بصورة مبدئية بمقتضى قرار تشريعى مع ترك المعنيين يتمتعون بالنظام الخاص لاحوالهم الشخصية • لكن هذا الحل اصطدم بمعارضة المعمرين اللدودة •

امـر « رينيي » في 5 افـريـل 1935

لقد ابتعدت المواقف عن بعضها بعضا وتصلبت • وحاول الوالى « موريس فيوليت » (1925 ـ 1927) بدون جدوى جمع الهيئات النيابية المالية حـول سياسة اجتماعية ، فظهرت باسترجاعه الى فرنسا لانه « ارتكب الغلطة الخطيرة التى لم يقع فيها من قبله اى ممثل للجزائر ، وهى اعتماده عـلى الاهـالى ضد الاوروبيين » (25) • وعاد خلفه الى العرف السليم ، ففضلوا تـرك المجـالس تتجاوز حدود اختصاصاتها القانونية وتقوم بدورها « كبرلمان زراعى » • وقد ابرزت انتصارهم زيارة التحقيق التى قام بها « مارسال رينيي » وزير الداخلية الى الجزائر • فلم تسفر عن سحب مشروع قانون وضعه « فيـوليت » سنـة 1931 فحسب بل وعن تشديد التشريع الزجرى •

لقد تلقى الوزير الرغائب المعتدلة التى قدمتها اليه شخصيات اهلية • فأكد فرحات عباس متحدثا باسم جامعة المنتخبين الاهليين « انه لم يبق فى هـذا البلـد سوى طريق الادمـاج ، طـريق اذابـة العنصر الاهـلى فـى المجتمـع الفرنسى » (26) وذهب الى التسليم بانه عند استحالة اجراءات تمنح الاهالى المتطورين حق الدخول فى المواطنة الفرنسية مع الحفاظ عـلى نظام الاحـوال الشخصية « فانهم سيخضعون للقانون ، بمعنى انهـم سيقبلـون المواطنـة ويتخلون عن هذا النظام » (27) فرأت الحكومة نفسها مخيرة بين التجنيس مع التخلى عن النظام باصدار « قرار دكتاتورى » مثلما فعل مصطفى كمال بتركيـا وبين منح بعض اصناف المسلمين المواطنة مع الابقاء على نظامهم الشخصى • فرفضت الحلين لتحتفظ بالوضع على ما هو عليه •

(25 ـ « أ • برنار » • حل الازمة الجزائرية ، ص 4 •

(26 ـ لا شك ان وزير الداخلية اشار الى هذا التصريح يوم 22 مارس اذ قال : « اتخذ بعضهم خط الرجعية فقالوا لى : سيادة الوزير ، اننا ندرك ما فى طلباتنا من صعوبات ، لكـن نهيب بكم ان تفرضوا علينا التخلى عن نظامنا الشخصى » •

(27 ـ « كستيون نور افريكان » (شمال افريقيا) ، 25 جوان 1935 • ص 98 •

ان المناقشات التي دارت في مجلس الشيوخ يومي 21 و 22 مارس 1935 بمناسبة الاستجواب الذي تقدم بـه « فيوليت » عـن الاجراءات التي ينبغي اتخاذها للوفاء بالوعود المعطاة للفرنسيين المسلمين بالجـزائر لهي مـن افيـد المناقشات • فقد اتخذ كل من « جاك دورو » عن مدينة الجزائر و « بول كوتولي » عن قسنطينة و « بيار رو ـ فراسينان » عن وهران موقفا واحدا لرفض كل اصلاح سياسي • وبسطوا بطبيعة الحال المزايا التي يوفرها امر سنة 1919 الذي اصبح الميثاق الاهلي ، بينما كان برلمانيو الجزائر اكدوا قبل ذلك بسبع عشرة سنة انه يشكل خطرا قاضيا على الجزائر ، وقدم عضو مجلس الشيوخ الممثل لوهران برنامج المعمرين وهو يتضمن : تيسير دخول الاهالي الى الوظيفة العمومية ، وقانونا في الربا ، وفتح حضائر ، وربما المساواة فـي الخدمـة العسكرية ، وسلوكا لائقا ازاء المواطنين الفرنسيين من اصل اهلي (28) •

ولم يجد المتطورون في هذه المعروضات ما يبعث على الحماس • وقـد زاد خطاب « ريني » في خيبة املهم ، وندر ان كانت بسطة وزير على مثل ما كانت عليه بسطته من المحافظة والعقم ، وكان يعوزها الاحساس الانساني الى حـد يحمل على التساؤل هل انها لم تكن تعبر عن مقاصد ادارة الشؤون الاهلية في كل ما انطوت عليه من غلظة • وحتى اكثر رجال القانون استعدادا فانهم وجدوا فيها « ما يكفي من خيبة الامل » (29) لكن الاستاذ « بالصربون » لسان حـال الولاية العامة والمعمرين ، رآها «حكيمة وحازمة وعلى رصانة رشيقـة » (30) فعلى ماذا تحتوي ؟ فيها اشادة « بالعائلات العربيـة الكبـرى » ، وقـد تمت استمالتها بفضل جسارة واخلاص ورفق المتصرفين الاداريين والمعمرين الذين ينقص البؤس بوجودهم في جهة ما ، وادانة الشيوعيين والعلماء والملاحظة الكئيبة بانه « ربما كان تسرعنا السخي هو الذي حرك شهوات اخرى » (31) وفيما يخص الجوهر ، جاء هذا التصريح القاطع : « قمنا باقصى المجهود منذ سنة 1919 • فلا ينبغي ان يطلب منا الذهاب الى ابعد من ذلك لانه مستحيل »•

---

28) ـ « كستيون نور افريكان » ، ص 105 •
29) ـ « كستيون نور افريكان » ص 107 •
30) ـ « ا • برنار » الحل ، ص 4 •
31) ـ من ذلك جاء تعليق « اوقوستان برنار » ، الذي رافق الوزير اثناء سفره ، على « الحقوق التي منحوها بسخاء بالغ ـ وبعضهم يقول بسخاء مبالغ فيـه ـ بفضـل اصلاحـات م• جونار » • الحل، ص 4 •

واذا كان التقدم مستحيلا فلا مانع في التأخر • وقبع الله الاصلاحات لتفادي الدعاية الوطنية • فيكفي ان « تتخذ حالا تدابير لوضع حد لاعمال المغالاة ولفرض احترام السلطة الفرنسية » • وهو ما تم • فقد صدر امر بتاريخ 5 افريل 1935 معروف في الجزائر باسم « امر ريني » ، وهو يقمع المظاهرات ضد السيادة الفرنسية بالجزائر ، ويتوجه الى الاوروبيين والاهالي على حد سواء ، وتزداد خطورته بمحتواه الواسع الذي يمس جميع من « حرضوا سواء الاهالي الجزائريين او اهالي المستعمرات او المحميات الفرنسية او الاجانب القاطنين بالجزائر في اي مكان وباية وسيلة كانت على الاضطرابات او المظاهرات ضد السيادة الفرنسية وعلى المقاومة الايجابية او السلبية ضد تنفيذ القوانين والاوامر والتراتيب و القرارات الصادرة عن السلطة العمومية » فهي جريمة التعدي على الذات الملكية اعيد التنصيص عليها لفائدة كيان قانوني • وهو سلاح ممتاز بيد الولاة لم يترددوا في استعماله •

مشروع بلوم ـ فيوليت

حي المسلمون في ارتقاء « الواجهة الشعبية » الحكم فجر عهد جديد • واتضح ذلك لما علموا وجود « فيوليت » في الحكومة كوزير للدولة وقبول الرئيس « ليون بلوم » لمشروع يقر « ممارسة اصناف محدودة من الاهالي لما للمواطنين الفرنسيين من الحقوق السياسية التي بدون ان يترتب عن ذلك اي تعديل في نظام احوالهم الشخصية او في حقوقهم المدنية » • وهكذا يستطيع بعض المسلمين ان يتمتعوا بحق المواطنة في كنف هذا النظام مثل السينغاليين في البلديات الكاملة النفوذ منذ سنة 1916 • فهذا الحل الجزئي الذي يرمي « الى التفريق بين مشمولات المواطنة بفصل الحقوق السياسية عن النظام الخاص » (32) كان يستجيب لرغبة قدمها « المتطورون » باستمرار منذ ربع قرن • وقد اعرض « فيوليت » من عام 1931 الى عام 1935 عن عرضها على المناقشة بالبرلمان » فبدأ ارتقاء الواجهة الشعبية الحكم يفتح الطريق عريضة امامه •

وقد اثار تقديم المشروع اندفاعا حماسيا بالغا في قلوب الاهالي لفائدته ما عدا في اساط المواطنين • ولم يتخذ العلماء موقفا معاديا واضحا مراعاة للظروف ، منتظرين ايام خيبة الامل ليكشفوا عن مشاعرهم الحقيقية • لكن

---

32 ـ « رولان » و « لامبوي » موجز في قانون اقطار ما وراء البحار ، 1949 ، ص 375 •

مصالي رأى فيه « اداة جديدة بيد الاستعمار مهيئة لتقسيم الشعب الجزائري بفصل النخبة عن الجماهير طبقا للاساليب التقليدية التي تسلكها فرنسا »

وكان على الرأي العام الفرنسي بالجزائر ان يستمد من هذا السلوك دروسا من الحكمة ٠ فلم يكن شيء من ذلك ٠ واضرم النيران من كل جانب على غرار ما جرى سنة 1919 معلنا ان ولاء النخبة قد يتسبب في ما لا تحمد عقباه ، وان الهيكل الانتخابي الاهلي قد يغمر بسرعة الهيكل الانتخابي الفرنسي وانه قد يظهر هذا الخطر حالا في بعض البلديات الريفية حيث توشك اغلبية المجلس البلدي ان تكون مسلمة وكذلك الحال بالنسبة لرئيس البلدية وكانت في ذلك اكبر حجة للمعمرين ـ واخيرا انه ان انجز الاصلاح فانه يكون تعديا على السيادة الفرنسية بشمال افريقيا (33) وفي المؤتمر المنعقد بعاصمة الجزائر في 14 جانفي 1937 صرح 300 معمرا برفضهم للمشروع باجماع الاصوات الا اثنين ٠ وخصص القس « قابريال لامبار » شيخ مدينة وهران مجلدا لهذه الحرب الصليبية المقدسة (34) وهو احدى الشخصيات الاكثر طرافة ، ولكنها ليست باقلها نموذجية في السياسة الجزائرية ٠ وقد وضع هذا العنوان : « جميع اعداء فرنسا يؤيدون مشروع « فيوليت » وعلى عكس ذلك فانه مبتهج بان جميع المنتخبين وقفوا ضده « في نسق ممتاز » ٠

لقد مكن مشروع « بلوم ـ فيوليت » 000 ٠ 21 اهلي من الاستفادة بحق المواطنة في كنف النظام الخاص ٠ وكان لهذا العدد ان يزداد كل عام ، وكان هذا الانضمام المرغوب فيه من شانه ان يشكل اثبت حاجز في طريق الوطنية واكثر من ذلك في طريق الوحدة العربية باقامة ستار من « الفرنسة » بين تونس والجزائر ، وهو ما يعد ممكنا لما اقر الجنرال « دي قول » محتواه ثانية في الامر المؤرخ في سنة 1944 ٠ بيد ان المعمرين اجمعوا على احباط هذا النص الذي كانت تتولد عنه سلامتهم ٠

جامعات المتطورين

لقد بعث ترك مشروع بلوم ـ فيوليت في « المتطورين » خيبة امل وساعد على تقاربهم مع الحركة الوطنية التي اصبحت المخرج الوحيد ٠ فانهم لم

33) ـ « سرران » الالب من الجزائر » ، في « لوجورنال » (الجريدة) ٠

34) ـ القس « لامبار » ، الجزائر ومشروع فيوليت 1937 ٠ ـ 4) نفس المصدر ، ص 66 ٠

يستطيعوا مواجهة مذاهب العلماء الصلبة ورغائب المصاليين الجذرية الا بهذه الغاية الادماجية • وانتهوا الى السياسة قادمين من اكثر الافاق الفكرية تنوعا • فمنهم من كانوا من اتباع « الايجابية » مثل زركين من قسطنطينة ، ومنهم من كانوا ممن لا يقرون الا ما يقبله العقل مثل الدكتور بن جلول ، ومنهم من كانت تحدوهم روحانية غامضة وحماس حائر مثل فرحات عباس من سطيف ، ومنهم من كانوا ملحدين ماسونيين مثل الدكتور لخذارى من قالمة ، ومنهم من كان يستهويهم الحماس الثورى لحزب الشعب الجزائرى مثل بومنجل ، ومنهم من كانوا لا يكترثون بالعقيدة الاسلامية ، بل كانت عقيدتهم اشتراكية مثل المعلمين لشانى وطهرات •

وكان المتطورون متشبعين بالثقافة الفرنسية الى حد انهم يجهلون احيانا العربية ، لكنهم ظلوا يقيمون فى وسط له وزنه الثقيل على سلوكهم بما فيه من تقاليد متينة الرسوخ بالخصوص فى العائلة التى تسيطر عليها سلطة الاب، فبقوا حينئذ يشملهم مجتمع اهلى لا يختلط الا سطحيا بالمجتمع الاروبى • وان تجنسوا اذ لهم العلماء بتسميتهم مرتدين بدون ان يشعروا بانفسهم متبنين من المجتمع الفرنسى • وكان غالبهم يفضل الاحتفاظ بنظام الاحوال الشخصية لان فى التفريط فيه يبدو لهم ضمنيا تنكر لحضارتهم الاصلية وانفصال عن الحضيرة الاسلامية •

ومهما كانت نزعاتهم او ميولهم الخاصة فانهم اجمعوا على ان يجعلوا من المساواة مع الفرنسيين اساس رغباتهم ، لذا طالبوا بتمثيل فى البرلمان يقع بقبول « النخب » ضمن نفس الهيكل الانتخابى الفرنسى ، مع المحافظة على نظامهم الخاص ، وبتمثيل متزايد فى المجالس المنتخبة بالجزائر • ومن الوجهة العسكرية طالبوا بالمساواة فى الخدمة وفى الترقية وفى الرواتب • وفى مجال ممارسة القضاء طالبوا بحذف المحاكم الاستثنائية وبتطبيق الحق العام وبتعيين محلفين جزائريين فى مجالس القضاء وباعادة تنظيم العدالة الاسلامية وباحداث مجلس للعائلة لفائدة القصر يراسه حاكم الناحية • وفى مجال الغابات كانوا يتابعون الغاء الغرامات الجماعية والعقوبة بالسجن عن الجنحة المرتكبة فى الغابات ومنح مجانية المرعى فى الصيف بالغابات التابعة لاملاك الدولة وكذلك بتمتيع الاهالى باحكام الفصل 363 من القانون الجزائرى فيما يخص شهادة الزور • وكانوا يريدون توسيع نطاق التعليم

والمساواة في الجرايات والنفقات مع الموظفين الفرنسيين وتحسين حالة الفلاحين بقروض فلاحية وحرية الشعائر والتعليم الديني ومساواة الشعائر الاسلامية مع الشعائر الاخرى وتطبيق القوانين الاجتماعية بالجزائر ورفع اجور العملة في المدن والارياف • وفي الجملة كانوا مناهضين للاستعمار واصلاحيين، ينتظرون من فرنسا تدابير تطابق المبادىء التي لقنتهم المدرسة اياها • اما انصار التجنيس الشامل والاجباري بواسطة القانون. فلم يكن لهم تاثير كبير بسبب الشبهات التي تعرض لها المعلم القبائلي «الزناتي مدير « لافوا آنديجان » (صوت الاهلي) الذي دافع عنه • .

لقد قام « المتطورون » بدور سياسي كان عظيما بقدر ما تسنى لهم ان يشاركوا في مناقشات المجالس بفضل ما لهم من معرفة للفرنسية ، لذا تخرج عدد كبير من « المنتخبين » من صفوفهم • فكونوا جامعات في المقاطعات الثلاثة وكانت اقواها جامعة قسنطينة التي ترأسها الدكتور ابن جلول رجل الوفود والمؤتمرات ، وهو مسرح ، يحب التدخلات في سبيل المنفعة ، وله مرونة سياسية تتلاءم مع اصعب الاوضاع • ومن بين اعضائها الدكتور لخضاري من قالمة والدكتور سعدان من بسكرة وفرحات عباس من سطيف • وظلت هي الجامعة المناضلة التي تحاول جر المنتخبين بالعاصمة وراءها ، ولذلك تقدمت حركات المطالبة • واستعمل رئيسها بحسب الظروف الدبلوماسية الجذابة او الفضيحة العمومية او التهديد ، مع معرفة الحصول على مساعدات مناسبة والقيام بالمصالحات المفيـدة •

معـارضة الجـامعـة

لقد ضاعفت الجامعة نشاطها في الجزائر بعد انتخابات سنة 1936 بواسطة الصحافة والاجتماعات العمومية والتدخلات في المجالس والمؤتمرات • فكانت هي التي ساعدت اكثر من غيرها على بث الايمان بمشروع « بلوم — فيوليت » في الجماهير • وفي باريس انتصب نوابها سفراء للشعب الجزائري • وحملهم حماسهم على الاعتقاد في انجاز سريع لرغباتهم • فخيب املهم عـدم نجاعة المحادثات ، وهددت مواقعهم الانتخابية الحملات المتظافرة التي وجهها اليهـم العلماء والشيوعيون والشبان المسلمون بقيادة طهرات ، فـوقف الدكتـور ابن جلول باسمهم موقفا هجوميا ضد الادارة •

وفي ديسمبر 1936 قطعت الجامعة العلاقات مع السلط العمومية بالجزائـر لتفوض الامر الى مقررات باريس • وفي مارس 1937 حمل الدكتور ابن جلول

بعبارات عنيفة على متصرف بلدية عين مليلة المختلطة ، ثم شهر الحزب باسم المنتخبين على مبادىء النظام الادارى نفسها مطالبا بحذف ادارة الشؤون الاهلية • واخيرا وجه تعليمات تقضي باستقالة المنتخبين ان لم تتم تزكية مشروع « بلوم – فيوليت » قبل انفصال المجالس النيابية • وفي اوت تخلى ثلاثة آلاف من المنتخبين بجهة قسنطينة عن نيابتهم ، ولم يتخل بجهة العاصمة سوى مائة وخمسين من اربعة آلاف وسبعمائة وواحد وخمسين • واتخذ المنتخبون بوهران موقفا مؤجل التنفيذ • لكن الامساك لم يكن ليشكل حلا دائما بالرغم عن الاضطراب المفيد الذى ينجر عن تجديد الانتخابات • وقد مكنت الاتصالات بالرئيس « البار سارو » المكلف يوم 9 اكتوبر بتنسيق السياسة في افريقيا الشمالية والتطمينات بشأن عرض مشروع « بلوم – فيوليت » على المناقشة من انسحاب مشرف • وفي جانفي 1938 صدر الامر الى المنتخبين ليعودوا الى مقاعدهم بالمجالس • ولا سبيل الى اعتبار هذه المظاهرة الكبرى ناجحة •

التجمع الفرنسي – الاسلامي الجزائري

لقد اصبح الدكتور ابن جلول اكثر تسامحا ، فحاول ان يستثمر النزعات الوحدوية التي اظهرها العلماء ورجال حزب الشعب الجزائرى لينشىء في جويلية 1938 « تجمعا فرنسيا اسلاميا جزائريا » مهمته مواصلة انجاز برنامج للرغبات باتصال متين مع « التجمع الشعبى » • وانطلق من مشاريع المؤتمر الاسلامي لسنة 1936 ، فجمع عددا من العلماء وبالخصوص الشيخ ابن باديس ومن النقابيين وقدماء المحاربين وقسما من حزب الشعب الجزائرى وكذلك نوابا اوروبيين عن النقابات وقدماء المحاربين والحزبين الاشتراكي والشيوعي • ولم يحضر فرحات عباس • فقد اقلقه موقف زميله الذى تجاوز حدود اللين ، فاسس من جهته « اتحادا شعبيا جزائريا » لكسب حقوق الرجل والمواطن يرمي الى جمع الجماهير الغير منظمة حول المنتخبين • وكتب يقول : « الغلبة رهينة عمل جماهيرى • فالاسواق والمقاهي وابسط الاكواخ ينبغي ان تكون ميادينا للعمل ••• نريد ان تحافظ الجزائر على مظهرها الخاص وعلى لغتها واخلاقها وتقاليدها • والالحاق لا يعني الادماج » •

لقد عزمت النخبة المثقفة على الذهاب الى الشعب • وترك زعيم « اتحاد الشعب الجزائرى » جانبا الامل في الاستقلال الذى يشكل اساس وطنية حزب الشعب الجزائرى وجمعية العلماء ، وقبل ان تكون الجزائر ملحقة سياسيا

بفرنسا ، مع الاحتفاظ بحضارتها الخاصة ، وكان يحلم بادخال هذا البرنامج حتى الى الدواور (35) .

وان هذه المبادرة المزدوجة والتى تمت فى آن واحد تدل على ان « المنتخبين » كانوا لا يؤلفون كتلة منسجمة . واذ لم تكن لمعظمهم معتقدات سياسية ثابتة (لقد ابدى الدكتور ابن جلول وخاصة الدكتور سعدان عطفا غير خفى على « صلبان النـ ر ») فانهم لم يستطيعوا او لم يحسنوا الانصهار فى احزاب تمكنهم من اتجاهات ثابتة ودائمة . فقد اقترب بعضهم من البعض او ابتعدوا عن بعضهم بعضا حسبما تمليه عليهم انفعالات طبائعهم . لكنهم بقوا متفقين فيما يتعلق بجوهر الرغبات . وكانت خيبات الامل والتخوفات تجمعهم من جديد وتلقى فى المرتبة الثانية الاختلافات التى تفصلهم عن التشكيلات الاسلامية الاخرى .

المؤتمر الاسلامى لشهر جوان 1936

فهذه الوحدة الاسلامية التى تفوق المنافسات قوة هى التى سمحت بمحاولة لا سابق لها غداة انتخابات سنة 1936 . فقد جمع مؤتمر اسلامى يوم 7 جوان 1936 بالعاصمة الممثلين عن جميع الهيئات والاحزاب : « المنتخبين » والمتطورين (الدكاترة ابن جلول وسعدان وابن تهامى وكذلك فرحات عباس) ، وعددا من العلماء (الشيخان ابن باديس والعقبى) ، ونوابا عن « نجم شمال افريقيا » (مصالى الحاج) وشيوعيين (ابن على بوخرت) . وصادق المؤتمر على ميثاق رغائب « يطالب بالغاء جميع القوانين الاستثنائية ، والحاق الجزائر بفرنسا ، والابقاء على النظام الشخصى ، وفصل الدين عن الدولة ، وتوحيد التعليمين الاوروبى والاهلى ، وحرية التعليم باللغة العربية وحرية التعبير للصحافة العربية ، والاجر المتساوى للعمل المتساوى ، ومساعدة الفلاحين ، وهيكل انتخابى موحد لجميع الانتخابات الحرة المباشرة . وعين المؤتمر لجنة تنفيذية ولجان محلية انضم اليها جميع انصار الرغائب الاسلامية .

ولم تدم الوحدة الا قليلا بعد اقالة الدكتور بن جلول من منصب الرئاسة بسبب استجواب حمل فيه العلماء على ما يظهر مسؤولية مقتل المفتى . وفى اجتماع اللجنة التنفيذية يوم 7 جانفى 1937 اطرد المؤتمرون المتحمسون

35 — فرحات عباس ، لماذا تحدث « الاتحاد الشعبى الجزائرى » ، 1938 .

لمشروع « بلوم ـ فيوليت » المعارضين من « نجم شمال افريقيا » . وفي المؤتمر الثاني في جويلية 1937 ابعد تأثير الشيوعيين والعلماء المتظاهر مصالي وانصاره . وساد بعد الشعور بخيبة ظن سياسية قوية . ولم يعد المؤتمر يمنح « الواجهة الشعبية » الا موافقة محدودة في الزمن وهو لا يزال يؤيدها ، وصادقت اللجنة التنفيذية في اوت على استقالة المنتخبين بسبب تأخر الاصلاحات المنتظرة . وضعف حماس المؤتمر تدريجيا ، ولم ينفك عمله المستقل يفقد اهميته . على ان المؤتمر الاسلامي « والواجهة الشعبية » ابرازا بوهران تحالفا متينا لنصرة برنامج مشترك . واصطدمت هذه البادرة التي كان يظن انها تاريخية بالمصالح المحلية ومعارضة الهيئات التي انشأها الدكتور ابن جلول وفرحات عباس في بقية المقاطعات . ولحد اعلان الحرب اظهر « المتطورون » عجزهم عن تنظيم عمل منسق وناجح .

موقف الاشتراكيين

على عكس ما جرى في تونس والمغرب تنافست الاحزاب السياسية من اقصى اليسار (الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي) ومن اقصى على جلب الاهالي . فقد صادق الحزب الاشتراكي اثناء مؤتمر باريس في 2 جوان 1936 على مجموعة من الرغبات الاقتصادية التي تستهدف خاصة الرجوع الى الملكية الصغيرة ، ومن الرغبات الاجتماعية التي تتعلق خاصة بالغاء القانون الاهلي وبتطبيق التشريع الفرنسي وبتساوي الاجور ، ومن الرغبات الادارية التي ترمي الى الحاق المقاطعات الجزائرية الثلاثة بفرنسا والغاء الولاية العامة ، ومن الرغبات السياسية المفضية الى التمثيل البرلماني الموحد بدون تقسيم للهيكل الانتخابي . فهذا الحزب كان ادماجيا صرفا ، لا يتأخر امام النتائج العملية التي يسفر عنها موقفه مقرا مبدا الهيكل الانتخابي الموحد وفي ذلك ابرز جميع الحلول الثورية .

ونما عمله على صعيد « الواجهة الشعبية » ، مما مكنه من الحصول على انتخاب اشتراكي اهلي في الهيئات النيابية المالية بدائرة وهران (للعرب) واهتمت لجنة الاستعمار التابعة له والتي مقرها بباريس مرات عديدة بالمسائل الجزائرية ، وقدمت بشأنها تقارير أسس لجنته الادارية القارة . وضبط مجلسه القومي المنعقد في 20 نوفمبر 1937 « التدابير الواجب اتخاذها عاجلا لتلافي ما هو اكيد » : المصادقة على مشروع « بلوم فيوليت »

والغاء « امر رينيي » والزيادة في نسبة الاهالي بمختلف المجالس ورفعها الى الخمسين • واخيرا قدم المؤتمر المشترك بين جامعات افريقيا الشمالية الثلاثة المنعقد بعاصمة الجزائر يومي 23 و 24 افريل 1938 بسطة ضافية عن الرغبات لفائدة اهالي الجزائر خاصة في ميدان المجتمع الفلاحي والقرض الفلاحي والاشغال الكبرى والاجور والمساعدة الطبية والتعليم • وفيما يتعلق بالسياسة فيلح من جديد على المصادقة على مشروع « بلوم - فيوليت » وعلى توسيع التمثيل الاهلي الى الخمسين ريثما يتم الادماج التام والنهائي للتمثيليين وللهيكلين الانتخابيين •

العمل الشيوعي

كان الحزب الشيوعي نشيطا جدا في الجزائر لا في الميدان السياسي فقط بل وفي الميدان النقابي • وقد قضى وقتا طويلا ليتحرر من المحيط المحلي • ففي سنة 1921 اتخذت جميع فروعه بالاجماع موقفا مناوئا لجميع اشكال الوطنية الاهلية • ولم يترك نائبه في المؤتمر الثاني للاممية الثالثة اي مجال للشك في اذهان اعضاء « الكومنتارن » فيما يخص اكثر المناضلين تحمسا • وفي الواقع لما وجهت « موسكو » يوم 20 ماي 1922 « نداء الاممية الشيوعية من اجل تحرير الجزائر وتونس » اذا بفرع سيدي بلعباس ، الذي انخرط هو الاول في الاممية الثالثة ، يندد بمشروع « ثورة الجماهير الجزائرية » على انه « حماقة خطرة ، لا تريد الجامعات الجزائرية للحزب الشيوعي ، وهي التي لها قبل كل شيء ادراك ماركسي للاوضاع ، ان تتحمل مسؤوليتها امام حكم التاريخ الشيوعي » •

ولم يطرأ اي تعديل على هذا الموقف ما دامت الفروع المحلية راكبة هواها • على ان الحزب ، الذي كان يأتمر باوامر موسكو ، دعا الاوربيين من باريس الى تشكيل « جبهة موحدة مع زملائهم العرب في سبيل تحريرهم من الاحتلال الفرنسي » (36) والى الرد على التحديات الوقحة التي تمثلها الاحتفالات بالذكرى المائوية وتنظيم « مظاهرات ثورية لفائدة استقلال الجزائر التام وجلاء الامبريالية الكامل عنها » (37) وفي سنة 1934 قدم

---

36) — جريدة « لومانيتي » (الانسانية) ، 30 جانفي 1930 •
37) — نفس المصدر ، 30 افريل 1930 •

الحزب اثناء الانتخابات الجهوية برنامجا يعدد طويلا جميع الفوائد التي تحصل للمسلمين من « النظام السوفياتي ، نظام العملة والفلاحين » ، خاصة بانتزاع املاك المعمرين والاقطاعيين الاهليين قصد منهج « الارض الى الفلاحين الشغالين » ، وكان الحزب آنذاك على اتصال وثيق بنجم شمال افريقيا .

وللقيام بعمل ناجع كان من المحتم كشف القناع « عن القوميين الاصلاحيين » ، الامر الذي قد يسمح بالوصول الى انشاء « حزب شيوعي حقيقي » بمساعدة « الثوريين العرب » (38) وكانت خطة الحزب ترمي بصورة ادق الى ادماج العناصر الاوروبية والعربية البربرية ادماجا كليا قصد وضع حد للتنافس التقليدي بين الكتلتين وتوحيد جميع القوى الثورية ضد الامبريالية . لذا قرر مؤتمر « فيلاربان » Villeurbaune لسنة 1935 تحويل الفرع الجهوي بالجزائر الى حزب شيوعي مستقل . وكان من شان هذا القرار الجرىء تسهيل الدعاية بين اعضاء الاحزاب الوطنية .

وظلت القيادة المركزية تصطدم بمقاومة المناضلين الاوروبيين المحليين الشديدة ، وكانوا يقومون بمقاومة سلبية او يتخلون عن الفروع . وقد عجل تدخل الدعاة القادمين من فرنسا بهذا التقهقر الى ان تسلم « جان شانترون » المدعو « بارتال » مهمة اعادة التنظيم . فاعطى الحزب طابعا اهليا حقا اذ عربه ووضع في مناصب الثقة مناضلين مسلمين مثل اوزقان عمار وبن علي بوخرت . ومن ذلك الحين سجل الانخراط في الحزب تقدما بغاية السرعة . وتضاعف عدد المنخرطين وتضاعف اربع مرات احيانا . واكتسب الحزب اهمية بما ربط من صلات ماهرة مع العلماء وحتى مع المرابطين وبعمله ضمن النقابات ، وزاد اهميته الدور الممتاز الذي قام به في لجان « الواجهة الشعبية » .

واستدرجت مقاومة الفاشية باتصال مع الهيئات الجمهورية الاخرى الشيوعيين الى الحد من مطالبهم . وكان البرنامج الذي صادق عليه مؤتمرهم يوم 24 اكتوبر 1936 « من اجل جزائر حرة وسعيدة متحدة اتحادا اخويا مع الشعب الفرنسي ومع جميع الشعوب الاخرى » يحتوي بالخصوص على جدول للاصلاحات

(38) ـ « لالوت سوسيال » (الكفاح الاجتماعي) ، لسان الحزب الشيوعي الجزائري ، 26 ـ 30 سبتمبر 1934 .

التي يتعين على فرنسا انجازها ٠ وقد عوض مطلب الاستقلال التام البات القديم بصيغة اكثر مرونة : « واذا خلعنا اغلال الالحاق والاضطهاد التي تشدنـا الى فرنسا الامبريالية فلربط صلات اخوة متينة تجمع بحرية بين شعبنا وشعب فرنسا العظيم في كنف المصالح المشتركة من اجل تحقيق جزائر حرة وسعيدة وهكذا انظم الحزب الـى نظرية شكيب ارسلان والعلماء المؤيـدة لاستقـلال تمنحه فرنسا بحرية في شكل اتحاد فدرالي لا على سبيل الانفصال ٠

وكان للتطور الذي حدا بالحزب لوضع المسائل القومية في المرتبة الاولـى ما يقابله في الجزائر ٠ فقد اضاف المناضلون الاهليون الى وطنيتهم الجزائرية وطنية فرنسية لا تقل عنها حماسا ٠ وطالب بن علي بوخرت بالحق في « تقدير جميع القيم التاريخية والروحية والفنية والانسانية الفرنسية » وأبدى اعجابه بالشعب الذي يدين له بحقوق الرجل ونشيد « المرسياز » La marseillaise ونشيد الاممية l'internationale وبالتقاليد الثورية لسنوات 1789 ـ 1793 و « للكومين » la commune وبالكتاب « برابلي » و « موليار » و « وفولتير » وفيكتور هوقو » و « زولا » و « أ ٠ فرانس » و « ه ٠ باربوس »٠

وترتب عن تغيير البرنامج تغيير في الخطة ٠ فعندئذ قطع الشيوعيون الصلة مع مصالي ، وساعدوه على طرده من المؤتمر الاسلامي الثاني (جويلية 1937) ٠ وشهر حزب الشعب الجزائري من جهتـه بهيمنة موسكـو واسقط قـائمـة ابن علي بوخرت فـي الانتخابات البلدية بمدينة الجزائر لسنة 1937 محتفظا بترشحه في الدورة الثانية ٠ وعلى العكس من ذلك ، فقـد خفف الحزب مـن انتقاداتـه إزاء ابـن جلـول ، واقبل على مجاملـة « المنتخبـين » ٠ وفي نفس الوقت الذي حاول فيه استمالة الجماهير الكاثوليكية بفرنسا مع احتـرام معتقداتهم فانه سعى في تحقيق وفاق مع العلماء كانت له ايام حسنة واخرى سيئه ٠ واخيرا وضع التقارب مع التجمع الشعبي والمؤتمر الاسلامي في المرتبة الاولى من غاياته ٠ وابتداء من المؤتمر الثاني بالعاصمة الجزائرية يومي 27 و 28 ديسمبر 1938 اكد عزمه على رفع عدد المنخرطين من العرب وحصر عمله فـي نطاق الرغائب العاجلة التي هي في جملتهـا اقل جرأة مـن رغائب الحـزب الاشتراكي ٠ بيد ان نقل الشعارات المعمول بها في فرنسا الى الاوضاع المحلية بغاية الانضباط لم يات بالنتائج المنتظرة ٠

احـزاب اقصى اليمـين

لم تكن احزاب اقصى اليمين بالجزائر المتاهلة للعمل المباشر لتامل فـي النجاح بدون تاييد المسلمين او في الاقل حيادهم ، لذا سعت في ضم الاهالي

باعداد برامج للاصلاحات • وقد احتوى برنامج الحزب الاجتماعي الفرنسي (39) الذي حرره « ستانيزلاس دوغو » استاذ الفلسفة المبرز بليسي قسنطينة على نشر التعليم ، وتنمية الفلاحة بتوزيع جزء من الاراضي الدولية ، واحداث بنك شعبي اهلي ، والمساواة الضرورية بين الاهالي المتطورين والفرنسيين لكن بعد تخليهم عن نظام احوالهم الشخصية ، واخيرا حق المسلمين في انتخاب نواب خاصين بهم • وفيما يتعلق بالنقطتين الاخيرتين فانهم لا يختلفون عن المعمرين المتحررين • وعرض مؤتمر الحزب المنعقد بقسنطينة يوم 23 اكتوبر 1938 برئاسة الكولونيل « دولاروك » منح قدماء المحاربين الاهليين حق المواطنة ، وتوسيع الشركات الاحتياطية ووضع استرجاع الاملاك الكبرى تحت الدرس • ولم يوفق الحزب في استبقاء المنخرطين القدامى من « صلبان النهار » بالخصوص بسبب الحملة المنظمة التي قام بها الحزب الشعبي الفرنسي • وبالرغم عن الدعاية النشيطة التي قام بها محام من تزي وزو الاستاذ بلقاسم ابازين في القبائل ، بقي تاثيره في الاوساط الاهلية محدودا جدا •

وكانت لبرنامج الحزب الشعبي الجزائري بالخصوص صبغة اجتماعية ، وقد ظل نشاطه في جهة وهران عظيما • وتباهى بانه كان له السبق في الفات النظر الى بؤس الاهالي ومطالبة الحكومة باتخاذ تدابير المساعدة • وابرز الخطباء التباين في انفاق المليارات بفرنسا لفائدة بعض المجموعات العمالية ولفائدة الاجانب بينما لا توجد اعتمادات لاعانة ستة ملايين من المسلمين • وصرح « فيكتور اريجي » الشيوعي القديم الذي اصبح المندوب العام بشمال افريقيا بقوله : « لا ينبغي ان يوجد فرق ببلادنا ، لا ينبغي ان يوجد فرنسيون ياكلون الجبن وفرنسيون آخرون يفقدون الخبز ••• وليس لنا الحق في ترك رجال يموتون جوعا ببلاد جئنا لاستعمارها » (40) •

وصادق المؤتمر الاول للحزب المنعقد بالجزائر (فيفري 1937) على التعاون المخلص مع المسلمين الذين لهم الحق في الاحتفاظ بنظامهم وفي نيل تمثيل يساوي عدد التمثيل الفرنسي في شكل هيكل للمواطنين الفرنسيين ذوي النظام الخاص • وعرفت مناشير عديدة بالعربية والفرنسية الاهالي بموقف [illegible]

(39) ـ جريدة « الاقلام » (الشعلة) ، اللسان الافريقي للصالح الفرنسي ؛ 15 جويلية 1937 •
(40) ـ جريدة « اوران ـ ماتان » (وهران الصباحية) 27 ماي 1937

الحزب الذى ردده الدكتور الجيلانى بن تهامى عضو الهيئة المديرة امام مؤتمر ثان انعقد بعاصمة الجزائر فى نوفمبر 1938 برئاسة « جاك دوريو » •

وعلق الحزب الشعبى الفرنسى آمالا كبيرة على مشاركة الجماهير الاهلية التى سهل الاعراف بجهة وهران انخراطها • وقد امل بعض المعمرين فى الجهة الغربية ، وكانوا باتصال دائم مع المنطقة الاسبانية بالمغرب ، فى تاليف فرق من المسلمين تمكنهم من القيام فى فرنسا بنفس العملية التى قام بها الجنرال « فرانكو » فى اسبانيا بواسطة الوحدات المغربية • وان استمال لحزب الشعبى العديد من انصار الحزب الاجتماعى الاوروبيين الذين كانت تروق لهم شخصية « دوريو » الخطيب الشعبى المغوار اكثر من شخصية الكولونيل « دولاروك » المذبذب فان مساعى دعاته لجلب منخرطين عن طريق الوعد باعطاء الخبز من ليس عندهم خبز « وجهود الدكتور ابن تهامى لجلب اعضاء حزب الشعب الجزائرى المشتتين لم تسفر الا عن نتائج رديئة ، والسبب الوحيد فى ذلك هو ان « دوريو » قابل مشروع « بلوم – فيوليت » الذى احرز على تاييد الاغلبية الساحقة من المسلمين بمشروع هيكل انتخابى مزدوج •

وجاءت الحرب والاحزاب الاهلية على مواقفها : فحزب الشعب الجزئرى وجمعية العلماء المسلمين قد ابدت مراميها الاستقلالية خيبة التعاون والبرامج الادماجية ، و «المنتخبون» فى حيرة امام حطام امالهم • وانتظروا بصبر الساعة التى يمكنهم فيها انهزام فرنسا وتدخل المنتصرين من الرجوع الى مطالب ملائمة للاوضاع الجديدة • وقد قطع المعمرون الطريق عن الادماج التدريجى للاهالى فى المواطنة الفرنسية • فعبدوا السبيل للوطنية التى ستنطلق بقوة متجددة •

الباب الرابع

نشأة الوطنية بالمغرب الأقصى

استمرار دولة مغربيــة

المغرب الاقصى هو القطر الوحيد الذى بـرزت شخصيتـه المادية بصورة جلية من بين اقطار شمـال افريقيا الثلاثـة فالقسم الغربي يكـون المغـرب الحقيقي ، وتحميه من الغارات سواحل مستعصية ومساحات قاحلة وسور من الجبال العالية ، وتمثل المناطق الشرقية والصحراوية تخومه •

على انه بالرغم عن العراقيل التي تحول دون حرية المرور ، لم يبق المغرب فـي العزلـة المدودة التـي يلحـون عليهـا عـادة • فـارادة السلاطيـن هـي التـي غلقت الحـدود في القرنيـن الثامن عشـر والتاسـع عشـر ، بينما ظلت مفتوحة على مصراعيها في عهد المرابطين والموحدين • وفـي كل العصور وجد المغرب الاقصى نفسه تتجاذبه تاثيرات اوربا وافريقيـا الممتدة عرض البحر الابيض المتـوسط وافريقيـا الحارة • وهـو جـزء مـن الكتلـة الافريقية ، وعاني رغم القفار الغارات الصحراوية ، لكنه ليس بارض محصورة من القارة • فيستطيـع ان يتصل فـي الاقل بالبحر الابيض المتـوسط ان لم يستطع الاتصال بالمحيط الاطلسـي ، ويتقلص البحر المتوسط علـى طول سواحله حتى يفرض جاذبيته الارض الايبيريـة • وارتبط تـاريخ المغـرب الاقصى في القرون الوسطى ارتباطـا وثيقا بتاريخ اسبانيا ، وبعد استرجـاع النصارى للبلاد الاسبانية كان خطر المسيحيين الاسبان هو الذى تسبب في انزوائه • وفي سنة 1936 دفع الجنـرال « فرانكـو » البربـر المغاربة ضد الجمهوريين الاسبان ، كما فعل الوالي العربي على افريقية موسى بن نصيـر ضد الفيزيقوط Wisigoths سنـة 709 ، وكمـا فعل المـرابطون الموحدون في القرنين الحادي عشر والثانـي عشر ضد المسيحيين بقشتالة Castille • وتلح اليوم دعاية الكتـائب Les Phalanges علـى الـروابط الوثيقة التي وجدت على الدوام بين المغرب الاقصى وشبه الجزيرة •

وظل مدخل تازا الضيـق مصفـاة للغزوات الشرقيـة • فتسرب اليه غزو الهلاليين في القرن الحادي عشر عن دفعـات بدون ان يكتسحـه • ولم يتمكن

الاتراك رغم مجهوداتهم من النيل من ترابه ٠ واطرد البرتغاليون من مواقعهم المحصنة ، ولم يقدر الاسبان على البقاء الا ببعض الحصون على السواحل ٠ لذا بقي المغرب الاقصى البربري المعرض عن التاثيرات الخارجية كما هو مثلما عرفه الرومان تقريبا في عهد جوقرتا والملك بكوس ٠

وبالرغم عن النزاعات المستمرة بين المنطقتين المتنافستين على الدوام ، منطقة الشمال الممتدة على ساحل البحر الابيض المتوسط (مملكة فاس) ومنطقة الجنوب الافريقي المستند الى الواحات (مملكة مراكش) ظهر أستمرار دولة مغربية ، خلافا لما جرى في الجزائر ٠ وكانت هذه الدولة قبيل دخول فرنسا محافظة على بنائها الموروث عن القرون الوسطى تحت حكم سلطان شريفي يملك النفوذ الكامل الديني (كامام) والسياسي (كأمير) ، وباسمه تلقى خطب الجمعة ٠ وتكمن قوته الرئيسية في المدن ، وكان يجتهد في توسيع البلد الخاضع لسلطته على حساب البلد الخارج عنها (بلاد السيبة) وظل المخزن يشكل القوة المنظمة الوحيدة التي على الامم الاروبية أن تقيم لها وزنا ، ضمن فرضي كان من صالحه ان يغذيها كي يحول دون نمو حكم منافس ، وهو يمثل طبقة مغلقة من اصحاب الرتب العالية ومنعزلة من حيث تقاليدها وزيها ولغتها ٠

الحيــاة الريفيــة

بالرغم عن الاضطرابات المتكررة التي يميل المرء الى ان يرى فيها دليلا على الفوضى الدامية فان جماهير البربر المنغلقة في هياكلها التقليدية تزاول حياة عادية في كنف اقتصاد عائلي عامة ، وهي تقليديا مهيئة له ٠ وكان المجتمع في طور اقتصادي شبيه بالذي كانت فيه ارياف اليونان العتيق ومدن اروبا الغربية في القرون الوسطى ٠ وكان السكان في معظمهم ريفيين ولو في اقل درجة من الجزائر ٠ واليوم مازالوا يعدون نحو 78 ٪ من المجموع ٠ لكن تفوقهم ما انفك يضعف من جراء الاقبال على المدن ٠ وعنى القرويون بالزراعات الحضرية او بالاستنجاع ٠ وتعاطى اهل منطقة الريف او الشلح بالاطلس زراعة الاشجار والبساتين على تربة مستعصية غالبا ، وكان الفلاحون «بالمرج المغربي» بمعنى بجهة السهول وباراضي المرتفعات الاطلسية الجنوبية عن المحيط الاطلسي شمالي وادي تانسيفت مزارعي حبوب ، ومنهم من كانوا مستقرين تماما مثل اهل دكالة ، وكان آخرون مثل اهل الشاوية يقومون بتنقلات للمرعى في مناطق محدودة ٠ وكانت حياة رعاة الاغنام بالسهول تتراوح بين الترحل

الكبير الذي يقوم به بنوقيل بالمغرب الشرقي. الى الترحل المتوسط القليل التنقل الذي عرف اهل الرحمانة بشبه السهول النضيدة بين ام الربيع ووادي تانسيفت • اما الرحل الكبار القريبون من الصحراء فان جميعهم يعيشون في انسجام مع سكان الواحات بجنوب الاطلس ، وهم يخضعونهم غالبا لنظام رق ؛ وكان للمزارع المغربي المتعلق بارضه ما للفلاحين من المحاسن والمساوى • وكانت العلاقات بين القبائل تتحكم فيها ضرورة الاستنجاع الى حد بعيد • وحدد الاستعمار الفرنسي امكانيات الاستنجاع ، فعزز الاستقرار بالارض ونمى المساحات المزروعة على حساب اراضي المرعى• فالمغرب الاقصى هو القطر المغربي الذي يعد اقوى نسبة من الريفيين المستقرين •

الحياة الحضرية

كانت الحياة الحضرية في المغرب دائما اكثر انتشارا مما كانت عليه في الجزائر • فهناك حاليا 1•500•000 ساكنين ، اى ان 22٪ من مجموع السكان يعيشون بالمدن • ويقسم المغاربة مدنهم الى ثلاثة اصناف : المدن الحضرية ، وهي فاس والرباط وسلا وتطوان حيث تنتمي الاريسطوقراطية ذات الثقافة الاندلسية الى الاندلسيين (Moriscos) الذين اطردوا من اسبانيا عند استرجاع النصارى لها (Reconquista) ، ثم المدينتان المخزنيتان اللتان أقام بهما السلاطين العلويون ، وهما مراكش ومكناس ، وقد غذتهما الهجرة الريفية وكل منهما تحمل لقب عاصمة مثل فاس والرباط ، واخيرا المدن غير الحضرية العامرة بالريفيين منذ عهد قريب مثل وجدة وصافي • وقد احدث الاستعمار تقريبا من العدم مراسي مثل القنيطرة التي اصبحت مرسى « ليوتي » (Port Lyautey) والدار البيضاء المدينة التي نمت بسرعة ، ويتجمع فيها معظم النشاط الاقتصادي بالبلاد •

وتحافظ المدن القديمة على اسوارها التي تطوق المدينة وتفصلها عن ضواحيها ، وعلى قلعتها (القصبة) حيث مقر السلطة ، وعلى حيها اليهودي (الملاح) • وقد حافظت ارادة « ليوتي » على سلامة المدن ، والصقت بها الاحياء الاروبية • وادى هذا الحل الى التمييز بين العنصرين من السكان ولو انه احترم طرافة الماضي ويسر الهندسة المعمارية العصرية • وتظافرت هجرة المغاربة من الداخل والزحف الاروبي على تقويض الهياكل التي لم تعد تناسب مقتضيات العصر • وبقيت المدن مراكز ناشطة للثقافة والحياة الدينية • وفيها ينشأ التفكير السياسي وتنمو الوطنية • والدار البيضاء بوتقة هائلة تتأجج

فيها روح المعارضة عند البرجوازية وحماس الطبقة الكادحة الذى لم ينضبط بعد • وبقيت فاس وفية لرسالتها الاولى فى نشر الحضارة العربية والعقيدة الاسلامية ، وقد انجرت ثروتها عن موقعها الممتاز حيث لا ينقطع الماء ابدا • وعلى العكس تبدو الرباط مدينة الموظفين الفرنسيين خاملة تحت ظلال بيوتها المحاطة بالحدائق ، وتستنفد جزءا عظيما تجاوز الحد من نشاطها فى تراتيب تشريفاتية ينشا عنها سلم مزيف للقيم •

انتشار الاسلام

كان المغرب الاقصى القطر المغربى الذى صمد اطول مدة امام تاثير الاسلام ، ويرجع السبب فى ذلك الى موقعه الجغرافى والى النزعة الفردية عند قبائل الاطلس البربرية • وقد خضع للعرب فى أوائل القرن الثامن ، وبدا اسلامه على ايدى الامراء الادريسيين وتم على ايدى الموحدين الذين قضوا على بدعة البرغواطة ببلد الشاوية ، وكانت ترمى الى اضفاء الصبغة البربرية على ديانة الغالبيين بانتحال محرمات وتغيير الطقوس حسب التقاليد الاهلية • لكن الخطر المسيحى فى القرن الخامس عشر هو الذى بعث اليقظة الدينية التى مازالت عواقبها ملموسة وربما كانت الحدث الرئيسى فى تاريخ المغرب الاقصى فاذذاك احتل المرابطون المرتبة الاولى ، وقادوا الجهاد وأثروا ، وكذلك الزوايا التى اصبحت على حد من القوة مكنها من الاحتفاظ باستقلالها ازاء السلطان •

واليوم فجميع المسلمين المغاربة سنيون ، ويتبعون المذهب المالكى • وتقام الفرائض الدينية خاصة فى المدن • واذا وجد فى الارياف سكان على تدين كبير مثل اهل الجبالية ، فان كثيرا من الفلاحين بالسهول ومن البربر بالجبال بقوا على اسلام يعتريه الفتور • ولم تحرز مجهودات الادارة لتغذية او حتى لتقوية هذه اللامبالاة على النجاح المامول • وقد كان ينتظر الشيء الكثير من المدارس الفرنسية ـ البربرية لتوجيه « البربر الاتجاه الفرنسى » بمنحهم « تكوينا سياسيا وادبيا ممتازا » • وكان على مدرسة ازرو المؤسسة سنة 1929 ان تكون مهدا للمثقفين المتنكرين للاسلام • فاذا بالكثير من قدماء التلاميذ قد انضموا الى حزب الاستقلال ، وصاروا مناضلين وطنيين • ويبدو المنهج « البربرى » فاشلا ابان الدراسة نفسها • ويؤكد كاتب انكليزى استطاع ان يستجوب بعض الشبان ان هؤلاء اظهروا تعلقهم بالسلطان واعجابهم بعلال

الفاسي زعيم حزب الاستقلال وتاثرهم بالوحدة العربية (4) • ويستفيد انتشار الاسلام من كل ضغط او تشجيع رسمي لا لشيء سوى انه رسمي • وهنا ايضا يستفيد الدين من الوطنية اكثر مما يبعث الدين على الوطنية • والراجح ان تعريب البربر الذي يساعد عليه زيادة على ذلك نظام الحماية سيسجل باطراد تقدما سريعا بسبب التوتر القائم منذ عدة سنوات بين القصر والاقامة العامة •

الطرق والطرقية

يروق للادارة في المغرب مثلما هو الحال في الجزائر ان تعتمد على المرابطين واصحاب الطرق الذين كانوا بالعكس مشبوها فيهم في نظر الامراء العلويين • وهكذا اظهر الشريف عبد الحي الكتاني من الاخلاص لفرنسا بقدر ما اظهر من العداوة للملك ، وهو من فاس وشيخ طريقة الكتانيين ورجل ذو ثقافة واسعة ويملك مكتبة لا مثيل لها • وقد اوضح سنة 1950 لكاتب انكليزي ان « الحالة ناجمة تماما عن اساليب السلطان الاستبدادية ، وهو يجتهد في ايقاظ عواطف العداء لفرنسا في شعبنا المسالم • لكن كل مغربي يعلم ان نجاتنا في الحماية الفرنسية • وعندما تغادرون البلاد قولوا لمواطنيكم ان السلطان اخطر على المغرب الاقصى من اي طاغية عرفه تاريخنا » • وقد جلب مثل هذا الموقف للشريف تاييد الاقامة العامة التي احرزت على تاكيده من قبل رئاسة الجمهورية ، لكن بالرغم عما لبركته من تاثير على انصاره فلا جدال في انه فقد كثيرا من نفوذه حتى ضمن العناصر المعتدلة •

لقد انتج المغرب الاقصى كثيرا من المرابطين الذين بلغوا درجة الصالحين اما لعلمهم وتقاهم واما لبركتهم واما لتفانيهم في التصوف • ويوجد بينهم سلم رتب يبتدىء بسلطان المدينة وينتهي بالولي الصالح المجهول • واكثر الاحرام هي موقوفة لحامي بغداد عبد القادر الجيلاني ، وليس من المؤكد انه قدم الى المغرب ، لكن الولي الاكثر اجلالا هو مؤسس فاس ، مولاي ادريس•

ويكون كل حرم هام مع توابعه زاوية ينفق عليها من عطايا الحجيج • وللزوايا التي يشرف عليها شريف حظوة خاصة ، لذلك يبذل كثير من المرابطين المغاربة جهدهم للحصول على نسب شريف • .والزوايا التي هي مراكز لعبادة الاولياء ومجامع للاشراف هي ايضا مقار للطرق • ففي المغرب

---

4) — « لاندو » ، اليوميات المغربية ، ص 59 •

الاقصى قد يكون للطرف اكبر نسبة من الاتباع (10٪) • وانشطها هي الطريقة الدرقاوة التي يرجع اسمها الى شريف ادريسي توفي سنة 1823 • وتجددت القادرية منذ ثلاثين سنة بمساهمات موريتانية ، ويعود تاسيسها الى « القطب الكبير » عبد القادر الجيلاني الذي كان يعيش ببغداد في القرن الثاني عشر • واتباع التيجانية هم من بين الذين يحافظون اثبت محافظة على موقعهم • وتتفرع عن الطريقة الشاذلية اغلبية الطرق الاخرى مثل العيساوية بمكناس الذين يبتلعون النار والحمادشة من الزرهون الذين يرقصون بالفؤوس • وشيخ الطريقة الطيبية ـ التهامية هو ايضا شيخ اشراف وزان الذين لهم على السكان المستقلين تاثير عرف المخزن كيف يكافي مساعدته له • ولا تزال الطرق قوية جدا في الارياف ، لكنها بالجبلة في تدهور • واضاع المرابطون بسفرو في بضعة سنوات نفوذا اثبتته القرون على ما كان يظهر • ولمس في المغرب تاثير العمل الاصلاحي للعلماء الجزائريين بصورة غير مباشرة ، وتسربت اراء الشيخ عبده في البلاد ، واثرت في الاوساط الميالة الى التطور العصري ، خاصة فيما يتعلق بالدفاع عن الشرع ضد النظام العدلي حسب العرف البربري في القبائل •

الشباب المثقف

انفتحت المملكة الشريفة الى التاثيرات الخارجية فجاة بالاحتلال الفرنسي وكانت منذ القرن السادس عشر احد البلدان الاسلامية الاكثر نفورا من مظاهر التجديد • فاكتشف المغرب الاقصى في آن واحد الشرق والغرب • واتته الصحافة وكذلك الحجاج باصداء النهضة واتصلت النخب بالمذهب الاصلاحي للشيخ عبده ورشيد رضا • وارسل قسم من البرجوازية ابناءهم للتعلم بالمعاهد الفرنسية ولاتمام دراستهم بباريس • وفي محيط باريس اكتشف الطلبة الشبان المتبوئون للحركة الوطنية الايديولوجيا الديموقراطية باتصالهم برجال السياسة الفرنسيين فاصبحت قاعدة لرغباتهم • وقدم لهم رفاقهم التونسيون النماذج العملية التي نسجوا على منوالها خطتهم السياسية • ونستطيع اعتبار ان باريس لعبت دورا اساسيا في نشأة الوطنية المغربية • ولم تمثل النخبة التي تكونت هكذا الا اقلية ضئيلة لكنها نشيطة ، وكانت في البداية منعزلة ثم توصلت الى فرض نفسها حتى على المسلمين القدامى ، ولو ان الكثير من اعضائها اظهروا لا دينية مطلقة • ومكنهم تبني السلطان لرغائبهم من الظهور في مظهر الذائدين عن العرش وبالتالي عن الاسلام ، وهو ما اعطى دعايتهم نفوذا عظيما •

ثورة عبد الكريم

ان الحدث الحاسم الذى ادى الى يقظة الوطنية المغربية هو ثورة عبد الكريم سنة 1925 ، وقد بدت للمغاربة هزيمة الاسبان امام الريفيين تبشر بانتصار الاسلام القريب ، وظل السلطان الجديد « سيدى محمد » بالنسبة للشعب هو قائد الجهاد الذى سيطرد سلطان الرباط اسير النصارى ، وفى كل مكان انتظر المضطهدون والجشعون والمتعطشون للانتقام بايمان ساعة تصفية الحسابات ، وبدا هجوم بطل الريف على الجيوش الفرنسية يهدد عمل المريشال « ليوتى » الذى صمد امام محنة الحرب العالمية ، وقد وصل به على قرب بضعة كيلومترات من فاس ، ولم تبق الا خطوة لاعتبار ان انتصار الفرنسيين النهائى مرده الى جهاز فنى قد يستطيع مغرب اقصى حر اقتناءه بسهولة ، وقد تم اجتيازها بسرعة ، وظل عبد الكريم الى النهاية رمز استنكار المسلمين لانتصار المادية الغربية ، وفى محادثاته المؤثرة التى ستتواصل مع المفاوضين عند استسلامه، سيشهر تشهيرا حادا باللسان الاسبانى بحضارة الحديد الغربية المزعجة التى تجعل منه متوحشا لانه ضعيف ويعوزه السلاح » (2) ، ويبقى بالنسبة للمغاربة، وهو مغلوب ، الرجل الذى جابه قوة دولتين مسيحيتين من اوروبا ، و « البطل القومى وبطل الاستقلال المغربى الذى ذكره التاريخ والادب المغربيان » (3) ، وانتهى باستسلامه الاضطراب لحينه ، وبدا المغرب الاقصى يستجم الى سنة 1930 ، بيد انه كانت تنمو شبيبة متحمسة وحساسة ومتلهفة للعمل ،

« الظهير البربرى » بتاريخ 16 ماى 1930

جاء « الظهير البربرى » ، كما سماه خصومه ، خاتمة لسياسة كانت ترمى لا الى حماية القانون العربى للقبائل البربرية فحسب بل والى فصلهم عن حضيرة الشرع ، فان ظهيرا مؤرخا فى 11 سبتمبر 1914 صادرا بايعاز من الجنرال « ليوتى » قضى باحترام العرف البربرى فى القبائل التى تم اخضاعها ، على ان تتخذ قرارات وزيرية لضبط محتوياته ، واحدث المقيم ابتداء من سنة 1915 الجماعات العدلية فى فصائل القبائل ، وخلافا للعرف البربرى الذى لا يسند اختصاص القضاء الى الجمعة التى ينحصر دورها فى تهيئة قرارات التحكيم فان

2) — « مونتانى » عبد الكريم ، ص 313 ،

3) — حزب الاستقلال ، المغرب الاقصى ص 114 ، فيما يخص الانعكاسات فى العالم الاسلامى انظر المقتطفات الصحفية التى نشرتها « لافريك فرانساز » (افريقيا الفرنسية) ، جوان 1925 ، وملحق «معلومات استعمارية» ، عدد 6 مكرر ،

النظام الجديد « كان يمهد لتحول الجماعة التقليدية الى سلطة قضائية حقيقية » . (4)

وبدأت السياسة البربرية باحتشام ثم أخذت فجأة صبغة علنية بالظهير الصادر في 16 ماي 1930 ، وقد امضاه السلطان الفتى سيدي محمد بن يوسف . وهو يقر الصلاحية العدلية للجماعات وينشىء محاكم عرفية متركبة من الاعيان ومكلفة بالحكم في جميع القضايا المدنية والتجارية وقضايا المنقولات والقضايا العقارية وفي كل مادة تتعلق بنظام الاحوال الشخصية او النظام الوراثي . ويؤسس ايضا محاكم عرفية للاستئناف . وكان كل ذلك عملا بالخطة التي اتبعت منذ انتصاب الحماية لفائدة العرف . وجرى خلاف ذلك في المادة الجنائية، فالبند السادس يقضي بان للمحاكم الفرنسية الصلاحية « لزجر الجنايات المرتكبة بالبلاد البربرية مهما كانت وضعية صاحب الجناية » .

وتسحب هذه الاحكام من المحكمة الشريفية العليا المحدثة سنة 1918 صلاحيتها في استئناف جميع احكام الباشوات العمال وفي الحكم من الدرجة الابتدائية في الجنايات والمخالفات المستحقة للسجن لاكثر من سنتين . وتتجرد احالة سكان الجبال على السلطة القضائية الفرنسية السلطان من اختصاصاته الجوهرية . فكانت غلطة سياسية زيادة على انه تجاوز للقانون . فقطع الشبان المغاربة المستلهمون من شكيب ارسلان صمت البرجوازية ، وشنوا حملة ضد اجراء يفصل مسلمين عن عدالة الله . وبذلك ظهروا في مظهر الذائدين عن الاسلام حتى في نظر القدماء ، وقد كانوا مشبوها فيهم لديهم من جراء ثقافتهم الغربية .

الحملة على الظهير

لقد تولوا الدفاع عن الدين المهدد من الخارج مثلما جرى في القرن السادس عشر ، فشهروا بظهير سنة 1930 على انه تفاقم للخطر الذي يمثله ظهير سنة 1914 ، وقد ابدى السلطان مولاي يوسف احترازا شديدا بشأنه ، وعلى انه « قضاء على الاسلام في المغرب الاقصى » لفائدة الدعاية الكاتوليكية التي يتزعمها الاسقف « هانري فيال » وينادي بها « لوماروك كاتوليك » (المغرب الاقصى الكاتوليكي) و « لاروفي ديستوار دي ميسيون » (المجلة التاريخية لبعثات التبشير) .

---

(4) « لوباداز » الاصلاح العدلي . ص 456 .

واتهموا الاصلاح بانه يصادف تفاقم دعاية الفرانسيسكان ومجهودات موظف سام ، وهو الكومندان « مارتي » لنشر نسخ من « حياة المسيح » (Vie de Jésus) باللغة العربية وتنصيب رجال متنصرين من القبائل كتبة بمحاكم الجماعات . واشاروا الى العراقيل التي تعترض المرابطين والفقهاء في تجوالهم ببلاد البربر ، وهم يذهبون سنويا الى الجبال ليعلموا الاطفال القراءة . واعلنوا اخيرا الصيغة المقدسة التي يكتسيها الشرع بالقياس الى عرف يحط بالمرأة الى رتبة متاع ، واعتبروا تدخل القضاء الفرنسي في العدالة الجنائية انتهاكا للدين وهي لن تكون الا دينية .

واستعمل الشبان المغاربة سلاح الصحافة ، وغذت جرائدهم الاضطراب في الافكار ، وكان يحررها بالفرنسية كتاب لم يحسنوا دائما اللغة العربية ، ويترجمها اطفال المدارس الى القدماء . واتصل الطلبة في باريس بالاوساط السياسية اليسارية . وعهدوا بادارة مجلة « المغرب » الصادرة بالفرنسية ابتداء من سنة 1932 الى محام شاب وهو الاستاذ « روبار جان لونقي » ابن احد المناضلين الاشتراكيين المهتمين اكثر من غيرهم بالقضايا الاستعمارية ، وهو « جان لونقي » وفيها كتب بالخصوص محمد حسن الوزاني ومحمد اليزيدي وعبد الحق وعبد الكريم بن جلون . وانتصبت مجلة « المغرب » من اول وهلة كاداة كفاح على اهبة التشهير تشهيرا لا هوادة فيه بالاستغلال الاستعماري الذي يقاسيه المغرب الاقصى والمطالبة بالغاء نظام يشوه روح الحماية . وفي المغرب الاقصى كان لمجلة « المغرب » ما يضاهيها في جريدة « لاكسيون دوبوبل » (العمل الشعبي) التي اولت المسائل المحلية اكثر اهمية .

وكانت للحملة على الظهير البربري انعكاسات عميقة . فقد انطلقت الحركة من مساجد سلا حيث ظل دعاء ايام الخطر ، « يا لطيف » يذكر أثر الصلاة ، وهو ينتهي بهذه الجملة : « يا لطيف ، انقذنا من معاملة القدر السيئة ، ولا تفصلنا عن اخواننا البربر » . واتخذت في باريس اكبر اتساع لان طلبة المدارس راوا احد اهم ابواب الرزق توصد في وجوههم . ودوى جامع القرويين بذكر « يا لطيف » ، واقبل الجمهور على حرم مولاي ادريس يردد الذكر . فكانت في ذلك مظاهرة شعبية جعلت السلطات تحرك الباشا .

ولتوقيف الاضطرابات اقتبل الباشا وفدا يتالف من عشرة أعضاء ، ولم يقتصر على اعتقالهم بل سلط عليهم عقاب الجلد بواسطة سيور من الجلد . وكان الوزاني الحامل لشهادة العلوم السياسية من بين المجلودين . فادرك متى

استمرار بعض المظاهر العرفية بالرغم عن الظهير السلطاني المانع للعقوبات الجسدية . ولم تقدر حتى قراءة رسالة من السلطان يدين فيها حركة الشباب ويبرر سياسة صيانة العرف البربري على وضع حد للاضطرابات . وأثر النزاع القائم بين الاقامة العامة والاهالي على استقبال الرئيس «قاسطون دومارق»(5) .

نتائــج معــارضة ظافــرة

فاز الراي العام في المادة الجنائية في النهاية . فقد عهد الظهير المؤرخ في 8 افريل 1934 الى الباشوات والعمال بالحكم في اقل الجنح خطورة والى المحكمـة الشريفية العليا بالحكم في الجرائم والجنح الهامة وكذلك باستئناف احكام الباشوات والعمال مع المحافظة على المحاكم العرفية ومحاكم الاستئناف العرفية، وقد ضبط صلاحيتها والاجراءات المتبعة فيها ونظامها وسيرها ، لكنه احدث فرعا جنائيا عرفيا حيث يستطيع اثنان من الاعيان ارشاد المحكمة فيما يخص ميزة العرف المحلي ، وذلك محافظة على مبدا القانون العرفي .

ان قضية الظهير البربري لم تبرز الوعي الوطني المغربي فقط بل ادمجت المغرب الاقصى المسلم في الوحدة الاسلامية جاعلة جميع المسلمين يقاسمـون اخوانهم المغاربة محنهم . واخذت القضية التي اتقن شكيـب ارسلان حبـك خيوطها ابعادا شرقية . وقد نصح الامير المسلمين في العالم باسره ان لا يقتصروا على ارسال الاحتجاجات التي لا مفعول لها الى الجـرائـد والحكومـات العربية ، بل ان يرسلوهـا « الى عصبة الامم والى الدول الكبرى والى حكومـة فرنسا نفسها والى برلمانها ومجلس شيوخها » ، وان يكفوا عن « كـل معاملة للبيع والشراء مع فرنسا » لان المقاطعة هي « احد الاسلحة التـي يخشاهـا الاوروبيون اكثر من غيرها . وهم الذين يعبدون المال عوضا عن الله » (6) .

لقد تاثـر العالم الاسلامي وهـو يرى فيالق من المبشرين مقبلة لتغور علـى الدين . وكان الموضوع المتداول عادة هو ان فرنسا « البنت البكر للكنيسـة تريد ان ترغم .. سبعة ملايين من المسلمين على اعتناق الديانة المسيحية (7) . واغتاظ العلماء والاشراف بطرابلس الغرب لان يكون البربر قد اجبروا بعـد على التخلي عن شعائر الدين الاسلامي الذي هو دينهم » .

---

5) ـ « بولان » في جريدة « لي طان كولونيال » (العصر الاستعماري) . 4 ديسمبر 1930 .
6) ـ « الفتح » ، بالقاهرة ، نوفمبر 1930 ، ذكرها « بربري » العاصفة ، ص : 51 ـ 54 .
7) ـ تظهر الحجة بنفس الوضوح في القاهرة والعراق وتونس .

وتم العمل بنصيحة شكيب ارسلان حرفيا ، على الاقل فيما يتعلق بالاحتجاجات • فقد غمرت البرقيات والعرائض الهيئات القومية والدولية ، وتالفت لجان ببرلين والقاهرة وحتي بجاوا للدفاع عن مسلمي المغرب الاقصى • واما المقاطعة فان قررت الهند العمل بها فان تجار مصر ، الذين دعوا اليها ، اظهروا حذرا في التطبيق •

وفي المغرب الاقصى لازمت الصحافة صمتا يكاد يكون مطلقا عن الاضطرابات التي أثارها الظهير وعن الانعكاسات الخارجية ما عدا جريدتي « لوبو بيلار ماروكان » (الجريدة الشعبية المغربية) و « لوكري ماروكان » (الصرخة المغربية) اللتين احتجتا على سياسة الظهير البربري والدعاية الكاثوليكية • وفي فرنسا شهر لسان المجموعات الاقتصادية الكبرى والمعمرين ، وهو جريدة « لافريك فرانساز » (افريقيا الفرنسية) ، بشرذمة من الزقاقيين الحاملين لشهادات دراسية لا قيمة لها ، والذين يريدون ان يتشبهوا في المغرب الاقصى بامثال غاندي وزغلول ، ولا تحدثهم نفوسهم ان هؤلاء يمثلون خطرا على انكلترا لان لهم ضميرا ، بينما الفارون من المدرسة الابتدائية ليسوا سوى قنوات هضمية الا انه كان من بين المجلوديين متخرجون من دار نهج سان ـ قيوم Rue saint-guillaume (8) الموقرة التي لم تشتهر بتكوين « زقاقيين » • وراجعت اغلبية تلميحات الصحف الاخبارية القضية الى تظاهرات لا اهمية لها لشبيبة مشاغبة (9) • وبلغ الامر بالفرانسيسكان انهم ابتهجوا لفكرة احتمال استهلاك المغاربة للخمر عوضا عن الشاي الاخضر • ولم يحتج على موقف الادارة المغربية سوى الصحافة اليسارية •

وطفح الغليان الذي كانت فيه البرجوازية المثقفة اثناء زيارة السلطان الى فاس يوم 8 ماي 1934 • وقد اقتبل الملك بهتافات هائلة تنادي : « يحيا الملك ، يحيا المغرب » (10) • وتفاقمت المظاهرات بعد يومين • وسمع السلطان الناس عند زيارته لمقام مولاي ادريس بالمدينة القديمة يذكرونه ، بدون اظهار فراغ صبر ، بانه صاحب النفوذ الحقيقي • ودحر باشا المدينة الذي لم يغفر له الفاسيون جلد نوابهم • وهتف الجمهور هتافات معادية تحت نوافذ الجنرال

8) ـ يعني مدرسة العلوم السياسية بباريس (ملحوظة للمترجم) •

9) ـ انظر خاصة مقال مدير التعليم بالمغرب سابقا ، وكان اذ ذاك مدير المدرسة الاستعمارية (l'Ecole Coloniale) « ج • هاردي » ، في « اوروب نوفال » (اوروبا الجديدة) • 27 سبتمبر 1930 •

10) ـ جريدة « لاكسيون دي بوبل » (العمل الشعبي) 11 ماي 1934 •

قائد الناحية ومكاتب الشؤون الاهلية ، وداس شاب وطني من اقارب موظف سام بالمخزن علما فرنسيا اقتلع من نافذة يهودي • ومن الغد شهر بلاغ رسمي اعده المعتمد بالاقامة العامة والوزير الاكبر « بمثيري الاضطرابات » الذين اجبروا السلطان ، بما اظهروه من « مشاعر ضد الحكومة الفرنسية » ، على الرحيل في اليوم نفسه من فاس الى الرباط « حتى يظهر استنكاره التام لاعمال مؤسفة لهذا الحد ويعبر عن غضبه » • ولشل الدعاية الوطنية منعت الاقامة العامة نشر جريدة « لاكسيون دوبويل » (العمل الشعبي) ودخول المجلة الباريسية « المغرب » الفرنسية اللسان والدوريتين العربيتين الصادرتين بتطوان «الحياة» و « السلام » الى المغرب الاقصى •

لقد قام الكتاب الشبان المشاركون في جريدة « لاكسيون دو بوبل » وفي مجلة « المغرب » بنقد صارم لنظام الحماية ، ولكن بدون ان يكون لهم برنامج انشائي وكان عليهم آن يقرأوا حسابا للتقاليد الاسلامية القوية التي يحافظ عليها آباؤهم، وللمبادىء الاصلاحية التي يتحمس لها طلبة جامعة القرويين والمدارس الحرة ، وللتوجيهات التوحيدية العربية التي يعطيها شكيب ارسلان ، ولنظريات مناصريهم الباريسيين الديموقراطية والثورية • وكان عليهم ان يراعوا جانب حكم محلي ذي شكل ديني واستبدادي مع المناداة باصلاحات تتطلب ضمانات دستورية • ولا شك ان هذه المتناقضات لم تلح لهم بالقوة التي لاحت بها لقرائهم من الفرنسيين • وظل كل قسم من الرغائب يخضع الى نظام داخلي خاص به • وطاب للشبان المغاربة وهم يضعون الاقسام الواحدة حذو الاخرى ان يشعروا بانهم يشيدون بناء منسجما •

ولم يبرز تصورهم للامة العربية الا ببطء ، لكن تاثرهم العدواني اشعرهم من البداية بخطر الادماج ، فاحتجوا على تعديات الدولة الحامية ودافعوا عن اختصاصات الدولة المحمية مع المطالبة بالاصلاحات • وحملهم وعيهم بقيمتهم الذاتية على مقاومة الاحتقار الذي كان يظهره سائر الفرنسيين ازاءهم والمطالبة « بسياسة تقدير » تتحقق خاصة باستعمال كلمة « المغربي » عوضا عن لفظ التحقير « الاهلي » • واخيرا كان هدفهم الاسمي يتمثل في استرجاع استقلال المغرب الاقصى عندما يتم الحامي رسالته التمدينية •

العمل المغربي وبرنامج الاصلاحات

صار في مقدور الشبان المغاربة ان يعدوا برنامجا شاملا في العام الذي اتمت فرنسا احتلال المغرب بالذات بعد سنتين من الانتقادات والمطالبات والتاملات •

فغداة مظاهرات فاس التأم عدد من المغاربة في جمعية اطلقوا عليها اسم « العمل المغربي » • وكان قادتها من المثقفين الشبان وهم : محمد حسن الوزاني الحامل لشهادة مديرية العلوم السياسية ، والحاج احمد بلافريج المجاز في الآداب والحامل لشهادة مدرسة الدراسات العليا ، وعلال الفاسي المقصى عن الاطارات الادارية لانه رفض انكار مشاركته في الحملة على الظهير البربري وكان مدير مدرسة حرة • وحررت لجنة من عشرة اعضاء (I1) برنامج اصلاحات مغربية Plan de réformes marocaines وطبع بالعربية في القاهرة ، ثم نشر بالفرنسية في نوفمبر 1934 في شكل مجلد صغير في 134 صفحة •

وتذكر مقدمة هذا المجلد « تاييد » شخصيات من العالم السياسي والصحفيين والجامعة والمحامين : ثمانية نواب تمتد نزعاتهم من الراديكالية الى الاشتراكية ، وهم : « جان لونقي » و « بيار رونو دال » و « جان بيو » و « فرانسوا دوتستان » و « هانري كلار » و « شيزار كامبيتشي » و « جورج كودني » (I2) و « جورج موني » ، وعضوان سابقان وهما الراديكالي « قاسطون برجوري » عضو اللجنة المركزية لرابطة حقوق الرجل والمحامي الشيوعي « اندري بارطون » والصحفيون « ر ــ ج • لونقي » و « لوي روبو » و « مقدلان باز » و « اندرية فيولليس » والاستاذ « فيليسيان شالاي » •

وسلم البرنامج يوم غرة ديسمبر 1934 الى رئيس مجلس الوزراء « بيار لافال » كل من « جان لونقي » و « فرانسوا دوتسان » ، وكلاهما نائبا رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب ، و « جان بيو » عضو هذه اللجنة ورئيس تحرير جريدة « لوفر » (العمل) و « بيار رونودال » رئيس الحزب الاشتراكي بفرنسا • كما سلمه الى السلطان سيدي محمد كل من عبد العزيز بن ادريس واحمد الشرقاوي ومحمد غازي وابو بكر القادري ، وسلمه الى المقيم العام « هانري بونصو » كل من محمد ديوري ومحمد علال الفاسي ومحمد اليزيدي • وكان المكي الناصري الوحيد من بين اعضاء « لجنة العمل المغربي » العشرة الذي لم يشارك في اي وفد •

ومهد لنص البرنامج بتشهير بسياسة الحماية المقامة على المنصرية والجور الجبائي والتجهيل ، والمناهضة للحرية والاستعمارية والادماجية • وتتعرض

(I1) ــ عمر عبد الجليل وعبد العزيز بن ادريس واحمد الشرقاوي ومحمد ديوري ومحمد علال الفاسي ومحمد غازي وابو بكر القادري ومحمد اليزيدي ومحمد المكي الناصري ومحمد حسن الوزاني •

(I2) ــ في الحقيقة لم يكن « كودني » منفيا (مذكرة لسنة I97I) •

الرغائب الاساسية الى تطبيق نظام الحماية تطبيقا لا تجاوز فيه ، وذلك بالغاء الحكم المباشر ، وتنظيم ادارة المغرب الاقصى « في اتجاه الوحدة المغربية » ، وادخال « عدد كبير من العنصر المغربي في جميع المجالس الادارية » ، وممارسة الحكم بواسطة تسعة وزراء يكونون على اتصال بالاقامة العامة عن طريق مدير عام للشؤون الاهلية يكون مستشارا للحكومة الشريفية ، والمساواة بين الموظفين الفرنسيين والمغاربة ، والتفريق بين السلط المتجمعة بايدي الباشاوات والعمال والمراقبين ، وانشاء بلديات ومجالس للدوائر وحجر اقتصادية و « مجلس وطني يتركب من المغاربة المسلمين واليهود » • وينبغي للبلاد الحامية ان تقتصر على دور المستشار الفني الى ان تقدر البلاد المحمية على حكم نفسها بنفسها •

الرغائب المستعجلة

وبقطع النظر عن هذه الرغبات ذات الصبغة العامة التي تعبر عن مشاعره الاصلاحية والوطنية فقد صاغ « العمل المغربي » مطالب مستعجلة صادق عليها مؤتمره الاول المنعقد في 25 أكتوبر 1936 • وقدمت الى السلطان والى الجنرال « نوقساس » المقيم العام • وهي تطالب بادىء ذي بدء بالحريات الديمقراطية « في ميادين الصحافة والطباعة وعقد الاجتماعات وتاسيس الجمعيات والتعليم والتمثيل المسرحي والجولان في الداخل والسفر الى الخارج » ، وباقرار الحق النقابي وحق تحرير العرائض ، وبالعفو العام « على جميع المنفيين والمبعدين والمعتقلين السياسيين منذ انتصاب الحماية » ، وهو ما يتضمن اطلاق سراح عبد الكريم المبعد الى جزيرة « لارينيون » (La Réunion) .

وينبغي لاصلاح التعليم ان يرمي الى « توحيد البرامج في كامل تراب المغرب » ، وفي هذا كانت المدارس الفرنسية البربرية هي المقصودة ، والى الاكثار من المدارس الابتدائية ، وتنمية التعليم الثانوي ، وتنظيم « بعثات مدرسية الى فرنسا والشرق » مع اسناد منح وقروض شرفية للتعليم العالي وانشاء مدارس وفروع لترشيح المعلمين والمعلمات وكذلك مدارس فلاحية ، واخيرا الى التطبيق المدقق لبرنامج اعادة تنظيم جامعة القرويين •

وفيما يتعلق بالعدالة « يتحتم في انتظار اعادة تنظيم العدالة المغربية باحداث مجلة قانونية وتكوين اطارات ، ان يتم انتداب القضاة ومساعديهم عن طريق المناظرة ، وضمان مرتب لائق لجميعهم يؤخذ من ميزانية الدولة لا من المتقاضين

والرعية » ، وتحقيق التفريق بين السلط الادارية والتنفيذية والعدلية وكذلك استقلال القضاة إزاء السلط العمومية • وكانت اقامة « نظام عدلي موحد يشمل المدن والارياف المغربية » تفترض الغاء المحاكم العرفية في البلاد البربرية •

اما التخلي عن « سياسة الوجهاء الكبار » فيرمي الى القضاء على اهم عقبة لانتشار الحركة القومية في الاطلس ، وفي نفس الوقت الى تخليص ما يقرب من ثلث السكان المغاربة من نظام طغيان ورشوة بدون حد يضمن نظام الحماية له الدوام •

وللتدابير الفلاحية المطلوبة صيغتان : فمن جهة الغاء « الاستعمار الرسمي » والغاء النصوص والمناشير التي تعتبر انتزاع الاراضي لتهيئة مساحات للاستعمار انتزاعا لاسباب تهم المصلحة العامة ، وزجر المرابين « وحماية الفلاحين من ابتزاز المعمرين واعوان السلطة او الضرائب » ، ومن جهة اخرى استعمال الاراضي الاشتراكية واملاك الدولة لاحداث ملك عائلي غير قابل للبيع والرهن، وتوسيع القرض الفلاحي لفائدة الفلاح والمساواة المطلقة بين حقوق والتزامات المعمرين والفلاحين •

ويطالب البرنامج في الميدان الاجتماعي والاقتصادي بتطبيق القوانين الاجتماعية الفرنسية لفائدة الشغالين المغاربة ، وهو اجراء ادماجي ، وباحياء الصناعة التقليدية التي ينبغي حماية انتاجها من المزاحمة الاجنبية ، وبمساعفة العاطلين والمساواة الجبائية والغاء « ضريبة الباب » و « ضريبة السوق » و « حقوق المرعى في الغابات » ، وبالاكثار من المعاهد الصحية مع الزيادة في التوزيع المجاني للادوية لفائدة المعوزين ، وبمقاومة دائمة وحثيثة للاكواخ والبغاء العلني او السري وشرب الكحول والمخدرات ، وباعطاء المنح لمؤسسات الاسعاف المغربية •

وفي الجملة يكون هذا البرنامج قائمة رغائب اكثر منه برنامج اصلاحات مهيأ • ولا جدال في ان للناحية السياسية فيه الاولوية على الناحية الاجتماعية • وهو الى ذلك متأثر بصعوبة التوفيق بين حكم السلطان المطلق ونظام دستوري مقام على الانتخاب الحر على درجتين ، وبين غاية الحرية الديموقراطية وتزمت له صيغة وهابية متجددة • والقسم الاقتصادي ضعيف، ما عدا فيما يتعلق بالفلاحة حيث يذكر البرنامج عددا من التدابير العملية للدفاع عن الفلاح • وتعتمد

التعديلات المقترحة لبلوغ سير احسن للعدالة والجباية ونمو التعليم والصحة العمومية على معرفة حقيقية غالبا لمواطن الضعف في النظام الاداري ٠

واخيرا كانت احدى مزايا هذا البرنامج الاساسية انه بين الاهمية التي يعلقها قسم متزايد من السكان على انجاز اصلاحات ٠

عمل علال الفاسي واتباعه

كلما نمت دعاية « العمل المغربي » الا وتقدمت شخصية علال الفاسي خطوة الى المرتبة الاولى ٠ واصبح بالنسبة للمغاربة بالقبائل « الشيخ علال الفاسي او الحاج علال » ٠ وظل بالنسبة لسكان المدن الاستاذ بالقرويين سابقا وبطل الاسلام المثالي الذي يطالبون له بحق الرجوع الى الجلوس تحت سارية واستئناف دروسه ٠ ولم تكن لعلال الفاسي ثقافة غربية ٠ وعلى العكس كانت غاياته تتفق مع غايات العلماء الجزائريين ، ويرمي عمله الى اقحام الحركة الوطنية المغربية في مجموع حركة الوحدة العربية ٠ وبهذه الروح نظم المقاومة ضد الطرق التي بقي تاثيرها على الفلاحين اهم عقبة لانتشار الوطنية وتوغل الشرع في بلاد البربر وتكوين الشباب في المدارس القرآنية ٠

لقد انشا الحزب شبكة من الفروع المحلية عبر البلاد مثل الحزب الدستوري الجديد وعلى منوال الحزب الشيوعي والاحزاب الجماعية ، وفي سنة 1937 ربما انتهى حتى الى الزام منخرطيه بيمين وفاء ٠ ووجدت دعايته ارضا خصبة في بلاد لم يحرز فيها الاجنبي على تاثير ابدا ٠ ومن الاوساط البرجوازية بالمدن انتشرت في الجماهير الكادحة المتركبة من اصحاب الصناعات المعوزين بالمدن ومن العملة القادمين من الارياف والذين حكمت عليهم الازمة بالبطالة ، وقد اكد الحزب الصبغة الاجتماعية في رغباته وتوغل نوابه في الارياف النائية حيث برز تاثيرهم بسرعة ٠ وقد احسنوا استعمال جو المساجد حيث طغى تاثيرهم في ساعات الاضطرابات على مقاومة اعوان الشمائر ٠

وبالنسبة للفلاحين فقد عوض الحزب الوطني الطريقة مع الاحتفاظ بروحها ٠ وذهب الامر بالقبائل ان اسموا اعضاء الحزب « العلاليين » بمعنى اتباع علال ، على غرار «الاخوان» المنتمين الى القادرية والتيجانية ، وانشا «العمل المغربي» في اغلبية المدن مدارس حرة ومدارس قرآنية مجددة ٠ وسعى في فاس ان يتمكن من جامعة القرويين القديمة التي طالب باعادة تنظيمها على اساس محكم وعصري مستثيرا التلامذة ضد اساتذتهم وقد مجوا دروسهم ٠

واخيرا ربط الصلة على عين المكان لا مع الحزب الاشتراكي فقط بل ومع الحزب الشيوعي الذي شرع في تنظيم صفوفه •

الجبهة الشعبية ـ الآمال وخيباتهـــا

لقد بعثت انتخابات ماي 1936 بفرنسا حماسا كان كبيرا في نفوس المناضلين بقدر ما كانوا يعدون اصدقاء كثيرين ضمن الاحـزاب المنتصرة • فقـد سعى الوزاني بدون نتيجة في معابر مؤتمر هويجانس (Huyghens) يوم 31 ماي ان يقحم رغبات لجنة « العمل المغربي » في لائحة الحزب الاشتراكي S.F.I.O. الخاصة بالاستعمار في حين ان الخلصي شارك في اجتماعات عامة حيث طرقت مسائل افريقية واستعمارية • وبمجرد مـا تشكلت الحكومـة وجهت اللجنـة نـداء (13) لتنبهها الى ان خيبة آمال الشعب المغربي قد تنجر عنها « خيبة ظن تحمل في ثناياها عواقب وخيمة » • وفي البرنامج الملخص الذي تم تقديمـه كانت بعض المقترحات التي ترمي الى سياسة ادماجيـة في المجال الاجتمـاعي تشتمل على تفاصيل جديدة • وهكذا وقعت المطالبة بتطبيق قوانين سنة 1881 عن الصحافة وسنة 1901 عن الجمعيات وسنوات 1884 ، 1920 و 1924 عـن النقـابـات •

وكانت للنواب المغاربة ، وخاصة الوزاني وعبد الجليل ، اتصالات مع كاتب الدولة المساعد للشؤون الخارجية واللجنـة العليا للبحـر الابيض المتـوسط ولافريقيا الشمالية برئاسة الحكومة الفرنسية ، وسلموا الى هذه الدوائر ملفات ضخمة • واستقبل «بيار فيينو» الوزاني يوم 7 جويلية ، وكان لاستقباله اياه تاثيرا عليه • وقد وعد الوزير بان يهتم بالمغرب الاقصى بصورة خاصة بمجردما يسوى المشكل السوري ، وهو يشعر نحو هذا البلد بعطف خاص • وتلقى الوطنيون بسرور انهاء مهمة المقيم « مارسال بيروطون » ، وقد كون المعمرون حوله جو تمرد لم يلبث « ليون بلـوم » وبيار فيينـو ان راياه غير مقبـول ، وقد كان لهما شعور سام بنفوذ الدولة • بيد ان تعيين الجنرال «شارل نوقاس» يوم 16 سبتمبر اثار احتجاجاتهم وسخطهم ضد « عدو العرب •• صاحب عمليات القمع لسنتي 1930 ـ 1931 » •

(13) ـ نداء الشعب المغربي الى حكومة الواجهة الشعبية ، جوان 1936 •

وبدت لهم المماطلات التى كانوا يشكونها لا تحتمل لما تقدمت ثورة الجنرال « فرانسيسكو فرانكو باهاموندى » فى جويلية 1936 الى المنطقة الاسبانية من المغرب الاقصى بوعود لادخال اصلاحـات استدلوا بهـا استدلالا صاخبـا • وكانت مجلة مدريد « نسترا رازا » Nuestra Raza عبرت عن الراى بانه يجب السير بالمغرب الاقصى نحو الاستقلال ، وهو الذى ينتمى اهلـه الى نفس العائلة التى تنتمى اليها اسبانيا ، وانه يجب لبلوغ هذا الهدف ان يعهـد الى المغاربة دون ما تاخر بالمناصب الادارية ما عدا بعض وظائف النفوذ • وبينما رفضت حكومة الجمهوريـيـن الالتزام بالنسبـة للمستقبل اذا بالجنرال فرانكو وكان اكثر جراة يعد وفدا مغربيا والممثلين للخليفة القادمين الى اشبيلية بان المغرب سينال استقلالا داخليا كاملا بعد انتصاره • وفى انتظار ذلك رخص للوطنيين فى تاسيس مدارس حـرة ، واحل لفائدتهـم المدرسة الثانوية الحرة فى عمارة رائعة ، وترك لهم حرية التعبير والكتابة • وقد كتب صحفى اشتراكـى يقول : ان هذه الانجـازات الفجائية اثرت تاثيرا عميقـا لا فى المغرب الاقصـى فحسب بل وفى العالم الاسلامـى باسـره » (14) وهكذا تمكن الرباطى المكى الناصـرى من ان يوجه نـداءات فى جريدة « الوحـدة المغربية » لفائدة « وحـدة المغرب الاقصى الحـر » • وظهر عبـد الخالق الطريس أصيل المنطقة الخليفية الـد خصم للحماية الفرنسيـة ، وكـانت جريدة « الريف » واسعة الانتشار فى المنطقة الفرنسية • وكان تعيينه فـى منصب وزير الاوقاف الهام بينما ابقى اعضـاء « لجنة العمل المغربى » بمعزل عن الوظـائف العموميـة مثـارا للمقـارنات المرة • واضـاف الاسبان عمل الاذاعة الى الدعاية الصحفيـة • فدعت محطتـا اشبيلية وتطوان المغاربـة بالمنطقة الفرنسية الى المطالبة بالحريات التى يتمتع بها اخوانهم بالمنطقـة الاسبانية •

وتوطد العمل فى المنطمة الفرنسية ايضا بصـلات مباشرة بيـن اعضـاء « العمـل المغربـى والوطنيين بتطوان • وقـام اهال مـوالون « لفرانكـــو » بعمليات تجنيد فى صفوف القبائل بالمنطقة الفرنسية الغربية من الحـدود ، وشرعوا فى دعاية نشيطة خاصة فى بنى سناسن • وبعد القاء القبض علـى

(14) — « ر — ج • لونقى » ، فى جريدة « لالفور ماتور ماروكان » (المخبر المغربى) 5 نوفمبر 1936

علال الفاسي في اكتوبر 1937 خرجت مظاهرات كبرى بتطوان قوبلت اثناءها الصلابة الفرنسية بسياسة « فرانكو » و « موسيليني » التحررية ازاء الاسلام • وارسلت برقيتان من برقيات الاحتجاج الى الجنرال « فرانكو » والى « موسوليني » ، واقتبل الجنرال « بقبايدر » المندوب السامي بتطوان وفدا • ودعي المقيم العام بالمغرب بواسطة برقية ايضا الى التخلي عن سياسة التصلب والانفعال التي توحي بها الاوساط الاستعمارية ، والى اطلاق سراح جميع المعتقلين ، والى تنفيذ « برنامج الاصلاحات المغربية » ، وقد « طالب » اصحاب الامضاءات بذلك • وتنتهي برقية الوطنيين بتاكيد « تضامنهم الكامل مع مواطنيهم بالمحمية الفرنسية » • وكان نشاط « السلطان الازرق » « مربيه ربه » بمنطقتي افني والساقية الحمراء يبعث على القلق ، وقد دعاه الجنرال « فرانكو » الى اسبانيا •

الهتلرية والفاشية

وتطم العمل الموالي « لفرانكو » بعمل موال « لهتلر » والفاشية • فقد اقرت المانيا بمدينة سبتة فنيين ذوى النشاطات المتعددة ، ووضعت يدها على الموارد المنجمية وتجارة المنطقة • وفي عهد النظام الجمهوري الاسباني اضطرت مؤسسات الدعاية للعمل انطلاقا من طنجة • وجلب المشاغب المستعرب « ادولف لانقهايم » المستقر بالمدينة الدولية منذ سنة 1905 منظما مناهضا للسامية « كارل شنليشتينق » من المانيا منذ سنة 1932 ، وقد تخرج هذا الاخير عن الجمعية «التوحيدية الالمانية» «فيشت باند» (Fichte Bund) وقامت هذه المنظمة بعمل حثيث بعد انتصار النازية سنة 1934 وبالخصوص بعد انفصال « فرانكو » • وصبت السفن الالمانية على ارصفة « لاس بلماس » (Las Palmas) وسبتة طرودا من المناشير بالعربية تدعو قبائل المغرب الاقصى والجزائر الى ابادة اليهود • ويقول احد المناشير لسنة 1937 : « ان اليهودي ينخركم مثل ما تنخر الدودة النعجة • ان فرنسا تحميه • انه عون فرنسا وعماد فرنسا • ان المانيا تسجن وتطارد اليهود وتحجز املاكهم • وان لم تكونوا عبيد فرنسا ، لاستطعتم ان تقوموا بمثل هذا العمل » •

وسمح نظام « فرانكو » للدعاة الالمان بان يتخذوا من مدن المنطقة الخليفية قاعدة لعملهم • وجاء « لانقهايم » الى سبتة ليشن معركة ضد مدرسة فرنسية لفائدة مدرسة المانية • ووعد بعض الدعاة المغاربة بمساندتهم ضد السيطرة

الفرنسية، وذكروهم بتدخلات المانيا لفائدة السلطانين « مولاى الحسن » و « مولاى عبد العزيز » وبخطاب « غليوم الثانـي » (Guillaume II) بطنجة والقى احدهم خطابا شديد التهجم امام اعيان القصر الكبير بصحبة شخصية اسبانية سامية ، وقد بلغت اصداؤه سوق الاربعاء « بسيدى عيسى » في قلب « الغرب » • وجاب مستعربون المانيون المنطقة الفرنسية لربط الاتصال مع المغاربة ، امثال الدكتور « فريتز كارن » من جامعة مدينة بون (Bonn) بالمانيا حيث كان زميله الجزائرى « تقى الهلالى » تلميذ شكيب ارسلان ، وقد صار مساعد استاذ بشعبة اللغات الشرقية •

وساند الايطاليون نشاط الوطنيين بنشرات اذاعة « روما » منادين « بتحرير بلادهم من نير الاجنبي » • وتسربت جرائد طرابلس العربية عن طرق مجهولة يفترض اناس عليمون انها قنصلية • واذاعت نشريات مدائح للعمل الايطالي بليبيا « الواحة الوحيدة التى يرفرف فيها علم السلم الحقيقية ويحيا المسلمون فى ظلها حياة وديعة ويتمتعون فى حرية تامة بمعتقداتهم وتقاليدهم » • وذكر منشور حديثا للنبىء وتصريحا « لموسولينى » الواحد تلو الآخر • ولم يخف بعض الوطنيين مشاعر العطف على الفاشية خاصة فى عائلة « ديورى » التى يملك قسم منها الجنسية الايطالية • وكانت جريدة « لاكسيون ماروكان (العمل المغربي) التى كانت تديرها خديجة ديورى وهى فرنسية من مدينة « داكار » ، وكان محمد ديورى احد اعضاء اللجنة العشر من ابرز اسرتها ، تصدر عن مطبعة « فوش » (Foch) بالرباط التى يديرها ايطالى وهو عضو بارز بالحزب الفاشى •

التأثيرات الاجنبية

ان الاعتقاد بان للتاثيرات الاجنبية مفعول حاسم فى سلوك الحركة الوطنية المغربية يكون غير صحيح • غير انها ساهمت بمقدار يصعب تحديده فى اشتداد الغيظ الكامن ، من جهة بايهامها ان الرغبات المغربية تنال موافقة الدول العظمى ، ومن جهة اخرى بابراز تباين وضع المسلمين بالمنطقة الفرنسية والمنطقة الاسبانية وليبيا • وازدادت نجاعتها بفضل حملات الصحافة الكبرى بالمغرب • وانه من اليسير ان نقتطف منها منتخبات فى الفاشية قد ينافس ما فيها من حماس جرائد اسبانيا وايطاليا • ولم تذهب لا روما ولا مدريد فى تصوير انحطاط فرنسا فى عهد حكومة « الواجهة الشعبية » الى ابعد ماذهبت اليه جرائد « لابراس ماروكان » (الصحافة المغربية) و « لوسوار ماروكان »

(المساء المغربي) و « لافوا فرانساز » (صوت فرنسا) وقد مدحت يوميا النظام الفاشي وقدمت حتى نظام هتلر بتسامح تام • وذهبت « لابريس ماروكان » في سلسلة المقالات المفرطة في المدح التي خصصتها للمنطقة الخليفية حتى الى الاشادة بالعمل الاسلامي الذي يقوم به الجنرال « فرانكو » وهو يصنع سعادة الاهالي ، ولم تعد تبالي بان الاجراءات التي اتخذها « الكوديلو » هي بالذات التي قاومها المعمرون بشدة في المنطقة الفرنسية • واما الحملات المناهضة للسامية فانه تم القيام بها بنفس عدم الادراك للاضطرابات التي قد تنجر عنها • وقد اخذ السلط الفرنسية بالرباط القلق من « هذا المشهد الغريب في ظاهره لصحافة توصينا عامة بسياسة عنف ازاء الاهالي ، وهي تمكن هؤلاء من حجج جديدة ليحكموا على فرنسا بالضعف او ليكرهوها » ، وشهرت بمساويه بقوة •

عمل الجماهير

وفي خريف سنة 1936 ازدادت مطالبات « العمل المغربي » الحاحا • ففي 19 اكتوبر التمس وفد يتركب من عبد الجليل والوزاني موعدا من «بيار فيينو» ليقدم اليه « الرغائب المستعجلة » للجنة : وهي تعيين لجنة متركبة من ممثلين عن الادارة وعن لجنة « العمل المغربي » لدرس كيفية تطبيق « برنامج الاصلاحات » والمقترحات المعاكسة التي ربما تقدمها الحكومة الفرنسية ومنح « جميع الحريات الديموقراطية (بما فيها حرية التعليم) بدون اي تحديد وفي اقرب الاجال الممكنة ، وذلك بتعويض الاوامر المحددة التي تنظم هذه المواد بنصوص تتضمن جميع الضمانات اللازمة » • ويشير طلب الموعد بالحاح الى الفوائد التي احرز عليها المغاربة بالمنطقة الخليفية الذين يحملون المغاربة بالمنطقة الفرنسية على التطلع الى حظ « اخوانهم بالريف وهم تحت نظام دكتاتورية عسكرية وفي حالة حرب » • فرفض « بيار فيينو » اقتبال الوفد نظرا لما في الرسالة من لهجة تكاد تكون تهديدية • فعاد الوزاني الى المغرب يوم 29 اكتوبر « فارغ اليدين » بدون ان يخطر بباله الى اي حد احدثت انذارات رسالة 19 اكتوبر خصوم الرغائب المغربية •

لقد اوهنت خيبة المساعي الديبلوماسية عزائم الوطنيين ، فالتجأوا الى العمل الجماهيري • وقد ضبط مؤتمر الرباط في 25 اكتوبر مشروع حملة لفائدة الرغبات المستعجلة : الصحافة والجمعيات والاجتماعات والنقابات وابتدأت الحملة بمظاهرة عمومية كبرى ترأسها علال الفاسي (غرة نوفمبر) • واعاد

« العمل المغربي » التجربة بمدينة سلا بعد خمسة ايام (6 نوفمبر) • واخيرا نظم اجتماعا شعبيا كبيرا متبوعا بمظاهرات كادت ان تؤول الى ثورة يوم 14 نوفمبر ليلة عيد العرش • وقد اكدت الاقامة العامة ان « العمل المغربي » وضع الاجتماع تحت اشراف السلطان بدون موافقته ، لكن العمل كذب ذلك بقوة • واضطر سيدي محمد لاعتقال علال الفاسي والوزاني ومحمد اليزيدي • وعندئذ انتظمت حركات واسعة النطاق من اجل تحرير المعتقلين في المدن الكبرى الرباط وسلا والدار البيضاء وتازا ووجدة ، وخاصة بفاس حيث انضم اصحاب الصناعات باحذيتهم التقليدية الى شباب المدارس • وانتهت الى اعتقالات كثيرة والى احكام قاسية اصدرتها محاكم الباشوات التي كانت توفر للادارة مزية اجراءاتها السريعة والثابتة •

وكان الجنرال « نوقاس » متغيبا عن المغرب • فقرر بمجرد رجوعه من باريس باتفاق مع السلطان اتخاذ اجراء عفو عام بمناسبة عيد الفطر (17 ديسمبر) • فتلقت الجالية الفرنسية بغضب هذا التسامح الذي « لم يكن مفعوله سوى تهييج اعصاب اعوان القمع واضعاف السلطة (15) • ثم قرر المقيم انجاز سلسلة من التدابير المتعلقة بالاقتصاد الاهلي وتعليم الاهالي • فرخص ظهير بتاريخ 24 ديسمبر 1936 في تكوين النقابات المهنية المفتوحة للاوروبيين دون سواهم • بيد انه استحال بالفعل منع الاهالي من الانخراط في الجامعة العامة للشغل (C.G.T.) ، وكان من الاحسن ان لا يسلط عليهم منع وهمي • ورخصت قرارات وزيرية يوم 19 جانفي 1937 في صدور ثلاث جرائد يومية (« الاطلس » و « المغرب » و « العمل ») وجريدة اسبوعية (« الوداد ») باللغة العربية ، « وفقا لالتزامات المدير في مطلب الترخيص » • ولم تكن هذه الصيغة موفقة كثيرا الا انها اخضعت حرية الصحافة لاحترام توجيهات الاقامة العامة • وبالفعل ظلت الجرائد تحت نظام الرخصة المسبقة خاضعة لسلطة الادارة المطلقة • وفي نفس العهد استطاعت جريدة « لاكسيون دو بوبل » (العمل الشعبي) الممنوعة منذ سنة 1934 ان تستانف البروز بفاس •

مناهضة العمل المغربي

لقد اثارت مواقف « العمل المغربي » ضدها جملة الراي العام تقريبا • فالجامعة الاشتراكية بالمغرب وجدت نفسها في وضع دقيق جدا • فمن جهة لم يكن اعضاؤها يشعرون باية ثقة في الوطنيين البرجوازيين ، ومن جهة اخرى

(15) — ن ••• زوبعة على افريقيا الشمالية ص 109 •

تزعم رسميا اثنان من ابرز قادتها ، وهما « لونقى » و « رونود » ، برنامج الاصلاحات . وقد ابرز مؤتمر ماى 1936 بوضوح فى التمهيد « لبرنامج للرغائب المستعجلة بالمغرب الاقصى » انه يمتنع عن كل التباس وصرح يقول: « لا يحتاج الحزب الاشتراكي حزب الكادحين من اجل الدفاع عن الشعب المغربى الى ان ينقاد لحزب وطنى برجوازى ، ولا فائدة له فى اقلية من المحظوظين تود تعويض الاستغلال الامبريالى بمحض استغلالها . ان الحزب الاشتراكي بعيد عن مناهضة الرغائب الوطنية ، على انها لا تلتبس عليه بالرغائب الرجعية التى تقارب التعصب الدينى والعنصرية . فالدفاع عن العملة والفلاحين ليس فيه ما يفرض علينا ان نؤيد الوحدة العربية والوحدة الاسلامية . وبالنسبة لنا لا تنفصل القضية الوطنية عن القضية العمالية . ونقول ان المسالة استقلال شعب لا ترتبط بمصير البرجوازية الاهلية » .

مجلس الحكومة

ولا شك ان هذه المناهضة للبرجوازية المغربية تفسر فى اى نطاق ترى الجامعة التغييرات فى مجلس الحكومة . وقد اعتبر « ليوتى » المغرب قطرا اجنبيا فلم يقبل مشاركة السكان الفرنسيين الا ضمن « نوع من المجلس الخاص الذى يعتمده المقيم العام ليستنير به ، وهو مقام على تمثيل مهنى صرف ومدعو الى اعطاء مجرد آراء فى الميدان الاقتصادى المحض » (16) . لذلك ادخل فى مجلس الحكومة الذى انشاه فى 18 مارس 1919 ونظمه فى 10 ماى 1923 رؤساء الحجر الفلاحية والتجارية والصناعية والحجر المختلطة ومساعدوهم ، وكان اعضاؤها منتخبين من قبل المعمرين والتجار ، وكذلك رؤساء الفروع المغربية للحجر الاستشارية ومساعدوهم وكان اعضاؤها معينين بقرارات وزيرية وبعد مغادرة « ليوتى » للمغرب ، وعلى عكس تفكيره ، انشا المقيم « تيودور ستيق » هيكلا ثالثا « ينتخبه مباشرة » جميع عناصر الجالية الفرنسية الذين لا يزالون غير ممثلين » « وقد ميز انتداب الهياكل الثلاثة للقسم الفرنسي المصالح الاقتصادية تمييزا ملحوظا » . وفيما كان نواب الحجر الفلاحية يمثلون 2606 ناخبا سنة 1935 ، ويمثل نواب الحجر التجارية 3050 ، فان ممثلى الهيكل الثالث « كان من ورائهم جمهرة تعد 17.885 » (16) . لذلك اقترحت الجامعة الاشتراكية « الغاء هذا التفاوت الفظيع الذى يضر بجمهرة المستهلكين الصغار » ، وذلك باحداث هيكل موحد ينتخب اعضاؤه انتخابا حرا مباشرا وله حق التصويت . ولم يكن الانتخاب الحر المباشر يهم

(26) ــ برنامج الرغبات ، ص 46 .

الا الفرنسيين ، فلم ينص البرنامج على تغييرات في تعيين القسم المغربي مثلا باقرار استقلال الغرف الاستشارية الاهليـة وانتخاب اعضائهـا مثـل ما تم تقريره سنة 1947 • ذلك ان الاشتراكيين راوا انه « قد يكون من الخطر ان يمنح الاهالي حالا امكانية انتخاب ممثلين لمجلس مركزي « بسبب » ما عليه المغاربة من تاخر من الوجهة الاجتماعية والسياسية ، لكن على العكس من ذلك يكون بلا شك « من المستحسن ان يمنحوا على سبيل التجربة والاجراء الموقت بطاقة انتخابية لانتخاب نواب لدى مجالس جهوية » طالب الحزب بانشائها ، وان يدعوا لانتخاب البلديات على غرار الاوروبيين •

المطالب الاشتراكيـة

كانت الصيغ المستعملة في « بيان الجامعة الاشتراكية بالمغرب الاقصى » بشان الانتخابات للهيكل الثالث لسنة 1936 « اكثر جراة بكثير • فقد اكدت الجامعة في 17 ماي ، يوم اختتام المؤتمر ، ما يلي « ان الحزب الاشتراكي الوفي لتفكير « ماركس » يعتقد ان شعبا يضطهد آخر لا سبيل الى ان يعتبر حرا • لقد استنكر « جان جوراس » الخالد الذكر حرب المغرب والاحتلال العسكري لهذا البلد ، وقد تم القيام به خلافا للمعاهدات • فالحزب الاشتراكي يؤيد اذن الحركة القومية التحريرية المغربية ، ومع ان لـه تحفظات اكيدة بشـان بعض مطالب البرجوازية العربية ، فانه ينادي عاليـا بحق جميع الامم في الاستقلال ، بحق الشعوب في تقرير مصيرها بحرية » •

ان مطالب الحزب، وهي غالبا اكثر سخاء بالنسبة للاهالي من مطالب الوطنيين، تتلاءم في كثير من النقط مع مطالب « برنامج الاصلاحات » ، لكنها ترمي الى الابقاء على نظام الحماية مع تحسينه والى وضع حد لتدخـل الدين في التعليـم والعدالة • فالتضارب بين التصور اللاديني للدولة والرضوخ التـام للشرع تجلى مرة اخرى كاملا ، لذا كان الحزب الاشتراكي لا يريد ان يذهب الى ابعـد من عمل مواز لعمل الحركة الوطنية بقدر ما يتوافق برنامجا المنظمتين (17) •

على ان الفروع لم تسلك سلوكا واحدا • فقد ربط فرع فاس الصلة مـع الوطنيين ، وفكر في طرائق عمل اقلقت فرع الرباط المتركب لجانب كبير من موظفين وهو اكثر حذرا • واقتبل فرع الدار البيضاء عبد الجليل واليزيدي • وفي مؤتمر الحـزب الاشتـراكي الفرنسي بمرسيليا (جويليـة 1937) قـدم

(17) — جريدة « ماروك سوسياليست » (المغرب الاقصى الاشتراكي) 5 ديسمبر 1936 •

« شانيو » من الـدار البيضاء ، وهو ينتمي الى نزعـة « بيفار » اليسارية ، تقريرا يردد المطالب الاساسية « للعمل المغربي » سابقا ويتوسع فيها احيانا بخلاف لاراء «جان ليوناتي » نائب الرباط • بيد انه في ديسمبر 1937 ، بعد مناقشة دامت اربع ساعات بشان قضية الاهالي ، لم يمتنع الحزب عن ان يرى في « العمل المغربي » « حزبا برجوازيا » و « عميلا لفرانكو » فحسب بـل قرر ان يتعاون مع لجنته للحصول على انجاز مطالبه « بمقـدار تطـور الشعب المغربي » (18) • وهكذا تجاذبت الجامعة نزعتان مختلفتان : نزعة فرع الدار البيضاء المؤيدة لاصلاحات هيكلية تسمح بالتحرر التدريجي للشعب المغربي ، ونزعة فرع الرباط التي هي اكثر تعلقا بالتدابير التي من شانها ان تضع حدا لتعديات الحماية •

العمـل الشيـوعي

كان الوطنيون متيقنين من مساعدة الشيوعيـين مثلما كانوا يعتقدون فـي التاييد الاشتراكي • وكان الحزب الشيوعي ممنوعا في المغـرب ، بيـد انـه كان يقوم بدعاية سرية تعتمد شبكة من الخلايا • وقد تجاوز المطالب الوطنية منذ عهد حرب الريف • فقد صرح « جاك دوريو » بقوله : « ان حزبي يؤيد الجلاء العسكري عن المغرب • ان حـزبي يؤيد هذه الصيغة : المغـرب الاقصى للمغاربة » لانه « للمغاربة من التبصر مـا يكفي ليهتدوا بانفسهم الى سبـل مصيرهم » • (19) وفي ماي 1936 طالب الحزب الاشتراكي « برفع التحجير عن الجمعيات الشيوعية » حتى لا يبقى احد العناصر المؤلفة للجبهة الشعبية مبعدا عن الشرعية • وعند ذاك تنظم الحزب الشيوعي ، الذي ظل سريـا الى ذلـك الحين في شكل حزب شيوعي مغربي ، واتخذ لسانا له من الجريدة الاسبوعية «ليسبوار » (الامل) التي عوضت « لو ماروك روج » (المغرب الاقصى الاحمر)، وقد عطلت هذه الاخيرة في فيفري 1935 •

ولا يبدو ان الدعاية جلبت للشيوعية منخرطين كثيرين بالرغم عن ان صحفيا باريسيا اكد انه تم اكتشاف 1·100 من البربر الرحل في اقليم واحد بالجنوب يحملون بطاقة حمراء بها اسم المشترك (20) • وكان الهدف الرئيسي للحزب

---

18) — « ماروك سوسياليست » ، 19 ديسمبر 1936 •
19) — مجلس النواب ، 27 ماي 1925 ، في كتاب « ضد الحرب في المغرب » ، ص 44 و 50 •
20) — « ادوارد هلساي » في جريدة « لوجورنال » (الجريدة) ، 20 سبتمبر 1936 •
« و ن » ••• الزوبعة ص 107 •

الشيوعي المغربي وحدة العمل ضد الامبريالية حول برنامج من وحي روح سمحية ومعتدل نسبيا • « يجب ان يطلب هذه الرغائب ثم يطالب بها القطر بتمامه وكماله ، القطر الذي يشالنم ولا اهمية لسنواه » • ولهذا الغرض اتضح انه لا بد من اتفاق بين الوطنيين والشيوعيين : « يجب ان نعمل اليد في اليد لانقاذ الشعب المغربي • فانتم تأتون بمعارفكم ، بكل ما لكم من علم بشان المغرب الاقصى والروح الاسلامية • وسناتي نحن بما تعودنا به على مقاومة الامبريالية ، وسناتي جميعا بغرامنا المشترك بالعدل والمساواة والاخوة ، وفي كلمة واحدة بالانسانية » •

انشقاق العمل المغربي

ان العلاقات التي كانت للحزب الوطني مع احزاب اقصى اليسار او في الاقل مع بعض ممثليهم سمحت له باعتبار انه يتمتع بتاييد التشكيلات السياسية الكبرى المشاركة في تسيير الشؤون العمومية بفرنسا • وكان يؤمل في مواصلة دعايته باكثر ما يمكن من حظوظ النجاح بالرغم عن خيبات ظنه بباريس فاذا بتنافس ذي صبغة مالية شخصية شجعته تاثيرات خارجية يتسبب في شهر فبراير 1937 في انشقاق العمل المغربي الى جماعتين : اصبحت احداهما « الحزب الوطني » برئاسة علال الفاسي ، والثانية « الحركة الشعبية » بقيادة الوزاني • ويترجم هذا الانشقاق ايضا عن فوارق في التفكير وفي الطباع عند الزعيمين • فعلال الفاسي يمثل رجل النهضة العربية الذي يغلب مصلحة الاسلام على كل اعتبار آخر • ويعتمد عناصر تقية وخاصة تلاميذ المدارس الحرة » • « وهو قصير القامة ذو بصر ازرق وجذاب ، يجمع بين رقة الجنس المتناهية وبلاغة حماسية تعرف التلطف ، وله بفاس شعبية كبيرة جدا تقارب العبادة » (21) • وقد برز نفوذ علال الفاسي بعد الانشقاق وقبل هذا الوصف بعشر سنوات ، وما فتيء يعظم •

وعلى العكس منه كان الوزاني يزخر ثقافة غربية ، ويشعر باقل ميل الى متطلبات الاسلام الكلية ، ويظهر نفسه على استعداد لبعض التنازلات • ويطالب الشقان باستقلال المغرب بنفس الثبات ، لكنهما يختلفان من حيث الخطة • وبمجرد ما حصلت استقالة الوزاني الداوية شرع علال الفاسي في تنظيم « الحزب الوطني » الذي احتفظ بالجانب الاوفر من منخرطيه ، بمساعدة احمد

---

(21) ـ « تريف » • آفاق مغربية في « لوموند » (العالم) ، 24 ماي 1947 •

بلافريج الناجمة ، وقد ابتعد الاخير منذ بضع سنوات عن النشاط السياسي ليسير جامعة قسوس بالرباط • وبدفع منهما تكونت فروع محلية بمكناس وسفرو ووزان وقصبة تدلا ، وتوغلت الدعاية يوما بعد يوم في القبائل •

واقلق توسع الحركة السريع الاقامة العامة ، فتحصلت من المجلس البلدي بفاس ومجلس العلماء بالقرويين على قرار بالاجماع يقضي بان اداء اليمين على المصحف المطلوب من المنخرطين الجدد ونظام لجنة « العمل المغربي » ينالان من سنن الاسلام التقليدية ومن نفوذ السلطان • وتم حل « العمل المغربي » بقرار وزيري نشره المقيم العام يوم 18 مارس 1937 بالرغم عن ان اللجنة اعلنت حذف القسم قبل ان يستقل الحزب بفاس بثلاثة ايام •

وتاثر زعماء الوحدة العربية الكبار للانشقاق الذي من شانه ان يسهل القمع وكتب شكيب ارسلان يقول : « ان انشقاق الوزاني مؤلم • واني كتبت اليه باني لن اغفر هذا الانشقاق ، واقترحت عليه جمع لجنة مؤقتة في انتظار مؤتمر عام يعين عن طريق الانتخاب الرئيس والكاتب العام وامين المال » • بيد انه ، مع لوم الكاتب العام السابق عن عمله العصياني ، اقر مزاياه وقال : « انه من المتحتم الا نخسر شخصا مثل الوزاني الذي هو اكثر أعضاء الحركة المغربية نشاطا » • ودعا ايضا خصومه المندفعين في الخط من سمعته في الراي العام الى اظهار مزيد من الاعتدال • وقال : « اياكم ان تتلفظوا بما قد ينال من مشاعره لانه لا مكان في مثل هذه الظروف الا للصيادين في الماء العكر ، وثمة اشخاص حتى من بين المغاربة يتمنون انقسامنا ويحاولون بكل الوسائل جعل اتفاقنا مستحيلا » • على انه لم تتوفق لا عروض شكيب ارسلان للوساطة ولا نصائح الشيخ الثعالبي الى اعادة وحدة الحزب • وبقيت المجموعتان متنافستين غالبا ، ولم تتقاربا الا في الظروف الخطيرة •

وقدمت جرائد الجماعتين الى حرفائها تقريبا نفس الغذاء من الانتقادات ضد الحماية وقد زادها حنقا ما كان من المزاحمة من جراء الازمة الاقتصادية • وفي مجال هذا التنافس ظهر علال الفاسي اقوى بكثير من منافسه • وفي 23 جويلية 1937 شعر في نفسه بما يكفي من الوثوق بالمستقبل ، فاعطى لحزبه اسم « الحزب الوطني لتحقيق المطالب » • وتمت اتصالات اوثق مع الوطنيين بالجزائر وبتونس • واصبح نادي النواريين بفاس مقر الحزب • ومنه انطلقت التعليمات الى الفروع المحلية التي كان نشاطها يظهر خاصة في ارسال برقيات الشكر الى السلطان والاحتجاجات الى السلط الفرنسية •

ولم يبرز التشويش الا عند عودة احمد بلافريج وعمر بن عبد الجليل الى المغرب ، وقد رجعا بدون الفوائد المأمولة رغم اتصالاتهما بالمناضلين الاشتراكيين بمؤتمر مرسيليا • وعددت جريدة « لاكسيون دو بوبل » العقوبات التى سلطتها « الواجهة الشعبية » على « العمل المغربى » وكانت الخاتمة : « ما هو المصير الذى ينتظرنا الآن تحت هذه الحكومة بقيادة راديكالية ؟ » واقتنع الوطنيون بان القوة وحدها تستطيع ان تبلغهم حقهم • فلعبوا الكل ليربحوا الكل • واكتست لهجة الصحافة الوطنية حدة غير معهودة تشهيرا بتعديات الادارة • وتحمس المناضلون وقد اخذتهم حقيقة موجة عارمة للاستشهاد ، وبثوا ايمانهم فى النجاة بالتضحية حتى فى الارياف • واعترى الجماهير تشويش واسع النطاق ، وهى على اهبة الانتفاض لاقل حادث •

ثورة مكناس

فى اواخر شهر اوت شاع ان هناك عزما على تحويل وادى بوفكران الذى يزود مكناس بالماء لفائدة اربعة معمرين فرنسيين • فتسبب الخبر فى مأساة بمدينة اشتهرت مع ذلك بهدوءها ، وقد بلغ الى علم راى عام هيجته الدعاية الوطنية • وبالاضافة الى ذلك لاحظت مجموعة اهالى الجبادرة ان كمية الماء بالساقية التى تزودها لم تعد تسمح بالرى ، وجدت بمكناس نفسها انقطاعات فى التوزيع بالمساجد • وراجت عرائض منذ شهر جوان • وتأخرت الادارة فى ادراك مسؤوليتها ، فوضعت تحت الدرس مشروعا يضمن للمستهلكين استهلاكا يفوق استهلاك السنوات السابقة • لكن الاجتماعات التى انعقدت بالمصالح البلدية بدت للسكان مشبوها فيها • فتظاهر 500 مغربى فى غرة سبتمبر تحت نوافذ العمارة الرسمية منادين : « الماء ! الماء ! » (22) وتضخمت المظاهرة ، فطغت على قوات الامن التى وجدت صعوبة فى تفريقها • وارتفعت درجة الحرارة بعد الظهر : فاوصدت الدكاكين ابوابها ، وتجمع المسلمون فى المساجد ، لكن بدون حادث جديد •

ومن الغد قررت الادارة ، لاسباب ترجع الى الهيبة ، القاء القبض على « المسيرين الرئيسيين الخمس » واحالتهم الى محكمة الباشا حيث حكم عليهم حالا بالسجن لمدة الثلاثة اشهر التقليدية • وبينما كان فى المستطاع تهدئة

---

22) ــ « ل • لوانو » وقائع مغربية فى مجلة « كاستيون الريكان » (مسائل افريقية) ، 15 جانفى 1938 • ص 59 • حسب «ن» ••• الزويعة ص 113 ، كان المتظاهرون يصرخون: «الماء او الموت» • وحسب التقارير الرسمية كانوا يقولون : «لاقطرة ماء للمعمرين !»

الخلاف بشان الماء اذا بالحمى العمومية تغذى من جديد • فاسرع الجمهور الى المحكمة ، ورجم قوات الامن • فاطلق الجيش النار • فقتل من المهاجمين 13 وجرح منهم اربعون ، وجرح من قوات الامن 52 منهم 46 في صفوف الجيش (23) فتمت اعتقالات كثيرة منها اعتقال فرنسي وهو « بلان » المناضل المطرود من الحزب الشيوعي والمعروف بتحمسه ، وقد تم ترحيله في بداية اكتوبر عملا بالامر الملكي لسنة 1778 • ولم يهدأ الهيجان ، وفي 4 ديسمبر طلبت جريدة « لاكسيون بوبولار » ان يبحث عن المسؤولين ، فكتبت في فاتح مقال تسبب لها في التوقيف عن البروز تقول : « مكناس ماوى الفاشية تنتقم من حلفاء « الواجهة الشعبية » • استعمار جشع يثير ماساة دامية » • وفي 8 تجدد هيجان الشعب الذى طالب بحل فورى لمشكلة الماء • ولزم ان ياتي الجنرال « نوقاس » بنفسه يوم 11 لينظم توزيع مياه وادي بوفكران بما ارضى سكان مكناس ، وكان مرة اخرى متغيبا لما اندلعت الثورة • ولم تسلط اى عقوبة على الموظفين المسؤولين بالرغم من ان الماساة كانت ناشئة عن غلطة بديهية من الادارة (24) •

الاشادة بالتضحية

وقد نظمت مظاهرات احتجاجية يوم 6 لا بمكناس فقط بل وبالدار البيضاء ووجدة ومراكش • وانجر عن تضاعف الحملة الصحفية حجز عدة اعداد من جرائد : « الاطلس » و « المغرب » و « الدفاع » و « لاكسيون دوبوبل » • وفي مثل هذا الجو المتوتر مانعت الحكومة في انعقاد مؤتمر الطلبة المسلمين الذى عين موعد افتتاحه ليوم 15 سبتمبر بالرباط • وانتهز الوطنيون فرصة مرور « بول راماديي » كاتب الدولة المساعد للاشغال العمومية يوم 24 بمراكش ، فعمدوا الى تجنيد جماهيري ضخم من شانه ان يؤثر على العقول •

واستعملت جمهرة من المعدمين والمتسولين والعجز اسلوبا ربما استمدته من عرض حديث لشريط « اوبرا دو كات سو » (l'Opéra de Quat sous) فتعرضت لمرور الركب الذى اجبر على تغيير طريقه • واجتاح متظاهرون قدر

(23) ـ تلك هي الارقام الرسمية • وكتب « ل • فوانو » ، في المجلة المذكورة ، ص 61 : « كان ثمن المشاجرة بالنسبة للمهاجمين عشرة موتى وتسعة عشر جريحا حملوا الى المستشفى وبدون اى شك آخرين كثيرين جروحهم اقل خطورة • ومن ناحية العسكريين تم تعداد خمسين جريحا منهم ستة عشر في حالة علاج بالمستشفى • وحصلت جروح لكثير من الاعوان ايضا • ويؤكد الوطنيون انه كان من بينهم « اكثر من خمسة عشر ميتا وما يقرب من مائة جريح » ، وذلك حسب حزب الاستقلال • المغرب الاقصى 1951 ص 117 •

(24) ـ « ل • فوانو » ، الكتاب المذكور ، ص 61 •

عددهم بثلاثة آلاف ساحة جامع الفناء ، ورجموا بنايات مختلفة منها مركز الشرطة • وتم اعتقال خمسين منهم واصدرت محكمة الباشا حالا احكاما بشانهم • وارسل « المسيرون » الاثنا عشر ، خمسة من المواطنين وسبعة من المتظاهرين ، الى السوس بتارودانت لقضاء مدة عقوبتهم •

واستمر التشويش في شكل مقالات صحفية وبرقيات احتجاجية وبالخصوص في شكل خطب الفيت اثناء اجتماعات خاصة • وشاع في الجماهير ان حكومة جديدة بصدد التكوين ، وهي ستذود عن حقوق المغاربة تجاه مخزن واهن وعاجز • واوقد حماس علال الفاسي الصوفي الدفاع المسلمين للتضحية من اجل القضية المقدسة و « فوز الدين الاسلامي » • وفي 4 اكتوبر ، نفس اليوم الذي افتتح فيه المؤتمر الاسلامي ببلودان في سوريا ، نظمت مظاهرات بجميع المدن لتاكيد تضامن المغاربة مع عرب فلسطين • واتحدت المشاعر في المؤتمر الاستثنائي المنعقد بفاس يوم 13 اكتوبر اثناء زيارة حرم مولاى ادريس حول تمجيد شهداء مكناس والاشادة بالاسلام المهان • وكان الامر يتعلق بالدفاع تجاه الحكومة لا عن « الحريات السياسية والاجتماعية » فحسب بل وعن « المؤسسات الدينية » المهددة • وافاد الحماس الوطني من جديد الحمية الدينية •

وفي مثل هذا الجو كان يخشى ما لايحمد عقباه • فقد انقطعت الصحافة العربية عن الصدور تضامنا مع « الاطلس » المعطل يوم 16 اكتوبر لانه نشر « نداء حقيقيا للثورة » • وفي 22 خطب اربعة طلبة شبان من القرويين اصيلو بني زهور المسلمين بمسجد قرية خميسات بحدود البلاد المغربة محرضين المسلمين على فرض التخلي عن العرف البربري والرجوع الى الشريعة مهما كانت التكاليف • وعند مبارحة المسجد انقض الجمهور على المراقبة المدنية • وكان احد الطلبة المسيرين للمظاهرة يحمل علما احمر كتب عليه بالحبر الاسود : « نريد الشريعة ، ليسقط العرف • يحيا الاسلام يحيا الملك ، يحيا المغرب » • (25) واستطاعت قوات الامن ، بالرغم عن انها كانت غير كافية ، ان تظفر بالغلبة بدون ان يموت احد ، والراجح لانه لم يكن هناك الجيش • واسفرت العملية عن اربعة جرحى من ناحية المتظاهرين وسبعة من ناحية قوات

(25) ــ حسب المعلومات الرسمية • وتقول « لافيجي ماروكان » (الرصيد المغربي) بتاريخ 23 اكتوبر ان العلم كان يحمل الكتابات التالية : « تحيا الحرية • تحيا الشريعة • يسقط العرف • يحيا الملك » •

الامــن ، ومنهم مــن اصابته ضربــة خنجــر · وتــم اعتقــال سبعين ، منهــم الطلبة الاربعــة ·

وفسر الوطنيون هذه الثورة بانها رد فعل من السكان ضد عمــل تحريش قام به الكاتوليكيون الفرنسيون الذين كانوا يوم الاحد السابق نظموا زيارة الى كنيسة « سانت تاراز » Sainte Therèse بالخميسات لم تكن فى الحقيقة الا تقاليدا سنويــة اكــرامــا لهذه القديسة · ودار النقــاش حــول معنى لفظ « الملك » الذى رآى فيه بعضهم نداء بسلطة اجنبية عن سلطة السلطان · وقد اكدت الصحافة الفرنسية ان الوطنيين كانوا يؤملون فى تكوين حكومة يحتل فيها علال الفاسي منصب الملك واليزيدى منصب الوزير الاكبــر · عــلى انــه لا شك في ان المعنى كان سيدى محمد الذى لا يجهل الحزب الوطنى انه يوليه عطفه المتزايد · وسيعمل حزب الاستقلال فيما بعد على اقرار هذا اللقب (26) ·

وكانت مظاهرات مماثلة متوقعة فى بلاد البربر ، وخاصة بازرو عند بنى زيان بعد بنى زمور · ولتفادى الخطر اتخذت الحكومة الشريفية فــى مساء 25 اكتوبر تدابير نفى ضد علال الفاسى واحمد مكور احد اعيان فاس وعبد الجليل ومحمد اليزيدى ، واعلنت حل « الحزب الوطنى » بدعوة اعادة تكوين « لجنــة العمل المغربى » بصورة غير شرعية ·

اتساع العقــوبــات

كانت ردود الفعل ضد هذه العقوبات لا مفر منها · وقد تم التعبير عنها بصورة عــارمة بمرسى « ليوتي » وبفاس · ولا يــزال مرسى ليوتى معقــلا للوطنية بسبب تاثير عائلة ديورى الثرية · وقد القى القبض على محمد ديورى وحكم عليــه بالسجن لمدة سنتين على اثر مظاهــرة لقى فيها اربعة متظاهرين حتفهم تحت رصاص قوات الامن (27 اكتوبر) ·

وبفاس حيث اعتقــل ثلاثة زعمــاء جدد للحزب الوطنى (26 اكتوبر) ظلت الافكار فى هيجان كبير · ولذلك تلقى الجنرال « بلان » قــائد الجهة الاذن باحتلال المدينة فى ليلة ما بين 27 و 28 بواسطة قوات هامة · ووجه الوزير

(26) ــ تحمل نشريــة دعائية هذا العنوان : « الذكرى الواحدة والعشرين لارتقاء جلالة محمــد الخامس ملك المغرب العرش · 1927 ــ 1948 » · ولا يبدو الالتباس الذى نشرته الجرائد الفرنسية لسنة 1937 عفويا وقد سخر رجل متبصر مثل مؤلف كتاب « الزوبعة » من اوساط اقصى اليسار التى تمنح صداقتها الى المغاربة الذين ينادون فى بلدهم « يحيا الملك » هاتفين للسلطان بفاس منذ ماى 1934 (ص 44 ــ 45) ·

الاكبر منذ يوم 26 تعليمات الى جميع باشوات وعمال المملكة كي تخصص المساجد للعبادة دون سواها • وكانت جامعة القرويين هي التي توشك ان تصبح المركز الرئيسي للتشويش • ولتجنب ذلك تم الالتجاء الى الوسائل الكبرى • فبعد ان غادر الجمهور المسجد يوم الجمعة اجبر الوطنيون الذين واصلوا الاجتماع على الخروج ، واقتبلتهم قوات « القوم » (les goums) بدون هوادة (29 اكتوبر) • وقامت قوات الامن بستمائة وخمسين اعتقال ، واحتفظت بمائة منها ، وانتهت باحكام تقضي باشغال تعبيد الثنايا لمدة شهر • وفي نفس المساء القى القبض على الوزاني وكذلك على المحمي البريطاني بوعياد •

وفي يوم 31 ذهب الجنرال « نوقاس » الى فاس ، واشار الى الهيئات المهنية بالمدينة بانه لن يحجم امام اكثر التدابير حزما • وكانت لردود الفعل بالدار البيضاء (26 اكتوبر) ومراكش ووجدة (28) والرباط (30) صبغة اقل خطورة • واستطاع المقيم العام ان يؤكد انه يتمتع « بتاييد جميع الاحزاب الفرنسية وهي مجمعة على ذلك وقد ادركت الخطر » ، مصرحا انه استعمل قوة « اسلحتنا » لتفادي « محاولة انقلاب في البلاد باسرها » كان من المقرر ان يتم في ظرف شهر • وطالبت اللائحة التي صادق عليها المؤتمر الاشتراكي بالرباط يوم 21 نوفمبر 1937 « بتحقيق مدقق بشان الاحداث التي جرت بالمغرب مدة شهر اكتوبر حتى يتسنى ضبط الموقف الذي يجدر اتخاذه ازاء « لجنة العمل المغربي » بصورة نهائية وبالتفصيل • وظهرت ريبة الاشتراكيين نحو الوطنيين في امساك الجامعة عن كل تحفظ فيما يخص اهمية العقوبات التي بلغت ، حسب الارقام الرسمية ،444 حكما بالسجن منها 33 لمدة سنة ، و 6 لستة عشر شهرا و 45 لسنتين • وغادر علال الفاسي جنوب المغرب يوم 3 نوفمبر متوجها الى عاصمة القابون Gabon وهي ليبرفيل Libreville ، ثم وضع تحت الاقامة الجبرية ببلدة صغيرة توجد على واد نقونيي Ngounié الرافد الايسر لنهر اوقووي Ogooué وهي مويلا Moulla حيث قضى حياة متصوف ، وكان السلطان حكم عليه بالتغريب •

اصلاحات نوقاس

وكانت البلاد بقبضة المقيم في آخر السنة ، لكن السجون لا تكفي للتصرف في البلدان • وقد ذكرت الجامعة الاشتراكية « مرة اخرى ، ولكن

باقتناع وقوة ضاعفها نمو البؤس الحالي والنتائج التي تنجر عنه او توشك ان تنجر ، بتاكد برنامج للاصلاحات تاكدا مطلقا ، وقد وعد بها منذ زمن بعيد، وامل فيها بلا طائل منذ اكثر من عام ، وهي الوحيدة الحرية بان تقر في المغرب الاقصى نظاما دائما لانه يكون مقاما على ازدهار ضروري للجماهير الكادحة المغربية » . واستخلص الجنرال « نوقاس » ايضا العبرة من الاحداث ليحدد سياسة تجنب تجددها . واشار منشور بتاريخ 22 نوفمبر 1937 الى بعض نقاط الضعف في سير المصالح . وهو يقول : « لا تقرا الادارة الحساب الكافي للسياسة الاهلية ، ولا يملك من هم مسؤولون عن هذه السياسة الوسيلة لاستغلال جميع امكانيات المصالح الفنية لفائدتها »

ومن ذلك الحين احتلت الانجازات الاهلية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المرتبة الاولى . وقد علق شكيب ارسلان على ما قدمه الجنرال « نوقاس » يوم 2 جويلية 1938 من محصول اعماله بلدة ستة اشهر أمام القسم المغربي لمجلس الحكومة ، فاعترف بانها تمثل « فوائد حقيقية وخطوات فعلية الى الامام في سبيل الانجازات التي ما انفك السكان المغاربة يطالبون بها والتي دفع الشباب المغربي من اجلها الثمن من دمه وصحته وعيشه الرغيد » . (27)

ولا شك ان الوطنيين لم يلقوا السلاح . وقد وزعت مناشير او انعقدت اجتماعات تلتها اعتقالات على الفور ، لكن السكان لم يردوا الفعل . واطلق سراح معظم المسجونين بصورة عادية ، وامسكوا عن « كل عمل سياسي » على ان الخصومة بين شقي الحركة الوطنية وجدت امتدادا في نزاع بين اليزيدي والوزاني واحتدت الخلافات شيئا فشيئا ، وتكون التجمع الذي نظمه الوزاني تجاه الحزب الذي بقي علال الفاسي مرشده ، وظل محمد اليزيدي وبلافريج وعبد الجليل منشطيه . وكانت كل محاولة دعائية متبوعة بعقوبات وانتقل الزعماء الذين ما زالوا احرارا مثل بلافريج وعبد الجليل الى المنطقة الاسبانية . واعتبر الراى العام المسجونين ضحايا . وافضى الامر بالمناضلين الشبان والمتصلبين الى انهم اصبحوا يترقبون بدون اشمئزاز نزاعا عالميا كانوا ياملون ان يخرج منه تحرير المغرب الاقصى .

بيد انه لم تجد اضطرابات لا عندما كان النزاع يهدد بالوقوع في سبتمبر 1938 ولا عند اعلان الحرب في السنة الموالية . وقد ادرك الوطنيون خور

---

(27) ـ « لا ناسيون آراب » منتصف شهر اوت 1938 ، ص 1024 .

معارضة مطلقة واستحالة قلب الحماية بالقوة . وذكت هزيمة فرنسا ايمانهم بتحرير قريب . وعلقوا املهم على الله وايضا على السلطان . وقد اكد العاهل الشاب شخصيته بفضل ما سمح له به عهد الحرب من مبادرات . وكان مثل المنصف باى لا يريد ان يكون الملك الخامل . وكان يرغب فى ان يرضى امانى شعبه المكبوتة معيدا لسلطته هيبتها الكاملة بمساعدة ممثلى الامة الاكفاء . وهو ما كان يعلمه المغاربة ، ويقلق الاقامة العامة . ولم تعد الدولة الحامية غداة الحرب تجد نفسها فى خصومة مع الشارع والسلطان يتبرؤ منه رسميا ، بل مع القصر المتفق مع الشارع . هذا بمحضر متفرج مغرض ، الولايات المتحدة ، وهى على استعداد لتقوم بدور الحكم .

الباب الخامس

الأزمة التونسية

فقدان الامين باى للشعبية وعجزه

لئن كان تنازل المنصف باى اكسب ارتقاء الامين باى على العرش صبغة قانونية ، فإنه لم يبرره لدى الشعب التونسي · « لقد كان خلعه غلطة سياسية فادحة » — حسب ما كتبه موظف قدير باشر مناصب كبرى وله خبرة خاصة في هذا الميدان · « فلمعارضة تاثير الدعاية الالمانية والاحتلال الاجنبي كان هذا الملك هو الوحيد الذي في وسعه ان يستعمل سلطته ونفوذه العظيم لارجاع الثقة بفرنسا ، وقد كان المنصف باى يعلن دائما عن احترامه لمعاهدة الحماية وتعلقه بفرنسا » ·

وقد كان على اللجنة الفرنسية للتحرير القومي ان تظهر غاية التحري ، خصوصا ان مبادىء ميثاق الاطلسي ونداءات « انطني ايدن » في اوائل سنة 1943لمشاركة الدول العربية لا يمكن الا أن تثير تجاوبا عند التونسيين·ولكن باستثناء الجنرال كاترو الذي اعلن « ان عهد الهيمنة الاستعمارية قد انقضى، وان نظرية الشعوب الباقية الى الابد تحت الحجر » قد اندثرت ، فان الاختصاصيين بدائرة الجنرالين « جيرو » و « دى قول » لم ينسوا شيئا ولم يتعلموا شيئا· ولم تبرز ارادتهم لاظهار صبغة الحماية المتجبرة في اقصاء الملك المتمرد فحسب، بل كذلك في نصوص ادارية استصدرت للزيادة في سلطان سيادة فرنسا ·

وقد ظنت اللجنة الفرنسية للتحرير القومي ان ابدال الباى كان كافيا وحده للتغلب على الصعوبات ، بينما هو خلف وضعا لا مخلص منه · فان خلع المنصف باى ، وان تبعه تنازل فيما بعد ، كون اجماعا في الراى العام التونسي ضد تلك العملية ، ووحد بين المعتدلين والمتطرفين · وقد علم الشعب باسره ان علماء الجامع الاعظم كانوا على استعداد للطعن في تنازل تم التحصيل عليه في الاغواط من ملك في حالة عزلة معنوية تامة · فاكتسبت النزعة المنصفية صبغة عاطفية جارفة لم تهدأ حتى وفاته · ووجدت فيها الفكرة الوطنية التى أريد القضاء عليها نواة تجمعت حولها والتامت · ولم يجد الجنرال « ماست » امامه طرفا كفئا يستطيع الاعتماد عليه · وظهرت الاصلاحات التى كان في امكان

التفاوض في شانها بصورة مجدية مع المنصف باي ، وكانها ممنوحة من الدولة الحامية ، فوقع القدح اصلا بصورة جردتها من كل قيمة . اما الامين باي ، وقد اعرضت عنه كافة الاحزاب ، وهو في شك مما يتعلق بمستقبله ، فلم يجد بدا من اقتفاء اثر الملك المبعد باعلان رغبته الاصلاحية وتشكيل وزارة وطنية . وهكذا كان القرار الاحمق الذي اتخذه الجنرال « جيرو » ونفذه الجنرال «جوان» بغاية السرعة ، ولكن بدون اقتناع ، جعل كل تقارب بين فرنسا وتونس مستحيلا ، ومكن المعارضة الدستورية من نقط ارتكاز متينة .

تقلبات الكتابة العامة

ان تحوير نظام الكتابة العامة اماط اللثام عن عزم الدولة الحامية على توسيع دائرة اختصاصاتها على حساب الادارة التونسية . فقبل سنة 1881 كان يسير ادارة الايالة وزير اكبر باعانة وزير القلم وعدد من المستشارين المشرفين على مختلف المصالح . ثم وضع « بول كامبون » بجانب الوزير الاكبر كاتبا عاما للحكومة التونسية يعينه الباي باقتراح من المقيم العام لمراقبة الادارة الاهلية وتسيير بعض مصالح الادارة العامة كمصلحة البلديات والصحة والامن (4 فيفري 1883) . ولا يوجد في هذا النص ما يخص الفرنسيين بهذا المنصب . وكان على هاته المصلحة (اى الكتابة العامة) ان تقوم بمهمتها وفقا لروح معاهدة قصر السعيد الاولى .

لكن اتفاقية المرسى وما تبعها من الاوامر الصادرة عن رئيس الجمهورية الفرنسية التي فوضت للمقيم العام سلطة المصادقة على الاوامر العلية ووضعت جميع المصالح الادارية المتعلقة بالاوروبيين والاهالي تحت تصرفه ، قد حددت من نفوذ الوزير الاكبر وكاتبه العام لفائدة المقيم العام ، الذي اصبح الرئيس الحقيقي للادارة ، وهكذا ، على اثر خلاف نشب بين الكاتب العام «قبريال بيو» والمقيم العام «لوسيان سان» الغى هذا الاخير خطة الكاتب العام ، واحال نفوذها لمدير عام للداخلية ولمدير للعدلية التونسية (14 جويلية 1922) . واصبح المقيم في نظر الراى العام يضطلع عمليا بمهام الوزارة الكبرى عوض الوزير الاكبر .

وبعد مضى عشر سنوات ، ارجع «بيروطون» خطة الكاتب العام، ولكن على اسس تختلف تمام الاختلاف مع الماضي (امرا 10 و 13 اكتوبر 1933) ولم يعد الكاتب العام ملحقا بالوزير الاكبر التونسي ، وكان يعتبر ولو صوريا مساعده

الاول ، فاصبح تابعا للمقيم العام • ولم يبق الكاتب العام موظفا لجلالة الباى بل اصبح عونا للرقابة الفرنسية وبموجب تفويض حقوق الجمهورية وسلطتها اليه ، اصبحت له الصلاحية للتاشير على قرارات الوزير الاكبر وعلى الاوامر المعروضة على طابع الباى ، وللقيام بعرض الاوامر والتراتيب بمشاركة الوزير الاكبر ، وللتاشير على لوائح تسمية الموظفين قبل عرضها على موافقة المقيم العام ، والاخيرا لجمع ملفات الشؤون المدنية والادارية للايالة التونسية • ثم ، سعيا لوضع حد لتلاشي السلطة التونسية المنافي لروح الحماية ، ارجع « بيار فيينو » الى الوزراء التونسيين نفوذهم سنة 1937 • وبعد ان جرد الكاتب العام من اهم اختصاصاته المتعلقة بالادارة المباشرة اعاد اليه دوره السابق بوصفه اعلى موظف يباشر مهام الرقابة التابعة للمقيم العام ، ذلك الدور الذى يؤكده وصفه معتمدا بالسفارة العامة » (1) (امر 29 جوان) •

وغداة تحرير البلاد التونسية من احتلال المحور عادت اللجنة الفرنسية للتحرير القومى الى تنظيم الكتابة العامة « فى صورة اقامت الدليل على جهل الواضعين له الاصول الحماية القانونية (2) » • فلئن كان الامر العلى الصادر سنة 1933 يحترم على الاقل الشكليات ، وهو مختوم بطابع الباى ويحتفظ بلقب « الكاتب العام للحكومة التونسية » وان غير الجوهر ، فان امرى 21 جوان 1943 و 27 مارس 1944 اتخذتهما اللجنة الفرنسية للتحرير القومى ، واضعة سيادتها مكان سيادة الباى الذى بقى فى نظام الحماية المشرع والمشرع الوحيد •

فالكاتب العام للحكومة التونسية لم يعد تونسيا ، واصبح الكاتب العام للحكومة فقط ، ولا يعينه الملك بل السلطات الفرنسية المركزية • ويعطى امر 21 جوان الكاتب العام المفوضة له السيادة الفرنسية حق مراقبة الوزارات والادارات التونسية • فاضطر الباى ، عملا بالمبادىء المقررة من اللجنة الفرنسية للتحرير القومى الى الموافقة على وضع كافة المصالح الادارية التابعة للدولة التونسية تحت النفوذ الفعلى المباشر للكاتب العام المفوضة له سلطتها ، « ان تاكيد هذا الجزء من الرقابة الفرنسية الموجودة فى نفوذ الكاتب العام الصادر بصورة عنيفة ، اثار فى الراى العام التونسى رد فعل محسوس ضد مؤسسة كانت فيما مضى مقبولة بصورة عامة حتى من منتقدى الحماية » •

---

1) « ش • صومانى » التعريف بتونس — ص 2430

2) « ف • سلفيرا » — الاصلاح الحكومى 1948 — ص 193 •

وذلك لان القرار المباشر للسيادة الصادر عن اللجنة الفرنسية للتحرير القومي» أكد بصورة غير مقيدة تفوق مباشرة الرقابة الفرنسية في وظيفة ترتبط بنظام السلطان الفرنسي » (3) فمن ذلك الحين صارت اختصاصات الكاتب العام ، ولو بعد ارجاعها الى النطاق التونسي ، رمزا لتعديات سيادة الدولة الحامية على سيادة الدولة المحمية ، حتى انها اثارت نقاشا عنيفا عند اعداد اصلاحات 1951 ·

اصلاحات سنة 1945

لقد اقر الجنرال « دي قول » بوجوب الاعتراف بما يفرضه ولاء شعوب شمال افريقيا على الحكومة · واكد « انه لا يمكن اتهام فرنسا الجديدة بنية النيل من الحرية حيث ما توجد ، او بتعطيل انبعاثها حيثما يجب ابقاؤها » · ولكن العملين السياسيين الاولين اللذين يتجلى فيهما ذلك التحرير يتضمن احدهما تنازلا عن العرش تم تحت الضغط ، ويتضمن الثاني نصوصا تشريعية تتعلق بمسالة من مشمولات الباي وحده تم اتخاذها من قبل السلطات الفرنسية بمفردها · ولذلك ، عوض ان يجد الجنرال « ماست » تاييدا تاما لا قيد فيه ولا شرط ، اضطر لمواجهة اضراب طويل المدة قام به مشائخ الجامع الاعظم ومناورات بلاط متخوف من المستقبل وانتقادات الاعضاء التونسيين بالمجلس الكبير ، وفوق كل شيء الحملات المتصفية المتمثلة بالخصوص في عرائض طويلة تحمل امضاءات عديدة ·

ورغم نشاط الحبيب بورقيبة الموالي للحلفاء ومقابلاته مع المقيم العام فقد خيب القسم الاول من اصلاحات سنة 1945 آمال الراي العام خيبة عميقة ؛ فمنذ ذلك الحين خلع على «مجلس الوزراء ورؤساء الاقسام» اسم «مجلس الوزراء» بعد ان تغير تركيبه · وعهد الى وزارة جديدة تدعى وزارة الشؤون الاجتماعية بمهمة الاشراف على الاسعاف والصحة العامة والشغل والحيطة الاجتماعية ، وحتى اكثر الجرائد العربية اعتدالا فانها تاسفت لعدم اناطة بعض الادارات الكبرى بعهدة تونسيين اكفاء ولعدم انشاء وزارات للمالية والاقتصاد العام والاشغال العمومية والتعليم العمومي والنقل والمواصلات ، ولعدم منح الوزراء التونسيين الذين يمثلون مجرد دور صوري نفوذا حقيقيا مثل نفوذ المديرين الفرنسيين ·

---

(3) « ف · سلفيرا » ـ الاصلاح الحكومي ـ 1948 ـ ص : 195 ـ 196

يرأس وزير الشؤون الاجتماعية الجديد المديرين الاثنين للصحة العمومية وللشغل الخاضعين لنفوذه ، لكنهما بوصفهما « معتمدين » من الكاتب العام هما مكلفان بمراقبة رئيسهما ، الامر الذي يمكنهما عمليا من التفوق عليه • وانجر عن هذا التحوير الجديد الغاء وزارة الاوقاف ، ذلك الالغاء الذي اثار قلقا متزايدا في بعض الاوساط الاسلامية • واخيرا لم يقع التعرض الى المجلس التشريعي الذي كان من المؤمل تاسيسه لمراقبة الوزارة التونسية • اما المجلس الكبير الذي احتفظ به ، فلم تدخل عليه تغييرات الا في سبتمبر 1945 •

الحبيب بورقيبة بالقاهـــرة

لقد اكتست خيبة الشعب التونسي صورتين : من جهة الاستنجاد بمعونة خارجية لمحاولة تسليط ضغط دولي على فرنسا قصد التحصيل على اصلاحات قد لا تتنازل ابدا لمنحها من تلقاء نفسها ، ومن جهة اخرى تشكيل كتلة من الاحزاب سعيا وراء اقناع الرأي العام الفرنسي والاممي بان حركة المطالبة ترتكز على اوفر قسم من الراي العام التونسي • وقد اتجهت آمال المسلمين التونسيين نحو الجامعة العربية • فمنذ امضاء مصر وسوريا ولبنان والعراق وشرقي الاردن ميثاق الاسكندرية الذي اسس جامعة الدول العربية ، كان المسلمون بشمال افريقيا يرقبون بكل حماس المساعي الرامية لاعطاء فكرة الوحدة العربية اساسا عمليا صحيحا • وعلم العالم في شهر مارس 1945 ان مؤتمر عين شمس الذي اعدته سياسة الملك فاروق الحاذقة ، وضع نظاما للجامعة يرمي للتعاون بين اعضائها « لصيانة استقلالها وسيادتها » • ولئن كان الميثاق يتعلق بالدول الممضية فقد وسع مشمولات نظر الجامعة الى الاهتمام « بصورة عامة بالمسائل التي تهم البلدان العربية ومصالحها » • وهنالك ملحق يسمح للبلدان العربية غير المنخرطة « بالمشاركة في اعمال اللجان » • واخيرا اخذت الجامعة شكل دولة فوق الدول يسيرها مجلس يلتئم مرتين في السنة ، وانشات لجانا مختصة وعهدت بمهام الامانة العامة الى شخصية سامية لها رتبة سفير هو عبد الرحمان عزام بك ، المجاهد في سبيل الله ضد الايطاليين وحامل لواء الوحدة العربية ، الذي لا يعرف الكلل • وهكذا اصبحت القاهرة قلب العالم الاسلامي النابض وقبلته السياسية ، حيث تجد الحركات القومية المضطهدة النجاة والسلامة •

بلغ نبا امضاء ميثاق الجامعة العربية تونس في 23 مارس • وبعد اربعة ايام اتجه الحبيب بورقيبة على متن زورق صغير حاملا اماني الدستور وآماله

الى شاطىء من طرابلس على مقربة من الحدود التونسية • ومن هناك اجتاز الصحارى راجلا تارة واحيانا ممتطيا جملا ، والتحق بالمدينة التى كان قلب الاسلام ينبض فيها • وقام الحبيب بورقيبة كداعية وسفير فى آن واحد بالدفاع عن قضية استقلال تونس لدى الجماهير الشعبية ورجال السياسة ورؤساء الدول في مصر اولا ، ثم في بلدان الشرق الادنى ، واخيرا في الولايات المتحدة الامريكية بمناسبة انعقاد دورة الجمعية العامة للامم المتحدة فى ديسمبر 1947 • وعند رجوعه الى القاهرة ساهم بالفعل فى تاسيس « مكتب المغرب العربي » وهو مركز للدعاية ولتوزيع الوثائق ، وقد اشترك فيه الحزب الدستورى الجديد وحزب الشعب الجزائرى وحزب الاستقلال • وضمن هاته الجماعة من المهاجرين حيث كان الطموح الشخصى يحتل مكانا فسيحا ، لم يكن الحبيب بورقيبة يجد من مواطنيه التاييد فحسب •

بيان الجبهة التونسية وتاسيس الاتحاد العام التونسى للشغل

اما بتونس فقد اتفقت الاحزاب الاسلامية وقد انضم اليها الاستاذ « البار بسيس » ممثل الجالية الاسرائيلية ، على « بيان الجبهة التونسية » الذي يطالب بالاستقلال الداخلي للامة التونسية على اساس ديموقراطى في نطاق نظام ملكى دستورى (22 فيفرى 1945) • ومكن هذا البيان الحبيب بورقيبة من القيام بدعاية ناجعة فعالة خصوصا لدى رجال السياسة بالولايات المتحدة ، معتمدا فى ذلك على اجماع الراى العام التونسى • ولم تبرز الحركة الوطنية فى قالب المطالبة فحسب بل كذلك فى قالب شعبى تجلى فى المظاهرات التى قامت بها الجماهير التونسية بمناسبة وفاة الرئيس « روزفلت » (فى 15 افريل 1945) وفى ذكرى انتصار الحلفاء على المحور (8 ماى) وخصوصا فى تاسيس منظمة نقابية مستقلة منخرطوها من المسلمين •

فالمحاولة التى فشلت سنتي 1925 و 1937 انتهت بالفوز سنة 1945 ، وذلك بداعي رد الفعل ضد انقياد الجامعة العامة للشغل C. G. T. للحزب الشيوعي • وقد جلب الاتحاد العام التونسي للشغل الفتى او كاد كافة العمال الاهليين • وعبثا حاول الفرع الجهوى للجامعة العامة للشغل ان يضع حدا لهذا النزيف متحولا الى « الاتحاد النقابى لعملة القطر التونسى » U. S. T. T. على غرار مزاحمه • فما استطاع ان يمنع الاتحاد العام التونسي للشغل من ان يصبح القوة الحقيقية الوحيدة لعالم العملة بقيادة مخطط ممتاز هو فرحات حشاد • وقد اصبح الاتحاد العام التونسى للشغل اثبت مساند

للحزب الدستوري الجديد دون ان يندمج فيه • وحمل هذا الحزب البرجوازي على الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية •

ميثاق الاستقـــلال

وكان « جورج بيدو » وزير الشؤون الخارجية قد اعلن في غرة اوت 1945 امام الجمعية الاستشارية الوقتيـة « ان النظـام الانتخابي المقبـل في تونس سيكون بصورة لا تترك بلدا من بلدان البحر الابيض المتوسط ذات حضارة مماثلة دون ان تغبط عليه البلاد التونسية » • وفي الشهر الموالي اصبح المجلس الكبير يتركب مـن قسمين تونسي وفرنسي ، يتالف كـل منهما مـن ثلاثـة وخمسين عضوا ، يتم انتخابهم لمدة ست سنوات • لكن سن الاقتراع كـان خمس وعشرين سنة للتونسيين مقابل واحد وعشرين للفرنسيين • وسن المترشحين ثلاثين سنة بالنسبة للتونسيين وخمس وعشرين بالنسبة للفرنسيين، كما ان الانتخاب بالنسبة للتونسيين كان على درجتين عوض الانتخاب المباشر » • « ويستشار هذا المجلس قبل اصدار اي امر علي له صبغة تشريعية ماليـة او اجتماعية » ، الامر الذي من شانه ان وسع نطاق مشمولات نظر هذا المجلس • على ان قراراته لم تكن نافذة المفعول لا في مادة الميزانية ولا في تلك المادتين • ولم يشعر التونسيون قط بان الحقوق الانتخابيـة الجديدة الممنوحة لهم من شانها ان تثير غبطة اي كان • ومما زاد في الطين بلة ان ثمانين في المائة من الناخبين في العاصمة وبنزرت امسكوا عن التصويت احتجاجا على محاكمة الزعمـاء الدستوريين • وهكـذا بقي التونسيون مـع الاسف غير مكترثين بالاصلاحات التي منحتهم اياها الدولة الحامية •

وظهر سوء التفاهم بكل وضوح بمناسبة انعقاد مؤتمر ليلة القدر السري (25 اوت 1946) بعاصمة تونس • وقد ضم ثلاثمائة شخصية مـن مختلف الطبقات والاحزاب لتحرير ميثاق للشعب التونسي يعلن استقلاله • واسندت رئاسة المؤتمر الى رئيس سابق للدائرة الجنائية بوزارة العدل العروسي الحداد • فافتتح الاجتماع وسط التصفيق الحاد بهاته الكلمات : « طيلة مباشرتي لمهمتي القضائية طالبت باعدام المجرمين ، وها انا اليوم اصدر حكمي بالاعدام عـلى نظام الحماية » • ثم شهر صالح فرحات بـاعتداءات الحكومة الفرنسية عـلى السيادة التونسية وبخلمها المنصف باي وبعجز الدولة الحامية عن الدفـاع عن الدولة المحمية ، الامر الذي يخول للتونسيين ان يعلنوا « استقلال تونس التام » • ولم يتمكن الاستاذ صالح بن يوسف الكاتب العام للحزب الدستوري

الجديد من انهاء خطابه نظرا لاقتحام قوات الشرطة المحل • على انه قبل ان ينتهي الاجتماع سأل الخطيب الحاضرين : « هل انتم مجمعون على اعلان استقلال تونس ؟ » فاجابوا بصوت واحد : « الاستقلال ، الاستقلال ! » ثم القى القبض على خمسين شخصية من بين الحاضرين ولم تتمكن الشرطة من العثور على الوثائق • فرد الشعب الفعل باضراب عام لمدة ثلاثة ايام • وامتنع الامين باي من الذهاب لباردو بمناسبة موكب عيد الفطر خشية المظاهرات المعادية •

وفي تلك الاثناء كانت وثيقة الاستقلال تنتشر تحت المعطف ، وتلقى تاييدا واسعا شاملا ، وهي تستعرض ما وجهه الخطيبان بمؤتمر ليلة القدر من الانتقادات على فرنسا التي افلست سياستها باسرافها المالي المنظم ومعارضتها للتقدم الديمقراطي وتركها الالمان يحتلون البلاد • ويصرح ذلك الميثاق « بان الحماية نظام سياسي واقتصادي لا يتفق بحال من الاحوال مع سيادة الشعب التونسي » وحقوقه ومصالحه القومية • ويؤكد ان هذا النظام الاستعماري حكم على نفسه بالافلاس بعد تجربة دامت خمسة وستين عاما • ويعلن عن عزم الشعب التونسي على استرجاع استقلاله التام وعلى الانخراط كدولة ذات سيادة في جامعة الدول العربية والانضمام الى منظمة الامم المتحدة وعلى المشاركة في مؤتمر الصلح » فعلى المرامي الوطنية تركبت فكرة الاشتراك في الجامعة العربية بالقاهرة ، وهي خطوة اولى في طريق احياء امبراطورية عربية • وامام استحالة الانخراط في منظمة الامم المتحدة فكر الحبيب بورقيبة في اوت 1947 في امكانية عرض مشاكل شمال افريقيا على المنظمة وفي الاخطار التي قد تنجر عن هذا الاجراء لفرنسا •

المقيم « جان مونص » واصلاحات سنة 1947

وسعيا وراء وضع حد لتيار المظاهرات التي ما انفكت تتكرر بصورة خطيرة اطلق الجنرال « ماست » سبيل المساجين بعد زيارة الى باريس حيث كانت اجراءاته محل تقدير يختلف بحسب الاوساط • وان اعلانه في نوفمبر عن قرب ادخال اصلاح على المجلس الكبير لم يكن ليرضي رغبات البلاد الرامية الى تحويرات جوهرية تتماشى مع درجة تطورها ونضجها السياسي ، كما صرح به رئيس القسم التونسي للمجلس الكبير • وبلغ غضب التونسيين اشده اثر عزل شيخ الاسلام الحنفي في جانفي 1947 بدعوى تقصيره الفادح في الاضطلاع بوظيفته ومباشرته الباي بصورة مخلة بالاداب واللياقة ، وفي الحقيقة لنشاطه لفائدة قضية المنصف باي • وهكذا قررت الحكومة الفرنسية في 16 جانفي

انهاء مهمة الجنرال « مـاست » كمقيم عام بتونس • وخلفـه « جان مونص » الذى تولى منصبه فى 3 مارس •

لقد ظن الدستوريون خيرا بالمقيم الجديد لعلمهم انه كان مديـرا لديـوان « ليون بلوم » • وتلقوا الغاء الرقابة على الصحف بالاستحسـان ، كـما ان الاتصالات بالزعماء الدستوريين اعادت الهدوء • وادخلت اصلاحات جويلية ـ اوت 1947 تحويرات هامة على الجهاز الحكومي محاولة معارضة الحكم المباشر • والغيت قرارات لجنة التحرير الوطني،ولاول مرة منح مجلس الوزراء اختصاصات مضبوطة ، وكلف بتوجيه وتسيير سياسة الحكومة العامة بعد مصادقة الباي على مقرراته • ومن ذلك التاريخ اصبح للتونسيين ستة وزراء عوض اربعـة وهم : الوزير الاول ووزير العدل ووزير التجارة ووزير الصحـة العموميـة ووزير الشغل ووزير الفلاحة • على انه لم يتحقق مبدا التساوى المعلـن عنـه رسميا فى خطاب الجنرال « ماست » فى 22 سبتمبر 1946 ، اذ كان الاعضاء الفرنسيون المخصصة لهم ايضا ستة مقاعد يتمتعون بالاغلبية نظرا لوجود المقيم العام الذى يرأس وجوبا مجلس الوزراء • كما تضرر الديوان الوزارى الذى تم احداثه كدولاب ادرى من انعدام التعادل نفسه •

لقد وضع الامر العلي الصادر فى 9 اوت 1947 الادارة العامة للمملكة التونسية تحت سلطة الوزير الاول ، ويساعده الكاتب العام للحكومة التونسية • فاصبح « الوزير الاكبر » رئيسا لاحدى عشر ادارة بما فيها من ادارات فرنسية كبرى ويباشر رأسا ادارة تضم الادارة العامةوالبلديات وهيعبارة عنوزارة للداخلية وله وحده الصلاحية لعرض الاوامر والمعروضات على طابع البـاى ، ولمراقبـة تنفيذها • كما كلف بتنسيق اعمال الوزراء والمديرين ، واخيرا يرأس المجلس الوزارى • ومن قراءة النصوص يتبين ان اوامر سنة 1947 ارجعت اليه المكانة السامية المنبثقة عن ملك مطلق التصرف • على انه لم يكن شيء من ذلك فـى الواقع اذ ان جميع سلطاته « لا تباشر الا بمساعدة الكاتب العـام للحكومـة التونسية او بعد تأشيره » (4) وقد استرجعت الكتابـة العامـة مع صفتهـا التونسية صبغة مؤسسة تونسية » (5) وعادت تقريبا الى الوضعية الدستورية التى كانت عليها عند انشاءها قبل اتفاقية المرسى ، لكن الاختصاصات التى تمكن الكاتب العام من التاشير على الاوامر قبل عرضها على طابع الباى وعلى القرارات

4) « سلفيرا » ـ الاصلاح الحكومى ـ 1948 ـ ص 188
5) « سلفيرا » ـ الاصلاح الحكومى ـ 1948 ـ ص 197

الترتيبية الصادرة عن الوزير الاول، ومن مباشرة مهمة «جمع القضايا المدنية والادارية» لدى الوزير الاول، ومن الاستقلال المالي، ومن المشاركة في مجلس الوزراء وفي المجلس الوزاري مع كاهيته كعضوين مفاوضين : ان هاته الاختصاصات كلها جعلت منه الرئيس الحقيقي للادارة . ولم يكن تفوق الوزير الاول الا شكليا . وهكذا مرة اخرى لم تكن الاصلاحات قد تناولت الصعوبات الاساسية .

ومع ذلك، فقد استنكرتها الجالية الفرنسية . وفي 2 اوت سلم ممثلوها الى وزير الخارجية مذكرة يشهرون فيها بالتسليم المفاجيء الخطير لدواليب الحكم ولمصالح ادارية ذات اهمية كالفلاحة والتجارة والصحة العمومية الى ايد تونسية تنقصها على كل حال التجربة ويلفتون النظر الى كل ما تحتوي عليه هاته الاصلاحات من تناقض مع نصوص الحماية الاساسية . وصرح اصحاب المذكرة بان الوضع ازداد خطورة بعد اصلاحات « مونص » (6) ولذا فانهم يحتجون على امكانية اتخاذ اجراءات اخرى « من شانها ان تؤول الى النكران التام لمركز فرنسا بتونس، الذي هو نتيجة خمس وستين سنة من حضور ومجهودات وتضحيات مشتركة » . والغلطات ناتجة، حسب ما يقولون، عن عدم الاخذ راى « الممثلين الحقيقيين للفرنسيين بالبلاد التونسية »، وعن عدم اتباعه من قبل الحكومة، الامر الذي حملهم على رفع « احتجاج صارم ضد طريقة تطبيق الاصلاحات السياسية . »

وزارة الكعاك

وقد اختار المقيم العام مصطفى الكعاك لتشكيل اول وزارة لها استقلالها الذاتي في 10 جويلية، وكان انتخب قبل ذلك بقليل عميدا للمحامين، ولم يكن يشغل تونسي هذا المنصب من قبل . وهو، حسب قول المتفوقين، اكتشاف شخصي لم . «مونص» فرضه على الباي . وعرف مصطفى الكعاك بافكاره المعتدلة . ومع ذلك كان ضمن لجنة الدراسات التي قضت بالاجماع في 30 اكتوبر 1944 بالحكم الذاتي للبلاد التونسية . واعترضت الوزير الاول صعوبات في البحث عن وزراء (19 جويلية) واعترضته صعوبات اكبر لدى الراى العام التونسي الذي لم يرض به . واعلن رئيس

---

6) وهم مستشارا الجمهورية الاثنان، ورئيس المجلس الكبير، ونواب التجمع الفرنسي بتونس . والحزب الراديكالي الاشتراكي - والحركة الجمهورية الشعبية « الممثلون في مجموعهم للاغلبية الساحقة للجالية الفرنسية بالايالة التونسية »

الحكومة الفرنسية « راماديي » عن تشكيل وزارة الكعاك ، قبل ان يعرف فى تونس ، مما حمل الناس على الاعتقاد بان مصطفى الكعاك دمية بين يدى المقيم يدبر حركاتها وسيرها • اما اختيار الوزراء الجدد فلم يكن ليزيد فى نفوذه • فاكتسحت تونس موجة عدائية لم يكن انتشارها متوقعا • ولم تكن مدة هـذا « الكسلينق » Quisling التونسى ، الا جحيما مستمرا • فلم يحض بتاييد القصر وشنعت الصحافة باعماله ، وحملت الجدران عبارات معادية له، وسخر منه فى الشوارع •

لقد انقلب ايضا اعتصاب صفاقس ، الذى قرره الاتحاد العـام التـونسى للشغل احتجاجا على الاجر الادنى ، الى احتجاج سياسى ، واطلق الجند المكلفون بحفظ الامن عيارات اسلحتهم النارية على الجمهور ، وتدعى التقارير الرسمية انه رمى الجنـد بمفرقعـات وقوارير بنزين ملتهبـة • « وكتب موظف سـام صاحب خبرة خاصة : » ان القوات المسلحة استعملت اولا المفرقعات المسيلـة للدموع ، وامام تفاقم الخطر شحن الجنود اسلحتهم واطلقوا الرصاص على ارتفاع بعد اصدار الإنذار القانونى• وبعد امد وجيز تشتت المتظاهرون، ورجع الامن الى نصابه فكان عدد الضحايا (29 قتلى و 57 جريحا) (7) ضئيـلا بالنسبـة لجمهرة المتظاهرين العظيمة (بين 3 و 4 آلاف) وبالنسبة لقوة نيـران الآلات المصفحة • وهو يعطى فكرة عن اعتدال الجند وعن مسكهم لاعصابهـم ، وقـد اصيب من الجند ثلاثة بشظايا المفرقعات ، من بينهم واحد ذو اصابات خطيرة وثمانية بقذف الحجارة » • حقا ، ان قائد هؤلاء الجنود يستحق الثناء والشكر، اذلو كان دون ذلك درجة قليلة من « الاعتدال » و « مسك الاعصاب » لتمكنت الرشاشات من انهاء الاضراب بالقضاء على كافة المضربين • وقد ظنت السلطات ان المتظاهرين انفلتوا من زمام قيادة الاتحاد العام التونسى للشغل ، وطالب الزعماء الدستوريون بملازمة الهدوء والسكينة •

وفاة المنصف باى

وفى سبتمبر 1947 ظلت مشكلة العرش تسيطر على السياسة التونسيـة • فقد غلب الظن بان الملك السابق سيعود بموافقة خلفه خصوصا بعد مباركـة

(7) جاء فى « لانيى بوليتيك » السنة السياسية ، 1947 ، ص 293 : ما يلى « هوجم فيلق من الجند (كلهم تقريبا من « الترايور » التونسيين) ضربا بالمفرقعات فاضطر للرجوع الى الوراء لشحن رشاشاته • فاعتبر المضربون ذلك التقهقر علامة ضعف ، وهجموا على الجند • فكان طلق النار اولا فوق الرؤوس ثم على المتظاهرين • وتحدد الارقام الرسمية الضحايا بعدد 26 قتيلا و 150 جريحا من جانب المتظاهرين »

« جورج بيدو » لوزارة الخارجية الفرنسية اثر تشكيل حكومة « اندري ماري » اذ يعتبر « بيدو » من اشد المعارضين للملك السابق • وفتحت مفاوضات شبيهة بالرسمية • وكان من المتوقع الوصول الى حل مرضى • فان المنصف باى ، الذى لم يقبل اى تنازل ، كان مستعدا للبحث عن صيغة تقرر رسميا الصلة بين تونس والاتحاد الفرنسي • ولكن الحكومة تركت الفرصة تفوت • ومات الملك المحكوم عليه ظلما فى المنفى فى غرة سبتمبر • ونزلت الحكومة على الاقل عند رغبته في دفنه بمقبرة الزلاج • وابى الشعب ان يكتسى رجوع رفاته « صبغة خاصة » ، فشيع جنازة الباى الشهيد في مهرجان قومى رائع • ولربما يرينا المستقبل ان الشعب يضع ذلك الباى الشهيد في صف الاولياء الصالحين •

ولوفاة المنصف باى نتيجتان : من جهة جعلت من الامين باى الملك الشرعى وارجعت له كرامته ، وبعد أن كان يعتبر غاصبا انقلب مدافعا عن رغائب الامة • ومن جهة اخرى مكنت جميع الجهود من التظافر حول المطالب الاستقلالية • وهكذا تبين اخفاق اصلاحات 1947 بصورة كلية • فالحكم المباشر كان متمكنا من انفس الموظفين الفرنسيين الى درجة ان المستشارين وضعوا الوزراء تحت نفوذهم ، ولم يراعوا الظواهر على الاقل •

ولم يكن الراى العام التونسي لمصطفى الكعاك تواطؤه مع السلطات الفرنسية وقيامه بتجربة وزارية لم تكن في الواقع الا صورة مزيفة من الاستقلال الوزارى • وصاح الجمهور ضده حتى في المسجد الذى دخله محفوفا باعوان الشرطة • كما ان الباى كان يعامله باحتقار • وما انفكت الصحافة تطالب باستقالته • وساعدت الظروف دعاية الحزب الدستورى الجديد الذى ارتكز على مؤسسات شبيهة بالسياسة كالكشافة والاتحاد النسائي الاسلامى •

وفي جوان 1949 اجتمع عدد من الدستوريين من مختلف المشارب لمناقشة مقدمة تحدد المبادئ العامة لمشروع دستور تونسي في خمسة عشر فصلا • وبعد مناقشة دامت ثلاث ساعات ونصف حول الفصول الثلاثة الاولى، تحصل الاستاذ صالح بن يوسف على الموافقة على « ان الدولة التونسية تكون دولة ملكية دستورية ديموقراطية » ، وان السيادة القومية رمزها جلالة الباى ومصدرها الامة التونسية الممثلة في مجلس قومى ، وان كل شخص يحمل الجنسية التونسية « يعتبر مواطنا تونسيا من رعايا جلالة الباى » (8)

8) جريدة « تونس » : في 15 جوان 1949 •

وهكذا يحيى الدستور سنة عهد الامان ، فيلغى المبدا الشرقى « الاوتوقراطى » للملكية المطلقة المرتكزة على اساس ديني ، ويقبل مبدا « الملكية الدستورية الديموقراطية » بدون ان يضبط العلاقة بين الحكومة والمجلس النيابى ·

عودة الحبيب بورقيبة

لقد بعث رجوع الحبيب بورقيبة في سبتمبر 1949 نشاطا جديدا بعد ان جاب سفير الحركة الوطنية التونسية آفاق العالم طيلة اربع سنوات ونصف · وقد صقلت ذهنه الاتصالات برجالات السياسة في الشرق والغرب · وهو مع المحافظة على مبداه كاملا قد عرف كيف تقدر امكانيات العمل بصورة ادق واثبت · وانجرت له من تجربته بالقاهرة فوائد جمة · ولعل اندفاعه العاطفى كان يتالم اشد التالم لما لمس الحقائق المصرية · فالخلافات القائمة بين اعضاء مكتب المغرب العربي وعداوة الحزب الدستوري القديم التي لحقته ونالت منه بعض الشيء ، وانتصار العناصر المغربية التي يمثلها علال الفاسي وعبد الكريم ، والمناورات الجارية بالجامعة العربية ، كل ذلك حمله على الاحتفاظ بالطابع التونسي الخاص للحركة الوطنية عوض ان يربط مصيرها بمصير الوحدة العربية · كما ان ما شاهده من عيوب ببلاط الملك فاروق ، ومن بؤس الفلاحين بوادي النيل الذين يغبط معظمهم حالة الفلاحين المستعمرين بتونس ، ومن فوارق بين الثقافة الازهرية العتيقة والثقافة التي كرع من مناهلها في جامعات فرنسا ، كل هاته العوامل جعلته يفكر بصورة مجدية ناجعة · فهو هاجر تونس زعيما لحزب سياسي ، ورجع اليها رجل دولة · وقد كان حلوله بتونس في خضم من حماس شعبي صاخب بين انه لم يفقد شيئا من شعبيته · فطيلة السبعة اشهر التي جاب اثناءها البلاد طولا وعرضا ، ما عدا مناطق الجنوب التي حجر عليه دخولها ، وجد نفس الاقبال ونفس الحماس · واتضح انه اكفا متكلم باسم الراى العام التونسي ·

لا وجود لسياسة تونسية

لقد اقتنع « مونص » بصورة باتة بان مشروع الاصلاحات الذي ورثه عن الجنرال « ماست » لا يتماشى والوضعية الراهنة · وكان يود ان يستانف السير الى الامام بعد سنتين من الركود · وقد طلب منه الامين باى بمناسبة عيد الفطر « ادخال اصلاحات جوهرية ضرورية حرية بان ترضى رغبات كافة سكان مملكتنا » (27 جويلية 1949) · وزاد الباى تمسكا بفكرته عندما

راسل رئيس الجمهورية في 21 افريل 1950 بأنه « يخشى ان تؤول مظاهر الملل السائـدة في الشعب التونسي الى يـاس من شانـه ان يثير مـا نـود اجتنابه » (9) واكد الاقتبال الفاتر الذي وجـده الملك بالقيروان وسوسـة (افريل ـ ماي 1950) وكذلك المظاهرات العدائية الموجهة ضد وزارة الكعاك ، انه ، بعدما اصبح ملكا شرعيا ، تسلم نبراس المنصف باي السياسي وانه لن يغير ذلك الموقف الذي قربه من شعبه ·

لكن مجهودات « مونص » قضت عليها بالاخفاق كل من باريس وتونس في آن واحد · فرئيس الحكومة « جورج بيدو » ، الاستاذ الالمعي المبرز في التاريخ ، لم يحد عن المعلومات التقليدية التي تلقاها في شبابه اثناء تعلمه· ويتاسف كثير من اصدقائه السياسيين لبقائه اصم تجاه رغبات الشعـوب المستعمرة · وتمنعه وطنيته المتاججة التي نمت وترعرعت في كفاح المقاومة الفرنسية من قبول مطالب الاستقلال الذاتي ، اذا ما وجهت هاته المطالب الى فرنسا · وكان وزير الخارجية روبار شومان على عكس ذلك ، فانه استوعب جميع اوجه المشكلة من الناحيتين الانسانية والسياسية ، ولكن انهماكه في مشاكل اروبا لم يمكنه لا من الوقت اللازم ولا من العزيمة اللازمـة لاقـناع زملائه ولفرض ارادته على مصالح وزارته ·

ان الادارة الفرعية للحمايات بوزارة الخارجية هي التي تقرر في آخر الامر السياسة التونسية والمغربية ، وبالاحرى هي التي تعارض في وجود سياسة ما · وهي عامرة بموظفين بدأوا حياتهم الادارية بشمال افريقيا حيث دعـموا نزعتهم الصناعية المحافظة بمباشرتهم السلطة · فلم يكن في وسعها ان تبتكر اساليب اخرى غير اساليب الماضي ، تلك الاساليب التي اتت بنتائجها حسب ما يصرح به ابرز ممثليها · وهي مع عجزها عن اعطـاء تعليمـات مدققـة الى المقيمين العامين الذين ما انفكوا يدقون جرس الانذار بدون جدوى ، تتفنن في التشهير بغلطات القواد العسكريين والولاة المدنيين الذين يعتبرهم رجال السلك الديبلوماسي بمثابة دخلاء غاصبين ·

كان « مونص » المتخرج من صف الولاة المدنيين والمحمول على الاشتراكيـة موصوما هكذا بوصمتين اثنتين لن تمحيا · لذلك كان عليه الا يعول الا على نفسه · ولم يظفر بالتاييد الذي كان في حاجة اليه من كاتبه العام المعـروف

9) نشرت النص جريدة « لادبيش تونزيان » (الرسالة التونسية) في 23 جانفي 1952 ·

بنشاطه المتزايد وكده والمؤمن برسالته • ولم تطب نفس علية الموظفين الفرنسيين للاصلاحات التي قد تحد من سلطتهم • واخيرا شهرت الصحافة الفرنسية بتونس ، وهي تعبر عن آراء المتفوقين تعبيرا صادقا ، بضعف المقيم العام وإبوبال مشاريعه الاصلاحية المتعلقة باداة الحكم بالوظيفة العمومية وبالبلديات ، واعتبرتها ثورية هدامة رغم تواضعها •

الشيوعيون والاشتراكيون يناصرون الاستقلال

ولقد اتخذ الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي مواقف تؤيد قضية استقلال تونس • فاما الحزب الشيوعي فساهم مساهمة نشيطة في كافة حركات المطالبة الشغيلة بمساعدته الاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي الذى يسيطر عليه • وطالب باصلاحات اجتماعية وبادخال نظام ديموقراطي على الضرائب وتعميم اللغة القومية اى العربية في كافة درجات التعليم • وهو يجزم بانه « اذا اراد الشعب التونسي ان يتحرر من ربقة الاستعمار فلا يستطيع ان يعول على الولايات المتحدة الامريكية ، وهي تؤازر احيانا الاستعمار الفرنسي مؤازرة متينة ، وهو بدوره يساعد على تدخلها الاقتصادى والسياسي والاستراتيجي في تونس ، مثلما جرى في الجزائر وفي المغرب الاقصى • كما انه لا يجوز للشعب التونسي الاعتماد على مفاوضات مع المسؤولين عن السياسة الفرنسية تفضي حتما الى حل وسط خطير وللشعب التونسي بدون شك حلفاء لهم ثمنهم في الحركة الديموقراطية العالمية وفي الطبقة الشغيلة الفرنسية الخاضعة الى استغلال نفس اصحاب رؤوس الاموال (10) لكن يتحتم عليه قبل كل شيء ان يعزز كفاحه الخاص في ارض بلاده من اجل الحرية،ذلك الكفاح الذى لا يمكن ان ينفصل عن كفاح كافة الشعوب من اجل السلم العالمية المهددة • وهكذا يبذل الحزب الشيوعي مجهوداته لتوحيد قوى الامة السليمة حول برنامج اعمال ملموسة ضد الاستعمار • » (11)

واعترضت هاته الرغبة في التوحيد بالبلاد التونسية ظروف عسيرة نظرا لمعارضة عناصر الحزب الدستوري الجديد والنقابات • وكان الحبيب بورقيبة واصدقاؤه يؤكدون المرار العديدة عزمهم على ابقاء حزبهم بعيدا عن كل تواطؤ وبين الاتحاد العام التونسي للشغل مدى ما يعيره من القيمة لتبليغ صوته الى

---

10) لاحظ المؤلف ان « موريس طوريز » صرح في افريل 1950 في المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي الفرنسي بان حزبه عازم على « مساندة كفاح الشعوب الافريقية في سبيل حريتهم واستقلالهم مساندة عملية »

11) « صباغ » ، تونس ، ص 222 •

الراى العام الامريكي بانسلاخه عن الجامعة النقابية العالمية F. S. M. حيث تسيطر العناصر الشيوعية بانخراطه فى الجامعــة العالميــة للنقابــات الحــرة C. I. S. L. بمعية النقابتين الامريكيتين الشغيلتين C.I.O. - A.F.L. ولم يكن الاضطهاد الذى لحق الحركة الوطنية منذ سنة 1952 الا ليزيد صبغتها المستقلة وضوحا • ولم تكن المحاولات الرامية لادماج الدستوريين والشيوعيين فى صعيد واحد امام الراى العام ترتكز على اى اساس •

واما الجامعة الاشتراكية فقد تعلقت همتها الى سنة 1949 بوضــع برنامــج للاصلاحات الرئيسية التى يجب اجراؤها بتونس فــى الميــدان السياســى والاقتصادى والاجتماعى ، وقد زكاه المجلس القومى للحزب الاشتراكى فــى مارس 1947 • وبعد خيبة وزارة الكعاك وتاييد الرغبات القومية التونسية ، شرعت فى مراجعة موقفها ، مثلما فعلت بعد الحرب العالميــة الاولى • فاعلــن مؤتمر ديسمبر 1949 « ان للبلاد التونسية مكانا مرسوما يتمثل فى وضعيــة دولة مشاركة تسير بها فى مراحل سريعة الى الاستقــلال ضمــن مجموعــة تتالف حول فرنسا » • واعترف هذا المؤتمر بان صيغة تطبيق وضعية الدولة المشاركة « التى يجب ان تحل محل نظام الحماية البالى » ينبغــى ان تضبــط « فى معاهدة تبرم بكامل الحرية بين الطرفين فيتمكن التونسيون بفضلها من مباشرة تسيير شؤونهم بصورة ديموقراطية حقيقية ، تدريجيا بسرعة » •

ان هاته اللائحة التى وافق عليها فى ماى 1950 المؤتمــر القومــى الثانــى والاربعون بعد ان ضبط بصورة مرضية تعاقب المراحل المفضية الى الغاء الحماية تسجل اجرا موقف ايجابى اتخذه الحزب الاشتراكى فى المسائل الاستعمارية• ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الاستقلال يعتبر هدفا خياليا بل خاتمة تطور محدود الامد من المتحتم تقدير مراحله المتوالية • وهو يرتبط بضروريات ديمقراطية وتحقيق اشتراك تونسى فرنسى لا يمكن ان يقام الا على التكافل • وقد اثارت هاته اللائحة احتجاجات عنيفة فى الجالية الفرنسية ، وحتى فى بعض عناصر الحزب الاشتراكى ، وزادت آمال التونسيين وثوقا • وهكذا احتفظت جامعة تونس الاشتراكية ، المتركبة بالخصوص من الاطارات ، بنفوذ لا يتناسب مــع ضآلة عدد منخرطيها •

الحبيب بورقيبة يصدر بيانا فى 7 نقط

وسعيا وراء التاثير على الحكومة بطريقة غير مباشــرة ، وذلــك بالاتصــال برجالات السياسة ، سافر الحبيب بورقيبة الى باريس للدفاع عن قضية المطالب

التونسية . وفي 14 افريل سلم لوكالة الانباء الفرنسية بيانا في سبع نقط يحوصل تلك المطالب وهي : بعث السلطة التنفيذية التونسية المؤتمنة على السيادة التونسية ، تشكيل حكومة تونسية منسجمة مسؤولة عن الامن العام يراسها وزير اول تونسي يعينه الملك ، الغاء الكتابة العامة ، الغاء المراقبين المدنيين ، حذف قوات الجندرمة الفرنسية ، انشاء بلديات منتخبة ، انشاء مجلس قومي ينتخب بالاقتراع العام ، وتكون اول مهامه وضع دستور ديموقراطي يحدد العلاقات الفرنسية التونسية المقبلة على اساس احترام مصالح فرنسا المشروعة وكذلك في كنف احترام السيادة التونسية . وختم زعيم الحزب الدستوري الجديد بيانه مؤكدا ضرورة التعاون الفرنسي التونسي وما ينشا من الخطر عن رفض هاته الطلبات الذي قد يفتح عهدا ملؤه الاخطار والاضطرابات ، لا يكون سواء لفرنسا او لتونس ان تبتهج به ، والذي لا يمكن للدول المهتمة بانشاء سلم حقيقية في هاته الرقعة من عالم البحر الابيض المتوسط ان تبقى غير مكترثة به » .

وقد وجه « المجاهد الاكبر » اثناء اقامته بباريس الى نائب لجنة المغرب بالولايات المتحدة ، العابد بوحافه ، الرسالتين اللتين كشفت عنهما جريدة « لوفيقارو » في 5 افريل 1952 (12) ففي خطابه الى شخص متطرف لم يكن ينتمي الى الحزب الدستوري الجديد وقام باعمال كانت محل استنكاره ، حاول الحبيب بورقيبة تبرير سياسة السبع نقط التي رميت بالانتهازية بينما هي تتضمن الاعتراف بالاستقلال . « زد على ذلك ان بعض الفرنسيين امثال « ش . أ . جوليان » الخ ... يعترفون بان معاهدة باردو واتفاقية المرسي اصبحتا غير ذات موضوع وتجاوزتها الظروف تجاوزا شاسعا » فالاقتراب من ذلك الهدف يقترح برنامجا عوضته الجريدة بعبارة « ستة اسطر ناقصة » ، وهي لعمري مصادفة غريبة يؤسف لها الى اقصى حد .

ومهما يكن القبول الذي ستحظى به السبع نقط « فلا خسارة لنا في عرض برنامج معتدل قد يمكننا من كشف نوايا فرنسا ، ومن تحقيق اجماع الشعب وتاييد الملك ، ومن كسب قسم عظيم من الفكر العام الفرنسي علاوة على الراي العام الدولي (عربا ومسلمين وانقلو سكسون الخ ...) ولا يغفل زعيم الحزب الدستوري الجديد عن امكانية مقاومة مسلحة « فيما اذا تعنتت فرنسا في رفض كل اتفاق مشرف يشتمل على فوائد مرضية ، وهو ما

(12) رسالتان بتاريخ 23 ماي و 5 جويلية 1950 في الفيقارو بتاريخ 5 افريل 1952 .

يتوقع بكل اسف • فانني موقن بان منظمة الامم المتحدة لا تنظر في القضية التونسية الا عند نشوب اضطرابات خطيرة بالبلاد التونسية »

اما الرسالة المؤرخة في 5 جويلية 1950 فهي بقدر ما يكون النص المنشور مطابقا للاصل تعطي حتى برنامج تنظيم جماعي ، وتنازلا لتطرف العابد بوحافة تناقش شروط تموين المقاومين بالاسلحة • ويابى الحبيب بورقيبة كل تحالف مع الحزب الدستوري القديم المتركب من « شرذمة يغلب عليها الحسد والحقد » ، وهي دائما متاهبة للتطرف اللفظي ، لكنها عاجزة عن العمل المفيد الناجع ، والاقامة العامة تصانعها • ولم يذكر في وقت من الاوقات مسالة المساعدة الشيوعية بل بالعكس تعرض لمساعدة وزارة الخارجية الامريكية التي يجب على بوحافة ان يقوم بمساع لديها « للضغط على فرنسا حتى تقبل الاتفاق الذي نعرضه عليها والذي لا يمس باية حال مصالحها الاساسية بتونس ، ومن باب اولى واحرى مصالح دول الكتلة الاطلسية • »

فان موقف زعيم الحزب الدستوري الجديد واضح صريح : بذل جميع المجهودات للتحصيل على اتفاق بالطرق الديبلوماسية ، وعند اخفاقها القيام بكفاح من اجل الاستقلال بجميع الوسائل ولو بالثورة المسلحة ، وهو ما اكده مرة ثانية من منفاه بطبرقة في فيفري 1952 ، فقال : « ان المستعمرين المتمنتين سيقولون لكم ان الاستقلال الداخلي بهذا المعنى سيؤول حتما الى الاستقلال التام • نعم ، هذا صحيح ، ولئلا تفاجئنا الاحداث يتحتم علينا ان نعالج كافة المشاكل من الآن وان نعد الحلول الحاسمة والمراحل النهائية • ان المسألة ليست مسألة اختيار بين استقلال تونس والادارة الاستعمارية • وانما الاختيار هو بين استقلال تشرف عليه فرنسا وتوجهه حتى يبقى تعاونا حرا بين الطرفين ويحفظ مصالح فرنسا والعالم الحر الاساسية ، وهو امر مازال ميسورا تتمناه اغلبية التونسيين الساحقة ، واستقلال يفتك عنوة بعد كفاح عنيف في الدماء المراقة والاحقاد المتاججة ، بمساندة اجنبية تدفع بتونس نحو كتل اخرى قوامها النزاعات الدينية او العنصرية وتكون اقل استعدادا نحو فرنسا » (13) • ذلك هو نفس العرض المزدوج الذي كان قدمه كافة الزعماء الوطنيين ، امثال الباندیت نهرو ، الى الدول المستعمرة المعارضة للاصلاحات الجوهرية •

---

(13) الحبيب بورقيبة — « المشكل الفرنسي التونسي » في جريدة « ليطان مودرن » العصور الحاضرة)

تدخل « ش ـ أ · جوليان »

فكان من المتحتم ، في الوقت الذى وضعت فيه مسالة اختيار الوسائل ، ان يقع درس الروح التي تسمح بالبحث عن الحل والطرق المؤدية له · وهو ما قام به « ش · أ · جوليان » في رسالة الى جريدة « لوموند » (العالم) اثارت تعاليق عديدة بفرنسا وبشمال افريقيا وفي الخارج (14) · فيلاحظ صاحب الرسالة انه من الصعب على غالب رجالنا السياسيين التخلص من نظريات ما قبل الحرب ، وانهم لم يدركوا بعد ان الظروف السياسية قد تجاوزت معاهدة باردو واتفاقية المرسى ، وان احتفظنا بقيمتهما القانونية « وانه لا يمكن التشبث دائما بنصوص مضت عليها سبعون سنة في حين ان العالم الاسلامي في تطور كامل شامل · ثم لفت النظر الى عجز الحكومات على وضع المشكلة التونسية في نطاق سياسة الاتحاد الفرنسي ، لان « هاته السياسة لم توجد بعد » ويختتم رسالته قائلا : « ليست المسالة ان نعرف هل ان تونس داخلة في الاتحاد الفرنسي كدولة مشاركة ام لا ـ والراى عندى انه من المؤسف استشارة رجال القانون الرسميين التابعين لوزارة الخارجية ـ ولكن المسالة هي ان نعرف هل ان المعاهدات التي تربطنا بها تتفق مع ما يفرضه الوضع الحاضر · فاذا ما ايقنا ان تلك المعاهدات اصبحت لا تتفق والحالة الراهنة واني شخصيا على اشد الاقتناع بذلك ـ فعلينا ان لا نترك التنازلات تفتك منا الواحدة تلو الاخرى بدون ان تكون لنا حتى مزية منحها ، وعلينا ان لا نجيب المطالب بعمليات بوليسية ، بل لنبادر بكامل الصراحة بتعديل المعاهدات في جو خال من كل ضغط محلي او دولي · وليس لي أن استعرض هنا كيف يمكن للاتفاق ان يحصل · واني اعتقد من جهتي ان هذا الاتفاق متيسر الحصول عليه حاليا · فهل لا تعد فرنسا رجل دولة او سفيرا ماهرا ، له ما « للورد ماونتباتن » بالهند من الكفاءة ، ليضطلع بمهمة ثقيلة تكون عواقبها بعيدة المدى بالنسبة لمستقبل الاتحاد الفرنسي ؟ لقد دقت الساعة التي يجب ان نتغلب فيها على القدر · فهل نترك الفرصة تفوت مرة اخرى ؟ » ·

واجتمعت اللجنة المركزية لفرنسا ما وراء البحار للنظر في تلك الرسالة · واجابت عنها بلسان رئيسها فرانسوا شارل رو » سفير فرنسا (15) · فاكد انه يتحتم « على الرجال السياسيين ان يعملوا لئلا تتعرض قيم الحضارة التي ادخلتها فرنسا بتونس للخطر ، ولئلا ينشا عنها تقهقر البلاد التونسية

---

14) 19 افريل 1950 ·

15) « لوموند » (العالم) ـ في 5 ماى 1950 ·

وتأخرها » • ويكفي ان ينظر الانسان « الى الاحداث الجارية في بلدان اخرى محررة من كل رقابة » • وعلاوة على ذلك ، الم يكن هنالك تناقض في تشجيع الحركات الوطنية بافريقيا في الوقت الذي تؤخذ فيه مواقف معاكسة باوروبا ؟ فمن الغرور ان يظن المرء ان في وسع الحركة الوطنية ان تقاوم الشيوعية ، وينبغي ان لا تحجب حملة مطالبة عنيفة الحقائق التونسية عن انظار فرنسا • « ويرى عدد كبير من الفرنسيين ان رفض التونسيين الانخراط في الاتحاد الفرنسي يدخل على نواياهم ريبا يتولد عنه عدم الثقة ••• » •

وهنالك رسالة وجيزة ارسلها « بيار ديمولان دولا بلانت » بعد رحلة طويلة قام بها في ربوع الشرق الاقصى تعطي نغمة غير منتظرة • فهو يعترف بان رسالة « ش • أ • جوليان » كانت تثير غضبه واستياءه قبل بضعة اشهر ، ولكنه بعد ما شاهد « في اندونيسيا تضارب سياسة هولندا ، وهي تستعمل القوة ، ثم تقلع عنها تحت تاثير الضغط الدولي ثم ترجع اليها ، واخيرا تخسر الصفقة » اصبح يشاطر م • جوليان ؛ اراءه في تأكد سياسة ذات مبادرة وجراة حتى تجتنب مثل هاته الكوارث في شمال افريقيا » (16) •

وكأن الراي العام امام نظريتين متعارضتين لا سبيل للتوفيق بينهما ، فمن جهة اقتراح يرمي لابرام اتفاق على اسس جديدة بدون الاستسلام لا للتاثر الاعمى بمعاهدات بالية تجاوزتها الظروف ولا للانجرار الى مساومات في الجزئيات او الى استعمال وسائل القوة ، ومن جهة اخرى مشاهدة عمل فرنسا التمديني بالابتهاج والرضا وعقد العزم على ابقاء الوصاية في مصلحة المحجور نفسه الذي يخشى منه التفريط في تراثه وعلى ادخال تونس في اطار الاتحاد الفرنسي القانوني بدون مراعاة لتماشي بعض الواجبات التي فرضها دستور 1946 المقرر من جانب البرلمان الفرنسي بمفرده ، مع مقتضيات دول مطلقة التصرف وذات صبغة دينية •

راي الفرنسيين بتونس

واتى عضو مجلس الشيوخ الفرنسي « كولونا » بوجهة نظر الفرنسيين بالبلاد التونسية في هذا النقاش (17) • وقد ذكر ان عددهم يبلغ المائة

16) « لوموند » في 20 افريل 1950 • راجع حوصلة تلك المجادلة بالرسالات « لفرانسيس جانصون » ، « مفكرة تونسية » في مجلة « اسبري » (الفكر) – فيفري 1951 ص 291/292 •
17) جريدة « لوموند » – 5 ماي 1950

والخمسين الفا » وهم مستقرون منذ اجيال عدة بالبلاد التونسية » حيث « انشأوا خلية اقليمية فرنسية حقيقية » • وهم يرون « انه يجب على اشتراك السيادتين التونسية والفرنسية ان يحتفظ بكامل توازنه فى تساكن قسمى السكان على اديم تونس تساكنا متساويا » • فلا ينبغي ان تخفى « البيانات بعض الضرورات القومية او بعض ما يفرضه واجب التضامن القومى » • وعلى كل فمن الممكن في نطاق المعاهدات المقدوح فيها عن غير حق « اجراء سياسة جريئة تعطى السكان التونسيين ترضيات ذات بال ، بدون ان تمس مراكز فرنسا الاساسية » •

وهكذا يمسك « انطوان كولونا » عن تقديم اى اقتراح ايجابى على غرار «شارل رو » • فما هى حينئذ «السياسة الجريئة» التى يقترحها «السيناتور» يا ترى ؟ يمكن ان تكون لانفسنا فكرة دقيقة عنها من التقرير الضخم الذى لم ينشر ، وقد قدمه فى 25 ماى 1950 الى الرئيس « شومان » الاحد عشر عضوا المتركب منهم « وفد الجالية الفرنسية بالايالة التونسية الى باريس » ، وكان على رأسهم « كولونا » نفسه • فيستعرض الوفد باسهاب مساوى الحزب الدستورى الجديد ومواطن ضعف المقيم العام وفقدانه لكرامته وتقلب التونسيين المتهمين بمداراة المتطرفين الذين تزداد جرأتهم بقدر ما تضعف السلطة • « والظاهر ان فرنسا فقدت احترام كافة السكان التونسيين وثقتهم لدرجة جعلت من المستحيل العثور ، حتى من بين ممثلى السلطات العامة ، على تونسي واحد يجرأ على التصريح علانية بتعلقه بالدولة الحامية » •

فكيف يمكن تلافى هذا الانحطاط ؟ « ان اولى الاجراءات المتحتم اتخاذها يمكن التعريف بها بايجاز : ينبغى بعث النفوذ الفرنسي فى تونس ، واننا نكرر انه ليس هناك امر آخر الآن ، والا حدث اسوأ ما يتوقع من الاحداث اذا ، بعدا لتلك الاصلاحات التى لا يكون مفعولها الا زيادة الازمة تعكرا » • ولنقتنع اذا بأن مفتاح المشكلة ليس فى ما تعودناه من التنازل ، والذى يتفاقم سوء عاقبته على ممر الايام • لا ، ان التونسيين الذين ما زالوا يضمرون لنا الحب في حاجة لا تقبل التاجيل الى بروز القوة الفرنسية فى هدوء وامن ، ولكن بصورة ملموسة • واذا كانت هناك تحسينات اخرى يرغب ادخالها على وضعية الايالة ، فانها تاتي فيما بعد تحت شعار الهيبة الفرنسية المسترجعة وبعد عودة الهدوء الذى يتيح التفكير الكافى لتقديم حلول امعن النظر فيها » •

وبما انه يجب مقابلة المطالب الدستورية ببرنامج ، فقد حصره الوفد الفرنسي في ست نقط دون برنامج بورقيبة بنقطة واحدة : « ففيما يخص الباي ، مطالبته في لهجة لطيفة ولكنها حازمة ، بان يحترم على غرار اسلافه جميع اختصاصات الدولة الحامية » كما تضبطها لا المعاهدات فقط بل النصوص التابعة لها ايضا ، « ابقاء الحزب الدستوري الجديد في وضعه غير الشرعي » ، وهو الذي اعيد تنظيمه تحت حماية العدو ، « فتح تتبع عدلي ، مع شد الوثاق على الاشخاص ، ضد مسيري الحزب الدستوري الجديد ورؤساء المائة والخمسة والعشرين شعبة دستورية المنبثة في الايالة بتهمة اعادة انشاء حزب وقع حله » ، وهذا لا يمنع من فتح تتبع عدلي آخر بتهمة « التحريض على التباغض بين الاجناس » واجراء « تتبعات بتهمة التآمر على امن الدولة »، وذلك بالالتجاء الى المحاكم الفرنسية كما جرى سنة 1924 ، « ارجاع الرقابة على الصحافة » ، وهو « احتياط طبيعي » في عهد حالة الحصار ، « حل الاتحاد العام التونسي للشغل » لنفس الاسباب المتعلقة بالحزب الدستوري ، واخيرا « عزل الموظفين المباشرين لسلطة او نفوذ ما الذين انخرطوا في الدستور الجديد بعد اعادة تنظيمه ، او الذين ساعدوا بصورة واضحة عمله الثوري » وارجاع النفوذ الفرنسي على هذا المنوال « لا ينبغي ان يتبع باي تجديد لبعض المدة ، فهو وحده الكفيل بان يضع الاشخاص والاشياء في المكان اللائق بها » .

ولا يستطيع الانسان ان ينكر على «كولونا» ان مثل هاته السياسة لا تخلو من الجراة . فارجاء اصلاحات جزئية يجب منحها الى ظروف احسن وبعيدة الاجل ، وتذكير الباي بفروض الطاعة ، والقضاء على صحف المعارضة ، والقيام بعملية تطهير ادارية منظمة والزج بالزعماء السياسيين والنقابيين التونسيين الذين لا يشاطرون المعمرين تفكيرهم في غياهب السجون ، قد يكفي ذلك لارجاع النفوذ وحل جميع المشاكل . « ان انجاز هاته النقط الستة لسهل » حسبما اكده الوفد الفرنسي « وهو سيغير الجو في الايالة تغييرا جوهريا » . ولا جدال في ان الامور جرت على ذلك المنوال بعد الاضطهاد المنظم الذي قام به « دو هوتكلوك » بطلب من المتفوقين ، لكن التغيير الجوهري في الجو لم يكن في الاتجاه الذي يتوقعوه .

وللتفصي من سلسلة جديدة من الاصلاحات وقع الالتجاء الى الوسائل الكبرى المتمثلة في نزول اكبر قوة مالية في الجزائر الى الميدان ، تلك القوة التي لا يسع الحزب الراديكالي ان يرفض لها اي طلب . فتراس « هانري بورجو »

وقد الفرنسيين بتونس لدى ئيس الحكومـة « هانرى كاى » ولم تكن مخاوف الرادكاليين تخص الحالة فـى تونس فحسب بل فـى « عموم بلاد شمـال افريقيا »(18) • وكاتق عضو مجلس الشيوخ الفرنسى لمدينة الجزائر فى طليعة كافة المعمرين بشمال افريقيا المعارضين للاصلاحـات • امـا راى الجنـرال « جوان » المقيم العام بالمغرب الاقصى فهو معروف عند الحكومة : لا تنـازل فى شىء ، نظراً لخطر العدوى (19) • وقد طمن « كاى » مخاطبيه بعد الفشل الذى تطرقهم ، والحق يقال ، اثـر الاتصـالات التى اقاموا بهـا مع كثير من الوزراء » (20) ومن ذلك الحين لم يقـل اندفاع الراديكاليين لابقاء الحالـة الراهنـة ولاتخاذ اجراءات تعسفية حتى عن الدفاع اعضـاء تجمع الشعب الفرنسى (R.P.F.).

المقيم العام « لوى بريلييى »

لقد كان الخطر الاشتراكي على الحكومة الفرنسية اقل جسامة من الخطر الراديكالى فـى الوقت الذى كانت فيـه مشكلة اصلاح نظـام الانتخابات على بساط الدرس • فقرر « ج • بيدو » ان يغير مركبه قبل اجتياز الممر فالتجىء لتعويض « مـونص » لا بعسكرى ثان كما طلبـه الرادكاليون الذين اقترحوا الجنـرال « كونيق » ولكن « للوييى بريليبيـى » الوالى من الرتبة العالية للمقاطعة التى ينتمى اليها وزير الخارجية ، وقد تمكن هذا الاخير من اختيار مهارتهومرونته (31 ماى) • وان المواقف الصريحة التى اتخذها الحبيب بورقيبة والطاهر بن عمار والنداءات الملحة التى وجهها الاشتراكيون وقسم من اعضاء الحركة الشعبية الجمهورية ((M.R.P.)) كانت تستوجب القيام بشىء ما » •

لقد ظن بعضهم انه حصل الاتجـاه فى طريق الجراة عن روية ، على اثـر التصريح الذى ادلى به « روبار شومـان » اثناء المادبة التى اقامهـا المقيم العام الجديد ، بمدينة « تيونفيل » (Thionville) الفرنسية على شرف نواب مقاطعات ما وراء البحار بالبرلمان وقد قال : ستكون مهمة « م • بريلييى » فى نطاق وظيفته الجديدة ان يتفهم البلاد التونسية وان يسير بها فى طريق ازدهار

18) « لوموند » فى غرة جوان 1950 •
19) « مسود » ــ فـى « لوموند » 7 و 8 ماى 1950 = « كل تنـازل فى تونس يكون له صداه وتاثيره فى غربيها ، ولو ظهر محليا انه من الهام الحكمة »
20) ــ جريدة « لادبيش كوتيديان دالجيرى » غرة جوان 1950 •

ثروتها ازدهارا تاما ، وان يقودها نحو الاستقلال الذى هو الهدف النهائى لكافة المناطق داخل الاتحاد الفرنسى • ولكن لا بد من آجال ، وان كان النجاح حليف هذا المشروع تكون فرنسا قد قامت مرة اخرى برسالتها التمدينية خلال تاريخها الحافل الطويل • (10 جوان) (21) « فالسير نحو الحكم الذاتى فى مراحل محددة ذلك هو نفس اساس المطالب التونسية • وبالرغم من البيان الشبيه بالرسمى الذى اعطي من تصريحات الوزير رواية افرغتها من روحها (22) ، فان خطاب « تيونفيل » الذى كان يعبر بدون شك عن اراء « روبار شومان » الحقيقية ، بقيت له اهميته • فهو عبارة عن التزام ادبى ، وكل تحديد فى تطبيقه يعتبر نكثا للعهود •

وبمجرد حلوله بتونس حاملا معه مشروع اصلاحات « مونص » ، مثل ما حمل هذا الاخير اصلاحات الجنرال « ماست » ، اعلن المقيم الجديد عن طريق الاذاعة في 13 جوان عن اجراءات تتعلق بتحوير نظام الحكومة التونسية وتوسيع نطاق مشاركة التونسيين فى الوظيفة العمومية وانشاء نظام بلدى على اساس ديمقراطى • « وقد اقتنعت الحكومة الفرنسية بان تركيب الحكومة التونسية وسيرها على النظام الذى ادخل عليها سنة 1947 يتطلب عدة تحويرات ذات اهمية ترمى لتعزيز شخصيتها وتنمية وسائل عملها ، حتى تصبح الاداة اكثر صلاحية لتسيير شؤون البلاد التونسية فقط بل كذلك آلة للسير بمؤسساتها فى طريق التقدم والرقى » • وهو يعترف انه ينبغى ان تسير البلاد التونسية « بواسطة تحويرات تاسيسية تدريجية نحو استقلال داخلى » ••• ولكن فلسفة هذا الخطاب السياسى كانت مستوحاة بصورة غريبة من « الحجج التى قدمها سابقا م • « شارل رو » فى رسالته الى جريدة « لوموند » (23) فان المقيم يبين ان « القومية اصبحت فكرة بالية ، وبالتالي متاخرة » • وحذر التونسيين من عدم اتزانهم : « فاذا ما دخلت البلاد فى اضطرابات يقوم الدليل على انها لم تبلغ بعد النضج اللازم لهضم ما وقع الاعلان عنه من تطور ، وتصبح كل مرحلة جديدة حينئذ مهددة » •

ولم تبرز الاصلاحات المعلن عنها الى الوجود ، ولم يكن « بريلييى » ليتاسف لرفض التونسيين لها • وكان من طبقة اولئك المفاوضين الذين يعتقدون ان

21) فى جريدتى « لابراس » « لوبتى ماتان » (الفجر) ـ تونس 11 جوان 1950 •

22) «لوموند » فى 13 جوان 1950 ـ الاستقلال لا يمكن ان يتعلق الا ببلاد ما وراء البحار» اما فى خصوص تونس فان المسالة ليست بعينها ، فهنالك عقد اتفاق خاص ومشكلة خاصة •

23) مجلة « اسبرى » (الفكر) ـ فيفرى 1951 ـ ص 296 •

ربح الوقت هو غاية المنى في المهارة السياسية ، وانه من اليسير ارضاء كافة مخلوقات الله بـالـلعب بين قطع الوعود وافشاء الاسرار واظهـار التحفظات ، لذلك انطلق مثـل وزراء « لليبوت » (Lilliput) يرقص علـى حبل لم يمنعه براعته من السقوط منه في نهاية الامر •

فبمجرد الاعلان عن الاصلاحات تسبب في نشوب المعركة • وشاهد بريلييي في مكتبه وفودا من اعضاء المجلس الكبير والمعمرين والموظفين واعضاء التجمع وحتى من الاجـانب ، مطالبة بابقاء الحالـة الراهنـة المرتكزة على السيـادة المزدوجة • ولم يكن كل من قصر الجمهورية الفرنسية ورئاسة الوزراء ووزارة الخارجية ليواجه هجمـات اقل عنفا • وامام فشـل هاته المحاولات ، استقال المقيم الفرنسي للمجلس الكبيـر فـي 10 جويلية ، الامر الذى قابلـه القسم التونسي بنشر مذكرة قدمها رئيسه الى وزارة الخارجية ويقول فيها : « لم يقع بذل اى مجهود لارضـاء اقدم مطلب تونسـي وهو : منح دستـور لا يكون الا اقرارا للمبادى التي اعلنت عنها فرنسا بتونس » •

وزارة محمد شنيـــق

ان جوا كهذا لا سبيل الى ان يساعد على المفاوضات • بيد انها استؤنفـت بفضل التصريحات التى أفضى بها « روبار شومان » امام مجلس الجمهورية فـي جويلية عن تحتم الاصلاحـات والتمسـك بالقرارات التى اتخذتهـا الحكومة واستحالة الاستمرار على الادارة المباشرة • وكان « بريلييي » قد اتصل بعد بصالح بن يوسف قبل سفره الى باريس • وغداة رجوعه قرر المجلس الملـي للحزب الدستورى الجديد مبدأ التفاوض مع فرنسا لتحرير السلطة التنفيذيـة التونسية « من كل تعقيب او تأشير اجنبـي من شانه ان يعرقل حرية عملها » فقتحت محادثات بين « بريلييي » والحبيب بورقيبة ومحمد شنيق • وفى 17 اوت علم ان محمد شنيق اصبح وزيرا اولا مكان الكعاك ، وان من بين الستة وزراء صالح بن يوسف ، الكاتب العام للحزب الدستورى الجديد (24) • وهكذا اختتم « بريلييي » مفاوضاته بعملية ماهرة •

وكان على هاتـه الحكومة « ان تجـرى باسم جلالـة الباى مفاوضات تتعلق بالتحويرات التاسيسيـة التى ستقود البلاد التونسيـة نحو الحكم الذاتي في

24) وكان الوزراء الستـة : صالح بن يوسف (العدلية التونسية) محمود الماطـرى (وزيـر الدولة) محمد الصالح مزالى (التجارة والصناعة) محمد بن سالم (الصحة) محمد بـدرة (الشؤون الاجتماعية) محمد سعد الله (الفلاحة) • وكان الحكيم بن سالم صهر الباى !

مراحل متوالية » • فلاول مرة تقبل فرنسا ان لا تكون الاصلاحات ممنوحة من جانب واحد ، بل تكون نتيجة « اتفاق ذى صبغـة ثنائية » (25) واقلعت عن التعامل مع ممثلـى العائلات القديمة للتفـاوض مع الممثلين الحقيقيين للراى العام • وعلاوة على ذلك فهى تقبل ان تناط مهام الوزارة الاولى بعهدة نفس محمد شنيق الذى كان باشرهـا فى عهد المنصف باى من غرة جانفى الى 15 ماى 1943 ، والذى اجريت ضده تحقيقات عدلية اثر دخول الحلفاء الى تونس • ومن بين الاصلاحات الثلاثة التى وعد بها المقيم العام فى 13 جوان ، كان الراى العام التونسى يعلق اهميـة خاصة علـى وضع نظام للجهاز الحكومى ، بالرغم عن ضرورة انجاز اصلاح الوظيفة العمومية والنظام البلدى ، حتى يتم التطور نحو الحكم الذاتـى •

معارضة الاصلاحات

ولربما كان من حسن السياسة الاسراع فى ابراز هاته الاصلاحات وقد بقـى « روبار شومان » مقتنعا بهذا الراى • ولئن وجد التاييد والمساندة من الوزراء الاشتراكين والمنتسبين الى الحركة الجمهورية الشعبية فانه واجه معارضـة الوزراء الرادكاليين والمحافظين • وابدت الدواوين الحكومية قليلا من الميل الى تحوير نظـام كانت هى عمـاده • وتصلب المتفوقون وحركوا اصدقاءهـم بفرنسا • ونزلت الى الميدان كتلة غريبة التركيب واسعـة النطاق للدفاع عن « المصالح الفرنسيـة » ، ووجدت مساندة قيمـة من الجنرال « جوان » الذى صرح بصورة واضحة اثناء الندوة الوزارية المشتركة لشؤون شمال افريقيا بمعارضته لكل تغيير من شانه ان يزيد المطـالب المغربيـة حماسا وشدة وان يعرض بالامن العسكرى بشمال افريقيا للخطر • وهكذا تكون بصورة منظمة بارعة التبئس بين التزامات المساهمة فى الدفاع عن البحر الابيض المتوسط ونية السياسة الاستعمارية الرجعية ، فهاته تبررها تلك •

ونشأ عن الحملة القائمة بباريس تغيير فى الموقف بتـونس • وفجأة فتـر نشاط « بريلييى » ، واشعر كاتبه العام « جاك فيمون » الوزراء التونسيين ، بمعاكسات تمس كرامتهم ، انه لن يتحمل الجدل فى تفوقه عليهـم • وعـين مصطفى الكعاك ، الوزير السابق المنبوذ من الراى العام التونسي ، مستشارا لدى الوفد الفرنسى بمنظمة الامم المتحدة ، بدون استشارة الوزير الاول على

(25) « ف سلفيرا » • الاصلاحات التونسية لشهر فيفرى 1951 ، ص 2 •

الاقل . كما منح احد العمال وسام جوقة الشرف فى الوقت الذى اراد وزيره عقابه لاخلاله بوظيفــه . واصيب الجهاز الاداري التونسي بشلل مــن جــراء معاكسة الدواوين الادارية .

وكانت قد انقضت اربعة اشهر بدون اى نتيجة لما اعلن المقيم العام فى 7 اكتوبر انه يرى « الوقت قــد حان لتقريــر استراحة فــي الميــدان السياسى ولاعطاء الاولوية » للمسائل الانسانية المتعلقة باعادة التجهيــز الاقتصادى والاجتماعى » . وهكذا ، كلما ارادت الادارة ان تعارض اصلاحات الا ونادت باولوية المسائل الاقتصادية والاجتماعية . ولم يغتر التونسيون بذلك ، وكانت خيبة الامل عظيمة ، فاعربوا عن استيائهم باحداث الفراغ حول المقيم العام اثناء جولته داخل الايالة . بيد ان الحبيب بورقيبة كان يضاعف اتصالات لم تخل من الفوائــد بالاحزاب السياسية والشخصيــات الرسمية بباريس ، مبينــا التضارب والاخطار الناتجة عن سياسة اتخذت شكل اسنة المنشار . وجاءت حوادث النفيضة الخطيرة تؤيد وجهة نظره . ففى يوم 20 نوفمبر دعيت القوة العامة لتمكين عناصــر اجنبيــة عن الجهــة من الشغــل بالرغم مــن تعهدات الادارة . فاطلقت النار على العملة الفلاحيين الذين قذفوها بالحجارة . وكانت النتيجة سبعة قتلى وخمسين جريحا واعتقال مائة من العملــة . واصابت الرشاشات عددا من المارة كانوا بعيدين عن مكان الحادث ومن بينهم امــرأة حامل . وفى الجنازة شهر وزير الشؤون الاجتماعية التونسى ، محمد بدرة بهذا الاعتــداء الذى لا سبيــل الى تحمله « بمنــاسبــة اضراب شرعى » . واستشهد الدستوريون بالحوادث المماثلة التى نشبت بالمتلوى وبصفاقس سنة 1937 ، وبصفاقس مرة اخرى سنة 1947 للتصريح بانه كلما شرع فى سياسة اصلاحات الا وجرت فى الوقت المناسب حوادث دامية لتعطيلهــا . وشعرت وزارة الخارجية بضرورة اعطاء ترضيات ، فاستؤنفت المفاوضات فلم تقبل الحكومة التونسية المشاريع التى عرضت عليها لانشاء نظام انتقالى . وتذمرت من احتفاظ الكاتب العام بجوهــر اختصاصاته ، ومــن ان السلط التى كانت له لم تبلغ الا ظاهريا اذ استرجعها المديرون الفنيون . وبدت لها المعروضــات المقترحــة فى جملتها اقل فــائدة من التى ورثها « بريلــى » عن « مونص » والتى رفضتها فى جويلية 1950 . فحل « جوفورا لاتور دى بان » كاهية مدير ادارة الحمايات بوزارة الخارجية ليقوم باتصالات مفيدة بالوزراء التونسيين فى شهر ديسمبر . وقدم محمد شنيــق فــى 18 جــانفى 1951 مشروعا مضادا يخصص له رئاسة مجلس الوزراء وتنسيق اعمال الوزارات

والادارات والمندوبية ومراقبة الموظفين والمصاريف العامة في الادارات المدنية ويمنحه بالخصوص النفوذ على الكاتب العام .

واستمرت المفاوضات في بطء حتى خشي ان يضطر الديوان السياسي صالح بن يوسف الى الاستقالة . فوجهت باريس تعليمات للوصول الى اتفاق واذا « بجاك فيمون » يقرر الاستقالة من منصبه ككاتب عام بدون موافقة وزير الخارجية متظاهرا بعدم موافقته لرئيسه المقيم العام وتضامنه مع المتفوقين الذين ساندهم بما له من نفوذ . وكان موقف مثل هذا يترتب عنه توقيف صاحبه حالا عن مباشرة عمله في عهد امثال «ديكاسي» و «بوانكاري» و « بارتو » (26) . الا ان « شومان » فضل ان يتيح « لفيمون » فرصة انشاء مستقبل زاهر ، الامر الذي لم يعترف به وبجميله خصوم الوزير . وكان من حسن الحظ ان بقي « بريليي » وبورقيبة ماسكين لاعصابهما اكثر من ذلك الدبلوماسي الاثيل ، فحصل الاتفاق في الوقت الذي كانت تظهر فيه الحالة على اكبر جانب من الخطورة والهجمات تزداد عنفا في باريس . وتيسر للحبيب بورقيبة ان يغادر تونس في 2 فيفري 1951 في جو ملؤه الثقة قاصدا القاهرة ثم كراتشي .

اصلاحات سنة 1951

ادرجت الاصلاحات في خمسة اوامر ختمها الباي في 8 فيفري 1951 . فالغي المجلس الوزاري المؤسس عام 1947 ، وادمج في مجلس الوزراء الذي اصبح في آن واحد « تشكيلة حكومية وتشكيلة ادارية » (27) . ولاول مرة منذ 1881 اصبح مجلس الوزراء يراسه الوزير الاول عوض المقيم العام . وارجع التساوي العددي بين الاعضاء الفرنسيين والتونسيين ، بعد ان تم التخلص منه سنة 1947 . وكان من بين الاربعة عشر عضوا الذين لم يعد من جملتهم لا المقيم العام ولا القائد الاعلى للجيوش بوصفه وزير الدفاع عن تراب المملكة ، سبعة وزراء تونسيين (28) وستة مديرين ومندوب فرنسيين (29) .

---

26) توضح جريدة « لوموند » في غرة فيفري 1951 ان الاستقالة التي اعلن عنها احتجاجا على الدور المحدود للغاية الذي يخصص للكاتب العام في النظام الجديد ليست في الحقيقة باستقالة تقتضي ان يفكر « فيمون » في مغادرة السلك الدبلوماسي . ولا جدال في ان عمل فيمون يكتسي صبغة غير مالوفة وانه لا يتحمله وزير في عهد الجمهورية الثالثة .

27) « ف . سلفيرا » ـ اصلاحات فيفري 1951 ، ص 13 .

28) هم : الوزير الاول ووزير العدلية ووزير الدولة ووزير الشؤون الاجتماعية ووزير التجارة ووزير الفلاحة ووزير الصحة العمومية

29) هم : الكاتب العام وكاهيته ومديرو المالية والاشغال العمومية والتعليم العمومي والديوان التونسي للبريد والبرق والهاتف ومندوب البناء والاسكان .

وقدم جميع اعضاء المجلس لتزكية الباي ، الامر الذى كان لا يترك مجالا لاى تاويل لفائدة نظرية السيادة المزدوجة • « وفي حالة وقوع حوادث خطيرة من شانها ان تمس بالالتزامات السامية المنجرة عن المعاهدات وان تعرض بالادارة العامة للمملكة الى الخطر » يتشاور المقيم العام والحكومة التونسية داخل لجنة عليا ، لا تجتمع الا باستدعاء من المقيم العام وبرئاسته • وتحكم في الخلافات بين قسمي المجلس الكبير لجنة عليا خاصة بالميزان برئاسة المقيم العام ايضا • وجرد الكاتب العام من السلطات التى كان يباشرها باستقلال عن الوزير الاول ، الرئيس الوحيد للادارة العامة ، واصبح اول مساعد له • وعملا بهذا جرد من سلطة التاشير على قرارات الوزراء التى اصبح من المتحتم عليه عرضها في شكل مشاريع على المقيم العام ليصادق عليها او يعطي توصيات في شانها •

وفيما يتعلق بالوظيفة العمومية حصل الاعتراف بالحقوق المكتسبة ولكن حددت نسب معينة لدخول الوظيفة في المستقبل : التناصف بين الفرنسيين والتونسيين بالنسبة للوظائف العليا والرئيسية ، ثلثا المناصب للتونسيين وثلث للفرنسيين بالنسبة للوظائف المتوسطة ، ثلاثة ارباع المناصب للتونسيين وربع للفرنسيين بالنسبة للوظائف السفلى • ولا يتم ترسيم موظفي الطبقتين الوسطى والسفلى الا بعد ان يقيموا البرهان على مقدرتهم على القيام بمحادثة بسيطة باللغة العربية في مواضيع مهنية • اما ادارة مصالح الامن وديوان البريد فانهما لا يدخلان تحت مفعول هاته النسب (30) • وكان على تطبيق الاتفاق المتضمن لهاته الاصلاحات يتوقف مصير العلاقات بين فرنسا وتونس •

لا جدال في ان اوامر 8 فيفري 1951 قد ابرزت السيادة التونسية بصورة اوضح ، واعطت لرقابة المقيم العام صبغة اقل ظهورا من الماضي • لكن الامر الرئيسي بقي ينتظر الانجاز ، اذ كما قال رجل معروف بنكته : « أول اصلاح يجب انجازه بالبلاد التونسية يتعلق بتطبيق الاصلاحات » • فلئن كان التونسيون لا يعتبرون هاته الدفعة الاولى الا مقدمة ينبغي ان تتبع بانجازات اخرى تحقق انسجام الحكومة واستقلالها ، فالطرف الفرنسي ابى الرضوخ لارادة حكومة بلاده والقيام بدوره باخلاص •

---

(30) نشر نص الاوامر في « السنة السياسية » l'Année politique 1951 ، ص 581 – 584 ، وعلى حدة تحت عنوان « الاتفاقات الفرنسية التونسية » بتاريخ 8 فيفري 1951 الوثائق الفرنسية ، مذكرات ودراسات وثائقية ، 26 فيفري 1951 ، عدد 1440 •

فان وفد الفرنسيين بتونس لم يخف عزمه على المقاومة ، بعد ان برأ ساحته من المسؤولية • وصرح على لسانه « مارسال كازابيانكا » ، رئيس القسم الفرنسي للمجلس الكبير بما يلي : « لقد اصيبت الجالية الفرنسية بتونس ولكنها لم تهزم ، ولم تزل في حالة فزع وكفاح » (31) • كما ان الادارة العليا لم ترض بالتحديد من نفوذها • فكانت محاولة التملص من مفعول الاوامر المذكورة بانشاء ادارة عامة للشؤون السياسية والادارية انتقلت اليها غالب اختصاصات الكاتب العام • وكثير من المديرين ، عوض ان يساعدوا الوزراء في عملهم اخذوا يقيمون العقبات العديدة في طريقهم حتى يتعثروا في سيرهم ويتورطوا عند الحاجة • فلم يزود الوزراء التونسيون بالموظفين اللازمين ، ولا بالجهاز الضروري لتسيير مصالحهم • واخيرا اشعروا بضروب من الوقاحة المقصودة انه من الغرور ان يحاولوا القيام بغير الادوار التافهة •

استمرار الرعاية الابوية المستبدة

وهكذا في 31 فيفري 1951 غداة ختم اوامر الاصلاحات نهر مدير الاشغال العمومية الوزير الاكبر في لهجة عنيفة على كرتين • فكتب اليه يقول : « يجب في الوقت الحاضر ان نعلم هل ان الحكومة التونسية ستفرض احترام اوامر جلالة الباي بدون اي اعتبار خارج عن مجرد المسائل الفنية » • وبعد سرد بعض الفقرات من التزامات السيد شنيق الوزارية ، بصورة غير خالية من بعض الذوق واللياقة ، ذكره بواجباته في عبارات تستعمل عادة مع المرؤوس وقال : « ولي اليقين عملا بروح هاته التصريحات ، انكم ستبذلون جهدكم للقيام باللازم ••• » ، وفي رسالة ثانية اعطى درسا جافا لرئيس الحكومة قائلا : « اني لاسمح لنفسي بان الفت نظركم مرة اخرى للاثر السيء الذي سينال نفوذ الدولة من جراء تقاعس الحكومة التونسية • واني عقدت العزم على اثارة هاته المسالة اثناء الاجتماع المقبل لمجلس الوزراء » •

ومن غريب الصدف ان يثور غضب المدير المتصلب بمناسبة المطالب المقدمة من شركتين من اقوى الشركات المالية بالايالة ، الشركة العامة لملاحات البلاد التونسية المرتبطة بالكتلة الفرنسية الكبرى للملح ، وشركة السكك الحديدية التونسية المتصلة بالشركة الجزائرية القرض العقاري للجزائر

(31) « لوموند » في 13 فيفري 1951 •

وتـونس وشركة ارتال مدينة تونس وشركة فسفاط جبل المضيلة والشركة الجزائريـة للمواد الكيمياويـة والاسمدة والشركـة التجاريـة التونسيـة والشركة التونسية للنقل بالسيارات وشركة النقل بالسيارات للساحل(32) وكـانت الاولى تطـالب باستئناف العمل حالا بسبخة الدخيلة قرب الساحلين، وقد طلب الاتحاد العام للفلاحة التونسية توقيفه ريثما تقدم نتائـج بحث الخبراء ، وكانت الثانية تطالب بتجديد امتياز شركة السكة الحديدية وقـد انتهى امده في آخر سبتمبر المنصرم •

فلا يعترف المدير للوزير الاول في مسالة الملاحة بحقه في اعتبار عناصر اخرى غـير « المسائل الفنيـة » أو بعبارة اخـرى مراعاة تخوفـات السكـان المجاورين والقلاقل التى نشبت فى الساحلـين فى الشهـر المنصرم • اما التقاعس المسجل فيما يتعلق بشركة السكك الحديدية فهو محاولـة عـدم تجديد لزمة مشطة على الدولة التونسية بدون ان تدرس مليا من قبل • وقد « تم بعد تنبيـه » اوسـاط الشركة الوطنيـة الفرنسيـة للسكة الحديدية ومزوديها ، وسجل المدير « الاضرار الخطيرة التى تنجر عن التاخير فى المصادقة على الاتفاقية » • على أن المقيم العام كتب الى وزير الخارجية بعد تسعة اشهر من ذلك يقول ان المسالة « لا تكتسى صبغة اكيدة » • وللمرء ان يستغرب من اللهجة التى استعملت ومن التسرع الذى اظهره مدير الاشغال العمومية الذى لا يشك احد فى نزاهته الشخصية ولا فى ضميره الصناعى ، لو انه يجهل ما عليه الادارة العليا بشمال افريقيا من الارتباط والتبعية للشركات المالية الكبرى •

بين الاستحسان والاستنكـار

فى هذا الجو المملوء عداوة واحتقارا ، لم يظهـر الوزراء التونسيـون اى حرص فى معالجة المسائل التى تراكمت ملفاتها على مكاتبهم • وفى صراعهم مع فنيـين بارعين اخذوا يدافعون عـن انفسهـم باستشارات عـلى الهامش وبالتسويف • واثناء ازمة مارس 1952 برر « جاك دو هوتكلوك » الذى خلف « بريلي » فى الاثناء ، عملية القوة التى قام بها ضد الوزير الاول « بعجزه الادارى التام الذى يتضح من ان مجلس الوزراء لم يجتمع الا مرة واحدة ما بين 15 اكتوبر 1951 و 4 مارس 1952 ، ومن انـى عند تعييني بتونس ، وجـدت

32) « ب • صباغ » • تونس • ص — 55

ستة وستين امرا تنتظر العرض على طابع البـاى ، ومنها ما تجاوز العام احيانا » (33) • بيد انه في نفس التاريخ الذى اعتبر بداية تقاعس الحكومة التونسية الادارى ، وبعبارة ادق في 16 اكتوبر 1951 ، اعلم « بريليى » وزير الخارجية الفرنسية ان « فترة الالتئام والاستقرار » فيما يتعلق بالاصلاحات « قد انتهـت او كادت » ، وان « دواليـب الادارة العليـا استانفت سيرهـا الطبيعـي » • واعرب عن ارتياحه للوصول الـى حـل فـي ظروف مرضيـة « لمسالـة توزيع الاراضـي الايطالية بيـن قدمـاء المحاربين الفرنسييـن والتونسيين ولتحديد سعر القموح والخبز ، ولترسيم الموظفين الوقتيين من تونسيين وفرنسيين ولتعيين موظفين سامين فرنسيين علـى راس مصالح ذات اهميـة ، ولرفع اجور مختلف الصناعات ، ولتحسين حالة عملة السكك الحديدية ، وللشروع في اجراءات العقود المشتركة ، ولرفع مرتبات الموظفين واكد « ان جميع هاتـه الاجراءات اتخذت باتفاق بيـن المقيم العام والوزير الاول » •

وعبر المقيم العام كذلك عن امتنانه لموقف التساهل الذى وقفـه الاعضـاء التونسيون باللجنة المختلطة • وفى خصوص الاجراءات السخية المتخذة لصالح الموظفين ، التى اثارت كثيـرا من النقاش وصادق عليها الوزراء بـالاجمـاع بالرغم عن ان مصاريف الادارة تستنفد 60٪ من الميزانيـة العامة ، يؤكـد المقيم العام انه من التجنى « عدم الاعتراف بما كانت تعبر عنه هاته الموافقة من حسن استعداد الحكومـة التى يشارك فيهـا الحزب الدستورى الجديـد وكذلك عن حسن استعداد التونسيين » • وعلى عكس ذلك اخذ «دهوتكلوك» يستنكر « جو سوء النيـة وسوء الاستعداد الذى تعمل التشكيلـة الوزاريـة الحاليـة على ابقائه عمدا » • وقد صـدر هذان الحكمـان على تشكيلـة وزارية واحدة وبالنسبة لمدة واحدة لان السيد شنيق قد غادر تونس الى باريس في 16 اكتوبـر 1951، نفس اليوم الـذى ارسل فيـه « بريليـى » شهـادة الاستحسان ، ورجع الى عاصمة الايالة في 24 ديسمبر ، وهو التاريخ الذى عين فيه « دوهتكلوك » مقيما عاما بتونس • فاذا لم نعتبر الا هاتـه الارقـام يكون « جو سـوء النية وسوء الاستعداد » قـد صادف تولى المقيم الجديـد مهام منصبه • اما مجلس الوزراء فكان من الصعب علـى السيد شنيق جمعـه اثنـاء العشرة اسابيع التى قضاها بباريس • وبعد رجوعه وضعت مشكلـة

---

33) تصريح فى الاذاعة « لدى هوتكلوك » فى 26 مارس 1952 ، نشر فى« لادبيش تونزيان » فى 27 مـارس 1952 •

الاغلبية • فان الشق الفرنسي طالب بالحاح بتسمية كاهية للكاتب العام لئلا يختل التساوى بين اعضاء مجلس الوزراء • ومن غير شك كان السيد شنيق يعتبر ان هذا التساوى مختل ايضا من جراء تغيب وزيرين تونسيين بقيا بباريس لمواصلة مفاوضات شبيهة بالرسمية ، وعمل بمقتضى ذلك • وقد يستغرب الانسان من ان الادارة الفرعية للمحميات بوزارة الخارجية ، التى تحتفظ فيملفاتها بشهادة بريليى ، لم تلفت نظر وزير الخارجية وكاتب الدولة المساعد لاحتمال ظهورهما فى مظهر التاييد لعملية فقدان الذاكرة السياسية ولحيل في تسلسل الحوادث وتاريخ وقوعها ، الامر الذى يكتسى فى خصوص الحالة صبغة امتناع عن الحكم والانصاف •

الهجوم على الحبيب بورقيبة

ان اصلاحات 1951 تقتضى منطقيا رفع حالة الحصار المنصوبة على البلاد التونسية منذ اثنى عشر عاما ورفع التحجير عن الحزب الدستورى الجديد ، تحجيرا يتبين هذره من مشاركة كاتبه العام فى الحكومة • ولكن شيئا من ذلك لم يتم ، بل بالعكس بلغ مفعول سياسة القوة المتبعة بالمغرب الاقصى حتى البلاد التونسية • وقد اتضح ذلك من التتبع العدلى الذى اجرى ضد الاستاذ « دوران انقليفيال » عميد المحامين سابقا بتهمة القيام بحملة ضد الجنرال « جوان » ، ومن الطلب الذى قدمه المقيم العام للباى ليقيل صالح بن يوسف من الوزارة لانه امضى نداء لاضراب تضامنى مع المغاربة • فسياسة كهاته صيرت موقف الحزب الدستورى الجديد لا يطاق • ولم يترك خصومه الالداء من الحزب الدستورى القديم هاته الفرصة تفوت دون ان يندووا ، بمساعدة الاوساط الزيتونية ، بخيانة من حملهم الطموح على خرق الاتفاق المشترك المبرم بالقاهرة بين الوطنيين المغاربة القاضى بعدم الدخول بانفراد فى مفاوضات مع فرنسا • وقد حظيت الواجهة القومية من اجل الاستقلال التى انشؤوها على اساس برنامج متطرف بموافقة الامير عبد الكريم وعزام باشا •

وتبرأ الوطنيون الجزائريون والمغاربة من الحبيب بورقيبة • ووصل التطرف بالبعض منهم الى اعتباره خائنا • فاجاب الحزب الدستورى الجديد عن ذلك بانشاء لجنة العمل للضمانات الدستورية والتمثيل الشعبي بمعية الاتحاد العام التونسى للشغل • ودافع امام الراى العام عن الصبغة الواقعية لسياسته التى ان ما فشلت محاولة التعاون النزيه تدعم نفوذه لدى الاوساط

الحرة بفرنسا . وتشاجر الفريقان المتخاصمان في تونس وحتى داخل احد المساجد بصفاقس وبذل « بريليي » الماكر اقصى الجهود في تذكية نار الخلاف بدون ان يدرك ان الانقسام الذي كان ينوي اقامة حكمه على اساس قد يقضي عليه اذا ما اضطر الحزب الدستوري الجديد الى التطرف في المطالبة .

خطاب الباي بتاريخ 15 ماي 1951

ولم يكن النزاع بين الفرنسيين والتونسيين باقل شدة من ذلك . فان الوزراء التونسيين رفضوا الحضور امام المجلس الكبير احتجاجا على معارضة اغلبية القسم الفرنسي لكل تفاوض . وامتنع مكتب القسم الفرنسي من المشاركة في جلسة اللجنة المختلطة المكلفة بتقرير الميزانية بصورة نهائية . وكان الخلاف يرتكز على نقطتين : شروط توزيع الاراضي المنتزعة من الايطاليين ، وتجديد اتفاقية شركة السكك الحديدية التونسية الذي ادى الى احدى رسالتي التهديد والانذار من مدير الاشغال العمومية الى السيد شنيق الذي كان يميل لتاميمها . فاضطر المجلس الكبير الى ان يفترق دون ان تفضي اعماله في تقرير الميزانية الى نتيجة .

وبينما كانت الاحزاب تتشاجر ، والسياسية الفرنسية تبحث عن سبيل لها ، اذا بالخطاب الذي وجهه الباي بدون سابق استشارة المقيم العام بمناسبة عيد العرش في 15 ماي 1951 يثير ضجة هائلة . فقد طلب فيه الملك بوصفه الناطق باسم الراى العام مواصلة الاصلاحات لانشاء نظام دستوري مستوحى من المبادىء الديموقراطية ، وذلك « بتحوير نظام السلطة التنفيذية وتركيزها على اساس تمثيل شعبنا في هيئات منتخبة » . ويستنتج من هذا الخطاب شعور دقيق بالحقائق والواقع عند استعراض الظروف السياسية السائدة اذ ذاك في العالم . فقد اعرب عن « امله في ان يرى في القريب العاجل انجاز ذلك الاصلاح الذي يتفق في روحه مع تطور الاتفاقات التي تربطنا بالجمهورية الفرنسية ، وتستجيب الى رغبة الطرفين المتعاقدين المشتركة في تنمية المؤسسات السياسية بالبلاد » (34) .

---

34) العبارات المذكورة ماخوذة من الرواية الرسمية المعروفة ، ويظهر ان النص الاصلي ادق من ذلك اذ هو يطالب « بانشاء تمثيل شعبي يتضمن جميع طبقات شعبنا في هيئات منتخبة واخذ رايهم وجوبا حتى يصادقوا ويوافقوا على القوانين التي تسلط عليهم » .

اما المقيم العام الذى كان ينبغى ان يطلع على الخطاب قبل القائه فانه لم يعلم به الا بعد صدوره • فتذكر ما قام به سلفه « لوسيان سان » ، وذهب الى القصر فى هيلمان كبير محفوفا بالجند (35) ليرفع احتجاجا رسميا • ولم يقتصر على استنكار الروح المتحزبة التى اوحت بهاته المقترحات ، بل نصح الباى لسلامة عرشه ان يتخلص من محمد شنيق وصالح بن يوسف • ثم حذر البلاد فى خطاب عمومى من اولئك الذين يريدون « طى المراحل فى سرعة جارفة وتجاوز الاتفاقات المبرمة دائما » • ولكن الامين باى لم يتاثر بالتهديد مثل الناصر باى ووجه الى رئيس الجمهورية احتجاجا على اللهجة التى استعملت معه اثناء المقابلة •

تهديدات « بريليى »

ولم يغفر المقيم العام الهفوة الملكية لا للامين باى ولا لمحمد شنيق • ففى 20 نوفمبر 1951 الفت نظر وزير الخارجية الى ضرورة « تعريف الحكومة التونسية بكل حزم وصراحة بالشروط » اللازمة للتعاون ، الا وهى « وضع نظام بلدى على اساس الانتخاب ، يتضمن تمثيل الفرنسيين فى المجالس البلدية » ، وتجديد انتخابات المجلس الكبير وجمعه « فى ظروف شرعية » • ويتحتم على الحكومة التونسية « ان تجيب بدون ادنى التباس » • واذا ما حصل الاتفاق يتم اولا تنظيم البلديات على اسس جديدة ، ثم فى الربيع المقبل يتجه الاهتمام الى اعمال المجلس الكبير الذى يكون قد تجدد انتخاب اعضائه فى تلك الاثناء لتقرير الميزانية العامة • واخيرا ولكن عند ذلك فقط وبعد عام على الاقل « ينظر فى امكانية تحويرات تاسيسية جديدة » ان رات الحكومة الفرنسية الوقت مناسبا • واذا « رفضت الحكومة التونسية فى ذلك الحين البرنامج المعروض عليها ـ وهو ما يغلب على الظن ـ فلا سبيل الى ان يفترض بقاءها فى الحكم اكثر من ذلك ، ويجب ان يطلب منها حينئذ ان تستقيل • وينبغى ان يتوقع رفض السيد شنيق للتخلى عن منصبه • فيصبح اذذاك من واجب جلالة الباى اقالته • ولنا ان نؤمل ان ينزل الملك عند طلب يقدم اليه باسم معاليكم بصورة حازمة ، لاننا ، بالرغم من صلته التى تزداد كل يوم وثوقا بالحزب الدستورى وتواطئه معه ، نامل ان يكون له من الحكمة ما يجنبه الدخول فى نزاع صريح مع الحكومة الفرنسية » • ويختم « بريليى » رسالته قائلا : « ولكن ، اذا لم تكن لصاحب الجلالة سيدى الامين باشا باى

---

35) « لوموند » فى 23 ماى 1951 •

الشجاعة الكافية للتخلص من تاثيرات دائرته ، ينبغي اشاره بكل اخلاص بان الدولة الحامية لن تتحمل رفضا في موضوع يمس بجوهر رسالتها ، وبان مركز الباي الشخصي قد يكون مهددا » (36) .

ولا يمكن التمسك بصورة اوضح من ذلك بتقاليد المقيمين العامين ذوي الباس الذين يحملون الباي المغالط من دائرته على الرجوع في امره بعد الاستماع لارائهم ، والذين يانسون في انفسهم الكفاءة لحذف الوزارة التي لا توافقهم ، وعند الضرورة خلع الملوك غير المتقادين . على ان ذلك لم يمنع نفس المقيم من الموافقة بعد ثلاثة اشهر على سفر نفس محمد شنيق الى باريس بعد ان كان يطالب بعزله . فاول تجربة للاستقلال الوزاري لم تات بالنتائج المطلوبة ، واضطر « بريليي » الى ان يعترف بان دستورا يمنحه الملك بموافقة فرنسا لا يتضارب مع الحماية . ولم يجرأ احد على نكران ذلك من الناحية القانونية بعد فتوة الاستاذين « بارتلمي » و «فايس » .

التنديد بالحزب الدستوري الجديد

ومن ذلك الحين اصبحنا نشاهد تناقضا غريبا : ملك مطلق التصرف ذو نفوذ ديني يطالب بنظام دستوري ترفضه حكومة جمهورية التزمت في دستورها سنة 1946 بان « تقود الشعوب التي تولت امرها الى حرية التصرف وتسيير شؤونها حسب نظم ديموقراطية » . ووجهت تهمة لم تكن حقا في الحسبان : الحزب الدستوري الجديد يهدد سلطة الباي ، ويطمح الى قلبه . فقد صرح « دو هوتكلوك » : « لاحظت المرار العديدة ان وجهات نظر الحزب الدستوري الجديد ترمي بدون شك طال الزمان او قصر الى حذف ملكية الباي واقرار الجمهورية . لذا من واجبنا ان نتصدى للحزب الدستوري الجديد حتى في الميدان الدستوري التونسي اذا ما اراد ان يستعمل قوته او قوة تهديده للنيل من سلطات الملك » (37) . ولكن انصار النظام الدستوري هؤلاء ، المتهمين بالنزعة الجمهورية « لم ولن يكونوا ديمقراطيين » (38) . لذلك يجب

---

36) ان تلاوة « فرانسوا كليشي » نائب وهران لهاته الرسالة على منصة مجلس النواب في 5 جوان 1952 (الجريدة الرسمية في 6 جوان 1952 ، ص 2668) قد اثارت احتجاجات « روبار شومان » الذي طلب منه الخطيب ان يحرس دواوينه اكثر من ذلك « ولو كان للوزير المتسع لقراءة رسالة وفد الفرنسيين بتونس في 26 نوفمبر 1951 ، لتفطن الى ان المقيم نفسه ، الذي كانت حيله الشيطانية لا يسبر غورها ، هو الذي مكنهم من نص تلك الرسالة الذي كان حسب كليشي « في جميع الاجياب بتونس » .

37) ندوة صحافية في 28 مارس 1952 .

38) « لافريك فرانساز » (افريقيا الفرنسية) . افريل 1952 ، ص 70 .

المحافظة على نفوذ الباى المطلق الذى يعمل فى ظله نفوذ المقيم العام المطلق ، وذلك بمقاومة كل مشروع يرمى الى انشاء دستور • وقد استطاعت صحيفة عربية بتونس ان تكتب : « من المدهش جدا ان ترغب الدول الديموقراطية القديمة فى اقصائنا عن الديمقراطيات ، وان تزج بنا بالرغم عنا طبعا فى الدكتاتورية : ذلك ما لا نقبله » (39) • وفى اليوم الذى سيعقد فيه الباى المؤتمر الاستشارى الممثل لكافة طبقات شعبه سيجد المقيم العام المدافع عن الملوك اصحاب النفوذ المطلق نفسه اعزل امام حادث لم يتمكن موظف سام للجمهورية الفرنسية توقعه •

مطالبة محمد شنيق بالسيادة الداخلية

وفى حدود الخطة التى رسمها مليكه بارح محمد شنيق تونس فى 16 اكتوبر ليواصل فى باريس المفاوضات الرامية الى تحديد المراحل الموصلة الى الحكم الذاتى • وفى 3 نوفمبر التحق به وزراؤه الاقربون وهم : محمد بدرة صديقه السياسى الوفى والمناضل الدستورى المتقد حماسا ، والاستاذ صالح بن يوسف ، والجنرال سعد الله الوصين • وكان الوزير الاول فى الاثناء قد سلم الى وزير الخارجية مذكرة هامة يطالب فيها « بتخليص السيادة التونسية تخليصا كاملا » حسب صورة جلية للاستقلال الداخلى ، يعنى فى شكل « حكم ذاتى » •

ويقتضى هذا الحكم الذاتى فى الميدان الحكومى « انسجام الحكومة التونسية » وفى الميدان التشريعى « انشاء مجلس نيابى يسن القوانين ويراقب سير الحكومة وسياستها العامة » ، وفى الميدان الادارى منح الوظيفة العمومية التونسية نظاما يتفق مع الوضع الجديد « مع احترام حقوق الموظفين الفرنسيين المكتسبة » • وان بعث هاته السيادة الداخلية لا يمنع تونس من عقد اتفاقات مع فرنسا من شانها ان تحافظ على امتن العلاقات فى الميادين الثقافية والاقتصادية والاستراتيجية ، وان تضمن للرعايا الفرنسيين المقيمين بتونس التمتع بحقوقهم المدنية وكامل التصرف فى اشخاصهم وأرزاقهم » (40) • (30 اكتوبر 1951) •

---

(39) « الهدى » • 4 جويلية 1952 •

(40) النص فى « السنة السياسية » l'Année Politiques 1951 • ص 587 – 589

وقد اصطدم هذا البرنامج بمعارضة المتفوقين الصريحة الشديدة . فوجهوا في 20 نوفمبر الى « روبار شومان » برقية ينكرون فيها على « بريليي » حق التكلم باسم الفرنسيين بتونس وقد خان ثقتهم » . وفي مذكرة قدمها « كولونا » بعد ستة ايام الى وزارة الخارجية طالبوا فيها بـادىء ذي بدء « بطرد وزارة شنيق » التي يمكن تعويضه بصورة مجدية باحد المترشحين الستة الذين عرضوهم ، وكان من جملتهم ، بعد شيخ الاسلام المالكي ، صلاح الدين البكوش . وريثما يتم ذلك الامر ينبغي للحكومة ان تمتنع من « اعطاء الوزراء التونسيين الزائرين اية ترضية » ، وان تطالب الباي ووزراءه باحترام القانون الذي يجب ان يؤول الى تجديد المجلس الكبير في ظرف شهر وتسمية كاهية للكاتب العام لئلا يكون الفرنسيون اقلية في مجلس الوزراء . وينبغي كذلك فتح بحث عن تصرف الوزراء التونسيين « وقد رضي اغلبهم منذ إطلق لهم العنان بان تدخل المساوى والعاهات التي امتاز بها عصر « الرجل المريض » في النظام التركي المنقرض وهي : الفوضى والاهمال والاضطراب والاستبداد والمحسوبية وحتى الارتشاء وجولان اليد في اموال الدولة » .

وعندما يتم تطهير الجو ، يتسنى اذذاك لفرنسا ان تسير بالبلاد التونسية بدون تعثر نحو الرقي الذي « سيكون بالخصوص اقتصاديا واجتماعيا » لان « اعطاء الاهالي مائة مقعد نيابي سياسي زائد وتعيين عشرة آلاف موظف آخرين من الاهالي ، لا يجوز اعتبارهما باي حال تحسينا جوهريا محسوسا لحالة ثلاثة ملايين من التونسيين » . وهذا لا يمنع « بعض التطور السياسي » المرتبط « بتغيير مقابل للفكر العام التونسي ولقدرة التمتع بالحقوق المدنية عند التونسيين » . ومن المتيسر بداية من شهر افريل 1952 تعمير كامل تراب المملكة ببلديات منتخبة تكون اغلبيتها فرنسية ببنزرت وفريفيل (41) ومتناصفة ببقية المدن ، وتونسية صرفة في بقية المراكز الاهلية . ويجدد المجلس الكبير في شكل مجلس قار بالتناصف ، ويعقد جلسات مشتركة بدون وجود اقسام منفردة . وقد ذهب احد الناطقين باسم المتفوقين الى حد التصريح في احد اجتماعات « التجمع » بتونس قائلا : « ان مسؤولية سياسة

(41) منزل بورقيبة حاليا . ملحوظة للمترجم .

التنازل تحمل على عاتق اربعة رجال وهم : بريليبى ، وروبار شومان ، وريني بليفن، وفنسان اوريول » .

بـروز موريس شومـان

منذ تشكيل وزارة « بليفن » ، في اوت 1951 ، ترك « روبار شومان » جزئيا مراقبة شؤون الحمايات الى « موريس شومان » ، وهو ذكى شريـف الاحساس دائم الاستعداد لبذل حماسه المتدفق لفائدة القضايا النبيلة ، وكان كاتب الدولة الجديد يثق ثقة لا تتصدع في عبقريته ليصدر حكمه في المسائل التي شرع في الاطلاع عليها . وهو علاوة على ذلك دائم الاستعداد لتبريـر قراراته بفصاحة تزداد قوة بقدر ما كانت تحكم عليها التجارب . وكان الهامه يستمد اولا من وثائق وتعاليق الادارة الفرعية للحمايات التي كـان يشرف عليها ديبلوماسي شاب تجعله صلاته العائلية تحت نفوذ المتفوقين الروحى . وقد شرع « موريس شومان في هاته الظروف يحدث التونسيـين بتوفيق يقل عن توفيقه في مخاطبة الفرنسيين من اذاعة لندن .

اخذت الفائدة من مهمة الوزراء التونسيين تتضاءل بقدر ما كانت اقامتهم تمتد . وكان الفرنسيون بالبلاد التونسية يكسبون كل يوم غنما جديدا . ورجع محمد شنيق من المفاوضات الى المحادثات ، ومن المحادثات الى المخابرات ومن المخابرات الى الحديث الفردى ، فكان يتمسك تمسك اليائس باشبـاح وعود وآمال فارغـة . وقد اعلمـه « ليون مارتينو ـ ديبـلا » رئيس كتلـة الراد كاليين بالبرلمان ومقرر المسائـل التونسية بلجنـة الشؤون الخارجيـة بمجلس النواب على لسـن فرنسا بعبارات لا تزويق فيها (42) « بانـه مـن المستحيل عليها ترك البلاد التونسية الى سيطرة طبقة لا تتصور النفوذ الا في شكل هدايا وترويع » .

وما افيده درسا لاولئك الوزراء « من النمط التركى » ، ذلك الذى تلقـوه من السياسة المتيدة التي تسلكها الحكومة الفرنسية ، ولم يكونوا يستطيعون ان يشكوا في ان الوزارة التي يرأسها محرك مؤتمر « برازافيل » ستتصمـد لتاثير اصحاب الاملاك ورؤوس الاموال بشمال افريقيا وللمدافعـين عنهـم

---

42) جريدة « بارى براس لانترانجزجان » . في 7 نوفمبر 1951 ـ الكيفية التي تهجم بها صاحب المقال على نفس شخص الباى ، حملت في نفس اليوم محمد شنيق على توجيه احتجاج الى وزير الخارجية ضد هذه المخالفة الاسيفة لفروض الاداب المعمول بها لحد اليوم في الاوساط السياسية والبرلمانية الفرنسية ، تلك المخالفة التي كانت تتجسم في « الهجوم على رئيس دولة صديقة » .

الذين يحاصرونها ، وانها ستفضل اتباع نصائح الحذر التي كان يسديها الوزير المسؤول عن اتباع آراء « الفنيين » التي كانت محل الجدل في غالب الاوقات ، وانها ستقدم رغبات شعب كامل على اعتبارات اغلبية برلمانية . ومن ذلك يفهم استغرابهم امام المماطلة والتسويف اولا ثم امام القرار الذى كان وقع الاختيار عليه في آخر الامر . وقد كان الاعراب عن قلق الراى العام التونسي في اضراب عام احتجاجا على موقف الاستفزاز الذى اتخذه نواب الجالية الفرنسية ، قرره كل من الاتحاد العام التونسي للشغل والرابطة التونسية لقدماء المحاربين والاتحاد العام للفلاحة التونسية والحزب الدستوري الجديد ، وقد رفض كل من الحزب الدستوري القديم والحزب الشيوعي المشاركة فيه (29 نوفمبر) .

- مذكرة 15 ديسمبر 1951 في السيادة المزدوجة

وقبيل سفره الى روما اقترح « روبار شومان » على مجلس الوزراء المنعقد في 22 نوفمبر ردا على مذكرة 30 اكتوبر ، فيه بعض الترضيات . ولكنه اصطدم بمعارضة الوزراء المستقلين والمزارعين المؤيدين من « كاى » و « بيدو » اما « بليفن » الذى كانت تخامره اذذاك شواغل اخرى ، فلم يساند وزيره للخارجية . فكلف مجلس الوزراء المنعقد في غرة ديسمبر لجنة وزارية بتحرير الرد . فزادت مماطلاتها هاته الحالة تعكرا . وفي انتظار الاصلاحات لم يقرر شيء لتجديد المجلس الكبير الذى تنتهي مدته في 9 ديسمبر . واراد القسم الفرنسي منه ان يقوم بدور يماثل دور الهيئة الثالثة الشعبية اثناء ثورة 1789، فاعلن انه ما زال يمثل بحق الجالية الفرنسية ، وواصل جلساته ، بينما قرر الباى الغاء مهرجانات المولد النبوى الشريف في 11 ديسمبر . وبالرغم عن تحذيرات محمد شنيق الصادرة في 12 ديسمبر في عبارة متزنة لكنها صريحة، اعدت الادارة الفرعية للحمايات رسالة عملا بتعليمات اللجنة الوزارية ، وقد اوحت اليها بمعظمها وادخلت عليها تحويرات مختلفة من الحكومة زادتها خطورة ، فاصبحت تلك الرسالة المشهورة التي وافق عليها مجلس الوزراء في 15 ديسمبر 1951 - ووجهت الى السيد شنيق ، فاعتبرها رفضا باتا صريحا لطلباته (43) .

---

43) النص في « السنة السياسية » 1951 ص 591 – 592 وفي « لوموند » في 18 ديسمبر 1951 وبعض مقتطفات في «المأساة التونسية » ص 28 – 30 .

ان هذه الرسالة كانت غير مناسبة لا في شكلها ولا في جوهرها . وقد اكتست صبغة « ملاحظات وتأنيب صادرة عن قيم مدرسة متفقه بليد دون ما لطف ولا ذوق » (44) والذي زاد الامر فداحة أنها كانت تسجل تقهقرا ، فبعد التذكير بعظمة الاعمال التي قامت بها الامة الحامية ، صرحت بان القسط الذي قام به الفرنسيون « في حياة البلاد الاقتصادية واهمية مساهمتهم في موارد الميزانية التونسية ، لا يسمح ذلك باقصائهم عن المشاركة في سير المؤسسات السياسية » . وان العلاقات المقبلة بين فرنسا وتونس « لا سبيل الى ان ترتكز الا على الاعتراف بالصبغة النهائية للصلة التي تجمعها »

تستغرب الحكومة الفرنسية من ان وزارة شنيق لم تنجز اصلاحا بلديا في ظرف ستة عشر شهرا بينما هي لم تستطع ان تنجزه طيلة سبعين سنة من الحماية . وترى نفسها « محققة في مطالبة الباي بان يوفي بالتزامات اتخذت بكامل الحرية » في هذا الموضوع ، لانها تعتبر ذلك « الشرط السابق لتطبيق اي اصلاح آخر قد يفكر فيه » . ولا تعارض الحكومة الفرنسية زيادة على ذلك في تحوير النظام التشريعي « مع تأكيد ضرورة المحافظة على استمرار تمثيل الفرنسيين والتونسيين لدى حكومة جلالة الباي » . وهي تقترح اخيرا « انشاء لجنة مختلطة فرنسية تونسية ابتداء من جانفي المقبل لدرس كيفية تعويض المجلس الكبير للبلاد التونسية بنظام نيابي ، وينبغي لها ان تقدم نتيجة اعمالها في اجل محدود » .

طرب الفرنسيين ودهشة التونسيين

لقد اهتز « الفرنسيون بتونس » طربا عند قراءة تلك الرسالة . وهنأ لسان حال التجمع الفرنسي نفسه « بانتصار المنطق السليم والحق على الضلال والهذيان » اذ ان « التشارك على مقتضى ما عرفت به جريدة تونزي فرانس » (تونس ـ فرنسا) قد حصل الاعتراف به والاعلان عنه رسميا في وجوده وضرورته (45) واما « قابريال بيو » ، الذي اختتم في الشهر الماضي محاضرة مذاعة بتعريف للسياسة الفرنسية بتونس يتلخص في كلمة الجنرال « ماك ماهون » المأثورة « انا هنا وسابقى هنا » . فيحق له ان يبتهج بموقف يشرف عائلته (46) وقد صرح موظفون سامون واخصائيون ممتازون بانه بعد

44) « أ . كومين حضرية » . تونس 1952 ص 398 .
45) « تونزي فرنسا » (تونس ـ فرنسا) في 17 ديسمبر 1951 .
46) التلميح الى ابنه الذي كان يشرف على مصلحة الحمايات بوزارة الخارجية (ملحوظة للمترجم).

مذكرة 15 ديسمبر « لم تبق هناك مسالة تونسية بالمرة » • حقا كان الامر على احسن ما يرام لدرجة ان احد المعمرين الاقوياء صرح فى نوبة من الصراحة : « ما كنا تطالب بكل هذا » •

ويحق للمتفوقين ان يبتهجوا ، فان عبارة « الاستقلال الداخلي » التى رفضوها فى تقريرهم المؤرخ فى 26 نوفمبر ، لم تذكر فى رسالة 15 ديسمبر ولا فى خطابى « روبار شومان » وبريلى • وبالعكس ، فان تاكيد الحقوق السياسية التى يتمتع بها الفرنسيون فى الدولة التونسية يسجل حسب رغبتهم تعديا على السيادة التونسية التى احتفظت بها معاهدة الحماية كاملة غير منقوصة فى مبدئها ، ولكن لم يقع التعرض اليها فى النص• «ولذلك تلقى الراى العام الاهلى الرد على مذكرة محمد شنيق بدهشة واستنكار • « انها حقيقة خطوة الى الوراء » ، كما صرح به الجنرال سعد الله غير المحمول على التطرف ، « واقرار للسيادة المزدوجة وتنكر لمعاهدة باردو » • وبلغ الاستياء اشده حتى غمر احد اعضاء وزارة الكعاك السابقة • وعمت ازمة خطيرة فى الثقة جميع الاوساط وقد مكرت الحكومة الفرنسية بالوزراء التونسيين ، واعرضت عن مهمتها ، فاعتنقت اراء اقلية استعمارية معارضة لرغبات ملك وشعبه « وفضلت موقفا سلبيا • وبعملها هذا لم تعد صالحة لتكون حكما نزيها» (47) ، وكان عنوان احد الفصول بجريدة عربية للحزب الدستورى الجديد : « ماذا بقى (48) بعد ان اوصدت فرنسا ابوابها ؟ » ، واستنتج الحبيب بورقيبة ان «رد الحكومة الفرنسية انهى بصورة عملية التجربة التونسية التى يمكن تعريفها بمحاولة ترمى الى التوفيق فى جو من الامن والصداقة بين رغبة الشعب التونسى فى الاستقلال وبين مصالح فرنسا العامة » • (49) وخرج المعتدلون من هاته المحنة اكثر ياسا من غيرهم ، اذ كانوا يصرحون دائما بان الحماية بالرغم عن تعدياتها لا تنكر شخصية الدولة التونسية القانونية ، فاتت الحوادث تكذبهم امر التكذيب •

لقل ان يوجد نص ديبلوماسى اعد بهذا الحمق وله من العواقب الوخيمة ما « لمذكرة 15 ديسمبر 1951 المذهلة التى لن نوفى بحقها من التعبير عن درجة تسميمها للعلاقات التونسية الفرنسية والتى يستغرب ان يبقى المسؤول الحقيقى

47) الهادى نويرة – فى جريدة الحزب الدستورى الجديد « ميسيون » (الرسالة) 11 – 18 ديسمبر 1951 •
48) « الزهرة » • 19 ديسمبر 1951 •
49) « لوبتى ماتان » • ترنس • جريدة تقدمية ، 19 ديسمبر 1951 •

عنها ـ ولا بد ان يكون من هـو المسؤول عنها ـ يباشر وظيفة » (50) • وانـه لعمـري تمن ساذج غريب من صحافـي حصيف • فلا يمكن للديبلوماسييـن الاصليين ان يقعوا في الغلط ، خصوصا اذا توارثوا مناصبهم ابا عن جد ، بل هي الاحداث التي تغلط ، وهو ما سيظهره تسلسلها بثبات غير منتظر ومل •

50) « فوتيي » • وعود • « لوموند » في 17 افريل 1952 •

الباب السادس

استعمال القوة بالبلاد التونسية

مقيم عام غير متاهل : « جان دو هوتكلوك »

يظهر ان « موريس شومان » كان مبتهجا بالمحصول الذى ظفر به بعد ان جنى ثمار الغضب • فقد ضحت وزارة الخارجية على مذبح التفوق الفرنسى « ببريليى » ، وانتزعت منه ثقتها لتسمية موظف من السلك الديبلوماسى هو « جان دو هوتكلوك » ، سفير فرنسا ببروكسال (24 ديسمبر 1951) • وكانت لهذا المقيم العام الجديد فكرة عالية فى وظيفه • فهو لاظهار كفاءات ابن عمه « الجنرال لوكلار » يصرح بانه لو اراد خطة سفير لاستحقه • وهو مثل الديبلوماسيين المتمسكين بالطريقة الصالحة فى عهد « تاليران » له قليل من المعلومات عن حقيقة العالم العصرى • فالحركات السياسية والنقابية ترجع فى نظره الى مسؤولية متزعمين لها يكفى ايداعهم السجن لحذف سبب وجودها ويذكر « دى هوتكلوك » لبعض الصحافيين الاجانب ، الذين كانوا فى حيرة من تلك السابقة ، ان مشاركته فى اعتقال حكومة سوريا دليل على كفاءته ، وهو ، مثل الشخصيات الهادئة العادية ، قادر على القيام باخطر الاعمال تعنتا منه فى غلطاته • وقد زاد تعيينه فى تعكير الجو الناتج عن مذكرة 15 ديسمبر 1951 •

حل المقيم العام بتونس فى 13 جانفى 1952 على متن مدرعة حربية • واستقبل فى هيلمان عسكرى يرمز من دون شك الى هدف مهمته السلمية • وقد كانت بعد لموقف الحكومة نتائج رفض « الفنيون » حتى التفكير فى احتمالها • وحاول « روبار شومان » اثناء المناقشة بمجلس الشيوخ فى 20 ديسمبر 1951 التخفيف من وطأة تلك النتائج ، فاكد ان الحكومة لم تستعمل كلمة « السيادة المزدوجة » وهو صحيح • لكن ، ولئن فقدت تلك العبارة من مذكرة 15 ديسمبر 1951 ، فهل يمكن الجزم بان معناها مفقود ؟ والا فباى معجزة اتفق المتفوقون والتونسيون معا على تاويل المذكرة باثبات مدلول السيادة المزدوجة فيها ؟ وبما ان اللغة الفرنسية هى لسان الديبلوماسيين، فلوضوحها من دون شك • ولم يكن ليوجد التباس لو لم تقصد وزارة الخارجية ايجاده • فكان يكفى استعمال لفظة الاستقلال الداخلى ولفظة

السيادة التونسية لاجتناب كل شرح خاطيء • ولكن الادارة الفرعية للمحميات لم تكن تريد ذلك ارضاء للفرنسيين بالبلاد التونسية • فلم يبق حينئذ فى الامكان التكلم عن الرقابة وعن المرحلة الثانية ، فما تم الاختيار عليه فى 15 ديسمبر سينتهى الى نتائجه الفاجعة •

التوجه الى منظمة الامم المتحدة

فمن يوم 17 ديسمبر وجه كل من الحزب الدستورى الجديد والاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والاتحاد العام للفلاحة التونسية برقية الى وزير الخارجية يعرب فيها عن عزم الامة التونسية على « عدم قبول سياسة ترمى الى ابقاء تدخل جالية اجنبية فى الشؤون التونسية باى وجه من الوجوه » • واعلن الاضراب العام لمدة ثلاثة ايام • وانضم الى هذا الاضراب الحزب الشيوعى دون نقابات « القوة الشغيلة » المتركبة فى اغلبها من موظفين فرنسيين • وفى 9 ديسمبر بعد استشارة الامين باى اجاب محمد شنيق عن جميع الحجج التى استند اليها وزير الخارجية نقطة نقطة ، واكد بقوة « مبدا وحدة السيادة » (1) • وهكذا تحددت المواقف من الجانبين ، وجرى اقتبال الباى للسفير يوم 13 جانفى 1953 بدون تبادل الخطب وفى جو ملؤه البرودة • وما انتهى الاقتبال حتى طار صالح بن يوسف ومحمد بدرة الى باريس ، وسلما من الغد ملتمسا من الحكومة التونسية الى الامانة العامة للامم المتحدة •

لقد استاءت الاوساط السياسية الفرنسية والراى العام الفرنسى من ذلك السعى • وبقدر ما حصل تاويل رسالة 15 ديسمبر المجحف لمعاهدة الحماية دون ما الفات نظر ، بقدر ما اثار استياء رجال القانون والوطنيين الفرنسيين تسجيل الملتمس الى مجلس الامن الذى فرضه « المجاهد الاكبر » الحبيب بورقيبة • وقدم دون احترام التراتيب الجارية ، وحتى الاشتراكيين بتونس فقد استاؤوا من رد محمد شنيق اكثر مما استاؤوا من رسالة « شومان » التى تسببت فيه ، ذاكرين « ان التوجه الى الامم المتحدة يدل فى الحقيقة على انعدام الامل فى الحوار التونسى الفرنسى » (2) • اما الوطنيون التونسيون فكانت نظرتهم تختلف عن ذلك • ومن الممكن ان الزعماء

---

1) ـ النص بجريدة « ميسيون » (الرسالة) 18 جانفى 1951 •

2) ـ جريدة « فراترنيتى دوتونزى » (الاخوة التونسية) • 18 جانفى 1951 •

الدستوريين وبالاخص الحبيب بورقيبة ، قد راوا ان النداء الموجه الى هيأة الامم المتحدة هو المنفذ الوحيد لغضب شعب كانوا يمثلون امامه فارغي الايدى ، ولم تترك له المفاوضات السابقة الا قليلا من الثقة • ومن الممكن ايضا انه لو لم يكن السعي الاول العديم الفائدة قد قدم في جانفي 1952 ، لما حصلت تلك المفاوة التي قبل بها مطلب ترسيم القضية التونسية اثنــاء دورة اكتوبر • ومهما كان من الامر فان سعي محمد شنيق قد عجل الازمة • فتالم « موريس شومان » من هذا السعي ، وتزعم حربا صليبية قصد التحصيل على طرد العدو من الحكومة التونسية • اما « دو هوتكلوك » فقد تعهد بالمسألة وجعلها قضية شخصية • وفي 15 جانفي سلم المقيم العام الملك رسالة من وزير الخارجية شديدة اللهجة ودعاه الى عزل وزرائه • فلم يجبه الباي • ومن هنا بدأ عهــد الاضطهاد والمقاومة الدامية •

الاضطهــاد والمقاومــة الداميــة

ففي 16 جانفي حجر المقيم العام مؤتمر الحزب الدستوري الجديــد المعــين انعقاده بعد يوم ، واعتقل مائة وخمسين دستوريا • ونشبت يوم 17 معارك دامية ببنزرت وباجة حيث كان حــرض الحبيب بورقيبــة التونسيــين عــلى التضحية • وفي الساعة الثالثة صباحا من يوم 18 القى القبض على زعيمين دستوريين ، احدهما « المجاهد الاكبر » ، وعلى مسيرين اثنين من الشيوعيين ، وابعد جميعهم خارج مدينة تونس • وبهاته الطريقة دعا المقيم العام « بكــل لطف الحبيب بورقيبة الى الاقامة بموقع سياحي بطبرقة التي ادى جمالها الى بناء نزل من طراز « ترانزاتلنتيك » • فيستطيع منها مخاطبة العالم الخارجي وتسيير حزبه ما شاء » (3) • واجبر كذلك على الراحة والاستجمــام رسميا عــدد كبير من اعضاء المؤتمر • على ان المؤتمر انعقد بالرغم من ذلك يوم 18 جانفي برئاسة الهادي شاكر بمحل لم تتمكن الشرطة من العثور عليه ، وقد ادت الاحداث بالمؤتمر الى ان يسجل استحالة سياسة التفاوض ، ويــؤكد « ان إلغاء الحماية ، وارتقاء تونس الى مصاف الدول المستقلة ذات السيادة ، وعقد معاهدة بين تونس وفرنسا لتنسيــق اعمال الدولتــين مــن الناحيــة الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية على قدم المساواة ، مع ضمان المصالح الشرعية لجميع الجاليات الاجنبية ، هي الاجراءات الكفيلة وحدها بالتعــاون

---

3) — « لافريك فرانساز » (افريقيا الفرنسية) • افريل 1952 • ص • 6 •

الودى المثمر الدائم بين الدولتين » . فبيان هذا المؤتمر لم يعد يفرق بين الفرنسيين والاجانب الآخرين ، وهي ظاهرة خطيرة .

وبمجرد ما انتشر خبر الاعتقالات اغلقت المدن دكاكينها ، واعلن الاتحاد العام التونسي للشغل الاضراب العام ، وفي جميع الجهات نشبت المظاهرات العنيفة ، وانفلت زمامها من ايدى المسيرين . واعتبر الجيش العاصمة مدينة عدوة ، متجولا بها في السيارات الرشاشة ، وعلى رؤوس اعوان الامن القبعات الفولاذية » وقد اجرى التفتيش على تجار وديعين وحكام كانهم جناة ، وان اعترضوا ، فيدفعون بالايدى ، ويرسلون الى المحتشد تحت رحمة المطر والقر الشديد » (4) . ولئن تسببت الحوادث في الايام الموالية ، في ثمانية من الضحايا بماطر واربعة على الاقل بالقيروان ، فان الساحل وبالاخص الوطن القبلي كان في حالة ثورة ، من المكنين الى سليمان . وبالحمامات قذف الجمهور الجيش رميا بالحجارة ، وهدد ادارة العمل . كما طوق بقليبية مقر الجندرمة حيث التجأ المعمرون . وفي عمل سليمان هاجم الجمهور المعمرين وحرق الضيعات وتتابعت الاعتداءات الفردية مقرونة في بعض الاحيان بالنهب . وفي 28 جانفي اعتدى مجهولون ببني خلاد على اليوطنان « فاشي » قائد فريق الجندرمة بالوطن القبلي وقتلوه . وفي جنوب الساحل بالمكنين وبدون سابق معركة اغتيل ثلاثة من الجندرمة وشوهوا بصورة شنيعة ، كما قتل ثوار متحمسون الكولونيل « دوران » قائد منطقة سوسة ، عندما تقدم للتفاهم معهم .

موقف الاحزاب السياسية

لقد احس الفرنسيون بالخطر يهددهم في حياتهم وارزاقهم ، واكتسحت نوبة من الهلع البلاد التونسية . وجرى الحديث على اللصوصية الموروثة وعلى بعث « روح السركونسليون » . اما اعوان الامن ، وهم في تشنج عصبي مستمر ، فتعودوا اطلاق النار وقتل المتظاهرين . واتخذت سائر الاحزاب السياسية مواقف متحمسة . « فكولونا » ، الذي حمل الدستوريين مسؤولية المعركة ، طالب بالتمادي في القمع الى نهايته الطبيعية ، وهي تطهير الجو التونسي تطهيرا كاملا ، وكل تردد او تراجع يقذف بتونس في فوضى مستمرة » (5) . وعلى العكس من ذلك فالهيئة الجامعية لجامعة الحزب

---

4) — « لوموند » . 26 جانفي 1952 .

5) — « لاديبيش تونيزين » . في 22 جانفي 1952 .

الاشتراكي الفرنسي (S.F.I.O.) ، بعد ان سجلت « ان الاضطهاد لا يفتح ابواب التقارب كما ينبغي » جزمت من جديد بتأكد السعي » لجميع وسائل التهدئة الضرورية حالا من الجانبين معا وفي وقت واحد ». (6) ·
ولاحظ الحزب الشيوعي « ان الشعب التونسي اجاب عن اضطهاد الاستعماريين الفرنسيين بتعزيز الكفاح الوطني في سبيل الاستقلال القومي » ، وحرضه على « تاييد شكوى بلادنا لهيئة الامم المتحدة بكل قوة وحزم » (7) ·

واكد الحزب الدستوري القديم بلسان السيد صالح فرحات المقيم اذذاك بباريس ارتياحه للوقفه · وصرح بان السياسة الفرنسية هي التي الجأت الشعب التونسي الى « رد الفعل بعنف وبصورة غير معتادة » (8) · واما الحزب الدستوري الجديد فقد تصدى للاضطهاد · وكتبت جريدته تقول : « هذه هي الحالة التي نحن عليها ، والتي قادتنا اليها سياسة خرقاء لا عظمة فيها ولا تبصر · فالتشويش بلغ قمته ، والدم لا يزال يسيل ، مع ما يتبعه من دموع ومصائب · بالامس كان التوتر ، واليوم اصبحت المأساة المفجعة » (9) · وحتى الجريدة العربية الاكثر اعتدالا والتي لها اتصالات معروفة بالاقامة العامة ، فانها اتهمت الاستعماريين بانهم « تسببوا في قلق الامة التونسية في الالام والدم والدموع » لان قوات الامن والجيش ارادت « المحافظة على امن لم يختل البتة » (10) واخيرا اجاب الامين باي بواسطة وزيره الاول على الانذار الذي وجهه اليه المقيم العام مباشرة على اثر تقديم الشكوى الى الامم المتحدة ، القى كامل تبعة الحوادث على « موقف وزارة الشؤون » الخارجية للجمهورية الفرنسية » ·

سياسة « ادقار فور »

صادفت الازمة التونسية ازمة وزارية في باريس · وكانت لرئيس الحكومة الفرنسية الجديد « ادقار فور » خبرة شخصية بتونس ، وكان فكره اكثر تحررا من زميله السابق · فصرح « لموريس شومان » بان ملفه غير ممتاز ،

---

6) ـ « فراترنيتي دي تولزي » · في 25 جانفي 1952 ·
7) ـ « لافنير دي لا تولزي » (المستقبل التونسي) الشيوعية · في 26 جانفي 1952 ·
8) ـ « لابريس » للتجمع الفرنسي · 28 ـ 29 جانفي 1952 ·
9) ـ « ميسيون » ـ 25 جانفي 1952 ·
10) ـ جريدة النهضة · في 23 جانفي 1952 ·

مع ان هذا الاخير كان حقق له ان شعره جيد للغاية . وفى 17 اكتوبر 1952، بعد ان سجل امام المؤتمر الراديكالى ان السياسة الفرنسية بتونس لم تكن « دائما محل الاعجاب » حكم عليها في صورة قاسية ، فقال : « قدمنا هدايا الضعف بقبضة الاضطهاد الحديدية » ، وحاول عند توليه الحكم بما فى امكانه اصلاح ما حطمته السياسة السابقة . وامام المجلس الوطنى فى 22 جانفى 1952 ارجع اسباب الخلاف الى سوء تفاهم . فالسياسة التى تمسك بها هى السياسة التي صرح بها « روبار شومان » امام مجلس الجمهورية لا السياسة التى عبر عنها نفس الوزير فى رسالة 15 ديسمبر 1951 : وهى « تاكيد تاييد بسيادة الباى والتعاون التونسي الفرنسي ، ربط الحوار من جديد فى اللجنة المختلطة بعد ان قطع ، « مواصلة الاصلاحات » بمراحل وفى نطاق المعاهدات مع السير تدريجيا نحو الاستقلال الداخلي اعتمادا على دستورنا ». ولم ترض هاته التصريحات احدا بتونس . فالمتفوقون راوا فيها نكثا لروح ديسمبر ، والتونسيون لم يروا فيها غير استعمال كلمة « سيادة الباى » عوض « السيادة التونسية » وابقاء « تشريك الفرنسيين فى الادارة » .

عمليات « التطهير » بالوطن القبلي

ان عمليات « التطهير » التى قام بها الجنرال « بيار قارباى » بالوطن القبلي (11) لم تساعد على التهدئة . ففى شبه الجزيرة ، بسهولها وبساحلها توجد قرى ومداشر عامرة بفلاحى الاشجار المثمرة وصيادى الاسماك، يعملون بطرقهم الفنية القديمة الموروثة عن عهد الفنيقيين ، وقد جددها الاندلسيون الذين اطردوا من اسبانيا اوائل القرن السابع عشر . وسكان هاته الجهة لهم افكار مستقلة ، يميلون الى الثورة والى نهب الحيوانات والاستيلاء على ما تلقيه البحار ، وقد كانوا دائما محل قلق السلطة ، خاصة بعد ما غزتهم الدعاية الدستورية . ومنذ بداية الاضطرابات تغلبت فى القرى الحركات الثورية وفى البوادى الاعتداءات الفردية ، فعزمت الحكومة على القيام بعمل يكون عبرة للغير ، ولم يكن الامر يعنى القبض على الجناة فحسب ، بل ارهاب السكان وعلاوة على ذلك جمع الاسلحة التى خلفها الالمان المنهزمون ، ومن 28 جانفى الى غرة فيفرى اجريت « عملية التطهير » فى ظروف من العنف اثارت الاستنكار لا فى تونس فقط بل وفى فرنسا وفى الخارج .

---

11) _ ولاية نابل حاليا . (ملحوظة للمترجم) .

واول من كشف عن الفضيحة صحافي امريكي مراسل شركة « اسوشدايتد براس » (Associated press) وازاء تعنت الاقامة العامة في عدم نشر بلاغ رسمي ، اطلق العنان للخيال ، وكثرت التعاليق ومنذ يوم 6 فيفري اعلم الوزير الاول « دي هوتكلسوك » بانه « نظرا لخطورة الاحداث التي عاينها الموظف الموجه على العين » قرر « ارسال صاحبي المعالي الماطري وزير الدولة وابن سالم وزير الصحة العمومية للقيام ببحث رسمي » • ويضيف انه يبدو له « من اللائق ان يشترك ممثل عن المقيم العام في هذه المهمة » • فلو قبل المقيم العام ذلك الاجراء لكان التقرير المشترك محل اعتماد قاطع ، ولاجتنب الجدل حول قيمة الاخبار المختلفة في الموضوع • وارسل تقرير الوزيرين ، وقد تركا لمجهوداتهما الخاصة ، الى المقيم العام اول الامر على امل ان يوقف تيار الاعمال التي « اعتبرت من شانها ان تعرض للخطر مستقبل العلاقات التونسية الفرنسية » ، ثم اذنت الحكومة التونسية في نشره يوم 6 مارس بعد ان شاهدت الى نداءين للباي لم يكن لهما « اي صدى » وان « الاعتداءات لا تزال متتابعة هنا وهناك » (12) • اما المقيم العام فاعترض فورا على قيمة تصريحات اخذت خمسة عشر يوما بعد وقوع الحوادث » ، واعتبر ان اشهار تلك الوثائق مناورة سياسية لن ينخدع لها احد » (13) •

وقام بالبحث آخرون جابوا تلك المنطقة ، وخاصة الطاهر بن عمار ، رئيس الحجرة الفلاحية وهو رجل معتدل لطيف ، وكذلك عضوان بمجلس الاتحاد الفرنسي اشتهرا بالخبرة والنزاهة وهما « بيار كورفال » المدير السابق لجريدة « لوب » (الفجر) والاب « لاقرا فينار » • ووجهت تهمتان اثنتان الى الجنود وبالاخص الى اللفيف الاجنبي : من جهة اغتصابهم لبعض النسوة وقتلهم لاطفال صغار ، ومن جهة اخرى نسفهم عمدا لمساكن وتحطيم اثاث واتلاف مؤن منزلية وارتكاب سرقات ، ففيما يتعلق بالنقطة الاولى لم يتخذ عضوا مجلس الاتحاد الفرنسي ، وهما من الحركة الجمهورية الشعبية ، موقفا نظرا لفقدان الشهادات الكافية • ويظهر ان المشكلة حقيقة صعبة الحل ، اذ ان الجيش عزل الرجال ، فالتجيء الى التصريحات المتضاربة بين النسوة والعساكر الذين اشتبكوا مع بعضهم بعضا • واما الاطفال الاربعة الذين اثبت

12) — « لوبتي متان » • في 7 مارس 1952 •

13) — « لابريس » في 8 مارس 1952 •

اغتيالهم (14) فواحد منهم فقط ، حسب تصريحات امه ، انتزع منها عنوة وقذف به على الارض ، وقد اكدت ذلك بعد ادائها اليمين على القرآن امام « جاك فونلوب ـ اسبرايير » النائب عن مقاطعة نهر « الـران » الاعلى من الحركة الجمهورية الشعبية ؛ واما الثلاثة الآخرون ـ حسب ما قيل ـ فاولهم وجد وجهه ازرق مشوها بعد مرور الجند ، وثانيهم داسه جندي بالاقدام ، وثالثهم قذف به جندي على الارض ، ووجدته امه ميتا عند رجوعها ، وقد فرت فزعا عند دخول اللفيف عليها • ولئن كانت التصريحات الاولى الصادرة عن الام تسترعي الاهتمام ولا تسمح ، كما لاحظه عن صواب « فونلوب اسبرايير » ، « بتصديق نكران السلطة العسكرية البات » ، فـان تصريحات آباء العائلات التي هي صدى لاقوال نسائهم ، وحتى التصريحـات التي اخذت مباشرة عن الامهات ينبغي اعتبارها بغاية الاحتراز ، فالام التي هربت مذعورة ، فسقطت ابنتها من بين يديها على الارض ، قد تعتقد عن حسن نية ان جنديا رمى بها على الارض • واما الحالتان الاخريان فلا يوجد حولهما اقناع كاف ؛ وتشريح الجثث في الابان هو الطريقة الوحيدة المقنعة للتحصيل على معلومات اكثر صحة • ولكن ذلك لم يتم • كما انه لم يجر فحص النسوة اللاتي ادعين الاغتصاب •

ولم يعترف الجنرال « قارباي » الا بالاعتداء علـى امراتين فقط ، وقد قام بـه جندي من اللفيف الاجنبي تم اعتقاله فـي الحين • ويباغت المرء بغاية الاستياء باللهجة التي استعملها في موضوع كهذا ، اذ قال : « تفتخر النساء ـ وقد رجعن من بعد في اقوالهن ـ باغتصابهن ، وعرض الطلبة الزواج بهن لمسح العار عليهن ، بعد ان تحققوا انهن متزوجات • وقد بلغ الامر الـى اخذ صورة لفرج امراة لها بعض الاخداش في اليتيها ، وعرضت هذه اللوحة المثيرة على الباي فتامل منهـا جلالته باهتمـام واضح » • ومن الممكن كما قاله الجنرال ـ « ان اغتصاب النسوة والاجهاض » من جملة « القصص المأثورة التونسية » ، ولكن الاشخاص الذين تلقوا شهادات الاباء البروتستان الملازمين للجند فـي

14) ـ ان ما أكدته « الاوساط الرسمية » من ان الطاهر بن عمار ذكر خمسة اموات بينما الحكيمان ابن سالم والماطري ذكرا اربعة فقط (« لوموند » في 22 فيفري 1952) غير صحيح • والحقيقة ان الطاهر ابن عمار لم يذكر الا اربعة • والمقيم العام ، الذي رفض تقرير الحكيمين ابن سالم والماطري لانه ارتكز على شهادات اخذت خمسة عشر يوما بعد الحوادث • صرح في 28 مارس بثقته الكلية في بحث اجراه محافظ شرطة بعد ذلك وهو يثبت ان الاطفال ماتوا اما قبل واما ثلاثة ايام بعد الحوادث ، ويحقق ان الاقتيال من طرف الجند « تبين انه لا اساس له من الصحة » •

اوائل احتلال شرقي المغرب الاقصى علموا منهم بان النسوة كن يرفعن ملابسهن الى العنق عند قدوم اللفيف الاجنبي لاجتناب تكسير جماجمهن عند اغتصابهن والقصص الماثورة ترتكز في غالب الاحيان على عادات متمكنة كل التمكن من الواقع . ففي تصريح للحكومة التونسية بتاريخ 6 مارس 1952 نجد ذكر « اختطاف امراتين والاعتداء عليهما بالفاحشة بجهة مكثر » بعد عمليات « التطهير » بالوطن القبلي ، « واحدى المعتدى عليهما صغيرة السن ، عمرها اثنا عشر عاما دون سن البلوغ حسب ما عاينه طبيب تونسي وطبيب فرنسي مقيم بمستشفيات باريس » . فما علينا الا ان نضيف هاته المعلومات الى الملف ، بدون أن يكون لدينا ما يكفي للحكم في المسالة بكل تاكيد .

اما السرقات وانواع الاضطهاد الاخرى فلسيت من هذا القبيل . فان « بيار كورفال » و « ولاقرافيار » استطاعا ان يجزما بان ما ذكره تقرير الماطري وابن سالم من « تهديم محلات للسكنى ونهب دكاكين تجارية واعدام الاشخاص » « كان مطابقا للحقيقة » . وقد عاينا بتزركة وببني خلاد ان كثيرا من الديار التونسية « نسفت بمفرقعات « الديناميت » او انهارت ، وقد دفعتها دبابة » (15) . وعد منها « فونلوب ـ اسبرابير » عشرة ببني خيار واربعة او خمسة بتزركة ، وقد هدمت عمدا لان اربابها دستوريون او كانت معدة للاجتماعات . ولم يكن الامر يتعلق « بحال من الاحوال بتهديمات اصبحت ضرورية اثناء عمليات حربية ، بل يتعلق بوسائل تهدف حقيقة وبالفعل الى الارهاب والانتقام » (16) .

لقد اعترف الجنرال « قارباي » بان العملية العسكرية « اجريت بصلابة وعنف وسرعة » بواسطة جنود « غير صالحين تماما لاجراء التفتيشات » و « لا يعرفون شيئا عن البلاد وعاداتها » . واعتبرها الكولونيل الذي قادها « كعملية حربية في الجملة » .

وتاثرت بعض الصحف لطريقة كانت تذكر كثيرا من الفرنسيين بذكريات قريبة العهد ومؤلمة ، وقد سلم اعتمادا على « شهادات صادرة عن ثقات » بان « الاعتداءات بالعنف كانت في الحقيقة اكثر مما روى » ، وبان التعديات المفرطة

15) ـ حسب « الماساة التونسية » ص . 37 ـ 43 . وفي 28 مارس 1952 صرح « دي هوتكلوك » بان التقارير ، ومنها تقرير الحكيمين ابن سالم والماطري ، « كانت كلها كاذبة » .

16) ـ « فونلوب اسبيرابير » : للحقيقة في شان حوادث تونس ـ في جريدة « لوبسرفاتور » (الرقيب) 10 افريل 1952 ـ ص : 12 ـ 13 .

التي صدرت عن جنود اللفيف الاجنبي واعوان الشرطة بتزركة والمعمورة وبني خيار تنفر الفكر العام من سياسة تستعمل مثل هاته الوسائل « خصوصا » ان تلك المراكز قد احتفظت بهدوئها في ايام جانفي ، وان عمليات الانتقام مست احيانا بعض قدماء المحاربين الذين شاركوا في معارك ايطاليا وفرنسا وبعض رجال العدالة الى جانب مناضلين دستوريين محنكيـن » (I7) واشيع ان بعض المعمرين شاركوا بالفعل في تلك العمليات لاعدام بعض الدستوريين والنقابيين.

ان بعض الفرنسييـن الشجعـان من بنزرت وفيريفيل (I8) وعلـى راسهم الباستور « لوران اوليف » انكروا على بعض مواطنيهم حق التكلم باسم كافـة الفرنسيين ، واكدوا « ان وسائل القوة او الحروب لم تجلب حتى للمنتصرين الا الخراب والبؤس » ، واعربوا عن املهم فـي ان الحكومـة ، عملا بالدستور الذي ذكروا بعباراته ، « ستهتم جديـا بالمشكلة التونسيـة مـرة نهائيـة » لاعطائها « بكل صدق ووضوح » حلا مطابقا للانصاف . فـان هذا التصريح ـ وقد انتقم من بعض الممضيين فيه ـ اكتسى صبغة البطولة في جو المعارك الذي تم الاصداع به فيـه .

واثناء اقامته بباريس في اواسط شهر فيفري ، تمكن الطاهر بن عمار من التحدث الى عدة شخصيات منهـا « موريس شومان » في شان ما في سياسـة المقيم العام والجنرال من حاجز مانع في وجه استئناف المحادثات التونسيـة الفرنسية . وتركت له محادثته مع كاتب الدولة احسن الانطباعات . وحسب مـا جـاء في وثـائق من « مصدر فرنسـي وعسكري » ، كـان « كورفال » و « لاقرافيار » يقدران عدد ضحايا الاضطهاد بما يتجاوز المائتين من القتلـى وعددا كبيرا مـن الجرحى بالايالـة . ولم يكن احد يعلم عدد المساجيـن او المعتقلين في المحتشدات . والظاهر ان ذلك تفوق اهميته مسالة حجز وزارة الخارجية لجوازات السفر عن ابن يوسف وبدرة لمنعهما من السفر الى الولايات المتحدة .

تعفن القضية التونسية

لقد اتفقت جميع التقارير في خلاصتها على ان الموقف الذي اتخذ لحد الآن آل الى اثارة الفريقين المتساكنين ضد بعضهما بعضا بصورة لا رجعة فيها .

I7) ـ « اورمونـد » ـ 3 افريل I952 .

I8) ـ « فيريفيل » هي منزل بورقيبة حاليا (ملحوظة للمترجم) .

ولكن رئيس الحكومة « ادقارافور » كان لا يريد أن تصبح تونس صورة ثانية من الهندالصينية • وعلى اثر مجلس للوزراء ثم مجلس مضيق انعقد بعنابه في 25 جانفي ، تقرر تكليف « روبار شومان » و « موريس شومان » بتحرير مذكرة معتدلة اللهجة الى بـاى تونس مستوحاة من تصريحات وزير الخارجية امام مجلس الجمهورية • فـلا تطالب باستقالة حكومة شنيق ، ولكنها تطلب سحب الشكوى المقدمة الـى منظمة الامم المتحدة التي كانت تبدو لهـا « غير مقبولة وغير شرعية » • ومن الغد سافر بالطائرة الى تونس « جاك دوهامال » مساعد « مدير ديوان رئيس الحكومة » وجان لالوا » مستشار سفارة ومساعد « الكساندر بارودى » الكاتب العام لـوزارة الخارجية • لكنهمـا لم يتمكنا من تقديم المذكرة الى الباى فقد إمتنع من قبولهما ما دامت عمليات « التطهير » بـالوطن القبلي مستمرة • ورجعـا يحملان على الاقل ارتسامـات لم تشجع « ادقارفو » على الاستمرار في سياسة وزارة الخارجية •

وكان يخشى على القضية التونسيـة من « التعفن » الذى يعـرض بهـا الى حدوث حالـة « لا مخرج منها » • فقد ظن فـي بادى الامر ان التونسيين قـد يفشلون ويستسلمون • وكان اعتقاد « الفنيين » انهم امثال « النساء » ، لهـم هزات عصبية سرعان ما تهدا بمجرد الخوف من الضرب او الاقامة بالمحتشدات فكان الاستغراب في الاوساط العليا من موقفهم غير المتوقع ، وسمع العريفون من وزارة الخارجية يقولون : « ما كنا ابدا نظن هذا ! » بيد ان بعض المتزنين من الدستوريين ، بالعكس من ذلك ، راوا ان ابناءهم سيتعودون بجو الحرب الاهلية ، فيستقون من حمـاس الكفاح اندفاعـا غير منقـاد يفلت مـن قبضة القدماء • وصارت اعمال المقاومة الفردية من دلائل المقاومة الوطنية التي لا يسمح اى وطني لنفسه ، مهما كان وديعا ، باستنكارها • ويبين ذلك فرحات حشاد ، فيقول : « لا نستطيع استنكار مثل هاته الاعمال علانية ، لانها نتيجـة مباشرة للاضطهاد الفرنسي ، ومهما اصبحت كل مفاوضة مستحيلة الا وركن الشعب الى السلاح » (19) •

وبتوالى الايام اخذت الشعب الدستورية ـ وهي القاعدة ـ تعمل مستقلـة ، واخذ المتطرفون ، اى انصار الكفاح المسلح لافتكاك الاستقلال دفعـة واحـدة يتغلبون على انصار التطور بمراحل • وظهرت القاعدة اقل اعراضا عن الحرب

(19) ـ تصريحات تلقاهـا « ب ـ م • ديسانج » ، ونشرت تحت عنوان « حرب العصابات فـي تونس » ـ في جريدة « لوبسرفاتور » ، 31 فيفري 1952 • ص 91 •

الشيوعي وسنظمته الشغيلة الاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي الرامية الى توحيد العمل بالرغم عن تعليمات الهيئة المركزية للحزب الدستوري • فقد تعرض خمسة من القادة الشيوعيين الى الآلام التي يتحملها معا ببرج رمادة باقصى الجنوب التونسي الدستوريون والتقدمي الدكتور سليمان بن سليمان رئيس اللجنة التونسية للسلم والحرية ، واعلنوا ان الشعب التونسي كان «يحقق وحدته القومية اثناء الكفاح بالذات» وان الوقت قد حان «لكافة العملة وجميع الوطنيين ، الدستوريين والشيوعيين وغير المتحزبين » للوصول الى «تلك الوحدة داخل جبهة قومية تونسية متسعة» في سبيل انتصار «قضية الحرية والاستقلال القومي المقدسة » (20) وعندما اعتقلت الحكومة الدستوريين والشيوعيين في دفعة واحدة ومن جمعتهم المحتشدات ، ارادت ان تنال من سمعة الحركة الوطنية امام الراى العام العالمي • فلم تخدع احدا حتى في امريكا (21) بل مكنت الدعاية الشيوعية من نقطة ارتكاز ممتازة ومكنت فرحات حشاد من تعلة لرفع القضية التونسية الى الجامعة العالمية للنقابات الحرة العتيدة • اما الخطر بالنسبة للمستقبل فقد وضحه الحبيب بورقيبة بقوله : « اذا ما خبنا نحن الدستوريين الجدد فلن يبقى بعدنا مجال الا للتعصب سواء التعصب الديني او التعصب السياسي » (22) •

مخطط « فرانسوا ميتران »

ذلك ما لم يكن « ادقارافور » يريده مهما كان الثمن ، وكان خلافا للتقاليد اعطى الوضع التونسي مكانته الحقيقية ضمن السياسة العامة • ولذلك كلف وزيرا شابا مندفعا وهو (فرانسوا ميتران) بالبحث عن حل • فكان المخطط المتحرر الذي وصل اليه هذا الباحث يمتاز بعدم التقيد بافكار مسبقة وبتقديم اسس ملموسة للمناقشة • فهو يرتكز على ضرورتين اثنتين مناقضتين للسياسة السابقة : « التعريف بكل قوة بالحد الذي نستطيع التنازل عنه والاسبيل الى تجاوزه ، التعريف بكل وضوح بالاصلاحات التي نرضى بها والمراحل التي

---

20) ــ نداء وجهه في 25 جانفي 1952 الى الشعب التونسي : محمد النافع الكاتب العام للحزب الشيوعي ، « وموريس نيزار » اهم محركيه ، وهو اسرائيلي تونسي ، ومحمد جراد وخميس الكعبي وجاك بلميش •

21) ــ في اهم مجلة مختصة بواشنطون « ذي ميدل ايست جورنال » (جريدة الشرق الاوسط) ربيع 1952 • ص 173 ، ينبه « بنجمان رفلين » الى « صبغة الحزب الدستوري الجديد المعادية للشيوعية » •

22) ــ ذكر هذا التصريح في 5 جوان على منصة البرلمان « ر • فارديي » النائب الاشتراكي لباريس ، وهو الذي تلقاه بنفسه •

ترتيبها لانجازها ، وفوق كل شيء تنفيذ ما حصل بكل حرص » . فكان « ميتران » يتصل بطريقة « بيار فيينو » سنة 1936 ابان المفاوضات مع سوريا ولبنان : معرفة الغاية المقصودة ، والسير اليها بدون ما حيلة او تردد . وصرح صاحب المخطط بتحبيذه لفكرة الجنسية المزدوجة والهيئة الانتخابية الموحدة مع وضع قاعدة الانتخاب العام في اقرب وقت ممكن . وينبغي ان تكون الاصلاحات البلدية من بين الانجازات الاولى . ولكن لا ينبغي ان يهمل مع ذلك ما لا يقل ضرورة حقيقية من انشاء مجلس تونسي يمثل مجموع سكان البلاد ، ثم مجلس ثان يمثل الهيئات الاقتصادية والاجتماعية ويكون « مكان التونسيين الفرنسيين فيه اوسع من المخول لهم في المجلس الاول اعتمادا على نسبتهم العددية » . وان رفضت فكرة المواطنة المزدوجة فيكون الالتجاء الى انشاء مجلس اقتصادى واجتماعي يتمثل فيه الفرنسيون بصفتهم تلك .

ويتضمن الاستقلال الداخلي حكومة تونسية بحتة ، باستثناء ما يتعلق بالدفاع الوطني والشؤون الخارجية ، ولمدة محدودة الشؤون المالية . وتبرم اتفاقات خاصة تحفظ مصالح فرنسا العليا . وتسوى مشكلة الوظيفة العمومية عن طريق الجنسية المزدوجة بالمناظرات المشتركة التي تقتضي معرفة اللغتين العربية والفرنسية . وفيما يتعلق بتوزيع الاختصاصات فالمجلس التونسي الاول مدعو الى النظر في كل ما يخص امور التشريع ، والمجلس الثاني للتفكير والتروى ، مع امكانية تحكيم مجلس استشارى مضيق . وتضمن فاعلية السلطة التنفيذية في الحياة السياسية باحتفاظ الباى بحق تقرير الوقت الذى يرى فيه الهيئات المنتخبة بلغت النضج الكافي ليباشر المجلس حق المبادرة وبانتهاء الادارة المباشرة لا يبقى للمقيم العام سوى مباشرة المراقبة من الخارج على السلطة التنفيذية . وينبغي ايضا للمراقبين المدنيين ان يقتصر عملهم على المراقبة ، مع امكانية مباشرة حق الرفض لتعطيل تنفيذ القرارات المحلية . وقد تدخل مثل هذه المقترحات حيز التنفيذ في اجال وجيزة . ومن الآن يجب ان تنجز بعض الاصلاحات البسيطة . وفي ظرف عشر سنوات قد يكون التطور على غرار ما تتخيله قد تم . وتحدد لجنة مشتركة المراحل لذلك » .

وكان من الميسور لمخطط « ميتران » ان يسمح باستئناف المحادثات بصورة ناجعة . فالحبيب بورقيبة يقول في رسالة الى ابنه في سبتمبر 1952 : «اطلعت

باهتمام على تقرير السيد « ميتران » عـن تونس • وهو يشتمل على قاعـدة معقولة للمفاوضـات كانت وزارة شنيق تقبلها بحمـاس منذ سنتين ، وقـد تقبلها عن طيب خاطر حتى اليوم ولو بكثير من الحذر بعد كل ما جرى منـذ ذلك الوقت • وهذه القاعدة هي ان السيد « ميتران » يقـرر عن كثـير مـن الصـواب ان بتونس امورا تهم فرنسا والفرنسيين بتونس ، والاخـرى لا تهم لا فرنسا ولا الفـرنسيـين بتونس ، وتلك هـي الحكمـة بـعينهـا • ويبقى للمتفاوضين ان يتفقوا على ما يوضع داخل كل من هذين الفصلين ، وقد تنشأ اختلافات جزئية تتعلق بمحتوى احد الفصلين ، لكنهـا سرعان ما تذلـل اذا كانت المبادىء الاساسية قد حددت بوضوح واتفق عليها الجانبان • » لكن مع الاسف زال هذا المشروع بسقوط وزارة « ادقار فور » • واجتنبت حكومـة « انطوان بيناى » تبنى مقترحات تشتم منها البدعة • ولم يتمكن « ميتران » من تقديم مخططه الى المجلس الوطني ، فتولى شرحه امام مؤتمر حزبه الاتحاد الديموقراطى والاشتراكي للمقاومة (U.D.S.R.) فى 17 اكتوبر 1952 • وليس مستحيلا ان يرجع اليه يوما ما ، بعـد ان يكون الوقت قد فات طبقـا للطريقة القارة التي تسلكها وزارة الخارجية •

مجتمعـان في حـالة حـرب

على العكس من « ادقارفور » ، لم يهتم « بيناى » بقضية تونس مباشرة ، وانما كان يود تخفيف التوتر • ولهاته الغاية كان يفضل لـو يستغنى عـن مساعدة « موريس شومان » الذى اضطر الى الانتظار فى سقيفة الغفران مدة قبل ان يرجع الى الوزارة بضغط من كتلة الحركة الجمهورية الشعبية • وهكذا وعادت وزارة الخارجية الى مباشرة السياسة في شخص كاتب الدولة والادارة الفرعية للمحميات • ووجد « دو هوتكلوك » مجالا فسيحا ليصرف مواهب عبقريته بكل حرية •

وفي باريس كانت المجهودات تبذل دائما عسى ان يقع الوصول الى حل ما• فبدرة وابن يوسف كانا يواصلان محادثات شبه رسمية عن طريق وسطاء ، ويقدمان معروضات مدكسة الى يوم 20 مارس 1952 • وقد سلم « ميتران » رئيس الجمهورية مخطط الاصلاحات الذى اعده ، فكان قاعدة بحوث داخـل مجلس الوزراء • على ان الحكومة الفرنسية تمسكت بشرطين مسبقين هما : إستقالة حكومة محمد شنيق التى لا يزال « موريس شومان » يراها ضرورية،

وسحب الشكوى المعروضة على الامم المتحدة التي تعتبرها الحكومة سبة لفرنسا .

ولم تتحسن الحالة بتونس . فالاعتداءات والمظاهرات متوالية . والادارة متصلبة في موقفها . ورد مدير العلوم والمعارف ، وهو صاحب ضمير ونفوذ ، الفعل ضد اضرابات التلامذة الصاخبة المصحوبة احيانا بمواقف ضد الاساتذة في غير محلها . فاغلق المعاهد ، وفصل عددا كبيرا من التلاميذ وطرد عددا من المقيمين منهم ، واستنجد بالقوة العامة . وبالرغم عن رغبة الوزير الاول الملحة ، وقد طلب منه اثناء مقابلتين اتخاذ عفو عام عن جميع التلاميذ ، فقد رفض متذرعا بمبدا الانقياد المدرسي الذي بقي على صرامته في فرنسا . وتم استرجاع التلامذة الذين رفتوا بصفة وقتية الى المدارس بعد قليل من الوقت بعد انعقاد مجالس التاديب ، واما من رفتوا نهائيا من معاهدهم ، وعددهم دون المائة ، فقد قبلتهم معاهد اخرى . ولكن نظرا للجو السياسي كان الاصرار على العقوبات وان كانت محدودة العدد ، يكتسي مظهر تجاوز للسلطة ، ولو كان ما يبررها من الوجهة الفنية . واصبح المدير في نظر الشباب رمز الجبروت لا لصلابته فقط بل لتصديه لبعض الضغوط ، وانهالت عليه الصحافة غالبا بدون انصاف .

ولا يجوز ان تقارن بين الاجراءات التي اتخذها مدير العلوم والمعروف ، القابلة للجدل وان كان باعثها دائما شعور سام بالواجب الصناعي ، وبين الاضراب الاداري الذي قام به رئيسا مصلحتين بوزارة الشؤون الاجتماعية معارضة في نيابة صالح بن يوسف المشكوك في شرعيتها . فالعادة المعمول بها في مثل تلك الحالة هي ان يتفاهم المقيم العام مع الوزير الاول لحل المشكلة من الوجهة القانونية بدون ان يترك لموظفيه القيام بمبادرات قد تضر بمقاصد الحكومة ، وانتهى الامر بابن يوسف (23) الى ان عطل المتمردين عن مباشرة العمل . فاخذت الموظفين الفرنسيين حمية ، وقاموا باضراب لمدة ساعة . وظل المجتمعان بتوالي الايام يتوغلان في حالة حرب، وظلت الاعتقالات في المحتشدات تعد بالآلاف .

23) ــ المعني بالامر ليس هو ابن يوسف الذي كان بباريس بل ابن سالم وزير الصحة العمومية (ملحوظة للمترجم) .

انذار الباى وعملية القوة التى قام بها « دو هوتكلوك »

لقد كانت منظمة الامم المتحدة تتهيأ للنظر فى الشكوى التونسية خلال شهر افريل • وكانت الدول الخمسة عشر العربية الآسياوية تستعد لتقديم مشروع يوصى مجلس الامن اما بان ينتصب حكما بين فرنسا والباى واما ان يوجه على العين لجنة وساطة • ولم تكن وزارة الخارجية قابلة للمقترح الاول ولا للثانى ، اذ قد تكون فيهما سابقة خطيرة • بيد أن الباى مازال مصرا على الاحتفاظ بوزرائه وهم يتمنعون من الانتحار امام تمثال « بول كامبون » رمز سلطة الاقامة العامة • فلم يعد حينئذ منفذ لسياسة خالية من الروح والابتكار سوى فرض التبرى على الباى من الشكوى المعروضة على الامم المتحدة بطرد وزرائه •

ولم تكن وزارة الخارجية تجهل نوايا « دي هوتكلوك » ، وقد صرح فى 28 مارس بقوله : « منذ مدة بعيدة فكرت فى الاجراء الذى اتخذته وخاطبت فى شانها منذ البداية وزير الشؤون الخارجية بان الحل الوحيد للمشكلة هو الاكراه • » والسوابق متعددة لاستعمال وسائل القوة بجبر الباى على الخضوع، لكن استعمالها لا يكون مجديا الا اذا كانت نسب القوات المادية والقوات المعنوية لم تتغير ، والحكومة الفرنسية باعتمادها مرة اخرى آراء الفنيين من وزارة الخارجية ، بالرغم عن الانذارات التى تهاطلت عليها لم تدرك ظروف الحالة الموضوعية • فاصبحت تتحمل مسؤولية جسيمة لا امام الراى العام الفرنسي فحسب بل وامام الراي العام العالمي ايضا •

وكانت السرعة فى العمل مطلوبة • فانّ المجلس الوزارى المضيق ، الذى انعقد فى 21 مارس 1952 وضبط مشروع الاصلاحات ، آل الى توجيه تعليمات الى المقيم العام يفوض له فيها الامر « لارجاع الظروف السانحة لاستئناف الحوار » • واكدت له وزارة الخارجية انها تضع فيه ثقتها التامة • وفى صبيحة 24 مارس طلب المقيم من الامين باى مقابلته على انفراد • فكان جواب الامير الشاذلى باى بان ذلك مستحيل • وفى الساعة الحادية عشر والنصف من يوم 25 استقبل الباى المقيم العام بحضور وزرائه فى قصر حمام الانف • فدعاهم المقيم العام بلهجة حادة الى ترك المكان لتشكيلة اخرى ، وبطلب من الباى امهله اجلا الى منتصف النهار ، وبارح القصر دون ان يسلم للباى مشروع الاصلاحات •

فارسل الباى فى الحين برقية الى رئيس الجمهورية الفرنسية لاعلامه بان « لهجة التهديد المستعملة من قبل السيد السفير « دو هوتكلوك » اثناء مقابلة اليوم تتنافى مع تقاليد فرنسا ، وتخول لنا ان نشك فى ان يكون مثل هذا السلوك هو سلوك فرنسا مع ملك قدم اليها فى جميع المناسبات الدليل على مودة صادقة » • على ان الاحداث تتابع سيرها ، وقد قلد المقيم العام الجنرال « قاباري » سلطة حفظ الامن • وفي الليلة نفسها القى القبض على الوزير الاول محمد شنيق وعلى الحكيمين محمود الماطرى ومحمد بن سالم وعلى محمد الصالح مزالى • ووجهوا بالطائرة الى قبلي بنفزاوة فى الجريد ، بينما نقل الحبيب بورقيبة من طبرقة الى رمادة • واتخذت تدابير اخرى ضد الشعب الدستورية والشيوعية التى ثبت تواطؤها حسب زعم المقيم العام • على انه لم يلق القبض على فرحات حشاد وزعماء الاتحاد العام التونسي للشغل اجتنابا لما عسى ان يصدر من الاحتجاجات عن الجامعة العالمية للنقابات الحرة وتاثيرها على الراى العام الامريكى •

استسلام الباى

لقد تلقت الاوساط البرلمانية الخبر بغاية الاندهاش ، وقد اكد لها « موريس شومان » ثقته فى امكانية الوصول الى حل وسط للمشكلة التونسية • ولم يخف الاشتراكيون غضبهم واستنكارهم للظروف التى وقع فيها اعتقال الوزراء واللبس الذى يقصد تغذيته بادماج الدستوريين والشيوعيين فى زمرة واحدة • وازداد تخوف الجمهوريين الشعبيين لوجود زميلين لهم يتحملان مسؤولية الحالة ، وذهب البعض منهم الى طلب استقالة الوزراء التابعين لكتلتهم • فهداوهم واعدين اياهم بان الاصلاحات التى ستمنح الى « الوزارة الادارية » ستكون جريئة بقدر ما يجب التغلب على فساد سمعتها لدى الراى العام التونسى •

ولم يقل تعجب رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة عن تعجب الاوساط البرلمانية • فقد ترك الصبى يلعب بالوقيد بدون توقع الحريق • وغدا من المتحتم البحث عن طريقة الحد من الكارثة • فارسل على الفور الى تونس « جان فورجو » و « جاك كوزيوسكو — موريزى » الكاتب العام ومدير ديوان رئيس الجمهورية حاملين جواب هذا الاخير • ومن الصدف المؤسفة ان حملت

طائرتهما سليمان باى ابن باى الامحال وولى عهد الامين باى بدون علم « فانسان اوريول » (24) .

ومن المشكوك فيه ان تكون رسالة رئيس الجمهورية قد ارضت الباى تماما بالرغم عن شواهد المودة التى اعرب عنها لاول حاكم فى فرنسا . فان «فانسان اوريول » يصرح بانه شديد التعجب « من لهجة برقية الملك مثل ما تعجب الامين باى من لهجة السفير . وهو يلفت نظره الى ان حكومة الجمهورية وضعت برنامج اصلاحات ربما ياسف البعض لجرائه ، ولكنه عند تطبيقه فى مراحل سيجد فى نجاحه وسرعة انجازه مبرره وتعاقب اطواره » . وهو يتعجب من من ان الباى لم يتبرا من الوزراء الذين قدموا شكوى الى الامم المتحدة بدون استئذانه ومن انه لم يوجه بعد نداء للحث على الهدوء . وهو يطلب منه فى آخر الامر « تعيين حكومة اتحاد وتهدئة باتفاق مع ممثل فرنسا حتى يتم تشكيل اللجنة الفرنسية التونسية المكلفة بضبط الاصلاحات المقررة من قبل حكومة الجمهورية فى اقرب وقت » ، وهى قد تمكن من السير بتونس « فى كنف احترام سيادتها واسرتكم المالكة والمصالح المشروعة لفرنسا وللفرنسيين بتونس نحو هذا الاستقلال الداخلى الذى يتوقف تحقيقه السعيد خاصة على حكمة قادتها » .

كانت هذه الرسالة «المحايدة نوعا ما فى جوهرها والمطمئنة فى صيغتها » (25) تذكر بالتزامات فرنسا ، ذاكرة عبارتى « السيادة » و « الاستقلال الداخلى » اللتين سهت عنهما من سوء الحظ مذكرة 15 ديسمبر 1951 . ولكنها بسكوتها نفسه صادقت على التعدى بالقوة على الوزراء ، واعترفت بفرض « حكومة اتحاد وتهدئة » على الشعب التونسى . ولم يتخل المقيم العام عن استثماره حضور نائبى رئيس الجمهورية وتقديمه للراى العام كمصادقة على سياسته . ولا شك فى ان ذلك الحضور جنب اخطر الحوادث ، اذ ان الباى استسلم ، وقد اصبح يعتقد بان « دو هوتكلوك » تؤيده اسمى السلط الفرنسية . على ان ذلك لا يمنع من التاسف لان يظهر رئيس الاتحاد الفرنسى « فانسان اوريول » الذى يجمع الناس على احترام شخصيته ، فى مظهر المتضامن مع سياسة التعدى بالعنف الجارى بها العمل فيما وراء البحار .

24) — هو رئيس الجمهورية الفرنسية المتحدث عنه (ملحوظة للمترجم) .

25) — « ديسانج » . « فيلم الازمة التونسية — فى جريدة « لوبسرفاتور » . 3 افريل 1952 ، ص 7 .

لقد فرض المقيم العام على الباي صلاح الدين البكوش وزيرا اول ، وهو من اكابر المالكين وتاجر ثري ومع ذلك ديبلوماسي وسياسي محتال . فكـان من المأمول ان يسير بمركبة الدولة في طرقات وعرة باقل ما يكون من الارتجاج والاضرار . ومع ذلك هل لا يكفي تغيير التشكيلة الوزارية لتصبح الحالة صافية في الحين ؟ ولذا صرح السفير بقوله : « فمن المتوقع ان نجد بعض الصعوبات الصغيرة ، ولكن تلك الصعوبات ستذلل الآن بسهولة على ما اعتقد . واني لا ارى من شأنها تعكير الجو الممتاز الذي نشأ الآن . وبعد اربعة عشر يوما من ذلك ، لاحظ صحافي جدي ان الازمة التي تمر بالعلاقات التونسية الفرنسية تعتبر اخطر الازمات التي عرفتها من قبل ، وقليل ممن حادثتهم يرون حلا لها » (26) .

ان «دو هوتكلوك» ، بعد ان مزق بضربات واسعة من مقصه ، وجد نفسه مضطرا لرتق ما قد ، وهو لم يعدم الوسائل ليحقق لنفسه حرية العمل وشل خصومه ، فحالة الحصار تمكن من الاعتقالات بالجملة والاقامة لامـاد محدودة في مراكز الجندرمة والسجون الضيقة بدون اتصال بالخارج ولا نجدة المحامين . ومهما كانت حقيقة المعاملة في مراكز الجندرمة والسجون ، فقد اصبح لا حديث الا عن الاعتداءات بالعنف وانتزاع الاعترافات بالاكراه والتعذيب . وكانت هاته الشائعات تجد رواجا حتى في الاوساط التونسية الاكثر حذرا . ولا يفلت من الرقابة لا الرائد الرسمي التونسي ولا « فيكتور هوقو » . واجتنابا للعدوى على القراء من صحافة فرنسا ، فان السلطة العسكرية تتولى شراء كل ما يرد منها حين وصوله الى تونس ، ما عدا عدد ضئيل من الجرائد المحظوظة التي لا يشك في سلامتها . ولكن من سوء الحظ كان من المستحيل منع تسرب الاخبار وتناقلها ومنع الاذاعات الاجنبية من اعطاء التفاصيل عن حالة اصبح من العسير حتى على المتفائلين اجمل التفاؤل ان يجدوا فيها ما يبعث على التشجيع .

اجتمع ممثلو الهيات المنتخبة التونسية برئاسة الطاهر بن عمار . ولم يخفوا استنكارهم . وطلبوا « بكل الحاح من الحكومة الفرنسية اعادة النظر

26) ـ « ر . قوتيي » ـ تشكيل وزارة البكوش لا يضع حدا للخلاف الفرنسي ـ التونسي . في جريدة « لوموند » ، 10 افريل 1952 .

فى الحالة من جديد وبكل سرعة » (27) فكانوا بذلك يعبرون عن نفسية الراى العام الذى برز اجماعه حتى فى عناصره الاكثر اعتدالا على الحكم على سياسة الاضطهاد التى سلكها المقيم العام . فالازمة التى بدات باطراد وزارة شنيق، عوض ان تخمد الافكار وترهبها قد « عجلت بالتطور الذى ابتدا منذ عامين بمفعول عمل الحزب الدستورى الجديد المستمر الملح » (28) . وقد اثبتت التجربة ان الجماهير الشعبية صارت دستورية . وبان للملاحظين ان الحالة كما كانت عند تكوين وزارة شنيق قد انقلبت راسا على عقب » . فالى التذكير بالمطالب العامة السابقة التى لم يتم ارضاؤها الى الآن ، والى ذكر الوعود السالفة التى لم يوف بها الى حد الآن، انضافت مآخذ جديدة . وهى تردد كالتسابيح اثناء المحادثات ، وتدعى : مذكرة 15 ديسمبر ، الضغط على الملك، اطراد وزارة شنيق ، الاحكام الموزعة بكل سخاء ، تدابير الابعاد الادارى (29) . والاخطر من الاضراب الذى شنه الاتحاد التونسى للشغل ومن المظاهرات الهوجاء التى قام بها شباب مندفع ، ومن الاعتداءات والاعمال الارهابية ، هو ان ذلك الاجماع الكلى ، الذى تنكر وجوده السلط العمومية المتشبثة بالنظرية الكسولة القائلة بحمل التبعة على « المشوشين » ، كان يثبت الى اى حد قد يصل فى المجال الاستعمارى طمس ابصار الذين لهم اعين ولا يبصرون بها .

قضية بوحافة

وللنيل من مكانة زعيم الحزب الدستورى الجديد لدى التونسيين المعتدلين والامريكان نشرت جريدة « لوفيقارو » بتاريخ 5 افريل 1952 رسالتين تسلمتها من مصدر موثوق به ، وهما موجهتان الى العابد بوحافة . وقد تعرض فيهما الزعيم الى امكانية الالتجاء الى السلاح ان فشلت المفاوضات . وينبغى من دون شك البحث فى آن واحد بالقاهرة و « نيويورك » عن الكيفية غير الشريفة التى مكنت من هذين النصين ، اذ لا يمكن ارجاعها لا الى تفتيشات فى المقر الموجهة اليه ، والذى كانت فى ملفاته يسكن الولايات المتحدة ، ولا الى نسخ عثر عليها بتونس وقد اعطت « لوفيقارو » صورة طبق الاصل للصفحة الاولى من الرسالة الاصلية المؤرخة فى 23 ماى .

---

27) — النهضة . 28 مارس 1952 .
28) — « لوموند » . 10 افريل 1952 .
29) — « لوموند » . 10 افريل 1952 .

ومن المؤسف انه لم تنشر الصورة الفوتوغرافية الكاملة للوثيقتين ، فان حذف ستة اسطر – من غريب الصدف – في عين المكان الذي بسط فيه الحبيب بورقيبة برنامجه مصرحا باستعداده لقبول الفرنسيين في البلديات ، والشك الطبيعي الذي يحف بمنشور على هذا النمط ، قد حملا محرر الرسالتين على ان يقول : « يمكن لي ان اتحدث طويلا عن الرسالتين الموجهتين الى بوحافة ، فقد حذف منهما ستة او عشرة اسطر ، بلغ الحرص على عدم وضعها تحت نظر القارئ درجة ان جريدة « لوفيقارو » احتاطت ان لاتنشر في الصورة الفوتوغرافية الا طالع الرسالة ، بصورة تترك الستة أسطر التى يتالف منها القسم الثاني في طي الخفاء » • (30) ويتعجب المرء من ان الجريدة الباريسية الكبرى لم ترد على هاته التهمة بنشرها حالا لصورة فوتوغرافية من الفقرة التي اهملتها ولرسالة الاحتجاج والتوضيح التى وجهها اليها بوحافة • ويزداد التعجب من ان وزارة الخارجية التي كانت على علم من تلك الوثائق قد تباطات في اباحة نشرها ، والحال انه من حسن السياسة اطلاع الراى العام حالا ان اريد حقيقة عرقلة دعاية زعيم الحزب الدستوري الجديد ، وتحطيم مفعولها •

وكانت للماساة التونسية ناحية مضحكة • ففي باريس غفلت وزارة الخارجية عن اعلام وزارة الداخلية بايقاف الوزراء بمجرد ما بلغها الخبر • فتمكن ابن يوسف وبدرة من مبارحة نزلهما بكل حرية • فبدا تفتيش مستميت يجرى فى كامل العاصمة الباريسية ، قام به ابرع مفتشي الشرطة للعثور على محاليهما ، بينما كانا يخترقان الحدود الفرنسية البلجيكية بكل اطمئنان •

وزارة موظفين

وفى تونس ما زال البكوش يبحث عن وزراء لتشكيل وزارته بنجاح يشابه ذلك النجاح • وكان « صلاح الدين » بقصره بالمدينة يستقبل الشخصيات التى يود مشاركتها • فرفضت الواحدة تلو الاخرى اما لئلا تظهر في مظهر التاييد للوسائل الزجرية التي استعملت ضد محمد شنيق ، واما لاعتقادها بان برنامج الاصلاحات لا قيمة له » • وقد دعي احد الدستوريين القليلين الذين بقوا في حالة سراح وهو الهادي نويرة المعتبر المثقف الاكثر تفتحا

30) – رسالة موجهة من بورقيبة الى ابنه من رمادة في 29 افريل 1952 ، نشرتها جريدة « لاريبوبليك الجيريان » (الجمهورية الجزائرية) في 20 جوان 1952 •

الى التاثيرات الغربية ، والـذى كشفت افتتاحيات جـريدة « ميسيـون » (الرسالة) عن براعته وتبصره • فرفض المشاركة فى الوزارة • فالقى عليه القبض لحينه ، ووجه الى احد المحتشدات • فصار عدم قبول منصب وزارى يعتبر جريمة تعاقب بالاعتقال فى المحتشدات •

وكان الكاتب العام « ريمون بونص » العظيم القدرة فى حالة يقظة ونشاط مستمر ، فهو تارة يعتمد على فصاحته واخرى على الحيلة ، وثالثة على الضغط، معتقدا ان السلطـة ينبغى لا ان تستجلب الرضا ولكـن ان تفرض نفسهـا فرضا • وهو يجرى وراء سراب وزارة يتاخر امامه فى كل خطوة ، معلنا بثقة يكذبها الواقـع ان « الباى سيضع غدا طابعـه عـلى الاوامـر » • وظل مـن الضرورى تقديم اسباب مقبولة لتبرير تلك التاخيرات ، فتارة لم يتمكن عامل صفاقس من قطع 275 كيلومترا التى تفصل تلـك المدينة عن العاصمـة فـى الاجل المطلوب ، وثانية لم يعثر على خطاط بارع لنسخ الاوامر التى يتطلب تزويقها علاوة على ذلك وقتا طويلا ، وثالثـة صادف الاعلان عـن تشكيـل الوزارة يوم الثلاثاء وهو يوم يتطير منه ، فاصبح مـن الافضل انتظار يـوم سعيد الطالع • واما البكوش فلم يظهر تعجلا للوصول الى تشكيل وزارته ، سواء لانه كان يريد انتظار هدوء الهيجان الشعبى ، او لانـه كـان يفضل انتظار قرار الامم المتحدة • وحينما تيقن ان امساك الولايات المتحدة سينجر عنه رفض الشكوى وان الوزارة الجديدة لن تجبر عـلى التبرى مـن الوزارة السابقة ، عزم ذلك « المتمهل » فـى 12 افريل على ان يعرض على البـاى وليد ابتكاره الذى بقى فى المخاض خمسة عشر يوما • وقد التجأ عنـد فقـدان مساعدة المستقلين الى اختيـار اعضاد اغلبهم مـن الموظفين حكامـا وعمـالا حريصين على المحافظة على مناصبهم • وكان من بينهم الطيب بلخيرية رئيس القسم الاول واحد الستة « المرشحين الصالحين لوراثة » وزارة شنيق الذين عرضهم التجمع الفرنسـى على « روبار شومـان » فى 26 نوفمبر الماضى • وهكذا تحصل « كولونا » على ترضية كاملة •

لقد فازت فرنسا فـى مجلس الامـن الذى رفض فـى 14 افريل ترميـم الشكوى بخمسة اصوات ضد اثنين وامساك اربعة وهو انتصار مهين خطير النتائج بالنسبة للمستقبل • فان انكلترا وحدها منحت فرنسا صوتها وتاثر الراى العام الامريكى مـن الامساك الـذى قرره « دين اتشصن » لاسبـاب « تتعلق بالشؤون الاطلسية » وارفقه بشروح لا تزين ، واعتبـره تكـرانـا

للسياسة الامريكية في الشؤون الاستعمارية ، ويستحيل على اى حزب فى الخريف اثناء المعركة الانتخابية ان يصادم الراى العام من جديد • فكان من المتحتم حينئذ على فرنسا ان تذلل ما لها من صعوبات لا فى المغرب الاقصى فقط بل وفى تونس ايضا ، حتى تكون فى مقام محترم • بيد ان مبادرات « دو هوتكلوك » جردت الحوار من كل قيمة مقبولة ، فصيرت كل وفاق مستحيلا ، بالرغم عن « التفاؤل الرسمي » الذى يجوز لنا ان نتساءل فى شانه « هل هو يعتبر طريقة فى الادارة ، ام كان الباعث عليه جهل خطير للراى العام التونسي » (31) • وذلك ما تبين جليا بمجرد ما صرح صلاح الدين البكوش بمشروع الاصلاحات ، ووجب تشكيل اللجنة المختلطة المكلفة بدرس طرائق تنفيذها •

مخطط البكوش للاصلاحات

فان البكوش بمجرد ما عين لتشكيل وزارته ، صرح فى غرة افريل بمشروع الاصلاحات الذى اتفق عليه الباى والمقيم العام فى 28 مارس (32) • وهذا المشروع يعترف صراحة بسيادة الباى • وريثما يتم انجاز « الحكومة التونسية المنسجمة » يعين مساعدون لرؤساء الادارات الفرنسيين ، وتقتضى حرية العمل التى ضمنت لرؤساء الادارات حذف مراقبة الموظفين المركزية وحذف المصادقة على القرارات » وانشاء محكمة ادارية « لمراقبة شرعية التدابير الادارية » عوضا عن ذلك ، وتتحقق المشاركة فى الوظيفة العمومية « باعطاء الافضلية للتونسيين » باستثناء بعض الوظائف المخصصة للفرنسيين • ويبقى الملك يباشر سلطته التشريعية فى صورة الاوامر العلية ، لكن « يساعده على ذلك مجلس تشريعي تونسي بحت » يتركب من 30 عضوا يعينهم الباى فى البداية ثم ينتخبون • وفيما يتعلق بالميزانية والمسائل المالية فان « مجلسا ماليا متركبا من التونسيين والفرنسيين بالتناصف » يرث اختصاصات المجلس الكبير السابق •

وفى مناطق الاعمال تتكون مجالس تقرر « الميزانية المحلية للمصاريف ذات المصلحة المحلية » • وتصبح البلديات منتخبة حسب نسب لتمثيل الفرنسيين تعين فيما بعد ، على ان يكون تمثيلهم متساويا فى العدد مع التونسيين فى « جميع المدن الكبرى العصرية » • ويمكن المبادرة بكامل

31) — « لوموند » • 17 افريل 1952 •
32) — « لوموند » • 3 افريل 1952 •

الشرعة باصلاح الوظيفة العمومية وتنصيب المحكمة الادارية » بعد ثلاثة اشهر من ادراج امر انشائها بالرائد الرسمي » • ثم بعد ستة اشهر تحذف مصادقة المقيم العام على القرارات • ويبقى له الحق « في التاشير على القرارات كذي قبل » • وبعد خمسة اعوام يتسنى الشروع في المرحلة الثانية التي لا تحدد في تعاقب اطوارها » الا بعد التامل من نتائج التدابير التي تضمنتها المرحلة الاولى •

مشروع لم يرض

لم يرض مشروع الاصلاحات هذا لا التونسيين ولا الفرنسيين • فالوطنيون – وحتى المعتدلون منهم – لم يجدوا فيه سوى بعض التعديلات الجزئية لاصلاحات سابقة « لا تستجيب بالمرة الى الاصلاحات الاساسية التي طالب بها الباي في خطابه في 15 ماى 1951 ، وبالخصوص فيما يتعلق « بتمثيل مختلف طبقات » الشعب التونسي • ووزع الحزب الدستوري الجديد بيانا تضمن ردا مفصلا على تلك الاصلاحات تشتم منه رائحة صنع رجال القانون (33) • وقد لاحظ هذا الرد في البداية ان استعمال عبارة « سيادة الباي » عوض « السيادة التونسية » استعمالا مطردا مفهوم الغرض اذ ان السيادة التونسية «لايستطيع ان ينوب عنه غير التونسيين ولا ان يباشرها سواهم» • وسلطة الباي التشريعية باقية ، لكنها « لا تزال مقيدة بتاشيرة المقيم العام» التي تحرمه في الواقع « من الابتكار التشريعي » ، وهي معرقلة باختصاص الكاتب العام الذي « له ان يدرج النصوص التي يراها » في الرائد الرسمي • والمجلسان استشاريان لا غير • والمجلس المالي « الوارث لنقائص المجلس الكبير » يفقد المجلس التشريعي كل سلطة حقيقية ، لان غالب المسائل لها انعكاسات مالية • والتساوي العددي بين الاعضاء التونسيين والفرنسيين « ما هو الا الصورة المجسمة لنظرية السيادة المزدوجة المخالفة للمبادىء القانونية والمجلس التشريعي لا يتفق ورغبات الملك الذي اتخذ موقفا واضحا لا لفائدة مجلس يعينه هو ولكن لفائدة « برلمان حقيقي منتخب انتخابا حرا مباشرا »

ويلاحظ البيان الدستوري ان التساوي العددي بين اعضاء البلديات بالمدن الكبرى يسجل تقهقرا بالنسبة لاقتراحات سابقة ، ويكون تطبيقه جارحا ، خاصة ان الجالية الفرنسية تساوي نسبتها العددية 18 في المائة من السكان

---

33) – ان النص المطبوع « بالروبنيو » يشتمل على سبع صفحات كبرى ، وقد تحصلنا على نسخة منه بفضل مساعدة الادارة الفرعية للمحميات •

في عاصمة تونس وفي بنزرت ، و11 في المائة في سوسة ، و5 في المائة في قفصة ، و8 ، 1 في المائة بالقيروان . اما التدابير المقررة في خصوص السلطة التنفيذية فانها تعكر الحالة الراهنة فانسجام الحكومة التونسية لا يلوح الا « كامكانية بعيدة الوقوع جدا » ، وقد جرت تجربة المساعدين التونسيين لرؤساء الادارات فلم يمكنوا من « الاختصاصات والسلط الا ما اراد رؤساؤهم الفرنسيون التبرع به عليهم » ، وتبقى مصادقة المقيم العام على القرارات صورية ما دام الكاتب العام مكلفا بنشر النصوص التشريعية والترتيبية بالرائد الرسمي وسبق الاعتراف للوزير الاول بسلطته على المصالح العمومية لمساعدة الكاتب العام ضمن الاوامر الصادرة في 8 فيفري 1951 » ، فصار في الحقيقة حذف مراقبة الموظفين المركزية ، التي قدمها مشروع الاصلاحات الفرنسي كتوسيع لحرية الوزراء في العمل ، خزعبلة جسيمة ترمي لا اكثر ولا اقل الى انتزاع الاختصاصات الضئيلة التي تحصل عليها اخيرا الوزير الاول»

اما انشاء المحكمة الادارية « فقد كان التونسيون دائما يطالبون به » غير ان المشروع الفرنسي « لا يزيد الحالة الراهنة الا تعكرا بوضع لبس مقصود بين المراقبة السياسية » ومراقبة شرعية الاجراءات الترتيبية ، « وفي ميدان الوظيفة العمومية » فالتونسيون مجمعون على اعتبار ان الادارة ينبغي تخصيصها للتونسيين ، على ان تضمن حقوق الفرنسيين المكتسبة في فترة انتقالية » ، بيد ان جميع الاصلاحات التي كانت اتخذت من قبل لم تنفذ في الواقع ، كما ان قاعدة الافضلية للتونسيين الجديدة خالية من اى ضمان . واما تخصيص وظائف للفرنسيين فهو خرق للسيادة التونسية . وخلاصة القول ان المشروع الفرنسي يرمي « الى اعطاء صبغة شرعية لتصرفات الحماية الخاطئة ولسياسة الادارة المباشرة ونظام السيادة المزدوجة المخالف للمبادىء القانونية ، والى ادخال تقهقر واضح على المؤسسات السياسية في تونس » .

ولم يكن التجمع الفرنسي اكثر ابتهاجا بذلك المشروع . ووضع شروطا ، منها المساواة العددية في جميع الهيئات حتى المجلس التشريعي . وتمسك فوق كل شيء بمشروع اللجنة المختلطة حيث يريد اظهار نفوذه بصورة ناجعة (34) . وقد اعلن المقيم العام في 28 مارس ان النصوص الاساسية قد

34) – انظر خاصة اراء « ايف بيروسال » المندوب الجهوي للتجمع الشعبي الفرنسي « وجان بريول » كاتب المقيم الفرنسي للمجلس الكبير « وبتيبيار » من الحركة الجمهورية الشعبية في جريدة « لابراس » ، 3 و 4 افريل 1952 .

يقع عرضها على مناقشات لجنة مختلطة ستجتمع فى 24 افريل 1952 ، على ان تتم اعمالها فى اوجز الاجال » • فكيف تتكون هاته اللجنة واين يكون مقر اجتماعاتها ؟ فقد رفض التجمع الفرنسى حالا مشاركة « رجال السياسة من فرنسا او موظفين قادمين من فرنسا الذين هم، مهما كانت قيمتهم الشخصية، يجهلون تونس واهلها » • وطالب بتمثيل متساو فى اللجنة « بين التونسيين والفرنسيين بتونس ، فيمثل بعضهم السكان ، وبعضهم الآخر المصالح الاقتصادية والصناعية » ، ويمانع فى اختيار اى مدينة بفرنسا مقرا للجنة (35) ولما اقترحت على « ادقار فور » رئاسة اللجنة ، اظهر بعض التردد • وفى تونس وجد البكوش صعوبة فى تعيين اعضاء اللجنة المختلطة السبعة لا تقل عن التى اعترضته عند تشكيل وزارته • فالشخصيات التونسية امسكت عن الاستجابة لدعوته او رفضتها (36) وعلق الطاهر ابن عمار مشاركته ، التى كان مرغوبا فيها بصورة خاصة ، على « توسيع دائرة برنامج الاصلاحات » الذى لا ينبغى « ان يقيد اعمال المتفاوضين وانما يكون مجرد اطار لها (37) •

هجوم « كولونا »

ذلك ما لا يستطيع كولونا قبوله • وفى الوقت الذى وصل فيه المقيم العام الى باريس لتلقى نصائح الاعتدال وتشكيل اللجنة المختلطة ، اعلن السيناتور « كولونا » نائب الفرنسيين بتونس عن المعروضات الكفيلة اكثر من سواها بمنع كل حل وسط • فمع موافقته مبدئيا على اختصاص اللجنة ، يتاسف « للتسرع الذى اظهر لبعث الحياة فى تلك الهيئة » التى ينبغى ان تسبق اجتماعها « اتصالات شخصية ولجان شبه رسمية » يناقش فيها الفرنسيون والتونسيون وجهات نظرهم • وتلك هى نفس النظرية التى تضمنتها رسالة المتفوقين الصادرة فى 26 نوفمبر 1951 ، الرامية الى ارجاء الاصلاحات الى وقت غير معين • ومع ذلك يصرح كولونا بان الفرنسيين على استعداد للمشاركة فى اعمال اللجنة المختلطة « على شرط طبعا ان يكون اعضاؤها ممثلين تمثيلا مباشرا حقيقيا للمجموعات التى ستقرر مصيرها » • والتذكير بهاته المبادىء ليست له سوى قيمة تاريخية ، وقد يصح أن يقال فى شانها

35) — « بيروسال » فى « لابريس » ، 3 افريل 1952 •
36) — « النهضة » — 15 افريل 1952 •
37) — « لا بريس » ، 14 ماى 1952 •

ـ بالقياس على عبارة للجنرال « قارباي » ـ انها من جملة القصص الفرنسية المأثورة بتونس .

بيد ان الاخطر من ذلك هو الدرس الذى يعطيــه السيناتور كولونــا الى وزير الخارجية رابطا ايـاه بماضيه مبرزا تقلبانه فيقول : « كانت رسالــة 15 ديسمبر 1951 من دون شك محل تاويل متارجحة الى حد الآن ، ولكنها الى حد الآن لم يتبرا منها صراحة من بقى مسؤولا عن السياسة الفرنسية بتونس، ولماذا يقع لها ذلك ؟ ولماذا نخجل منها ؟ » ويختم قوله باتخاذ موقف يقضى قضاء مبرما على مشروع اللجنة : « ان رسالة 15 ديسمبر 1951 لا تــزال ميثاقنا فيما يخص العلاقات الفرنسية ـ التونسية . (38) .

لقد ارادت الحكومــة الفرنسيــة ايهام نفسهــا بانهــا قادرة على الوفــاء بالتزاماتها . فاضطرت مرة اخرى للاعتراف بعجزها . واخذ المقيم العام يعد ما استطاع بان للجنة المختلطــة ستجتمع قبل 20 ماى ، وهو تاريخ مناقشة القضية التونسية بالبرلمان الفرنسى ، وعلى الابعد يوم 24 ماى الذى صادف دخول شهر رمضان . فاتخذ رفض « ادقارارفور » تعلة للاعراض عن المشروع ولم يتيسر لا استهواء الوطنيــن التونسيين ولا تعديل موقف المتفوقيــن ، وتعرضت جريدة معتدلة الى اقامة شنيق بباريس ، فحكمت بما يدين سياسة وزارة الخارجية القصيرة النظر ، وقالــت : « ان زوار شهر اكتوبر كانــوا يرجعون مبتهجين لو عادوا يحملون فى حقائبهم نصف ما يظهر اليوم لبعضهم فى صورة مفزعة ، وحتى اقل ممــا لا تزال فرنسا تعتزم تقديمه الى الشعب المحمى » (39) .

فشل سياسة القوة

وهكذا سيجد المقيم العام نفسه لمناقشة الاصلاحات اما امام حكومة فاقدة للسمعــة والتــأييــد ، وامــا امــــام ملـــك معطشن البــــال لاجمـــاع الراى العام وعازم على معارضة الضغط الفرنسى . ولــم يخف الامين باى احتقاوه لبعض وزرائه ، والحق بهم اهانات علنية . ولا تزال الحالة الداخلية

38) ـ « لوموند » ، 19 افريل 1952 . ولاحظت جريدة « الصباح » الدستورية فى 25 مارس 1952 انه بعد « هذا الجواب المزعج تصبح » كل المحاولات كمحاولات الوزير الفرنسى « امانويل طامبل » « عبثا » .

93) ـ « تونس سوار » (تونس المسائية) 13 ماى 1952 .

محرجة ، ففى كامل البلاد اخذت الاعتداءات تتكرر بدافع ارادة ارهاب مطرد • ولاتقصد الحوادث التى تجرى على السكان المدنيين الا بعث الفزع واستزادة اضطهاد قد ينتهى الى حرب لا هوادة فيها • وتتهيا الجالية الفرنسية للقيام برد الفعل ، وكان تحطيم صيدلية لاحد اقارب الدكتور ابن سالم (40) علامة لميلاد ارهاب مضاد •

لقد تحصل المقيم العام مستندا الى تاييد من رئيس الحكومة الفرنسية على نداء من الباى فى 14 ماى 1952 للرجوع الى الهدوء والسكينة ، يستنكر فيه « الاعمال الشنيعة التى تسببت من سوء الحظ فى ضحايا بشرية يزداد عددها يوما بعد يوم وفى اضرار مادية جسيمة » والتى « تتنافى مع تعاليم جميع الاديان وخاصة ديننا الحنيف (41) • واذيع هذا النداء من الغد يوم الذكرى التاسعة لارتقاء الامين باى على العرش • وقد ابطلت جميع الاحتفالات الرسمية والافراح التقليدية نظرا للاحداث • ولم يتمكن التونسيون من الاحتفال بعيد جلوس ملكهم الا « فى قلوبهم واعماق نفوسهم » (42) وكان لنداء الباى فى حينه تاثير على الحالة •

ان طريقة القوة التى كان « ريمون بونص » يرى فيها الترياق السياسى لم تات الا بنتائج خيبت الامال • فوزير الخارجية لم يوافق عليها الا على امل نجاح سريع يستر ما جد من امور غير مشروعة • وكان يتعذر عليه بسط مثل تلك النظرية امام البرلمان على الاقل خوفا من الانعكاسات العالمية • فحرص المقيم العام على اتخاذ تدابير للتهدئة • وفى 6 ماى رخص للوزراء الاربع، الذين كانوا نقلوا بعد الى جربة ، فى الرجوع الى ديارهم على شرط الا يقوموا بنشاط سياسى اثناء الاسابيع الموالية ولا يقيموا بتونس ، ولا يذهبوا الى الباى بقرطاج • ولكن جميع هذه القيود رفعت عنهم فى 33 • ونقل عدد من القادة من اقصى الجنوب الى جهات الين اطقسا نظرا لقرب الصيف• واطلق سراح عدد من المساجين واربعمائة وخمسين من المبعدين وبقى فى شهر ماى على حد قول الجنرال « قاربای » اقل من تسعمائة مبعد فى المحتشدات والف واحدة من المساجين ، وقد علقت بهم قضايا من انظار المحاكم العسكرية • غير ان هاته الارقام اقتبلت فى

40) — ملحوظة للمترجم : الحقيقة انها صيدلية لاحد اقارب صالح بن يوسف •
41) — « تونس سوار » فى 16 ماى 1952 •
42) — « الزهرة » ، جريدة تنتمى الى الحزب الدستورى الجديد ، 17 ماى 1952 •

تونس بمزيد الشك والريبة (43) اما العفو العام فان المقيم قد صرح في 7 جوان بانه لا سبيل الى التفكير فيه (44) ·

مهمة « ايمانويل طامبل »

ومهما كانت ثقة الحكومة في « هوتكلوك » فانها كانت تشعر من حين لآخر بحاجة الى ارسال « مبعوثين خاصين » ليمدوها بارشادات اكثر وضوحا · فبعد مساعدي « فانسان اوريول » اتى دور وزير قدماء المحاربين « ايمانويل طامبل » الذي كان مهتما منذ زمان بمسائل افريقيا الشمالية والذي كان له اصدقاء في المجتمع التونسي ، من بينهم محمد شنيق والطاهر بن عمار وقد كانت ظروف زيارته موضوع نقاش طويل في مجلس وزاري مضيق · وكان من المسلم به انه ، زيادة على الحفلات الرسمية التي تهم وزارته ، يستطيع ان يقوم باتصالات تخص العلاقات التونسية الفرنسية · وقد ذهب في تلك الاتصالات الى اقصى حدود اوساط الحزب الدستوري الجديد التي ما زالت بحالة سراح ، ان لم يتجاوزها « في غاية السر والكتمان » (45) وقد اهتم الراي العام كثيرا بمادبة الغداء التي اقامها الطاهر بن عمار للوزير « طامبل » ولتسعة عشر شخصية تونسية ، وقد مكنت حسب رئيس الحجرة الفلاحية «من تبادل وجهات النظر تبادلا وديا متسعا جدا حول مجموع المشاكل التونسية » · وتمكن المدعوون « من الجانبين من التعبير عن آرائهم بكل حرية ، لان السيد « طامبل » رجل متشبع بروح التفهم ، وله خبرة جيدة بالقضية التونسية » (46) ·

ولم يشاهد المقيم العام بعين الرضا تدخل شخصية وزارية يبدو ان التونسيين كانوا يقدرونها كثيرا ، في مشمولات انظاره · ولم يدار المتفوقون ذلك الوزير الذي لم يقتصر على استقاء معلوماته منهم · وغضبت الرقابة

---

43) — يعطي بلاغ من الاقامة العامة في 2 جويلية 1952 الايضاح الاتي : « ... صحيح انه بالسجن المدني بتونس الآن عدد من المساجين يفوق العدد الذي تحمله (2000 عوض 900) » · فهنالك اذن احد امرين ، اما ان يكون العدد الذي اعطي في ماي غالطا ، واما انه تم اعتقال في بحر الشهرين التاليين عدد من الناس بحيث تضاعف عدد المساجين عامة في كامل الايالة حتى اصبح في السجن المدني بتونس فقط ضعف ما كان عليه قبل ولو باعتبار مساجين الحق العام ·

44) — « لوبتي ماتان » ، 8 جوان 1952 ·

45) — « تونس سوار » ، 18 و 19 ماي 1952 ·

46) — « تونس سوار » 20 ماي 1952 ·

الطرف على الهجومات العنيفة التي وجهت ضد الوزير ، وهي صاحبة الحرص الشديد على حذف ابسط انتقاد يوجه الى الاقامة العامة . وذكرته الصحافة المحلية بانه لا حاجة الى تقريره لمعرفة درجة حرارة السياسة التونسية : « والذى تجلي خاصة من هذه الرحلة الوزيرية ، هذه الرحلة الغريبة التى كان ما تحدثه من اهتزازات ، بمجرد ما يصدر في شانه تكذيب يحدث اخرى هو انه يتحتم الغاء هذه النظريات البغيضة نهائيا . فمخادعتنا بنظرية الزيارات ذات الفخفخة لم تعد تنطل علينا » (47) وقد ترك سفر هذا الوزير الافكار في بلبلة وحيرة .

لقد زاد تقرير « طاميل » الخلافات القائمة داخل مجلس الوزراء تاكيدا وحدة . فهو يدافع عن اقتراح الطاهر بن عمار بانشاء مجلس تشريعي تونسي بحت ، ومجلس مختلط للمصالح الاقتصادية ، ووزارة اغلبيتها اهلية . وقام هذا الاقتراح مقام الفضيحة . واشيع في منابر المجلس الوطني انه عندما صرح « طامبل » بان الاستمرار على المماطلة ينتهي الى التفاوض مع الحبيب بورقيبة ، وصف «شارل برون» وزير الداخلية موقف زميله بكل صلابة وشدة . وفي النهاية حافظ مجلس الوزراء على البرنامج المعبر عنه ببرنامج « بيدى ـ هوتكلوك » . ولم يبق سوى ضبطه وحمل الامين باي على قبولـــه .

صـلابة « هـوتكلـوك »

وفي نفس اليوم الذى فتحت فيه المناقشة في المجلس الوطني الفرنسي بشان ، تونس تولى « دوهوتكلوك » اثارة المشكلة التونسية امام الصحافة الديبلوماسية في دعوة اقيمت على شرفه ، وكان منذ اسبوع بباريس يعدد مساعيه فيها . فاكد انه ذهب الى تونس بنية « تحبيب فرنسا اكثر واحسن من ذى قبل » ، وانه اليوم « واثق من الوصول الى ذلك » ، وقد تولدت الازمة حسب رايه من سوء تفاهم في مسالتين : « كان التونسيون يشكون في عزمنا على انجاز اصلاحات » بالرغم عن عطف فرنسا الذى تجسم منذ ثمانية اعوام في تدابير « جوهرية كانت في بعض الاحيان متسرعة جدا : مثال ذلك التجربة الاسيفة التى تمثلت في دخول الحزب الدستورى الجديد

47) ـ ذكره « فيرديبي » في تصريح له على منبر المجلس الوطني في 5 جوان 1952 (الجريدة الرسمية » بتاريخ 6 ، ص 2953) .

في الوزارة » ٠ وبعد ان مجد الفرنسيين بتونس ابدى في مشكلة الوظيفة العمومية وجهة نظر لم تكن لتجلب عطف التونسيين : « انها مشكلة انسانية قبل كل شيء ، فالمعمرون لهم جميعا عائلات عديدة الافراد ، وليس من الانصاف غلق ابواب الادرة في وجوه ابنائهم ٠ ومن جهة اخرى يطالب التونسيون بالوظائف لابنائهم بحجة نمو عدد السكان ٠ ولكن ليست العشرة الاف منصبا اداريا التي قد تشغر هكذا هي التي تمكن من توظيف 1٠500٠000 تونسي الذين سيتضخم بهم عدد السكان في ظرف خمسين عاما » ٠ وبعبارة اخرى فبما ان الوظيفة العمومية يعسر عليها ضمان الشغل لفائدة 4٠500٠000 تونسي بعد نصف قرن من الآن فان طلب الوطنيين لا طائل وراءه ، بينما يحق لـ 180٠000 معمر « أن يطالبوا بالوظائف لابنائهم» ٠ فحجة المقيم العام تتلاقى وحجة المتفوقين في رسالتهم المؤرخة في 26 نوفمبر 1951 ، وهي ان تعيين عشرة الاف موظف من الاهالي « لا يمثل ابدا تحسينا جوهريا في ظروف العيش لثلاثة ملايين من البشر » ٠

بيد انه بعد حديث المقيم العام بثلاثة عشر يوما صرح « روبار شومان » امام المجلس الوطني بان الوظيفة العمومية « مفتوحة ابوابها في المستقبل مبدئيا للتونسيين وحدهم » ٠ وبهذا التصريح كان وزير الشؤون الخارجية يقوم بعمل وصفه « دوهوتكلوك » بغير منصف » وغير ناجع ٠

واما سوء التفاهم الثاني فهو يرتكز على غرور التونسيين في اعتمادهم على التاييد الامريكي ٠ ويهنىء السفير نفسه بان اقالة « دين اتشطون » بباريس قد محت ذلك الوهم محوا كاملا اذ اصبح من المحقق ان الولايات المتحدة « ستمسك من جديد عن التصويت لو رجعت القضية التونسية مرة اخرى امام منظمة الامم المتحدة » ٠ ويؤكد المقيم العام على العكس من ذلك ان الوطنيين محرزون » على تاييد الشيوعيين لان تدعيم مركزنا الاستراتيجي الغربي في البحر الابيض المتوسط يتنافى مع مصالح روسيا السوفياتية وعلى تاييد الكتلة العربية الاسيوية لان عزم فرنسا على حمل جميع العناصر الاسلامية والاسرائيلية والفرنسية على حياة مشتركة يتعارض مع التعصب الشرقي » ٠ وان لم يكن تواطؤ في المبادىء » بين الشيوعية والتعصب ٠٠ فان الواقع يشهد به » ويختم تصريحه قائلا : « غايتي انشاء اخوة حقيقية ومجموعة تونسية فرنسية حقيقية ، واني واثق من بلوغها » (48) ٠ فان تكن في مثل

48) — جريدة « لاديبش تونزيان » ، 6 جوان 1952 ٠

هذا التبسيط للمشاكل العالمية خاتمة حياة ديبلوماسية طويلة ، وان يتمكن التفاؤل المهني من القدرة على الصمود امام خمسة اشهر من الاضطربات الخطيرة كالتي جرت بتونس ان في ذلك لمثل عجيب لدرجة عدم لادراك التي قد يبلغها سفير •

القضية التونسية امام المجلس الوطني الفرنسي

لقد ابرزت المناقشة التي دارت في المجلس الوطني الفرنسي يوم 5 جوان الخلاف المستحكم بين المعارضين في الاصلاحات ومؤيديها • ونظرا لفقدان نواب عن الفرنسيين بتونس فان ثلاثة من نواب الجزائر قاموا بالكفاح الشريف ضد الابتكارات المنكرة وهم : الجنرال « ادولف اومران » و «فرانسوا كليشى » و « جاك شوفاليى » • والاول شديد القول قصيره ، والثانى لاذع التعبير ، والثالث بارع فى نظرياته المبدئية • وقد عبروا فى صيغ مختلفة عن نفس التجربة الجزائرية التى رجعوا اليها وعن نفس التخوف من تسرب العدوى الى الجزائريين من الحريات التى قد تمنح الى التونسيين ، وعن نفس المعارضة لكل تدخل امريكى فى شؤون شمال افريقيا • وبنى الجنرال « اومران » فى الميدان القانونى على نظرية عميد كلية الحقوق بعاصمة الجزائر « لوى ميليو » فى فقدان السيادة التونسية • واخذ يمجد اعمال فرنسا مستندا الى تصريحات للمنصف باى ، بدون ان يشعر على ما يظهر بانها تؤكد الاستبداد فى خلعه من قبل الجنرال « جوان » • وتلا مكاتيب صادرة عن حاشية ولى العهد الذى لا يجهل احد فى تونس تبعيته للاقامة العامة • وصوب « كليشى » هجومه ضد وزارة الخارجية العاجزة عن الادارة • واعتمد على نصوص رسمية للتشهير بالسرقات الجارية فى المستشفيات تحت حماية الدكتور ابن سالم وبصفقة السكر المشطة الثمن التى عقدها صالح بن يوسف « وقد تفوقت مصالحه الخاصة على المصلحة العامة بهاته المناسبة » • وبين الصبغة الاستبدادية التى يكتسيها الحزب الدستورى الجديد • ووجه اللوم على وزير الخارجية لانه لم يربط فكرة الديمقراطية بفكرة الاستقلال وقال : « فاذا ما منحتم الباى استقلاله ، اذ لا صلة لكم بغير الباى ، يكون فى ذلك عقابكم ، يا سيادة وزير الخارجية ، اذ ترجعون بالاهالى التونسيين المساكين الى نظام استبدادى تعيس من عهد القرون الوسطى والى نظام الرشوة » • بيد انه فى 15 ماى 1951 كان الملك نفسه طالب بانشاء نظام ملكى دستورى ، الامر الذى سها الخطيب حتى عن الاشارة اليه •

اما « جاك شوفاليى » فكان ابرع من ذلـك بكثير اذ تكلم عن المشكلـة من علو ، فاكد ان احسن طريقـة لتحقيق الوفاق بيـن المجتمعين هى فـى حملهما على التعاون فى جميع المراحل ضمن هيئات متساوية التركيب . واشار الى ما قد ينجر من الخطر عن تحول وطنية الشوارع غير المسؤولة شيئا فشيئا الى كفاح طبقات . ومما يؤسف له ان فكرة الدفاع عن الروح الجماعية المرتكزة على التساوى فـى التمثيل لجماعتين متفاوتتين فـى العـدد كالتى دافع عنها « شوفاليى » بكل فصاحة ، لم تكن تظهر مزاياها السياسية الا من اليوم الذى اوشك فيه عدم التساوى ان يكـون لصالح التونسيين . ولقد هاجم جميع نواب المعارضـة بحماس كبير تدخلات وزارة الخارجيـة الامريكية ، واشعر الخطيب « كريستان فوشى » من تجمع الشعب الفرنسى « روبار شومان » بوجوب تخليه عن منصبه . وصرح النائبان الشيوعيـان « ارتور جيوفونى » و « جان بارتولينى » بكل صراحة بحق التونسيين فى التصرف فى شؤونهم بانفسهم ، واخذا يعددان مساوى الاضطهاد خاصـة فى بنزرت .

لكن من بين جميع الخطب ، كان الذى خلف اكبر اثر فى المجلس لتجرده وقوة اقناعه بالرغم عن لهجته المعتدلة ، هو خطـاب « روبار فردييى » ، وقد رجع اذ ذاك من البحث الذى اجراه على العين بتونس ، ولم يقتصر اثناءه على الاتصال بالاوساط الحكومية والشخصيات الفرنسية والتونسية ، بل اتصل كذلك بالمعتقلين وحتى بالحبيب بورقيبة بجزيرة جالطـة . فاعطى بسطة مفصلة محكمة عن سياسة التناقضات الشبيهة « باسنة المنشدر » المتبعة من قبل الحكومة ، وعما تعانيه وزارة البكـوش واللجنة المختلطـة ، وعن ارتباك الرقابة ومظاهر تحاملها . وقام بنقد مدقق لنتائج مذكرة 15 ديسمبر 1951 . ونادى بسياسة صريحة تمكن من استئناف الحوار بصورة ناجعة ، وقد كانت تلك المناقشة البرلمانية تبرز المتناقضات فى الراى وتحددها بدون ان تظهر امكانية اى حـل وسط . ولم تتخذ موقفا . فاوكـل امر متابعة المناقشة الى لجنة رؤساء الكتل بالرغم عن احتجاج اليساريين ، وقد صاح « رونى معطى » متهكما : « هذا تاجيل الى يوم الميعاد التونسى » .

حكومـــة متقلبـــة

ولم تستانف المناقشة الا بعـد اسبوعين ، يوم 20 جوان . واهم ما برز اثناءها تصريح الحكومـة بشدن مشروع الاصلاحات على لسـان « روبـار

شومـان » امـام المجلس الوطنـي وعلى لسـان شارل بـرون امـام مجلس الجمهوريـة وقـد برر الـوزير باحتشام مذكـرة 15 ديسمبر 1951 ، وكـان من المرغوب فيه معرفة كيفية تحريرها ومن الذى حررها ومن كان معارضا فى تحريرهـا • ومر الوزير بسرعة خاطفـة على اقامة شنيق بباريس التى انكر المبادرة بها • ولم يتفوه ولو بكلمة عن اعتقال الوزراء • وايد «دوهوتكلوك» تاييدا كاملا ، وهو امر طبيعي ولكنه كان ينبغي ان ينطبق على م • «بريلي» لان سياسة كبش الفداء ليست بطريقـة رشيدة فى الحكم (49) • وكـان البرنامج ، الذى قدمـه وزير الخارجيـة اذ ذاك ، لا يختلـف عن البرنـامج الذى عرضه البكوش فى غرة افريل 1952 الا فـى جزئيات كـانت لبعضهـا دلالة هامة ، « فالمساعدون التونسيون » الملحقون بـالمديرين الفرنسيين انقلبوا الى « مديرين مساعديـن » ، وهـو امر ليس بالجديـد اذ ان هنالك موظفين يحملون بعـد هذا اللقب فى ادارة العلوم والمعـارف وفـى ادارة الاقتصاد العـام وادارة الصحة العموميـة منذ سنة 1946 • ووضح الوزير تركيب المحكمة الادارية ، فهـى تتركب من اربعة حكام تونسيين واربعـة حكام فرنسيين ، ويراسها فرنسي يؤخذ من بين اعضاء مجلس الدولة •

والابتكار الجديـد الذى لم يلفت الانظار هو احداث دائـرة استئنـاف تونسية ، يكون مقرها باريس ، وتنظر فـى صحـة القرارات الصادرة عن المحكمة الادارية • وهى تتركب من ثلاثة مستشارين من مجلس الدولة ومن ثلاثة تونسيين ، ويراسها رئيس قسم النزاعات بمجلس الدولة • فهـذا الابتكار كان يستجيب الى انتقاد « بيروسال » على الصيغة النهائية لقرارات المحكمة ، مطالبا بامكانية استئنافها امام مجلس الدولة • وادخل تغييـر على شروط «لانتداب فى الوظيفة العمومية التـى » خصص الدخـول فيهـا بعنوان الافضلية للتونسيين » فى المشروع الاول • فصار من المسلم به ان تكون « فى المستقبل مفتوحة مبدئيـا للتونسيين فقط » ، مع الابقاء علـى الوظائف المخصصة للفرنسييـن • ولم يغير شيء فيمـا يتعلق بالمجلسين اللذين لهما نظر استشارى ما عدا امكانية انتخاب مجالس الاعمال والمجالس البلدية لاعضاء المجلس التشريعي تدريجيـا ، اى انتخابا على درجتين ، وما عدا حذف تقسيم المجلس المالى وجعله قسما واحـدا ينتخب جزء من اعضائـه فـى نطاق التمثيل الاقتصـادى • وبقيت نسبـة الفرنسييـن

49) — « جاك فرفي » فى « لوموند » — 21 جوان 1952

والتونسيين فـي بلديات المدن الكبرى غير مضبوطة ، وكذلـك تواريـخ التطبيق لمختلف الاصلاحات •

وفي الختام دس الوزير بمهارة ملاحظة يبدو انها لم تسترع انتباه النواب، فقال : « لا نفكر في تمكين مجلس تشريعي من سلطة التقرير والبت وفـي انشاء شكل من النظام البرلماني قبل تنصيب المجالس المحلية المنتخبة التي هي قواعد البناء الضرورية والمقرر احداثها بعد في 15 برنامج الاصلاح الحالي» فكان في ذلك جوب غاير مباشر لخطاب العرش في 15 ماي 1951 ، فهو يرفض مبـدا الانتخـاب المباشر لفـائدة الانتخـاب عـلى درجتين ، ويعلـق انشـاء النظام البرلماني على تنظيم البلديات الذى قد يتطلب آجالا طويلة •

وهكذا بينمـا كانت الحالة فـي تونس تتطلب اتخاذ مقررات عاجلـة إذا بتنميق نص غرة افريل تنميقا بسيطا يستغرق ثمانين يوما • وقد مكن ذلك التردد من تذكية الحماس • فقد ضج منتخبو شمال افريقيا مظهرين سخطهم بكل حدة • وصاح الجنرال « اومران » لهـذا العمل الاستسلامـي من قبل فرنسا ، بينما ندد « كولونا » في مجلس الجمهوريـة ، وسط الغوغاء التـي كانت تغطي صوته ، بالتنكـر الفاضح للمواعيد التي قطعت ، بعـد ان نعـت مشروع الاصلاحات بتسوية سيئة لقضية فرنسية • واخذ « ميتران » الكلمة قبل الوزير ، فبين ان التردد الرسمي كـان منشـؤه الخوف من قطع مبـدا التساوي المتولد عن امور حدثت بعد انتصـاب الحماية واخذ يشرح بمشرط حاد مشروع غرة افريل • وبعد ان استمع الى الوزير تاسف من انه ليس في المشروع ما يأتي بعنصر جديد قد يحمل على التقارب والتفاهم •

معركة لوائح ختم النقـــاش

ان المعركة التي دارت يوم 20 جوان 1952 حول لوائح ختم النقاش المعروضة اذذاك على التصـويت تعد من اكثـر المعارك التـي عرفها النظام الجمهـوري اضطرابا وعمقا • ولم تظهر الحكومة اثناءها في مظهر التضامن السالم من اى تصدع • فبينما كان رئيس الحكومة « انطوان بيناى » يطلب تاجيل المناقشة نظرا لتغيب وزير الخارجية اذا « بروبار شومان » يدخل القاعة وسط الضحك العام وتصفيق اصدقائه البليغ • ولوحظ الوزيران « يتبادلان عبارات فيهـا شيء من الحدة » (50) وعندما وجه الخطيب من التجمع الشعبي الفرنسي طلبا

(50) — « لوموند » — في 22 جوان 1952 •

عنيفا مفاجئا بالاستقالة الى « شومان » ، لم ينبس رئيس الحكومة ببنت شفة . وهو لئن اخذ في خطابه على عاتق فرنسا مشروع الاصلاحات المعروض ، الا انه لم يجد ولو عبارة واحدة للدفاع عن زميله ضد الهجومات العنيفة التي تعرض اليها ، ولم يصرح « بيناي » بان كل تصويت ضد وزير الخارجية يعتبر سحبا للثقة عن كامل الحكومة » الا بعد التدخل الوجيز الذي قام به « ميتران » وهو بالرغم عن انفصاله عن الحكومة قد امتنع من الانضمام الى الحملة العامة . وعند ذلك « شوهد منظر التصالح الودي » (51) واتيح كذلك « لشومان » ان يتلقى من فم « كيليشي » اسرار بعض زملائه من الحكومة وهم يتبراون من مسؤولية جراته في المسالة التونسية . وهكذا بعد ن ايد « روبار شومان » رغم كل شيء مذكرة 15 ديسمبر 1951 وطريقة « دوهوتكلوك » السياسية وجد نفسه قد تنكره اصحابه قبل ان يتم المجلس الوطني اجتماعه الثالث .

لقد القى رئيس الحكومة خطابا مناسبا للمقام في موضوع اتضح انه لم يكن يتحمس له . فقال ان فرنسا لها مكانتها المرموقة في شمال افريقيا ، وانه من المتحتم حفظ النظام بتونس لصالح الاصلاحات . وكان المجلس منوتر الاعصاب يفكر في شؤون اخرى . وكان يشتم عليه جو المعركة . فرفض الواحدة تلو الاخرى لوائح ثلاثة : لائحة « كيليشي » والنواب المستقلين من الجزائر المصممين على الانفصال عن الاغلبية ان تقرر انشاء مجلس تشريعي تونسي بحت ، ولائحة « فرديي » على لسان الاشتراكيين وهي تستنكر السياسة الخارجية التي بدات بمذكرة 15 ديسمبر 1951 وتطلب من الحكومة ان تبحث في جو من التهدئة عن اسس جديدة لتشارك تونسي فرنسي ، ولائحة « ارتور جيبوفوني » والكتلة الشيوعية الرافضة لسياسة القوة لفائدة الامتيازات الاستعمارية والمطالبة بالاعتراف بحق الشعب التونسي في الحرية والاستقلال القومي . (52)

وبمناقشة لائحة تجمع الشعب الفرنسي التي قدمها « قاسطون بالوسكي » و « كريستيان فوشي » و « ريمون درون » ارتفعت حرارة جو المجلس الوطني فجاة . وقد ختمت تلك اللائحة بان وزير الخارجية صار « غير

---

51) ـ « اورلد » ـ في 22 جوان 1952 .

52) ـ حصلت تلك اللوائح على الاقتراع الآتي : لائحة « كليشي » 193 لها، و404 ضدها لائحة « فرديي » : 108 لها ، و 460 ضدها ، لائحة « جيوفوني » 99 لها و 512 ضدها .

كف، « للنهوض بالسياسة الاوروبية » . وكان الغرض من ذلك عقاب « شومان » لا عن سياسته الافريقية فحسب بل عن سياسته الاوروبية ايضا. وشن « فوشي » الحملة النهائية بكل كبرياء ، قائلا متجها الى الوزير : « في هاته الاشهر الاخيرة تلاقفتكم الضغوط السياسية من الخارج ومن الداخل ، فتهتم بصورة ملحوظة ، ولم تصادقوا الا بشفتيكم على سياسة حبكها غيركم ، ومنهم البعض من زملائكم في الحكومة ... تسلمتم البلاد التونسية هادئة مزدهرة ، واليوم ها هي الفوضى ، وها هو ذا الدم وها هي ذا الاموات ... فهل تعتقدون ، من خالص ضميركم ، ان مكانكم ما زال بوزارة الخارجية ؟ نحن لا نعتقد ذلك ، وانتم تدركون بانفسكم ان العموم لم يعودوا يرضون بذلك »(53) . وبعد تدخل رئيس الحكومة رفضت تلك اللائحة باصوات 274 ضد 227 . وقد انقذ الاشتراكيون الوزارة بامساكهم عن التصويت ، لكن « شومان » لم يظفر بنصف اصوات المجلس لتأييد سياسته . فلم يكن ذلك نجاحا .

اذ ذاك دخل الراديكاليون في الميدان . وقدموا لائحة كانت تسجل في قسمها الاول عزم المجلس « على ان تتمادى فرنسا بتونس في سياسة متواصلة من الاصلاحات التدريجية في نطاق الحماية » ، وتحقق « حماية المصالح الفرنسية التي في بقائها الشرط الضروري القار لكل تعاون فرنسي اسلامي » . ثم تطلب اللائحة من الحكومة في قسمها الثاني اتباع سياسة واضحة مطابقة لتصريحات رئيس الحكومة تخول مع احترام الامن العمومي رجوع جو الثقة الضروري لازدهار البلاد التونسية » . وكان « روني مايار » الذي اشرف على هاته اللائحة ، وهو رجل الحكومة ، لم يندفع في تطرف زملائه من الجزائر ، وهو مع اتخاذه موقفا ضد حكومة تونسية منسجمة ولفائدة مجلس تشريعي مختلط . كان يعتبر اثناء تدخله في المناقشة يوم 19 جوان ان برنامج الاصلاحات لم يكن يشتمل على « تدابير تقبل الانتقاد في مجموعها » ، وانه كان يحرز على كسب عظيم « لو انجز من قبل » (54) . ثم لما ادرك انه يجب الخروج من المازق الذي انتهت اليه المناقشة ، حاول حمل المجلس على اتخاذ موقف بابراز اغلبية توافق على سياسة للاصلاحات التدريجية في نطاق الحماية مع الدفاع عن المصالح الفرنسية . واردف ذلك بموافقة الحكومة موافقة محتشمة محدودة

---

53) — الجلسة الثانية يوم 20 جوان — الجريدة الرسمية في 21 جوان 1952 ص . 3096 .
54) — الجلسة الثانية ليوم 19 جوان — الجريدة الرسمية في 20 جوان 1952 . ص 3064 .

الى درجة قد تجلب المترددين المتحيرين اثناء الاقتراعات العشرة السلبية السابقة وتحصل « ميتران » على الموافقة على التصويت بتفكيك فقرات اللائحة • فقبل القسم الاول برفع الايدي ، ورفض القسم الثاني باغلبية ثلاثمائة وثمانية وعشرين صوتا ضد مائتين وثمانية وخمسين ، منها اصوات الاشتراكيين • ولما لم تبق اية لائحة اخرى صرح الرئيس حسب تراتيب المجلس بقوله : « انتهى المشكل » • ورفع الجلسة رغم احتجاجات تجمع الشعب الفرنسي •

ففي مسألة ذات اهمية كبرى كمسالة السياسة الفرنسية في تونس اعترف المجلس الوطني بعجزه عن اتخاذ موقف ما • ورفض برنامج الاصلاحات باغلبيات متناقضة من اليمين ومن اليسار ، بعضها لانه كان يراها مشطة ، وبعضها الآخر لانه كان يعتبرها غير كافية • وكانت المسؤولية راجعة على الحكومة ، وقد تسببت بترددها في خلق جو من التخوف والريبة حتى لدى اصدقاء وزير الخارجية ، اكثر مما هي راجعة على المجلس الوطني ، ولم يكن تاثير ذلك اقل سوء ، سواء في تونس او في الخارج •

ان جلسة 20 جوان المنعدمة الوجود كانت لها سابقة في التاريخ البرلماني والاغرب من ذلك انها حدثت في خصوص تونس ايضا • فغداة احتلال البلاد التونسية حاول « جول فيري » ، وهو مستقيل ، تبرير سياسته التي اثارت في 8 نوفمبر 1881 مرافعة اتهام قاسية من « كليمانصو » ، فجاب عنها « جول فيري » جوابا متحرجا • وتركت المناقشة تاثيرا عميقا من القلق والحيرة • واغتنمت جماعة اليمين الفرصة لحمل وزر اغلاط الرجل الخاصة على النظام باكمله • ولم تبق عند ذاك اغلبية لتخوفها من اغلاط رئيس الحكومة وخشية القضاء على السياسة التونسية باكملها • وبذلك تفسر خاتمة كانت تفوق كل وصف ، رفضت اثناءها ثلاث وعشرون لائحة معللة • وعند ذاك ، وبعد مناقشات دامت ساعتين بدون جدوى قام « قمبطا » وكان يهيم في معابر البرلمان او ظل صامتا في مقعده ، وصعد الى المنصة ، وانقذ الموقف • فتم التصويت على لائحة تقتصر على اعلان « ان البرلمان مصمم على تنفيذ الاتفاق الذي امضته الامة الفرنسية تنفيذا كاملا » • وقبلت باصوات 355 ضد 68 معارضا و 124 ممسكا • ونجت الحماية • وقام « روني مايار » بنفس المحاولة ، بعد سبعين عاما ، وكان يستطيع ان ينجح فيها لو استعمل صيغة وجيزة بسيطة كالتي استعملها « قامبطا » ، ولكن كانت

تعوزه مكانة ذلك الخطيب القدير ونفوذه ، وهنالك نقطة شبه اخرى بين الجلستين : ففى 8 نوفمبر 1881 لم تعد لفرنسا حكومة ، وفى 20 جوان لا وجود لها ، فكان ارتباك المجلس الوطني ينبع مباشرة من تقاعس الهياة التنفيذيـة ،

تصلب المتفوقين

ان وزير الخارجية لم يستنتج من المناقشة اى اتجاه ، وبقي حرا فى التمادي على برنامجه بدون تغيير او ملائمة للظروف ، لكن الظرف لم يكن ليسمح له بالزيادة فى الاقدام ، فامام مجموعة تونسية متشددة وراى عام اجنبي قلق ، ظلت الحكومة منقسمة عاجزة عن تبني سياسة حازمة ، واثارت المناقشة البرلمانية ، فى تونس خيبة عامة في مختلف الاوساط (55) فالتجمع الفرنسى تلقى بكل الاستياء والحسرة رفض لائحة « كليشي » ونواب الجزائر التى كانت تعرب عن مطامحه ، ولاحظ عن ذلك باستهزاء عضو ذى مكانة من الحزب الاشتراكي فى تونس بقوله : « ان جماعة التجمع الذين يزعمون تمثيل اغلبية الفرنسيين بتونس وجدوا انفسهم اليوم منقطعين عن اغلبية الفرنسيين بفرنسا » (56) ،

وقام « كيلشي » ببادرة اعطت لمعارضة المتفوقين معناها الحقيقي (57) فقد صرح من على منبر المجلس الوطني قائلا : « لم يبق لنا سوى الاتصال باصدقائنا من الجزائر والمغرب الاقصى وتونس لانشاء حركة متسعة ، جامعة للفرنسيين بشمال افريقيا » ، وعلل رد فعله ذلك حسب تعبيره بالتخوف من الانعكاسات التى قد تحدث لا فى محميتنا المغربية فحسب ، بل وفى مقاطعاتنا بالجزائر ايضا ، » ، « ويجب ضد هذا الخطر » ان يتجمع الفرنسيون من افريقيا الشمالية بدون اى ميزة فى الاحزاب والاجناس والاديان » ، فى سبيل « مقاومة « روبار شومان » وبرنامج الاصلاحات الذى يزعم فرضه علينا » ، فهكذا كانت النظرية التى تتلخص فى خلط مصالح فرنسا بامتيازات الفرنسيين بما وراء البحار هى التعلة الدائمة للمستعمرين السريعي الميل الى الانفصالية ، فان نفس الاشخاص الذين يطالبون بزجر

---

55) ـ ـ « لوبتي ماتان » ـ فى 26 جوان 1952 ،
56) ـ ـ « لوبتي ماتان » ـ فى 26 جوان 1952 ،
57) ـ تصريح نشرته جريدة « بارى براس » فى 24 جوان 1952 بعنوان م ، كليشي يفكر فى جمع الفرنسيين بافريقيا الشمالية فى جامعة لمعارضة مشروع الاصلاحات

الوطنيين المغاربـة اذا ما الفوا تجمعات دفاعيـة ، هم الذين يعتبرون مـن الطبيعي « التجمع » لمنع تطبيق اصلاحات لا ترضيهم ·

وكان « كيليشي » في ذلك يتوخى العادة المالوفـة من البرلمانيين مـن الجزائر الذين قاموا بمثل ذلك التهديد بمناسبة اوامر سنة 1919 ومشروع « بلوم ـ فيوليت » وقانون سنة 1947 ، ولو اضطرهـم الامر الى معارضـة الاصلاحات الجديدة استنادا الى مزايـا تدابير سابقـة كانوا عارضوا فيهـا كذلك · ففي 5 جوان 1952 يفضح نائب وهران فيمـا يخص تونس باحداث « مجلس على النمط الجزائري » (58) وان كان في 27 افريل 1947 اقترح ضد النظام الذي اسس ذلك « النمط » الذي اصبح مقبولا ، والذي كان قال اذ ذاك في شانه بانه قد يضطر الفرنسيين لوضع انفسهم في حالـة دفاع ، فيتحصنوا في المستقبل بسياسة الحيرة التي تلجا اليها الاقليات المهددة » (59) وامام التصميم على نفسية العصيان نتبين تدخل نائب مقاطعة قسنطينة « روني مايار » اذ يقـول : « مـا تكلمتم لحد الآن الا عن الانفصـــال · لقـد تكلمتم عنه اكثر مما يلزم لاننا لم تصل اليه بعد » (60) ·

في تونس قام المتفوقـون باحتجاجات حادة · ونبه « كولونا » وزميله الجديد في نيابـة الفرنسيين بتونس بمجلس الجمهوريـة « قابريال بيو » ، رئيس الحكومة في لهجة من الكبرياء الى انه يخبط خبط عشواء لان « ثلاثـة ملايين من التونسيين لا تحكم شؤونهم بمثل ما تحكم به شؤون اثنين واربعين مليونا من الفرنسيين (61) · وشهر تجمع الشعب الفرنسي ببرنامج وضع « تحت ضغط سفاكي الدماء والارهابيين » ، واعرب عن استيائه من « ارضاء اولئك الذين امروا بالحوادث الثورية واسالوا الدم الفرنسي » واقترع اعضاء اللجنة الادارية والمكتب السياسي للتجمع الفرنسي بتونس بالاجماع في 3 جويلية 1952 لفائدة لائحة تصرح « بان الاصلاحات تقضي في امد وجيز على الجالية الفرنسية بالاضمحلال ، وتحمل في طياتها القضاء المؤجل على وجود فرنسا بتونس » (62) · وفي 7 جويلية انعقد اجتمـاع للهيئـات الاساسية للتجمع الفرنسي بتونس ، جزم بانه يمثل « شبه اجماع الفرنسيين بتونس » على

---

58) ـ الجريدة الرسمية في 6 جوان 1952 · ص : 2669 ·

59) ـ الجريدة الرسمية في 28 اوت 1952 · ص : 4732 ·

60) ـ الجريدة الرسمية في 6 جوان 1952 : ص 3102 ·

61) ـ رسالة بتاريخ 8 جويلية نشرت « لوموند » بعضهـا في 11 جويليـة 1952 « ولادبيش تونزيان » كاملها في 3 جويلية 1952 ·

62) ـ « لوبتي ماتان » · 5 جويلية 1952 ·

« الاحتجاج على خرق المعاهدات التي تربط فرنسا بتونس » ، وتأكيد انهم لا يستطيعون قبول قرارات الحكومة التي تتنافى مع مصالح فرنسا ومصالح جميع الاقليات التي وضعت ثقتها فيها » ، وتقرير رفض الاصلاحات » (63) .

اما الاتحاد العام للموظفين الفرنسيين بتونس المهتم بصفة خاصة بمشكلة الوظيفة العمومية فقد اعلن « ان احترام الحقوق المكتسبة يكون خدعة ما لم تعط الضمانات الكافية لمستقبل ابناء الموظفين الحاليين . وطالب بادماج الاطارات المحلية في الاطارات المماثلة لها في فرنسا نفسها » . وحرض اعضاءه « على ادراك الخطر الجسيم الذي يهدد مستقبلهم الشخصي وخاصة مستقبل ابنائهم » (64) . فباستثناء الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي لا نجد حزبا واحدا ولا منظمة واحدة حاولت الوفاق ولو مجرد المحاولة فان الفرنسيين بتونس في شبه اجماعهم رفضوا الاصلاحات دفعة واحدة . ووضعوا بذلك انفسهم تجاه الرأي العام التونسي في احرج المواقف مع تشجيعه على التصلب في موقفه .

ذلك لا يعني ان التونسيين كانوا يقبلون مخطط الاصلاحات بابتهاج . فان المنظمات الممثلة للصناعة والتجارة والنقابات ومختلف الجمعيات المنتمية الى الحزب الدستوري الجديد قد اجمعت على رفضه لانه « ليس الا نسخة في جميع فصوله من البرنامج الذي اعلن عنه في بلاغ 2 افريل الاخير ، والذي اعتبر الشعب في مجموعه انه لا سبيل الى قبوله (65) . ورفضه ايضا مكتب الحزب الدستوري الجديد بفرنسا لنفس الاسباب . ووضح بغاية البراعة مسألة استقلال الباي ومسألة الالتجاء الى التحكيم الدولي مستنجدا « ضد مشروع يراد فرضه على الملك وعلى الشعب التونسي » بتدخل الباي « في سبيل تحقيق الاماني القومية » مثلما عبر عنها في خطاب 15 ماي 1951 ، متجها الى « الضمير العالمي حتى تجد المشكلة التونسية حلا عادلا ومطابقا لميثاق الامم المتحدة » . واكد فرحات حشاد بكل قوة عبث « الاصلاحات المزعومة التي صمموا على فرضها على البلاد ضد

---

63) — « لوبتي ماتان » في 10 جويلية 1952 — وقد امضى كازابيانكا (التجمع الفرنسي » بيوشال » (تجمع الشعب الفرنسي) « مارسال طوريس » (الحزب الراديكالي) « ج . قراد » (الحزب الاشتراكي الديمقراطي) ، « هاربي » (الاتحاد العام للموظفين) « جان كازانوفا » (الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي للمقاومة) « الكومندان » « ميير » (مستقل) .

64) — جريدة « لابريس » في 6 جويلية 1952 .

65) — جريدة « لوموند » في 25 جوان 1952 .

اجماع ارادة الملك والشعب » • وقد اخذت شخصيته تحتل المقام الاول ، وما انفك نفوذه يتضاعف (66) وبعد شهر رمضان استؤنفت الاعتداءات مع بعض ردود الفعل كتحطيم مركز الاتحاد العام التونسي للشغل ببنزرت• وخرجت العدالة العسكرية منقوصة المكانة من قضية المتظاهرين الثمانية والعشرين ماريانة المهددين بحكم الاعدام لحرقهم احد الارتال ، بالرغم عن حكمها الذى لم يسبق له نظير ، لما تجلى اثناء القضية من فداحة الاستبداد في الاعتقالات وضغط اعوان الشرطة على الشهود (67) • فكان مرور الزمن ، عوض ان يصلح الاحوال ، يزيد كل يوم الهوة عمقا بين التصورات التونسية والفرنسية •

معارضة الباي

بيد ان الحكومة الفرنسية لم تياس من الوصول الى حل • واكد « جورج بيدو » و « روبار لوكور » و « بيار هانرى تيتجن » بانهم لا يقبلون وزارة الخارجية ، مما جعل اى انقلاب فى الموضوع غير ممكن ، حتى لو استخلف فى تلك الوزارة عضو من الحركة الجمهورية الشعبية • فكان «روبار شومان» هو الذى تناول معه «دوموتكلوك» فى 22 جوان 1952 درس مشروع الاصلاحات من جديد • وقد صرح « فرانسيس دوباك » مستشار الاقامة العامة القانونى، الذى تسب اليه وضعها ، بان المعروضات التى ستقدم الى الباى قد لا تختلف الا قليلا عن البرنامج الذى بسطه « شومان » امام المجلس • واخذ رجل القانون السامى عن غير قصد يندد بما فى طريقة فرنسا لانجاز الاصلاحات من تراخ وتطويل • فما كل ما فى المشروع بالجديد ، حسب ما قال : فانشاء المحكمة الادارية جرى التفكير فيه منذ سنة 1947 ، والاصلاح البلدى هو نفس ذلك الاصلاح الذى اخذ على السيد شنيق عدم انجازه ، وكان على بساط الدرس منذ خمسة اعوام ، والوظيفة العمومية قد بحثها «مونص» حسب الاتجاه الحالى ، ومجالس الاعمال اقترح احداثها منذ سنة 1950 • فالجديد ينحصر فى وضع برنامج شامل • « والمشروع الحالى يشتمل على اقصى ما يمكن لفرنسا منحه ، مراعاة لرايها العام ومراعاة لهيكل البلاد الحالى » •

---

66) ـ جريدة « فران ـ تيرور » فى 6 جويلية 1952 ، تصريح لفرحات حشاد •

67) ـ جريدة « لوموند » فى 24 و 27 جوان 1952• على اثر مرافعة الدفاع التى قام بها الاستاذ « ايزار » الذى هتف له التونسيون عند خروجه من الجلسة ، اصدرت المحكمة II حكما بالبراءة واحكاما مختلفة بالسجن بين 6 شهور و 3 اعوام، الامر الذى كان حدثا لا سابق له•

بقي ان نعرف كيف قد يعتبره البـاى ملائما « لراى بلاده العام » ، ويظهـر ان « دوبـاك » يجهل وجوده ، وقـد رجع « دوهوتكلوك » الـى تونس فـى 5 جويلية على احسن حالة رياضية مصرحا : « انى منتفخ جد الانتفاخ ، عازم على تذليل جميع الصعوبات لاتمام العمل الذى بقى على ان اقوم به ، وانـى واثق من الوصول الـى الغاية التى نسعى اليها ، اعتمادا على ما حبتنى بـه الحكومة الفرنسية من الثقة والنفوذ » ، فان كان التفاؤل يميز سلوك الموظفين الساميين ، فمقـدرة السفيـر لا سبيل الى جحودها ، وقد صرح : « انـى مقتنع ... بان سمو الباى ... سوف يعتبر بحكمتـه السامية مشـروع الاصلاحات هذا كبداية عهد جديد » (68) ، وبدا المناقشة مع وزارة البكوش بادىء ذى بدء ، ودارت خاصة حول نسبة التونسيين فـى المجلس المـالى التى يراد رفعها الى ثلاثة ارباع المناصب ، الامر الذى يعدم مبدا التساوى ، وحول شروط تعيينهم ، وقبلت الاقامة العامة بان يكون 72 عضوا من الستة والتسعين ، الذين يتركب منهـم المجلس المالـى ، منتخبيـن علـى قاعدة التمثيل الترابى ، والاربعة والعشرون الباقون تنتخبهم الحجر الاقتصادية ، كما وافقت على ان يساعد الرئيس الفرنسى للمحكمة الادارية كاهية رئيس تونسى ، وفيما تبقى احتفظ بالمواقف السابقة ،

بيد ان بعض الاخبار السارة اخذت تنتشر ، فقد اقتبل الباى المقيم العام احسن اقتبال ، واكد ثقته فى البكوش « للاسراع باجراء العمل بالاصلاحات فى صالح الجميع » (69) ، وبمناسبـة يوم 14 جويليـة قـد تخلي معاقـل الاحتشاد من المبعدين فيها ، ولكن سرعان ما كذب الواقع تلـك الشائعات ، فقد مضى الاحتفال القومى الفرنسى بدون تدابير للعفو ، الامر الذى حمل الراى العام التونسى على تاويل الوعد الذى لم يعقبه انجاز كوسيلة ضغط ادبى من الحكومة على الباى ،

وفى 22 جويلية خرج البـاى من التحفظ الذى كـان عليـه ، وبعمل بديع الفجر خبره انفجارا فى شكل «برقية اكيدة» الى رئيس الجمهورية ذكره فيها بان « بيناى » كان اعلمه برسالة فى 4 جويليـة ان مشاريع اوامر الاصلاحـات ستعرض عليه قريبا ، واضاف : « ومن ذلك التاريخ تعرضت بلاغات صحافية الى موافقة ضمنية مزعومة منا علـى مشروع تفويض سلطات متسعـة الـى

---

(68) ـ « لوفيقارو » فى 7 جويلية 1952 ،

(69) ـ « تونس سوار » فى 10 جويلية 1952 ،

الوزير الاول قصد درس الاصلاحات ، والى عقد اجتماعات عديدة لمجلس الوزراء نوقشت اثناءها المشاريع ، واخيرا الى سفر « ر • بونص » الكاتب العام للحكومة التونسية حاملا معه تعديلات للاصلاحات المذكورة لعرضها على الحكومة الفرنسية • وانا لنستغرب مثل هذا السلوك تحونا ، اذ لم يعرض علينا مشروع الاصلاحات الى حد اليوم ، ولم يمنح اى تفويض سلط للوزير الاول الحالي وبالاحرى لمجلس الوزراء الذى له اختصاصات ادارية بحتة • وقد تم سفر الكاتب العام للحكومة التونسية بدون علمنا • واننا نلفت نظركم السامى الى هاته الحالة » •

فلا يمكن التبرى من وزارة « البكوش » ونكران اية قيمة للاجراءات التى ينوى اتباعها بعبارات اكثر صراحة • والانكى من ذلك ان الوزير الاول خرج ايضا من تحفظه الاعتيادى ، ونشر قبل المقابلة المتوقعة بين الباى والمقيم العام في قصر قرطاج بيومين بلاغا كان اكثر قسوة على السفير ويقول فيه : « ان الحكومة التونسية لم يكن لها ان تناقش وبالاحرى ان تتفاوض فى مبادىء الاصلاحات وجوهرها » لان للباى « وحده حق التقرير والبت » (70) • فكان كل من تلك البرقية وهذا البلاغ دليلا على تصلب الموقف التونسى • فحتى البكوش ، وله من النباهة ما يجعله يدرك حالة الراى العام ، احتاط لنفسه • وبعد هذا الموقف المزدوج اصبح من المتوقع على ما يظهر ان يمتنع الباى عن وضع طابعه •

وكان التصادم فى 28 جويلية • فبالرغم مما ناشده به المقيم العام بكل الحاح طيلة ما يقرب عن الساعة والنصف امتنع الباى عن الرضا ، وكان موقفه على غاية البرودة والجفاء بدون قطع العلاقات مع ذلك • وقبل بتسلم مشروع الاصلاحات ، ولكن مع الاحتراز بانه يحتاج الى شهرين او ثلاثة لدراسته • ولم يعد من شاهدوا المقيم العام عند مبارحته القصر يدركون عليه انه « منتفخ جد الانتفاخ » • ولم يخف هو نفسه « ان موقف الملك يضعه فى موقف متحرج للغاية » • والاغرب انه لم يكن ليتوقع ان الامر قد يكون كذلك •

فما العمل للخروج من المأزق ؟ الرجوع الى الوضع السالف ، كما كانت تطالب به بعض شخصيات رسمية ، فيه لوزارة الخارجية اعتراف خطير

---

(70) — نفس البلاغ المؤرخ فى 26 جويلية بجريدة « لوموند » فى 27 — 28 جويلية 1952

بعجزها امام البرلمان ومنظمة الامم المتحدة ، وخلع الباى ، كما فكر فيـه آخرون ، فات وقته ، وقد تخشى سوء مغبة مبادرة كهاته • فلم يبق حينئذ بد من التمادى فى التفاوض ، ولكن فى حالة الطالب • وكانت اذ ذاك احداث الشرق الاوسط تشجع الباى على الصمـود الم يتغلب مصدق علـى شركـة النفط الانقليزيـة الايرانيـة المؤيدة من انقلترا ؟ الم يخسـر الملك فاروق عرشه لفقدان الصلة بشعبه ؟ ان واجب الترجمان الاميـن عن الراى العـام التونسى كان يفرض على الامير الصمود ، وذلك ما فعل ببراعة مكنتـه من ان يصبح المسير لمجرى الاحداث •

مجلس الاربعيـن

كانت مقابلة ثانية متوقعـة بين الملك والمقيم العـام • وكان يشاع ان يقع التفاهم فى جميع الامور فى المستقبل بينهما راسا دون وساطة البكوش او حضوره • وكان موعد المقابلة الثانية ليوم السبت 2 اوت • وكثر الحديث من جديد على انفراج الازمة • وفجاة علم ان الباى جمع بقصره بقرطاج يوم الجمعة ممثلى اهم الجماعات المدنية والدينية والهيئات المنتخبة والمنظمات الصناعية لاستشارهم فى مشروع الاصلاحات • وكـان اختيار الاشخـاص ونسبهم من حيث التمثيل على غاية الاحكام • فكان من بين الاربعين شخصية المدعوة ، شيخا الاسـلام المالكى والحنفى ، وفرحـات حشـاد زعيم الاتحـاد العام التونسى للشغل ، والطاهر بن عمار عن البرجوازية المتوسطة النزعة ، والشاذلى رحيم عن الاشتراكية ، والعزيـز الجلولـى عن المعتدليـن وصالح فرحات عن الحزب الدستورى القديم ومحمد بن رمضان صاحب ملك كبيـر لا حزب له ، والشاذلى القسطلـى مديـر جريدة « النهضـة » المعتدلـة ، والدكتور الصادق المقدم عن الحزب الدستورى الجديد ، والاستاذ الطاهر الاخضر عن انصار هذا الحزب ، والعميد « البار بسيس » عن الاسرائليين ولم يقص الا الشيوعيون والنقابيون المنتمون الى الاتحاد النقابى لعملة القطر التونسى بالرغم عن احتجاجـاتهم • فمنذ عشـرة ايام كانت الاستعدادات لذلك الاجتماع جارية دون ان يتفطن اليها اى موظف او عون من الشرطة ، وقد كانت مؤامرة التكتم كلية • وطلب الباى من المدعوين ان يمدوه بارائهم كتابة وفى اسـرع وقت • ولم يقم ملك ابـدا بمثـل ذلك العمل الاستقـلالى واذ لم يتبع الخبر حالا بانذار بالتنازل عن العرش ، فان فى ذلك دليلا عـلى ان القائدين عن سياسة القـوة قد خسـروا المباراة ، وان زمام تسييـر السياسة قد انتقل من يد الاقامة العامة الى يد القصر •

لقد اخذت مبادرة الباى فى نظر الشعب التونسى صبغة بديعة جلبى ٠ فانه استنجد لمعارضة الضغط الخارجى بما دعى تارة « الهيئات العامة للوطنية التونسية les Etats généraux du nationalisme Tunisien وتارة « مجلس التاج » Conseil de la Couronne (71) واخرى « مجمع المقاومة » l'Académie de la Résistance ٠ وقد اعلن الملك بذلك العمل نهاية النظام الاستبدادى ٠ وفتح الطريق الى الملكية الدستورية حسب الاصول التى جاءت بخطابه فى 15 ماى 1951 ، الذى لم تكن لا الاقامة العامة ولا الحكومة الفرنسية قد ادركت مغزاه العميق ٠ فان سياسة الاقامة العامة كانت تهدف الى فصل الملك عن الحركة الوطنية ٠ فكان جوابه بتاكيد تضامنه علنا مع الوطنية دون ان يتجاسروا على مسه بسوء مثلما فعلوا بالمنصف باى ٠ ثم ان تلك الصورة المشابهة للبرلمان التى شكلها الباى كانت تكتسى اهمية نادرة « فى آن واحد ، على صعيد الاحداث الحالية المباشرة ، بخصوص امكانيات المفاوضات التى شرع فيها المقيم العام ، وعلى صعيد اوسع ، بشان الملكية الحسينية ونظام الايالة » (72) ٠

مهمة « بينوش » وتقرير الاثنى عشر

التجات الحكومة الفرنسية للمرة الثالثة امام الامر المقضى الى توجيه رجل يتمتع بثقتها ، ولم يكن ذلك ليشرف المقيم العام كثيرا ، فقام برد الفعل ٠ وقد استعانت وزارة الخارجية هاته المرة بجان بينوش ، مدير قسم افريقيا والشرق بالوزارة ، وكان يشغل منصب الكتابة العامة فى تونس من سنة 1941 الى سنة 1943 فى عهد المنصف باى ٠ ولم يشتهر « بينوش » بميوله الى سياسة القوة ، وقد حررت مذكرة 15 ديسمبر 1951 فى الادارة الفرعية للمحميات بدون ان يشارك فيها ، وكان فى عدة مناسبات ينصح بالحذر ٠ فعهد اليه بان يسلم الى الباى رسالة من «روبار شومان» تقوم مقام رد رئيس الجمهورية على برقية 22 جويلية ، وتؤكد بكل حزم تضامن الحكومة الفرنسية مع « دوهوتكلوك » والابقاء على مشروع الاصلاحات ٠ وله بهاته المناسبة ان يقوم باتصالات تمكنه من تعيين مدى مبادرة الباى ٠

---

(71) ـ « روبار قوتيى » ـ « لوموند » فى 3 و 4 اوت 1952 ٠

(72) ـ « لاكوتير » « خاتمة اسبوع من الجنون » فى « لوموند » 3 ـ 4 اوت 1952 ٠

وكان يظن ان سابقة مقامه بتونس قد تجعله يلقى قبولا غير الذى لقيه « طامبل » . فلم يكن من ذلك شيء واظهرت الاوساط الرسمية « احترازا كبيرا بشان الرسالة التي كان يحملها والتي كان من المقرر ان يتامل المقيم العام معه بشان تناسبها مع الظرف . وقد حذفت الرقابة الانباء المتعلقة بسفر « بينوش » ، ولم يصاحبه المقيم العام عند زيارته الى الباى الذى اقتبله « بحفاوة بالغة » . ولئلا تجرح عواطف المقيم العام ترك له «بينوش» تسليم الرسالة الى « البكوش » الذى ابلغها الملك . وقد اعتبر سفر المبعوث عنوانا عن فقد ثقة الحكومة فى السفير .

ولم يتسرب اى خبر عن التقرير الذى قدمه « بينوش » الى وزير الخارجية والى كاتب الدولة عند رجوعه الى باريس . غير ان راى الاوساط المطلعة كان يذهب الى ان ارتسامات كانت سيئة وآراء فى الميقم العام على ما يظهر محترزة . وحمل معه تصريح الباى الواضح بانه يريد ان يكون ملكا ديموقراطيا ، لا يقوم بعمل دون موافقة شعبه . وبالفعل كان الاربعون يستشيرون مختلف الهيآت الاجتماعية بالايالة لتركيز موقفهم على قواعد متسعة اوكلت لجنة الاثنى عشر المكلفة بتحرير التقرير اعداده الى اربعة من اعضائها عرفوا كلهم بمعارضتهم للمشروع . وسلم الى الباى التقرير الجامع الذى صادقت عليه بعد مناقشة دامت خمس ساعات ونصف فى غرة سبتمبر يوم عيد الاضحى ، بعد شهر من دعوة الاربعين يوما بيوم (74) .

ويستخلص من تحليل المقررين الطويل المدقق ان فى مشروع الاصلاحات نيلا من السيادة التونسية ، وهو يقر بقاء الادارة المباشرة ، ويزيد فى خلط السلط وعدم مسؤوليتها ، وفى النهاية لا ياتى بذى تقدم فى اتجاه السير بالمؤسسات التونسية نحو الديموقراطية . ثم تخلصت اللجنة بطبيعة الحال الى طرح مشكلة تنازع السلطتين من الوجهة القانونية فقالت : « تعرض فرنسا اصلاحات سياسة ودستورية تراها صالحة ، ويرى الباى خلاف ذلك ، فيرفض التوقيع عليها . فهل يتسنى لفرنسا فرضها عندئذ ، استنادا الى المعاهدات ؟ لهذا الخلاف القائم بين دولتين الراجع الى القانون الدولى العام ، يبادر انصار الاصلاحات سواء بتونس او بباريس

(74) ـ لما اضطر الاستاذ « البار بسيس » الى التغيب ، سلم مذكرة كتابية ختمها بقوله : «بيد انه لا سبيل الا الى رفض النصوص المعروضة على سمو الباى فى حالتها الحاضرة»

بعرض حل استعمال القوة . لكن القانون العام الدولي يعرض حلـولا اقوم واصح » اذا ما رجعنا ولى ثلاثة قرارات صادرة عن محكمة لاهـاى الدوليـة التي قضت من بين احكامها بانه « يجب عند الشك تاويل تحديد السيادة على المعنى الضيق » ، والتي يكفي فحواهـا لتبرير الالتجـاء الى منظمـة الامم المتحدة . « وفي خاتمـة هذا التقرير العام تستطيـع اللجنة ان تؤكد بان مشروع الاصلاحات لا يمكن اخـذه بعين الاعتبار لما تبيـن فيه من مواطـن الطعن ولمـا يستخلص من جملة التقارير ، ولهاتـه الاسباب ، فجوابا علـى السؤال المدقق الذى القـاه جلالـة الملك ، ولكى تبقى اللجنة في حـدود مهمتها ، فانها ترى من واجبها ان تعرض رفض مشروع الاصلاحات لا اكثر ولا اقل » . وفي يوم الاحد 7 سبتمبـر جمع الملك من جديـد الاربعين ، فصادقوا بالاجماع على تقرير اللجنة ، شاكرين للباى « عميق احساساتـه الديموقراطية » وقد جلس بينهم عوض ان ياخذ مكانه على عرشه .

رسالة الباى الى رئيس الجمهورية الفرنسية

وبينما كـانت نتائج اطرف تجربـة منذ انتصاب الحماية آخذه في التطور اذا « دوهوتكلوك » والبكوش تدعوهما الـى فرنسا حاجـة متاكدة : الاول لقضاء عطلة في ضيعته بمقاطعة « با ـ دو ـ كالي » Pas-de-Calais .

والثاني لاستجمام ضرورى « بايكس ـ لى ـ بان » Aix-les-Bains

بيد ان سير التاريخ لم يكن ليتوقف ، بل يظهر ان ذلك التغيب المـزدوج كان يسهل الاسراع بالاحداث . ففي 9 سبتمبر قبيل عودة المقيم العام من فرنسا سلم الباى الى « روبـار دو بواسزون » المعتمـد بالاقامـة العامـة بواسطة الطيب بلخيرية وزير الدولة رسالة موجهة الى رئيس الجمهورية تبلغه تقرير لجنة الاثنى عشر .

وكان ملك تونس في تلك الرسالـة يخاطب الحـاكم الاول فـى فرنسا « بصفته الحارس الامين لما لفرنسا من التقاليد الحرة الديموقراطيـة » ، ويذكر بالمساعي التي كررها منذ انتصابه على العرش للمطالبة « باصلاحات جوهريـة يبرزها فـى آن واحد ما لا ينكر من التطور » الحاصل في شعبـه « والتضحيات التـى بذلت في سبيـل تحرير اروبـا » . وعوض ان تعتبر الحكومة الفرنسية بمقترحاته ، فضلت « الالتجاء الى وسائل العنف التـى لم تعف اى طبقـة من السكان وقد اصابت حتى قمـة سلم الرتب . وهكـذا

القى القبض علـى وزراء مباشرين لوظيفهم لم نسحب منهم لا ثقتنا ولا توليتنا اياهم وسيق بهم الى الابعاد » • وكان الباى يقصد بهذا التاكيد ان لا تستغل فى المستقبل موافقة تؤخذ منه جبرا ، ثم ان مشاريع اوامر الاصلاحات كانت لما جاءت بـه من احكام تحدد مداها « بعيدة عن التعبير عن جميع الاقوال التى حواها عرض الاسباب التى دعت اليها ، وقدمت الينا بضعة ايام من قبل ، وطلب منا عند اطلاعنا عليها ان نصادق مسبقا على نصوص لا معرفة لنا بها اذذاك » • وقد اكد اليه تصريح رئيس الحكومة علاوة على ذلك ان تلك الاصلاحات تتضمن اقصى ما يمكن لفرنسا التنازل عنه ، وهو ما يسد الباب فى وجه اى مبادرة للباى •

ذلك ما دعا الملك « الى استشارة الممثلين بحق لاهم ميادين النشاط الاجتماعى ولجميع مشارب الراى العام • وقد اردنا بذلك تشريك رعايانا المخلصين فى مسؤولية قرار يربط مستقبل مملكتنا » • فان الاصلاحات لا تستجيب الى رغائب الشعب التونسى • « ولهذه الاسباب يظهر لنا من الصعب علينا ان نختمها بطابعنا » • وذكر بان اتفاقية المرسى لم يكن مفعولها ان تختصر حقه فى اكساب الصبغة الشرعية التنفيذية لقوانين المملكة « خاصة التى لها صبغة سياسية ودستورية » الى مجرد عملية شكلية • ثم ختم الملك رسالته بابداء تاسفه « للصعوبات التى تردت فيها العلاقات التونسية الفرنسية من جراء بعض علائم عدم التفهم التى اضاعت على فرنسا احسن الفرص للوصول الى حل مرضى للمشكلة •

فلم يؤكد اى باى ابدا مدة سبعين سنة استبقاء سيادته ومسؤوليات فرنسا بمثل هذا النفوذ • وفى اى وقت آخر كان يخلع دون ما امهال • واذا لم تلتجىء الحكومة الفرنسية الى استعمال وسلية القوة ، مثلما كان يميل اليه بعض الوزراء ، فذلك دليل على انها لم تعد تستطيع الى ذلك سبيلا لاسباب دولية ، وانه من يوم جمع الاربعين انتقل زمام المبادرة الى ايدى الباى • ولا يمكن فهم مثل هذا الانقلاب للحالة الا على ضوء سلسلة من الاخطاء والمتناقضات الغريبة • ولما كان الرئيس « اوريول » قليل الميل الى سياسة الضرب بجمع الكف على المائدة ، فقد هدأ الافكار المتحمسة واخذ من مجلس الوزراء موافقته فى جلسة 11 سبتمبر على رده على رسالة الباى •

جوابا « فانسان اوريول » و « روبار شومان »

واجتنابا لطريقة التخاطب بين رئيس دولة ورئيس دولة ، اعلم رئيس الجمهورية الباى فى جوابه بانه حسب التراتيب الدستورية احال رسالته على رئيس الحكومة ، تاركا لها اختيار ما تقتضيه من التدابير ومهمة اصلاح ما فيها من اخطاء وتلافى ما فيها من سهو غيرا فحواها فاعطياها صبغة مؤسفة من الجدل الكلامى • ثم ابدى تاسفه من ان نداءاته المتكررة الى حكمة الملك لم تلق من الجواب غير التصلب فى الرفض وتوقيف المحادثات فى حين ان التجربة والسوابق المجيدة تثبت ان التعاون عن ثقة واتفاق العزائم هما الوسيلتان الوحيدتان الكفيلتان بأن تحفظا لتونس الازدهار الذى حققته لها فرنسا بتضحيات جسيمة مستمرة وبان تسيرا بالشعب الى منتهى الغايات البشرية المقدرة له •

اما الجواب عن جوهر رسالة الباى فقد تضمنته رسالة من « ر • شومان » فى 26 نوفمبر (75) • وكانت تعيد المآخذ التقليدية ، وتنكر على تقرير الاثنى عشر « اى صبغة رسمية » • لكنها تنتهى بشبه اقتراح جديد لربط العلاقات فى المستقبل • فهى تعرض استئناف المفاوضات ، ان قبل بذلك سمو الامين باى ، اما فى شكل « محادثة مباشرة » واما بواسطة لجنة مختلطة تكلف « بالبحث عن الوفاق واعداد برنامج لمدة خمس سنوات — فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية — من شانه تذليل الصعوبات التى بيننا » •

اغتيال فرحات حشاد

وفى الوقت الذى كان يؤمل فيه تجديد الحوار ، حدث اغتيال فرحات حشاد ، يوم 5 ديسمبر 1952 • وعندما خربت سيارة الزعيم النقابى بعدة عيارات وجرح من جراء ذلك ، بارح الشاحنة التى اقلته ليمتطى سيارة سياحة قد تخف به الى احد المستشفيات بالعاصمة • فعثر على جثته

75) — نشرت بحذافيرها فى « لاديبيش تونزيان » — 5 ديسمبر 1952 •

بطريق زغوان . وكان منذ اسابيع يشعر بخطر يهدده في حياتــه ، (76) . وقد ابدى تخوفاتــه من ذلك . ولا يظهر أن حرصا كبيرا قد بذل لكشف الحقيقة (77) فان ابسط الاحتياطات قــد اهملها الباحثون ، ونقلت جثتــه بكل تسرع ، وسهــى عن المكافحات التي قد تمكن مــن نتائج ، بل رفض اجراءها . وقد بذلت مصلحة الاخبار قصارى جهدها لتوجيه الظنون نحــو التونسيين ، ووقــع ترويج خلاف خطيــر بين الاميــر الشاذلي باي وفرحات حشاد . ولولا مراسل جريدة « لوموند » لظل الراى العام يعتقد ان الزعيم النقابي كان صرح مشيرا الى ركاب سيــارة السياحة التي لقي حتفه فيهــا « هؤلاء اصدقاء ، وساصل معهم باكثر سرعــة » (78) . ومن عكس الامــور انه القى القبض حالا على محمود المسعــدي ، الاستاذ المبرز في اللغة العربيــة وقد خلف فرحات حشاد ، وعلى الزعماء النقابييــن ، ووجهوا الى معاقــل الاحتشاد بدون ان يقدم اى مبرر لاعتقالهم . وان المقابلة بين الصمت الذى يحف بالبحث في قضية اغتيال حشاد وبين الاشهار الذى تحظى به الاعتداءات التونسية على الفرنسيين لتسمح بانتشار افتراضات لا تشرف لا السلطة ولا العدالة الفرنسية .

اضطرار الباى لامضاء الاوامر

لقد توفرت امكانيات جديدة بفضل جو الاندهاش الذى تبع اغتيال فرحات حشاد وارادة الباى في الشروع في محادثات مباشرة . لكن « دوهوتكلوك » اسرع في اخمادها استجابة لالهام عبقريته . فنقض روح رسالة 26 نوفمبر ،

---

76) ـ خاصة بمكاتيب ومناشير « لليد الحمراء » المنددة « بفرحات حشاد الامريكي » . ونددت جريدة « باريس » الاسبوعية الشمال الافريقية التي يديرهــا « كامى ايمار » فــي 28 نوفمبر بالمذنبين الاثنين الاولين » بورقيبة وحشاد ، واوصت بقطع الراس ، وقالت : « ما لم تقوموا بهذا العمل من الرجولة ، هذا العمل المحرر ، فانكم لم تقوموا بواجبكم ، وامام الله الذى ينظر اليكم تنزل مسؤوليــة دم الابرياء على اعناقكم » . وقــد تركت السلط ذلك العدد من الجريدة يباع بكل حرية في عاصمة تونس حتى بعد اغتيال فرحات حشاد . بالعكس من ذلك حجزت جريدة « لوبوبيــلار » كلما تعرضت الى المسائــل التونسية . وحجزت الطبعة الاولى من هذا الكتاب بطلب من دي هوتكلوك » وبقرار من الجنرال « قاربای » في 27 ديسمبر نفذ بدون ان يدرج في الرائد الرسمي التونسي » واتخذ نفس الاجراء ضد كتاب ، جان روس « تونس ، حذار ! »

77) ـ قضية فرحات حشاد المنذكرة » « في جريدة لوموند » في 17 جانفي 1953 .

78) ـ « ر . فوتيي » الشاهد الاول لآخر عهد لفرحات حشاد يدلي الى جريدة « لــوموند » بتوضيح لتصريحاته في « لوموند » ، 9 ديسمبر 1952 اكد « سرا » سائق الشاحنــة الذى القت الجريح ثــلاث مرات « انــه لم يسمع تلــك العبــارات » . ولترجع الاراء القاسية التي ابداها المراسل في « لوموند » في 17 جانفي 1952 .

وعاد الى وفائه لطريقة التظاهر بالقوة التى استعملها لطـرد وزارة شنيق • فاحرز علـى استسلام الباى الذى وقع فى 20 ديسمبر على الامرين الخاصين بمجالس الاعمال والبلديات ، وهمـا الامران الوحيـدان اللذان لم يعارض فيهما التجمع الفرنسى • ولكن ما قيمة هذا القبول وقد اخذ تحت التهديـد باحداث مجلس وصاية على العرش ويمكن فسخه فى الوقت المناسب ؟ فان انتخابات بلدية تجرى فى « حالة استثنائية » وتحت ادارة المراقبين المدنيين قد لا تكون الا صورة مزيفة تقضى على المؤسسات الديموقراطية مثل ما حصل فى الجزائر ، واقل ما يقال فيها ان الظرف الذى اختير لاجرائها هو ابعد مـا يكون على ملائمتـه للظروف • فلم يعد امل فـى ان تصل التجربة الى فتـح بصيرة « دوهوتكلوك » ولا لان تتمكن الحالـة من التحسن طالما يبقـى هو ماسكا لزمام الامور • وقد اخذت الحيرة تتسرب الى ابعد الاوساط شبهة عن التحامل (79) •

نزعة اصلاحية هزيلة تجاوزتها الاحداث

ان المشكلـة التونسية لم تنتـه فى الميدان الدولـى • ولم تتحمس لهـا الدول العربية فحسب ، بل والدول الاسيوية ايضا • فكراتشى ودلهى الجديدة تتزاحمان فى العناية بها والحرص عليها ، وقد سمع مؤتمر الاشتراكيين فى آسيا المنعقد فى جانفى 1953 بمدينة « رانقـون » خطابا حادا القـاه الطبيب سليم اضطـر « اندرى بيدى » للاعتـراض عليه مظهـرا ما فيه من مبالغات واخطاء • لكن المؤتمر حكم على السياسة الفرنسية دونما رحمة • اما فى منظمة الامـم المتحدة فقد صادقت الجمعيـة العامة فى 17 ديسمبـر 1952 باغلبيـة ساحقة (80) على اللائحة اللاتينية الامريكية التى تم اعدادها بعناء وصادقت عليها اللجنة السياسية • وهى تبدى « املهـا فى ان يواصل الطرفان بدون توان التفـاوض بينهما فى سبيل تمكين التونسيين مـن القـدرة على ادارة شؤونهم بانفسهم » • فلم يتحصل الوطنيون لا على حكم صريح ضد فرنسـا ولا على لجنة وساطة ، غير ان اربعـة اخماس الاعضاء المقترعيـن اعترفوا بصلاحية منظمة الامم المتحدة فى النظر فى الموضوع ، واعربوا عن رغبتهـم

---

79 ــ لقد لاحت تلك الحيرة فى مقال ينم عن سمو روح عظيم • نشره بجريدة « لابريس » فى غرة فيفرى 1953 مستعرب من المقام الاول ، الاب « دميرسمان » مدير معهد الاداب العربية • وقد تسبب فى هجومات عنيفة من جريدة « تونزى ــ فرانس » ، لسان التجمع الفرنسى : فان الكتلة اذا لم تكن منقادة ومستعمرة تعد عدوة •

80 ــ باربعة واربعين صوتا ضد ثلاثة وامساك ثمانية •

للدولة الحامية » فى ان تساعد على تنمية مؤسسات الشعب التونسي الحرة، وفقا لاغراض الميثاق ومبادئه » • والذى يخشى منه هو ان يكون الحبيب بورقيبة ، وقد اكد المقيم العام انه نسبى ، قد تجاوزته الاحداث • ولكن مهما تكن الظروف التى ستستانف فيها الاتصالات طال الزمان او قصر ، فانه يكون من المستحيل فى المستقبل الاقتصار على مشروع الاصلاحات السالفة ، وسيضطرنا الامر الى التسليم بتنازلات اعظم اهمية بكثير من التى كان فى المستطاع القيام بها لفائدة وزارة شنيق فى الوقت المناسب •

الباب السابع

الأزمة الجزائرية ومولد البيان

الغـاء امر « كريميـو »

واجهت الهيئة الفرنسية للتحرير الوطني المؤلفة يوم 3 جوان 1943 نوعين من الصعوبات الاهلية ، صعوبات الاسرائليين وصعوبات المسلمين • فقد كانت الجزائر تعاني اكثر من فرنسا من الاجراءات المناهضة للسامية ، لكن هذه الاجراءات لقيت موافقة جانب وافر من السكان بينما كانت في فرنسا تصطدم باستنكار الراى العام • ومن بين الاجراءات الاولى لحكومة « فيشى » كان قانون بتاريخ 7 اكتوبر 1940 يلغى امر « كريميو » • وقد عوض الاميرال جان ابريال يوم 18 جانفى الوالى « جورج لوبو » الموظف الجمهورى الحريص على الشرعية والمناهض لكل انواع الافراط • وكان لا يعرف شيئا عن الشؤون العمومية ، وظل العوبة بيد دائرة لا تقل رداءتها عن تعصبها ، فغالى فى مناهضة « فيشى » للسامية ، ولم يمانع فى ارتكاب اسوا اعمال الافراط •

ان القانون المعروف بقانون « بيروطون » باسم الوزير كاتب الدولة للداخلية الذى قدمه لامضاء الماريشال « بيتان » وضع اليهود سياسيا فى نفس وضع المسلمين ،، مؤكـدا ان نفس النصوص القانونية تنطبق عليهم • والحـال ان قانون 4 فيفرى 1919 منح جميع الاهالى ، الذين تتوفر فيهم بعض الشروط المتوفرة تقريبا فيجميع اليهود ، الذين يناهز عمرهم الخامسة والعشرين ، صفة المواطنين الفرنسيين بمجرد طلب يقدمونه •وكان اليهود ، وقد اندمجوا تماما ، يطلبون افواجا التمتع بهذا « التجنيس » لو لم يصدهم عن ذلك قانون بتاريخ 11 اكتوبر عطل فيما يتعلق بهم العمل بالقواعد التىاقرت سنة 1919 • وهكذا وضعوا فى حالة دون حالة الاهالى المسلمين • واتيح للمناهض القديم للساميـة بقسنطينة « مورينو » النائب وشيخ المدينة ، ان يمدح الماريشال الذى تمكن اخيرا من الغاء « الامر الشنيع » استجابـة لنداء الفرنسيين بهذا البلد المضطهدين منذ سبعين سنة » • وظل كل من الجنرال « ماكسيم فايقان » المندوب العام للحكومة الفرنسية بافريقيا الشمالية والوطنى المناهض للالمان ولكنه المخلص تماما للماريشال ، ومن الوالى «ايف شاتال» الموظف الاستعمارى عديم المبدا ، والذى لم يغفر «لليون بلوم» عدم تقديره لمزاياه ، يتنافس الاميرال

« ابريال » في اندفاعه ضد السامية • ولقيا مساعدة نشيطة لا في الادارة فحسب بل وفي اللفيف وفي قوات الامن من اللفيف ، ولم يستطع « الاهالي اليهود » ـ كما هو مذكور ببطاقات التعريف ـ ان يتغلبوا على المحنة القاسية الى هذا الحد الا بفضل شعورهم بالتضامن وحيويتهم ، وكانوا مشبوها فيهم ، موشيا بهم ، محجورا عليهم •

المناهضة للسامية بالجامعة

لقد اقتدت الجامعة في الجزائر برئيسها « جورج هاردي » الذي تجاوز في تصلبه التعليمات الواردة من فرنسا ، واظهرت اقل ثبات من الجامعة بفرنسا التي كادت ان تجمع على رفض القوانين العنصرية • وكان تحديد نسبة الطلبة الاسرائيليين في التعليم العالي بـ 3 ٪ اخطر في الجزائر ، حيث يمثل اليهود I4 ٪ من السكان الاوروبيين ، مما هو بفرنسا ، حيث كانوا لا يعدون سوى 0،7 ٪ • وقد لاحظ « جيروم كاركوبينو » كاتب الدولة للتربية القومية ، ان القانون لا يسوي الا ترسيم الطلبة اليهود للامتحانات لا تسجيلهم بالكليات • واذا لم يعد لهم الحق في الاحراز على الشهادات فانهم احتفظوا بحقهم في التعليم، لكن لم ير هذا الراي لا الوالي ولا رئيس الجامعة ولا رئيس جمعية الطلبة بعاصمة الجزائر •

كان طلبة الجامعة ، وهم نتاج البرجوازية الجزائرية ، يظهرون دائما مناهضتهم للسامية • وقد لزم تدخل « كليمانصو » غداة الحرب العالمية الاولى ليرفع عن اليهود الجزائريين تحجير المشاركة في الجمعية • وعادت سياسة الماريشال « بيتان » بالطلبة الى ميولهم الاصلية • وقد كتب طبيب مناهض للسامية يقول : « لقد قبل الطلبة نسبة 3 ٪ متألمين ، وما كانوا يودونه هو في الحقيقة 0٪ » (I) • وبما انهم لم يظفروا بذلك فقد لفت رئيسهم « فرانسوا جيو » نظر الوزير الى ان « الطلبة الفرنسيين سيستغربون يقينا وجود نفس العدد من الطلبة اليهود الى جانبهم ، وكانوا يظنون انهم تخلصوا منهم » وطالب بالغاء حق التسجيل (2) • فارضى بامر جديد يمنع استعمال هذه الحيلة (3) •

I) ـ رسالة الدكتور « كوستا » من العاصمة الجزائرية الى مدير الاحوال الشخصية بالمندوبية العامة لشؤون اليهود بفيشي • وقد كتب بهامش هذه الوثيقة التي عثر عليها بالارشيف : « تم تأكيده من قبل السيد « اتوري » الكاتب العام للولاية العامة بعاصمة الجزائر ويوجد النص بكتاب « انسكي » اليهود ، ص II4 •

2) ـ عاصمة الجزائر ، I7 نوفمبر I94I • رسالة الى المندوب السامي لشؤون اليهود ، نفس المرجع ، ص II2 •

3) ـ فيشي 28 اكتوبر I94I ، رسالة « كسافيي فالات » الى « ف • جيو » ، ص II5 •

وحدث ما اشنع من ذلك . فعلى اثر اجتماع ضم الجنرال « فايقان » والوالى «شاتال » والكاتب العام « شارل اتورى » ورئيس الجامعة « جورج هاردى » تقرر « ابقاء اليهود خارج المدارس الابتدائية ومطالبة المجموعات اليهودية بانشاء مدارس حرة » حتى يجنب صغار اليهود ما تاسف له « شاتال » ، وهو « الشعور بالغربة بين عدد كبير من الاطفال من غير اليهود » . وفى النهاية افضى الامر الى تحديد عدد التلامذة اليهود بالمدارس الابتدائية والثانوية بنسبة 14 ٪ خلافا لما جرى به العمل بالمنطقة المحتلة بفرنسا . وشددت المناشير فى اجراءات التنفيذ . ولم تراع لا صفة المواطن الفرنسى التى يتمتع بها يهود فرنسا ولا صفة صاحب المنحة ولم يقبل اى تليمذ مطرود فى اى معهد آخر ولم ينظر فى اى مطلب للقبول مهما كان المستند . وظل الشباب الاسرائيلى مهددا بالحرمان من التعليم كما هو محروم من المواطنة ، اذ انخفضت النسبة رسميا من 14 ٪ الى 7 ٪ ثم الى 2،7 ٪ وكان مآل المدارس اليهوديةغلق الابواب فى امد قريب لانعدام الموارد . ولذلك شارك يهود الجزائر مشاركة نشيطة فى المقاومة ليذودوا لا عن كرامتهم البشرية المداسة فحسب بل وعن حق ابنائهم فى ارتقاء مرتبة الرجال الاحرار .

لقد عاد المناهضون للسامية الى ذات الحجة التى استعملها اسلافهم غداة نشر امر « كريميو » : الحيف الذى لحق الاهالى بترقية صنف منهم وهو احقر الاصناف ، الى مرتبة المواطنة . وكانت تعلة للمماطلات حتى فيما بعد التحرير . والحال ان العرب لم يظهروا فى اى وقت كان عداوة لليهود ولا استحسانا للاجراءات المتخذة ضدهم . وكان آخر عمل اعادى بالجزائر ، وهو الذى جرى بقسنطينة سنة 1934 ، نتيجة دعاية حثيثة مناهضة للسامية ، ولم يتخذ شكل ماساة الا لما اظهره الجيش وقوات الامن من التقصير الذى كاد ان يكون تواطؤا . ومكن على كل حال ذوى العزائم الصادقة من تقدير مدى الخطر والبحث عن الوسيلة لاجتناب تجدد المآسى الدامية . وقد نظم « العلماء » بنادى التقدم الاسلامى فى العاصمة الجزائرية اجتماعات دعى اليها كاتوليكيون ومفكرون احرار ويهود . وكان الشيخ العقبى قبيل الحرب الكبرى احد الذين تحمسوا غاية التحمس للمناداة بضرورة تفهم كل مجموعة ثقافية ودينية للمجموعات الاخرى . وتولت الدفاع عنه شخصيات يهودية من بينها المناضل المتحمس والثابت « ايلى قزلان » بعد القاء القبض عليه كشريك فى مقتل المفتى . واقضت هذه الحملة من اجل مثل التسامح المشتركة الى انشاء اتحاد المؤمنين الموحدين وقد اتضحت نجاعة عمله فى عهد « فيشى » .

مناهضة الجنرال « جيرو » للسامية

كـان من الواجب الطبيعي ان يتبع تحرير الجزائر « فورا » بالغـاء الاوامر الاستثنائية . فلم يحدث شيء من ذلك . وقد كانت للجنرال « جيرو » ، الذي اصبح القائد العام المدني والعسكري في 5 فيفري 1943 ، نظريات مطابقـة لنظريات اسلافه من حكومة « فيشي » ، واعترف بها بسذاجة في مذكراتـه قائلا : « دافعت ولازلت ادافع عن الراى بانه لا ينبغي اعتبار اليهود بافريقيا الشمالية اعتبارا مغايرا للمسلمين. فهم اهالي يتعاطون ديانة تختلف عن ديانة اجورهم ، لا غير . فان كانوا جديرين بان يصبحوا مواطنين فرنسيين فانـي مستعد لمنحهم هذه المواطنة شريطة ان يتخلوا عن نظام احوالهم الشخصيـة (4) وافضى به الجهل الى حد « انه كان يعتقد ان اليهـود احتفظوا بنظام احوالهم الشخصية تحت مفعول امر « كريميو » الذي نص بالعكس على ان « حقوقهم العينية وحقوقهم الشخصية ... سينظمها القانون الفرنسي » . وقد سوى المشكل ، الذي طرحه ، منذ 70 سنة ، واتضح من تصريحاته الخاصة انه قبل اجراءات تمييزية ضد اليهود بدون ان يعني حتى بالاستفسار بصورة مدققة عن وضعهم القانوني .

ان هذا « الجندي الفذ المزهو زهو الصبيان » (5) اتحد مع الجنرال « جوزاف جورج » في عزمه على ابقاء اليهود في وضع منقوص . وكان احد اعماله الاولى القاء القبض على مسيري ثورة مدينة الجزائر يوم 8 نوفمبر 1942 ، ومن بينهم تسعة يهود ، وتجنيد الشبيبة اليهودية لا ضمن الجيش بل ضمن فيالق البناة التي كانت معسكرات حقيقية للاشغال الشاقة ، وذلك حتى لا يكتسبوا حقوقا بمشاركتهم في الحرب . وبلغ رد فعل الاوساط الجمهورية والصحافيين الانكلو ـ ساكسونيين درجة اضطرت الجنرال « جيرو » للتصريح في الاخر بعدم شرعية تشريع «فيشي» الاستثنائي ، ولكن مع التاكيد في خطابه المؤرخ في 14 مارس 1943 بانـه « سعيا وراء القضاء على كل ميز عنصري فـان امر « كريميو » ، الذي اقر سنة 1870 فوارق بين المسلمين واليهود ، قد تم الغاؤه . ولم يدرك مرمى تصريحه الا يوم 18 مارس عند صدور الاوامر التي اتخذها في نفس اليوم الذي حدد فيه سياسته . فالامر الخامس يلغي التشريـع العنصري ، لكـن السادس ، الذي الغى امر « كريميو » بلا قيد ولا شرط ، جاء مشددا لاوامر

---

4) ـ جيرو « الانتصار ، ص . ص : 122 ـ 123 .

5) ـ العبارة « لج . سوستال » ، رغم كل شيء المجلد الثاني ، ص 124 .

« فيشي » لانه لم يعد ينص على تدابير استثنائية لفائدة قدماء المحاربين في الحربين الحاملين لوسام جوقة الشرف او الوسام العسكري او وسام الصليب الحربي • ولذلك رفع الاستاذ « روني كسان » احتجاجا صارما باسم اللجنــة الوطنية الفرنسية بلندن •

ان هذه الاجراءات اتخذت بدعوى انها تهدف الى عدم اثارة غيرة المسلمين • وقد تبجح الوالي العام « بيروطون » امام وفد من المسلمين بالمصادقة التي لابد ان يمنحها العرب فيما يخص الغاء امر « كريميــو » : فاشتدت دهشته لاستماعه الى رئيسه المحامي قدور ساطور يرد عليه بانهم لن يرضيهم في شيء • وكتب الاستاذ ابو منجل ، وهو من الشخصيات البارزة في الحركة الوطنية ، رسالة الى الدكتور لوفراني الباعث لحركة الوفاق الاسرائيلي الاسلامي يوم 28 نوفمبر 1942 ، وقد امضاها الشيخ العقبي الذي كان يستنكر كل ميز عنصري ، فقال : «التنقيص من شان اليهودي لا يقضي الا لتقريبه اكثر فاكثر من المسلم • وقد ظنوا ان المسلمين مبتهجون بالغاء امر « كريميو » بينما هم ادركوا بكل بساطة ان مواطنة تنتزع بعد 70 سنة من ممارستها هي قابلة للاخذ والرد ، والمسؤولية عائدة على الذين منحوها بالذات • ولو وجد تنافر بين اليهود والمسلمين لترجمت عنه الاحداث خلال السنتين الاخيرتين • ومع ذلك لم يدخر وسع لوضع المجموعة الاسلامية والمجموعة الاسرائلية وجها لوجه مرة اخرى » •

فمن نوفمبر 1942 الى جانفي 1946 لم يصدر « اي تلميح مناهض للسامية في اية جريدة عربية او موالية للعرب» (6) وكان من شان اجبار اليهود على البقاء منزوين في نظامهم الموسوي ان ينجر عنه حتما عمل مشترك بين المجتمعين الاهليين ذو صبغة وطنية تقدم فيه النخبة الاسرائيلية الى مجموع المسلمين اطارات ذات قيمة لا جدال فيها • وان لم يتضح خطر مثل ذلك الاحتمــال للوطني العتيد الا وهو الجنرال « جيرو » فذلك يبين الى اي حد يستطيع حماس الرجعية تحريف ادراك المشاكل السياسية •

مماطلات هيئة التحرير الوطنــي

وظلت خطوات التقدم بطيئة حتى بعد قدوم الجنرال « دي قول » وتشكيل هيئة التحرير الوطني • ولم يلق انصار ابقاء اليهود في مهانتهم الســلاح •

---

6) ــ حسب تقرير يستند الى وثائق « لجان سـال ــ مييي » عنوانه : الجزائر سنة 1945 والصحافة الاسلامية الجزائرية • 25 جانفي 1945 •

واصطدم الفرنسيون الاحرار القادمون من لندن « بالمعارضة الشديدة التي واجههم بها الجنرال » جيرو « ومجموع الاطارات سواء من جيش افريقيا او من الادارة المدنية » (7) وقد اكد ذلك الجنرال « جيرو » ، فقال : « لا اقبل الاعمال الجنونية التي ارتكبت في هذا الموضوع منذ قدوم الجنرال « دي قول » الى افريقيا • وقد كافحنا انا وصديقي الجنرال « جورج » في البداية ما استطعنا للحيلولة دونها » • وحتى من بين اعضاء الهيأة المحبذين لنيل اليهود صفـة المواطنة الفرنسية هنالك من وافقوا على « وضع ترتيبات تجعله مبنيا على مطالب شخصية » •

ولكي يجتنب التبرىء من الجنرال جيرو علانية تم الالتجاء الى هذا المخرج القانوني القائل بأن الغاء امر « كريميو » سقط من تلقاء نفسه اذ تقرر الغاء القوانين العنصرية الصادرة عن حكومة « فيشي » • فكان الرجوع الى الحالة السابقة لسنة 1940 ، مثلما لاحظه « انـدري فيليب » ، ناتجا عن تسجيـل بطلان الامراكثر مما نتج عـن ابطاله • ومع ذلك فان قرار الهيأة الفرنسية للتحرير الوطني المؤرخ في 20 اكتوبر 1943 شفع باحتراز فيما يتعلق بالنظام النهائي لليهود الجزائريين الذي قد تضبطه السلطات العمومية فيما بعد مثـل « غيره من الانظمة الخاصة بالاصناف الاخرى من السكان الجزائريين » • ولم تنفك الموازاة بين الصنفين من الاهالي تسيطر على عقول المشرعين حتى القرار النهائي ، وكانت لها قيمتها سنة 1870 ، ولكنها فقدتها سنة 1940 • وتطلب الغاء القوانين العنصرية مدة خمسة اشهر ، وارجاع العمل بامر « كريميو » ما يقرب من سنـة •

طمـوح الجزائر الى الاستقـلال

تم التحريـر ، وقد حدث تحول عميق فـي الاهالي • فهيبة فرنسـا نالت منها الهزيمة ، ونال منها اكثر التلذذ المغلوب بالعذاب الذي كان يمرح فيه الماريشـال والشخصيـات التي تمثله • ورددت الاذاعات الاجنبية بالعربيـة الحملات المتواليـة ضد فساد الجمهوريـة الثالثة ، فغذت احاديث المقاهـي العتيقة ، واقتنعت الجماهير بزوال قوة فرنسا وبالتالي بزوال هيمنتهـا • وظلت لجـان العدو تنشط نشاط صاحب الامر والنهـي ، وتلقى عند بعض

---

7) ـ تعقيب « اندري فيليب » الذي كان اذ ذاك وزير الداخلية ، لكتاب « السكي » ، « اليهـود الجزائريون » ، ص 337 •

الفرنسيين المحاباة التي تمتن حالة تبعية الجزائر • وابرز الاحتلال الامريكي ، وهو اجنبي ايضا ، التفاوت بين ضعف الوسائل التي تتصرف فيها فرنسا وقوة الحلفاء المادية • وبعثت الخلافات بين السياسيين والجنرالات المتناقضة مع وحدة السلطة التقليدية على الاعتقاد في وجود ضعف يمسح بكل اعمال الجراة • وترعرع رويدا رويدا الطموح المشترك بين جميع الاحزاب المنظمة في اغتنام فرصة تصفية الحسابات الواسعة النطاق التي ستكيف مصير العالم لبلوغ الاستقلال او في الاقل النظام الفدرالي •

الحزب الشيوعي وحزب الشعب الجزائري

لقد استطاعت الاحزاب التي كانت مرغمة على الصمت استئناف نشاطها • وعندما فتح الجنرال « جيرو » ابواب المحتشدات امام الشيوعيين فانه اطلق من بينهم سراح نواب محنكين ومناضلين فرنسيين ومسلمين • لم يتفكوا طيلة اعتقالهم يتهيئون لمعارك الغد بتدريب ثقافي • وقد عرفوا كيف يستثمرون الوضع احسن استثمار فارضين تاثيرهم في كل مكان : في اللجان الحكومية حيث شاركوا مشاركة نشيطة في المداولات المتعلقة بالاجور ، وفي نيابات الخمسين لمجالس البلديات والمجالس العامة وقد دعوا اليها مرارا ، وفي النقابات بدفع من « بيار فابيي » وعمار اوزقان ، وفي المنظمات التقدمية التي قاموا فيها بدور المنشطين ، ومنها بالخصوص « فرنسا المحاربة » التي انشئت يوم 7 افريل 1943 • وبينما وقف فرحات عباس موقفا فدراليا قاطعا الصلة بماضيه الادماجي ، اذا بالشيوعيين يقفون موقفا اكثر حذرا واتزانا •

فعلى العكس من الزعيم المسلم لم تتعلق همتهم بالمطالبة بدولة جزائرية لامد بعيد ، بل كرسوا جهودهم في مقاومة « ارباب الارض المائة » التي تمس الفلاحين مباشرة • وكانت اهم مطالبهم تتعلق بالمساواة في الاجور والرواتب والنفقات العسكرية ، وبتطبيق جميع القوانين الاجتماعية لفائدة الاهالي ، وبمقاومة الجهل وحرية تعليم العربية ، وبسياسة جريئة في الميدان الاجتماعي ، وبحرية ممارسة النشاط الثقافي ، وبمنح المسلمين حقوقا سياسية حقيقية ، وباصلاح زراعي وباصلاحات عاجلة في الميدان السياسي والاداري ريثما يتم اقرار القانون الاساسي • ورمى الشيوعيين انصار البيان وحزب الشعب الجزائري بمساندة الامبريالية حتى لا يظهروا دونهم طموحا • وازدهرت جريدتهم « ليبارتي » (الحرية) المؤسسة في جوان 1943 • وارتفع عدد نسخها اليومي في نهاية 1944 من 715 • 59

الى 121،600 ، لكن كان ذلك بكسب قراء من العناصر الاوروبية اكثر من العناصر المسلمة ٠

ولم ينفك حزب الشعب الجزائرى يواصل دعايته السرية ٠ وقد ارجع اليه اعضاؤه الذين نجوا من المحتشدات ، لكن مصالى الحاج ، الذى حكم عليه يوم 17 مارس 1941 بالاشغال الشاقة لمدة 16 سنة وبحظر الاقامة لمدة 20 سنة بتهمة النيل من امن الدولة ، لم يتم اطلاق سراحه يوم 24 افريل حتى وضع حالا تحت الاقامة الجبرية بقرية « ريبال » (Relbell) على بعد 110 كيلو متر جنوب غربي بوغارى ، ومنها نقل الى « برازافيل » (Brazaville) فى 30 افريل 1945 على اثر اضطرابات محلية ٠ وانتهى هذا الاجراء ، المتخذ نظرا لحالة الحرب ، بصورة تلقائية عند صدور القانون المؤرخ فى 10 ماى 1946 والذى حدد تاريخ انتهاء العمليات الحربية لغرة جوان ، واطلق سراح زعيم حزب الشعب الجزائرى ، فاستانف نشاطه علانية ٠ وفى الاثناء عمل الحزب الممنوع قانونيا على التسرب فى صفوف المنظمات الاهلية النظامية وبالخصوص فى منظمة اصدقاء البيان ٠

تاثير فرحات عباس

لقد احتل فرحات عباس المقام الاول بعد نهاية الحرب ، وتعاظم دوره الى حد انه اصبح رمز الوطنية الجزائرية ٠ وكان ابن « قايد » (عامل) قديم عين باش آغا ونال الصنف الثانى من وسام جوقة الشرف ، وتلقى تكوينا ثقافيا جوهره فرنسي ٠ وبعد سنتين من الخدمة العسكرية التى ارتقى فيها الى رتبة رقيب ، زاول تعليمه فى كلية الصيدلة بالجزائر حيث شعر بان معلميه كانوا لا يسارعون فى منحه شهادته ٠ ثم استقر بمدينة سطيف حيث اصبح على التوالى مستشارا بلديا وعضوا بمجلس المقاطعة ونائبا ماليا ٠ وتطوع اثناء الحرب العالمية الثانية كجندى اضافى ، ولم يحرز على الترقيات التى نالها زملاؤه الفرنسيون ٠ وعاد بعد الهدنة مذهولا لما شاهده من انهيار امة عظمى ٠

وقد بدا من خلال كتاباته الاولى بين الواحدة والعشرين والتاسعة والعشرين من عمره شغوفا بالمعرفة وادراك الامور ٠ وقرأ « حديقة ابيقور » le Jardin d'Epicure و « فوق الحجرة البيضاء » sur la pièrre blanche وهما المستندان المقدسان للمذهب الانسانى الاشتراكى ٠ وبحث عن

المآثر الاسلامية عند « لوتروب ستودار » و « قوستاف لوبون » واتريكو انسابانو » و « اميل ـ فيليكس قوتيي » و « أدوار مونتي » وتفتح تطلعه المزدوج على التفكير الغربي وتجارب الشرق التي بلغته حديثة العهد من العربية السعودية وتركيا الكمالية . وان اسم كمال بن سراج الذي استعاره في سن الواحدة والعشرين ليترجم عن كل ما في نفسه . فهو يوحي في نفس الوقت بالزعيم الوطني مصطفى كمال الذي القى باليونانيين في البحر وببطل « شاتوبريان » الذي ضحى بسعادته من اجل المجد .

لقد ظلت حياة فرحات عباس السياسية كلها تتجاذبها واقعية الغازي وروماانطقية ابن هابط . فهو يبدو هكذا مازجا الخيال بالعمل ، فصيحا ، مندفعا ، جذابا ، لكن لا يملك تجربة الحبيب بورقيبة ومثابرته السياسية . وكان ميله الى النزعة الانسانية المسيحية التي يمثلها « جاك ماريتان » يغلب على ميله الى البرامج الثورية لاحزاب اقصى اليسار . وكان برجوازيا مسلما استماله كاثوليك « الجمهورية الفتية » و « والحزب الديموقراطي الشعبي » ، وهم في نفس الوقت جريئون ويحترمون بعض القواعد الاجتماعية . وقد عرف بنفسه سنة 1939 بانه اصلاحي تقدمي . وكان قبل الحرب ذا نزعة ادماجية قوية ، واغرته المواطنة الاجبارية مثلما اغرى ابن هابط بتبديل دينه لجمال عيني « بلانكا » Blanca . لكن تصلب المعمرين سنة 1936 منعه من الاغترار من جديد .

فرحات عباس وحكومة فيشي

لم يظهر فرحات عباس العدو اللدود لحكومة فيشي . وقد طالب بالمشاركة في اللجنة المالية الجزائرية في رسالة الى الوالي العام بتاريخ 16 ديسمبر 1940 . فاقتبله عندئذ الاميرال « ابريال » ، ولكنه قطع المقابلة، واطرده مع توبيخه توبيخا شديدا . ولم يحتفظ الا بمهامه كمستشار بلدي . وفي 10 افريل 1941 وجه تقريرا الى الماريشال « بيتان » « رئيس الدولة الفرنسية الجليل » باسم « الشبان الجزائريين والفلاحين والعملة والمناضلين » . ووضع ملتمسه تحت رعاية غاندي « وشارل موراس » ، هذا اللاتيني الذي يشبه في كثير من النقط « لوي برتران » الذي كان كمال بن سراج وجه اليه انتقادات رشيقة وصارمة في وقت آخر . ويبرر صاحب التقرير مبادرته بانه احد الرعايا الفرنسيين الذين لهم أن يتوجهوا

الى الحكومة مهما كانت لانهم « لم يمارسوا من السيادة الفرنسية قيد انملة » (8) ويبتدىء النص بالاعتراف بالجميل لسياسة « فيشي » الخاصة بالارض ، مثلما كان الاعتراف بالجميل لمطامح الجبهة الشعبية فى الماضى • وقد جاء فى النص ان النداء صادر عن رجال «ينتمون الى عنصر الفلاحين الذين احتفظوا بصلات وثيقة معه » ، و « اقسموا على النضال والعمل فى كل الظروف وفى كل الاوقات وتحت كل الانظمة الى ان يكون القانون بالجزائر واحدا بالنسبة للجميع » • ويأسف للقوة التى عليها « الاقطاعية المالكة للارض » « للمكانة المنقوصة » التى عليها الستة ملايين من المسلمين الذين لم تتجدد حياتهم وبقوا فى حالة المشرقيين ، ولاقصاء النخب • ويطالب بابقاء الفلاحين فوق اراضيهم ، وباعادة تكوين المجتمع الفلاحى ، وبتنمية التعليم لان « المدرسة ، الفرنسية السليمة والمتينة تبقى اللبنة الاجتماعية الممتازة » وبالمساواة بين الموظفين المسلمين ، وبتدابير تضمن الشغل « للطبقة الفلاحية الكادحة الضخمة » ، وبتجهيز الدواور ، وبالمساواة العسكرية لانه لا ينبغى ان يوجد الا « جيش واحد : الجيش الفرنسى ، وجندى واحد هو الجندى الفرنسى » ، ويطالب بالفصل بين الدين والدولة ، وبانشاء مراكز بلدية بالدواور » تديرها مجالس منتخبة او غير منتخبة » ، وبالزيادة فى الدوائر والمقاطعات ، وبحذف الولاية العامة واعفائها من المسائل الادارية وتعيين ثلاثة او اربعة متفقدين عامين مختصين فى المالية والقمارق والشؤون الاسلامية لمساعدتها ، ويطالب اخيرا بالغاء النظام العسكرى بالجنوب • ويقول : « عندئذ تتولد فى قلب الجالية الاوربية وفى اعماق ضمير جماهيرنا المتجددة الرغبة فى التواجد ، هذه الرغبة التى هى العنصر المكون للامة حسب تعريف « روناذ » •

ورد الماريشال على فرحات عباس يوم 4 اوت 1941 بانه سياخذ مقترحاته بعين الاعتبار • وصرح الزعيم المسلم امام المجلس التاسيسى : « لقد دافعت فى هذا التقرير عن الاراء الجمهورية والديموقراطية • وكانت لى الشجاعة لان اقوم بذلك تحت نظام فيشى » • وبمرور الزمن فان اعتدال المطالب المتناهى هو الذى يبرز • وقد ذهب الامتثال باصحاب المطالب الى الرضى بمصلحة خاصة بالشؤون الاسلامية ، ولم تتجاوز وطنيتهم المطالبة باقليمية

8) ــ فرحات عباس • المجلس التاسيسى ، الجلسة الاولى بتاريخ 23 اوت 1949 الجريدة الرسمية ، 24 اوت ، ص 3279 •

فرنسية كانت اذ ذاك من الامور المرضية • ويبدو ان فرحات عباس احجم فيما بعد عن كل معارضة • وقد لامه « فرانسوا كيلتشي » عن رفضه الاضطلاع بالرئاسة الشرفية للجنة التعاون الاسلامي بسطيف من اجل النهوض بفرنسا ، فلم يعترض عليه • ويقال انه ربما مثل في مارس 1942 الى جانب سلطات « فيشي » في حفل ازهى فيه رجال اللفيف و (SOL) والملاحظة انه كان في ذلك دون غالب المعمرين الفرنسيين الذين بلغ ولاؤهم الى الماريشال « بيتان » قوة الديانة ، وهم يكونون الان القاعدة الانتخابية لتجمع الشعب الفرنسي ، ولم تعتر « كليتشي » اليوم هزة استنكار ••

فالواقع هو ان حكومة فيشي لم تعرف معارضة حقيقية • وقد جمع الجنرال « فايفان » والوالي « ساتال » حولهما مرابطين واعيانا وارضيا شهواتهم في الابهة والمال ، فانضموا الى عجوز « فيشي » المستبد وصاحب الرتبة العسكرية العالية والذي يمثل رمز القائد • وكان غالب المعارضين الحقيقيين في المحتشدات • ولم تر البقية الفرصة سانحة ، فسكتت • وندر من تحالف منهم مع العدو • على ان الجنرال « فايفان » اعدم رميا بالرصاص سنة 1941 احد قدماء التلامذة بجامعة مدينة الجزائر ، وهو « بوراس » رئيس الكشافة الاسلامية بالجزائر ، « لانه سلم وثائق سرية الى الالمان بوصفه سكرتير القسم الفرنسي للجنة الهدنة » (9) والراجح ان عدد الذين تاثروا بهيبة الماريشال التي تفننوا في تكييفها كان كبر ضمن الجماهير •

الجزائريون والامريكان ـ المطالب الاولى

لقد أطلق انتصار الحلفاء العنان للحماس المكبوت • فوجه الاميرال « فرانسوا درلان » نداء الى المسلمين بافريقيا الشمالية وافريقيا الغربية الفرنسية بعد نزول الحلفاء بشهر ، يوم 11 ديسمبر • واعلن انه باتفاق مع مسلمي مصر وليبيا يجب احباط نوايا المحور في وضع مئات الالاف من الاهالي تحت النير وتغطية الارض بمهاجرين جياع • وكان من المقرر أن يجند جيش عظيم مجهز تجهيزا عصريا لانقاذ سكان تونس والساحل وطرابلس • والماضي يضمن عدم تخلف فرنسا عن واجباتها نحو المسلمين • وباعانة الله ستكون الغلبة

(9) ـ ر • مونتاني « الى اين تسير الجزائر ؟ 1945 » ص 87 •

لفرنسا وللاسلام مجتمعين • وقد بدا هذا الخطاب واضحا فيما يتعلق بوجوب مواصلة الحرب وتجنيد فيالق بشمال افريقيا لهذا الغرض ، ولكنه كان غامضا بخصوص الفوائد التي قد تنجر للجزائريين عن مساهمتهم • والحال ان الناطقين بلسانهم كانوا يودون أن يتم الربط بين المسالتين حتى لايخدعوا •

ومن الصعب أن نحدد كيف تم استئناف الاتصال بين النخب المسلمة والادارة العليا • وقد كان « لروبار مورفي » الممثل الشخصي للرئيس « روزفلت » في هذا الميدان تاثير غير خفي احيانا ولكنه حاسم • فقد اقتبل فرحات عباس مرات ليتحادث معه بشان الاوجه الممكنة لتطبيق الميثاق لاطلسي بالجزائر • وعمل لفائدة وفاق ييسر اتحاد القوى الجزائرية ضد العدو المشترك • وليس مستحيلا ان تحول اتجاه الزعيم الوطني نحو النظام الفدرالي تاثرا بالمفاهيم الامريكية ، وكان اذ ذاك يبحث عن شكل يعطيه لبرنامجه التحرري •

وكانت الادارة العليا مجبورة على تقديم الضمانات لما ارتكبته من غلطات • وكان الجنرال « دي قول » منهمكا على ما يظهر في انكلترا بينما كان الاميركان يتصرفون في بلد محتل • وكان من الممكن ان يعترى الاذهان المصابة بسنتين من الرضوخ لادارة المحور الخوف من سيطرة نهائية تاخذ شكلا سياسيا • وربما فكر البعض ان نظاما فدراليا يكون اخف الضررين اذ يبقى الجزائر في المحيط الفرنسي ويحول دون القطيعة مع فرنسا •

ففي 20 ديسمبر 1942 رفضت الولاية العامة عن صواب اول « رسالة من ممثلي المسلمين الى السلطات » • وكانت بالفعل موجهة لا الى السلطات الفرنسية بل « الى السلطات المسؤولة » ، وهو ما يقر للاميركان بصلاحية لاتعود اليهم قانونيا • واتخذت من ناحية اخرى شكل انذار اذ تعلق مشاركة الجماهير الاهلية في المجهود الحربي على الدعوة المسبقة « لندوة تجمع المنتخبين والنواب الاكفاء لجميع منظمات المسلمين » • وبعد يومين تسلم الكاتب العام في مغيب الوالي العام من الجزائر نصا مماثلا موجها الى السلط الفرنسية ولا يضع شروطا لجمع اللجنة •

ويعلن المسلمون انهم على استعداد للمشاركة في حرب لتحرير الشعوب • فيحققون تحريرهم الذاتي سياسياً في نطاق اسلامه فرنسي وتحرير فرنسا في نفس الوقت • ويؤكدون انهم لا يزالون « محرومين من الحقوق والحريات

الاساسية التي يتمتع بها السكان الآخرون بهذا البلد » بالرغم من التضحيات التى بذلوها بعد » والوعود الصريحة والرسمية التى تلقوها مرات عديدة » • فينبغى ان « يبرز عزم فرنسا على الاصلاح بانجازات ملموسة وعاجلة » • وبناء على ذلك يطالب الموقعون على العريضة بدعوة ندوة عاجلة لممثلى المسلمين يكون « موضوعها اعداد نظام سياسى واقتصادى واجتماعى للمسلمين الجزائريين » •

والمقارنة بين النصين مفيدة• فالاول يتغافل عن ذكر سلطة فرنسا السياسية، والثانى يقر ابقاء الجزائر فى الاطار الفرنسى ، لكنه لا يشرك الفرنسيين فى تحرير النظام الخاص بالمسلمين • وهو ما يجردهم بالفعل من احد اختصاصاتهم الاساسية • واما من اللهجة فهى لجفافها متباينة مع ما فى الرسالة الى الماريشال « بيتان » من عبارات الاحترام • فالحضور الامريكي اعطى التحرير صبغة احتلال اجنبى اكثر من استرجاع فرنسا لنفوذها ، فاوحى الى الوطنيين بأوهام كانوا على وشك الانخداع لها •

بيان 12 فيفرى 1943 – « الميثاق الجزائرى »

كان الجنرال « جيرو » لا يرمى الا الى غاية واحدة : النصر • ولذلك رفض الاهتمام بمطالب الاهالى • وصرف وفدا من الاهالى قائلا له انه يحارب ولا يشتغل بالسياسة ، وانه يهتم بالتجنيد اكثر من اهتمامه بالاصلاحات • بيد ان « بيروطون » ، الذى خلف الوالى « شاتال » فى 17 جانفى 1943 ، ومدير الشؤون الاهلية « اوقستان بارك » وكانا اكثر تبصرا منه ، شعرا بضرورة العمل فى هذا المجال • ويؤكد الناس العليمون ، على اختلاف اتجاهاتهم ، ان البيان الذى كان يعده فرحات عباس قد دارت حوله مناقشات بمكاتب الولاية العامة ، وان « مورفى » « وبارك » زكياه • وان ما اكدته بهذا الشان شخصيات مختلفة المشارب مثل الدكتور « جوزى ابو لكار » والجنرال « بول توبار » « ومارك روكار » لمؤثر • بل ربما وجد نص أولى سلم الى بارك لمراجعته •

على ان فرحات عباس رد على متهميه يوم 23 اوت 1946 قائلا : « لم يقع اعداد البيان فى الولاية العامة ، بل اعده السكان المسلمون وهو يعبر عن مطامحهم المشروعة والحقيقية • وبالفعل فان السلطات الفرنسية قبلت البيان سنة 1943 شريطة ان ينجز استقلال الجزائر المطلوب فى الاطار الفرنسى ،

وكان جواب المنتخبين الذين قدموه بدون غموض : تندرج سياسة البيان بالفعل فى اطار فدرالية فرنسية » (10) وينطبق هذا التصريح جيدا على نص 22 ديسمبر المنقح بطلب من الولاية العامة ، ولكنه لا ينطبق باية صورة على البيان وعلى الملحق حيث قد نبحث بدون طائل عن ذكر الاطار الفرنسى وعن الفدرالية • ولا يذكر البيان سوى مشاركة المسلمين الفعلية فى حكم بلادهم ، ولا تسلم حيثيات الملحق لفرنسا الا « بحق مراقبة الجزائر » الامة ذات السيادة » وفى هذا نفى للنظام الفدرالى بالذات • ولا ذكر للفدرالية الشمال افريقية بخصوص بلدان المغرب الثلاثة ، ولا وجود لفدرالية فى الاطار الفرنسى » ولا بد ان كانت موافقة الادارة على البيان معلومة من العموم حتى تحصل قبل نشره على مصادقة خمسة وخمسين شخصا من بينهم منتخبون قليلو الميل الى المجازفات • وقد ذكرت حالة مسلمين قد حرضهم موظفون مسؤولون على الامضاء • ولما تغير الوضع بعد ثمانية اشهر تخلى اثنا عشر من الممضين عن فرحات عباس •

ومهما كان الرأى فى نشأة بيان 12 فيفرى 1943 الذى اصبح « الميثاق الجزائرى » فانه فتح عهدا جديدا للعمل الوطنى • وقد احتل منه الجزء النقدى مكانا لا يتناسب مع البرنامج الايجابى • ولا يعطى ذكر اضرار الاستعمار ، وهو صحيح غالبا ، الا فكرة اجمالية عن الواقع ، وليست الارقام المذكورة كلها ثابتة • وفيما يخص الملكية العقارية فليس ثمة اشارة الى الاملاك الاهلية الكبرى ولا الى اعمال الابتزاز التى قام بها القياد »

مطالب البيان

شن الفرنسيون « سباقا حقيقيا الى الحكم منذ احتلال القوات الانكليزية الامريكية للجزائر • وظلت كل مجموعة من الجمهوريين واتباع « دى قول » والملكيين والاسرائليين تسعى من جهتها لابراز مزايا تعاونها فى نظر الحلفاء ، وتسهر على الذود عن مصالحها الخاصة • وأمام هذا الهيجان بدا كل واحد يجهل حتى وجود الثمانية ملايين ونصف من الاهالى » • فكانوا اذن مضطرين لطرح مشكل مستقبلهم بواسطة ممثليهم » • وفى عملهم هذا لا ينوون التنكر فى شىء للثقافة الفرنسية والغربية التى تلقوها وبقيت عزيزة عليهم • بل انهم بالعكس يستمدون القوة والمبرر لعملهم الحالى من ثورة فرنسا الادبية والفكرية ومن تقاليد الحرية للشعب الفرنسى • » لذلك

---

(10) ـ الجريدة الرسمية ، 24 اوت 1946 ، ص 3279 •

يشهرون بالنظام الاستماري المفروض على الشعب الجزائري والذي قام على المظالم والجرائم • » وان سياسة الادماج التي طبقت على هؤلاء دون اولئك جعلت المجتمع الاسلامي في اتم العبودية » • ولا يحتل العنصر العربي البربري في بلاده الا مكانة ثانوية بالرغم عن تفوق عدده وحقوقه الدائمة • ولم تنجز المؤسسات الديموقراطية الا لفائدة الغالبين دون سواهم •

لقد انتزع الاستعمار من القبائل اراضيهم ، وحول الجزائريين الذين كانوا في الماضي يملكون « مساحات شاسعة من الارض » الى « شعب متركب من فلاحين صغار وخاصة من ماجورين » رغم مقاومة عنيفة دامت سبعة وعشرين عاما • على ان « نخبة من المثقفين والفلاحين واصحاب الصناعات التقليدية والعمال » استطاعت ان تتكون ، وقد كونتها الثقافة والتقنية الغربية • وعجل بالتطور عنصران جديدان : المحارب القديم الذي اكتسب الشعور بالكرامة ، والمنتخب الذي اصبح منذ سنة 1919 الناطق بلسان الشعب المغلوب • وتوجد بالجزائر كتلة اروبية وكتلة اسلامية » ، تتميز الواحدة عن الاخرى ، ولا روح مشتركة بينهما ، « ولا سبيل الى الامل في اصلاح مجد لان جميع المشاريع اصطدمت من سنة 1887 الى سنة 1936 بمعارضة المعمرين المظفرة • وقضى على الادماج الذي كان اكذوبة ، بدون رجعة ، وفي المستقبل لن يطلب المسلم الجزائري شيئا آخر سوى ان يكون جزائريا مسلما » •

ان الشعب يطالب « باصلاحات ملموسة وعاجلة لانه لم يعد يستطيع استثاقة الوعود • ولذا يضبط هو بنفسه مطالبه : « ادانة والغاء الاستعمار ، الذي هو الشكل العصري للرق ، « العمل بحق الشعوب في تقرير مصيرها بجميع البلدان صغيرها وكبيرها » ، « منح الجزائر » دستورا خاصا يضمن : اولا — الحرية والمساواة المطلقة لجميع السكان بدون ميز عنصري ولا ديني • ثانيا — حذف الملكية الاقطاعية بادخال اصلاح زراعي كبير وتمكين البروليتاريا الفلاحية الضخمة من حقها في رغد العيش • ثالثا — الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية مثل اللغة الفرنسية • رابعا — حرية الصحافة وحق تاسيس الجمعيات • خامسا — التعليم المجاني والاجباري بالنسبة للاطفال من الجنسين • سادسا — حرية الشعائر الدينية لجميع السكان وتطبيق مبدا فصل الدين عن الدولة بالنسبة لجميع الديانات • » وفي

الميدان السياسي طالب البيان بمشاركة المسلمين الجزائريين العاجلة والفعلية في حكومة بلادهم ... ولهذه الحكومة وحدها القدرة على تحقيق مشاركة جميع المحكوم عليهم والمساجين السياسيين بقطع النظر عن الحزب الذي ينتمون اليه في جو من الوحدة المعنوية والتامة » .

ملحق البيان

ان فحوى هذا النص جدير بالانتباه . فلا ذكر فيه لمبدا الوحدة العربية وللمجموعة الاسلامية ، ولا رجوع فيه الى ماضي الجزائر في عهد كبريات الاسر الاهلية المالكة . ولا يبحث عن نماذج في مصر او في سوريا بل في تركيا الكمالية العزيزة على فرحات عباس ، البلد الذي قطع الصلة مع التقاليد الاسلامية الى حد انه تبنى قانونا مدنيا مستوحى من النموذج السويسري . لبقطع النظر عن فصل الدين عن الدولة فان جوهر المطالب «لا ديني» . ولم تضبط كيفية اعداد الدستور . فاستعمال لفظ «دوتاسيون» (Dotation) يقتضي منح الدستور من قبل الغير بدلا من ان يعده مجلس تاسيسي الذي لم يات ذكره على كل حال . ولا تعني « المشاركة » في الحكومة اضطلاع الاغلبية بها . وليست مقنعة امثلة الوضع التي اقرتها انكلترا وفرنسا بسوريا واقرها الماريشال « بيتان » والالمان بتونس وخاصة هذا الاخير ، ولا تطابق حالات نظام فدرالي . وفي الجملة فالبيان اقل جراة من نص 22 ديسمبر وخاصة من النص المؤرخ في 20 منه . وهو وان كان مضبوطا فيما يتعلق بالمساواة والملكية واللغة العربية والصحافة وحق تاسيس الجمعيات والتعليم وتنظيم الشعائر الدينية ، فانه بقي غامضا فيما يخص النظام السياسي ، بمعنى فيما يتعلق بالجوهر .

وسلم نص البيان الى « بيروطون » يوم 31 مارس ، فوعد بدرسه « كاساس لاصلاحات مقبلة » (11) وقدم ايضا الى سلط الحلفاء . ورأى الوالي العام ان البيان لا يكتسب معنى حقيقيا الا اذا شفع بمقترحات ملموسة . وللنظر في المطالب الاسلامية احدث بقرار مؤرخ في 3 افريل 1943 لجنة دراسات للشؤون الاقتصادية والاجتماعية الاسلامية مهمتها اعداد برنامج اصلاحات من شانها ان تنجز حتى في مدة الحرب . فعقدت اللجنة دورتين : الاولى في 14 افريل والثانية في 23 جوان 1943 بمحضر « اوقوستان بارك » الذي

(11) ـ حسب فرحات عباس في جريدة « ليقاليتي » (المساواة) 12 جانفي 1945 .

حضرهما بوصفه مندوبا للحكومة . وتم تحرير ملحق البيان من قبل النواب العرب والقبائل في 26 ماي ، وسلم الى الجنرال « دي قول » يوم 10 جوان ومن الغد الى ديوان الجنرال « كاترو » وصادقت عليه لجنة الدراسات يوم 26 جوان بمحضر مندوب الحكومة الذي اعطى موافقته » (12) .

ولا سبيل الى الخلط بين النص الجديد والنص الاول ، وهو يتجاوزه تجاوزا واسعا ، ولو انه يؤكد الارتباط به . ففيه مثلا الاشارة الى «الاعتراف بالامة الجزائرية الذي طالب به بيان 10 فيفري 1943 » . والحال ان البيان يذكر مرارا الشعب الجزائري ، ولا يذكر ابدا الامة الجزائرية ، ما عدا فيما يتعلق بفقرة للماريشال « بيجو » لها معنى مخالف تماما . وفيما يخص الغاء امر « كريميو » ثمة حديث عن الفوائد المنجرة عن « الجنسية والمواطنة الجزائرية » ، ولكن بدون ان يستخرج شيء ملموس من هذه الملاحظة العرضية وخاصة من غير ان يطالب بالامة الجزائرية في اي ميدان كان . ويأتي الملحق بمطالب واضحة اذ يقول : « ان الحل لتطوير الجزائر » يكمن « في دستور مستقل » . وفي انتظار ذلك يطلب النواب الماليون العرب والقبائل « من ناحية ضمان سلامة ووحدة التراب الجزائري ، ومن ناحية اخرى الاعتراف باستقلال الجزائر السياسي بوصفها امة ذات سيادة مع حق فرنسا في المراقبة والمساعدة العسكرية للحلفاء في حالة الحرب » . وعند انتهاء الحرب تنشأ في الجزائر دولة جزائرية لها دستور خاص يعده مجلس تاسيسي جزائري ينتخبه جميع سكان الجزائر انتخابا حرا مباشرا » .

وفي الوقت الحاضر قد تنظم « حكومة جزائرية تتركب من وزارات توزع بالتساوي بين الفرنسيين والجزائريين » . ويراسها الوالي العام الذي يدعى في المستقبل « سفيرا مندوبا ساميا لفرنسا بالجزائر » . ويكون التمثيل متعادلا في جميع المجالس . وتحظى الدواوير بادارة مستقلة . ويقبل المسلمون بجميع الوظائف العمومية بما فيها وظائف السلطة . وتلغى جميع القوانين الاستثنائية . وتقر المساواة في الخدمة العسكرية بالنسبة للجميع . وتحمل الفيالق المتركبة من المسلمين « اعلاما جزائرية » . وينبغي انشاء ديوان للفلاحة ووزارة للشغل وحذف التعليم الخاص بالاهالي وترك تعليم العربية حرا ، ووضع حد للاقتصاد المسير ، والغاء القانون الخاص بالتنسيق بين السكك الحديدية والطرقات ،

---

12) ـ « من البيان الى الجمهورية الجزائرية » ، ص 45 .

وجعل الشعائر الدينية الاسلامية والصحافة باللغتين حرة • وليس في انجاز مثل هذه الاصلاحات « اية صعوبة » • بل يبعث انجازها الحماس في الجزائر المستعدة للقتـال •

قيمة البيـان واهميتـه

يبدو لمن ينظر في المواقف الخاصة بالاحزاب المغربية ان انصار « البيـان » لم يبلغوا سنة 1943 النضج السياسي الذي كان عليه الدستوريون بتونس • فالنصوص تشكو طولا مضنيا بدل الصيغ المقتضبة التي جاءت في نداءات حزب الاستقلال وقد جرت الرومانطيقية فرحات عباس الى اخطاء لم تكن واقعية الحبيب بورقيبة لتقع فيها ابدا • وان الجزم بان « التعاون الذي عرضه المستشار هتلر على فرنسا سنة 1940 انما هو صورة ضعيفة من نظام التعاون المعمول به بالجزائر المسلمة » لهو استعمال لمقارنـة تنم عن ذوق اقل ما يقال انـه مشكوك فيه بالنسبة للعهد الذي حرر فيه « البيان » • وان القول بان فرنسا « الامة اللاتينية والمسيحية لا تستطيع حسب رجال دولتها ورجال قانونهـا ان تقبل فـي حضيرتها سوى المسلميـن الذين كفـروا بعقيدتهم الدينية » :نمـا هـو الجهـل بانـه لا علاقـة قـانونيـة للمسيحيـة واللاتينيـة بمشكل القـانون الاساسـي • والدليل علـى ذلك قـانـون 29 سبتمبـر 1916 الذي ينص على « ان اصيلي بلديات السنغال الكاملة النفوذ وخلفهم هم مواطنون فرنسيون وسيبقون كذلك ••• » مـع احتفاظهم بقانـون احوالهـم الشخصية ، وهو ما سمح لمسلم متعدد الزوجات بالجلوس في مجلس النواب • وقد جرى التذكير بهذه السابقة مرارا اثناء المشاحنات الكلامية التي دارت عند عرض مشروع « بلوم ــ فيوليت » ، وكان من الانسب ان لا تنسى • ولو كان الامر « مسلما به » قطعا مثل ما اكدتـه حيثيات البيان لما ادركنـا كيف تسنى لامر 7 مارس 1944 ان يمنح المسلمين بالجزائر حق المواطنة بعنوان شخصي ، ولا كيف صوت اعضاء المجلس التاسيسي الفرنسي بالاجماع ، وبدون معارضة « رجال القانون » و « رجال الدولة » ، لفائدة قانون 7 ماي 1946 الذي ينص على ان « لجميع الرعايا بمقاطعات ما وراء البحار (بما فيهـا الجزائر) صفة المواطن بنفس عنوان المواطنين الفرنسيين بفرنسا او بمقاطعـات ما وراء البحار » من غير ان يقع مس قانون احوالهم الشخصية •

لقد اظهر الدستوريون الجدد من الاحتراس فى مطالبهم اكثر بكثير من انصار « البيان » ، وهم مواطنو بلد احتفظ بملكه واستقلاله القانوني وله نخبة اكثر عددا من نخبة الجزائر · وسلموا بالمراحل وباحتفاظ الامة الحامية بفوائد اقتصادية وبالاحتفاظ بضمانات استراتيجية لفائدة الاقلية الاروبية · ولا وجود لاى تحفظ من هذا النوع فى الملحق · فافتراض ان دولة استعمارية قد تترك مصير رعاياها وممتلكاتهم عن طيب خاطر بيد مجلس تاسيسى تعينه اغلبية كبيرة من المسلمين اليس فيه التسليم بانها فقدت كل امكانية لرد الفعل ، وهو ما يزيل المشكل ؟ واعتبار ان تخلى الادارة الفرنسية بالجزائر عن مقاليد الامور بين عشية وضحاها امر سهل هو ايضا جهل لمعطيات الحالة الموضوعية · فان كان الامر يتعلق بتحديد حد نهائي الغاية منه تنظيم دعاية حماسية فى هذا المجال فالطريقة ربما كانت جائزة · بيد انه ليس من المحقق انها كانت الاكثر جدوى · ولنا ان نفترض ان تكتيلا للمجهودات من اجل هيئة موحدة للناخبين ، تعتبر خطوة اولى ، كان انجع بكثير · وقد اعتبر المناضلون من الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائرى وحزب الاستقلال الحبيب بورقيبة خائنا لان احد اعضاء حزبه شارك في الحكومة · فكانوا فى ردهم للفعل على هذا النحو اتباع حزب قصيرى النظر ، بينما سلك الزعيم التونسي سلوك رجل دولة ·

وان لم يشر الملحق مجرد الاشارة الى الروابط التى قد تربط بين الدولة الجزائرية المقبلة والدولة المستعمرة سابقا ، فانه لم يغفل عن التاكيد بان انشاءها لا يتنافى « وتنظيم فدرالية دول او اتحاد لشمال افريقيا بالاشتراك مع المغرب وتونس » · وربما ظهر ان ذكر هذه « الوحدة المغربية » « كاحسن صيغة للمستقبل » سابق لاوانه · وبالفعل ان كان من السهل التفكير فى تطوير الاتحاد الفرنسي نحو نظام فدرالى ، يترك لكل عنصر من عناصره صلاحية التقرير الحر فى الميادين التى يخصصها له الدستور ، فانه يبدو اقل تيسرا ان تقام فدرالية مغربية صرفة من شانها ان تنظم بعاصمة الجزائر ، وهى مركز الجمهورية ، دولة فدرالية عليها ان تبسط سلطتها على نظامين ملكيين وعلى ثلاث مجموعات من السكان تنصهر فى المستقبل فى جسد قومى وحيد بما انها خاضعة الى التنظيم الفدرالى ·

وينزل الملحق من عليائه فيقدم عددا من المطالب من الغريب ان يعثر عليها فى نص على هذه الاهمية · فالتضحية بالتنسيق بين السكك الحديدية والطرقات

فى الوقت الذى تعمل جميع الدول المنظمة على تحقيقه هل هى لفائدة العموم ام لفائدة اصحاب النقل العمومى ؟ وهل ان طلب العدول عن تسيير الاقتصاد « المضر بمصالح المنتجين والتجار المستهلكين المسلمين » لفائدة الكادحين ؟ انهم لمساكين هؤلاء المستهلكين الذين ربطهم بالتحرر الاقتصادى وقوة الاحلاف المهنية و « التجمعات الاحتكارية الجزائرية » الهائلة رجال يطمعون الى قلب وضع الجزائر دون التجاسر على مس المصالح الاقتصادية ! ولو تمكن الفلاحون من ابداء آرائهم لربما استغربوا من تغافل الملحق عن الغاء الملكية الاقطاعية التي ذكرها « البيان » لانه بلا شك يهدد اصحاب الاملاك الكبرى من المسلمين ، ومن الاصرار على تناسي وجود « قياد » مرتشين لم يقع التفكير في اجراء ضدهم لان الامر يتعلق ولا شك بموظفين مسلمين .

استقراء التاريخ

ان اهمية « البيان » ليست في فحواه القابل للنقاش من الناحية السياسية بل قوته العاطفية . فقد اصبح لما في تأكيداته من قطع ومن تصلب في مطالبه اداة دعاية ربما تجاوزت نجاعتها حتى امال محرريه . وقد تناول ثانية مبدا الامة الرئيسي المتين الذى طلع به بعد العلماء وحزب الشعب الجزائرى ، وبثها في عدد اوفر من العقول . ولم تكن الحالة تدعو الى البحث في الماضى عن مفهوم يتلاءم الا قليلا مع التاريخ . وانه من العجيب ان نلاحظ كيف قد يكون اكثر المناضلين جراة مرتبكين في بعض تصوراتهم . فلا يبدو لهم مبرر للامة ان لم تكن احياء للماضى ، بينما هى قد تكون للمستقبل الذى يتولد عن المطامح المشتركة في الحاضر . ولا حرج من ان لم تكن امة جزائرية اصلا عبر تقلبات التاريخ المستنجد به لا يشهد بها – وحسرتاه – الا من بعيد .

وليس ثمة ما يؤلم اكثر من مشاهدة رجال ذوى العزائم الصادقة يلوون النصوص والوثائق ليقولوها اكثر مما هي تعنى ، او حتى ما لا تعنى ، عندما نقابلها بنصوص ووثائق اخرى . فيكفى « يوغرتا » مجدا انه كان اقليدا كبيرا احبط عزة روما ، ولا فائدة في ان تنسب له نظريات الوطنيين في هذا العصر ، ولا تؤخذ بعين الاعتبار سوى الاحداث التى تثبت النظرية واحيانا لاغراض متناقضة . وان انتقاد تصرفات الغزو الفرنسى ، التى كثيرا ما كانت فظيعة ، مع السكوت التام عما استعمله الغزو العربى من وسائل مماثلة ان لم تكن افظع ، انما هو من قبيل الجدال لا من قبيل العمل التاريخى . واننا لنبحث عبثا عن عرض موضوعى للغزو العربى للمغرب من تصنيف

المغاربة . بينما نجد عروضا للغزو الفرنسي من صنع الفرنسيين ، يعرف الوطنيون كيف يستقون منها . على انه لا ينكر احد ما في هذا الموضوع من فائدة . وتذكر نصوص « لبيجو » و « سانت ارنو » و « ومونتانياك » . فهل منها ما يقارب كلام غازى العراق الحجاج بن يوسف الذى اقتدى به الوالى اليزيد فعمل بطريقته فى المغرب ؟ وهو يقول : ارى رؤوسا اينعت ، قسد حان قطفها . ارى بعد الدم يسيل على عمائمكم وعلى لحاكم ... واللهم لاشدنكم كما تشد ادغال الشوك ليسهل قطعها . ولاوسعنكم ضربا مثل النياق التى حادت عن القطيع » . واذا ذبح البربر اليزيد فلانهم كانوا يعتبرونه سفاكا . ان الجزائريين قاوموا الغزو الفرنسي بانفة ، هذا صحيح ، لكن هل لم يشن البربر ثلاثمائة وخمس وسبعين معركة ضد العرب منذ ثورتهم ضد عمر ؟ هل كان فرنسيا ام عربيا من ابدى هذا الراى النير فقال : « ان غزو افريقية امر مستحيل » ؟ انه ليس اقلهم شانا اذ هو القائد حسان بن النعمان .

لقد حطم الفرنسيون قبائل ، لكن هل وجد قائد مثل ابن الخطاب فى القرن الثامن ، فعل ما يشبه فعله ، وقد نظم مجازر فظيعة قضى بها بالقضاء المبرم على قبيلتى اورفجونة ونفزاوة العتيدتين بالجريد ؟ اننا ندرك بدون عناء ما كتبه ابن خلدون اذ قال : « منذ ذلك العهد خمدت تماما روح الخروج والثورة التى حركت مدة طويلة بربر افريقية » . ولو رضى البربر بالاسلام فهل كانوا يرتدون عن العقيدة المفروضة اثنتى عشر مرة فى ظرف سبعين سنة ؟ وهل لم يحتقر العرب الشعب المغلوب الى حد معاملته معاملة الكافر حتى بعد اسلامه واخضاعه الى نظام من الضريبة العقارية ومن الجزية بلغ درجة من الافراط انه تسبب فى ثورات دامية ؟ وتلام فرنسا عن سياستها التوطينية ، فليكن ذلك ايضا ، لكن ما القول عندئذ فى زحف بنى هلال وبنى سليم فى القرن الحادى عشر ، وكانوا حسب ما كتبه ابن خلدون « شبيهين بارجال الجراد يخربون كل شىء فى طريقهم » ، ويجرون وراءهم النساء والاطفال، وقد احبط محاولة التوحيد المغربي التى كان بربر صنهاجة بصدد تحقيقها ، واقر بالمغرب ما يزيد على مليون من البدو والاجانب ؟ ان هذه النكبة الشنيعة هى التى يسرت اخضاع البلاد للعروبة ثم للاسلام ، لكن البلاد تكبدت انهيارا لم تنهض منه .

فالى ماذا آلت ملحمة مقاومة البربر للعرب فى دعاية الزعماء الوطنيين حتى المتفوقين ثقافة ؟ قالوا : « اننا راينا ايضا العرب يقومون بغزو افريقيا الشمالية

ويتآخون مع البربر • ورأينا هذه الشعوب تتبنى نفس اللغة ونفس العادات وتتعاطى نفس الدين • فهل عمل الاستعمار الفرنسي في الجزائر بهذه السياسة الادماجية ؟ تقول لا • • • » (13) ان هذا صحيح ، وهو من حسن حظ السكان الجزائريين • فلا يجوز ان نستمد من التاريخ حججا ضد فرنسا اذا شوهناه بشكل مهين فيما يتعلق بالعرب • فان كان ما يسميه الوطنيون الجزائريون « التآخي مع البربر » يعني عبء الخراج والجزية الذي فرضه الامويون وجبروت الغزاة والقضاء المبرم على القبائل والثورات المسلحة المستمرة والبدع المتولدة عن بغض المحتلين والارتداد ، فانه من حقنا ان نتلقى بحذر ما يستعملونه من حجج تاريخية في قضايا اخرى •

وهل يقولون انه لا داعي لاثارة الموضوع لان وقته قد فات ؟ عندئذ يجب ان يفسروا لماذا تثير اليوم حملات « متلوس » و « ماريوس » اكثر اهتماما من حملات عقبة بن نافع وحسان بن النعمان على « المغرب الماكر » • ففي هذا الميدان ليس الوطنيون رشداء ، انهم لم يدركوا بعد ان مطامحهم في الاستقلال تكون اكثر اقناعا لو تبرر بموقف البربر القار ازاء الاجانب مهما كانوا ، ولو اعطوا لمقاومة المغرب للعرب مكانة تساوي مقاومة القبائل للرومان والفرنسيين • لكن تقديس الاسلام يحرم عليهم النظر في الماضي بموضوعية ، فكانت بيانات الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري من جراء ذلك لا متحيزة فقط بل هزيلة ، وكانت بيانات حركة انتصار الحريات الديموقراطية تقارب الحـــزر •

ضرورة بعث النقـد التاريخي

لا شك ان استتار التاريخ ناشيء عن مرض تشكوه كل وطنية في عهـد المخاض ، لكنه متفش في البلاد الاسلامية اكثر من غيرها • ذلك لان العلماء جازفوا بصورة خطيرة بالنقد التاريخي ، اذ اخضعوه لعلوم الدين مثل ما فعل ارباب الكنيسة باروبا الغربية في القرون الوسطى • وقد كتب احد كبار المختصين في شؤون الاسلام في الوقت الحاضر ، الذين لهم اكبر عطف على الحركات العصرية ، فقال : « عندما يقول لنا العدد العديد من المجددين للاسلام ان روح الاسلام شجعت البحث عن الحقيقة بدون خشية في جميع الميادين •

---

(13) ــ كلمة فرحات عباس في الذكرى السابعة للبيان • يوم 27 فيفري 1952 جاءت في « ردود الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري على الوالي » م • أ • نيجلان « ص 20 ــ 21 •

فمن الانصاف ان نسالهم من الذى كان مسؤولا عن طمس روح البحث عن الحقيقة التاريخية فى القرون الاخيرة من التاريخ الاسمى • انهم على صواب اذ يباهون بمثل ابن خلدون ، هذا النابغة الممتاز الذى حاول فى القرن الرابع عشر ان يركز التاريخ من جديد على قواعد علمية • لكن مثاله بالذات يثبت القاعدة : فعلاوة على ابن خلدون قبل هو نفسه غالب ما اكده السنيون من مبادئ فيما يخص كيفية النظر الى التاريخ ، لم يثر موقفه العلمى والانشانى الصادق ازاء مشكل المنهج التاريخى اى اهتمام فى المحافل السنية • وبقى مهملا ومنسيا الى ان انبعثت مؤلفاته فى القرن التاسع عشر » • وكان الفضل فى هذا الانبعاث بالاضافة الى ذلك عائدا الى المختصين الفرنسيين فى شؤون الاسـلام •

ان « هـ • أ • جيب » ادرك صلب المشكل عندما قال : « ان التوفيـق بين السنة الاسلامية والحركة الفكرية العصرية لا يقتضى ، كما يقدرونه غالبا ، حلا وسطا مع افتراضات العلم الحديث • بل علينا بالبحث عن هذه الوسيلة فى اعادة تقييم معطيات التفكير عند تلقين المواد التاريخية » ، بدون ان نترك انفسنا مثل غالب المجددين ننساق الى « تاويل التاريخ حسب الدوافع الوقتية المتقلبة » ، خاضعين لا الى قواعـد علمية بـل « الى خيال رومانتيقى » • ومن المسلم به انه على المسلمين الا يكتفوا « بتبنى المناهج التاريخية الغربيـة » • بل عليهم ان يخلقوا من جديد نقدهم التاريخى الخاص بهم ويبنوه « على اسس التفكير الاسلامى » (I4) • ومن اجل ذلك كان الشيخ عبده مواضبا فى قراءة تاريخ ابن خلدون •

قد يكون من المتاكد ان يعنى بعض المثقفين الجزائريين بالتدرب على المنهـج التاريخى عوض ان يعكفوا على اعادة تكييف الماضى بصورة غريبة لا قيمة لها الا من الوجهة الدعائية • ولو خضعوا لهذا المنهج لسرعان ما ادركوا ما فى متابعة سراب الامة الجزائرية عبر متناقضات التاريخ المغربى من عبث ، فالامة لا تتكون فقط من ذكرى المحن او المآثر الماضية • وانما تقوم فى ساعات الكفاح خاصة على ما اسماه « رونان » « وحدة الامل » • وهى تبرز حقيقـة للوجود لما يكون الشعب واعيا لاصالته ووحدته • وليس المهم ان تجرى العملية داخل حدود مصطنعة خلقها الاحتلال ، ،وانما المهم هو الحاجة المشتركة

(I4) ـ « هـ • ا • ر • جيب » ، النزعات العصرية فى الاسلام 1949 ص I70 — I73 .

الى الحرية والعزم على تخليص الشخصية من قبضة الاجنبى والتاكيد المشترك مما هو موقوف على العبرة من « يوغرتا » او عبد القادر ا، عبد الكريم ٠

حكم الجنرال « كاترو » الاستبدادى

بينما كانت دراسة « البيان » جارية على الصعيد الادارى اذا بالجزائر توضع تحت القيادة السياسية لهيئة التحرير الوطنى ، ويصبح الجنرال « كاترو » يوم 3 جوان 1943 واليا عاما بدلا من « بيروطون » ومندوب الدولة للشؤون الاسلامية ٠ وقد ولد بسعيدة ، وقضى جانبا وافرا من حياته العامة بافريقيا الشمالية وبالشرق الادنى ٠ وهو ديبلوماسى اكثر منه عسكرى ، وكان على حد من الذكاء جعله لا يشاطر زملاءه الحاملين للنجوم افكارهم المسبقة ٠ و ن كان يفضل التفاوض على العمل فانه لا ينفر عند الاقتضاء من سلوك طريقة القوة خاصة اذا كان الامر يتعلق بالاهالى ٠ وقد ذهل عند قدومه من تكلترا لبقاء قلوب الفرنسيين بالجزائر موالية لحكومة « فيشى » « فبيتان » كان يوفر لهم النظام على غرار ما يتصورونه هم لازما ، يعنى باخضاع الاهالى الى السلطة وحماية املاكهم والمحافظة على امتيازاتهم كاقلية » (15) وكانوا يرضون بالقيادة الجديدة ، كما فعلوا فيما بعد عندما انضموا افواجا الى تجمع الشعب الفرنسى ، الذى اصبح المدافع عن السياسة الاهلية المحافظة للغاية ، لو اعلن الجنرال « كاترو » ان الامور باقية على ما هى عليه ٠

وبحثت الحكومة عن « اسس التكافل بين الفرنسيين والمسلمين » ردا للفعل ضد « عقلية المحافظة الاجتماعية العمياء عند وجهاء افريقيا » ، وقد رات فيها خطرا ٠ والبديهى ان « البيان » لا يستجيب الى تكافل بين مجتمعين بل الى ابتلاع وحذف المجتمع الاكثر عددا للمجتمع الاقل اهمية ٠ وقد صرح الجنرال « كاترو » امام اللجنة يوم 23 جوان 1943 ، مثل الجنرال « جيرو » ، ان النصر يجب ان يكون الشغل الشاغل وليس من المناسب فى الظرف الراهن ان تشوش العقول باجراءات سابقة لاوانها - وسيحصل ما يلزم فى الوقت المطلوب ولكن على صعيد الوحدة الفرنسية لان

______

15) — جنرال « كاترو » ٠ فى المعركة ص 432 ٠

وحدة فرنسا والجزائر تشكل مبدا لا محيد عنه • وبالتالي فكل عمل يرمي الى تمزيق الوحدة هو مرفوض ، ولن ترضى فرنسا ابدا باستقلال الجزائر التي كانت جزءا منها لا يتجزأ •

«ان اتخاذ موقف بمثل هذا الوضوح ليس من شانه ان يترك اي وهم لاعضاء اللجنة • وقد حاولوا عبثا ان يتمسكوا بتوقيع المدير العام للشؤون الاهلية فان الوالي رفض بتاتا « البيان » « والملحق » ورفض حتى اعتمادهما كقاعدة عمل ، وكان لا يرى الهيئة الفرنسية للتحرير الوطني ملزمة بقرار اداري • وفي تصريح ادلى به في اكتوبر الى الجريدة الاسبوعية الفرنسية ت • أ • م • (تونس ، الجزائر • المغرب الاقصى) هاجم في نفس الوقت الوحدة العربية والوحدة المغربية • فعلى افريقيا الشمالية ان تتخلص من جاذبية المشرق لتدور في فلك فرنسا • ولا يمكن للمحميتين بافريقية الشمالية ان تقحما الا في « كنفدرالية » للاراضي الفرنسية ، دون ان تعرضا عن شخصيتهما القومية • ولم يعتبر انصار « البيان » الاوامر الستة التي استصدرها يوم 6 اوت من الهياة الفرنسية للتحرير الوطني سوى من قبيل « الفكاهة الفظة » وكانت تخص الوظيفة العمومية والدخول في المواطنة الفرنسية والتعليم الابتدائي والشركات الاحتياطية الفرنسية • ورد المنتخبون من الاهالي الفعل برفض المشاركة في الشؤون العمومية • (وامسك النواب العرب والقبائل عن حضور الدورة الاستثنائية لهيئات النيابات المالية يوم 22 سبتمبر 1943م)، وجددوا تعلقهم « بالبيان » في ندائات الى الجنرالين « دي قول » « وكاترو » • وكان رد المندوب للشؤون الاسلامية ان حل القسم الاهلي ، ووضع صياح عبد القادر رئيس القسم العربي وفرحات عباس المعتبر مسيرا للحركة تحت الاقامة الجبرية • وبرر الجنرال عملية العنف هذه بتحريض بعض النواب على العصيان في حالة الحرب • وحصل للمذنبين كما لو قدما الى مجلس حربي اذ كان على المنتخبين ان يحضروا بامر من الجنرالات مستعدين استعداد الجندي • واضطر اثنا عشر برجوازيا من مدينة الجزائر ليأتوا مشدودي الاعناق ليقروا بذنبهم للجنرال يوم 15 اكتوبر الموالي بمحضر الكاتب العام للحكومة ومدير الشؤون الاسلامية ! وطلب الدكتور طمزالي الامان على لسانهم • واسفت النيابة الاهلية بالاجماع لحادث 22 سبتمبر « الذي لم يكن في نواياها ولا في تفكيرها » ، وعبرت عن رغبتها في اصلاحات هيكلية « في كنف الشرعية والنظام ضمن المجموعة الفرنسية وطبقا للمثل الديموقراطية الفرنسية » ، وأكدت بغاية الوضوح

وطنيتهـا ووفاءها لفرنسـا » ، واكدت للهيـاة الفرنسية للتحرير الوطنـى تعـاونهـا النشيط فـى الكفـاح مـن اجـل « تحـريـر الـوطـن وانتصار الديموقراطيات » • وبعد تقديم هذه الشواهد التى لم تخل من شىء تيسر لمندوب الدولـة ان يتنازل لاعادة النيابتين العربيـة والقبائلية الى الوجود ولارجاع المبعدين الاثنين بجنوب ولاية وهران يوم 2 ديسمبر على اثر تدخل « ايليى قزلان » الناجح •

الجنرال « دى قول » وامر 7 مارس 1944

لم تكن الهياة الفرنسية للتحرير الوطنى الا متاثرة باضراب المنتخبين • وبعد استتباب النظـام قررت انجاز اصلاحات عاجلـة بالرغم عن ان الجنرال « كاترو » كان صرح فى ندوة صحافية انه ليس من مشمولات حكومة انتقالية ان تدخل تعديلات عميقة على نظام الاهالى • وقد اعلنها الجنرال « دى قول » بنفسه فى خطاب قسنطينة يوم 22 ديسمبر 1943 • وصرح قائلا : « ان هيئة التحرير قررت (16) باديء ذى بدء اسناد حقوق المواطن الكاملة فورا الـى عدة عشرات من الاف المسلمين الفرنسيين بالجزائر ، ولا يقبل اى منـع او تحديد لممارسة هذه الحقوق باعتراضات اساسها قانون الاحوال الشخصية وسترتفع فى نفس الوقت نسبة المسلمين الفرنسيين فى مختلف المجالس التى تتناول المصالح المحلية • ويرتبط بذلك فتح عدد كبير من الوظائف الادارية فـى وجه الذين لهم قدرة علـى الاضطلاع بها » • وكلفت الهيئـة الفرنسية للتحرير الوطنـى مندوب الدولة بتـاليف لجنة مختلطـة عقـدت جلساتها من 21 ديسمبر 1943 الى 8 جويلية 1944 (17) •

لقد تلقت العناصر المعتدلة بحماس مشروع حق المواطنة فى كنف قانون الاحوال الشخصية • وصرح « طالب » رئيس الهيئة النيابية العربية قائلا : « انه حلم يتحقق » • وعلـى العكس رفضتـه المنظمات الوطنيـة • وندد به الشيخ الابراهيمى رئيس جمعية العلماء على انه خطوة نحو ادماج لا يرضى به الشعب المسلم باى ثمن • ووجه اليه مصالى الحاج نفس الانتقاد الاساسى ونادى بتحرير المسلمين الجزائريين فى اطار دولة جزائرية مع برلمان جزائرى ومواطنـة جزائرية ، واتخذ فرحات عباس موقفـا مشابها ولكن فـى صورة

---

16) – فى دورتها المنعقدة يوم 11 ديسمبر 1943 •

17) – كانت تتركب من ستة فرنسيين وستة مسلمين بمساعدة اربعة موظفين •

« اكثر شكلية واقل صراحة » (18) فقد وضع العلاقات بين فرنسا والجزائر في مستوى العلاقات بين شعبين وطالب بجنسية جزائرية تضع « فرنسا ـ حسب تعبيره ـ في مأمن من اجتياح مواطني المستعمرات » . وفي النهاية اجاب على سؤال مضبوط لاحد اعضاء اللجنة ، فصرح بوضوح انه يعارض المشروع الحكومي .

وصرح اوزقان باسم الحزب الشيوعي بانه يساند منح الاهالي الحقوق السياسية ، لانه بامكان الامي ان يكون « مواطنا ممتازا » مثلما هو الحال في النشاط الثقافي » . واخيرا يمكن للمرء ان يتكون بمدرسة عربية دون ان يعرف اللغة الفرنسية وان يدرك الحالة السياسية الجزائرية ، وبهذا العنوان يكون قادرا على الدخول في المواطنة الفرنسية » (19) وافضت اشغال اللجنة التي لم تعمل الحكومة بمقترحاتها بالرغم عن المصادقة عليها بالاجماع الى امر 7 مارس 1944 ، وهو احد النصوص التشريعية البالغة الاهمية في التشريع الجزائري .

فهو يوسع هيأة الناخبين المسلمين توسيعا كبيرا اذ يقحم فيها جميع الاهالي من غير المواطنين الذين بلغوا سن الواحدة والعشرين ، اي ما يقرب من 1.600.000 ، ويحدد نسبة المنتخبين في المجالس بالخمسين من العدد الجملي . وكان هذا الترتيب لا يمكن تطبيقه بالنسبة للهيئات النيابية المالية بسبب وجود الاقسام الخاصة ، ولذا ابدلها الامر المؤرخ في 15 سبتمبر 1945 بمجلس مالي يتركب من نواب اللجان المالية للمجالس الجهوية بالمقاطعات الثلاثة ، وهو ما سمح بتطبيق القاعدة . وقد الغيت بالنسبة للمستقبل جميع الاحكام والاجراءات الاستثنائية التي تمس بالفرنسيين المسلمين الذين سيتمتعون بجميع حقوق الفرنسيين غير المسلمين وسيخضعون لجميع واجباتهم . واخيرا منح الامر ستة عشر نوعا من الشخصيات صفة المواطنة الفرنسية مع الاحتفاظ لهم بقانون احوالهم الشخصية وهم : قدماء الضباط ، والحاملون لشهادة الدروس التكميلية او لشهادات عليا ، والموظفون او قدماء الموظفين ، واعضاء الحجر الاقتصادية والباش آغاوات والآغاوات و « القياد » ، والمضطلعون بنيابات سياسية او الحاملون لاوسمة ، اي ما يقرب من 50.000 او 60.000 شخصا

---

(18) ـ الجنرال « توبار » ، المجلس الاستشاري الموقت 10 جويلية 1945، الجريدة الرسمية ، 11 جويلية ، ص 1360 .

(19) ـ الجريدة الرسمية ، 4 افريل 1946 ، ص 1516 .

مرسمين بقائمات الفرنسيين غير المسلمين نفسها ويعد هؤلاء 450٠000 ٠ على او مفعول هذه المواطنة لا يمتد الا الى الحقوق الانتخابيـة وبعنـوان شخصي محض ٠

اصدقاء البيان والحريـة

لقد تلقى الاشتراكيون بارتياح تدابير تبناها « ليون بلوم » ٠ ولم يظهر الشيوعيون اقل رضى بالامر الذى يسجل « تقدما كبيرا » للنظام الانتخابى ، مبينين « انه يمثل فى الواقع خطوة الى الامام يقدرها جميع الديموقراطيين الجزائريين ، أوربيين ومسلمين (20) وليس التقدم « فى منهج بطاقة انتخابية بقدر ما هو فى ان يملك المسلمون فى المستقبل نفس الحقوق ونفس الحريات التى يتمتع بها الفرنسيون ويخضعون لنفس الواجبات » (21) وزالت معارضة الحزب المبدئية لسياسة الادماج امام المزايا التى يتيحها الامر للدعاية بالعمـل الانتخابى ٠ وبالعكس رفضه انصار البيان لانه ينم عن ارادة فى الادماج ،وبدلا من الصدمة النفسية المنتظرة التى كان من المؤمل ان تبعث على التطوع فى جيش « دى قول » سجل عدم اكتراث كلى ٠ ذلك انه فى ظرف ثمانى سنوات تغير الراى العام الاهلىّ تغيرا عميقا ، ورأينا نفس الرجال الذين قبلوا بحماس سنة 1936 الحقوق التى نص عليها مشروع « بلوم ــ فيايت » يتلقونها بسخرية سنة 1944 لما اخذت الهياة الفرنسية للتحرير الوطنى على عاتقها اهم ما جاء فيها ٠ ورضخت السياسة الفرنسيـة لايعـازات المعمرين الذين لم تتوقف معارضتهم مثل معارضة الادارة سنة 1944 ، فلم تطبق اجراءات المواطنة فى كنف قانون الاحوال الشخصية الا ساعة فقدت كل نجاعة ٠

ورفض الوطنيـون ايضـا الامر المـؤرخ فى 7 مـارس بوصفـه مناهضـا للديموقراطية لانه يميز بين الجزائريين ، ويعاملهم معاملة استبدادية ، ويرمى الى ادخال الجزائرفى البوتقة الفرنسية عوض ان يؤهلها للاستقلال ٠ وقرروا تاليف جبهة ضده ٠ واتصل فرحات عباس بالعلماء وتحادث فى مشاريعه مع مصالى الحاج فى اقامته الجبرية « بريزال » ٠ وكانت نتيجة اتفاقهم انشاء منظمة « اصدقاء البيان والحرية » يوم 14 مارس 1944 بمدينة سطيف (22) ٠

---

(20) ــ عمار اوزقان ٠ المجلس الوطنى التاسيسى ، الجلسة الثانيـة ليوم 5 افريـل 1946 ٠ الجريدة الرسمية ، 6 افريل ، ص 1519 ٠

(21) ــ مقال لاوزقان فى جريدة « ليبارتى » (الحرية) ، 16 مارس 1944 ٠

(22) ــ النص بكتاب « فى البيان » ص 61 ــ 62 ٠

وكان التجمع يرمى الى مقاومة الاستعمار والمشاركة فى مولد عالم جديد ، وكان هدفه الرئيسي « تقريب فكرة الامة الجزائرية والترغيب فى انشاء جمهورية مستقلة بالجزائر يجمعها نظام فدرالى مع جمهورية فرنسية متجددة مناهضة للاستعمار وللامبريالية » ، وفى هذه النقطة يبدو القانون الاساسى لاصدقاء البيان والحرية اكثر وضوحا بكثير من « البيان » وهو يؤكد الصيغة الفدرالية للنظام المقبل ولم يعد ذكر للوحدة المغربية ، وبالعكس كان الطابع الاجتماعى اكثر بروزا ولا شك بتاثير من مصالى ، وبالفعل هنالك عزم على « محاربة الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات المسيرة ، والدعوة الى المساواة بين الناس والمناداة بحق الشعب الجزائرى فى العيش الرغيد والحياة القومية(23) . ولاول مرة يتضح العزم على « فضح الاعمال والمناورات التى تقوم بها القوى الرجعية ويقوم بها الاقطاعيون المسلمون والفرنسيون وجميع الذين لهم اية مصلحة كانت فى الابقاء على النظام الاستعمارى » ، وهكذا افسح انصار البيان المنتسبون فى معظمهم الى برجوازية المدن المجال الى مطامح الكادحين المنتمين الى حزب الشعب الجزائرى ،

اوج اسطورة الوحدة العربية

لقد وصل نجاح الحركة الى حد ان اللجنة المركزية بالعاصمة الجزائرية اتصلت بما يزيد على 500٠000 بطاقة انخراط ، وهو رقم عظيم اذا اعتبرنا ان هنالك ما يقرب من 1٠700٠000 مسلما فى سن الانتخاب وقد ساعدها انتشار الجريدة الاسبوعية « ايقالتى » (المساواة) التى صدرت ابتداء من 15 سبتمبر 1944 ، ولم يخل هذا الازدهار من الخطر ، فمن ناحية يستحيل ان تراقب الانخراطات ، وهو ما سمح بتسلل عناصر مشكوك فى امرهم وحتى اعوان الاستفزاز ، مثل ما جرى غالبا لحزب الشعب الجزائرى ، ومن ناحية اخرى قد يفقد القادة زمام القيادة لكتلة غير منظمة قد تتجاوزهم ، ومما لا شك فيه ان القادة الوطنيين تسببوا فى احداث عجزوا عن ايقافها ، فقد حركت الدعاية التى ساعدتها الازمة الاقتصادية اعماق البلاد ، واشتد تصلب القادة الذين حمسهم النجاح ، وكانت الغلبة فى مؤتمر « اصدقاء البيان والحرية » المنعقد فى مارس 1945 لاتباع مصالى الحاج ، وقد حضره العلماء واعضاء حزب الشعب الجزائرى ، ولم يوصف مصالى بانه « زعيم الشعب الجزائرى ،

---

(23) — « فى البيان » ، ص 63 ،

بلا منازع » في لائحة احتجاج ضد وضعه تحت المراقبة فحسب بل ان آراءه تجاوزت ما احتوى عليه برنامج التجمع من افكـار • ولم يعد الحديث عـن « جمهورية مستقلة يجمعها نظام فدرالي بجمهورية فرنسية » بل عن « برلمان جزائري وحكومة جزائريـة » • وصرح المؤتمر باغلبية ساحقـة بمعارضته لاحتمـال انجاز مطامحـه « تحت إشراف فرنسا وفـي نطاق نظـام فدرالي فرنسي » ، وأراد ان يحتفظ للدولة الجزائرية المقبلة بامكانية الاندماج في النظام الذي ترتضيـه • واذا اعتبرنا ان مؤتمـر العاصمة الجزائرية يصادف مؤتمر عين شمس الذي تولدت عنـه جامعة الدول العربيـة فمن البديهي ان الاختيار الذي فكر فيه المسلمون لا يحتمل الشك •

لقـد اصابت المؤتمرين الجزائريين نفس الصدمـة العاطفية التي اصابت الدستوريين الجدد ، فارسلوا الحبيب بورقيبـة الى القاهرة وهم على يقين من ان الزمن قد تغير • وكان في ذلك اوج اسطورة الوحدة العربية • وقـد اقتنع المناضلون بأن قرارات عين شمس ستغير وجه العالم ، فعملوا على ان نشاطر ايمانهم فـي انعتاق مقبل جماهير على استعداد كامل لدفع الحركـة (24) • وسعى العزيـز قسوس رئيس تحرير جريدة « ايقالـتي » والاستاذ بومنجل ثم فرحات عباس فـي رد الفعل ضـد العناصر المتطرفة ، ووجهوا نداءات للهدوء • واحس كبار المعمرين من خلال احاديث وتحركات اعوانهم هيجانا غير عادي كانوا يأملون الاستفادة منه • وهنالك من جزم على منبـر المجلس الوطني بان احد ممثليهم ، وهو من ابرزهم طابعا ، وكان قد نظـم المعارضة ضد مشروع بلوم ــ فيوليت ، على راس رؤساء البلديات ، وهـو « قبريال ابو » ، صرح بقولـه : « ستحدث اضطرابات ، وستجبر الحكومـة على التراجع فـي امـر 7 مارس » (25) • وقـد اصبحت الظروف سانحـة للتصادم بالقوة •

---

24) ــ اثناء المناقشات البرلمانية حيث دار حـديث طويل حول الحركة الوطنيـة والوحـدة الوطنية والوحدة العربية لم يعط اى خطيب الاهمية الكاملة لما تملك الاسلام من حماس على اثر مؤتمر عين شمس وصدور قانون 4 افريل قبل ثورة قسنطينة بشهر •

25) ــ تهمة وجهها « جوزي ابولكار » على منبر المجلس الاستشاري يوم 10 جويليـة 1945 (الجريدة الرسميـة بتاريخ 11 ، ص 1352) • ورددهـا « قابون » من الغد (الجريدة الرسمية في 12 جويلية ، ص 1373) • واجاب وزير الداخليـة بان التحقيق الذي تم القيام به في هذا الموضـوع لم يسمح باثبات ما نسب « لابو » من تصريحات وبانـه امر بتحقيق جديد مشفوع بالاستماع الى شهود • واضاف قائلا : « لكن الموقـف الذي وقفه « ابو » واصدقاؤه خاصة بعد احداث 8 ماي يدل على انهم يريدون استغلال حوادث قسنطينة ليحاولوا حمل الحكومة على تعطيل تنفيذ امر 7 مارس وعلى تعديل سياستها » واضاف ان الحكومة لن ترضخ « لضغط بعض عناصر المعمرين » •

الباب الثامن

القانون الأساسي الجزائري وإثبات السيادة الفرنسية

وال منحرر « ايف شاتينيو »

عوض الجنرال « كاترو » فى منصب الوالى بالوزير المفوض « ايف شاتينيو » ابتداء من يوم 9 سبتمبر 1944 • وكان هذا الجامعى التكوين مبرزا فى الجغرافيا ، وقد اختطفته الديبلوماسية من علم الجغرافيا حيث كانت له بداية مرموقة ، فاظهر مشاعر ديموقراطية لا تلائم كثيرا العقلية السائدة فى وزارة الخارجية • الم يعرض بنفسه حتى اضطلع باعباء الكاتب العام لرئاسة الوزراء فى عهد وزارة « ليون بلوم » ؟ واغتنم فرصة اقامته بقصر «ماتينيون» ليتعمق فى المشاكل المغربية ، وهو يراس لجنة الدراسات التابعة للهيأة العليا للبحر الابيض المتوسط • وكان يشعر نحو الاسلام لا فقط برغبة المثقف فى الاطلاع التى ساعدتها موهبته الاستثنائية فى اتقان اللغات ، بل وبعطف انسانى دائم التجدد • واكتسب صداقات اسلامية حيثما حل ببسنيا (Bosnie) وافغانستان وسوريا ولبنان ومصر • وفى الجزائر عاد الى سيرة « فيوليت » وعامل الاهالى معاملة المواطنين والرجال وادرك المسلمون على اختلاف نزعاتهم ان هذه السياسة تعيد لهم كرامتهم • ولذا اظهروا ثقتهم فى الوالى حتى فى الساعات الصعبة • وقد قال فيه وزير الداخلية « ادوار دوبرو » على منبر المجلس الوطنى : « ربما كان لهذا الرجل الفذ والمثقف ، ولهذا الجمهورى المتحمس ، ولهذا الوطنى المتبصر ، عيب واحد : هو ان المسلمين يعبدونه لانهم يانسون فيه صديقا مخلصا » (1) وكان هذا العيب خطيرا • فقد تسبب له فى نفس العداوة التى عرفها « فيوليت » ولم يتاخر المعمرون امام ارذل الوسائل ليهاجموا شاتينيو بن محمد « مثلما نددوا بمن سموه « فيوليت العربى » •

---

1) ـ الجريدة الرسمية ، 22 اوت 1947 ، ص 4529 •

انه لم يغفل عن الاضطـراب العميق الذى انتاب طبقات المسلمين ، وحذر الولاة المساعدين قبل ماساة قسنطينة بعدة اسابيع من الاضطرابات التـى توشك ان تحدث يوم ذكرى النصر • فانفجرت الماساة عند البابور من جبال القبائل ، وهى جهة جبلية وعرة ، تقع بين سطيف والبحر ، ويسكنها فلاحون لغتهم بربرية وحالتهم بائسـة • وقد بقى هؤلاء السكـان المتاخرون تاخرا خاصا متمردين ومحبيـن للحرب عبر التاريخ • واستمـد منهم القواد افواجا للحروب الاهلية ولمقاومـة روما • ومن جبالهم انطلقت الثورة ضد روما فـى منتصف القرن الثالث ، ولم تنته منذ ذلك العهد • ولم يوفق الاغالبة ابدا فى اخضاعهم للحكم العربى • وانه « بجهة شوفرول Chevreul (2) من بين بنى كتامة تم جلب انصار عبيد الله المهدى فى بداية القرن العاشر وفيما بعد الجيوش التى غزت المغرب ومصر بقيادة آلامـراء الفاطميين • فهذه الارض التى كـانت مرتع الثورات هياتها الاقدار لتكـون مسرحا لثورة 8 ماى 1945 الداميـــة •

تقتيل الاوروبيين بسطيف

لقد رخص الوالى المساعد بسطيف في استعراض خاص بالمسلمين فـى الصباح بمناسبة ذكرى النصر • فرفع جمع من المتظاهرين العلم الاخضـر ذا هلال ولافتات عليها عدد من الكتابات : «تحيا الجزائر مستقلة» ، « يسقط الاستعمار » ، « اطلقوا سراح مصالى » ، وفي بعض الحالات « يسقط الحزب الشيوعى » • وحاولت الشرطـة الاستيلاء علـى العلم واللافتات • فخرجت طلقة نارية الراجح انها مـن لدن شرطى • فتفـرقت اغلبية المسلمين ، لكن فوجا كبيرا صمد وشن معركة مع الشرطة ، ثم انتشر فى شوارع المدينـة حيث قام باعمال وحشية ازاء الفرنسيين الذين كانوا فى طريقـه ، فضرب وجرح وقتل ضربا بالعصى وطعنا بالخناجر ، واسفر الحادث عـن 27 قتيـلا وجرحى عديدين • وقطعت يدا سكرتير فرع الحزب الشيوعى •

وفى الليلة المواليـة انتشرت جموع فى الارياف المحيطة بالمدينة وظلت تقتل وتنهب وتضرم النيران واقبل مبعوثون على الاقدام وعلى الخيول واحيانا ممتطين سيارات الاجرة ليبشروا بان الثورة عامة وبانه تم انتصاب حكومـة عربية بالعاصمـة • وقد جزم وزير الداخليـة بانهم ينتمون الى اصدقاء البيان

---

2) ــ ملحوظة للمترجم ، حاليا « بنى عزيز » •

(3) • ولم تسدد الضربات لمخازن التموين بل للبنايات العمومية وللموظفين واغتصبت النسوة بالاضافة الى الاغتيالات واعمال النهب والحرائق • وتعرضت مراكز مثل « شوفرول » وقالمة لحصار حقيقي • وعندما اخمدت الثورة كان هناك 98 قتيلا منهم 34 موظفا ومائة وخمسون جريحا • وكانت الضحايا من الاوساط الاقتصادية والاجتماعية والمهنية على اختلافها • ومن مجموع سكان جهة قسنطينة شارك في الاضطرابات بصورة مباشرة متفاوتة الدرجات اقل من 50٠000 مسلم ، اى 5٪ فقط •

قمــع وحشــــى

لقد كان القمع « ضاريا لا يرحم ، وفي الحقيقة خاليا من الانسانية لانه فاقد للتمييز » (4) • فكل عربي لا يحمل الساعدة القانونية كان مقتولا بسطيف حيث اعلن القانون العرفي • وفي الريف كان الجنود السينغاليون وجنود الليفيف ينهبون ويحرقون ويغتصبون النساء ويقتلون بكل حرية • وقصف الطراد « دوقـي تروان » ارباض كراطة بدون اى فائدة • ودمرت الطائرات 44 « مشتى » وهي مجموعات من المساكن تعد من 50 الى 1000 ساكن • ولما علم سكان قالمة الاروبيون بنهب القرى المجاورة انتابتهم حمى المحاصرة •فنظموا حراسة مدنية لاعانة الجيش على الدفاع عن المدنية ضد جموع الآلاف العديدة من الاهالى المحيطين بها • وارسلوا بعثات انتقامية ، وصرعوا رميا بالرصاص وبدون محاكمة عشرات من الاهالى اخذوهم على غرة • وشاركت في القمع عناصر من اقصى اليسار ومن « الفاشيين » على حد سواء •

واكدت الحكومة حسب الارقام التى قدمها كل من الجيش والادارة ان هنالك 1٠500 قتيل من بين الاهالي • ومن المحقق ان كثيرا من الاهالى رجعوا الى بيوتهم لما عاد الهدوء بعد ان فروا • وعلى كل فانه من راى الاشخاص الاقل شبهة ان ذلك الرقم منخفض بشكل مضحك كما انه واضح ان رقم 40٠000 او 50٠000 ضحية المنتشرة بالخصوص في الولايات المتحدة مبالغ فيه • واقل ما قد يقال هو ان الشدة التى اعاد بها الجنرال « ريمون

---

3) ـــ حسب ما جاء في كتاب « في البيان »، ص 68، ولم تحتفظ المحاكم الا بعدد 84 متهما من اصدقاء البيان ، اعترف لكثير منهم بالبراءة ، بينما يعد التجمع اكثر من 500٠000 منخرط

4) ـــ « هـ • بينازى » « الريفيا الفرنسية في خطر » ، ص 52 •

دوفال » النظام الى نصابـه بمساعدة المدنيين فـي بعض المراكز قـد كان مبلغها عدة آلاف من القتلى · ويذكر العسكريون فى المحافل الخاصة ارقامـا تتراوح بين 6·000 و 8·000 ·

وفـي نوفمبـر 1945 بلـغ عـدد الموقوفين 4560 منهـم 3696 بمقاطعـة قسنطينة و 505 بجهة وهران و 359 بمقاطعة الجزائر العاصمـة · وحكمت المحاكم العسكريـة على 557 بعدم سماع الدعوى ، واصدرت 1307 احكـام منها 99 بالاعدام و 64 بالاشغال الشاقة مدى الحياة و 329 بالاشغال الشاقة لمدة معينة وحكمـت بالبراءة لفـائدة 250 · وتمت اغلبية الاعتقـالات بدون حجة · والقى القبض على اعضـاء لحزب الشعب الجزائـرى وعلى اصدقـاء للبيان ومناضلين نقابيين وسكان قرى لم يحركوا ساكنا · ووزعت الاحكام بدعاوى متنوعة · وقد حكم على معلم بالسجن لمدة سنتين « لتعديه بالمنظـر على السيد الوالي المساعد » · والقى القبض على فرحات عباس والدكتـور سعدان فى مكـاتب الولاية العامة نفسهـا بامـر وارد من سطيف ، وتم حل جمعية اصدقاء البيان يوم 15 ماى · واعلم عميد المحامين بالجزائر العاصمة ، الاستاذ «قروليار» ، زملاءه بان مجلس هيأة المحامين يرى انه « من المستحسن للغاية ان لا يقبل زملاء سلكنا تعيينهم الا من قبل المحكمة » ، وقد خاطـب وزير الداخلية وزير العدل بشان هذا المقتـرح نظـرا لما لـه من صبغة « لا تقبـــل » ·

نشاة الحركة الثورية ومقوماتها

لقد جرت مناقشات صاخبة حول المسؤوليات فى هذه الجريمة · واضطرت لجنة البحث الثلاثية برئاسة الجنرال « توبار » لتعطيل اشغالها فى ظرف 48 ساعة بامر صادر عن الجنرال « دى قول » ولا دخل فيه لوزير الداخلية بيد انه لم يمنعها ذلك من جمع معطيات مفيدة سمحت بتحرير تقرير اخبارى وزع توزيعا محدودا · ويبدو غير صحيح ان تنسب الثورة الى استفـزازات فاشية بقدر ما يبدو غير صحيح ان تنسب الى عزم على تنظيم حركة تمرد شاملة · ويتبين عند النظر ان مسؤولية فرحات عباس والشيخ الابراهيمى المباشرة لا اساس لها من الصحة · « فقد ابتدات المعارك على اثر تدخل الشرطة او الجند فى المدن التى بها حامية» (5) · وان احسن وسيلة لاثارة الفتنة هى

5) ـ « بينازى » ، الكتاب المذكور ، ص 53 ·

انتزاع اللافتات من المتظاهرين . وحيث ترك المتظاهرون وشانهم لم تحدث اضطرابات خطيرة . لكن هنالك امرا يظهر مؤكدا ، وهو ان اقلية منظمة ومسلحة ومقرة العزم على ما لا يحمد عقباه قد اشعلت الثورة عن روية وتعهدتها .

فكيف اعدت لها العدة ومن كان على راسها ؟ انه امر مجهول . ويعتقد الكثيرون ان دور حزب الشعب الجزائرى كان حاسما . ونستطيع على اقل تقدير ان نلومه على تضامنه مع الاجرام بالصمت . وفي سنة 1951 اصدرت اللجنة المركزية للاخبار والوثائق التابعة لحركة الحريات الديموقراطية ، وهى التى خلفت حزب الشعب الجزائرى ، نشرية تحدثت فيها باسهاب عن « الابادة الجماعية لشهر ماى 1945 » وجاء فيها : صرع شرطى حامل لافتة بثلاث رصاصات اصابت بطنه . وفي الحين « تجمع الشرطيون بسرعة تجاه المتظاهرين كما لو اعدت المسرحية من قبل ، وبدا الرمى بالرصاص ثم اعلن القانون العرفى بمدينة سطيف » (6) . ولا شك ان المجزرة الفظيعة قد جرت فى الاثناء ، ولكن لم يشر مجرد الاشارة الى ذلك . وان كان حزب الشعب الجزائرى غير مسؤول فى شىء ، فلماذا اخفاء ذلك ؟ وكيف لنا ان نثق بدعاية تحرف الواقع الى درجة انها تسهو تماما عن حدث له خطورة استثنائية ؟

والراجح ان شرذمة العملاء احتمت بالجمهرة العظيمة لاصدقاء البيان الذين كانوا يفقدون الخبرة السياسية ولا صلة لهم بالاحزاب الديموقراطية الفرنسية . وليس من المستحيل ان اندس فى صفوفهم اعوان الاستفزاز وحتى بعض الشرطيين ، لكن دورهم لم يرجح الكفة . وكان ربيع 1945 بالنسبة للمسلمين فى الدنيا قاطبة يبشر بعهد الانتصار . ولا يستبعد ان تكون الامال السريعة التى انتشرت فى اهل القبائل من البابور الأباة اوهمتهم بتحرير مقبل ، وحملتهم على تزويد الثوار بعناصر مستعدة للتضحية .

ساعة « الجندرمى »

لقد مكن هذا العصيان المسلح الدامى والخالى من القائدة الرجعية بالجزائر من العودة الى الهجوم . وهى لا تريد فقط ان تحصل على اقتصاص سريع وصارم وعلى ضمان الامن للسكان الفرنسيين ، بل وان تتخلص من السوالى

(6) ـ « التعديات على حقوق الرجل » ، 3 ، « الاعتداء على الحريات الشخصية » ، ص 9 .

العام والمنظمات الديموقراطية ، وذلك بمؤازرة بعض عناصر الادارة العليا • وراج في مكاتب الولاية العامة منشور مرقون طلب فيه « اعدام المسيرين بلا محاكمة وفي مقدمتهم فرحات عباس » وعزل « شاتينيو » وتعويضه « بوال مدني اصيل الجزائر وله السلطة اللازمة لينفذ سياسة حازمة وعادلة » • ودعا المعمرون بمقاطعة الجزائر العاصمة الحكومة « لئلا تفكر موقتا في اي حل للمشاكل الهيكلية السياسية والادارية والاجتماعية بالجزائر » ، اوتوا من قوة « وليطالبا » بتطبيق احكام امر 7 مارس بحذافرها » • الفرنسية بالجزائر » ، وكان وزير الداخلية « ادريان تيكسيي » قام بتحقيق مدقق على العين ، فرفض بقوة هذا المطلب المزدوج • وصادق القسم الفرنسي للهيئات النيابية المالية على لائحة ترمي الى الغاء الحريات الديموقراطية والحصول على حرية تنظيم حراسة مدنية •

وضمت الصحافة صوتها الى المناهضين للاصلاحات ، منكرة حسب عادة مالوفة كل كفاءة على « المفكرين » ، وعلى « رجال المستعمرات القابعين في ديارهم الذين يرصفون الجمل في شققهم بفرنسا » ، والذين يسانلون الحلول الاكاديمية الطويلة الامد » ، وعلى « المبرئين عن بعد » و « صانعي اللزقات ذات التاثير المؤجل » • فبفضل ماساة قسنطينة استطاع المعمرون اخيرا ان يصيغوا برنامجهم السياسي • « انها ساعة الجندرمي بالنسبة لافريقيا الشمالية (7) • وقد تاثرت المنظمات اليسارية لهذه الحمى الرجعية • واجتمع الحزبان الاشتراكي والشيوعي يوم 7 جوان ليشهرا « بنشاط المهرجين الفاشيين » وليصرحا بعزمهما على مناهضة « كل عمل يرمي الى فصل الجزائر عن فرنسا بكل ما اوتوا من قوة » وليطالبا » « بتطبيق احكام امر 7 مارس بحذافرها » •

اعمال « شاتينيو »

كانت في ابقاء الحكومة « لشاتينيو » بمنصبه خيبة ذريعة لخصومه ، خصوصا ان الوالي صرح بعزمه على سلوك سياسة اقتصادية واجتماعية حازمة لفائدة الاهالي • وواصل هذا العمل الى فيفري 1948 بالرغم عن الحملات المتزايدة

7) — مقال « لبوشار » في جريدة « ليكوداللجي » (صدى مدينة الجزائر) في 8 جوان 1945 • وقد رد « قاسطون مولوفيل » على الخطيب الذي ذكر ذلك في المجلس الاستشاري قائلا : « هذا رجل آخر لم يفهم شيئا » ، الجريدة الرسمية ، 11 جويلية 1945 ص 1354 • وهاجمت الصحافة الكبرى والهيئات الرسمية بالخصوص الاذاعة والجرائد اليسارية ، ونذكر منها بالخصوص اجتماع رؤساء البلديات ورؤساء النقابات الفلاحية بالساحل يوم 6 جوان وقد انعقد بحضور الوالي المساعد لمدينة بليدة الذي لم يحتج •

التي تعرض إليها وضغط منتخبي المعمرين المستمر للحصول على اعفائه • وبالزغم عن الصعوبات المتولدة عن الانتقال من الاقتصاد الحربي الى الاقتصاد السلمي وعن دورة زمنية من الجفاف ، فانه لم يجنب البلاد المجاعة فحسب بل وبمساهمة « لوسيان باي » النشيطة ، وكان اذذاك مدير التخطيط ، نظم وانجز مناطق الاصلاح الريفي التي مكنت في ظرف سنتين من تجهيز الفلاحة الاهلية ، وقد خصصت لها خمس وثمانون منطقة سواء لزراعة الحبوب او لغراسة الاشجار المثمرة وتربية الماشية وزراعة البقول والزراعات بالواحات • وعمل على تدريب الفلاحين على اكثر طرق الفلاحة تطورا بتعاطي العمل التعاوني الملائم • واسس مصلحة احياء الاراضي في جويلية 1945 ، وقد استطاعت ان تزود خمسين الفا من سكان الجبال بوسائل التشجير • وسمح مخطط التجهيز المائي لسنة 1945 بامتداد الاراضي السقوية على مساحة مائتين وخمسين الف هكتار • ولاول مرة تم تناول مشكل التصنيع بجد وعزم مع مراعاة مصالح الاهالي • وحقق مخطط التعليم فتح الف وسبعمائة وتسعة واربعين قسما في ظرف ثلاث سنوات ، ولم تعد هناك واحة بدون مدرسة خاصة بها • وانشيء مائة واثنان وثمانون مركزا بلديا في اوت 1945 ، كونت وحدات بلدية جديدة حيث دعي السكان المحليون الى التدرب المدني والتربية السياسية والتصرف في مصالحهم الجماعية قبل ان يصلوا إلى جميع الاعفاءات البلدية بالبلديات الريفية التي ستعوض البلديات المختلطة • وقد انبعثت بالخصوص روح جديدة في حرم شارع فوش المبيض • واتضح خاصة في تعيين شخصيات مسلمة في مناصب المسؤولية (8) •

انتخابات سنة 1945

لقد عززت احداث قسنطينة الحركة الرامية الى تاجيل الانتخابات البلدية التي كان من المقرر ان تكون اول استشارة انتخابية لما بعد الحرب • على ان الحكومة قررت ان تجرى في جويلية 1945 • فافضت الى هذه النتيجة المزدوجة غير المنتظرة ، وهي ان بعض المجالس البلدية بالبلديات الكاملة النفوذ انتخبت رؤساء لها من المسلمين ، ولم تعرض هذه النتائج على مجالس

8) ــ وكان اكثر التعيينات ثورية تعيين صلاح الدين بن شناب في خطة وزير للجمهورية لدى الملك ابن سعود ، وقد حصل بواسطة « جورج قورس » كاتب الدولة المساعد للشؤون الاسلامية لدى رئيس الوزراء « ليون بلوم » • وفيما بعد اعفت وزارة الخارجية ابن شناب من مهامه ، وكان يشكر عامة لا تمحي لانه مسلم ، وحذفته من قائمة اعوانها •

الولايات قصد الغائها لعيب في ناحيتها الاسلامية ، على غرار ما جرى سنة 1938 . وكانت انتخابات 21 اكتوبر ذات اهمية تاريخية فى السياسة الاهلية . فقد سمحت بتنفيذ امر 7 مارس تنفيذا محدودا فى الواقع لان سوء نية رؤساء البلديات وارباب الاعمال وكذلك ضغط « البيان » وحزب الشعب الجزائرى فى سبيل عدم التسجيل بالقائمات الانتخابية ، كل ذلك جعل عدد المواطنين الذين يشملهم القانون 60.000 . ونص امر بتاريخ 17 اوت 1945 على ان يعين جميع المسلمين غير المواطنين ، البالغين السن الواحد والعشرين ، والذين تتركب منهم هياة الناخبين الثانية ، عددا من الممثلين يساوى عدد المقاعد المعينة للجزائر بالهياة الاولى للمواطنين . وبالرغم عن نداءات « البيان » وحزب الشعب لفائدة الامساك فقد بلغت نسبة الناخبين 50 ٪ بمقاطعات مدينة الجزائر وقسنطينة و 60 ٪ بمقاطعة وهران ، اى 705.000 من 1.350.000 مسجل .

مشروع ابن جلول والعفو العام

لقد ظفر الدكتور ابن جلول وجامعة المنتخبين بسبعة مقاعد ، وظفر الحزب الاشتراكي والمنتمون اليه باربعة ، واستفاد الحزب الشيوعى الجزائرى من اصوات اصدقاء البيان وحزب الشعب . ولعب الدكتور ابن جلول ورقة الادماج تماما طالبا ان يمتد منح حق المواطنة في نطاق قانون الاحوال الشخصية الى « جميع المسلمين بالجزائر بدون اى ميز فى الجنس او فى الاصناف او فى الطبقات الاجتماعية » مع نفس الحقوق وكذلك نفس الواجبات التي للفرنسيين بفرنسا . وطالب ايضا بحذف الولاية العامة ، وطالب للمقاطعات والبلديات « بنفس الادارات » ونفس الاطارات الادارية التي بفرنسا » . وكان انجاز هذا المشروع يفضى من جهة الى تاليف هياة موحدة التى ناصرها الاشتراكيون دون سواهم بينما رفضها الشيوعيون مع منتخبى المعمرين ، وكان يفضى من جهة اخرى الى منح عدد من النواب يتناسب مع عدد السكان اى يساوى خمس التمثيل بفرنسا فلم ينجح المشروع .

ووضعت المناقشة حول العفو العام انصار تدابير الحلم والمعارضين فيها وجها لوجه . فانتصب « كولونا » مدافعا متحمسا عن ابقاء العقوبات . ونند « لا فقط بمشروع قانون العفو الذى امام انظاركم بل بجميع حلول العفو التى تعرض عليكم » بينما « لا يزال مائتا فرنسى مهتمتين بالتعاون مع العدو

ينتظرون قرار التحقيق » (9) بيد ان الحكومة ، على لسان « اندرى لوتروكى » وزير الداخلية ، اختارت الحلم واحرزت على مصادقة اغلبية ساحقة بالمجلس الوطنى التاسيسى • وقد عامل الخطباء المعمرين معاملة قاسية ، وعجز هؤلاء عن قرع ناقوس الخطر بواسطة الوالى العام الذى لم يكن يأتمر باوامرهم ، فشعروا بتخلى السلط العمومية عنهم ، وجرحت عواطفهم الهجومات التى لم تظهر لهم ولو واحدة منها منصفة لهم • ولـم يخفف ذلك مـن خيبـة امـل جماعة الدكتور ابن جلول لما اقتبل به اعضاء المجلس التاسيسى مقترحاتهم من عدم الاكتراث • فاثارت باريس ضدها مجموع الراى العام الجزائرى •

الاتحاد الديموقراطي للبيـان الجزائري

لقد اطلق العفو العام سراح فرحات عباس واصدقاءه يوم 16 مارس 1946 • فعاد في افريل الى برنامج « البيان » لا في اطار تجمع بدون تمييز في الراى بل في اطار حزب سياسى بفروعه الخاصة وانضباطه ومذهبه الخاص وهو : الاتحاد الديموقراطى للبيان الجزائرى (10) • وفى غرة ماى الموالى وجه نداء الى الشباب الجزائرى الفرنسى والمسلم ، استهله بهذا العنوان : تجاه الجرم الاستعمارى وغدر الادارة (11) • ويبتدىء النص بكشف عن عقيدته ، يبرر النشاط السابق للزعيم الوطنى ، وقد سخره في معظمه للدعوة « الى التعاون الفرنسى الاسلامى » ولتحقيقه خاصة بمناسبة ثورة جهة قسنطينة ، وبراءة « البيان » التامة وهو لم « يدع الا للهدوء والاتحاد فى نطاق التفاهم المتبادل وللعمل السلمى فى نطاق الانضباط والشرعية الجمهورية » • وقد احيا يوم 8 ماى الروح الصليبية « مع هذا الظرف المشدد بالنسبة للفرنسيين بالجزائر وهو ان قسما من نخبتهم عذب ابرياء واغتالهم مدة اسابيع » •

ولكى تتحرر الجزائر من نظام السيطرة الاستعمارية القديم يجب ان يتخلص الاوروبيون من « المركب الاستعمارى » ومن « كبرياء المحتل » من جهة ، وان يزول من جهة اخرى مفهوم الحكم المستند الى مبادىء دينية فى القرون الوسطى « عند المسلمين » • ولان عهد التبشير الدينى قد انقضى • ونحن لسنا فى حاجة الى « صبيان المذبح » ، بل الى مواطنين احرار واعين لواجبهم الاجتماعى

---

9) ــ الجريدة الرسمية ، غرة مارس 1946 ، ص 496 ــ 497 •
10) « فى البيان » ، ص 69 •
11) ــ وزع فى شكل نشرية دعائية ذات 3 صفحات ، مطبوع بمدينة الجزائر •

ومدركين لرسالتهم الانسانية البسيطة • وان الوطنية الاسلامية اختي عليها الدهر » • وقد ترك « اصدقاء البيان » المسالك القديمة المطروقة ليسلكوا الطريق الكبير الموصل الى الوطن الجزائري • « فلا ادمـاج ولا اسياد جـددا ولا انفصال » ، بل يجب رغم المحن ان تولد « الجزائر الجديدة المرتبطة بفرنسا ارتباطا حرا في نظام فدرالي ••• بفضل تظافر العمل بين الديموقراطيين الفرنسيين والمسلمين » • وكان فرحات عباس مخلصا الى نهج « اتاتورك » التقليدي ، فطرح جانبا اسس عروبة العلماء وحزب الشعب الجزائري نفسها ، واعتنق مذهبا وطنيا مستقلا يشبه مذهب الحبيب بورقيبة الوطني تجاه جامع الزيتونة والحزب الدستوري القديم • وكان اذذاك العهد الذي اظهر فيه عبد الرحمان عزام تحفظا كبيرا فيما يتعلق بامكانيات عمل الجامعة العربية في المغرب • وفي الجملة فان عباس كان يطالب بما يناظر نظام دولـة مشاركـة يتم اختياره بحرية على غرار ما كان الدستور الفرنسي بصدد ضبطه •

هزيمة انصار الادماج

لقد قدم هذا البرنامج الى ناخبي الهياة الثانية اثناء الحملة الانتخابية التي سبقت تعيين المجلس التاسيسي الثاني • وكان حزب الشعب الجزائري ، المحجر والمحروم من زعيمه ، خارج المعمعة • وقد خرج المنتخبون مـن دعاة الادماج فاقدي الاعتبار بعد محاولاتهم الفاشلة بالمجلس السابق • وكان انتصار الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري يوم 2 جوان 1946 مبينا • وقد احرز على 11 مقعدا من 13 ، وذلك بعدد 458•946 صوتا من 633•349 مصرح بها ، اى بما يقارب 71 ٪ • وتحصل الاشتراكيون على مقعدين (12) ولكن بعدد 86•829 صوتا عوضا عن 196•643 سابقا • واصيب الحزب الشيوعي اكثر من غيره اذ نزل عدد الاصوات لفائدته من 135•357 الى 53•396 • وصوت كثير من اعضاء حزب الشعب الفائدة « البيان » بالرغم عن الاوامر التي وجهها الحزب في آخر ساعة • على ان عدد المقترعين نزل عن 700•279 الى 645•045 ، اى من 54 الى 48 في المائة • وكانت هزيمة انصار الادماج كاملة • وتوج العمل الثابت الذي قام به العلماء وحزب الشعب بالنجاح ، ولكن الغريب ان النجاح كان لفائدة من دعا سابقا الى الادماج ، ثم تغير فاصبح بمفعـول ذلك لسـان السياسـة الاستقلاليـة •

12) — يجزم « في البيان » ، ص 69 ، انهما « اختلسا منه بفضل الحساب الخاص الذي حسبه والي الجزائر العاصمة السيد « بريل » » •

تحـول الشيوعيين والاشتراكيين

لقد استخلص الحزبان الشيوعي والاشتراكي العبرة من الاحداث • وكان اوزقان تغنى بالنصر في جانفي 1946 • فقد « تضاعف عدد المنخرطين ثلاث مرات منذ 1939» ، وتاكد « تاثير الحزب من خلال انتصاراته في الانتخابات المتوالية » (13) • وتخلى مؤتمر 21 ـ 24 مارس الذى تراسه « اندرى مارتي » عن الادمـاج الاستعماري ، لكنـه طالب بتوسيع نطاق امر 7 مارس الذى هو مع ذلك ادماجى في جوهره حتى يمنح حق المواطنة لمائة وخمسين الف مـن الاهالي ، وطالب بتمثيل برلماني يعطي الهيأة الثانية واحدا وعشرين ممثـلا ضد اربعة عشر للهيأة الاولى (14) وكانت خيبة شهر جوان اليمة بقدر ما كانت غير منتظرة • وفسرها « مارتي » من جهة بانها مظهر لتاييد الهيكل الانتخابي لاصدقاء البيان المعتبرين « ضحايا اودعوا السجن لانهم ارادوا الحرية » ، ومن جهة اخرى بان الحزب الشيوعي ظهر في نظر الاهالي بمظهر « حزب غير جزائرى » « لانه تراجع في خطته ذاتها ماحيا موقفه الوطني » • ولما « كشفت الانتخابات عن اهمية التيار القومي الجزائرى » (15) ادخلت اللجنة المركزيـة الموسعـة المنعقدة يومي 20 ـ 21 جويلية 1946 التعديلات اللازمة على برنامج الحزب •

فلم يعد الحديث لا عن امتداد حق المواطنة ولا عن الزيادة في عدد النواب للهيأة الثانية ، بل عن التدابير الواجب اتخاذها لمساعدة نمو « الامة الجزائرية التي بصدد التكوين » ، وذلك « بانشاء مجلس وحكومة جزائرية على الفور ، تعنى بجميع الشؤون الجزائرية » ، وتعويض الولاية العامة « بممثل للجمهورية الفرنسية بالنسبة للمسائل الخاصة بالعلاقات الخارجية والمسائل العسكرية » • على ان اللجنـة المركزيـة للحزب الشيوعي الجزائرى تؤكـد ان الجمهوريـة الديموقراطية الجزائرية تكون « مرتبطة بشعب فرنسا وبالشعوب الاخـرى التي يجمعها الاتحاد الفرنسي بروابط فدرالية تقرر بحرية » (16) • فتم تجاوز البيان بقفزة واحدة ، وعمل الحزب الشيوعي على جمع شتات الوطنيين تحت لوائـه •

---

13) ـ اوزقان ، مذكرات ، ص 77 •

14) ـ كان المقترحان الاخيران منصوصا عليهما في الدستور الاول الذى رفضه الاستفتاء •

15) ـ « أ • مارتي » ، المسالة ، ص 680 •

16) ـ « أ مارتي • » ، الكتاب المذكور ، ص 960 .

وشرع الحزب الاشتراكي ايضا في مراجعة قيمة • وقد اعادت تنظيمه مذ جوان 1943 ثلة من مناضلي هيئة العمل الاشتراكي ، وكان له بعد التحرير نجاح مرموق • من ذلك انه جمع في انتخاب 10 اكتوبر 1945 نسبة 4ر27٪ من الاصوات بالنسبة للهيئة الاولى و 30٪ بالنسبة للثانية ، وهو ما وضعه في مقدمة الاحزاب السياسية • ولم يكن موقفه الوسط يوفر له منافع انتخابية اذ انه يظهره بمظهر المتمرد في نظر المعمرين لانه يساند توحيد الهيئة الانتخابية ، ويظهره بمظهر الاستعماري في نظر الاهالي لانه يندد بالقوميات • واجتمعت جامعة افريقيا الشمالية في جويلية 1946 بالجزائر العاصمة ، وتناولت المشكل بشجاعة ، فلاحظت ان « الادماج يمثل فكرة ولت وانقضت » • واستطاع احد المناضلين الثابتين والمسموعين اكثر من غيرهم ، وهو « جوزاف بقارة » من جامعة وهران ، ان يصرح بان نتيجة إنتخابات جوان ادت بالحزب الى التخلي عن سياسته التقليدية الداعية « للارتباط والانصهار لياخذ بعين الاعتبار الواقع الذي فرض نفسه بقوة فائقة » (17) ولم تحرز هذه الاراء الجديدة على موافقة العناصر المسؤولة بفرنسا لا ببطء ، وقد تعودوا ان يروا في الادماج مظهرا للسخاء والتقدم •

مشروع الجمهورية الجزائرية

لقد بين فرحات عباس موقفه بصورة مدققة غداة الانتخابات • فبعد ان اكد دوام الشخصية الجزائرية وادان الادماج ، انكر انه يسعى الى دولة اسلامية وانما الى دولة جزائرية يتمتع فيها الجميع بحقوق متساوية طبقا للموقف الذي وقفه يوم غرة ماي في « ندائه الى الشباب » • وقال : ان الانتخاب الحر المباشر في نطاق هيأة للناخبين مختلطة موحدة ، يكون غاية هذه المساواة • لكن الامتيازات الحالية المترتبة عن النظام الاستعماري تجبرنا على قبول ترتيبات موقتة • وستزول هذه الامتيازات من تلقاء نفسها بمرور الزمن وادخال اصلاحات اقتصادية واجتماعية سننجزها • وستدخل الوحدة الجزائرية عندئذ حيز الواقع وفي المشاعر ، ولن يعود « ثم لتقوم مؤسسات ديموقراطية تماما بوظيفتها بصورة حرة » (18) وفي المجلس تعلم منتخبو البيان « مهنتهم كممثلين للشعب » (19) بفضل مجهوداتهم المتواصلة ،

---

(17) — جريدة « فراتونتي » ، 24 ماي 1947 •
(18) — جريدة « كامبا » (الكفاح) 26 جوان 1946 •
(19) — « في البيان » ، ص 69 •

وأكدوا انهم انصار النظام الفدرالي لا الانفصالية ، وان الغاية التي رسموها لانفسهم هي « ان تكون الجزائر في اطار الاتحاد الفرنسي ، وان يسير الشعب الجزائري والشعب الفرنسي اليد في اليد » .

على انهم لم يوفقوا في جعل مشروع دستور الجمهورية الجزائرية يؤخذ بعين الجد ، وقد عرضه فرحات عباس يوم 9 اوت 1946 على مكتب المجلس الوطني الفرنسي (20) انها جمهورية مستقلة ، يكون سكانها مواطنين جزائريين ، ولها حكومتها الخاصة وعلمها الوطني . وتكون مستقلة ضمن الاتحاد الفرنسي، مع برلمان منتخب انتخابا حرا مباشرا وله السلطة التشريعية . ويتولى رئيس الجمهورية الجزائرية السلطة التنفيذية بمساعدة مجلس للوزراء . وترسل فرنسا لدى رئيس الدولة الجزائرية مندوبا عاما يوافق عليه هذا الاخير مسبقا ، ويكون له صوت استشاري ، « كي يكون دليلا ومستشارا لحكومة الجزائر ، ويسهر على امن التراب الخارجي » . فهذا المشروع مقام على نظام الدولة المشاركة ، ولكن بدون ان يقع التعرض الى رئيس الاتحاد الفرنسي الذي يؤكد البند 64 من الدستور تفوقه ، ولا الى نفوذه في تسيير الشؤون العامة للاتحاد بمساعدة المجلس الاعلى . ولم يتوصل الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري كذلك الى فرض التسليم بمنح الجزائر مائة وستة ممثلين بالمجلس الوطني المقبل ، منهم اثنان وتسعون للهياة الثانية . وانفض المجلس التاسيسي من غير ان ينظر في قانون الجزائر الذي كانت الحكومة صادقت عليه في سبتمبر . ولذلك رفض نواب « البيان » المصادقة على المشروع الدستوري وعادوا الى ناخبيهم بخيبة لا تقل وقعا عن خيبة الدكتور ابن جلول .

انتخابات سنة 1946

هذا وكان الوضع بالجزائر على وشك التغيير بسبب نهاية حالة الحرب التي مكنت مصالي الحاج من الالتحاق بمركز بوزرايا يوم 13 اكتوبر 1946 حيث اقر قيادته اذ حجر عليه دخول الجزائر والمدن الكبرى . ولم يلبث ان سلك سلوك الزعيم . فحالت معارضته دون تاليف جبهة وطنية جزائرية تجمع بين « البيان » وحزب الشعب والعلماء والشيوعيين الذين بادروا بها . وكان واضحا انه يريد تزكية استفتاء شعبي . ففضل فرحات عباس ان يترك له

---

(20) — النص في وثائق المجلس التاسيسي ، الجريدة الرسمية ، الملحق الثاني ، عدد 358 ، و « ، وفي البيان » ص 72 — 94 .

وحده حمل العلم الوطنـي في المعمعة ، ولا يهمـه ان يامر انصـاره بالاقتراع لفائدة العلماء والشيوعيين · وتوصـل المصاليون الى انجاح خمسة مرشحيهم في « قائمة الانتصار للحريات الديموقراطية » ، لكنهم لـم يحرزوا الا عـلى 153·153 صوتو على 464·319 مقترعا و 1·245·108 مرسمين · وحتى لو اعتبرنا الغاء قائمتين بجهتي وهران وقسنطينة فلم تكـن النتيجـة في شيء شبيهة باستفتاء · وحسن الشيوعيون وضعهم نوعا ما بالحصول على 79·804 اصوات ومنتخبين اثنين ، وذلك بلا شك بفضل تكملة قدمها لهم « البيان » · اما من قائمات التعاون الفرنسي الاسلامي فقـد ارتفع عـدد الاصوات التى تحصلت عليها من 87·000 الى 225·000 ، ونالت ثمانية نواب · وكـان عدد الممسكين يزيد 180·000 على عدد شهر جوان ·

وتدارك « البيان » امره في مجلس الجمهورية · فخلافا لمنطوق القانون قضى امر لوزير الداخلية بانه لن يتم تعيين الناخبين الكبار بالاقتراع الحر المباشر ، وانما من قبل المستشارين البلديين بالنسبة للبلديات ذات النفـوذ الكامل ، ومن قبل رؤساء الجماعات بالنسة للبلديات المختلطة · هكذا فكروا في اقصاء « البيان » وحزب الشعب اللذين لم يتمكنا من تقديم مرشحين للانتخابات البلدية لانهما كانا محجرين · ولم يسع الادارة الا ان ارتاحت لمكيدتها بعـد النتائج الحاصلة في الاقتراع للدرجة الاولى اذ ان انصار التعاون تحصلوا على 434 ناخبا كبيرا مقابـل 151 للبيـان و 59 للحزب الشيوعي و 58 لانتصار الحريات الديموقراطية الذى لم يترشح بدوره : بيد ان الاقتراع للدرجة الثانية احدث مفاجآت وكان يضم اعضاء مجلس المقاطعات والنواب بالمجلس الوطني الى جانب منتخبي 24 نوفمبر لتعيين اعضاء مجلس الجمهورية بالاقتراع السري وبدون امكانية للضغط الاداري · فقد نال « البيان » 385 صوتا من 831 واربعة مقاعد على سبعة ، ورجعت الثلاثة الاخرى الى « التعاون » بعدد 367 صوتا · ونستطيع ان ننظر هذا النجاح الذى احرز عليه « البيان » بنجاحـه يوم 2 جوان نظرا لما ادخلتـه الحكومـة مـن تعديـلات إستثنائية على قواعـد الاقتراع · وقد خرج من المعركة كانشط حزب واحسنه تنظيما واكثره شعبية في الجزائر · ولم يترك اتحاد جميع احزاب الهيأة الاولى ضد « الماركسيين » الا نائبين اثنين للاشتراكيين واثنين للشيوعيين على خمسة عشر ، وعضـوا واحدا بمجلس الجمهورية للاشتراكيين وعضوين للشيوعيين على سبعة · وكان المنتخبون الجدد مدعوين ليقولوا كلمتهم في قانون الجزائر الاساسي الذى وضع الحكومة في موقف خطير جـدا ·

مشاريع القانون الاساســـي

لقد وجد المجلس الوطني نفسه امام اربعة مشاريع (21) وكان من خصائص المشروع الحكومي الجوهرية تكوين الجزائر مـن مجموعة مـن المقاطعات لهـا الشخصية المدنية والاستقلال المالي ، مع وجود وال عام يمثل السلطة التنفيذية ومجلس جزائري مكلف بتمثيل المصالح الخاصـة بالجزائر لديـه والتصرف فيها • وكان المشروع الشيوعي يرمي الى جعـل الجزائر اقليمـا مشاركا لـه مجلس يتركب من 120 نائبا يتمتعون بسيادة التشريع فيما يتعلق بجميـع المسائل الداخلية ، وممثل لحكومة الجمهورية ولمصالح الاتحاد الفرنسي العامة لدى الحكومة الجزائرية المتركبة من رئيس مجلس الوزراء ووزراء يمارسون السلطة التنفيذية ، ولغتان رسميتان الفرنسية والعربية ، ويتم الفصل بين الشعائر الدينية والسلطات العمومية ، وتحذف البلديـات المختلطة ومناطـق الجنوب • وبصورة انتقالية يكـون لمجلس الوزراء ولمختلف المجالس تمثيـل متعادل • ولما كان الحزب الشيوعي ضد الوحدة العربية الرجعية وضد الانكليز والاميركان على حد سواء فانـه يعتبر ان « استقلال الجزائر من شانه ان يشكل فـي آن واحد خديعة وتدعيما لقواعد الامبريالية في الجزائر » ، وان الاتحاد الفرنسي بالعكس « يعطي حاليا شعوب ما وراء البحار الامكانيـة الوحيدة للسير في طريق الحرية والديموقراطية (22) •

واقترح الاشتراكيـون مجلسـا جزائريـا يشتمل على مائة وعشرين عضوا تنتخبهم هيأتان انتخابيتان بصورة موقتة ووزير للجزائر مسؤول امام حكومة الجمهورية ولكنه مقيم بالعاصمة الجزائرية • ويصادق المجلس على الميزانيـة ويراقب التصرف فيها ، ويبت ايضا في تطبيـق القوانين التي صادق عليهـا البرلمان بالنسبة للجزائر • وقدم نواب الكتلة الاسلامية المستقلة للدفاع عن النظام الفدرالي الجزائري واعضاء مجلس الجمهورية المنتخبين على اساس برنامج الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري مشروعا مماثلا ، مع فرق ضئيل يتمثل في ان هؤلاء الموقعين من المجلس الاعلى يطالبون بالاعتراف « بالعلم الجزائري » • وتعترف الجمهورية الفرنسية للجزائر باستقلالها كاملا • وتكون الجمهورية الجزائرية عضوا في الاتحاد الفرنسي بعنوان دولة مشاركة • ويضطلع برلمان

---

21) — جمعت مصلحة الوثائق الفرنسية النصوص في « مذكرات وثائقية » عدد 684 بعنوان « قانون الجزائر الاساسي » •

22) — « ليون فاكس » ، ص 869 •

جزائرى منتخب انتخابا حرا مباشرا بالسلطة التشريعية • وتتركب الحكومة من رئيس للجمهورية وهو رئيس الدولة ومن مجلس للوزراء • ويمثل كل جمهورية لدى الجمهورية الاخرى مندوب عام • ويكون جميع السكان بدون ميز عنصرى او دينى ما عدا الرعايا الاجانب مواطنين جزائريين ، ويكونون متساوين فى الحقوق والوجبات • ولم يقدم لا الجمهوريون الشعبيون ولا الراديكاليون ولا الاتحاد الجزائرى مشروع قانون ، وكان لهم احد عشر منتخبا من خمس عشرة يجمعهم برنامج مشترك مناهض للماركسية •

وكان موقف حكومة « رامديى » صعبا • فان ارادت ان تحتفظ بالائتلاف الحكومى المركز على « الاتفاق العام » فيجب على رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وكلاهما اشتراكيان ، ان يقفا موقفا مناهضا لبعض المقترحات ، وليست اقلها شانا ، التى يحتوى عليها مشروع كتلتهم ، وكانت الحكومة تشتمل علاوة على الاحزاب الثلاثة على راديكاليين وممثلين للاتحاد الديموقراطى الاشتراكى للمقاومة وعلى مستقلين • وكانت الحركة الجمهورية الشعبية يتجاذبها يمينها ويسارها ، فرفضت كل تغيير لمقررات مجلس الوزراء التى لاموها على ما تصطبغ به من افراط • وكانت تظهر معتدلة فى نظر حلفائها من ثلاثية الحكم، بينما كانت تبدو وقد اصابتها عدوى الروح الثورية فى نظر اعضائها من الجزائر • واستقال الاستاذ « بول – اميل فيار » من الكتلة ، وقد تدخل فى المناقشة من اعلى منبر المجلس تدخلا بليغا ليعبر عن « قلق » السكان التابعين للقانون الفرنسى ، ولم يلبث ان تبعته جامعة قسنطينة والهيئة المديرة لجامعة الجزائر العاصمة • وكان « تجمع اليساريين الجمهوريين » يريد لو تاجلت المناقشة الى وقت انسب • وكان اعضاء الاتحاد الجزائرى يطالبون بتطهير الهيئتين الانتخابيتين وذلك بالغاء ما سينفذ من اجراءات مقبلة تطبيقا لامر 7 مارس واقتراع كل هياة على حدة •

حيرة الرئيس « راماديى »

لقد كانت للقضية بداية سيئة بالنسبة للحكومة • ولم تاخذ اللجنة تحفظاتها بعين الاعتبار ، فصادقت على مقترحات مقررها « رابيى » وهو النائب الاشتراكى لمدينة وهران ، باثنين وعشرين صوتا (الاشتراكيون والشيوعيون والمسلمون) مقابل واحد وعشرين (الجمهوريون والشعبيون واتباع التجمع اليسارى الجمهورى واتباع الحزب الجمهورى التحررى والمستقلون) • وجرى الاعتقاد بلزمة وزارية لان تجمع اليساريين اعلن عن قراره

بسحب وزرائه ان لم تؤجل المناقشة الى استئناف السنة البرلمانية ولم تتنازل الحكومة فى هذه النقطة ، لكن رئيس الحكومة ادلى بتصريحات اعطت كل التطمينات « لبليفن » وللحركة الجمهورية الشعبية بشان ثلاث مسائل اساسية وهى : اقرار اغلبية الثلثين ضمن المجلس الجزائرى ، تكوين مجلس الولاية المكلف بتتبع مقررات المجلس الجزائرى ، وتركيب هيئات الناخبين الاولى بالتخلى عن قانون 5 اكتوبر 1946 الذى يوسع الترسيم المنصوص عليه فى امر 7 مارس بالنسبة لانتخابات المجلس الجزائرى . على ان المؤتمر الاشتراكى الذى انعقد بمدينة ليون (Lyon) من 14 الى 17 اوت ساند مشروع اللجنة ، ومنح «الكتلة البرلمانية والوزراء الاشتراكيين تفويضا صريحا لانجاح هذا المشروع امام البرلمان « وطلب » من الرئيس راماديى ان لا يطرح باى حال مسالة الثقة بشان احكام مشروع اللجنة ... وبالخصوص فيما يتعلق بالنقطتين التاليتين :

1 ـ الاحتفاظ بامر 7 مارس وبقانون 5 اكتوبر 1946 بحذافرهما .

2 ـ الاحتفاظ بالاغلبية العادية فى المجلس الجزائرى لجميع المسائل التى هى من مشمولات انظاره » . فما كان من رئيس كتلة الحركة الجمهورية الشعبية الا ان اعلن بمدينة « روديس » Rodez بقلب دائرة « رامادييى » فى نفس اليوم الذى صادق فيه المؤتمر على هذه اللائحة انه لن يقوم باى تنازل وقال : « ان عقلية المصالحة لن تكون منا عندما يتعلق الامر بفرنسا وبعلمها وبحضورها وبرسالتها » .

التصريح المحافظ للجنرال « دى قول »

وجاء تصريح الجنرال « دى قول » من الغد ، وكان منتظرا منذ مدة ، فزاد فى الطين بلة . وقد اعلن عن مساندته « لنظام تمارس فيه فرنسا حقوق سيادتها وواجباتها ممارسة كاملة ويشترك فيه صنفان كبيران من السكان ويتعادلان فى مناقشة الشؤون الجزائرية الخاصة » . ويكون فى المجلس قسمان « متساويان ومتكافئان » ، ويتداول كل واحد منهما لحسابه ، ما عدا فى حالة الجلسات العامة التى يضبط القانون مواضيعها وتجرى الاقتراعات الجوهرية بشانها باغلبية الثلثين » . وكان امر 7 مارس ينص بالنسبة لمختلف المجالس على ان ثلاثة اخماس المقاعد تعطى لهيأة الناخبين الاولى ، وهو ما يسمح « لعدة عشرات من الفرنسيين المسلمين

بالدخول في الهيأة الاولى · فيصير هذا الحكم الاخير غير ذى موضوع ما دام يشترك في مجلس جزائرى قسمان او لجنتان متساويتان او متكافئتان بل بالعكس ، الاحتفاظ به يعرض بتوازن النظام باكمله الى الانحراف على حساب السكان الاروبيي الاصل ولما عساه ان يكون في فائدة ديماغوجيا خطرة » · وينطلق هذا المنطلق من المبدا القار القائل بتساوى التمثيل بين مليون من الفرنسيين غير المسلمين وثمانية ملايين من الفرنسيين المسلمين وكان الغرض من امر 7 مارس 1944 ومن قانون 5 اكتوبر 1946 اقحام اكثر ما يمكن من الاهالى في حضيرة المواطنة الفرنسية بصورة تدريجية · وبما ان الهيئة الموحدة كانت غير متيسرة فان الحزب الاشتراكى كان يرى فى هذين النصين مسيرة متواصلة نحو الادماج · فالجنرال لم يتنكر لروح عمله باقرار الهيأتين فحسب بل عاد الى الحواجز المعمول بها في الهيات النيابية المالية التى آلت الى جعل كتلتين اجنبيتين تنتصب الواحدة ضد الاخرى · واعتبر المسلمون هذا الموقف خيانة · فصرح محمد بن الطيب قائلا : « اؤكد لكم ان الجنرال « دى قول » فقد بتصريحه امس ثقة تسعة ملايين من المسلمين ، سواء كانوا اشتراكيين او منتمين الى الحركة الجمهورية الشعبية » · وبالعكس نال ثقة المعمرين · فان موجة من الحماس هزت اولئك الذين كانوا يعتبرونه مدة سنوات خائنا محكوما عليه بالشنق · وكان يكفى ان وقف موقفا مناهضا للتدابير التحررية لفائدة الاهالى لان تمحى منه عاهات الماضى · وصار المدافع عما دعاه « ملكنا » ضد من كانوا يدعون التخفيف من حق صاحب الملك في التصرف بلا قيد ولا شرط ، وكان ايضا يعبد الطريق لانتصار تجمع الشعب الفرنسى فيما وراء البحر ·

التدخلات البرلمانية

لقد تواصلت المناقشة العامة مدة ثلاثة ايام امام جمع من الاخصائيين نزل عددهم احيانا الى 40 · بيد ان المفاوضات الجارية بقصر « الايليزى » (رئاسة الجمهورية) وبقصر « ماتينيون » (رئاسة الحكومة) لم تقض الى الحل الوسط المنشود من جراء تصلب تجمع اليساريين الجمهوريين · وبدون ان يطرح الرئيس « راماديي » مسالة الثقة استطاع مساء 21 ان يجمع الاغلبية حول المشروع الحكومى بعد ان وافق على تعادل الهيأتين المرغوب فيه وعلى اغلبية الثلثين · وابدى تجمع اليساريين الجمهوريين

والجمهوريون الشعبيون رضاهم بينما تخلى « موريس رابيى » عن مهمته كمقرر ، وغادر المنتخبون المسلمون القاعة وامتنعوا عن المشاركة فى فى المداولات فى المستقبل ٠

وفيما يخص المسالتين المتعلقتين بالهياة الاولى وبالاغلبية فى المجلس الجزائرى كان من الصعب الاهتداء الى حل وسط ٠ فمن جهة تم التسليم فى النهاية بالاحتفاظ بالمتمتعين بامر 7 مارس فى الهياة الاولى لكن مع عدم قبول حاملى شهادة التعليم الابتدائى وقدماء تلامذة اقسام المرحلة الاولى من المدارس الثانوية ٠ ومن جهة اخرى اعتبرت القرارات بالاغلبية قرارات عادية الا بطلب من الوالى العام او من اللجنة المالية او من ربع اعضاء المجلس الجزائرى ، فيتعين اذذاك الاقتراع باغلبية الثلثين بعد اجل اربع وعشرين ساعة ٠ وصادق المجلس الوطنى على مجموع المشروع يوم 27 اوت باغلبية 320 صوتا مقابل 88 ٠

وساد الحماس المداولات ٠ فقد شهر نواب الاتحاد المناهض للماركسية بالجزائر بمشروع يعرض بامن الجزائر للخطر اذ يسمح للمسلمين بالحصول على الاغلبية بالمجلس الجزائرى ٠ وظهرت من جديد نفس المعارضة التى اصطدم بها قانون 1919 ومشروع « بلوم ـ فيوليت » واستعملت حججا ووسائل ضغط مماثلة ٠ ونشر « لوى برايى بانس » مدير الفلاحة بالولاية العامة سابقا ،وقداصبح معمرا ، رسالة بجريدة يديرها الجنرال « اومران » موجهة لا الى وزير الداخلية الذى تتبعه الجزائر بل الى وزير الخارجية يقول فيها بالخصوص : « ان تخلت فرنسا عنا واخلت بشرفها نكون مضطرين لان نطالب امام منظمة الامم المتحدة بحقنا كشعب تخلت عنه فرنسا ، وسيتعين عليكم انتم ، سيدى وزير الشؤون الخارجية ، ان تقدموا الحساب امام جمعية الامم المتحدة عن الاسباب التى دفعت فرنسا الى التخلى عنا » ٠ ولم تجد اذذاك اى جريدة من الجرائد الكبرى التى نددت فيما بعد بشكوى الحكومة التونسية إلى منظمة الامم المتحدة ترى من المناسب ان تحتج على نداء للانفصال صادر عن صاحب ملك فرنسى شغل احد المناصب العالية بالولاية العامة وهو يعلم ما معنى الكلام ٠ وما عدا « جاك اوقادر » وروني مايار فان جميع النواب المناهضين للماركسية بالجزائر صوتوا ضد القانون ، ولم يمنع ذلك عددا منهم ، وليسوا باقلهم حدة ، ان يقترحوا على التونسيين بعد اربع سنوات اتخاذ المجلس الجزائرى كنموذج لهم ٠

وكانت تدخلات الاهالى نشيطة واحيانا بلغت حد العنف • ولم يظهر قاضى عبد القادر عضو الاتحاد الديموقراطى الاشتراكـى للمقاومة وابن الطيـب من الحركة الجمهورية الشعبية واسماعيل المنتمى الى الراديكاليين الاشتراكيين اقل ميل الى نظام جمهورية جزائرية من الشيوعيين ومنتخبى انتصار الحريات الديموقرطية وكانت الحملـة على نفس العنف بمجلس الجمهوريـة حيث استطاع الاتحـاد الديموقراطى للبيان الجزائرى ان يسمع كلمته ، وكان المشروع معزوا له ، ولكن لم يكن له ممثلون بالمجلس الوطنى • وبمجرد ما ابل سعدان من مرضه جاء ليوجه نداء مؤثـرا لفائدة « البيان » • والقـى الاستاذ عبد القـادر محداد خطابا ملحوظا عن اندماج الجزائر فى الحضارة الاسلاميـة وعـن المستنـدات التاريخية التى تثبت الامة الجزائرية ، ولنا ان نناقشه فى بعض اقواله ، ولكن ليس لنا ان نجادله فى ما تنطوى عليه من سمو نظر •

فشرحه للبيان يسترعى الانتباه • فهو يقول : « اساس البيان الجزائرى هو الانتمـاء الايديولوجى للعالم الشرقى » • وهـو مـا لا يتضح اصـلا مـن المقترحات السياسية المقدمة الى البرلمان والتى هى من وحى غالبـه ذو طابع غربى • والبلد الشرقى الوحيد الذى كانت الجمهورية الجديدة تشبهه هو تركيا التى لم تستـوح من الشرق فى شىء • واتى ابو البيان فرحات عبـاس فى نداائه الى الشباب بايديولوجيا على جانب قليل جدا من الطابع الشرقى • وفـى الواقع يشرح المسلمون البيان حسب مصادر وحيهم الخاصة • وما يجدون فيه مشتركا بينهم ، كما اكده شوقى مصطفاى بقوة ، هو المطالبة بالاستقلال وبالنظام الفدرالى اذ ان المجموعة الفرنسية لم ترد تبيينهـم • وكان اعضـاء مجلس الجمهورية الاربعة اكثر تصلبا من النواب بالمجلس الوطنى ، فتخلـوا عن نيابتهم مؤكدين انه على الجزائريين ان يمارسوا سيادتهم لا فى البرلمان المدعو لتشريع القوانين لفرنسا ، بل فى الجزائر وفى مجلس الاتحاد الفرنسى •

القانـون الاساسى المـؤرخ فى 20 سبتمبـر 1947

ان قانون 20 سبتمبر 1947 يمثـل اول مجهـود لمنـح الجزائر « قانونـا اساسيا » • فالجزائر معتبرة « مجموعة من المقاطعات » • واوضح مجلس الدولة يوم 27 مارس 1947 ان « المقاطعات الجزائرية مقاطعات لما وراء البحار » ولا سبيل اذن لان تعد ضمن « المجموعة المركزية » الى جانب فرنسا وكرسيكا خلافا للراى الذى دافع عنـه « فيار » وقد عهد بالسلطة التنفيذية الـى ع م يمثل حكومة الجمهورية وهو مسؤول امامهـا ، والى مجلس ولاية « مكلف بالسهـر على تنفيذ

مقررات المجلس الجزائرى » ولكنه ذو صلاحيات غير مضبوطة • وفى الميدان التشريعى يحتفظ المجلس الوطني الفرنسى بحق تطبيق القوانين الدستورية والقانون المدني والقانون الجنائى على الجزائر • والمجلس الجزائرى « مكلف بالتصرف فى المصالح الخاصة بالجزائر بالاتفاق مع الوالى العام » • وله بالخصوص صلاحيات مالية وبالاخص المصادقة على الميزانية •• ولا تطبق القوانين الجديدة على الجزائر طبقا لمبدا الاختصاص التشريعى الا اذا قضى المجلس الوطني بذلك صراحة ، لكن المجلس الجزائرى منح سلطة ترتيبية تمكنه إما من اقرار القوانين الفرنسية على ما هى عليه او مع ادخال تعديلات عليها ، وإما من سن تراتيب خاصة بالجزائر فى نطاق هذه القوانين • ويتعين ان يتم التصديق على مقرراته باوامر ، لكن هذه المقررات تصبح نافذة المفعول اذا لم تشعر الحكومة برفضها فى ظرف ستة اسابيع • ومن الناحية الانتخابية يتم تعيين 120 عضوا بالمجلس من قبل هياتين انتخابيتين ، تشتمل الاولى على 464٠000 مواطن من التابعين للقانون المدني الفرنسى وعلى 58٠000 مسلم يرسمون بصفتهم تلك وبطلب منهم • وتشتمل الثانية على 1٠400٠000 ناخب من التابعين للقانون المحلى • ولا يتداول منتخبو الهياتين فى نطاق اقسام بل مجموعين • ويحتوى القانون على عدد من الاحكام الخاصة تتعلق بالالغاء التدريجى للبلديات المختلطة والنظام الخاص بمناطق الجنوب وبفصل الدين عن الدولة بتعليم اللغة العربية •

حل وسط قبل قبولا سيئا

كانت للقانون خاصية جديدة اوضحها « ليون بلوم » فى قوله : « انه يضع حدا نهائيا للوهم القديم الذى تعبر عنه « سياسة الادماج » • انه يتناول حقيقة المشكل الجزائرى • انه يسعى فى تسوية علاقات شعبين يعيشان على ارض واحدة ، لكنهما مختلفان ، متميزان ، لا سبيل الى ادماجهما الواحد فى الآخر ، مقران العزم على البقاء مستقلين الواحد عن الآخر ، وذلك فى نطاق الاتحاد الفرنسى » (23) ولاحظ ان هذا الحل الوسط لا يرضى احدا ، وقال : « لقد تقبله المعمرون الجزائريون بامتعاض • لكن رد الفعل هذا ليس فيه ما يفاجىء ولا بالخصوص ما يتاثر له • فالمعمرون الفرنسيون يبدون وكانهم مازالوا ينخدعون لخرافة الادماج • ولا يقلعون عن ابقاء ما يسمونه السيادة الفرنسية على الارض الجزائرية ، وليست هى سوى سيطرتهم الخاصة • وكانوا يثورون

---

(23) – جريدة « لوبوبيلار » ، 2 اوت 1947 •

دوما كلما وقع التفكير في علاقات الشعبين المتعايشين على ارض الجزائر على ضوء مساواة نسبية » (24) .

ان ما طلبه الزعيم الاشتراكي من المعمرين من « المجهود في الوطنية الفرنسية ومجهود في الذكاء الفرنسي » قد رفض هؤلاء بذله لانهم يرون فيه فقدانا لتفوقهم . وكان الراى العام الاسلامي تماما ضد هذا الحل الوسط وامتنع عن التسليم بانه يشكل تطورا . وتعزز تشدد مصالي الحاج بعد ان رفض البرلمان الاستماع الى المنتخبين المسلمين . فاستولت حركة انتصار الحريات الديموقراطية على مجموع مقاعد الهيأة الثانية تقريبا في الانتخابات البلدية لاكتوبر 1947 . وقد افادت الازمة الاقتصادية الدعاية المتطرفة . فبينما بلغت تكاليف المعيشة ضارب عشرة لم تضرب اجور الاهالي الا في ستة وكانت هزيلة اصلا . واقر رسميا بانه على المسلمين ان يكتفوا بمعدل 1520 كالورى عوضا عن 2500 ، وزيادة على ذلك قلنا ان نعتبر هذا الرقم تفاؤليا . ولم يكن السكان من الاهالي يميلون الى تقدير فوائد هذا القانون وهم ناقصو التغذية معوزو المسكن واللباس . وفي نفس الانتخابات بالنسبة للهيأة الاولى فاز الاتحاد الجزائري المناهض للقانون فوزا يكاد يكون تاما بجهة مدينة الجزائر وخاصة بالعاصمة حيث اقصى الشيوعيين باشراف تجمع الشعب الفرنسي ، وفاز فوزا كبيرا بجهة قسنطينة وباقل درجة في جهة وهران .

وال اتحادي : « م . أ . نايجلان »

بدا دعم العقلية الاستعمارية في الهيأة الاولى والتطرف البات في الثانية يمهد لنشاة كتلتين متعادلتين ضمن المجلس الجزائري المقبل . وكان كثير من الفرنسيين من غير المسلمين بالجزائر يلقون على الوالي « ايف شاتينيو » جانبا كبيرا من المسؤولية لانه افرط في مراعاة الاهالي ولم يحسن ترتيب الانتخابات . وكان لهم ترجمان متصلب ضمن حكومة « شومان » (25) المؤلفة في نوفمبر 1947 في شخص وزير المالية « روني مايار » منتخب قسنطينة . وغلب بالحاحه في النهاية ، فحصل الاتفاق على حل وسط يوم 11 فيفري يقضي بابقاء « شاتينيو » من مهامه ، ثم تعيينه سفيرا بموسكو ، وتعويضه في الجزائر باشتراكي ، وهو « مارسال ــ ادمون نايجلان » وزير التربية القومية .

---

24) ــ جريدة « لوبوبيلار » ، 2 اوت 1947 .

25) ــ هو « روبار شومان » . (ملحوظة للمترجم) .

لقد عرف « نايجلان » اصيل مقاطعة الالزاس بصلابة وطنيته التى برهن عنها طيلة مدة الحرب ٠ واظهر خصالا ملحوظة فى التصرف بمختلف مناصب المسؤولية التى تولاها ٠ وشرع فى مهمته الجديدة لا فقط بحماس فى الشغل وثبات فى العمل لا يحجمان امام اى عقبة ، بل بارادة متحمسة لاقرار السيادة الفرنسية من جديد بتمامها وكمالها ٠ وبالنسبة لرجل سياسى تربى منذ الصغر على مقاومة النزعة الاستقلالية الالزاسية فقد ظهر الوطنيون وبالاخص انصار انتصار الحريات الديموقراطية فى مظهر انفصاليين ينبغى ان يحول دون تقدمهم مهما كانت التكاليف ٠

وقد لاحظ منذ اتصالاته الاولى بممثلى الراى العام الفرنسى انه يوجد شعور فقط بفقدان الامن بل وبهوس الحرب الاهلية الذى يتضح فى اتجاه لمغادرة الجزائر طلبا للامن من الخطر بفرنسا ٠ وقد افضى الشعار : « الحقيبة او التابوت » المنسوب الى حزب الشعب الجزائرى الى وسواس النزوح ٠ وتسلح كثير من المعمرين وحصنوا ضيعاتهم ٠ وبعد ان وازن الوالى الجديد بين وجهات النظر المتعارضة ، فكر فى « تغيير الاتجاه » ٠

وكان الخطر المحدق يبدو له فى عمل حركة انتصار الحريات الديموقراطية ٠ وقد اشارت التقارير الواردة من جميع جهات الجزائر الى الاندفاع العاطفى والاحترام اللذين يحظى بهما مصالى الحاج فى كل مكان والى تاثيره على الجماهير وان كان نشاطه الشخصى محل حراسة وكبح فان نشاط اعضاده وخاصة البرلمانيين منهم كان بالعكس يتمتع بحرية تامة ٠ ولم يتبين فقط ان الحزب كون اطارات بل ان له خلايا حتى فى المراكز الصغرى وان تعليماته تنتشر فى البلاد بسرعة عجيبة ٠ من ذلك ان نايجلان علم ان الدعاة يتناولون مواضيع متطرفة فى اصعب الدواوير ادراكا ، ويقولون : « سيلقى بالفرنسيين فى البحر اننا مؤزرون من قبل سلطان المغرب ومن قبل الجامعة العربية ٠ ــ يرسل عزام باشا الينا سفنا تحمل البنادق والاسلحة من جميع الانواع ٠ سنتقاسم اراضى المعمرين وسينال كل منا نصيبه ٠ ــ ان خلاصنا سيتحقق غدا ٠ ــ كونوا على استعداد ٠ ــ عند اول اشارة سنطلب منكم ان تعملوا ٠ ــ ستجدون فى الوقت المناسب رجالا منا يرشدونكم الى ما يجب ان تقوموا به ٠ ــ اننا ننتظر منكم انقيادا اعمى لا حد له » ٠ وفى المدن كانت الحركة بالعكس تعمل جاهدة ضد المنير المفروض على الجزائر منذ عشرات السنين ومن اجل التجمع الضرورى لمقاومة سلطة اجنبية فشلت فى رسالتها ٠ وكانت الاداءات تسلط على الانصار وجوبا ٠ من ذلك ان صانع علب تبغ لم يدفع سوى مائة الف فرنك

عوضا عن خمسمائة الف ، فقوطعت بضاعته • وكان الملف الذى قدم هكذا « لنايجلان » ضخما بقدر ما كان حزب الشعب يزخر دائما بالشرطيين •

اولوية النظـــام

لقد قدر « نـايجلان » ان واجب فرنسا فـى تحطيم نشـاط حزب قد يثير اضطرابات دامية • وقد اخفقت محاولات الاتصـال بالاتحاد الديموقـراطـى للبيان الجزائرى وكانت الحكومـة ترى نشاطه اقل عمقـا وخطـرا بكثير من نشـاط حزب الشعب ، وكانت لا تزال تفضل سياسـة الادماج التى يرفضها اصدقـاء البيان • ومهما كان المسؤول فانه كان مقرا العزم على حفظ النظام • وكشف عن نواياه بقـوة منذ اتصاله الاول برؤساء بلديـات الجزائر • فهو يريد ان يدافع عن عمل وسلطة فرنسا « باثبات صولة القانـون الجمهورى والقانـون الجمهورى دون سواه » ضد من يثيـر الاضطرابات ، ولكن ايضـا بمنع معاملة المسلمين « كمادة للشغل » • وكان لخطابه المرتجل وقع عميق وقد تلقوه بمظاهرات جنونية • وتمت إستمالة المعمرين على الفور ، ولكنه لم يرسخ باذهانهم من الخطاب سوى ما يتعلق بممارسة السلطة •

وكان على « نايجلان » ان يشرف على وضع القانون الاساسى الجديد محل التنفيذ • وكان « ليون بلوم » يرى ان القانون سيحقق تقدمـا ملموسـا لكن شريطة ان يتم « تطبيقــه من الجانبين بكل صدق وفى كنف الثقة التامة » • وكان ذلك يفترض ان الادارة الجزائرية المناهضة كلها تقريبا للتدابير التحررية ستترك التجربـة تجرى بصورة عادية دون ان تستخدم اساليبها الانتخابيـة ذات النجاعة الفائقة • وقد اكد الولاة انه ان تمادت الدعاية الوطنية دون ما عقبة فستحرز حركـة انتصار الحريات الديموقراطية على 90٪ من الاصوات بفضل ما توحيـه من الرعب حتـى الى العناصـر الاكثـر اخلاصا للمصالح الفرنسية •

وكان الوالى العام يعتقد ان نجاة الجزائر فى القضاء على الشبكة التى تضيق الخناق اكثر فاكثر على الاهالى • فاطلق العنان للولاة ليدركوا هذه الغاية • وكان اصعب شىء ايجـاد مرشحين • وقد تعـذر الحصول على شخصيـات تمثل الاهالى ، فحتى من هم إكثر انقيادا من غيرهم كانوا يتوارون فى آخـر وقت • فالمهم هو تكويـن قائمات المرشحين ، اما نجاح هؤلاء فهو مسالـة مهنية ، وللولاة ومساعديهم وللمتصرفين بالبلديات المختلطة عدد وافـر من

هذا القبيل • وكانت الادارة صادقة فى إقتناعها بان تعمل عملا صالحا بقطع الطريق على الانفصاليين ، فقادت بالمستخيل لتلافى مساوى القانون وملاءمته مع مقتضيات الجزائر • وقد كتب صحافي جدي وهو موالى للولاية العامة فقال : « حان مع نهاية الشتاء وقت انتخاب المجلس الجديد الذى ينص عليه القانون • وقد خشيت الحكومة الفرنسية ما قام به البرلمان الفرنسي • فلم يكن الخيار في مقاطعاتنا الجزائرية الثلاثة بين انتخابات حرة وانتخابات مهيئة ، بل كان بين انتخابات يهيئها المسيرون المصاليون وانتخابات تهيئها الولاية العامة • وقد اخترنا الثانية » (26) •

انتخابات مزيفة بانتظام

لقد تجاوزت النتيجة آمال اكثرهم تفاؤلا • ففي الهيأة الاولى ظفر مجموع الاتحاد الجزائرى وتجمع الشعب الفرنسى بعدد 55 مقعدا ، وهي الكتلة المتركبة من جميع الاحزاب باستثناء الاشتراكيين والشيوعيين ، وخاصة من تجمع الشعب الفرنسي والحزب الجمهورى التحررى والحركة الجمهورية الشعبية والحزب الراديكالي والراديكالي الاشتراكى • واحرز الاشتراكيون على اربعة والشيوعيون على مقعد واحد • وفي الهيأة الثانية كسب المستقلون 41 مقعدا على 60 بفضل « الرجوع الى الثقة الذى اوحت به سياسة اكثر حزما ازاء اعنف المهرجين » • ونالت حركة انتصار الحريات تسعة «والبيان» ثمانية ، وعاد المقعدان الاخيران الى مستقل من انصار النظام الفدرالى والى اشتراكي مستقل • فاصبحت الجزائر تتمتع بادىء ذى بدء بمجلس مفقود وعادت الثقة تتدفق من كل جانب • وبدت النتائج « مفاجئة الى حد ان البعض يميلون الى ان يستخلصوا منها العطف التقليدى الذى توليه الادارة للمستقلين والى مساندة اكثر فعالية ، ويرتابون فى شرعية العمليات » (27) •

ولم ينخدع احد للظروف الممتازة التى تم فيها الاختيار • واكد التجديد الجزئي لفيفرى 1951 الاتجاه : فقد خسر انتصار الحريات الديموقراطية اربعة مقاعد من تسعة « والبيان » مقعدا من ثمانية • واذا اعتمدنا الحساب الانتخابى فان انصار الوطنيين لم يعودوا يمثلون الا خمس السكان بالجزائر • ويكفي ان نقضى ربع ساعة مع احد الموظفين المسؤولين بالعاصمة الجزائرية

---

26) ـ « بيار فريديريكسي » • جريدة « لوموند » • 3 افريل 1952 •
27 ـ السنة السياسية ، 1948 ، ص 58 •

لندرك ان الادارة كانت معتزة بما قامت به من عمل صالح : « فمن بين الستين منتخبا بالهياة الثانية هناك سبعة او ثمانية يمثلون المعارضة للنظام • وكان جميع الاخرين مرشحين زكتهم الادارة وساندتهم • ومن بين هؤلاء الخمسين المنتخبين الرسميين هناك اكثر من ستة بقليل ـ خاصة من بين المنتخبين بالجنوب ـ يمثلون عن اصالة قبيلة او قوة دينية ، وثلاثة او اربعة اخرون استمالوا انصارا حقيقين ، لكن اكثر من نصف المنتخبين بالهياة الثانية ، وربما الثلثين ، لا يمثلون الا انفسهم • انهم مصوتون عن غيرهم في خدمة الحكومة او زملائهم التابعين للقانون المدني الفرنسي • ان تزوير الانتخابات للهياة الثانية هي اسطورة الجزائر » (28) وسجلت انتخابات جوان 1951 للمجلس الوطني الفرنسي ايضا خيبة الوطنيين والشيوعيين بالهياة الثانية خيبة تامة • فقد فقدت حركة انتصار الحريات الديموقراطية المقاعد الخمسة التي كانت لها في المجلس السابق ، وفشل جميع مترشحي الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري ، حتى فرحات عباس بمعقله في سطيف • وهزم الشيوعيان الاثنان بقسنطينة ووهران • وابتهجت الجرائد بان يبتدىء الوالي الجديد « روجي ليونار » « حياته العامة بالجزائر في اسعد الظروف » (29) •

تزوير انتخابي لمهـــــرة

كانت للانتخابات خصائص قليلا ما عهد مثلها بفرنسا • ففي بور ـ قايدون (Port Gueydon) (30) اقترع 23671 ناخبا من الهيئة الثانية من 23676 مرسما عند تجديد المجلس الجزائري ، ومنحوا 23645 صوتا للمرشح الاداري مقابل تسعة للشيوعي • وكان اقبال الناخبين ملحوظا بقدر ما اوصت حركة انتصار الحريات الديموقراطية بالامساك • واظهرت الدورة الثانية ان المرشحين الرسميين نجحوا في استمالة افواج من انصار خصومهم • وفي افريل 1948 احرز مرشح انتصار الحريات الديموقراطية بمدينة بليدة على 10647 صوتا في الدورة الاولى ، فلم يبق له الا 2534 صوتا في الثانية ولم يبق لمرشح الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري سوى 16 صوتا من

---

28) ـ « فريديريكس » • المرجع المذكور •

29) ـ « لانفورماسيون نور افريكان » (اخبار افريقيا الشمالية) ، جوان 1951 • ص 10 •

30 ـ حاليا « ازفون » • (ملحوظة للمترجم) •

2791 ، بينما ارتفع عدد الاصوات بالنسبة للمرشح المستقل من 8655 الى 16559 صوتا ، وانتزع هذا الاخير 7894 صوتا من منافسيه • وبقائمة غنم المستقل 9672 صوتا (17668 عوض عن 7996) بينما نزل عدد الاصوات من 7665 الى 715 بالنسبة لمرشح انتصار الحريات ومن 1049 الى 51 بالنسبة لمرشح « البيان » بعنابة لم يبق لمرشح « الانتصار » سوى 96 صوتا من 6544 ، واقصى ممثل « البيان » من المنافسة في الدورة الثانية بعد ان حصل على 4186 صوتا في الاولى ، بينما قفز المستقبل من 3174 الى 16348 صوتا •

وكان في تنظيم مكاتب الاقتراع وتوزيع البطاقات واستعمال الصناديق اعفاء للناخبين ، خاصة بداخل البلاد ، من عناء التفكير او القيام بعملهم كمواطنين • وقد اجرى مراسل جريدة « لوموند » تحقيقا في احدى المناطق الانتخابية • فكتب يقول : « واخيرا « روجي دوليل » (Rouget-de-Lisle)

(31) حيث صرح لي عشرون من الاهالي تجمعوا بمقهى عتيق ، وكانوا متحفظين : انهم يقترعون عوضا عنا ، ولذا لم نعد في حاجة الى مغادرتمكاننا، ولن يمنع وجود الممسكين « القايد » من سحب عدد من البطاقات من الصناديق يساوي عدد المرسمين باستثناء تسع وحدات • فسيبلغ عدد المقترعين 909 على 918 من المرسمين ، لكنه سيدعي انه كان هناك اناس اجانب عن الدوار » (32) •

التشهير بالفضيحة

لم تستعمل هذه الاساليب بدون ان تصدم عددا من غير المسلمين الذين ما زالوا مصابين بعدوى الافكار المسبقة لاصيلي فرنسا • فقد علقت شخصية سياسية قوية بسمو نظر على منشور صادر عن احد الولاة في مارس 1948 فقالت : « ليس مقر البلدية دارا مشبوها فيها ، ورئيس البلدية حاكم يجب ان يحترم نفسه كي يحترمه الجميع » (33) ورفع الاشتراكيون احتجاجا ضد

---

32) — « اندري بلانشي » ، يوم في جهة قسنطينة من مكتب اقتراع الى آخر « لوموند » ، 15 اكتوبر 1951 •

33) — الشخصية هي « ريمون لاكيار » رئيس بلدية سانت اوجان Saint Eugène (حاليا) وهو في الوقت الحاضر رئيس المجلس الجزائري ، الفقرة ذكرها « جانسون » في « المسرح الجزائري » ص 534 •

« النتائج المزورة » لانتخابات افريل 1948 التي ينبغي ان تلغى » الا اذا رضيت فرنسا بان تدنس شرفها باسدال غطاء نفوذها على هذه الفضيحة للديموقراطية المداسة (34) وشهر نواب بالمجلس الوطني ينتمون الى الحركة الجمهورية الشعبية بقوة بهذه التعديات • وفي رسالة الى وزير الداخلية بتاريخ 14 افريل 1949 بسط « فونلوب ـ اسبيرابير » الذي عوض « رابيي » كمقرر للقانون الاساسي المعاينات المتطابقة الكثير من اصدقائه وهي الآتية : عمل مباشر قام به « القياد » بقاعات الاقتراع ، فقدان بطاقات الناخبين وبطاقات التعريف ، ختم الاقتراع في الساعة العاشرة والنصف صباحا ، ترك صناديق الاقتراع لمشيئة المستعملين • وقال : « ان احد اصدقائي من الجمهوريين الشعبيين من مدينة الجزائر كان باحد المكاتب ، ودعي لمغادرة قاعة الاقتراع في الساعة العاشرة وخمس واربعين دقيقة صباحا ، واضطر للعودة اليها بعد ربع ساعة لنزول الثلج ، فلاحظ انه بينما كانت القائمة الانتخابية لا تحمل سوى عشرة امضاءات عند خروجه اذا بها تحمل مائة واربعة وتسعين عند رجوعه • والحال انه مكث بباب المكتب مدة ربع ساعة ، وهو يثبت انه لم يلج احد قاعة الاقتراع في تلك الفترة» • وندد نائب مقاطعة الران الاعلى Le Hout - Rhin (35) بالاساليب « المعمول بها بصورة عامة » والتي يعتقد انها « هي بذاتها لا تسامح فيها » • واصدر حكما على غاية الصرامة على سير الانتخابات بالجزائر ، وقال : « ليس الناخبون هم الذين اختاروا المنتخب ، بل ان الادارة هي التي عينته مستعملة اساليب منبوذة لقنتها استعمالها بالجزائر تجربة يؤسف لها » •

تزوير الانتخابات مؤسسة للدولة

ان تزوير الانتخابات في الجزائر مؤسسة للدولة تعتبر مشروعة للدفاع عن السيادة الفرنسية • وان منظميها لا ينكرونها فحسب بل يعتزون بها احيانا • وقد اكد « فونليب ـ اسبيرابير » قائلا : « لم تخامر اي واحد من الموظفين الذين رايتهم ولو لحظة واحدة فكرة المنازعة في ان الانتخابات بالجزائر هي من عمل الادارة • لقد صرحوا لي به جميعهم بكل وضوح • وقد اكد لي احدهم بمحضر زميلنا السيد « بيار ـ هانري تيتجن » انه ينفذ الاوامر التي تلقاها وانه يصنع الانتخابات لان التعليمات كانت كذلك •••

(34) ـ « بيار هوال » في جريدة « فرانتيرتي » 16 افريل 1948 •

(35) ـ يعني « فونليب اسبيرابير » (ملحوظة للمترجم) •

ويظهر احيانا بعض التضايق عن الدوائر العليا امام انتخابات 17 جوان المبالغ في صيغتها الامتثالية » ، لكنهم يعترفون باندفاع الولاة المساعدين ورؤساء البلديات ومتصرفي البلديات المختلطة الذين بينوا بنجاعة « انه من واجب الادارة ان تقوم الانحرافات التي قد تؤثر في اقتراع حر مباشر مفرط في حداثة عهده من جراء الدعاية الديماغوجية وتهديدات الحركات الانفصالية » (36) ·

لقد اثار تدخل النواب الجمهوريين الشعبيين استنكار المعمرين الفرنسيين · ولسان حالهم يقول : لماذا جاء هؤلاء الصيادين في ارض صيد محظورة ؟ وقدمت الى المجلس الجزائري لائحة احتجاج (37) ضد « هؤلاء المنتخبين القادمين من فرنسا وخاصة احدهم (38) » وقد قاموا باعمال التهديد والوعيد ازاء اكبر الموظفين » بدائرة مليانة ، وهو ما « احدث اضطرابا متزايدا عند سكان الداخل المسالمين » · ولهذا دعت اللائحة وزير الداخلية الى وضع حد لمثل هذه الاساليب التي لا تليق ببلد حر وديموقراطي » · وبعد بضعة اشهر عبرت لائحة جديدة عن « رغبتها » في ان ترى « الوالي العام بالجزائر يسلك سياسة اكثر صرامة ازاء هؤلاء المهرجين » · بمعنى البرلمانيين القادمين من فرنسا الراغبين في الاستنارة بتحقيق على العين ·

عواقب وخيمة للتزوير بعيدة المدى

اذا اعترفنا برباطة جاش الموظفين بالجزائر فلنا ان نتحفظ بشان نتائجها البعيدة المدى · فعندما صادق البرلمان على القانون الاساسي اراد ان يقوم بتجربة ترمي الى تشريك الاهالي بصورة اوثق في تسيير الشؤون الجزائرية · بيد ان الادارة المحلية رات القانون غير مناسب والهيأة الثانية غير قادرة على اختيار ممثليها ، فحرفت تطبيقه والاخطر من ذلك انها شوهدت معناه · واعتبارا للمصلحة العامة اضطر المجلس الوطني لتغطية التعديلات التي كانت تعاكس نواياه · وبدعوى قطع الطريق على الوطنيين اشعر هؤلاء ان بطاقة الاقتراع لا قيمة لها ضد التحيلات الرسمية · « فاليوم يقول لك اكثر الوطنيين الجزائريين تطورا : ان هذه الانتخابات مهزلة ، فان كنتم تقدرون اننا قادرين على الاقتراع فلماذا لا تسلمون به صراحة ؟ ففي ذلك طرح للمسالة كماينبغي

---

(36) ـ « اندري بلانشي » · في جريدة « لوموند » : 17 اكتوبر 1951 ·
(37) ـ « الجريدة الرسمية الجزائرية » ، 10 جوان 1949 ·
(38) ـ « فرنليب ـ اسبيرابير » ·

ان تكون • عبثا • لا يقدر اى برلمان فرنسى على ان ياخذ على عاتقه الرجوع الى الوراء • وستبقى المبادىء على ما هى عليه حبرا على ورق • وسيطلب باستمرار من ولاتنا العامين بالجزائر ان يخاتلوا العقبات • فان قاموا بانتخابات حسنة شكروا • وان قاموا بانتخابات حسنة فوق اللازم اعفوا من مهامهم • وتلك هي قصة السيد « نايجلان » فى كلمات مختصرة » (39) وعندما تؤكد الادارة التزوير علانية فانها تريد ان تورط السلط العليا توريطا جذريا ، وكانت هذه تريد غالبا لو روعى جانب التستر • وكانت حريصة على ان تثبت ان السيادة الفرنسية لا يمكن ان تتحمل تطبيق ضمانات جار بها العمل فى فرنسا ان كان فيها خطر على المصالح المسيطرة ، وان الديموقراطية ليست معدة للتصدير •

هكذا اعيد النظام الى نصابه ، ولكن باى ثمن ؟ فقد كان المجلس الجزائرى فى ماس كلى من ناحية الاهالى ، لكن ذوى القيمة من المترشحين تهربوا احتياطا للمستقبل والتجىء الى كل وارد • واكتشف المنتخبون من غير المسلمين بذهول وحماس ان القانون الذى بلغ الخوف منه مبلغه قد يصبح اداة هيمنة لا مثيل لها بفضل انتخابات ملائمة • وابتهجوا بانقياد الممثلين المسلمين الذين تركوا امرهم لغيرهم دون حتى ان يرفعوا اصواتهم واخمدوا احتجاجات الاقلية الوطنية • » على انه فى هذا التصرف نتائج خطرة • فبعد وقت قصير يزداد الشعور بالانحراف : ان منتخبين لا يستندون الى شىء لا يستطيعون كذلك ان يكونوا متعاونين فى عمل دائم •ولنا ان نختار العمل مع اناس لا يجيبون الا بنعم • ولنا بل وعلينا ان نفضل على الدوام العمل مع زملاء يمثلون بعض الشىء • لكنه لا يمكن ان نزعم العمل مع منتخبين لهم قيمة وهم فى آن واحد ممتثلون الامتثال الاعمى » (40) •

اختيار « جاك شوفاليى »

لقد افضى هذا النقص فيمن لهم قيمة من الممثلين الى تعيين رجل امى رئيسا للجنة التربية القومية ، فانتهى باشغال بال الذين هم اقل تعلقا بالنجاح العاجل واكثر قدرة على التفكير فى الوضعية الجزائرية فى مجموعها وافاقها فى المستقبل • من ذلك ان همة « جاك شوفالييى » نائب مدينة

---

(39) — « ب • فريد ريكس » 3 افريل 1952 •

(40) — « ب • فريد ريكس » فى « لوموند » • 3 افريل 1952 •

الجزائر تعلقت بضبط الموقف قبيل تجديد المجلس الجزائرى فى اربع مقالات كـان لها وقع كبير (41) وقـد اعترف بـان الفرنسيين غير المسلمين « انكروا او ارادوا ان يجهلوا وقتا اطـول من اللازم الناحية الادبيـة » من المشاكل الجزائرية ، وانهم لم يدركـوا اتجاه تطـور المسلميـن لانهم لـم « يعملـوا على معرفـة نفسية الأشخـاص » • فبين الطائفتين اللتين يمثلهما الاستعمار والانفصالية توجد جزائر نشيطة وغنية بالرجال ، ويكفى ان نعرف كيف نستمـد منها لنبـرز نخبا « غير معروفة ومهملـة » ولها من الصبغـة التمثيلية ما ليس لمن هم موجودين الآن • وقال : « فلنعتبـر اليوم ان وجود نصف ـ متمردين بجانبنا اضمن من وجود خدم » •

وليبرهن هذا النائب على ان العمل الحقيقـى يجب ان يتم فى الجزائـر ، اعلن عن نيته فى التخلى عن نيابته التشريعية ليترشح الى المجلس الجزائرى ، وهو ما اثار سخط البرلمانيين الاخرين الذين يعارضون فى « تحويل المجلس الجزائرى سواء فى الجوهر او فى الشكل الى برلمان » بقدر ما هم اعداء « هذه الفكرة الجنونية القائلة بجمهورية جزائرية وبنظام فدرالى مهما كان » • وكان غرضه الحصول على تطبيق صادق للقانون الذى بدا له الحاجز الوحيد دون الوطنية الاستقلالية • وتم تكوين كتلـة مشتركة قويـة بين التحرريين فى ماى 1951 ضمن المجلس من اجل صيانة بعض الحريات « التى نعتبرهـا اليوم مهددة » ورد الفعل ضد استفحال وصاية السلطة المركزية على الادارة الجزائرية وتحقيق ارتباط وثيق بين الفرنسيين المسلمين فى سبيل التقدم الاجتماعى ، فكان من شانه ان يكسب نواياه قوة • لكنه لم يظهر فى الواقع اى تغيير جوهرى •

الوالى « ليونار » واستمرار التزويـــر

ان اعفاء « نايجلان » من مهامه اثار احتجاجات الهيئات التمثيلية الجزائرية، لكنه تم يوم 15 افريل 1951 ، وقد قبلت الحكومة استقالة الوالى العام التى تسبب فيها تنازع السلطة بيـن وزير الداخلية والوالى العام بخصوص عمل احد الموظفين فى المجال الانتخـابى • واكـد خلفه « روجى ليونار » مـدير الشرطة بباريس سابقا ، عزمـه على مواجهة المتمردين « بالحاق الواقعيـة

---

41) ـ « جاك شوفالبى » ، لنضبط الموقف ، فى جريدة « ليكـو دالجى » 19 ـ 26 ديسمبـر 1950 •

للسيادة الفرنسية » • وخلافا للرغائب التي عبر عنها « شوفاليى » فانه غطى مسبقا تعديات الموظفين اذ قال : « ساساند اعضادى فى ممارستهم لصلاحياتهم مساندة ثابتة • وان كان تصويب الاخطاء سيرجع الى فانى ساتسامح فيهما بطيب خاطر ، ولن اؤاخذ احدا عنها اذا لم يكن مصدرها سوى شعور بالانصاف وبالمصلحة العمومية ، ربما كان غير صحيح ولكنه صادق » •

وعوضا عن انتخابات مشروعة ، كانت بعض التصريحات الرسمية تعد بها ، فان الفنيين برهنوا يوم 17 جوان 1951 عن مهارة لم يسبق لها مثيل • وقد تم التصريح بان قرابة الاربعة اخماس من المرسمين اقبلوا على الاقتراع (42) وناصروا اغلبيات من مرشحي الادارة تتراوح بين 60 و 80٪ • ففي مدينة الجزائر لم تنل القائمة الرسمية سوى 142 صوتا من 7233 مقترعا ، بينما احرزت على 10225 صوتا من 12166 مقترعا فى 27 مكتبا بالبلدية المختلطة بشليف • وصوت لفائدتها 728 مقترعا بدوار بنى راشد ، و 676 مقترعا « ببلاسترو » Palestro (43) و 1784 من 1803 مقترعة بعين بسام وهي مركز بلدية مختلطة • وحصلت ابهر نتيجة للاجتماع المتحدى للارقام بالمكتب عدد 23 فى بوديارية بالبلدية المختلطة بجلفة حيث لم ينل مرشحو حركة انتصار الحريات الديموقراطية والاتحاد الديموقراطى للبيان الجزائرى والشيوعيين صوتا واحدا بينما حصل خصمهم على 800 اى بزيادة 300 على عدد 500 من المرسمين ! ورأينا نفس الجرائد التى تشهر بمهزلة الانتخابات السوفياتية تحيى « مرشحي القائمة المستوحاة من ارادة التعاون الفرنسى ـ الاسلامى » الذين « مسحوا الوطنيين المتعصبين التابعين للاتحاد الديموقراطى للبيان الجزائرى ولحركة انتصار الحريات الديموقراطية وللحزب الشيوعى الجزائرى من ادنى الجزائر الى اقصاها (44) •

الاستبداد المثبط للعزائم

لقد ربت الادارة عقلية قد تكشف ذات يوم عن عواقبها الخطيرة بتزويرها للانتخابات سواء بالنسبة للمجلس الوطنى الفرنسى او المجلس الجزائرى •

---

42) ـ يجزم ابو منجل ، فى « الجزائر المجمعة » انه سجل اقبال عشر المقترعين ، وبلغت نسبة الممسكين من 55 الى 60٪ فى المدن التى كانت المراقبة فيها متيسرة •

43) ـ حاليا « لخضرية » • (ملحوظة للمترجم) •

44) ـ جريدة « ايكو دوران » ، 20 جوان 1951 •

وكان المسلمون مقتنعين بأنه وقعت مخالطتهم ، وكانوا يصطدمون برفض مجلس الدولة لدعاويهم واثبات المجلس لنيابات المنتخبين بدون مراقبة • وهم على وشك فقدان الثقة في هؤلاء الفرنسيين من فرنسا الذين كان روح العدل عندهم نصيرا لهم غالبا في محنتهم • وقد كتب احد زعماء الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري البارزين : « اذن لقد دلست الجمهورية الفرنسية • لقد خدعتنا • ونكون محقين وقلوبنا مكلومة في تسجيل ما دعاه « ايمي سيزار » الاتصال المستحيل فالمسلمون يتهمون فرنسا من الآن فصاعدا • وستستقيظ ذات يوم والجزائر المسلمة قد كسبتها الكتلة الشرقية ، وستكون الفرصة سانحة عندئذ للتنديد بعدم الاعتراف بالجميل ولانزال العقاب ، دون ان يخطر فكر احد ان يبحث عن اسباب مثل ذلك السلوك • اجل ، سيحاولون الكشف عن مسكنات ربحا للوقت • وربما يكون الوقت قد فات • لا سيما ان اختيارا املته خيبة الامل لا يمكن ان يكون — ولا مرد لذلك — الا اختيارا ضد فرنسا (45) • وانه من العبث ان نحتج على ما يتضمنه هذا الكلام من تهديد • ومما بنكران الحقائق تزيل الخطر • ولا مراوغة مع الديموقراطية • ان المسلمين قوم جديون يأخذون الامور بجد • وكيف لا يعطون اهمية لهذا التحالف بين الادارة والشرطة والجيش ضد الارادة البرلمانية مع ما يلازمه معظم الديموقراطيين بفرنسا من صمت متواطىء ؟

تعذر الاصلاحات الاساسية

ان احسن سلاح ضد الوطنيين يكون في سياسة اصلاحية جريئة ، لكن تكوين المجلس الجزائري نفسه يحجرها • ولا شك ان « نايجلان » كان مطبوعا بماضيه الطويل كمناضل اشتراكي الى حد انه لا يستطيع التخلي عنه • وقد تجلى ذلك في التدابير التي اتخذها لفائدة قدماء المحاربين اذ سوى بين النفقات واكثر من « ديار العسكري ، هذه المآوى للجندي » التي تصلح بالاضافة الى ذلك كمصالح مفيدة للاستعلامات وخاصة في ميدان التعليم • وقد وضع المسؤول الاكبر عن التعليم العمومي سابقا حدا للفصل بين الاطفال في المدارس ، فبحث عن الوسائل العملية للاكثار من الاقسام

(45) — ابو منجل ، الكتاب المذكور ، ص 525 — 526 •

وغير كيان المدارس القديمة فحولها الى مدارس ثانوية فرنسية ـ اسلامية تهيء لشهادة الباكالوريا ٠

على انه كان لا مفر من ان يعود المعمرون ، وقد تخلصوا من هواس الحرب الاهلية ، الى تصورهم التقليدى للقيم السياسية والاجتماعية وان تضطر الادارة للتكيف به ٠ وهكذا تلاشى شيئا فشيئا عمل الوالى « شاتينيو » التحررى : فركدت المراكز البلدية ، واستحالت مناطق الاصلاح الريفى الى فروع للشركات الاهليةالاحتياطية ، وتركت مشاريع البلديات الريفية جانبا ، واعتبر تشغيل الفلاحين منتهيا ، واستفاد من الاسكان خاصة من كان لديهم بعض راس المال ومداخيل كافية لا جمهرة الفاقدين للمأوى ، واستمرت البلديات المختلطة ولم ينجز الفصل بين الشعائر الاسلامية والدولة ، وآل تقسيم اراضى الجنوبالى مقاطعات الى تصميم ضعيف بينما كان من المقرر ان يمتد الى مكتبة اقيدى الغربية والشرقية ، وتعرض التصنيع الى صعوبات بعد انطلاقة ممتازة بين سنتي 1947 ـ 1948 ، وحتى انتشار التعليم الذى استمر بالفعل فقد عانى نقص الاعتمادات التى رصدت له فظل عدد التلاميذ ينمو باكثر سرعة من عدد المدارس ٠

انه يستحيل على اغلبية من اصحاب الاملاك العقارية ، ومنهم 70 قد يملكون 200٠000 هكتار ، ان تتحرر من مصالحها ، التى لا تتميز فى نظرها عن مصالح البلاد ، ومن افكارها المسبقة التى تبدو لها حقائق ثابتة ٠ وهو ما تبين عند تنظيم الضمان الاجتماعى سنة 1949 حيث اكتسى مشروع المجلس الجزائرى المقيد الصبغة القانونية لان الحكومة الفرنسية لم تصادق عليه فى الاجال القانونية ٠ « فان المجلس الجزائرى ، الذى يبدو كثير الحساسية عندما يتعلق الامر بتعادل سعر المقمح او الخمر ، لم يظهر ازاء الجماهير الكادحة بهذه البلاد نفس الشعور بالمساواة الذى اظهره نحو المستغلين الفلاحيين » (46) ٠ ولم تتجاسر الاغلبية المناهضة لكل نظام للضمان الاجتماعى على رفض الاصلاح ، والتجات الى الامساك ، ولم يتخذ القرار النهائى الا بخمسة وخمسين صوتاً من مائة وعشرين مصوتا ٠ وكان المعمرون مثل ما كانوا فى عهد « موريس فيوليت » يفكرون لا « كفرنسيين من فرنسا » « بل كفرنسيين من الجزائر » ولا يريد المجلس ان يشتغل بالسياسة ، ومعنى ذلك انه لا

---

46) ـ جريدة « اوران ريبوبليكان » (وهران الجمهورى) غرة جويلية 1905 ٠

يشتغل الا بالسياسة التي تخدم مصالحه • ولا تستطيع المعارضة ان تسمع صوتها • ولاتقاء انتقاداتها تجرى اقتراعات لختم المناقشة او تحجر اذاعتها بالغاء نشرها بالجريدة الرسمية • وبلغتهم العنيفة المكيفة باتقان يسهل منتخبو حركة انتصار الحريات الديموقراطية غالبا مهمة خصومهم ، فيتحصل هؤلاء على تسليط الرقابة على تدخلاتهم او حتى على طردهم من قاعة الجلسات

الجبهة الجزائرية

لقد الف كل من الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائر وحركة انتصار الحريات الديموقراطية والحزب الشيوعي الجزائري والعلماء يوم 5 اوت 1951 « جبهة جزائرية في سبيل الدفاع عن الحرية واحترامها » قصد مقاومة الضغط الاداري مقاومة اجدى وتبليغ صوتها بمزيد من القوة ، والغاية من هذه الجبهة تنسيق العمل بين المنظمات والشخصيات التقدمية (47) ولانه لم يعد كل من العلماء والاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري يتماسك عن الاستجابة الى نداء نواقيس الجبهة المشتركة ، وكل شيء يبعدهما عن الشيوعيين ، فذلك يدل على ان الحالة بدت لهما ميئوسا منها •ولم يرد المعمرون الكبار ان يروا في هذا التقارب سوى « جبهة الانخرام والمعاداة لفرنسا » (48) • فوجهوا نداء اليقظة « انصار النظام والسيادة القومية الفرنسية مهما كان الدين الذي ينتمون اليه « ليقاوموا لا فقط » التعصب الجماعي الشيوعي » بل « والتعصب الاسلامي » الذي يجب دائما ان تخشى يقظته •

واظهر المتحررون اكثر اتزانا • فقد اشار « جاك شوفاليي » الى خطورة انضمام العلماء والاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري الى جبهة مشتركة بعد ان رفضوا ذلك منذ خمس سنوات ، وقال : « ان مجرد مقتضيات خطة خطرة ، ولكنها ربما اكثر ربحا ، استطاعت ان تحمل الاحزاب الاسلامية على محاولة الاتحاد على شكل من سياسة اليأس والقنوط ، وان ترغمها على المجازفة بنفسها في مبادرة يائسة » (49) يكون الحزب الشيوعي المستفيد

47) ــ نص النداء يوجد بجريدة « الجي ريبوبليكان » (مدينة الجزائر الجمهورية) ، 27 جويلية 1951 •

48) ــ عنوان مقال جريدة « لاديبش كوتيديان » (الجريدة اليومية) 7 افريل 1951 •

49) ــ جريدة « ايكو دالجي » (صدى مدينة الجزائر) ، 4 اوت 1951 •

الوحيد منها • وصرحت شخصية اخرى من الكتلة المشتركة اعتادت مقاومة الادارة ، وهي « لاكيار » ، رئيس المجلس الجزائري حاليا ، فقالت : « ان المسؤولية في مثل هذه العقلية تعود لجانب كبير الى ما اظهرته الادارة من عدم الادراك الفادح للوضع الجزائري الحقيقي (50) •

وكان الخطر دون ما كان يبدو لان التعاون بين الكتل الاربعة كان بطبيعته مستحيلا • وكان الحزب الشيوعي لا يرى فيه من المزايا غير جر الجماهير الاسلامية الى مناهضة سياسة الحكومة الامبريالية والقواعد الامريكية بافريقيا الشمالية • ولم يلبث الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري ان ادرك انه يوشك ان يصلح كاداة لعمل ليس هو بعمله ، فلازم جانب التحفظ والحذر •

تنافس المصاليين والشيوعيين

لقد لعبت حركة انتصار الحريات الديموقراطية ورقة العمل السرى المحبب للجماهير والتي كان لعبها حزب الشعب الجزائري ، وعمل على الحط من اعتبار الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري الذى اخفقت سياسته من اجل الحوار ، وهو ما لا يترك الباب مفتوحا الا للعمل المباشر • وعوضا ان يحصر جهوده مثل منافسه « البيان » في النطاق الجزائري اقام عمله على « الملابسات الخارجية » • وقد وجه مصالي « نداء الى الامم المتحدة » اثناء دورة الجمعية العامة المنعقدة بباريس في سبتمبر 1948 ، كان كله محشوا بفقرات « لفرانكلان روزفلت » و « سمنر والس » و « كوردال هول » « ووندال ولكي » وسعى « الانتصار » في اقناع اليساريين من حزب العمال اثناء مؤتمر الشعوب ضد الامبريالية المنعقد بلندن بانه يطمح الى اقرار ديموقراطية حقة • وشارك في مؤتمر السلم بمدينة « فروكلو » Wroclaw واستغل بسياسة الحزب الشيوعي المناهضة للاستعمار وسياسة البنديت « نهرو » المناهضة للاستعمار في مؤتمر « نيودلهي » • وهو يريد ان يكون حاضرا في آن واحد « بلندن وموسكو » ، ولكن خاصة بباريس •

وحظرت الاقامة العامة على مصالي الحاج بالجزائر ، ونقل الى فرنسا يوم 14 ماي 1952 على اثر مظاهرة عنيفة تسبب فيها قدومه الى اورليونفيل (Orléansville)

---

(50) — جريدة « ليكو دالجي » ، 4 اوت 1951 •

(51) . فصار منعزلا بمدينة « نيـور » (Niort) ، وابتعد الرئيس الشرفى عن حقل عمله الاستعمارى . وفى الحقيقة كانت الجزائر تهمه خاصة كعنصر من عناصر الكتلة العربية الموحـدة التى بقى مصمما على الاخلاص اليها . فكل ما يجرى بايران ومصر وتونس والمغرب يستترعى اهتمامه . ويزيد على الاتحاد الديموقراطى للبيان الجزائرى بانه يضع حركات التحرر البروليتارى فى المرتبـة الاولى ، ويعتمد علـى معونـة « العملـة المثقفين والبدويين » الذيـن كـانت الحركـة على اتصـال بهـم فـى فرنسـا والجزائـر لكنه لما يتجه الى القراء الفرنسيين يعرف كيف يلتزم لهجة معتدلة ويخفـى جوهر رغباته ولا ينطق حتى بكلمة الاسلام بينما ترتكز حركته على المجموعة الاسلامية المقامة على الايمان المشترك ، كما هو لا ينفك يردده عندما يخاطب ابناء دينه . بل يذكر بالعكس المجموعة السكنية وثروة الارض وحتى « المراكز الستراتيجية الطبيعية » (52) .

وكان كل من انتصار الحريـات الديموقراطيـة والحزب الشيوعى الفرنسى يرقب الواحد الآخر بغيرة بالرغم عن عملهما المشترك غالبا . وقـد ابتهـج المصاليون فى معامل « رونو » (Renault) فى جوان 1952 بطرد ادارة المعامل لثلاثة مناضلين نقابيين شيوعيين ينتمون الى الجامعة العامة للشغـل (C. G. T.) وهم يعتبرونهم اعداء لحزبهم . ولم يظهروا اى الدفاع لاستثمار مصرع احد ابناء افريقيا الشمالية الذى قتله رصاص الفرق الجمهورية الخاصة (C. R. S.) استثمـارا مشتركـا ، وخاصـة للاشتـراك فى المظاهـرات مـن اجل اطلاق سراح « جاك ديكلو » . ويلاحظ الشيوعيون الجزائريون ببرودتهم فى المشاركة فى حملة ضد القواعد الاجنبية بافريقيا الشمالية . ويخشون ان تصرف دعاية « الانتصار » البروليتاريا الجزائرية عن الكفاح ضد الامبريالية الاطلسية ولفائدة السلم الى حد انهم درسوا امكانية تمتع مناضليهم بالانتماء المزدوج الذى يمكنهم من الاندساس فى الحزب المنافس .

وكان على الحزب الشيوعى بالجزائر مثل اخيه بفرنسا ان يوفر نوعيـة المناضلين اكثر من عدد المنخرطين . ولاحظ ان مواصلة سياسة وطنية واسلامية

---

51) ــ حاليا : الاصنام . (ملحوظة للمترجم) .

52) ــ فى الاستجـواب الالموذجى الذى خص بـه « بيار بيزالجى » لجريدة « لوبسارفاتـور » (الرقيب) فى 11 سبتمبر 1952 ، لبحث عبثا عن اشارة الى الدين الاسلامى . وخطيئة هذا الاستجواب كله فى التعريفى .

على الصعيد المحلي لم تسفر له الا عن نتائج ضعيفة ، فراى من الانجح ان « يفكر على المستوى العالمي ولا على المستوى الجزائري » بدون اعتبار من المستفيد المباشر من النشاطات المختلفة التي قد تفرض نفسها وقد كشفت التحقيقات التي اجريت في صفوف الجامعة العامة للشغل (C. G. T.) عن الاهتمام القليل الذي توليه الطبقة الشغيلة الفرنسية مشاكل افريقيا الشمالية • ففي الجزائر فقط يمكن اذن تنظيم تشويش ناجع باكساب مناضلي ما وراء البحر روحا كفاحية مماثلة للروح الكفاحية المتوفرة في الحزب الشيوعي الفرنسي ، وخاصة في الاحياء الاسلامية بمدينة الجزائر • وان خشي الحزب مزاحمة « الانتصار » فلم يكن يرى خطرا يتاتى من « البيان » •

« العمل المسير » عند الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري

ليس الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري من انصار العمل المباشر ، بل هو من انصار « العمل المسير » (53) وبالرغم عن حداثة تجربته السياسية فهو يحاول ان يطابق بين دعاية مذهبية في سبيل جمهورية جزائرية ورغائب عاجلة ترمي الى ان تستخرج من قانون 1947 كل الانجازات التقدمية التي يتضمنها • فقبول حل وسط لا يعني التخلي عن الغاية المنشودة وليس من باب التلاعب ان يطالب المرء في آن واحد بهذا وذاك ، فالاحزاب الماركسية لم تتخل عن املها الثوري في كفاحها من اجل اصلاحات عاجلة •

ويبدو ان « البيان » كان من بين جميع الاحزاب الوطنية الحزب الذي كان الحوار معه ايسر مما كان مع غيره ، لانه يفكر في المشاكل السياسية على صعيد لا ديني ومحلي بقدر ما كان الاسلام يسمح بذلك بالرغم عن ان انصاره مسلمون وهو مضطر لمخاطبتهم بلغة حضارتهم التي اساسها ديني • ومن المؤكد ان سياسة تقدمية واضحة تشتمل في آن واحد على مراحل في الاصلاحات وعلى ضمانات للسكان الفرنسيين كانت تستميله بينما لا تستفيد من الاساليب الادارية الا العناصر المتطرفة •

---

53) ـ « فرانسيس جانسون » ، « هذه الجزائر » ص 353 •

خطر التصرفات الاستعمارية

لقد دخلت الجزائر من جديد في عهد « استعماري » • وقد افضت تجربة القانون الاساسي الى نتائج معاكسة لنوايا المشرع ، وكانت تكون مثمرة • ويواصل المجلس الجزائري انحرافات الهيئات النيابية المالية القديمة بوسائل مضاعفة ، فيستعمل صلاحياته ليحد من المنافع الاجتماعية الممنوحة للاهالى • وتمارس الادارة سلطة هي عمليا بدون مراقبة بمساعدة شرطة يقظة وخلاقة وتعاقب المشبوه فيهم بدون رافة • وهي بفعلها هذا تعزز جانب الوطنية في حين انها تتبجح بمضايقتها • وتنمو النزعة الاستقلالية الجزائرية بدون عراقيل رسمية لفائدة الفرنسيين غير المسلمين الذين يؤمنون دائما بنجاعة القوة • واننا بسد طرق الشرعية العادية في وجه مجموعة تعد ثمانية ملايين نسمة نوشك ان نرميها في احضان الخصوم العلنيين للوجود الفرنسي الذين يطمحون الى تسوية المشكل الجزائري بالعنف •

الباب التاسع

أزمة المغرب الأقصى



مقابلة انفا

كان المغرب الاقصى عند نزول الاميركان يوم 8 نوفمبر 1942 قد اجتاز فترة الحرب دون ان تجد به اضطرابات • وقد تاثر قسم كبير من الراي العام حتى الاهالي بالماريشال مثلما كان الامر في سائر اقطار المغرب • ولم يكن عمل الالمان خاليا من التاثير ففي حين كان مستشار السفارة « اوير » يحصي موارد البلاد الاقتصادية شرع « لانقنهايم » الخبير الممتاز باللغة والعادات الاهلية في دعاية ناجعة ضد السيطرة الفرنسية • وليس معنى ذلك ان المغاربة كانوا يميلون من قريب او من بعيد الى انتصاب نظام هتلرى ، بل ان املهم في زحزحة نظام الحماية كان يقربهم من اى انسان يشهر بعيوبه • فزعزع نجاح الامير كان رصيد المانيا وجدد الثقة فيهم • الم تظهر الولايات المتحدة عطفها على الريفيين عند مقاومتهم لفرنسا ولاسبانيا ، وكذلك على الاثيوبيين عندما هاجمتهم ايطاليا ؟ والمعروف انها انتصبت منذ حرب الاستقلال كمناهضة للنظم الاستعمارية وان الميثاق الاطلسي الممضى بالارض الجديدة (Terre Neuve) يوم 14 افريل 1941 يوحي منها قد اعترف « بحق جميع الشعوب في اختيار شكل الحكم الذى تريد ان تعيش تحته » • وقد جرى ظن بان الجنود يحملون معهم الاستقلال والغنى •

ولم يلبث السلطان سيدى محمد بن يوسف ان تبرا من العمل الغامض الذى كان يقوم به الجنرال « نوقاس » ، واعلن تضامنه مع الاميركان • ولاول مرة استطاع ان يتحادث مع رئيس دولة اجنبية هو الرئيس « روزفلت » بانفا في جوان 1943 بدون مراقبة الادارة الفرنسية • وقد حصلت « لروزفلت » انطباعات سيئة عن موقف المقيم العام ، ولم تبد له وساطته ضرورية بالرغم عن معاهدة فاس • وبالعكس اظهر عناية كبيرة بالملك الشاب ، واستفسر عن حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، ووعد بانه سيعمل شخصيا على الاسراع باستقلال المغرب الاقصى عند انتهاء الحرب • واكد نواياه التى كانت عالقة بذهنه الى الملك سعود بعد بضعة اشهر • وقد حملت مثل هذه الوعود المتكررة

من قبل اقوى الحلفاء النخبة المغربية على الاعتقاد بانها قربت من الهدف ، ولذلك إعتبرت وفاة « روزفلت » في افريل 1945 قبيل مؤتمر سان فرانسيسكو بمثابة حداد قومي •

اتباع « فيشي » و « دي قول » ضد رغائب الاهالي

وفي الاثناء انقلب الجمهور الى عاصفة • فقدوم الامريكان لم يغير المشاعر الموالية لفيشي عند الجالية الفرنسية وخاصة في الادارة التي بقيت ملوثة بموالاتها للماريشال • والمظاهر وحدها تدل على ذلك : فقد اقتبل احد اصدقائنا ببيت موظف سام بالرباط ، فلاحظ : « من ناحية الزخرف : نصفية لبيتان من الجبس ونقيشة « لبيتان » كتب عليها : الشغل ـ العائلة ـ الوطن • وصورة لبيتان • وصورة لليوتي • وفي قاعة الانتظار : صورة لبيتان من الحجم الكبير • وبالبهو كلمة لجيرو : هدف واحد : الانتصار • ولاحظ : ما عدا في ما يتعلق « بليوتي » ـ وهو موجود بكل مكان في المغرب الاقصى ـ فان تعليق الصور ينم عن العقلية السائدة : اربع صور « لبيتان » مقابل صورة واحدة « لجيرو » .(1) وشتت بقساوة المظاهرات التي نظمت يوم 28 مارس 1943 احتفالا بالرجوع الى الشرعية • وفي مراكش لم يراع جانب حتى قدماء المحاربين • واستمرت عناصر SOL و P. P. F. في احتلال الصدارة • ولم ينس هؤلاء شيئا ، ولم يتعلموا شيئا ، وكانوا عاجزين عن تصور سياسة اخرى غير سياسة الاستبداد • فهل كان يجوز ان ننتظر شيئا احسن من ذلك من اتباع « دي قول » بلى ، من الناحية النظرية ، ولكن الشيء القليل في الواقع • ذلك ان الدفاع عن تراث فرنسا واستقلالها ضد اطماع وورطات الحلفاء ادت بهم الى اعتبار كل تنازل لفائدة الاهالي عملا صادرا عن ضعف وتنهار به هيبة الدولة الحامية • فتشددوا في تصلبهم وتركوا الفرص المناسبة تمر ، وظهروا في نظر المغاربة متعصبين مثل اسلافهم •

1) ـ « سوستال » ، رغم كل شيء المجلد الثاني ، ص 211 .

لم يكن تعيين « قبريال بيو » كمندوب ـ مقيم عام لفرنسا بالمغرب الاقصى يوم 5 جوان 1943 ليبسر الاتصالات . وكان يشغل منصب مندوب سام بدول المشرق من جانفي 1939 الى نوفمبر 1940 ، فسجل له بسوريا ، حل مجلس النواب وتعطيل العمل بالدستور وتعيين مجلس لمديرين غير سياسيين يحكمون تحت قيادته بواسطة المراسيم ، وسجل له بلبنان حل مجلس النواب واقالة الوزارة بالقوة وتعطيل العمل بالدستور واستيلاء كاتب دولة على الادارة كان مسؤولا مباشرة امام رئيس الجمهورية وفي الواقع امامه . ولم تترك تصريحاته العمومية باذهان الوطنيين السوريين اى شك في تصوراته لحفظ النظام . وكان كاتبا عاما للحكومة التونسية من سنة 1919 الى سنة 1922، فاقترح على المقيم العام تدابير جذرية ضد الناصر باى ، ووافق منذ شهر على خلع المنصف باى . وكان يعتبر مهمة المقيم العام بمثابة ولاية على النمط الروماني ، لا تتحمل تدخل الدولة التي منحتها ، خاصة انها مقامة على مقتضيات ديموقراطية . وقد قال : « انى اتكلم عن تجربة مهنية . فافدح الصعوبات التي يتعرض اليها الوالى هي التي تتسبب له فيها الايديولوجيات الحزبية في الدولة الام والمكائد المحبوكة في الاروقة . لكن هذا بطبيعة الحال راى مجرد رجل ذى خبرة ، ولابد ان ينازع فيه « الافارقة القابعون في بيوتهم » المستعدون دائما لمواجهة دروس التجربة بالمبادىء التي لا سبيل الى النيل منها » (2) . وهذا هو الموقف الثابت لرجال المستعمرات الذين « يعملون » ضد ابناء الدولة الام الذين « يحلمون » . وكانت العقلية المحافظة التي تسيطر على هذا البرجوازى البروتستانتي الا وهو « قبريال بيو » تحجر عليه تفهم الرغائب الوطنية والشعبية بالرغم عن ذكائه وثقافته . وكان حزب الاستقلال بالنسبة اليه مثل الحزب الدستوري الجديد تماما لا يطمح سوى الى « اعادة الخلافة في مجدها الكامل الى ما كانت عليه في القرنين السابع والثامن وجعل السلطان والباى لا مشاركين لفرنسا بل عضوين نشيطين في الجامعة العربية » .

كان لا يعرف المغرب الاقصى ، فراى فيه نوعا من المستودع للعظمة

(2) ـ « لوموند » ، 15 مارس 1952 .

الفرنسية (3) له « قيمة استثنائية من حيث المكانة التي يمكن لفرنسا وينبغي لها ان تحتلها في العالم » • وللدولة الحامية المبادرة بالاصلاحات طبقا لمعاهدة فاس • وهي « سخية ومتحررة » • ولكنها « حارسة للنظام العمومي » ، فلا « تستطيع ان تتحمل بعض النداءات ذات مظهر ثوري ربما كان مبالغا فيه ، ومن شانها ان تحدث حالة عصبية مكروهة في العقول ، وعليها ان تؤكد للسلطان » أن الاستقلال ليس هو مفهوما يتماشى مع التعهدات » (4) التي قطعتها الاسرة الشريفية على نفسها • وكان ذلك بالضبط نظام الاستبـداد الابوي ، رجع اليه بدون اعتبار للتحولات العميقة التي دخلت على العالـم الاســلامي •

الاخطــاء الامريكيــة

لقد بعث الحضور الامريكي الحماس في الحركة الوطنية • فالعتاد الالماني انتصر على فرنسا مثلما انتصر العتاد الفرنسي على المغرب الاقصى وسينتصر العتاد الامريكي على المانيا • ويكفي المغرب ان يظفر غدا بالاجهزة اللازمة حتى تزول حالة الدون التي هو فيها ويبرز كامة مستقلة • ولم تكن الدولة الحامية محل مجرد شكر وامتنان اثناء المقابلات التي دارت بين النخبة المغربية والضباط الامريكيين، ولذا بذلت السلط الفرنسية قصارى الجهد للحيلولة دون الاتصالات « وآل الامر بالقيادة الفرنسية بمراكش الى انها طلبت من الامريكان الا يتحادثوا مع باشا المكان بدون واسطة مترجم فرنسي رسمي (5) • وكان المسؤولون الامريكيون عرضة لضغط قوي جدا قصد اقناعهم بان جميع الوطنيين ناصروا المحور • من ذلك ان الحماية استغلت الى النهاية في ربيع 1943 ما ظهر عن عدد من المغاربة من المنطقـة الفرنسية عندما كانوا يتبادلون الرسائـل مع ابراهيم الوزاني الذي آزر نشاط الالمان بالمنطقة الاسبانية عن طريق مكتبة للدفاع الوطني ، حتى ان الحلفاء كانوا يخشون هجوما جانبيا على قوات الاحتلال• وعاد من تونس جنود امريكيون مؤكدين ميول التونسيين للالمان ، فاشتدت ريبة الضباط الامريكيين الذين افضى بهم الامر الى الاعتقاد بان مجموع المغاربة فضلا عن الوطنيين كانوا يرغبون في انتصار الالمان • وقل منهم من ادرك ان

---

3) ــ ندوة صحفية لقبريال بيو ، باريس ، 23 ديسمبر 1944 ، ص 3 •

4) ــ نفس المرجع ، ص 3 •

5) ــ د ف • ب • كلاين » ، الوطنية ، ص 25

عداوة المغاربة للسيطرة الفرنسية كانت تجعلهم على التوالى موالين للالمان ثم موالين للاميركان ، وهم باقون مع ذلك فى انسجام مع انفسهم (6) .

مولد حزب الاستقلال

كانت خيبة ظن الوطنيين عميقة . فقد مر عام على نزول الاميركان دون ان يتم اعداد مخطط للاصلاحات . واعترف الجنرال « كاترو » بذلك قائلا : « انى آسف ان لم يكن هنالك ما يغير بصورة ملموسة نظام الحماية السابق على الصعيد السياسى » (7) . والحال ان الوضع الدولى كان لفائدة الرغائب الوطنية . ففرنسا حاولت استعمال القوة ضد الحكومة اللبنانية يوم 10 نوفمبر 1943 عندما القت القبض على رئيس الجمهورية ، فكانت العاقبة وخيمة عليها . واكد كل من لبنان وسوريا عزمهما على التخلص من الانتداب بمساندة إنكلترا والولايات المتحدة . ودعت مصر الجمهوريتين الفتيتين الى المشاركة فى حركة الجامعة العربية . . وكان لهذه الاحداث وقع عميق فى المغرب الاقصى . . وقرر الوطنيون تولى قضيتهم بانفسهم مثل ما فعل اللبنانيون والسوريون . وفى ديسمبر 1943 اسفرت مداولاتهم على تكوين حزب الاستقلال .

وقد جمع الحزب الجديد اعضاء الحزب القومى القديم المؤسس فى افريل 1937 والمؤلف فى معظمه من المثقفين والتجار مع بعض اصحاب الصناعات التقليدية والعمال والفلاحين ، والممثلين الاكفاء لجمعيات قدماء التلامذة بفاس والرباط وسلا ومراكش وازرو ووجدة وصافى ومكناس ، واعضاء بارزين فى الحركة الوطنية التى يتزعمها الوزانى ، وشخصيات لامعة فى المجتمع المغربى من تجار وموظفين سامين وقضاة واساتذة ومعلمين . وكان مجلسه الاعلى يضم عمر عبد الجليل وهو « مهندس فلاحى وكيل ضيعة فلاحية ببولحوت » ، ومحمد (بالفتح) الزغارى « رئيس جمعية قدماء تلامذة مدرسة مولاى ادريس بفاس وعضو مجلس الحكومة ولجنة الميزانية بفاس » ، ومحمد غازى « مدير مجلة « رسالة المغرب » .

وفى 11 جانفى 1944 ابلغ الحزب السلطان والمقيم العام وممثلى الدول الحليفة بيانا امضته ثمان وخمسون شخصية . وهو نص مقتضب يذكر بان المغرب

6) — « كلاين » ، نفس المرجع ، ص 25 .

7) — « كاترو » ، المعركة ، ص 438 .

الاقصى كان « دائما يكون دولة حرة ذات سيادة » احلت الحماية محلها نظام ادارة مباشرة استبدادية لفائدة الجالية الفرنسية التى استولت على « جميع مقاليد الحكم » وعلى « موارد البلاد الحية على حساب الاهالى • وكانت مساهمة الجيوش المغربية فى حرب التحرير والتحولات الجارية فى العالم والتعهدات التي قطعها الحلفاء على انفسهم فى الميثاق الاطلسى باعثا لحزب الاستقلال على ان « يطلب استقلال المغرب الاقصى بكامل ترابه تحت رعاية صاحب الجلالة سيدى محمد بن يوسف اعزه الله » ، وان يلتمس من السلطان اقرار « نظام ديموقراطى يماثل نظام الحكم الجارى به العمل فى بلدان الاسلام بالمشرق ، ويضمن حقوق جميع العناصر وجميع طبقات المجتمع المغربى ويحدد واجبات كل واحد » (8) •

وجاء فى رسالة توضيح وجهها الامين العام احمد بلافريج الى الملك يوم 18 جانفي بمناسبة المفاوضات الجارية بين الوزراء المغاربة وممثل حزب الاستقلال انه لا سبيل الى اي اصلاح ما دامت « السيادة مشتركة بين المغرب وفرنسا » ، وانه ليس فى نية الحزب ان يطلب « اقرارا عاجلا لنظام مغربى مماثل لنظام البلدان الغربية الكبرى » ، بل يطلب اقرارا عاجلا « لنظام ينمو تدريجيا ويمتد الى جميع فروع الدولة » ، ومن المفروغ منه ان الدولة المغربية لن تستغنى عن مساعدة الفرنسيين الذين ستصان مصالحهم (9) •

8) الهيئة الفرنسية للتحرير الوطنى - استعمارية واستبدادية

كانت الاقامة العامة تظن ان الوطنين سيقتصرون على « عرض برامج اصلاحات » ، ففوجئت « بوجود عريضة تطالب باستقلال المغرب الاقصى » (10) • وازدادت المسالة خطورة بقدر ما كان الملك على علم بالاخذ والرد الجارى بين الوزراء وقادة حزب الاستقلال والذى ما كان يتم بدون موافقته • فرات الهيئة الفرنسية للتحرير الوطنيضرورة ارسال مندوبها للشؤون الخارجية « رونى

8) - النص والامضاءات فى نشرية لحزب الاستقلال من سلسلة « وثائق » 1944 - 1946 ، ص 1 - 4 •

9) - النص فى « وثائق » ، 5 - 6 •

10) - « ق • بير » ، ندوة صحفية بتاريخ 23 ديسمبر 1944 ، ص : 2 •

ماسيقلي » الى الرباط، فتوجه الى السلطان يوم 28 جانفي بخطاب قوي اللهجة، يذكره فيه بأن الفضل في وحدة المملكة الشريفية يعود الى فرنسا وبان المغرب اذ يقدم مساعدته العسكرية فهو يرجع « الى فرنسا ما كانت اعطته اياه » وبان الاصلاحات الضرورية « سواء في الميدان الاداري او الاقتصادي والاجتماعي » ينبغي « ملاءمتها مع الدولة ومع تقاليد البلاد وحاجياتها » (II) . ولم يرفض الجنرال « دي قول » فقط كل احتمال للاستقلال مؤكدا عن طريق مبعوثه ان المغرب مرتبط بفرنسا ارتباطا لا ينفصم ، بل انه ليس ثمة نية في اصلاحات سياسية اذ ان معاهدة الحماية ضبطت نهائيا وضع المغرب الاقصى القانوني . واقتصر السلطان على ان يتمنى بكل احتشام ان تبذل جهود من اجل تطور ثقافي واجتماعي تمكن رعاياه من تبوء «الحياة العصرية» . واضطر اثناء مقابلة مع « قبريال بيو » لمخاطبة وزرائه بقوله : « يجب ان تزول كلمة الاستقلال من القلوب والافواه » ، وطلب استقالة وزير العدل ومندوب التعليم العمومي ، وكانا مورطين بوجه خاص .

ومن الغد 29 جانفي كانت الفرصة سانحة لالصاق تهمة الاتصال بالعدو باحمد بلافريج ومحمد اليزيدي وعدد من الشخصيات المغربية الاخرى ، والقي عليهم القبض . وقد منعت الرقابة الى ذلك الحين كل اشارة الى حزب الاستقلال ورغباته سواء بالصحافة او بالاذاعة ، لكنها لم تتوفق الى منع خبر الاعتقالات من الانتشار في الحين بارجاء البلاد واثارة ردود فعل شعبية عارمة لم تكن اهميتها متوقعة . فقد اجتمع بالرباط آلاف المتظاهرين في ساحة المشور بقرب القصر الملكي وحاصروا مكتب الوزير الاكبر ، ثم انتشروا في المدينة صارخين ضد الفرنسيين . فاصطدموا اصطداما عنيفا بفرقة من اعوان الجندرمة وجند فيلق «لوكلار» الذين ارسلهم الجنرال «دي قول» ولم تستطع وحدات مصفحة وفرق من « القوم » دفعهم الى داخل المدينة القديمة الا آخر النهار . وقد قتل الجمهور في طريقه عونا على دراجته النارية ومدنيين اثنين . وكان لاعوان الامن اثنا عشر جريحا . ومات من المغاربة سبعة وجرح ستون، ويضاف اليهم القتلى والجرحى الذين حملوا الى داخل المدينة ولم يتيسر تعدادهم . وبسلا انطلق الهيجان بقوة مماثلة . وجرى بالدار البيضاء عرض هائل للمصفحات والمدفعية ، مما حد من الاصطدامات . وكانت ردود الفعل بفاس اعمق من غيرها ، خاصة بين 31 جانفي و 3 فيفري . ولم يعد الهدوء الا

(11) ـ نص خطاب « ماسيقلي » ورد السلطان نشرهما « تايار » ، في « الوطنية » ، ص 24 ـ ص 27 .

يوم 10 • وقد اضطرت السلط لقطع التيار الكهربائي في الساعة السابعة مساء وحظر الجولان وتحويل مجرى الماء المزود للمدينة • واسقط السنغاليون 30 مغربيا على اقل تقدير وذكر حزب الاستقلال 65 ، واعتقلت عدة آلاف بمحتشد قرب افران • وفي مراكش لعب القلاوى على حبلين ، وقد لقبه الوطنيون « بالوطني الديبلوماسي » •

تصفية الحركة الوطنية

لقد بين انتشار الهيجان ان الجماهير الشعبية شاعرة بتضامنها مع البرجوازية الوطنية • وكان آلاف الفلاحين يقاسون الجفاف ويشكون المجاعة ، فانتشروا في مراكش وفاس والدار البيضاء ، حيث اقتضى الامر ان تتخذ تدابير صارمة لتقسيط التموين • وتاليف جيش من الجياع كان فيه الريفيون والحضريون البؤساء يسيرون جنبا الى جنب • وقد وضع نفسه في تصرف حزب الاستقلال الذى لم يكن قادرا لا على تنظيمه ولا على استعماله بنجاعة • واكد بعض الملاحظين ان الفرنسيين حرضوا عمدا على المشاجرة للقضاء على الحركة في المهد • « وبالفعل كانت هناك ادلة على ان اعوانا فرنسيين اكدوا للقادة الوطنيين بفاس ان الساعة الاستراتيجية قد حانت للاصداع بحقوقهم » (12) • والارجح على ما يبدو ان القاء القبض على « المسيرين » كان يستجيب الى طبع الجنرال «دى قول» الذى كان جرب ذلك ببيروت بنجاح محدود، والى تصورات «قبريال بيو » لنظام الحماية • ومهما كان من امر فان السلط اغتنمتها فرصة « لتصفية » الحركة الوطنية •

ففي غرة فبفرى اعتقلت السلط علماء وطلبة من جامعة القرويين والزعماء الوطنيين بالرباط وفاس الذين نسبت اليهم مسؤولية الهيجان • وتذمر حزب الاستقلال من اخذ عائلات الفارين كرهائن وضرب المعتقلين بالمدبوس والسوط وتركهم حقيقة في حالة « هياكل عظمية حية واشباح وجثث متحركة تسعل وتبصق وتئن وتنحب وتصرخ : الانتقام » (13) • واقصى القادة بطبيعة الحال : فابعد بلافريج الى كرسيكا ، واعتقل التاجر الفاسي احمد مكور عضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطني سابقا والشخصية البارزة ، ثم اطلق سراحه

---

(12) — « ف • ب • كلاين » • « الوطنية » ، ص 27 •

(13) — نص المناشير نشره « تايار » في كتابه « الوطنية » ، ص 34 — 37 •

فى خريف 1944 وحجر عليه الالتحاق بفاس . وسجن احد عشر وطنيا مدة عام ونصف قرب الجديدة . بيد ان عمر عبد الجليل بقى طليقا .

احتجاج الشيوعيين

كان الراى العام الفرنسى يتخوف دائما من الهيجان . فاظهر فى مجموعه تحبيذه لسياسة الحكومة الحازمة . وحتى الحزب الشيوعى فانه تذمر فى شهر فبفرى من ان السلطة اعوزتها الصرامة ضد المظاهرات التى تسببت فيها فى نظره « استفزازات فاشية هتلرية » . وقد اصبح فى جويلية 1943 حزبا مغربيا بقيادة « ليون سلطان » ثم خلفه على ياطا على اثر موته سنة 1945 ، وكان فرعا للحزب الشيوعى الفرنسى . وبعد الهيجان بشهر غير موقفه فجأة ليندد « بالاجراءات الهتلرية » التى سلطتها الاقامة العامة ويطالب « بعفو عام » . ووجه «جاك فريزا» نائب باريس بالمجلس الوطنى الفرنسى برقيات قوية اللهجة الى الجنرال « دى قول » و « ماسيقلى » و « رونى كابيتان » الذى كان اذذاك مندوبا للتربية الوطنية بالعاصمة الجزائرية للفت نظرهم خاصة الى القاء القبض الجماعى الذى اصاب تلامذة قسم الفلسفة بفاس وغلق ابواب معاهد التعليم . وفى 4 مارس 1944 طالبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المغربى المقيم « بالعفو العام لفائدة جميع المسلمين الموقوفين باستثناء المورطين مع الفاشية الهتلرية وعملائها الاميين » . لكن الشيوعيين ابوا ان ياخذوا على عاتقهم المطالبة بالاستقلال التى كانت تبدو لهم مضرة بالمجهود الحربى واكتفوا ببرنامج اصلاحى .

خيبة تامة للاقامة العامة

خرجت الاقامة العامة من المعركة منتصرة فى الظاهر ، لكن ثمن هذا الانتصار كان خيبة تامة على الصعيد السياسى . فقد اصبح المعتقلون ابطالا ، وانتشرت الوطنية بحماس انتشارا واسعا حتى فى الاوساط التى لم تكن تدركها الا قليلا ، وصارت مدن فاس والرباط وسلا معاقل لحزب الاستقلال . وتاثرت قبائل البربر ، وكانت تكفى مكالمة تلفونية لان تدخل مدرسة ازرو المعممة ، وهى التى جعلت لتقاوم التاثير الاسلامى . « وبينما فشل بيان جانفى فى جزء منه على الاقل بسبب عوامل الانقسام فى المجتمع المغربى التى شلت الحركة فى سبيل الوحدة السياسية ، اذا بالتضامن القومى يبرز فى نفس

الوقت في شكل رد فعل شعبي » (14) • والامر هو ابلغ من ذلك بكثير هو ان الشعور الوطني صار منذ ذلك الحين يستمد توجيهاته وقواه من قصر السلطان بالذات والسلط الفرنسية تفقد النفوذ على جانب كبير منه • فسياسة الحماية الاستبدادية على نحو ما اكده « قبريال بيو » بعثت الحماس في النزعة الموالية للمنصف باي بتونس التي اصبحت قوام الوطنية الدستورية، ونجحت بادى ذى بدء في اكساب الوطنية المغربية من الاتساع والوحدة والالهام ما سيطرح على سلط الحماية مشاكل عويصة •

1944 اصلاحات سنة

لقد الخضت المظاهرات بالمدن في الاقل الى لفت نظر الاقامة العامة الى ضرورة القيام باصلاحات • فتم يوم 16 مارس 1944 تاليف اربع لجان : لجنة الادارة العامة ، ولجنة التعليم ، واللجنة العدلية ، ولجنة الاقتصاد والمجتمع الفلاحي • ورسم لاشغالها هدف « الحاق المغرب تدريجيا بمؤسسات الدول العصرية » بفضل تكوين « نخبة قادرة على مواصلة هذا التطور » و « رفع مستوى العيش لجميع السكان وخاصة الفلاحين » (15) • وتقرر في الميدان الاداري ان التساوي في القيمة وفي الوطنية وفي المسؤولية يتبعه تساو في الاجر سواء كان صاحب المنصب مغربيا او فرنسيا • وعرضت لجنة التعليم مخططا لتعليم مائة الف تلميذ جديد في ظرف عشر سنوت وقبول الشبان المسلمين في المدارس الثانوية الفرنسية وتمكين الجميع من اعداد الباكالوريا الفرنسية بالمدارس الثانوية الفرنسية الاسلامية ومزيدا من المرونة في البرامج•

وتصادمت وجهات النظر الفرنسية والمغربية ضمن اللجنة العدلية • وقد رفض الاعضاء المسلمون وممثلو المخزن ان يسلموا من جهة بمنح المغربي امكانية الاحتكام الى المحاكم الفرنسية ، ومن جهة اخرى بفصل الوظائف الادارية عن وظيفة القضاء فصلا مطلقا طبقا للمبدا المغربي القاضي بفصل السلط • فاكتفي في هذا المضمار باجراءات حذرة ترمي الى تحقيق « استقلال القضاء واقرار المحاكم الجماعية » (16) • ولم يتناول الاصلاح الا القضاء المدني ولم

---

14) — « كلاين » • « الوطنية » ص 27 — 28 •

15) — جمعت جميع الوثائق الخاصة باشغالها وما آلت اليه في كراسة بعنوان « برنامج الاصلاحات • المغرب الاقصى سنة 1945 » •

16) — « لوبادار » ، « الاصلاح العدلي » • 1948 • ص 454 •

يعمل به الا في بعض المدن الكبرى وهي الرباط والدا رالبيضاء وفاس ومراكش ووجدة • وعوض الباشا المنفرد بالقضاء بمحكمة الباشا حيث اصبح لـه مساعدان • واحدثت محكمة جديدة تحت محكمة الباشا وهي محكمة المحلفين المعتمدين المختصة في النزاعات المتعلقة بمبالغ صغيرة • وباستثناء الباشا كان القضاة الآخرون من اصحاب المهنة مما يعد بداية للفصل بين الادارة والقضاء • واقتحم العمل الجماعي القضاء المدني بالرغم عن التقاليد الاسلامية • واخيرا اقرت الثروة العائلية الغير قابلة للحجز وقرر انجـاز اشغال كبـرى للـرى قصد استثمار عدد من الاراضي استثمارا جماعيا باشراف مجلس اعلى للمجتمع الفلاحي •

وكانت هذه الاصلاحات محل انتقادات شديدة من قبل حزب الاستقلال (17)، وقد اعتبرها « دواء لا فائدة فيه » • فاكد ان الاصلاح الاداري اهمية محدودة لانه لا ينطبق الا على الاطارات الخاصة الموازية للاطارات الفرنسية • فالتفاوت في مجال المنح باق ، ولم يقرر شيء فيما يتعلق بالادارة العامة وهي « عقدة الازمة الحالية » • وسيكون برنامج نشر التعليم متاخرا دائما عن نمو السكان ، و « هناك ما يدعو تماما الى الاعتقاد بان التقسيم بين العنصر المغربي والعنصر الفرنسي احتفظ به ان لم يكن قد تم تعزيزه في هيكل الاصلاحات الذي اقرته الاقامة العامة » • واهملت اللجنة العدلية جوهر الموضوع • فلم تفكر في شيء فعلي لتحرير مجلة قانونية • « وبقيت صلاحية الباشا والعامـل في الميدان الجزائي كاملة غير منقوصة ، وهي تمثل الجرح الحقيقي في النظام الحالي » اذ تمكن « قادة مغاربة صوريين اغلبهم اميون وجشعون » من « سلب رعاياهم بكل حرية » ومن الحكم بامر من السلط الفرنسية بدون توفير الضمانات للمتقاضين في مجال التحقيق والدفاع والطعن والنقض • واخيرا ان كـان اقرار عدم قبول الثروة العائلية للحجز داعيا للابتهاج فلن يحصل للفـلاح الفاقد للمساعدة الادبية والمادية الا النزر اليسير من تجربة ستشمل الفي هكتار تحت مراقبة مؤسسة ادارية ستعمل على شل الانجازات •

ان هذه الانتقادات متفاوتة القيمة • فالاحتفاظ بالتقسيم في ميدان التعليم هو محض افتراض • وكان المشروع الفلاحي يسفر عن شيء عظيم لو لم تعطل الادارة سيره بمجرد ما خشي المعمرون واصحاب الصناعات نجاحه • ولا جدال

---

(17) – مذكرة في موضوع الاصلاحات المغربية بتاريخ غرة ديسمبـر 1944 • في « وثـائـق » 1944 – 1946 ، ص 8 – 15 •

فى ان الاصلاح الادارى لم يتناول الجوهر ، على ان قوة تحليل حزب الاستقلال برزت فى الميدان العدلى • فالاحتفاظ بحقوق الباشوات فى المجال الجزائرى لم تفرضه التقاليد بل هى الادارة التى فرضته حتى يحكم على العناصر غير المرغوب فيها حيثما شاءت ومتى شاءت • وفى ذلك وسيلة للزجر السياسى لا لاقتصاص العدالة •

الملـك وحـزب الاستقـلال

لقد استمرت الحركة الوطنية بالرغم عن العقوبات المسلطة على الوطنيين • وبانت اتصالاتها بالملك اثناء جولة هذا الاخير بالجنوب خلال شهرى فيفرى ومارس 1945 • وقد استقبل الملك بمراكش بهتافات لها معناها :« يحيا الملك ، يحيى ولى العهد ، تحيا المملكة العلوية ، تحيا الامة » ، وبكتابات لا تقل عنها تعبيرا : « نريد ان نكون مغاربة مستقلين ، لا نريد حماية ، نحن ابناء الامة ، تحيا الامة المغربية ، المغرب يطالب بالاستقلال بارادة من الله » • ولم يكتف السلطان بعدم ابـداء اى احتجاج فحسب بـل صرح للوطنيين المراكشيين بقوله : « كونوا على يقين من ان كل ما يحزنكم يحزننى ايضا ، وكل مـا تبتغونه ابتغيه ايضا » ، وبشرهم « باحداث كبرى سيسعد بها بوجه خاص الاسلام والمغرب الاقصى » فى الايام القادمة • وكانت هذه التصريحات الآتية قبيل مؤتمر عين شمس تعبر عما كان المسلمون المغاربة يعلقونه من آمال على تكوين الوحدة العربية مثل مسلمى تونس والجزائر •

وواصل حزب الاستقلال دعايته بحماس وهو محروم من جديد من ابرز قادته • وباطلاق سراح 387 محكوما عليهم من الفاسيين فى جويلية 1944 استرد مناضلين حمستهم المحنة وكانوا مقتنعين بان الحكومة الفرنسية لم تتخذ تدابير العفو الا تحت الضغط الاميركى • وظل محمد اليزيدى منذ ان عاد الى نشاطه السياسى يسعى الى طرح المشكل المغربى على الصعيد الدولى • فوجه باسم حزب الاستقلال يوم 8 مارس 1945 مطلبا الى رئيس مؤتمر سان فرانسيسكو والى رؤساء حكومـات فرنسا والولايـات المتحدة وبريطانيـا والاتحاد السوفياتى والصين من اجل انخراط المغرب الاقصى فى منظمة الامم المتحدة (18) •

---

18) ـ النصوص توجد فى « وثائق » ، ص ص 16 ـ 22 •

وتتبع المغاربة باهتمام وحماس الاحداث التى ولدت فيها جامعة الدول العربية ، وكانت « لجنة الدفاع عن مصالح المغرب الاقصى » بالقاهرة تتمنى لو تمت مشاركة السلطان فيها بدعوة رسمية لم يكن في مقدور اى دولة عربية ان تفكر فيها • وانتظر عزام باشا يوم 14 اكتوبر ليطالب لتونس وللمغرب الاقصى « بحرية تقرير مصيرهما » و « بحق الالتحاق بالجامعة العربية وباجتياز مرحلة على هذا النحو تمهد لاستقلالهما التام » • وفي الواقع كان تاييد الدولتين الانكليزية والاميركية والدول العربية للمغاربة لا يذكر •

X وفي اكتوبر 1945 ادخلت تحويرات هامة على نظام حزب الاستقلال • فارتفع عدد اعضاء الهيئة المركزية من 12 الى 25 تساعدهم اربع لجان دراسية مكلفة بتسيير حياة الفروع والتنسيق بينها • ومنح الرئيس حرية تامة في تصرفه السياسي والمالي ما عدا الرجوع الى المكتب المركزي الذي كان مقره بفاس في طي السرية • وضبطت للمدن والارياف قواعد مماثلة تلائم الظروف المحلية • وكانت خلايا المدن تتركب من عشرة الى خمسة عشر اعضاء ، وهي تؤلف مجموعات تتكون من مجموعها الفروع الخاضعة الى هيئة جهوية • وفي الجبال كان شخص واحد يقوم بدور المكتب الجهوى ، ويبلغ تعليماته الى معتمدى الدعاية بواسطة امناء ، ولا يتعين دفع معلوم الانخراط الا على الاعضاء الموسرين • وفيما بعد احدث داخل البلاد نظام على اساس مهني • ففى خنيفرة مثلا انشئت ثلاثون او اربعون هيئة مهنية وضع « مسؤول » على راس كل واحدة منها • وبدا هذا النشاط في المدن ، واهم مراكزه الى الوقت الحاضر فاس وخاصة الدار البيضاء ، وامتد تدريجيا الى بلاد البربر عن طريق بوجاد وقصيباه تدلا ومنهما وصل من جهة الى بني ملال ومن جهة اخرى الى خنيفرة عن طريق قصيبة وزاوية الشيخ ثم الى الجبل في النهاية وصارت طنجة المكان المفضل للقاءات ومركز القيادة العامة لحزب الاستقلال لاسباب تمس بالامن وبقيت هكذا •]

وكانت العلاقات بين السلطان والمقيم العام بعيدة عن الصفاء والود • فالسلطان يؤاخذ المقيم بانه بسط من جديد سلطة دكتاتورية على المخزن • وكان باعتقالاته التعسفية للوطنيين المتسبب في اضطرابات جانفي 1944 التى تبعتها عقوبات لا رحمة فيها • وباتت الحكومة الفرنسية تدرك ان مهمة « قبريال بيو » باءت بالفشل •

اول اتفاق بين الفرنسيين والاستقلاليين

كانت هنالك شخصيات خارج وزارة الخارجية الفرنسية الواثقة دائما من عبقريتها واساليبها متبصرة بالمسائل الاسلامية ، وقد اقلقتها حدة الازمة المغربية التي تسبب فيها عقم الاصلاح الاداري • فسعى ثلاثة اساتذة ذوو نزعات مختلفة (19) وثلاثة ممثلين لحزب الاستقلال الى العثور على إتفاق حول تدابير عاجلة واسباب استئناف الحوار • وانتهوا الى تحرير نص بامضاء اربعة عشر شخصية لها مكانتها (20) ، وسلم يوم 13 فيفري 1946 الى ادارة افريقية والمشرق بوزارة الخارجية الفرنسية ، فتنازلت لقبوله بكبرياء الاخصائيين الممتازين تجاه عمل هواة • ويقر البيان بان نظام الحماية « لم يعد يستجيب الى الرغائب العميقة للشعب المغربي الذي يطمح الى تحرره السياسي طبقا للمبادىء التي اعلنت عنها منظمة الامم المتحدة • وان الازمة التي تزيد يوما بعد يوم في فقدان الثقة والعداوة بين الفرنسيين والمغاربة تستوجب مراجعة موقف فرنسا من المغرب » التي يجب أن يشرع فيها عاجلا حتى ينفرج الوضع بادخال اصلاحات اساسية : حرية الصحافة ، الحرية النقابية ، حرية الاجتماع بالنسبة للفرنسيين والمغاربة • وعندما تتوفر الثقة بهذه الصورة ، يتسنى عندئذ اجراء الاتصالات اللازمة لعمل مشترك يرمي الى اعداد النظم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بالمغرب وفقا للمبادىء الديموقراطية » •

مقيم عام ذو نظرة واسعة : « ايريك لابون »

واخيرا ادركت الحكومة الفرنسية ان عداوة الشعب المغربي لن تزول ما دام « قبريال بيو » في المغرب ، وهو ما صرح به السلطان اثناء زيارته الى باريس •

---

(19) — « جان دراش » وكان حينذاك استاذا بجامعة « سترازبور » ، (Strasbourg) وهو اليوم استاذ الجغرافيا الخاصة بافريقيا الشمالية بجامعة الصربون (Sorbonne) و « ش — أ • جوليان » وكان حينذاك استاذا بمدرسة فرنسا لما وراء البحار ، و « ج • سوفاجي » استاذ تاريخ العالم العربي بكوليج دى فرانس (Collège de France)

(20) — « قوستاف روسي » رئيس اكادمية باريس ، « روبار دي لافينيات » والي المستعمرات ، الاب « بيار شايي » مدير جريدة « تيموانياج كريتيان » ، الاسقف « اوجين بوبان » مدير جمعية « الصداقة الفرنسية بالخارج » ، الحاخام « موريس ليبار »، لوى ماسينيون » و «ج• سوفاجي» الاستاذان «بكوليج دي فرانس» «جان دوتي» متصرف مدرسة اللغات الشرقية، «روبار برانشفيق» الاستاذ بكلية الآداب ببوردو Bordeaux «ايفاريست ليفي بروفنسال » الاستاذ بجامعة السربون ، « ريجي بلاشار » الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية ، « جان دراش » ، « ش — أ — جوليان » ، « روجي لوتورنو » الملحق بمركز الدراسات الاسلامية العليا •

فعوضته فى مارس 1946 بالسفير « ايريك لابون » الذى قام اثناء اقامته بالرباط ككاتب عام للحكومة بمبادرات طيبة • وبقدر ما كان « قبريال بيو » متقيدا بنص المعاهـدات عاجـزا عن ملاءمة نزعته المحافظة مع المقتضيات الجديدة بقدر ما كان « ايريك لابون » يتناول بحث المشاكل بعقل متفتح للامور الجديدة معرضا عن الافكار المسبقة • وان كان اصدقاؤه وبعض اعضاده ، الذين كانوا معجبين به وينتظرون منه الشيء الكثير، ياسفون لان سار التحول الاقتصادى باكثر سرعة من الاصلاحات السياسية فربما لم يقدروا الصعوبات التى اصطدم بها سواء بباريس او بالمغرب الاقصى حق قدرها • وكانت اول بادرة له تتمثل فى قرار العفو • فقد فتح ابواب السجون وارجع المبعدين • وعاد السيد علال الفاسى من القابون Le Gabon الى فاس بعد غياب دام احدى عشر سنة • وتسني لصحافة المعارضة ان تعود الى البروز وابرز حذف ادارة الشؤون السياسية العزم على رد الفعل ضد عقلية « مكاتب الشؤون الاهليـة » وهى السبب الاصلى فى ركود المغرب الاقصى • وتلقى الاهالى هذه الاجراءات بارتياح بينما ثارت لها ثائرة المتفوقين الفرنسيين واخذت تشتد •

وبسط المقيم العام الجديد الافكار الرئيسية لبرنامجه الاصلاحى فى مجلس الحكومة المنعقد يوم 22 جويليـة 1946 (21) • فبعـد عرض مدقـق للاحـوال الاقتصادية اقر بان البلاد فى حاجة ملحة للاصلاحات العميقة التى يجب انجازها بعد استشارات واسعة فى نطاق الوضع القانوني المغربي الذى ضبطته النصوص• وقال : « المقصود هو منح الشعب المغربى بجميع فئاته ، فتيانا وفتيات ، هذا الشعور وهذا الاعتقاد بان الحياة بجميع اوجهها مفتوحة على مصراعيهـا لكده واظهار ذكائه وتمرين مواهبه» • وللطفولة الحق فى المعارف الاولية على الاقل • « فضد الجهالة يجب ان نشن كفاحا لا هوادة فيه وبكل حماس وبكل ضراوة يجب ان نقضى على الامية » • وبالاضافة الى المجهود المالى الذى يجب ان نبذله الى اقصى حدود ما تسمح الموارد ، ينبغى ان نستنجد بجميع الرجال والنساء من ذوى العزائم الصادقة كي يعلموا عشرات الآلاف مـن الاطفـال ذكورا واناثا بالفرنسية وبالعربية تطوعا منهم ومجانيا • وان احر امانينا هى ان يعلم غدا الآلاف مئات الآلاف الآخرين » • وستفتح المدارس المتنوعة للاطفال المحرزين لهذا التعليم الاولى ، وينبغى بالخصوص ان يعاد تنظيم التعليم الاسلامى

---

21) ـ نشرت النص كتابة الدولة الفرنسية للاعلام فى « مذكرات وثائقية ودراسات ، عـدد 357 ، سلسلة « تصرص ووثائق » ، عـدد 20 ، 20 صفحات •

حسب مقترحات اللجنة المختلطة الهامة التى فرغت منذ قليل من النظر فى المشكل • ويتبع التعليم بطبيعة الحال « الدخول فى معترك الحياة بجميع اوجهها » مع اتخاذ « التدابير المضبوطة حتى يكون هذا الدخول لجميع المهن مضمونا وفعليا » •

واستجابة لرغبات الشغالين الفرنسيين والمغاربة سيدعى اعوان التجارة وعملة المعامل للتمتع بالحقوق النقابية « بدون تمييز وفي جميع المستويات » لكنه ينبغي ان ننتظر تكوين اطارات فلاحية لان تشمل الفلاحين الذين لا تزال تعوزهم التجربة والمعلومات الضرورية • وستشرع الحكومة فى بداية اعمالها فى سياسة للاسكان لفائدة عمال المدن والارياف ، وهو عمل طويل النفس • وسيتم تشجيع القطاعات المغربية لتجديد المجتمع الفلاحي قصد الوصول الى « تعمير مغربى حقيقى » للاراضي البور والمهملة • وستقسم البلاد الى عشر جهات ، منتهيا بقطع النظر عن الاعتبارات العسكرية وتمكن من وضع نظام سياسي وادارى يستجيب الى تنوع مصالح المجموعات السكنية • وستكون بها مجالس جهوية تمارس صلاحيات محدودة ذات صبغة اجتماعية واقتصادية • وستنتصب بها خمسة عشر مجلسا بلديا تختلف من حيث وضعها القانونى بحسب الظروف المحلية • وينبغي ان يكون مجلس الحكومة مجلسا منفردا « يجلس فيه ممثلو مختلف العناصر بالبلاد معا » • واخيرا يجب الشروع فى تنقيح النظام العدلي قصد اقامة نظام جديد يرمي الى وضع حد للتعديات الصارخة التى سمح بها النظام القديم •

رفض الاروبيين للاصلاحات

لقد اثار هذا البرنامج معارضة الممثلين الفرنسيين للهياة الانتخابية الاولى (المعمرون) وللهياة الانتخابية الثانية (التجار واصحاب الصناعات) بمجلس الحكومة ، وكانوا مجمعين فى ذلك ما عدا الحجرة التجارية والصناعية بالرباط لان البرنامج كان يبدو فى نظرهم « معاكسا للمصالح الفرنسية » • واوقفت الهياتان تعاونهما مع الاقامة العامة • ولم تحتفظ بعلاقاتها معها سوى الهيئة الثالثة التي قررت ذلك بالاغلبية • وكانت الروح التى حدت بالتدابير المقترحة تصدم المتفوقين اكثر من التدابير نفسها • فلم يطلق « لابون » سراح الوطنيين فحسب بل قبل التحادث مع قادتهم • واخيرا كان ما اعلن عنه المقيم العام من عزم على الدفاع عن مصالح الدولة فى المؤسسات الاقتصادية الكبرى مثل شركة

مناجم الفحم بجرادة ، والطاقة الحرارية بافريقيا الشمالية ، وشركة الدراسات للفولاذ المغربي ، والشركة المنجمية المغربية للرصاص ، والشركة الفرنسية المغربية للملاحة ، والشركة الفرنسية المغربية للجو ، يتسم بالاشتراكية او براسمالية دولية لها عواقب وخيمة • وبالفعل ستحقق مراقبة الدولة او مشاركتها في كل مؤسسة • وقد صرح « لابون » بان الشان يدعو « الى ان يوجه الاقتصاد المغربي ، ويسير بقدر ما يقتضي الامر في المناهج التي تضمن سيره حسب المقاييس العلمية وتوظيف اليد العاملة توظيفا كاملا وتطورا رائده الشغل الشاغل بالتضامن الاجتماعي ورفع مستوى الحياة لشعب باسره » • فوقفت القوى المالية وقفة واحدة باسم التحررية ضد تصورات كافرة الى هذا الحد • وقرر المتفوقون ابتداء من جويلية 1946 اسقاط المقيم الذي تجاسر على النيل من امتيازاتهم ولو القليل منها •

« والخلاصة ان المستغلين الفلاحين بالبادية واصحاب الصناعات بالمدن يريدون ان تستمر حياتهم في الظروف الممتازة للغاية التي يتمتعون بها اليوم ، وهم اغنياء جدا في معظمهم ولم يعانوا في املاكهم من اضرار الحرب خلافا لزملائهم بتونس • ويرغبون في ابقاء يد عاملة رخيصة جدا • ويطمحون الى المحافظة على نظام جبائي خفيف خفة مذهلة في عهد ترهق فيه كثير من البلدان اهاليها بالضرائب : فالضريبة على الدخل مجهولة في المغرب الاقصى • ولذا كان كل اجراء من شانه ان يعكر صفوهم وينقص ارباحهم عرضة لحكمهم النهائي • واما السماح للاهالي بدخول الحياة السياسية عن طريق مجالس منتخبة ومنحهم حق الانخراط في النقابات ورفع جهالتهم القديمة عنهم بنشر التعليم ، فهذه المشاريع الثلاثة وبالاخص الثاني كانت لابد ان تثير حنق معمري الحماية (22) • وفي حين كان « لابون » يسعى لتبرير برنامجه رد عليه معظم الفرنسيين بالمغرب بقولهم : « في ذلك افراط ، انه ياتي قبل الاوان ، بسرعة مفرطة ، وعلى فرط في البعد ••• » •

الادارة ضد التجديد

وبصورة عامة تكتل الموظفون السامون مع المعمرين اما عن مصلحة او خشية التجديد • فللحيلولة دون المدارس المتنقلة تذرعت المصالح الادارية بتقاليد

---

(22) — « بيتازي » ، « افريقيا الفرنسية في خطر » ، 1946 ، ص 202 •

القبائل لتنازع في امكانية جبر الاولياء على ترسيم ابنائهم بالمدارس • ولم يظهر سلك التعليم اي تسامح نحو هواة يجهلون ابسط القواعد البيداغوجية • وقد سجل الحزب الاشتراكي في مؤتمره الاستثنائي المنعقد بالرباط في 7 اوت 1946 « النتائج المخيبة للامل » التي حققتها « ومحاولات في التعليم بوسائل عفوية وبواسطة اعوان لم يهياوا لذلك » • وسلم بمواصلة التجربة « الى ان يتم النظر في النتائج الحاصلة » ، ولكنه اشترط انه لا ينبغي ان تحول لفائدتها الموارد الضرورية للتعليم النظامي من اجهزة واعوان » • واما الوطنيون فقد احتجوا على تعليم منقوص • ويبدو ان اولئك وهؤلاء لم يدركوا انه بمثل هذه الوسائل الملائمة للظروف والقابلة للاتقان على الدوام تمت عمليا ازالة الامية من بلاد « المكسيك » بدفع من « جـام طريس ـ بـودي » • وحكم التعصب المهني وتصور خاطىء للقيم على جراة المشروع ، فمات •

فشل تجربة المجتمع الفـلاحي

لم يكن للتجربة التي شرع فيها « قبريال بيو » حظ اوفر • وكان صاحبا الفكرة رجلين ذوي قيمة ، وهما « جوليان كولو » ، المهندس الفلاحي ، و « جاك بارك » المراقب المدني وتلميذ المؤرخ والعالم الاجتماعي « مـارك بلوك » • والمقصود هو بعث طبقة من الفلاحين القادرين على استغلال اراضيهم استغلالا ناجعا ، وذلك بتغيير الانسان « بما يدخل على جميع العوامل المؤثرة في وسطه من تغيير منتظم • والمحرك الاصلي للتغيير هو فني : ابدال المحراث البسيط القديم بالجرارة » • وينبغي في نفس الوقت اكساب الفلاحة المغربية قيمة اقتصادية وتطوير الفلاحين المغاربة في الميدان الاجتماعي وتجديد سنتهم في الحياة الجماعية ولهـذه الغايـة المزدوجـة احدثت قطـاعـات تجـديـــد المجتمـع الفـلاحي Secteur de Modernisation du Paysanat S.M.P. التي ترمي الى « تحقيق الاحياء الفلاحي لمساحات ريفية معينـة وتكوين جهاز ذي صبغـة اقتصاديـة واجتماعية في هذه المساحات » • فيجب ان تكون الجرارة التي يعهد بها الى القبيلة ويسيرها المرشد الوسيلة التي تحدث الرجة النفسية التي ستقضي على التوازن الريفي القديم • وتندرج عمليات الاحياء والبناءات الصلبة والمؤسسات المدرسية والصحية والاجتماعية في الاطار الطوبوغرافي والقانوني للجماعـة التي هي مجموعة ريفية تملك الاراضي ملكا مشاعا • وهي فكرة قريبة جدا من فكرة التربية الاساسية التي طبقتها منظمة « اليونيسكو » فيما بعد •

لقد شرع السايحان في الاحلام ، كما نعتهما الفنيون بالرباط ، في عملهما سنة 1941 ، واقبلا على شغلهما بحماس الاولياء الصالحين • ولما كانت المعدات المجهزة بالمحركات اساس التجربة فان « جاك بلرك »عرف كيف يقنع اصحاب الورشات الصناعية لصنع الطائرات التي قل نشاطها بانتهاء طلبات الحرب بان تشارك في هذا العمل • وتفانى الاعوان المسيرون والعملة تفانيا كاملا في عملهم • فاستطاعوا ان ينشؤوا عشرين قطاعا لتجديد المجتمع الفلاحي في ظرف عامين • لكن افاق النجاح وحدت جميع القوى المحافظة التي شنت حملة شعواء ضد تجديد المجتمع الفلاحي ابتداء من صائفة 1946 » • فتارة كان انتقاص التجربة وتخفيض الاعتمادات المرصودة لها ، وتارة اخرى يحط من قيمة نتائجها وتبعث تجارب منافسة لها • وخلافا لنوايا باعثيها استقر الراى على تجزئة ما لا يقبل التجزئة : الوجهة الاقتصادية والوجهة الاجتماعية • وقيست تجربة المجتمع الفلاحي بتجارب اخرى قياسا سطحيا وحكم عليها بدعوى انها شبيهة بالكلكوز السوفياتي » (23) •

وظلت الانتقادات تردد الى ما لا نهاية له حتى يقتنع الراى العام بافلاس التجربة : فالمصاريف كانت باهظة وهناك سوء توزيع للمعدات ، والاعوان الفرنسيون والمغاربة فاقدون للكفاءة ، وهناك اخلال بمسك الدفاتر ، وهناك مواطن لعدم المساواة في تحسين المسكن ، وهناك تقليد مشبوه فيه لمؤسسات سوفياتية وأخيرا ظهرت مقاومة الاهالي للتجربة في معارضة الفلاحين بمنطقة دخيسة اذا انتصبوا امام الاجهزة واجبروا المؤسسة على تعطيل اشغالها طيلة شهر • ولم يعلن عن الاسباب الحقيقية لهذه المعارضة • فالادارة العليا اظهرت مناهضتها لمبادرة كانت خارجة عن نطاقها لحد بعيد لانها اقلعت عن السياسة التقليدية واعلنت عن استقلالها ازاء مكتب الشؤون الاهلية « وبعض السلط لا ترى بعين الغضب الفلاحة تنحط من الدور الرئيسي الذي كان يوشك ان يفرض عليها الى دور الاداة الوقتية الجديدة الجاهزة بين ايديها لاستعمالها فيما تقوم به من الادوار في مجال السياسة المحلية » (24) واحست المصالح الخاصة بالخصوص نفسها في خطر •

وما كان المعمرون ليرضوا بان تتمكن الجماعات من أن تحسن استغلال الاراضي مثلهم ، وبان يتحول الفلاحون الى شغالين مستقلين وواعين يعطون

---

23) — جاك شيريل ، محاولة في الاصلاح الزراعي — المجتمع الفلاحي المغربي في جريدة « لوموند » 156 — 16 جويلية 1951 •

24) — « شيريل » ، المرجع المذكور •

المثال لغيرهم ، وكان في مقدور بعض الاوروبيين بجهة مكناس ان يقدموا معلومات مباشرة عن الاضطرابات بمنطقة دخيسة . ففي سنة 1949 كشف ممثل مأذون للمعمرين عما يتصورونه من مؤازرة للفلاح فقال : « ينبغي تعويض صيغة قطاع التجديد بتشارك المعمر والفلاح : فالاول يقوم باحياء الاراضي والتنمية الاولى بوسائله الخاصة وعلى نفقته وينال جزءا من الارض كملك خاص في مقابل نفقاته ، والثاني يواصل مجهوده ضمن مؤسسة تعاونية اذا بررت الظروف ذلك » . ولا فائدة في الالحاح على الفرق بين التصورين .

والى جانب المعمرين دخلت مؤسسات التوريد والتصدير المعمة ، فرمت الورشات الصناعية بانتاج الات فلاحية باغلى ثمن من التي تستورد من الولايات المتحدة وكذلك اصحاب الصناعات الذين كانوا يخشون من ان يكون لتحسين ظروف عيش الفلاحين انعكاس على الاجور . وجميعهم يخشون ايضا الانعكاسات السياسية للتجربة . فاحجم المقيم العام امام الحملة . وفي بداية سنة 1947 استقال « جاك بارك » وتغيرت روح المشروع . ولم يعتبر ان مشروعا من هذا الطراز لا يجب ان يكون رابحا مثل مشروع تجاري . فتم اخضاعه بالنسبة للمستقبل الى شروط اقتصادية ومالية خالية من كل وجهة اجتماعية . وارجعت قطاعات تجديد المجتمع الفلاحي الى مرتبة الضيعات المدرسية وارجع الشغالون الى وضع الخماسة . « وماذا بقي من مجهود كان من شانه ان يدخل بالمغرب الاقصى في مسالك جديدة ؟ بضعة اراضي احيتها الدولة وستقتنيها رؤوس الاموال الخاصة باثمان مناسبة » (26) وخنق المتفوقون محاولة اجتماعية اقلقتهم وان كانت رسمية . فعليها رحمة الله .

معارضة الوطنيين

لم يكن قبول الوطنيين المغاربة البرنامج « لابون » احسن من قبول الفرنسيين . فقد وجه احمد بلافريج باسم حزب الاستقلال يوم 24 جويلية 1946 رسالة احتجاج الى السلطان ضد المقيم العام المتهم « بتدعيم اسس سياسية استعمارية برهنت تجربة دامت اربع وثلاثين سنة على فشلها » وبالاعتداء على وضع المغرب الدولي بمنح « الراسمالية الفرنسية امتياز الاستغلال لثروات البلاد بصورة مباشرة او غير مباشرة » وبابقاء « النظام

26) ــ « شيريل » ، المرجع المذكور .

الذى اخضع البلاد منذ سنة 1912 » و « بتفكيك وحدة المغرب وبتجزئته الى جهات يختلف التصرف فيها وتكون بمثابة دويلات يسيرها ولاة فرنسيون يعود جميعهم بالنظر الى سلطة مركزية يمثلها المقيم العام للجمهورية الفرنسية » • ورفع حزب الاستقلال « صوته عاليا ساخطا على هذه السياسة فى جملتها » (27) •

وكان الوطنيون يرتابون فى كل مشروع ويرون فيه نوايا خبيثة : فمجلس الحكومة الموحد يؤكد تفوق الفرنسيين ، والاصلاح الادارى يرمى الى ارجاع النزعة القبلية ضد الاسرة المالكة ويقوى نظام الادارة المباشرة ، وليس من شان اصلاح التعليم سوى منح تعليم ابتدائى بالفرنسية ومن نوع ردىء بدون او يضمن الارتقاء الحر الى ثقافة عالية ، ولن تعهد الادارة ابدا بمناصب القيادة ولن يعهد الجيش ابدا بالرتب العليا الى غير الفرنسيين ، واخيرا سيكون التصنيع خداعا لانه سيرمى لا الى اثراء المغرب الاقصى بل الى تزويد القوى المالية الفرنسية والاجنبية بارباح ايضافية • وان سنح لحزب الاستقلال ان يرتاب فى الاصلاحات الادارية وفى المنافذ التى اتيحت لنخبته فالامر مفهوم بدون عناء ، لكنه اقام الدليل على انه تعوزه الواقعية السياسية عندما شارك فى الميدان الاقتصادى بصورة لا شعورية فى عمل الجماعات المالية بالعاصمة والتى كانت تعتبر المقيم العام عدوها اللدود •

خطاب طنجة

كان مشروع الاصلاحات يشتمل على ستة ظواهر قدمت الى امضاء السلطان، فلم يرفض امضاءها بتاتا ، لكنه لم يبد اى حماس لتبنيها وكان من الممكن ان يصاغ فى قرارات للمقيم العام لا تحتاج الا لامضاء « لابون » ، وفى ذلك صورة لبقة للضغط على الملك ضغطا لا يحرجه وللحصول عمليا على النتائج المطلوبة • ولا شك ان المقيم العام كان يستعمل هذه الصيغة لو لم يجد خطاب طنجة •

ان الاسرة المالكة الشريفية تعتبر انها تملك مجموع المغرب الاقصى ، ولم تقبل لا وجود منطقة اسبانية ولا تدويل طنجة • واراد السلطان ان يؤكد وحدة مملكته ، فقام بزيارة الى المرسى الكبير حيث يضطلع مندوبه نيابة عنه بالسلطة التنفيذية ، مارا بالمنطقة الاسبانية حيث يمثله الخليفة بتطوان تمثيلا يصطبغ باستقلال مطلق احيانا • وكانت وزارة الخارجية الفرنسية ترى بدون

---

27) ـ النص يوجد فى « وثائق » ، 1946 ص 39 ـ 40 •

امتعاض هذه البادرة التى من شانها ان تضايق اسبانيا التى سعت فى اغتنام مصاعب الحلفاء لاقرار سيطرتها على طنجة . وبعد عدة اشهر من المفاوضات للحصول على موافقة الولايات المتحدة وانكلترا واسبانيا تسنى المشروع فى الزيارة فى افريل 1947 . وقبيل السفر يوم 7 افريل انفجرت مأساة الدار البيضاء . فعلى اثر حادث مبتذل تسببت فيه قضية نسوة قتل الجنود السينغاليون او جرحوا مئات المغاربة قبل ان تتمكن السلط من اعادة النظام . وهنالك كثير من الناس ، وليسوا من الاهالى فقط ، راوا فى القضية مكيدة بوليسية نسبوها الى موظف سام له عداوة خاصة مع القصر وكانت مبادراته تعد خطرة . ومن المؤكد ان راى السلطان كان كذلك . مما لم يساهم فى تعزيز عطفه على نظام الحماية .

وكانت الجولة عبر المنطقة الاسبانية جولة مظفرة . وبرهن الخليفة بارزيلة عن ولائه التام . وفى 10 افريل القى السلطان بقصر المندوب خطابا ستكون له عواقب جسيمة . فقد اكد فيه لا الوحدة المغربية فحسب بل الوحدة العربية وقال : « لقد بذلنا الجهد فى انارة السبيل لبلوغ السعادة فى الماضى والمستقبل من غير ان نحيد ابدا عن مبادىء ديننا الحنيف الذى الف بين قلوب جميع المسلمين وجعلها تدق فى وقت واحد وبعث الشعوب العربية الاسلامية على التعاون والمساعفة حتى وضعت الاسس لهذه الجامعة الحكيمة ، هذه الجامعة التى عززت الروابط بين جميع العرب حيثما كانوا والتى مكنت فى الآخر ملوكهم وقادتهم سواء كانوا فى المشرق او فى المغرب من توحيد طريقهم والسير نحو الرقى الادبى » .

ولم يتضمن نص الخطاب اى اشارة الى الدولة الحامية . وبعد الحث على الخضوع الى تعاليم الاسلام اختتم بهذا الدعاء الوجيز : « ان من يتكل على الله يهتدى الى السبيل المستقيم » . وقد طلب « لابون » ان تضاف اليه جملة شكر لفرنسا كان تحريرها شاقا وصادق عليها الملك وهى : « انظروا الى العالم المتمدن واستلهموا من علومه ، واتبعوا الطريق الذى سطره رجال كونوا المدنية العصرية ، مستعينين فى ذلك بعلماء وفنيى الدول الصديقة وبالخصوص الفرنسيين المحبين لهذه الحرية التى تسير بالبلاد نحو الازدهار والتقدم » .

ولم يوف السلطان بتعهداته واهمل ذكر الجملة الاخيرة . واوضح للمقيم العام ان الهتافات المتواصلة التى حيت ابتهاله الى الله ، الذى ظهر وكانه خاتمة الخطاب ، حالت دون رجوعه الى تصريح دونه اهمية . وهو امر ممكن

كما هو ممكن الحقد الذى اثارته حوادث الدار البيضاء وجعله لا يستطيع ان يفوه بشكر لفرنسا (28) لكن سيدى محمد هو على درجة من رباطة الجأش وتمالك النفس انه من الصعب ان لا تفترض عملا مدبرا • فمثلما كان موقف الملك اثناء زيارته لمراكش متأثرا بما بذل من نشاط فى مجال الوحدة العربية بين إتفاق الاسكندرية وميثاق القاهرة كان سلوكه بطنجة ربما ناشئا عما تقوم به فى القاهرة جبهة الدفاع عن شمال افريقيا ويقوم به مؤتمر المغرب العربى من نشاط ، وقد بدت المنظمتان تجسمان مطامحه العميقة فى اقحام المغرب الاقصى فى الحركة الوحدوية العربية •

ومهما كان من امر فان التصريح الذى سلمه الى الصحافة قبل مغادرته طنجة لم يترك اى مجال للشك فى تصوراته فقد قال : « من المسلم به ان المغرب الاقصى بلد عربى تربطه روابط متينة ببلدان المشرق العربى ، وانه يرغب فى ان تزداد هذه الروابط قوة خصوصا منذ ان اصبحت الجامعة العربية تقوم بدور هام فى مجال السياسة العالمية » • وان القول بان « فى ما بين الامم العربية من الروابط شيء من المرونة بحيث ان الانتماء الى الجامعة العربية لا يتنافى وعقد اتفاقات مع فرنسا » ، مثل ما اكده حزب الاستقلال ، لهو حصر هذه الاتفاقات فى شكل « حلف » ورفض كل نظام له صبغة فدرالية • ففى سنة 1947 كان اختيار السلطان وحزب الاستقلال لا يترك مجالا للشك، ذلك ان الجامعة العربية كانت فى اوج عظمتها التى لم تنل منها بعد القضية الفلسطينية •

ان خطاب طنجة كان غلطة سياسية • فقد مكن خصوم المقيم العام من تقديمه مع شيء من الاحتمال كمغفل لم يهتد الى سلوك السياسة الوحيدة التى يفهمها القصر وحزب الاستقلال الا وهى سياسة القوة • وكان العسكريون منساقين فى هذا التيار بتأييد من الجنرال « لوكلارك » فقدموا الامن على انه مختل • واستسلمت الحكومة الى تهديد حقيقى باحتمال الثورة وكان للابون من الكرامة ما يمنعه من نكران خطورة الحادث والدفاع فى قضية مخسورة مسبقا • ووجد المخوفون إذنا صاغية لدى وزير الشؤون الخارجية جورج بيدو • وكان المغرب الاقصى بحاجة الى رجل دولة ، فظفر بجنرال •

(28) ـ تلك هى الحجة التى ذكرها من مدحوه • راجع « لاندو » ، « السلطان » ، ص 38 •

ولايـة الجنـرال « جـوان »

عوض الجنرال « الفونس جوان » المقيم العام « لابون » يوم 14 ماى 1947 • وكانت له حياة عسكرية لامعة • فهو من ارومة متواضعـة ، وتعلـم تعليمـا ممتازا ، وتحصل عـلى المرتبـة الاولى عنـد تخرجه مـن مدرسة « سان سير » (Saint Syr) سنة 1912 • واصيب بجروح بليغة على الجبهة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الاولى ، وادى الخدمة العسكرية بافريقيا الشمالية ، وفى سنة 1940 قاد الفرقـة المنقولة الخامسة عشرة التى ذادت عـن مدينة ليـل Lille واسر « بكنيقشتايـن » (Koenigstein) مع الجنـرال « جيرو » • وبعد سنة فى الاسر اطلق سراحه بموجب الهدنة • وفى سنة 1941 خلف الجنرال « نـوقاس » فى قيادته العسكرية ، فعرف كيف ينضم الى الحلفاء فى الابان ، وقاد الجيوش الفرنسيـة بتونس وإيطاليـا وفرنسا والمانيا قيـادة ممتازة • وفى 12 اوت 1944 عين رئيسا لاركان الحرب للدفاع الوطنى •

وبقدر ما كانت له خصال القيادة تجاه العدو بقدر ما كـان قليل التاهـل للتحكم فى مصير قطر مغربى فى ظرف قامت فيه مشاكل سياسية يتطلـب حلها خصالا « مدنية » • وبحكم مولده بعنابـة وتربيتـه بمعاهـد فرنسيـة بالجزائر صحبة اقران فرنسيين من الجزائر وتزوجه من عائلة معمرين بجهـة قسنطينة فانه كان مفطورا تقريبا على مشاطرة التصورات المنتشرة بالجزائر عن عجز العرب وضرورة استعمال الاساليب الاستبدادية • فالحكومة ارتكبت خطأفيما يتعلق بالشخص عندما عينته استجابة لرغبة المعمرين الذين كانـوا يطالبون برجل حازم » ، وارتكبت غلطة سياسية افدح عندما اطلقت له العنان ازاء السلطان ، وقد اشترط المقيم العام الجديد ان يفوض له امره تفويضـا تاما • وشرع الجنرال فى معالجة الحالـة وهو مزود بالرخص المطلوبـة • وادرك السلطان منذ مقابلته له بالدار البيضاء ان اللهجـة قد تغيـرت • واذا إستقر راى الجنرال على مواصلة سياسة سلفه فى المجال الاقتصادى ، وهو ما منعه على تنفيذه ضغط المصالح الخاصة التى كان يستند اليها ، فانه اكد ارادته فى اقرار الحضور الفرنسـي النهائى والاستبدادى من جديد بتمامـه وكماله ، وقال : « ان اول واجباتى اعادة النظام بدون عنف وبدون ارهـاق ولكن بحزم ••• لن اسمح لاحد ان يقوم بمزايدة ديماغوجية ••• وان المغرب الاقصى الذى حققـت له فرنسا وحدته يجب ان يكـون بلدا غربيا وعليه ان يحيد عن المجموعات الشرقية » •

وفي افتتاح الدورة الحكومية يوم 9 اوت 1947 اشار الى خطاب طنجة ليذكر « بالهلع الذى اثارته بعض المظاهرات الاخيرة » ويبدد لبسا خطرا يمس بمبدا السلطة » ، مؤكدا « صلاحية معاهدة هي اساس العلاقات الفرنسية المغربية ».(29) • وبالنسبة للمستقبل فقد اعلن بوضوح ان المغرب الاقصى لن ينال ابدا استقلالا يفصله عن فرنسا ، وقال : « سيسير المغرب الاقصى بدون صدمات وحول عرش موطد الدعائم نحو مصيره المجيد والمستقبل المزدهر الذى هو اهل له • لكنه يجب ان يعلم جيدا انه فى نهاية تطوره واتمنى ان يكون سريعا ولكن حذرا ومبنيا على التفكير ، سيبقى مرتبطا بفرنسا التى تكون قد منحته احسن ما عندها ، وذلك بمقتضى عقد مشاركة لا تنفصم عراه ولا يستطيع ان يستغني عنه العدد العديد من المصالح المشتركة ، وبمقتضى معطيات امن مشترك لا تنفصل عن بعضها بعض » • وفي ذلك حكم على العروبة والانفصالية على حد سواء •

اصلاح المخــزن

اكدالمقيم العام الجديد نيته فـي المساعدة على تطوير المغرب الاقصى • وقد ورث ستة ظواهير لم يعمل بها حتى اتت سنة 1952 ولم يدخل اى اصلاح نادى به « لابون حيز الواقع • وفي مقابل ذلك عرض على السلطان بعد شهر من وصوله ظواهير تحور هيكل الحكومة الشريفيــة ، فامضاها (21 جوان 1947) • وكانت الحماية احتفظت « بمخزن محور » يشتمل على وزير اكبر ووزير للعدل ووزير للاوقاف • واهميــة الوزير الاكبر متاتيــة من انه ينظم تراتيب تنفيذ الظواهير التى يمضيها السلطـان بواسطة قرارات • ويمارس المقيم العام مراقبته بمساعدة معتمد عام مكلف بنيابته ، وكاتب عام تتجمع لديه الشـؤون الادارية ، ومصالح الاقامـة العامة : وهـي ادارة الشـؤون الشريفية التى تربط الصلة بيـن الادارتين الفرنسيـة والشريفيـة وكذلك مراقبة المخزن ، وسكرتير سياسي وادارة للداخلية وهما ناتجان عن انقسام ادارة الشؤون السياسية سنة 1946 ، وادارة مصالح الامن العمومي• وتوجد اخيرا مصالح فنية تدعى المصالح الشريفية الجديدة ، عهد بها الى مديريـن فرنسيين باشراف المقيـم العـام والكاتب العـام لكـن تنظيمهـا وانتداب موظفيها كان يتم بواسطة ظواهير وقرارات يتخذها الوزير الاكبر •

---

29) — نشرت النص المصالح الفرنسية للانباء فى « مذكرات وثائقية ودراسات » ، عدد 688 ، سلسلة « نصوص ووثائق » ، 149 •

وابقى اصلاح سنة 1947 على الوزراء الثلاثة الذين يكونون المخزن بمعية نائب الوزير الاكبر للتعليم ومدير التشريفات ، لكنه احدث خمسة نواب للوزير الاكبر وهم مغاربة ملحقون بإدارات المالية والفلاحة والتجارة والاشغال العمومية والصحة والشؤون الاجتماعية • وكان نائب الوزير الاكبر لدى مدير التعليم العمومي يقوم بنفس الدور فيما يتعلق بالمواد الاسلامية ، واحدث مستشار قانوني للمخزن الحق بالمستشار القانوني للحماية • وكان الغرض من هذه التدابير توثيق عرى الاتصال بين الادارة الشريفية والمخزن • واحتفظ بمجلس الوزراء القديم الذي يجمع الوزلوء المغاربة بالقصر ، واكد حق السلطان الذي يتراسه في جمعه متى راى ذلك صالحا • واخيرا تقرر ان يجتمع مجلس للوزراء والمديرين كل شهر برئاسة الوزير الاكبر ، ويجمع وزراء المخزن والمستشار القانوني المغربي ونواب الوزير الاكبر الخمس والكاتب العام مستشار الحكومة الشريفية ومديرى الادارات الشريفية الجديدة ، اى عشرة مغاربة وعشرة فرنسيين •

ولم يتناول التجديد سوى اساليب العمل ، ولم يحور نظام الحكم لانه ليس لاى هيكل سلطة التقرير • ولا يقوم النواب سوى بدور عون الاتصال ، ولم يكن مجلس الوزراء والمديرين مدعوا للمشاركة في العمل الحكومي بل كان مدعوا فقط لبحث « مسائل ذات مصلحة عامة تقدم اليه لابداء الراى » خلافا لمجلس الوزراء التونسيين • وفي الواقع آلت الاصلاحات الى تعزيز سلطة الحماية باحداث مجلس مختلط حيث تتحكم الاقامة العامة في وزراء ونواب ليس لهم استقلال ولا وسائل عمل •

وكانت التدابير الخاصة بمجلس الحكومة تمس بالخصوص القسم المغربي خلافا لما كانت عليه تدابير سنة 1926 • فقد سمح بالدخول فيه « للمصالح المختلفة » وللجالية الاسرائيلية • واضطلع بتمثيل « المصالح المختلفة » ستة نواب ينتخبهم المندوبون البلديون بالدار البيضاء والرباط وفاس ومراكش ومكناس ووجدة ، وممثلان عن المهن الحرة بفاس والدار البيضاء وممثلان عن عالم الشغل واثنان من قدماء المحاربين ، وهؤلاء الستة جميعهم يعينهم المقيم العام • ويعين اعضاء هيئات المجموعة اليهودية ستة من بينهم • وبقى نواب الهيأة الاسلامية عن المهن الصناعية والفلاحية والتجارية على ما كانوا عليه في الماضي ، لكن الاقسام والاهلية القديمة للحجر المهنية اصبحت حجرا مستقلة منتخبة • ومنح الاصلاح المستشارين المسلمين المعينين على هذا النحو

صبغة تمثيلية مضاعفة ، لكن لم يعهد لمجلس الحكومة باية صلاحية جديدة ، وقد احتفظ بخضوعه للاقامة العامة وقاعدته المهنية ودوره الاستشاري الصرف في الميدان الاقتصادي • ولم يمكن المستشارون الا من ابداء الراي في ميزانية لم يكونوا مدعوين للمصادقة عليها ولم تقبل مشاركتهم في التشريع قيد انملة • وفي المجال البلدي اتضح انه لا سبيل الى التوفيق بين تصورات الاقامة العامة والقصر الملكي ، وقد اشترطت الاقامة العامة التساوي ضمن المجالس البلدية المقبلة بينما اعترض عليها القصر بانه ان تحصل 266·000 فرنسي على تمثيل يساوي تمثيل 8·180·000 مغربي فان كل صوت فرنسي يكون مساويا لثلاثين صوتا مغربيا • فآل الامر الى الاقتصار على احداث نواب لشؤون المدن لممارسة وظائف المراقبة بالخصوص على نشاطات الباشاوات المختلفة و « لاعداد الاطار الضروري للاصلاح البلدي القادم » الذي لا يزال انجازه في طور الانتظار •

المساندة الشيوعية

لقد اوعز السلطان بان الاصلاحات الجديدة فرضت عليه فرضا • ومن الواضح ان مجلس الوزراء والمديرين الذي لم يعهد اليه برئاسته انما احدث للنيل من تاثيره • وفي مذكرة علنية ابرز «ما في تعليقات الرئيس «راماديي» يوم 24 جويلية ووزارة الخارجية والفرنسية من « التباس » • واكد على عكس ما توهم به هذه التصريحات ان النواب ليسوا مساعدين للمديرين بل ممثلين للوزير الاكبر وان المديرين لا يزالون « موظفين فنيين » لحكومته الشريفية كما هو الحال في السابق ، وهو ما ينفي اعتبارهم بمثابة وزراء • وابرز هذا التدخل ارادة الملك القوية في معارضة نظرية السيادة المزدوجة التي تبناها الجنرال « جوان » • وقاوم حزب الاستقلال ولظواهير بقدر ما سمحت له الرقابة بالتعبير عن رايه •

وكان السند الوحيد الذي وجده في حملته هو سند الحزب الشيوعي الذي ما فتىء يبرز طابعه المغربي منذ استقباله رسميا يوم 26 اوت 1946 من قبل سيدي محمد ، مطالبا بتاليف جبهة قومية مدعوة الى « الكفاح من اجل حرية وسيادة المغرب الاقصى » والى « الحصول على الغاء معاهدة فاس ونظام الامتيازات الاجنبية لسنة 1836 الذي يمنح الولايات المتحدة وضعا ممتازا » • ويعود الى مجلس وطني تشكيل حكومة مغربية صرفة تضبط علاقاتها مع فرنسا في معاهدة تحالف • وفي القريب العاجل يقترح الحزب توزيع الاراضي

ونشر التعليم الاسلامي واستعمال العربية كلغة رسمية • واذا كان الكفاح ضد الامبريالية الاميركية ومخطط «مارشال» (Plan Marschall لا يهم الوطنيين الا قليلا فانهم كانوا على اتفاق مع الحزب الشيوعي المغربي فيما يتعلق بجوهر الرغائب القومية •

وكان الحزب الاشتراكي على عكس ذلك وفيا لمواقفه السابقة ، يواصل المطالبة بانشاء هيئة انتخابية موحدة لها حق التصويت بمجلس الحكومة حتى تنال الهيئة الثالثة تمثيلا عادلا (30) ، وبتدابير تتناول « انشاء بلديات منتخبة ولها حق التصويت ، والحق الانتخابي لفائدة الجميع ، واحداث حالة مدنية اجبارية وعصرية ، واصلاح العدالة ، وكذلك سياسة جريئة في ميدان الاسكان والتعمير المغربيين بقطع النظر عن اصلاحات كثيرة اخرى ، ومنها بالخصوص المزيد من نشر التعليم لفائدة الشبان المغاربة » (31) •

حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال

لقد تبين ان امكانيات حزب الاستقلال كانت محدودة • وقد افضت التعليمات التي اصدرها الجنرال « جوان » الى منعه عمليا من التعبير عن آرائه بجرائده التي تبرز احيانا بصفحات يكاد يعمها البياض • وتلقى الباشوات امرا قطعيا بتحجير كل خطاب وكل اجتماع • وكان على العمال آن يشددوا العقاب على غير المنقادين • وبلغ الزجر حدا ان كل مغربي عائد من فرنسا يعد مشبوها فيه خاصة اذا كان طالبا • فكان فوز سياسة مكاتب الشؤون الاهلية باساليبه البوليسية • وفي الاقامة العامة نفسها تسببت احدى الشخصيات المرموقة في تحرير منشور بذيء باللغة العربية ضد السلطان وعائلته ، وبلغ الى علم القصر بحذافره باعتراف محرره المغربي • ولم تؤد مثل تلك الاساليب الا الى تفاقم المعارضة الوطنية والمزيد من تعلق الشعب بمليكه •

واذا كان المقيم العام يعد حزب الاستقلال تجمعا خطرا يجب القضاء عليه فانه قبل بالعكس الاتصال بممثلي حزب الشورى والاستقلال الذي اسسه حسن الوزاني بمساعدة المحامي عبد القادر بن جلون سنة 1944 ، ونظمه حسب مقاييس شبيهة بمقاييس حزب الاستقلال • وفي 10 سبتمبر 1947 استمع

---

(30) — لائحة المؤتمر الفدرالي بالدار البيضاء ليومي 19 — 20 جويلية 1947 •

(31) — لائحة المؤتمر القانوني ليومي 6 — 7 نوفمبر 1948 • •

الى وقد لفت نظره الى القلق العميق الذى تعانيه البلاد ، واوصاه باتخاذ الاجراءات الكفيلة بتاليف حكومة وطنية مغربية لها برنامج عمل مضبوط باتفاق تام مع الملك • وكانت المذكرة التى ارسلها اليه يوم 23 سبتمبر تطالب بتعويض معاهدة الحماية بمعاهدة تحالف بين « المغرب الحر ذى السيادة وفرنسا الحرة الديموقراطية » ، وبتحرير مجلس وطنى يمثل الشعب المغربى لدستور ينظم ملكية ديموقراطية ، وامداد المملكة « بجميع الوسائل والمعدات الكفيلة بتحقيق تنميتها السياسية والاجتماعية والمادية » • ولم تتضمن المذكرة ولو مجرد الاشارة الى الضمانات التى يجب ان يتمتع بها الفرنسيون وتحظى بها ارزاقهم • وكان الفرق الوحيد بين موقفى حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال فى تاكيد هذا الاخير لضرورة ابقاء الاتصالات مع السلط العمومية (32) •

الامير عبد الكريم بالقاهرة

لقد وجد الوطنيون معوضا لمحنهم فى الاخبار الواردة عليهم من مصر • فقد تاثر الراى العام لحدثين جدا الواحد تلو الآخر : قدوم علال الفاسى الى القاهرة يوم 25 ماى 1947 ونزول الامير عبد الكريم الخطابى بمصر يوم 31 ماى • ومغامرة المناضل الريفى القديم هى من ابرز مظاهر قصور السياسة الفرنسية فى المجال الاسلامى • فعشرون سنة من النفى بجزيرة « لارانيون » (La Réunion) ومن الحياد كانت جديرة بالتسامح خصوصا اذا كان من شأنه أن يخدم سياسة ما • وقد يؤثر ادخار بطل الاسلام ، الذى لم ينل من هيبته شىء ، تاثير الخطر المهدد للسلطان وسلط المنطقة الاسبانية • ولا شك انه ليس من باب الاحسان الصرف ان فكر الجنرال « كاترو » فى امبر ، وفرضت هياة اركان الحرب بالدفاع الوطنى تنفيذ فكرته ، واسهمت فى ذلك عدة وزارات بدون ان يعنى احد بتنسيق المساعى ويلفت النظر الى خطر التوقف بمراسى البلاد الاسلامية • وقد اقل الامير باخرة استرالية استأجرتها فرنسا بقيادة ضابط يونانى ، لكن لم يصحبه اى مسؤول فرنسى واستقبل شخصيات من العالم العربى بالسويس ثم ببور سعيد • وقبل اقلاع الباخرة بقليل يوم 31 ماى قرر فجأة النزول منها طالبا حق اللجوء السياسى والرعاية من الملك فاروق الذى منحهما اياه ، خصوصا وقد بلغه منذ قليل ان

(32) — النص يوجد فى « كراريس المغرب الاقصى » عدد 2 ، « حوار الصم » ، ديسمبر 1951 ، ص 11 — 19 •

السلط الفرنسية حجرت على الاميرة فوزية الدخول الى ميناء تونس ، وكانت تحمل حبوبا ارسلت لاسعاف التونسيين من المجاعة ٠

ولم تقدم الحكومة المصرية على تحجير كل نشاط سياسي على هذا اللاجئ بالرغم عن احتجاجات وزارة الخارجية الفرنسية ، وكـان الاخوان المسلمـون يطالبونها بقطع العلاقات الديبلوماسية مع فرنسا ٠ وتكلم الامير عبد الكريم بلغة القائد ، ومن الغريب انه حافظ على مثل هذه الحيوية ، واحرز على معرفة واسعة بالوضع الدولي ٠ وظن في فرنسا باعلان ولائه للسلطان بينما كان من الطبيعي تماما أن ينضم الى بطل الاستقلال الشريفي مثلما وقف في وجه والده لرضوخه ٠ ونصح الفرنسيين باجتناب الاخطاء التي ارتكبوها بسوريـا و « الشروع في مفاوضات جدية » في سبيل « الغاء الحماية » ٠ ولم يعد الامـر يتعلق بتعديل شكل الاحتلال لابقاء الجوهر كاملا غير منقوص ٠ وقـال : ان غادرتم البلاد كاصدقاء مدركين انه لم يبق لكم غير هذا العمل فانكم عندئـذ تحتفظون بجميع مواقعكم ٠ لكن ان غادرتموها في ظـروف سيئـة ، وانتـم مغادرونها لا محالة ، فلن يبق لكم شيء ٠ وكل ما تفكرون فيه هو على اكثـر تقدير ان ترفعونا الى مرتبة مترجمين سامين بـين شعبنـا وبينكـم ، او هي تغييرات في الاشخاص ٠ اننا خضنا غمار حربين الى جانبكـم كي نحقق لكـم الاستقلال او نموت ٠ فلماذا اذن لا تمنحوننا استقلالنا نحن ؟ » وقال فـي خصوص الحالة الراهنة : « لقد ابدلتم السيد « لابون » لانه كان مفرطا فـي ضعفه معنا ٠ واحللتم محله الجنرال « جوان » لانكم تفكرون ان عسكريا نرتاع له ٠ لكنه لا يخيفنا ، والخطير هو انه ضد السلطان » (33) ٠

لقد وقف الامير عبد الكريم موقفا اقرب بكثير الى موقف الحبيب بورقيبـة منه الى بلافريج او الوزاني ٠ فهو يسلم بان تحتفظ فرنسا بجميـع مواقعها او ـ كما قال هو أيضا ـ « بوضع قانوني تفضيلي » ٠ وفي ذلك يظهر بمظهر سياسي احنك من مواطنيه من حزب الاستقلال او حزب الشورى والاستقلال ٠

وكان الامير رجلا طاهرا، فلم يشاهد بدون اشمئزاز نشاط المغاربة بالقاهرة الانتفاعي والعقيم وكذلك ما بينهم من خصومات الدكاكين ، وكان « كل واحد ينتحل لنفسه دور القيادة » و « يسيئون الى قضيتهم أكثر من الامبرياليات نفسها » ٠ وكان هذا المحارب قـد تصدى للفرنسيـين والاسبانيـين واحبط

(33) ـ جريدة « لوفيقارو » 22 ـ 23 جوان 1947 ٠

هجوماتهم وشهر بمادية المسيحيين ، فلم يؤاخذ القادة الوطنيين باقل حدة على « جمع الاموال لفائدة الحركة الوطنية وانفاقها كما ارادوا في كفاح انحصر في مدينة القاهرة واقتصر على طبع منشورات فاخرة » (34) • وفي ظرف خمس سنوات تغلبت المكائد المغربية على بطل الاستقلال المغربي الذى قطع كل صلة مع « رفاقه من افريقيا الشمالية » وسعت دعاية غير شريفة للنيل من هيبته في الراى العام المغربي •

ولم يخل الوضع في مصر من تاثير على سلوك الاحزاب الوطنيـة المغربية وبالاخص حزب الاستقلال الذى دخل بكل حماس في بوتقة الجامعة العربية • واسفرت الحركة المغربية بالقاهرة عن افلاس • واتضح ان التضامن العربي كان لفظيا اكثر منه فعلي • وظل عزام باشا نفسه يجتنب دائما التورط بالرغم عن تصريحاته التضامنية • وكـانت النداءات للاتحاد لا تستطيـع اخفـاء الشقاقات الداخلية في الجامعة وما في مواقفها من لبس وعجزها التام تقريبا، الى ان اضطر بطل الوحدة الكبير عزام باشا على التخلي بدون فخر بعد تنازل الملك فاروق عن العرش • وضعف الحماس وتبددت اوهام الوحدة العربيـة تدريجيا تاركة المجال للمطامح القومية المحلية • ورجع القصر نفسه الى نظرة اقرب الى واقع الامور • ولو تعين على السلطان ان يعيد خطاب طنجة فالمظنون انه كان يعدل سلم القيم •

مقـاومـة الجنـرال « جـوان »

بذل الوطنيون جهدهم في مقاومة سياسة الجنرال « جـوان » وفي تدويل القضية المغربية بواسطة منظمة الامم المتحدة • ومنـذ بداية سنـة 1948 كشفت رسالة من السلطان الى « فانسان اوريول » عن مدى القلق السائـد وكان القوم ينتظرون المعجزات من الجنرال « جوان » • « فهنالك جمع غفير من المعمرين المثريين واصحاب الصناعات حديثي العهد بالانتصاب في المغـرب وحتى من الموظفين « حيوا لجيه » باعث سياسة تدعي سياسة القوة التي كانوا على استعداد لمساندتها بدون احتراز » (35) • وكان عليه عوضا عن سياسة « لابون » ان « يحاول ان يضمن الحياة والانماء للمغرب بالرغم عـن الملك او حتى ضده » (36) بمساعدة الراى العام الفرنسي • ولـما كـانت المعـارضة

---

34) — جريدة « لوموند » ، 20 جوان 1952 •
35) — جريدة « لوموند » ، 14 فيفرى 1951 • « حقائق مغربية » •
36) — نفس المصدر •

مكمومة فان امكانيات الانجاز كانت غير محدودة ، لكن كان يجب الحصول على موافقة الملك على التدابير المزمع اتخاذها • فلا سبيل الى وضع مثقال السيف في الميزان الى ما لا نهاية له • ولما كان الامر يتعلق بملك له وحده الحق في امضاء الظواهير فالخيار هو بين اقناعه او تحطيمه • ولم تكن للجنرال « جوان » لا خصال الديبلوماسي ولا خصال المتصرف الاداري التي كانت من شانها ان تكون الجو الملائم للتقارب • واظهرت الحكومة الفرنسية عجزها على تحديد اتجاهات وحدود عملها • وظل المقيم العام فريسة لضغوط الوسط التي كانت تستجيب الى طبعه الخاص ، فكان لا مناص له من اللجوء الى القوة •

واتضح بمناسبتين ان الحساسية المغربية لم تفقد • فقد صرح « بول كوست فلوري » وزير فرنسا لاقطار ما وراء البحار امام المجلس الوطني ان الدولتين المحميتين اصبحتا دولتين مشاركتين عضويين في الاتحاد الفرنسي بدون ان يطرا تغيير على وضعهما القانوني ، فاذا بمذكرة شبه رسمية تعلم بان السلطان « اهتم اهتماما جديا جدا بالموضوع وبانه تحادث مع السلط الفرنسية في الموضوع » و « ربما اضاف ان تلك التصريحات لا تقوم حسب رايه على اي اساس » (37) • وفي هذا المضمار كان الحق بلا شك مع الملك ضد استاذ القانون • وتسبب في الحادث الثاني الخطاب الذي استقبل به الجنرال «جوان» بجمع العلوم الاستعمارية Académie des Sciences Coloniales يوم 18 نوفمبر 1949 ، وقد تبين انه يسلم بوجود سيادة مزدوجة بالمغرب الاقصى ، فاثار ذلك احتجاج المغاربة بمجلس الحكومة المنعقد في ديسمبر •

الوطنيون ضد الحماية

فاثناء هذه الدورة اتضح عزم الوطنيين على طرح مسألة الحماية بانتقاد كيفية تطبيقها • وقد استقر راي بعض الخطباء من القسم المغربي بمجلس الحكومة « على قول بعض الشيء (38) فمن جهة آخذوا فرنسا على ان لها وجهين ، وهي تتظاهر باعطاء المغرب الاقصى طابعا عصريا ولكنها في الحقيقة تريد ادماجه • ومن جهة اخرى آخذوها على انها تفرض على السكان تناسي

37) — جريدة « لوموند » ، 29 ماي 1949 •

38) — جريدة « ماروك سوسياليست » ، 30 ديسمبر 1949 •

لغتهم بدعوى تدريبهم على الفنون العصرية • فرد عليهم المقيم العام مؤكدا في آن واحد استقلال المغرب الاقصى وسيادته والسلطات التي تخولها الحماية لفرنسا • ويبقى ان تضبط كيفية ربط المراقبة بالسيادة في الواقع ، وهو بالذات جوهر المشكل السياسي الذي ظل التصرف الاداري يحرف يوميا وجهته القانونية •

وبعد الانتقاد حان وقت العمل • ففي سنة 1950 قررت الجامعة المغربية للهيئة الثانية الامساك عن حضور دورة المجلس المقرر عقدها ليوم 20 جويلية ، وكانت تتركب من الحجر التجارية المغربية التي تشتمل على العناصر الاكثر تمثيلا من حيث تعيينها • وهكذا كانت تذكر علانية بانها مضطرة بعد ثلاث سنوات من حكم الجنرال « جوان » للقيام ببادرة مشهودة لتاكيد ارادتها في ان ترى تحقيق رغباتها المشروعة » في الميدان العدلي والثقافي والاجتماعي وبالخصوص تعديل قيمة المنح العائلية التي كانت دون المنح المعطاة للاوروبيين • وعبثا شهر المقيم العام « بسوء نية » الجامعة و « رفضها الدائم » للاعتراف بمجهودات الادارة وعزمها الصادق ، فان مشكل الاصلاحات طرح امام الراى العام ، وتم طرحه بصورة ناجعة •

وبرز عمل الوطنيين من جديد في البلاد بالرغم عن العراقيل • وان لم يكن يتيسر توحيد الحزبين بطنجة لمسائل شخصية فان حزب الاستقلال كان يشعر بقوة كافية ليواصل النضال على جبهتين : ضد الحزب الشيوعي ، وقد اقصى المسؤولين المنتمين اليه عن المنظمة النقابية التي انشئت حديثا سنة 1949 ، وضد حزب الوحدة المغربية الجديد الذي اسسه المكي الناصري وتكون من المنشقين اليمينيين الذين تم تعطيل تقدمهم بسرعة •

زيارة السلطان لباريس

وكثيرا ما جرى الحديث عن المغرب الاقصى مدة الازمة الوزارية الفرنسية لشهري جوان وجويلية 1950 • وقد تحادث « قي موللى » بشانه اثناء مهمته الاستطلاعية واستقى معلومات في الموضوع من المناضلين المقتدرين بالمجلس القومي للحزب الاشتراكي • واثير المشكل ايضا اثناء تشكيل حكومة « بليفن » • ولم يكن هناك رجل سياسي عليم لم تقلقه الازمة المغربية وركود الاصلاحات منذ ثلاث سنوات • ووضع اكثرهم تفاؤلا آمالهم في

المحادثات التي سيجريها السلطان مع « فانسان اوريول » اثناء زيارته المقبلة لفرنســا .

وقد اعلن سيدى محمد انه لا ينوي القيام برحلة ترفيهية بل فتح « محادثات في المشكل السياسيــة التي تهم المغرب الاقصى » . وسلــم غداة وصوله الى باريس يوم 11 اكتوبـر مذكرة الــى رئيس الجمهورية ضمنها الرغائب المغربية . فطــرح بوضوح مشكل احترام معاهدة الحمايــة والغــاء الادارة المباشرة ومراجعــة معاهدة سنــة 1912 . ودارت مناقشــة حول المذكرة بمجلس الوزراء الفرنسي المنعقد في 31 اكتوبر بعد النظر فيها من قبل ادارة افريقيا والشرق بوزارة الخارجية . واشيع في الاوساط السياسية ان الجواب المسلم الى الملك بمقر اقامته بباقاتال (Bagatelle) يسمح بالوصول الى نتائج ملائمــة .

فالحكومــة الفرنسية كانت مستعدة لتعويض الرقابــة بنصوص تشريعية تخص الجنح في مادة الصحافة ، ولادخال بعض المرونة على المراقبة الخاصة بتعيين الباشوات والعمال ، ولاصلاح العدلية ، ولتسوية المشكل النقابي . ولكن بالاضافة الــى استمرار اختلاف جدى فــي وجهات النظــر بشان هــذه المسائل نفسها فان وزارة الخارجية تجنبت خوض مناقشة في الاصل بمعنى في اعادة السيادة الشريفية الى نصابها طبقا لمعاهدة فاس ، وذلك بالقضاء على تعديات الاقامة العامة ، وهي المسالة الجوهرية .

وقد تلقى سيدى محمد والديوان الملكي الرد على المذكرة بغير ارتيــاح . وردت الحكومة المغربية يوم 2 نوفمبر بمذكرة اكدت فيها ان اصلاحا هيكليا يضع حدا لنظام الحماية هو الكفيل وحده بتركيز العلاقات الفرنسية المغربية علــى اساس امتن واسلم . وعندئذ وجب التخلــي عن المذكرة الفرنسيــة المغربية التي كان من المقرر ان تتوج المفاوضات . ولنا ان نتساءل عن الحور الذى سمح لوزارة الشــؤون الخارجيــة بايهام الراى العام ان لم يكن بايهام نفسها بما قد يقتبل به برنامج غير ثابت مثل برنامج غرة نوفمبر .

فشل المحادثـــات

غادر السلطــان باريس يــوم 5 نوفمبر من غير ان ينال شيئا . والتجات الحكومة الى اجراءات مالوفة عند السلطة التنفيذية العاجــزة ، فاعلنــت عن

اجتماع قريب بالرباط للجنة مختلطة لم تتألف قط مثل اختها بتونس . وشهرت الصحافة بكبرياء السلطان وتلهفه لالغاء الحماية حتى يعيد طغيان القرون الوسطى . فرد السلطان يوم 18 نوفمبر بقوله : « لم يغب عن ذهننا ولو لحظة واحدة أن احسن نظام يستطيع بلد يتمتع بسيادته ويحكم بنفسه ان يعيش فى ظله هو النظام الديموقراطى الجارى به العمل فى العالم المعاصر ، وهو نظام لا يتضارب ومبادىء الاسلام » .

ولم تتأثر الاقامة العامة لفشل السلطان . فيما ان الديبلوماسية خابت بقيت القوة التى تسمح بفتح الباب على مصراعيه للاصلاحات حسب وجهة نظر الادارة بعد تحطيم حزب الاستقلال والملك عند ولاقتضاء . وبفرنسا كان الفشل باعثا لقلق الرجال السياسيين المتبصرين . وفى الخارج انكشفت للمرة الاولى الخلافات بين الدولتين الحامية والمحمية . وفى المغرب تضاعفت شعبية الملك الذى عبر عن رغبات الشعب بشجاعة . وقد هتف له عند وصوله الى الدار البيضاء جمهور غفير تضخم بتدفق بربر الاطلس الذين قدموا بالمناسبة ، وخصصت له مدينة الرباط استقبالا لا يقل حرارة . وبذلك تفاقم الخطر فى نظر الجنرال « جوان » ومن حوله ، فقرروا ان يقوموا بعمل حازم يضع حدا له .

عمليات العنف التى قام بها الجنرال « جوان »

حدث الاصطدام الاول فى دورة مجلس الحكومة لديسمبر 1950 . فجرت اول مناوشة يوم 6 ديسمبر مع محمد اليزيدى وهو ضابط بجوقة « الصبايحية » سابقا ورئيس جامعة الحجر التجارية المغربية ومقرر الميزانية العامة لسنة 1951 ، وقد قام بانتقاد لاذع لنظام الحماية فرد عليه المقيم العام « بانه تجلد الاستماع الى اتهاماته حتى النهاية لا تنازلا منه ، بل ليقوم الدليل على مدى ما يبلغه التحمس الذى يحدو بعض الاحزاب » ، وبانه يدعو الخطيب الى عدم تجديد هذه الانتقادات داخل المجلس .

وفى يومى 8 و 9 ديسمبر وقف اليزيدى ومحمد عمر موقفا مماثلا بخصوص اعتمادات المالية والتعليم العمومى . وجدت الحوادث الاكثر خطورة يوم 12 ديسمبر بمناسبة عرض التقرير الخاص بالاشغال العمومية الذى قدمه محمد الغزاوى وهو تاجر كبير بفاس . وقبل ان يشرع المستشار فى تلاوة النص ابدى الجنرال « جوان » استغرابه من ان تكون الصحافة قد احيطت به علما ،

وتذمر من انه كانت « تتخلله روح ديماغوجية ونقدية من نوع سياسي اهمل تماما الناحية الفنية في المسالة » . واما المعني بالامر فيقول انه تم تسليم التقرير الى الكاتب القار للمجلس يوم 2 ديسمبر وطبع باشرافه ، ووزعت نسخ منه يوم 9 على ممثلي الصحافة . وفي نفس اليوم الذي جرى فيه الحادث قدمت جريدة « لافيجي ماروكان » نفس الانتقاد الذي كان سيبديه الجنرال بينما هي تبرز في الساعة الحادية عشرة وتوضع للبيع في منتصف النهار ، والمؤكد انها لم تستلم التقرير من حزب الاستقلال . ولم يكن موقف المقيم العام نتيجة دافع عصبي بل نتيجة قرار مصمم . فانه التفت نحو الغزاوي ولوح له بقوله : « لقد عدتم الى السب في تقريركم . وهذا خطير ، واني اسجله ، ولا اسمح لكم اذن بتلاوته لانكم سددتم بعد الضربة بتوزيعه ، لكنكم بينتم هكذا مدى ما يحدوكم من الضغينة سيدي الغزاوي ، فلم يبق لكم مجال للبقاء في هذه القاعة لانه يوجد بكل المجالس حد للوقاحة والتحدي ، واهيب بكم حينئذ ان تغادروا القاعة » . فطلب البزيدي توقيف الجلسة ، فرفض الجنرال الطلب مؤكدا انه ما على نواب حزب الاستقلال الا مغادرة القاعة ، وهو ما فعله المنتخبون الوطنيون العشرة . فانتزعت منهم نيابتهم . فاقتبلهم السلطان اقتبالا رسميا .

وهكذا خول موظف سام للجمهورية الفرنسية لنفسه طرد مستشارين انتخبوا انتخابا نظاميا ، ثم عزلهم لانهم وجهوا انتقادات مبالغ فيها في نظره . ومن العسير ان نعثر على نص يبرر شرعية العقوبات ضد جريمة القدح في الذات الملكية ازاء مقيم عام ولو كان جنرالا . وقد ارتاحت الاوساط الرسمية لثقب الدمل وتيسر مواصلة النقاش بالمجلس مع ممثلين لهم تصور سليم لحرية التعبير بالاضافة الى ان المقيم العام اختار معظمهم بنفسه . ولم يمر هذا الحادث الشبيه بحادث 18 برومير (18 brumaire) (39) دون ان يقلق بعض خصوم حزب الاستقلال الذين راوا فيه رعونة ، على انه لا جدال في انه احرز على موافقة اغلبية الراى العام الفرنسي التي شعرت بنفسها هكذا في مامن . واما في باريس فقد كان تاثيره سيئا ، وبمعابر وزارة الخارجية وقع

[illegible]

39) — ملحوظة للمترجم : 18 برومير هو اليوم الذي ظفر فيه « نابليون بونابارت » باستقالة اعضاء حكومة المديرين (Le Directoire) بفرنسا ونقلة المجالس الى مدينة « سان كلود » (Saint-Cloud) في 9 نوفمبر 1799 والعام الثامن للجمهورية . ومن الغد فرق المجالس بالقوة . وهكذا انقرضت حكومة المديرين ، وابتدأ عهد حكومة القناصل (Le Consulat) ، وكان اولهم بونابارت .

الاضداع باقوال فيها شيء من الصرامة • فالحكومة لم تخلص من مشقتها •

السلاوي يدخل الميدان

بعد ان امر الجنرال المتخبين الوطنيين بالخروج عن الصف دبر هجوما على جناح العدو الشريفي بواسطة العمال • وكان التهامي القلاوي تحت الطلب ، فكلف بالعملية • « فسلطان الجنوب » يطارد الوطنيين بالجهة ، والباشوات يوزعون عليهم العقوبات التقليدية بالسجن لمدة ثلاثة اشهر لاسباب لا تخطر على بال • وبهذه الطريقة بات ما يقرب من ثلث السكان تحت رحمته • وسيد الاطلس يحسن تنظيم الاستقبالات الفخمة للاجانب ومعاملة الصحافة • ويستمر هكذا نظام استغلالي يعرفه جميع الناس ويحكم عليه جميع الناس ، ولكن يتواصل الاحتفاظ به بدعوى أنه من تراث « ليوتي » وبالخصوص لانه قد يكون سلاحا سياسيا ضد السلاطين المستقلين •

ففي الوقت المناسب احس القلاوي بانه اهل للدفاع عن السنة المداسة • ويقال ان باشا مراكش توجه للسلطان اثناء حديث معه جرى يوم 21 ديسمبر 1950 بهذا القول : « انك لست سلطان المغرب ، وانما سلطان حزب الاستقلال ، وتسير بالمملكة الى الفاجعة » • فاطرده سيدي محمد ، وابلغه بواسطة الوزير الاكبر انه يحجر عليه دخول القصر الى ان ياتي ما يخالف ذلك • واكتسى الحدث في الصحافة صبغة تاريخية • على انه مطابق « لاصفى تقاليد الاسلام المغربي والسنة الاسلامية » التي تهددها النزعة الاصلاحية الوهابية وهي « تقترن في ذهنه مع الشيوعية نفسها ، وقد تبنى حزب الاستقلال وسائل عملها وطرقها » (40) •

وكانت المساعي مبذولة لحمل الناس على الخلط بين الشيوعية والوطنية على غرار ما جرى في تونس بالنسبة للحزب الدستوري الجديد • واعلن ان القلاوي يحظى بتاييد عدة عمال وباشوات وعلماء من مراكش ، وجرت الموازنة بين هيبة سلطان الجنوب وهيبة الملك • واستغل حتى الانشقاق في صفوف الوطنيين ، فاستحسن وقوف الشيخ المكي الناصري رئيس حزب الوحدة المغربية (41) وحسن الوزاني رئيس حزب الشورى والاستقلال موقفا مناهضا

---

40) ـ « لوموند » ، 4 جانفي 1951 •

41) ـ في مقالاته القوية بجريدة « منبر الشعب » بتاريخ 2 و 10 فيفري 1951 وقد استحقت بها شكر جريدة « لافيجي ماروكان » بتاريخ 26 فيفري 1951 •

لحزب الاستقلال . واكتسب المقيم الآن اهلية « الحكم بين مختلف هذه النزعات المعارضة » (42) .

انـذارات الجنرال « جــوان »

وراى الجنرال « جوان » ليلة سفره الى امريكا ان الوقت حان ليسدد الضربة النهائية . فاخطر السلطان رسميا اثناء مقابلته له يوم 26 جانفي بانه يتعين عليه ان يصادق على الاصلاحات وقد دامت المحادثات بشانها الى ما لا نهاية له ، وخيره بشدة بين امرين : التبرأ من حزب الاستقلال او التنازل عن العرش فانتشر نبا الانذار بفرنسا وبالخارج حيث كان له تاثير بالغ خصوصا بالبلاد العربية . واضطر « روباشومان » للتصريح يوم 2 فيفري بان الحوار مستمر وبانه سيتواصل مع ملك لم ينفك ابدا عن تقديم اجل الخدمات الى فرنسا . واشار من جهة اخرى الى انه من المقرر ان تدعى اللجنة المختلطة الفرنسية المغربية لبحث اسس قانون نقابي جديد يمكن الشغالين من الدفاع عن حقوقهم من غير ان ينخرطوا في الجامعة العامة للشغل (C. G. T.) . وكان الخلاف يتعلق هنا ايضا بمسالة السيادة . وكان السلطان يرفض الموافقة على ان تفرض على النقابات مكاتب متركبة من اعضاء فرنسيين مثل ما كان يرفض في المجال البلدي قبول فرنسيين في المجالس وهو يعتبرهم اجانب .

وعاد الجنرال « جوان » من الولايات المتحدة ولا يخامره اى شك فيما يبديه الامين كان من الراى في سياسته ، وهو ما لم يغفره لهم . وزاده ذلك حرصا على الاسراع بالحل . ولم تزد مقابلتان مع السلطان الحالة الا خطورة . وفي 12 فيفري 1951 طالب الملك بادانة علنية لحزب الاستقلال وتطهيرا جذريا لعناصر المخزن المتهمين بعطفهم على الحركة الوطنية مثل وزير الاوقاف احمد برقاش وتعيين مترشحي الاقامة العامة لمناصب العمال والباشوات واصدار عقوبات على من اظهروا معارضة لموقف القلاوي . فافضى مجلس للوزراء موسع بحضور عدد من العلماء الى تصريح للسلطان وللمخزن اكد فيه سيدي محمد تعلقه بفرنسا وبمبادئها الديموقراطية ، وادان جميع اساليب العنف من حيث اتت وكذلك الايديولوجيات المعاكسة لايديولوجيات الاسلام ، ولكنه رفض ذكر حزب الاستقلال بالذات . واستقبل الجنرال اعضاء المجلس يوم 20 فيفري فلامهم بشدة عن معارضتهم وهددهم بنزول قبائل البربر الذي ان تم فسيحملهم على

(42) — « لوموند » ، 14 فيفري 1951 .

المجيء مرتعشين لالتماس النجدة اتقاء من شرهم . على ان المخزن احتفظ بمواقفه . وفي 22 فيفري قطع المقيم العام العلاقات مع القصر .

وكان السلطان وجه برقية الى رئيس الجمهورية الفرنسية يحكمه فيها بين القصر الملكي والاقامة العامة ، فاراد الجنرال « جوان » ان يحتاط من ناحية باريس قبل ان يتخذ قرارا خطيرا . وهو لا يجهل انه ان كانت سياسته محل تاييد ضمن الحكومة من طرف رئيسها « روني بليفين » و « هانري كاي » وزير الداخلية فانها محل تحفظات حقيقية من لدن رئيسيه الاثنين « روبير شومان » و « جول موك » وزيري الشؤون الخارجية والدفاع الوطني . فاعاد نظرية السلطان نفسها ، واكد انه لا وجود لتحكيم آخر سوى الذى ما انفك يقوم به هو نفسه بين الشقين المتنافسين : السلطان والمخزن من جهة والقادة التقليديين الكبار والطرق من جهة اخرى . وعبر « فانسان اوريول » في جوابه عن تضامنه مع المقيم العام وتصح السلطان بالخضوع ، مع ابقاء الباب مفتوحا لمفاوضات وحل وسط . ومن ذلك الحين تهاطلت الاحداث . فوافق السلطان على حل الديوان الملكي ، لكنه بقى معارضا لكل ادانة لحزب الاستقلال .

تنظيم مسيرة القبائل واخضاع السلطان

على ان المراقبين المدنيين تلقوا الامر لجمع فرسان القبائل بشتى الذرائع وتوجيههم الى فاس والرباط . وقد ابدى بعض الموظفين القدامى بالرغم عن اعتدال رايهم تحفظات بشان اسلوب لا سابق له وقد تكون عواقبه البعيدة خطيرة ، لكنهم امروا بالطاعة . وجاءت القبائل وخيمت تحت اسوار المدينتين . وكانت هذه التعبئة التى رتبتها الادارة بتمامها وكمالها مثلما اعترف به المراقبون المعينون هى التى وصفها الجنرال « جوان » بقفزة حقيقية لجميع ارياف المغرب الاقصى من اجل توضيح النزعات الحقيقية لراى الشعب المغربى النبيل » . وتم تطويق قصر السلطان وقصر مولاى الحسن بالجند وكان وجب الدفاع عنهما ضد الثورة البربرية . واستقبل القلاوى بالاقامة العامة وراجت الاشاعة بان سلطانا مغايرا ، هو مولاى محمد بن عرفة ابن عم سيدى محمد ، في انتظار خلافته . واعدت طائرة لحمل السلطان وعائلته خارج المغرب . وجاءت رسالة « فانسان اريول » التى سلمها اليه المعتمد بالاقامة العامة يوم 25 فيفري لتحطم ما بقى لسيدى محمد من آمال .

وفي نفس اليوم على الساعة السادسة مساء تلقى بروتوكولا دعي لامضائه في ظرف ساعتين ، والا تم خلعه . وكان عليه من جهة ان يصرح بانه كان دائما يضع نفسه « فوق الاحزاب والمنظمات السياسية وبعيدا عن جميع الخصومات الحزبية » وبانه يرفض اضمار العداء والعنف باسم « الاسلام » وكذلك « ايديولوجية العنف المخربة » ، وكان عليه من جهة اخرى ان يحيى « العمل السخي الذى تقوم به الجمهورية الفرنسية » . وكان على الوزير الاكبر ان يدين من جهته « اساليب بعض الاحزاب ، الاساليب المقامة على التهديد والضغط التى تؤول الى عرقلة العمل السياسي وشل مؤسسات حية وسليمة ، **ومن شانها ان توسع شقة الانقسام بين سكان هذا البلد » (43)** . وعند انتهاء الاجل المحدد اتى المستشار الشريفى « جيسلان كلوزال » يطلب الجواب ، ويصحبته ضباط بقوا ينتظرونه في المدخل . ولم يتجاسر السلطان على مواجهة النزاع . فصرح بانه سيمضى تجنبا لسفك الدماء ولكن تحت الضغط . وقد نقص لطف « كلوزال » بقدر الامكان من حدة ماساة هذا الاستسلام .

وبمجرد الحصول على الامضاء عادت القبائل الى بقاعها وقد ارضاها بلا شك نص التصريح . وتعاقبت في الايام الموالية لوائح موجهة الى السلطان وهى تندد بحزب الاستقلال ولها صبغة تلقائية مماثلة . من ذلك ان مقدم البئر الجديد دعا السكان المغاربة مساء نفس اليوم الذى صدر فيه الانذار ليلتحقوا من الغد في الساعة الثامنة صباحا بازمور التى كانت تبعد خمسة وثلاثين كيلومترا . وفي الطريق جمع اعوان المخزن الناس بسوق التين . وتم التجوال بالقطيع البشري عبر انهج المدينة والناس يجهلون جهلا تاما معنى هذا التنقل ، ثم دعي الى العودة من حيث اتى بعد ان القى خطاب عن محاسن الوصاية الفرنسية واخطار الدعايات الفاسدة . وكان هكذا يعبر عن عداوته للوطنيين بصورة صارخة مثلما قالت عنه التعاليق . وبما ان حزب الاستقلال اصبح مرفوضا من المخزن فان السلطات اجرت مئات الاعتقالات رغم « الهدوء المتناهي » الذى اظهره الوطنيون (44) .

محاولـة خلـع فاشلـة

« لقد هزت » المغرب الاقصى «ازمة لم يعرف لها مثيل منذ سنة 1912» (45) .

---

43) — النص في جريدة « لوموند » ، 28 فبراير 1951 .

44) — « ش — 1 — جوليان » ، في جريدة « لوموند » ، 11 ، 12 مارس 1951 .

45) — جريدة « لافيجي ماروكان » — 27 فبراير 1951 .

ولم تنحصر خطورتها في الفاظ البروتوكول التي لم تختلف اختلافا عميقا عن معروضات السلطان ولا حتى في ادانة الوزير الاكبر لحزب الاستقلال التي لم يعثر لها احد فضلا عنه ، بقدر ما كانت في عنف الاساليب التي لم يسجل تاريخ الحماية بالمغرب سابقا لها • وبالفعل اضطر السلطان للتبرى من اخلص اعضاده والسماح بالقاء القبض على اعضاء حزب الاستقلال بدون استنكار وكان ولاؤهم للملك يشكل اساسا مذهبيا للحزب • واستدرج سيدى محمد هكذا لا الى التنصل من ذويه فحسب بل ومن التنكر لنفسه • فحصلت في نفسه مرارة لن تنمحي • وبكل تاكيد كان للشريف في نفسه اكثر حساسية للاهانة مما للسلطان مثلما تالم « بي السابع » بفونتانبلو (Fontainebleau) بوصفه الرئيس الروحي للمسيحية اكثر تالمه كصاحب السيادة في الدول البابوية •

وان مثل هذا التعدى من الدولة الحامية على المحمي الذى كان عليها اصلا ان تحميه من كل تهديد ليدل على ان نظام الحماية لا يسير سيرا عاديا ; ولم يكن يمكن المقيم العام من فرض تنازل السلطان سوى استعمال القوة ، ولا حرج في التصديق عليه من بعد الحصول على تعيين علماء فاس لخلف له ; وقد احدثت مسيرة القبائل سابقة خطرة • وقد نظمتها الاقامة العامة ، فاخذت مظهرا تمرديا • وحتى لو كانت تلقائية لكانت تكشف عجز السلط الفرنسية عن منع مظاهرات صبغتها التمردية لا جدال فيها اذ ان معاهدة 1912 تلزم فرنسا بحماية السلطان • وكان تنازل سيدى محمد تتبعه بلا شك ثورات بين الفينة والاخرى يخمدها الجيش بقمع كان اتساعه من شانه ان يضمن مهلة لبضعة سنوات • ولا جدال في انه تم التفكير في هذه الامكانية بدون معارضة •

رد فعل الراي العام المغربي

عندما قبل العرش الشريفي المحنة ربح في الحقيقة المباراة • ولم يخف اكبر المعمرين استياءه من الوقوف في الطريق ; وقاطع الجنرال • ولم يكن لادانة حزب الاستقلال اى تاثير على الراى العام المغربي • والاكثر من ذلك ان القبائل البربرية ، التي كانت موافقتها مبررا لسياسة الاقامة العامة ، اظهرت بكل وضوح ان مشاعرها الحقيقية تعاكس المشاعر التي نسبت لها • ولم يمض مجرد شهر حتى عرف محرر بجريدة « ماروك براس » الجمهور الفرنسي بانقلاب الوضع ولم يكن مجال للشك في انحيازه لسياسة الاقامة العامة ، فقال : « ها ان فترة معاكسة وجديدة من الازمة المغربية تظهر اليوم • فانه يشار الى تجمع فرق

اهلية صامتة ببعض التجمعات السكنية في حدود البلاد البربرية جنوب مكناس تماما ، وذلك منذ اواسط الاسبوع الفارط تحت تاثيرات لا يعسر جدا تبين نقطة انطلاقها ، وهى تقضى ساعات طويلة بدون ضجة ولا تظاهر بقرب مكاتب المراقبات المدنية • ولما يسالون عمة يطلبون يقتصرون على القول بانهم يطالبون باقالة الباشوات والعمال الذين وقفوا فى الشهر الماضى موقفا معاديا للسلطان • ويجرى كل ذلك على غاية من الهدوء واللياقة حتى انه لا يجوز لسلطة المراقبة ان تتدخل • وتنظر الاقامة العامة بالرباط الى هذه الامور بعين اليقظة والهدوء ، ولكن لا تجادل فى انها مرحلة — جديدة وعلى شيء من الغرابة — للحالة العامة • ويكفى النظر فى هذه الحالة لان تستنتج ان الوجهة السياسية للمشكل الاهلى المغربى له الاولوية على الوجهات الاخرى » (46) • ولا سبيل الى اثبات افلاس بالفاظ اكثر مواراة •

وشعر القلاوى ذاته بوضعه المزيف ، ولم يتبعه اى واحد من اصحاب الرتب العالية، فطمع الى استرجاع حظوته•واخيرا انضمت الاحزاب الوطنية المنافسة لحزب الاستقلال الى هذا الحزب ، وكان وجودها يبرر « تحكيم » الاقامة العامة ، فالفت معه تجمعا يوم 10 افريل 1951 بمناسبة الذكرى الرابعة لمقدم سلطان المغرب • وقرر عبد الخالق الطريس واحمد بن سودة والمكى الناصرى وعلال الفاسى نيابة عن حزب الاصلاح الوطنى وحزب الشورى والاستقلال وحزب الوحدة المغربية وحزب الاستقلال ان يتحدوا من اجل « الكفاح فى سبيل استقلال المغرب التام » ، والتزموا بعدم الانخراط فى الاتحاد الفرنسى وبرفض كل تفاوض مع المحتل قبل اعلان الاستقلال وكذلك كل تعاون مع الشيوعيين وبالتعاون مع الجامعة العربية فى نطاق نشاطها قبل الاستقلال وبعده • وتم الاتفاق بمحضر صالح ابو رقيق مندوب الجامعة العربية • وساد الاعتقاد بان اتفاقات سرية اضيفت الى البروتوكول العلنى •

لقد قاسم الشعب كله السلطان حماسه • وعززت المحنة تاثيره وشعبيته • ومست التنازلات التى فرضت عليه المسلمين فى كرامتهم خاصة بعد ان نشرت جريدة القاهرة الكبرى « الاهرام » يوم 27 مارس تصريح سيدى محمد بانه امضى على البروتوكول تحت « تهديد بعض الشخصيات الرسمية بالاقامة العامة » وبسبب « حركة للقبائل بقيت اسبابها مجهولة » • واعتبر العالم

46) — « م • بلجار » فى « لوموند » ، 3 افريل 1951 •

الاسلامي كله ان السلطان كان محل اهانة يشاطره اياها . وتشنجت اعصاب المسلمين التواقين الى الوحدة لان الازمة المغربية دامت واخذت شكل كفاح مثير للشفقة . وكانت الاشاعات الكاذبة التى راجت في القاهرة نتيجة لتحمس الافكار اكثر منها سببا لها ، ولم يكن قذف فاس اقلها سخافة . وظل الراى العام الشرقي منذ أسابيع مستعدا لقبول كل شيء . فعندما تنتاب الحمى الراى العام يصبح عمل المموهين يسيرا . ولم يتيسر الوقوف على مصدر البرقيات الكاذبة الواردة من طنجة ، لكن استعمالها احيانا لاغراض سياسية داخلية والتباطؤ في الاقتناع بوجوب بيان الحقائق اعطيا المظاهرات المصرية صبغة افراط لم يقبله الراى العام الفرنسي واضرا في الجملة بالقضية المغربية .

مصادقة الاروبيين حتى الاشتراكيين منهم

لقد تلقى الفرنسيون بالمغرب اعمال القوة التي قام بها الجنرال « جوان » بحماس . فاخيرا جاء مقيم عام يعرف مخاطبة الاهالي باللغة المناسبة ، وحملهم على احترام هيبة فرنسا . وليس من المؤكد انه لم يسد حتى في اكثر الاوساط تحررا الشعور بالارتياح للعلم بان هناك حماية قوية . وقدم الحزب الاشتراكي تقريرا عن الاجراءات التي طرد بمقتضاها الاعضاء المغاربة لمجلس الحكومة ، فرفض اتخاذ موقف في الموضوع بالرغم عن ان الامر كان يتعلق تعلقا واضحا بتجاوز للسلطة ، وقال : « لما دعا المقيم العام العضوين المتدخلين في النقاش الى مغادرة قاعة الجلسات استنادا الى افراطهما في الكلام والى موقفهما غير اللائق نحو الدولة الحامية (ولا يدخل في نطاق هذه الدراسة ان ننظر في مسالة هل كان هذا الاجراء مناسبا) لم يتبعهما الا سبعة من زملائهما » بينما ادلى 30 آخرون بتصريحات ولاء والحال ان المنشقين كانوا وحدهم منتخبين بينما كان الباقي الوحيد معينا من المقيم العام ، وهو ما تجدر في الاقل الاشارة اليه . وقد يستغرب اشتراكي بفرنسا مثل هاته الحجة واكثر من ذلك ان تبدو قلة احترام الدولة الحامية بمثابة جنحة . وتقول اللائحة في مكان آخر « ان الارياف او بالاحرى ارستوقراطيات الارياف رفضت اتباعهم في مضمار سياسة المغامرة التي ارادوا ان يجروها اليها بالرغم عن التاييد الملكي الذي يستظهر به نواب المدن الوطنيون . واتضح التناقض مرة اخرى بين اهل الريف واهل المدن في شكله الخاص الذي يكتسيه في المغرب الاقصى » . وربما كان من المفيد ان يوضح ان هذا الشكل ، الخاص بلا جدال ، اتضح في هذه الحالة بالاوامر التي اعطاها المقيم العام الى المراقبين لتنظيم مسيرة

القبائل . وظن الاشتراكيون ان القلاوى « نجح بشيء من السرعة في جلب عدة قادة من الريف بربرا وعربا » . ويكفي ان نسأل السلط المسؤولة لنقف على مدى هذا النجاح .

وانطلاقا من هذه الاحداث استنتج الحزب « انه لم يعد للوطنيين الحق في التكلم باسم الشعب المغربي باسره . ويمكن حتى القول بان نفوذ الملك خرج منقوصا من هذه القضية » (47) . لكن من شاهدوا المظاهرات التي حيت تنقلات سيدي محمد خاصة بالدار البيضاء لا يشاطرونهم هذا الراى وكذلك الجنرال « قيوم » . وهكذا فان المناضلين الذين يمثلون اقصى اليسار الفرنسي بالمغرب ويتفانون لقضية الاهالي الاجتماعية في ظروف صعبة تاثروا بالجو المحلي الى حد انهم كانوا عاجزين على تقديم تحليل موضوعي للاحداث في وضع كانت فيه مواطن تجاوز السلطة فادحة الى درجة انه لا سبيل الى اشتباه الامور على ديموقراطي بفرنسا ، « فجوراس » كان يؤيد البرجوازي الكبير « داريفوس » لانه حكم عليه ظلما . والتقاليد الاشتراكية بفرنسا تفرض ان يكون المرء الى جانب ضحايا التعسف مهما كانت طبقتهم الاجتماعية وآراؤهم .

تقصير الحكومة

كان تقصير الحكومة الفرنسية تاما تقريبا ، وقد ابتهجت بانها لم تكن تواجه نزعة منصفية (47) جديدة ، وفكرت في ان تصرف الجنرال في اقرب الآجال الى مهامه الجديدة كقائد اعلى للقوات الحليفة بمنطقة اروبا الوسطى . وكان المقيم العام لا يرى هذا الراى . ويؤكد انه ان فقد تاييد « روبار شومان » فهو متاكد من تاييد « جورج بيدو » . وذهب به ازدراؤه بالحزب الذي ينتمي اليه وزيره وهو قرب الحركة الجمهورية الشعبية الى ان امر بحجز جريدته « لوب » التي انتقد رئيس تحريرها « بيار كورفال » سياسته بقوة (49) .

---

47) ـ المؤتمر القانوني الثامن والعشرون بالدار البيضاء ليومي 17 و 18 فيفري 1951 . اللائحة التي صادقت عليها اغلبية فرع الرباط .

48) ـ ملحوظة للمترجم : اشارة الى حركة التاييد التي نشات عن عزل المنصف الباي بتونس.

49) ـ لقد انتقد بشدة اعضاء الحركة الجمهورية الشعبية مثل « بيار دو شيفنيي » موقف «بيار كورفال» واتهمه «قابريال دوبيفر» في جريدة «لوفيقارو» ليوم 23 فيفري 1951 بانه « يضر اضرارا خطيرا بنجاح المفاوضات التي شرع فيها المقيم العام » ، وطالب « روبار بوني » في جريدة « لورور » لنفس اليوم بتبرء عمومي وعاجل من « هجومه الذي لا يوصف » . ولم تمد الحركة الجمهورية الشعبية تعيين المستشارين الاثنين اللذين وقفا موقفا معاديا لسياسة الجنرال « جوان » وهما « بيار كوربال » و « اندري دو برتي » بمناسبة تجديد مجلس الاتحاد الفرنسي في جويلية 1952 ، وذلك بالرغم عن التقدير الجماعي الذي يتمتعان به وعن قيمتهما التي لم يقدح فيها .

ولم يكشف له استمرار الحركة الوطنية عن خيبته بل بالعكس حمله على العودة الى العملية الجراحية : « فالجنرال « جوان » يرى والحالة تلك ان نقلته القادمة - على غرار ما جرى التفكير فيها - توشك أن تنجر عنها اوخم العواقب وان تاولتها السلط المغربية المتعلقة اشد التعلق بالحضور الفرنسي على انها تخل له معناه . ويرى انه ان دامت الازمة أطول فيجب ان تكون تسويتها على يديه في الاتجاه الذى فكر فيه في الاول » (50) . وقدم الى باريس ليدافع عن قضيته بين 15 و 22 افريل 1951 . فاعلن ان السلطان لا يمانع في امضاء الظواهير التى تقدم اليه . وغادر باريس ظافرا بالتمديد في مهمته. والغى دورة الصيف لمجلس الحكومة غداة انتخابات الهيئات الفرنسية التى تاكدت نزعتها اليمينية حتى في الهيئة الثالثة بالرغم عن نجاح الاشتراكيين بمراكش ، وذلك بدعوى ان تعديلا في الميزانية يقوم مقام الميزانية ، وانه لم يتيسر بعد انتخاب الممثلين المغاربة على اسس جديدة وموسعة بصورة ملموسة.

مقيم عام مشاجر وغير ناجح : « الجنرال قيوم »

كانت مقاومة السلطان لضغط الاقامة العامة تزداد يوما بعد يوم . وان قبل الموافقة يوم 2 جوان على مشروع مجلة جنائية بقيد الدرس منذ ثلاث سنوات ، وان قبل يوم 7 جويلية تاسيس جماعات في مجموع المغرب مدعوة الى التصرف التدريجي في البلديات الصغيرة ، فانه رفض امضاء الظهير المؤسس للمجالس البلدية الفرنسية الاسلامية في المدن الكبرى حتى لا يقحم في المجموعة المغربية فرنسيون اتوا في عهد الحماية ، ويرهن هكذا المستقبل . ويبقى الاصلاح النقابي معلقا ايضا . ومازال الامر على هذا النحو عندما قرر مجلس الوزراء الفرنسي يوم 28 اوت 1951 تعوض الجنرال « جوان » بالجنرال « اوقستان قيوم » . فقام المقيم العام بجولة وداع واسعة عبر المدن الكبرى قبل مغادرة المغرب الاقصى نهائيا يوم 20 سبتمبر . وفي خطابه الاخير امام السلطان بتاريخ 14 سبتمبر يوم عيد الاضحى صرح بقوله : « اشعر باني قمت بكل ما كان بوسعى في نطاق المعاهدة لارضاء رغائب شعبكم المشروعة ، وبالخصوص فيما يتعلق بايصاله الى تسيير شؤونه بنفسه » . وترك في الجالية الفرنسية اسفا عميقا .

---

50) - « لوموند » ، 17 افريل 1952 .

وقد كان للجنرال « قيوم » ماض طويل فى الخدمة بالمغرب الاقصى • وكانت له اكثر من سلفه بكثير دراية بالاساليب الادارية ومعرفة بسنة « ليوتى » • وكان يكبر فيه اتساع معارفه ومؤهلاته الاستثنائية لتعلم اللغات واتزان فكره • وهو ما زاد فى استغراب كثرة خطبه ولهجتها • ولم يظهر الجيش المعروف « بالصامت الكبير » ابدا ما اظهره من الهذر ان لم يكن من القوة • فقد دعى الموظفون من ناحية الى تعلم العربية فى ظرف سنة ومن ناحية اخرى الى العمل • لا ثمانى ساعات فقط فى اليوم بل اربع عشرة وست عشرة ساعة وحمل الملفات الى بيوتهم من اجل ذلك • وخاطب المواطنين بقوله : « ساحطم المحطمين • ان الشجار مهنتى ، وانى اعرف كيف اثأر للشتم » ووعدهم «باطعامهم التبن » • وبين تضامن الامم فى صيغ مقتضبة فقال : « هل ثمة امة واحدة مستقلة ؟ حتى الولايات المتحدة الامريكية فهى ليست مستقلة • انها تابعة لنا • واذا لم نسايرها تبقى بمفردها • وفرنسا ايضا تابعة لمن يقبلون على الانضمام اليها » • وصاح اثناء ندوة صحفية حيث خاض فى نقاش مع ممثل جريدة « الراى العام » فقال : « لا وجود للكذب • انى لم اكذب ابدا وساقول لكم الحقيقة » ، ثم بسط ذراعه وقال : « اقسم لكم بذلك • فهل تقدرون على ان تفعلوا مثلى ؟ » فتردد الصحافى المغربى برهة ثم ابتسم ورفع يده بدوره واقسم (51) • ولم تبعث مبادرات المقيم العام المرتجلة وخاصة ما حصل منها فى مراكش القلق فى دائرته فحسب بل تلقت وزارة الخارجية بورع هذه النماذج من البلاغة العسكرية المختلفة شديد الاختلاف عن اسلوب السفارات المصقول •

وعوض ان ينزوى المقيم العام الجديد بمكتبه وينغمس فى الملفات فقد فضل ان يتناول « عصا الحاج » و « يتذوق طعم المغرب » متجولا فى البلاد ، (52) وهو ما كان يجلب العطف ، لكن ان تحرر بالفعل من الوصاية التى كان سلفه لا يتردد فى فرضها على نشاطه الشخصى فان سياسته لم تسجل تغييرا ملحوظا فى الاتجاه ولم تفض بالتالى الى اى نتيجة ناجعة •

ركود خطير

فالوضع كان يستوجب تقويما لا سيما وقد طرحت سياسة الجنرال

51) — جريدة « ماروك براس » ، 29 اكتوبر 1951 •

52) — تصريح الى الصحافة الانكليزية — الامريكية صدر فى جريدة « لافيجى ماروكان » غرة نوفمبر 1951 •

« جوان » القضية المغربية على الصعيد الدولى • وقد شرعت الدول العربية ابتداء من 7 فيفرى 1951 فى عمل حازم افضى يوم 4 اكتوبر 1951 الى مطلب ترسيم فى جدول اعمال جمعية منظمة الامم المتحدة فى دورتها لنوفمبر بباريس • وبالرغم عن معارضة الحكومة الفرنسية التى كانت تعتبر القضية المغربية مشكلة فرنسية صرفة فقد اثيرت مناقشة طويلة يوم I5 ديسمبر انتقد خلالها ممثلو الدول العربية بشدة نظام الحماية • واخيرا قبلت الجمعية التاجيل الذى اقترحه مكتبها ، ولكن باغلبية ثمانية وعشرين صوتا مقابل ثلاثة وعشرين وامساك سبعة ، ولم يكن من شأن النتيجة الموقتة الا ان تحث الطالبين على استئناف الهجوم •

ولقد نشبت معارك خطيرة بالدار البيضاء ليلة المداولات بمناسبة انتخاب النواب المغاربة للحجر الفلاحية والتجارية والصناعية ، وكان الوطنيون اوصوا بالامساك عنها بالرغم عن اتساع الهيكل الانتخابى من ستة آلاف ناخب سنة I947 الى مائة وخمسين الفا سنة I952 • وذلك لانهم راوا فى التعجيل بدعوة الناخبين الى الاقتراع تزويرا للانتخابات • واسفرت المعارك عن خمسة قتلى واربعين جريحا من المغاربة وثلاثين جريحا من الاوروبيين من بينهم عشرون من اعوان الامن • وشاع الخبر بان المقيم العام كاد ان يكون ضحية اغتيال •

وبينت هذه الاضطرابات ان توتر الافكار كان بعيدا عن الهدوء • ولا يزال المغاربة ينتظرون دائما اصلاحات هيكلية عميقة • وقد طالب بها السلطان فى عبارات واضحة جدا يوم عيد العرش فى I8 نوفمبر I95I ، واعاد الى الاذهان مذكرتيه المؤرختين فى 3 اكتوبر وغرة نوفمبر 1950 ، وقد طلب فيهما « اتفاقية تضمن للمغرب سيادته الكاملة وتقيم علاقاته مع فرنسا على اسس جديدة فى نطاق الصداقة واحترام المصالح العليا للبلدين ، مع صيانة مصالح مختلف العناصر المقيمة بمملكتنا الشريفية » • واضاف : « ولم ننفك منذ ذلك العهد نؤمل فى افتتاح مفاوضات بهذا الشان ، مفاوضات ما زلنا ننتظرها مع بقائنا على تعلقنا بمبادئنا السامية وغايتنا القصوى » (53) • ويكرر ان احسن نظام سياسى هو « النظام الديموقراطى المطابق لديننا السمح الحنيف » • ويبدو انه كان بامكان الحكومة الفرنسية أن تعرض اصلاحات

(53) — نشر النص بحذافره فى « ماروك بوليتيك » (المغرب السياسى) 25 نوفمبر I95I ، وبجريدة « الاستقلال » I8 نوفمبر •

تقود المغرب الى ملكية دستورية فى مراحل اعتماداً على هذا التصريح بالعقيدة الديموقراطيــة ، لكنهـا لم تكتف بعدم جمــع اللجنــة المختلطــة التى تعهــد « روبار شومان » بدعوتها ، بل تركت للسلطان استئناف المبادرة بالعمليات بعد مداولات منظمة الامم المتحدة وندوة الـدول الاسلاميــة بكراتشى حيث اتخذ موقف واضح جدا ضد السياسة الفرنسية •

مـذكــرة السلطــان المـؤرخــة فى 20 مــارس 1952

سلم الجنرال « قيــوم » الى وزارة الخارجية الفرنسية يوم 20 مارس 1952 نظيرا من المذكرة التي أعدها سيدى محمد « ثمانسان اوريول » • ولم ينشر النص ، فلم يتعرف عليــه الا مــن خــلال ما فشى منه (54) • فهــو حقيقــة « برنامج مضبوط ومنسجم ويحتوى على ثلاثة ضروب من المقترحات • فعلى فرنسا بادىء ذى بدء ان تقبل مبدا المفاوضة فى نظام الحماية ، ولا يتسنى الشروع فيها الا بعــد اتخاذ بعض الاجراءات مثــل رفع حالة الحصار ومنــح المغاربة الحق النقابى حتى تزول حالة التوتر • ويكون من الضرورى قبل فتح المحادثات ان تترك للسلطان حرية تشكيل حكومــة لها قيمة تشتمــل عــلى شخصيات كفاة • واخيرا يجب ان تتنــاول المفاوضات مراجعــة العــلاقــات الفرنسية المغربية طبقا لروح مذكرة اكتوبر 1950 •

وقد صرح لسان الحركة الوطنية بان « لفرنسا مصالح وحقوق يقر المغاربة شرعيتها • ويمكن ان تصان هذه الحقوق وتضمن فى اتفاقية جديدة • زد على ذلك انه ليس فى الحسبان قطع الصلة بفرنسا • بل بالعكس ، المطلوب هو تحقيق الاستمرار للعلاقات الفرنسية ــ المغربية ، لكن فى اطار يرضى رغائب الشعب المغربى » (55) • وكان السلطان ، مثلما صرح به فيما بعد ، يــرى « ان احكم تسوية للمشكل المغربى هى فى تحديد جديد للعلاقات الفرنسية ــ المغربية يضمن للمغرب سيادته وللفرنسيين مصالحهم المشروعة فى نطاق تعاون مثمر بين المغرب وفرنسا فى الميادين الاقتصادية والثقافية والدولية ، مــع صيانة مصالح الاقليات الاجنبية الاخرى » •

وكان على الاتفاق الفرنسى المغربى الجديد فى راى سيدى محمد ان يرمى الى « غاية قصوى هى تمكين الشعب المغربى من تصريف شؤون بلاده بواسطة

---

(54) ــ انظر خاصة « ليكو دى ماروك » ، 29 مارس 1952 و « الاستقلال » 29 مارس 1952 •

(55) ــ « الاستقلال » 29 مارس 1952 ، ص 6 •

برلمان يمثله وحكومة دستورية حسب الاساليب الديموقراطية العصرية ، ولا يتعارض اقــرار مثــل هــذا النظــام قط مع استمرار التعاون الفرنسى — المغــربى » (56) ·

وقد شعر المسافرون المطلعون الذين سنحت لهم الفرصة بالتردد على القصر الملكى بارادة السلطان المزدوجة فى تحقيق الوفاق مع فرنسا وتاكيد السيادة المغربية فى شكل ملكية دستورية · وعرف هذا الموقف بباريس ، وادى ببعضهم الى عرض اصلاحات هيكلية عميقة تسير بالمغرب الاقصى الى الاستقلال الداخلى ، وادى بالبعض الآخر الى تصلب فى موقفهم الاستبدادى (57) ·

رفض المقترحــات

لما كان السلطان قابلا لنظام التكافل وبالتالى لدوام الرابطة بين المغــرب وفرنسا والعكس بالعكس فلا مانع فى ضبط مراحل تسير بالمملكة السعيدة الى الاستقلال · وبامكان الحكومة ، وهى مطلعة كما ينبغى على مجارى الامور ، ان تصوغ برنامجا للمستقبل على هذه الاسس · لكن تركيبها الذى يسوده « المستعمرون » التقليديون كان يحجر عليها ذلك · وبالفعل فبعد انتظار دام ما يقرب من ستة اشهر جاءت مذكرة 17 سبتمبر 1952 ترد بالرفض · وبدات وزارة الخارجية الفرنسية تذكر بالعمل الفرنسى الواسع النطاق ، ثم اقترحت بدلا من الاصلاحات تاسيس جماعات ادارية منتخبة فى الارياف ، واحداث لجان بلدية مختلطة فى المدن ولجان فرنسية مغربية فى المراكز الريفية حيث يكون للمنتخبين الفرنسيين حق التصويت ، وتقديم نصوص فى اجل قريب تضبط النظام العدلى · وتؤكد المذكرة ان « للادارة بالمغرب الاقصى صبغة مختلطــة بمعنى فرنسية — مغربية بمراقبة السلط الفرنسية » (58) ، لكنها لا تشير لا الى تاسيس حكومة مغربية ولا الى تطهير المناخ السياسى ولا الى منح الحريات الاساسية التى طالب بها الملك · وقدمت الاصلاحات ككل لا يقبل التجزئة · واخيرا صرحت الحكومة الفرنسية بانها مستعدة بعد الاتفاق على الاصلاحات

---

56) — بلاغ القصر الملكى بتاريخ 8 اكتوبر 1952 · وقد نشرته جريدة « الاستقــلال » فــى 9 اكتــوبر ·

57) — « جان لاكوتير » ، هل ينبغى مراجعة العلاقات الفرنسية المغربية ؟ فى « لوموند » 24 جوان 1952 ، ويقابل الكاتب ما اقترحه « ش · ا · جوليان » من نظام تكافل بمعارضة « رونى دو سوكوتزاك » و « جاك لادرى دى لاشاريار » لكل تفاوض ·

58) — بلاغ القصر الملكى بتاريخ 8 اكتوبر 1952 ·

للاعلان في وثيقة رسمية عن مبادىء مشاركة ودية وتكافل في المصالح والمهمات تقام عليها في المستقبل العلاقات بين المغرب الاقصى وفرنسا بدون ان تمس الاغراض والسلطات الملموسة التي حددتها معاهدة فاس » ·

وكان هذا الرد ابعد ما يكون عن ان يسجل تقدما ، بل ترجم عن ارادة مصرة على مراوغة الصعوبات عوضا عن مواجهتها · ولا شك ان الحكومة الفرنسية اظهرت عن الحذر اكثر مما اظهرته في مذكرة 15 ديسمبر 1951 تجاه تونس، لكن الروح التي حدت بها كانت هي نفسها· فوجود ادارة مختلطة ذات صبغة فرنسية - مغربية لا مبرر له قانونيا ، ولا يرمي سوى الى العودة بطريقة غير مباشرة الى فكرة السيادة المزدوجة · واما التصريح بالتكافل فهو يقتصر على استعمال الكلمة بعد افراغها من معناها · فالتكافل يعني تبعية متبادلة ، فكيف يمكن ان يتحقق مع الابقاء على معاهدة فاس التي تجعل المغرب تابعا لفرنسا ؟ فالحكومة الفرنسية وجدت نفسها امام فكرة جديدة ومثمرة تسمح بطرح مشاكل السيادة دون تناول المحتوى القانوني للاتحاد الفرنسي ومع ابراز الارادة في التضامن المتبادل · لكنها عقمتها منذ استعمالها لاول مرة وارجعتها الى فكرة سلطة منفردة · فكانت ردود فعل السلطان لا مرد لها · وقد عبر في جوابه بتاريخ 3 اكتوبر 1952 عن « اسفه العميق » لان الحكومة الفرنسية لم تاخذ مقترحاته بعين الاعتبار ، ولفت نظرها الى ان معروضات الاصلاحات الفرنسية « ترمي عمليا في روحها واتجاهها الى تقسيم السيادة المغربية » (59) · وبقي النزاع قائما على الصعيد القانوني ·

ماساة الدار البيضاء

تدهورت العلاقات الفرنسية المغربية فجاة بما جرى من الاحداث المفجعة في الدار البيضاء يومي 7 و 8 ديسمبر 1952 ، وقد تالم العمال المغاربة تالما شديدا لمقتل فرحات حشاد · فانعقد اجتماع عام نقابي احتجاجي صبيحة يوم 7 بدون حادث · ويروي مرشدو الشرطة ان الخطباء وجهوا نداءات الى الثورة · على أن المجتمعين عادوا الى احيائهم القصديرية مخترقين المدينة من غير حتى التلفظ بالفاظ معادية · وفي المساء نشب اصطدام بالحي القصديري بالمقاطع المركزية على اثر تدخلات من المهم ان تضبط ماهيتها · فقد اصيبت جمهرة من المغاربة كانت تحاصر مركز الشرطة بطلق ناري غزير · ويؤكد

(59) - بلاغ القصر الملكي بتاريخ 8 اكتوبر 1952 ·

بعض الشهود انه سقط قتلى عديدون • وانعقد اجتماع عام جديد يوم 8 ديسمبر بعد الظهر بوسط المدينة • وقد حجره رئيس الجهة بدون ان يعلم بذلك المسؤولين النقابيين • وتركت قوات الامن حرية الدخول للمتظاهرين بينما كانت هي على علم بقرار التحجير ، ثم اقفلت عليهم ما اسمته الصحافة المحلية « بالمصيدة » • والقت القبض عند الخروج « بقوة ضاعفها الغضب عشر مرات » • وتمكن الاوروبيون من اشباع غرائزهم في المغاربة الذين تركتهم الشرطة وشانهم • وظل هذا الحشد من الاوروبيين المتركب من رجال ونساء مسلحين بادوات مختلفة صالحة كدبابيس يقوم بكل حرية بعملية تقتيل منظم الى ان دعي الجيش « الى وضع حد لهذه المشاهد الوحشية » • ولم يظهر اعوان الشرطة اقل حماس من الجمهور • ويروي شاهد العيان نفسه « انه صحيح ايضا ان ضرب المتظاهرين الموقوفين بانتظام استمر في محلات المحافظة المركزية ورأينا في المعابر اكثر من مجروح متضرر جدا لربما روقب موته فيما بعد » (60) • ولم يقتل اي فرنسي ، لكن الجرائد اعلنت على عدة اعمدة انه تم اغتصاب فتاتين ومثل بهما ، وهو ما اقر عدم صحته فيما بعد ، وتم تصويبه باحتشام تام • على ان طابورا من المتظاهرين كان قادما من جنوب الدار البيضاء عن طريق مديونة ، فردته قوات الامن التي اطلقت النار على الراجع بدون سابق انذار ، وعند ذاك جندل الجمهور ثلاثة فرنسيين وربما اربعة (61) • فامرت الاقامة العامة بالقاء القبض بالجملة على اعضاء حزب الاستقلال وجميع المغاربة المرتاب في نشاطهم الوطني وفي صلتهم بالقصر الملكي • وحجر حزب الاستقلال •

وكانت لحوادث الدار البيضاء عواقب سياسية خطيرة ، وقد تلقت الصحافة الفرنسية بالمغرب اكثر الانباء اختلافا بطيش لا يتصور ، وهي تتحمل مسؤولية ثقيلة في الهلع الذي ساد يوم 8 ديسمبر • وذهب الامر بالسكان الفرنسيين الى الاستهزاء بالنشيد الرسمي الشريفي يوم دفن الضحايا الاوروبيين • وطالبوا بعزل السلطان الذي أعتبر مسؤولا ادبيا • وقد صمد الجنرال « قيوم » الى الخالص سابقا الى عربي من ارومة شريفة • وذهب الامر بكثير من الفرنسيين

---

60) — « شارل فافرال » ، المصار الحقيقي لصلاة العصر المغربية ، في جريدة « باري براس » 6 فبراير 1953 - والمقال معاد للوطنيين ، ويتبنى نظريات الاقامة العامة فيما يخص اعمال التحريض •

61) — هوية الرابع غير محققة وهو «مورا» (Mora) الذي يجب تمييزه عن رجل يدعى « مورو » (Moreau) وهو على قيد الحياة • والامر كذلك بالنسبة لموتى المخزن المقتولين بالمقاطع المركزية المجهولي الاسم واللذين لم يذكرا في اي موكب رسمي •

هذا الحد امام ضغط المتطرفين ، فصار يجعل من ازالة الملك العنصر الاساسي لبرنامجه ، واختلق موظف ماهر سلالـة ادريسية للقـلاوى محولا البربرى حتى الى اقتراح قيام جمهورية مغربية يسيرونها على غرار الاروبيين بافريقيـا الجنوبية •

احتـرازات بـاريس

ان باريس صمدت امام حمى الحصار التى استولت على الاروبيين بالـدار البيضاء والرباط • فقد استغرب الهدوء السائد بخريبقة وجرادة وبور ليوتي (Port Lyautey) (62) حيث يوجد سكان مـن العمال • وكانت لحـوادث 1952 ، مثل ما كان لحوادث 1947 ، بعض خاصيات مقلقة ، وردد فى الاوساط الرسمية اسم موظف سام اختلفت الاراء فى مبادراته • واحتارت اكثر العقول اعتدالا لظروف القمع • ووردت من كل صوب انباء مذهلة عن نظام التعذيب الذى اقر فى السجون وبدت اعمال التقتيل الجارية يوم 8 ديسمبر تحديـا للضمير العام • وللمرء ان يتساءل هل ان اعمال الطرد كانت خاضعة للضرورة ام للاحقاد • من ذلك ان معمرا صغيرا ، هو « بينار باران » احد سواقط الحرب الكبار ورئيس قدماء المحاربين سابقا ، وقد قام بدور المفاوض اثناء حرب الريف ونال على ذلك شكر الحكومة ، قد تم توقيفه وغلت يده وكان فاقدا لاحد ذراعيه وارسل فى الحال الى فرنسا • اما جريمته ؟ فهى انه نشر مقالات على صفحات جريدة « الاستقلال » ، واكدت الاقامة العامة ان احدهـا حرض المغاربة على تسبيل الدم • وبعد التحقيق اعترف بانه كتب بالضبط عكس ذلك ، واضطرت مصالح الاخبار للاعتراف بما ارتكبته من تزوير • ولم يجد الاجراء الذى اتخذ ضد « باران » مدافعا واحدا بباريس ، بيد انه لم يلغ حتى لا يحصل النيل من هيبة المقيم العام •

وبقى الراى العام الفرنسى على شكوكه فى نقطة اخرى • فالاقامة العامـة تؤكد انه لم يسقط سوى ثلاثة وثلاثين مغربيا بينما تتهاطل المعلومات الصادرة عن عسكريين ورجال للكنيسة وموظفين وهى تقدر الضحايا بعدة مئات (63) •

62) ـ حاليا : القنيطرة •

63) ـ فى جريدة « ديمانش ـ اكلير » الصادرة بمدينة نانسى (Nancy) المؤرخة فى 11 جانفى 1953 يؤكد « شاهد » له عداوة شديدة مع المغاربة ان الرشاشات يوم 8 ديسمبر « ابادت تماما جمهور الثوار المكتظ مكبدة اياه خمسمائة قتيل على الاقل » •

وان مثل هذا الاختلاف يبرر وحده تحقيقا برلمانيا • وان في تاثر بعض العناصر الكاتوليكية ومطالبة « فرانسوا مورياك » بالحقيقة باسم الضمير المسيحي في عبارات ذات علو ممتاز لمعيار للقلق المتزايد في النفوس المستقيمة رغم تفاني الاقامة العامة في بعث حملات صحفية تندد « بالخياليين في باريس » (64) • فالراي العام النير مضطر لان يلاحظ من ناحية انه لم تقع الاجابة عن الاسئلة المضبوطة التي القيت فيما يتعلق بحوادث الدار البيضاء (65) ، ومن ناحية اخرى ان التواطؤ بين حزب الاستقلال والحزب الشيوعي في اعداد مؤامرة الدار البيضاء لم يقم عليه الدليل بعد ، وانه لا يتجلى اكثر من ذلك من محاكمة قاتل تادلـة •

وكان للنقاش في موضوع « مشاكل افريقيا الشمالية امام المسلمين وقـع عميق لا في العالم الكاتوليكي فحسب بل في اوساط المسلمين » ، وقد نظمه المركز الكاتوليكي للمثقفين يوم 26 جانفي 1953 • فبعث في نفوس العديد من المتدينين ازمة ضمير تتماشى مع اثرى التقاليد المسيحية • واما الهجوم المضاد الذي نظمته الاقامة العامة فهو يتمتع بوسائـل ضخمـة ويسعى في مقابلة الكاتوليكيين الذين لا يخضعون ايمانهم لمصلحة الدولة بالكاتوليكيين المنسجمين • وان البلاغ الذي سلمه بعض البرلمانيين الكاتوليكيين الذين جاءوا

(64) ـ احسن مثال جاء في مقال « ر • كارتيي » : « يجب على السلطان ان يتغير والا وجب تغييره » ، وقد نشرته « باري ـ ماتش » المؤرخة في غرة فيفري 1953 ، وهو يحمل من بين عناوينه الفرعية : « الانصراف اما لفرنسا واما للسلطان » ، وهي صيغة ماخوذة عن الشريف الكتاني ، وفيها مدح للقلاوي ولسياسة « الدبوس » • ويحتوي المقال على تبرير مصطنع للدور الذي قام به « بونيفاس » رئيس جبهة الدار البيضاء ، وقد اعترف بان القمع الذي نظمه كان«قاسيا» لكنه منقذا•وفي رد عنيف نشره «لوفيقارو» يوم 9 فيفري 1953 لمديره « بيار بريسون » دعا هذا الاخير « ر • كارتيي » الى ان « يكتب بمزيد من التواضع شيئا ما وبقلـم اقـل قطعا فـي مـوضوع يبدو انـه يعـرفـه معـرفـة سيئة جدا ومغرضة » •

(65) ـ رسالة « لش • ا • جوليان » في جريدة « لوموند » بتـاريـخ 31 جـانفـي 1953 : « لا يظهر انه كان للندوة الصحفية التي عقدها الجنرال « قيوم » يوم 6 فيفري قوة اقناع كبيرة » •

الى المغرب ليحققوا في حوادث الدار البيضاء هو وثيقة اقل ما يقال فيها ان عيبها في تاكيدات يعوزها التحري ومواطن لسهو خطير (66) .

وقد تلقت الاوساط المغربية شاكرة متحمسة العطف الذي اظهره المسيحيون للمسلمين دون تفكير في التبشير . وكتب احد الزعماء الوطنيين البارزين : « لقد تاملت كثيرا هذه الايام . ورسخ اعتقادي من جديد في مصير بلاد جزائرية متصالحة مع نفسها . وقد حط كل من المسيحية والاسلام رحالهما على هذه الارض المشرقة على البحر الابيض المتوسط مثلما فعل كلاهما في القرون الوسطى على ارض اسبانيا . ويمكن لهما ان يعيشا في تكافل يكمل ويغني احدهما الآخر . ويمكن لهما ان يسدا الشقة التي حفرتها بينهما عهود العنف . ويمكن لهما اخيرا ان يجعلا من بلادنا ارض تلاق حيث يتمتع كل واحد بقسطه من النفوذ ومن الثروات بدون تفكير في الهيمنة والتناحر الديني » (67) . فهذه

---

66) ـ نشرت البلاغ جريدة « لوفيقارو » بتاريخ 18 فيفري 1953 ، ووضعت الاذاعة تحت تصرف الحجاج السنيين : « ماري ـ هيلين كاردو » عضوة مجلس الشيوخ (من الحركة الجمهورية الشعبية ـ (M. R. P.) واعضاء المجلس الوطني: « ر. بوسكاري ـ موسرفان » (جمهوري مستقل) ، « ج . ر . فروجيي » (من تجمع الشعب الفرنسي ـ (R. P. F.) « ج . د . دو مونجو » (ينتمي الى الجمهوريين الاجتماعيين ـ (R. S.) « ف . دو فيلناف » (من حزب الوحدة الاجتماعية ـ (P. U. S.) ، ومن غير ان نقدح في كفاءات هذه الشخصيات البارزة في الشؤون الافريقية فانه يبدو لنا في بلاغهم ما يدعو الى ملاحظات . أليس من الغريب أن يساعد الجنرال « قيوم » على اجراء تحقيق غير رسمي من طرف برلمانيين بينما كان صرح بانه يستقيل ان وافق المجلس الوطني على اجراء تحقيق برلماني رسمي . وهل ان « النداءات الى الثورة التي وجهها حزب الاستقلال » ، مثلما صرح به « فافرال » متكونة فقط من تقارير مرشدي الشرطة الذين حضروا اجتماع 7 ديسمبر ؟ وهل يستطيع البرلمانيون الكاثوليكيون ضمان صحة التراجم ؟ ولماذا لم يجب احد عن السؤال الذي طرحناه في جريدة « لوموند » بتاريخ 31 جانفي ، وهو ان المتظاهرين عادوا الى احيائهم القصديرية بعد ان استمعوا الى « النداءات للثورة » واجتازوا المدينة بدون ان يقوموا باية مظاهرة ؟ ولماذا لا يشير المحققون باية اشارة الى الظروف التي جرى فيها اول اصطدام بالمقاطع المركزية يوم 7 في العاشورة ليلا بينما استمر الهدوء في الاحياء الاخرى ؟ ولماذا يسكتون ايضا عن المجازر التي قام بها الاوروبيون يوم 8 ديسمبر ؟ وهل ان « فافرال » الذي شهد بذلك بعد فيه قد كذب ؟ ان كان الامر هكذا فلماذا السكوت عنه ، وان كان العكس فهل ان المحققين يدخلون المجازر في كنف « برودة الدم » و « الاعتدال » اللذين اضطرتهما قوات الامن ؟ ولماذا لم يفه باية كلمة بشأن حملة الذعر الصحفية والاخبار الكاذبة عن اغتصاب النساء والاغتيالات ؟ وهل سها المحققون عن هذا الامر الاساسي « احتراما لسنة الحكمة الالهية ؟ » وهل ان هذه الصيغة « ليس هناك عنصر اخباري يسمح بالقدح في رقم الضحايا الرسمي تتضمن « شكا » او فيها اسلوب ماهر لابعاد الصعوبة ؟ واخيرا الى اي حد يمثل المحققون التلقائيون الكاثوليكية ؟ .

67) ـ فرحات عباس ، الذكرى العاشرة لبيان الشعب الجزائري ، زعيم « الجمهورية الجزائرية » 13 فيفري 1953 .

الكلمات المستوحاة من شعور نبيل تستجيب الى نداءات « فرانسوا موریاك » والاب « رونی فرايوم » ومعناها ان الجهـاد مثل الحرب الصليبية تجاوزتـه الاحداث وان عهدا جديدا يجب ان يفتتح في افريقيا الشمالية حيث يتطلب العمل تعاون جميع ذوى العزائم الصادقة •

« بيـدو » يـؤيـد الحـوار

ان « جورج بيدو » الذى عاد الى وزارة الشؤون الخارجية في حكومة « رونی مايار » المؤلفة يوم 8 جانفی 1953 لم يظهر ميلا الى المغامرة ، وفضل مواصلة الحوار كما صرح به رئيس الحكومة فى خطاب التنصيب يوم 6 • فاستند سيدى محمد الى التصريح دون سواه ، وبادر منذ يوم 12 بموافقته التامة عليه • فشهرت وزارة الخارجية فى جوابها بتفاهة المناقشات حول المبادىء ، واوصت بالاقبال على الانجازات بمعني على الاصلاحات التى ستجرى سواء بموافقة السلطان او بدونها أن لم يتيسر ذلك • ووجد القصر نفسه امام خيار لا يخلو من الخطر •

منظمـة الامم المتحـدة والاميركـان

ولا شك ان وزير الخارجية يؤمل هكذا فى ان يستجيب الى دعوات منظمـة الامم المتحدة التى بدات تعنى بالحالة فى المغرب الاقصى اكثر من عنايتهـا بالحالة فى تونس • وقد صادقت لجنتها السياسية (68) يوم 17 ديسمبر على فقرة اللائحة اللاتينية الاميركية التي تعبر عن « الاعتقاد بان الحكومة الفرنسية، طبقا لسياستها التى صرحت بها ، ستجتهد فى بعث الحريات الاساسية للشعب المغربى طبقا لاهـداف ومبـادىء الميثـاق » ووجهت نـداء الى صـدق عزائـم الطرفين (69) • لكنها باغتت الجميع أذ صادقت على تعديل باكستانى (70) يحددللمفاوضين هدف « تمكين المغاربة من التصرف فى شؤونهـم » • واذا رفضت الجمعية العامة التعديل فى النهايـة (71) واقرت اللائحـة اللاتينيـة

---

68) ـ بالغلبية 44 صوتا ضد 3 وامساك 9 •
69) ـ باغلبية 45 صوتا ضد 3 وامساك 9 •
70) ـ بالغلبية 28 صوتا ضد 23 وامساك 4 •
71) ـ بالغلبية 29 صوتا ضد 2 وامساك 22 •

الاميركية (72) فان الحصول على مثل هذا الرفض الخالي من الحماس استوجب من الولايات المتحدة تدخلها الصـارخ ٠

وانه من المؤسف ان لم يتيسر العثور على حل بالتي هي احسن بقدر ما سيتزايد الضغط الاميركي ٠ وقد ادى توسع القواعد بالمغرب الاقصى الى احداث حولة في الدولة دون ان تقع استشارة المملكة الشريفية اصلا بالرغم من ان الامر لم يكن قط يتعلق بالسياسة الخارجية وحدها ٠ وتؤكد الولايـات المتحدة بقوة الدفاع عن امتيازاتها الاقتصادية ٠ وان قرار محكمة « لاهاي » بتاريـخ 28 أوت 1952 يوشـك ان يقلب ظهـرا على عقب الاقتصاد المغـربي كما نظمته فرنسا ، وهو يقضي بانه ليس على الموردين الامريكين أن يخضعوا لاجراءات المراقبة والقيـود التي فرضها عليهم قرار المقيم العام بتاريـخ 30 ديسمبر 1948 ٠ وما يقترح من التسويات يرفض بتكبر ٠ وليس من شك في ان « جماعة الضغط الامريكية في المغرب » ستستمر امتيازاتها الى النهاية ، وتستغل تاثيرها لفائدة المطالب الشريفية مادامت لفائدة مصالحها ، خاصة بعد انتصار الجمهوريين في الانتخابات الرئاسية يوم 4 نوفمبر 1952 ، وهي التي كانت حركت الكنغرس ووزارة الخارجية الامريكية ، ولربما يكون على الفرنسيين والمغاربة غدا ان يدافعوا عن مصالح مشتركة ضد المطالب الاميركية ٠ والوفاق لا يبدو مستحيلا ، لكنه ينبغي قبل كل شيء التسليم « بانه لا سبيل الى تسوية الازمـة المغربية بالدبابيس والرشاشات » (73) ٠ وانه حان الوقت لان تخلي الاسلحة المكان الى التفاوض ولان تخلي العوبة عمال الاطلس ومشائخ الزوايا المكان لارادة في الوفاق سواء من قبل الاقامة العامة أو من قبـل القصر الملكي تعنى بالنتائج أكثر من عنايتها بالهيبة والنفوذ ٠

---

72) – باغلبية 45 صوتا ضد 3 وامساك II ٠

73) – ب (بار) ب (ريسون) حول « درس » في جريدة « لوفيغارو » ، 9 فيفري 1953 ٠

الخاتمة

سياسة الفرص المتلاشية

تجاهل اهل الخبرة في الشؤون الاستعمارية

ما سياسة فرنسا في شمال افريقيا الا جزء من سياستها الاستعمارية • لها نفس الخصال وهي ترجع الى المبادىء النظرية ، ونفس المساوى وهي ترجع الى التطبيق • فالمطامح الفرنسية دوما كريمة ، ويترجم عنها في نصوص توحي بها مبادىء سامية •

ولا شيء اكثر نبلا من تمهيد دستور سنة 1947• فالاتحاد الفرنسي «يرتكز على اساس المساواة في الحقوق والواجبات بدون ميز في الجنس والدين » ، و « تعتزم فرنسا السير بالشعوب التي اخذت كفالتها على عاتقها نحو حرية ادارة نفسها بنفسها والتصرف في شؤونها الخاصة بصورة ديموقراطية » •

ولقد شعر واضعو الدستور عندما قرروا ذلك بانهم صنعوا شيئا عظيما • فالواعز كان نبيلا ، والقوالب التي وضع فيها جميلة رائعة • وبانتهاء مهمتهم بدات وظيفة اصحاب التطبيق • وسواء اكان هؤلاء موظفين بوزارة الخارجية وبوزارة الداخلية او مراقبين مدنيين ومتصرفين لبلديات مختلطة مشردين في بلاد المغرب، فانهم متساوون في اقتناعهم بخبرتهم المبنية على تجاربهم اليومية• وقد ورث في باريس كواهي المديرين المساعدين للمحميات والجزائر تقاليد متينة متاخرة في غالب الاحيان بعشرات السنين عن الحالة الحاضرة • فيقدمون الى وزرائهم ملحوظات مستوحاة من اخلص السنة التقليدية التي تستقى من منابع الجزائر وتونس والرباط •

ان نواب فرنسا الثلاثة هم المتصرفون الحقيقيون في السياسة • وبمجرد عبورهم البحر يصبحون يعتقدون ان سلطانهم من الحق الالاهي • فالقصور والجيوش المختلفة الازياء والالوان والجماهير الفازعة لمشاهدة مرورهم ، كل ذلك يحملهم على الظن بانهم ملوك شرقيون اكثر منهم موظفون جمهوريون • ولا يتحملون بدون امتعاض اشراف وزيرهم والمراقبة البرلمانية وانتقاد الصحافة • ولا يلبثون ان يتقمصوا البلاد الشرعية ،فيصبحون المدافعين عنها

بكل جدارة • وقليل منهم الذين يستطيعون التخلص من مؤامرات المكاتب ومن الغرور بالسمعة الطيبة عند الجماهير لينكبوا على البلاد الحقيقية وقد بقيت وسائل تعبيرها محـدودة •

سياسة محافظة خالية من العظمة

فهم ولاعوانهم يرجع اليهم الامر فيما يخص تاويل المبادى الدستوريـة • فالمساواة بين الاجناس لا تمنع من التصور بان للفرنسي امتيازات بطبيعـة اصله ، وهو يلح في استبقائها • وقد يؤمن المرء بالمساواة بين الاديان مـع تشجيع العناصر الدينية التي تطابق سياستها سياسة الادارة ومضايقة الآخرين بشبهة الإلحاد فيهم • ولجميع البشر نفس الحقوق مع اعتبار انه ليس لكل منهم نفس الامكانيات لمارستها • وعلى فرنسا ان تقود الشعوب التي اخذت كفالتها على عاتقها نحو حرية ادارة نفسها بنفسها • فذلك ما يسلم به الجميع ، ولكن على شرط ان يقع التدرج بها الى ذلك الهدف في مدة غير معينة • ولا ينبغي ـ كما قيل ـ الخلط بين السرعة والتسرع فقد لزم الشعب الفرنسي قرون ليتمكن من ادارة نفسه على الطريقة الديموقراطية • ويجب ابتداء التدريب في القاعدة بدون ان تمس الهياكل العليا الا بغاية الاحتياط • تلك هي الاصول لادارة سليمة رشيدة • نعم ، لقد مكن « فيكتور شولشار » سنة 1848 الآلاف من العبيد من ان ينقلبوا في يوم واحـد مواطنين ، جعلـوا مـن جزر الانتي (Les Antilles) احسن بلاد ما وراء البحار اندماجا واكثرها اخلاصا • لكن الاختصاصيين يقولون لك ان هاته السابقة لا قيمة لها اذ ان المغرب يسوده الاسلام المتعصب والمستحيل اخضاعه والذي يحرف جميع المشاكل •

يكون الفرنسي ديمقراطيا وحتى ثوريا في بلاده ، فيصبح محافظا يدين بالتقاليد عند اتصاله بالاهالي • والعبارة التي طالما كررت من « بيجو » الى « ليوتي » من انه لا ينبغي الاشتغال بالسياسة في افريقيا الشمالية ترجع دائما الى ان الحكومة لا تريد عرض حساباتها • فالحريات التي من اجلها جرت المعارك في فرنسا وراء الحواجز في الشوارع هي التي تعارض فيها السلط باكثر شدة حتى عندما يطالب بها الاوروبيون • ويعتبر جميع ممثلي فرنسا ان سياسة الحزم والشدة الابوية هي الترياق السياسي • وهم لا يجسرون على التصريح بان الديموقراطية لا تصلح خارج فرنسا ، لكن غالبهم يفكر كذلك • ولما كانت العناصر الاهلية الاكثر رجعية من الناحية الاجتماعية والدينية هي الاكثر

استعدادا لقبول قاعدتهم فان ممثلي الجمهورية قد انجروا الى مقاومة كل تجديد يعارض التقاليد الاقطاعية والدينية مهما بلغت من الافراط وقدم العهد •

عنصريــة مقنعــة

والحقيقة ان الفرنسي يعتبر نفسه من طينة اخرى غير طينة الاهلي ولو لم يعترف بذلك ، وان ما تعبر عنه بالاجحاف هو في نظر الموظف عمل وقائي • والاخلاق في بلاد المغرب مبنية على المصلحة ، فيها على المسلمين واجبات تتبعها عقوبات • ويزيد الامر تعكرا من عدم قابلية كبار المسيرين الفرنسيين للتطور • فالمراقبون المدنيون او المتصرفون الاداريون الشبان المتخرجون من مدرسة الادارة هم اكثر تفهما للمشاكل الاجتماعية من سابقيهم • وسرعان ما يتسرب اليهم الياس من جراء الاوامر التي يتلقونها من العواصم المغربية • وقد فقد كبار الموظفين الايمان ، واصبحوا عاجزين عن التطبع بما تقتضيه الظـروف الجديدة ، فيردون الفعل ، ويزيدون اساليب عملهم الاداري عقما • وبقدر ما تضعف السلطة بقدر ما تعظم قيمة الشرطة والاضطهاد • والامر الذي يقضي على النظام بالافلاس هو انه منذ سنة 1934 استحال الاهتداء في المغرب الاقصى الى صيغ لتوقيف تيار الوطنية او التصالح معها • فقد عجز القوم على القيـام باصلاحات انشائية ، ولكنهم ما انفكوا يسجنون بالمئات المناضلين الوطنيين بدون ان يتمكنوا مع ذلك مـن اضعاف المعارضة • ولقـد كشفت المشكلـة التونسية عن انه لا سبيل الى جعل حد للمشاكل لا بخلع الباي ولا باعتقال الوزراء ولا بتعديد معاقل الاحتشاد • اما في الجزائر فان تنظيم الانتخابات واختلاق المؤامرات والقضايا التي اصبحت العدالة فيها رهن مصلحة الدولة ، كل ذلك لا يحقق الا امنا واهيا لانه مبني على الضغط •

خيال الاتحــاد الفرنسي

يظهر ان فرنسا قد تجاوزتها الاحداث • ولا يزال الاتحاد الفرنسي خيـالا خاصة فيما يتعلق بالمغرب • ولئن كانت الجزائر جزءا منه بطبيعة الحال اذ كانت متركبة من مقاطعات لما وراء البحار ، فان بلادي الحماية بقيا خارجين عنه بالرغم من زعم بعض رجال القانون الكبار مثل «بيار لامبي» و «روني دولاشاريار» من انهما يدخلان في صنف الدول المشاركة دون حاجة الى اي معاهدة جديدة ، وبالرغم من ان « بول كوست ــ فلوري » يعتبر انهما يحافظان مع ذلك على

وضعهما الخاص . وبالعكس من ذلك مثلما اقام « فرانسوا لوشار » الادلة عليه بصورة قطعية بالنسبة الى المغرب الاقصى (1) فان الدستور الفرنسي لا ينطبق على البلاد التابعة لفرنسا دون ان تدخل في نطاق الجمهورية مثل المحميات من جهة ، ومن جهة اخرى فانه لا يجوز لدولة محمية ان تصبح دولة مشاركة في الاتحاد الفرنسي الا اذا ابرمت مع الجمهورية الفرنسية معاهدة او اتفاقية على مقتضى شروط الفصل 61 من الدستور .

ولقد اتخذ الوطنيون التونسيون والمغاربة موقفا معارضا لكل انخراط في الاتحاد الفرنسي لانه يضع مليكهم في مقام الدون بالنسبة الى رئيس الجمهورية الذي عينه الدستور الفرنسي رئيسا قانونيا للاتحاد الفرنسي ، ولانه يربط المحميات بهيكل جماعي مرتب حول فرنسا ، الامر الذي يمنعهما من المشاركة في جامعة الدول العربية . لكن هل لا سبيل الى حل هذه المشكلة وهل يمكن لملكي المغرب ان يوفدا من ينوب عنهما بالمجلس الاعلى في انتظار تاسيس اتحاد للجمهورية الفرنسية والدول المشاركة يضع حدا للحساسية والهواجس ؟

ان مواقف البلدان الثلاثة تجاه الاتحاد الفرنسي تزيد في التباين بين الجزائر من جهة والمغرب الاقصى وتونس من جهة اخرى ، تباينا ابرزته بعد تبعيتهما لوزارتين فرنسيتين مختلفتين . ومن المؤسف له ان لا يكون لرئيس الاتحاد الفرنسي نظر مباشر في شؤون المغرب الاقصى وتونس . فلو كان في مقدوره النقاش داخل المجلس الاعلى في خصوص مشاريع الاصلاح لوجدت حلول اخرى غير التي عرضتها وزارة الخارجية كما تدل على ذلك جميع القرائن . فان « فانسان اوريول » على عكس كثير من رجالات السياسة الفرنسيين يهتم اهتماما خاصا بقضايا ما وراء البحار ، ويدرسها شخصيا بتجرد ووازع انساني يتغلبان على خبرته القانونية . وعندما يتجه السلطان والباي بخطبهما اليه ، اليس ذلك الرجل الذي ينكب يوميا على المشاكل « الاستعمارية » هو الذي يتوجه اليه نداؤهما من وراء الحاكم الاول للجمهورية الفرنسية ؟ لكن الرئيس في مثل تلك الحالات في موقف حرج . فليس له من النفوذ ما يمكنه من تحديد السياسة التي هو متضامن مع غيره فيها ، حتى ان كل جواب من اجوبته ينتحل نظريات ويؤيد رجالا يغلب على الظن انه قد لا يوافقهم في داخليته احيانا . وقد يترتب على ذلك خطر جسيم اذ ان الاهالي في جهلهم

1 ـ « ف . لوشار » ـ المغرب الاقصى والاتحاد الفرنسي ـ في « الاتحاد الفرنسي والبرلمان » ، مارس 1951 .

للجهود الخاصة التي يبذلها ولتاثيره في التوفيق بين المواقف قد يعتبرونه منحازا لتدابير العنف والمظالم التي يعانون ويلاتها • فمن المؤسف جدا ان تمس سمعة الرئيس وهي عظيمة من جراء اخطاء وزارة الخارجية او الاغلبية الحكومية باعتباره مسؤولا عنها •

ان بلاد الحماية لا تشارك في المجلس الاعلى للاتحاد الفرنسي • كما انها لا تتمثل في جمعية الاتحاد حيث ترسل الجزائر ثمانية عشر مستشارا ، ستة منهم ينتخبهم المجلس النيابي الجزائري ، واثنا عشر تنتخبهم المجالس العامة للمقاطعات على قاعدة النصف لكل هيأة انتخابية ، ولو كان في مقدور جمعية « فرساي » (2) بحث المشاكل الجزائرية لحصل من ذلك نفع عظيم ، ولاستفادت الحكومة من آراء قيمة • لكن وزير الداخلية بتلاعبه بالكلمات لم يعترف لها باي حق للنظر في ذلك اجتنابا لمراقبة اضافية على تصرفاته مراقبة لا تروق للسلط التنفيذية • اضف الى ذلك ان ارادة المجلس النيابي الجزائري في احتكار الشؤون المحلية قد زادت وزارة الداخلية تمسكا بميولها • بيد انه من الغريب ان يحجر على جمعية درس المشاكل التي تهم قطرا متمثلا فيها بصورة متسعة • لذلك لم ترض الجمعية بهاته المنزلة الحقيرة • الا ان الحكومة ضحت مرة اخرى بما في المستقبل من امكانيات عظيمة الفائدة مقابل المصالح الوقتية •

الهياة العليا للبحر الابيض المتوسط

ان رابطة البلدان المغربية الوحيدة هي الاسلام ، بيد ان فرنسا ليست لها سياسة اسلامية • وقد كان « جورج لاني » سجل هاته الحقيقة امام مجلس النواب منذ سنة 1912 • ومن ذلك العهد لم تزد الحالة الا تعكرا اذ عوضت الرقابة البرلمانية التي كانت كثيرة التيقظ منذ اربعين سنة خلت باستسلام مؤلم في الوقت الحاضر • ولقد تاثر « ليون بلوم » بذلك النقص ، فنظم سنة 1936 الهياة العليا للبحر الابيض المتوسط وافريقيا الشمالية ، ودعم اركانها ، فعملت حتى الحرب • وكانت تشتمل على ثلاث تشكيلات : اللجنة العليا نفسها ويراسها رئيس الحكومة ، ويجلس معه فيها اهم الوزراء ووالي الجزائر العام والمقيمان العامان والكاتب العام لرئاسة الحكومة والكاتب العام

---

2) — يعني « جمعية الاتحاد الفرنسي » ، (ملحوظة للمترجم) •

للجنة العليا • وكانت هاته الهياة العليا التي تجتمع مرتين في العام تدرس المشاكل الهامة المشتركة على ضوء التقارير المدققة التي تقدمها اليها الكتابة العامة • وكان لاجتماعاتها الفضل ليس فقط في التمكن من تحاكك وجهات النظر في قضايا درستها مليا ، بل وفي التمكن من تلاقي موظفي البلدان المغربية الثلاثة ، فيفضي كل منهم على فوائد المآدب بنتائج تجربته •

وكانت لجنة الشؤون الاسلامية تجتمع كل شهر برئاسة الكاتب العام لرئاسة الحكومة للنظر في مقترحات اللجنة العليا وفي المشاكل التي يحيلها عليها رئيس الحكومة • وهي تتركب زيادة على أهم مديري الوزارات من ست شخصيات خارجية اشتهرت بخبرتها بالاسلام • واخيرا الكتابة العامة للجنة العليا تجمع الوثائق وتدرس القضايا • واهم وظيفة لها هي ان تكون مكتب ابحاث تمكن وثائقه ونتائج ابحاثه رئيس الحكومة من فصل الخلافات ومن توجيه السياسة الاسلامية توجيها شخصيا • وفعلا فان الكتابة العامة هي التي اوحت بالحلول اللازمة اثناء المجاعة التي حدثت بالمغرب الاقصى واثناء المفاوضات التي جرت مع ايطاليا بشان الاتفاقيات التونسية وبصدد كثير من القضايا الاخرى • وقد سمحت الكتابة العامة بايجاد العناصر المشتركة الخارجة عن مشمولات دواوين الوزارات بدون ان تحاول قط توحيد ادارة البلدان الثلاثة التي كانت تحترم مميزاتها الخاصة • وقد تبين ان لها وظيفة من الاهمية ما اهلها للعمل تحت اشراف « ليون بلوم » المباشر ثم بتفويض منه تحت اشراف الرئيس « البار ساروا » و « كامي شوطان » • وفي الفترة القصيرة التي مر فيها « ليون بلوم » بالحكم في ديسمبر 1946 قرر بعث تلك الهياة مع ملاءمتها للمقتضيات الجديدة • فكلف « جورج قورس » ، وهو اذاك وكيل الدولة للشؤون الاسلامية ويدفعه حماس كريم ، بوضع مشروع لذلك الغرض بمشاركة « ارمان فيون » المستشار بمجلس الدولة والمقيم العام السابق بتونس و « ش• أ• جوليان » الكاتب العام السابق للهياة العليا • وقد اعد المشروع وحرر نصه تماما وصادق عليه رئيس الوزراء ، ولكنه زال بزواله من الوزارة •

العجز عن تدبير سياسة اسلامية

اما اليوم فان رئاسة الحكومة في حالة عجز عن القيام بدورها الاساسي من توجيه وتحكيم • وهي لقمة سائغة لضغط رجال السياسة او لمبادرات

الوزراء المختصين او غير قادرة على مجابهتهم بخلاصة ابحاثها الخاصة مع توخى النظر الشامل لجميع الامور • ولا تصل نتائج تجربة سفراء فرنسا ووزرائها المفوضين فى الشرق الاوسط الى ممثليها فى افريقيا الشمالية الا بتاخر وبصورة جزئية • فلو وجدت اليوم هياة عليا للشؤون الاسلامية لحصلت فوائد كبرى من جمعها للوثائق والابحاث المباشرة التى يقدمها مثلا ممثل فرنسا فى كراتشى • لكن وزارة الخارجية لا ترغب فى تنسيق لا تسيره هى ، وهى عاجزة عن ذلك تماما • ولا يرغب الوالى العام والمقيمون العامون فى بعث الهياة العليا ، ويوجسون خيفة من معلوماتها ومن الاذن الصاغية التى يوليها اياها رئيس الحكومة • ولتلك الاسباب ستبقى فرنسا فاقدة لسياسة اسلامية فى الوقت الذى اصبحت القضايا التى تهم الاسلام تاخذ يوما فيوما صبغة دولية اكثر اهمية ، فتؤثر من جراء ذلك على مواقف الحركات الوطنية المحليـة •

تدويـل المشاكـل

اردنا ام ابينا ، فان اقطار شمال افريقيا خارجة يوما فيوما عن سلطة فرنسا المنفردة • وبدون شك فانه لم يتغير شىء قانونيا ، لكن هنالك عوامل جديدة اخذت تعمل وما انفكت قيمتها تعظم • فان نفوذ الولايات المتحدة العسكرى يصحبه وضع يد اقتصادى سوف تبرز باسمه التدخـلات السياسية طال الزمان ام قصر • وقد تسربت المصالح الخاصة فى مناجم الفحم بجرادة كما تسربت فى النفط التونسى • ولئن كانت تلك القوات الراسمالية العالميـة التى سيزيدها انتصار الحزب الجمهورى الامريكى جراة تفضل تاييد السلطة الفعلية المتمثلة فى الدولة الحامية فلا شىء يضمن انها لا تصبح يوم توضع مصالحها فى الميزان تعتبر انشاء حكومات اهلية مطابقا للعدل والانصاف علاوة على انه يسهل لها قضاء شؤونها • ان بعض الراسماليين الفرنسيين الذين هم اكثر ذكاء وفطنة من العسكريين ورجال السياسة يتساءلون هل لا يصبـح من الضرورى تاليف جبهة مع الوطنيين تكون سدا يعطل ذلك الزحف •

لقد تضعضع تاثير جامعة الدول العربية بصورة جدية • غير ان سمعتها باقية • ويرجع السبب فى ذلك الى انها تمثل رمز وحدة مسلمى الشرق الادنى، وتثير الحسرة على امبراطوريـة الخلفاء اكثر من انها تشكيلـة سياسية • ان العروبة مازالت على قوتها الروحية كاحساس دفاعى لمدنية مقامة على الدين •

لكن هنالك أمة اسلامية جديدة، أعظم الامم الاسلامية في العالم، وهي الباكستان قد نشأت وهي لا تنتسب الا الى الاسلام دون العروبة • فسيضاف الى فكرة الجامعة العربية ، ولربما عارضها ، شكل آخر من التضامن قد يعبر عنه بالجامعة الاسلامية الجديدة لتمييزها عن الجامعة الاسلامية الموالية للأتراك ، ولا تكون العروبة فيها الا اقليما يفقد سبب وجوده شيئا فشيئا • ان هاته بالجامعة الاسلامية الجديدة ، عوض ان تدمج في وحدة وهمية عناصر مختلفة مبعثرة ، تستطيع ان تعيد كامل العزة القومية او القطرية الى الباكستانيين والجاويين واليوغسلافيين والسنغاليين وبالطبع الى التونسيين والجزائريين والمغاربة • ان حركة كهاته قد تمتاز بترقية العناصر الثقافية والدينية على حساب النزعات العنصرية واحياء الذكريات التاريخية ، فربما تساعد على تقدم الوطنيات تقدما مستقلا مجردا عن التقيد بالاحتمالات السياسية التي قد يكون حدوثها مشكوكا فيه • لقد انحرفت سياسة الوطنيات العملية اكثر مما استفادت من جراء العروبة التي حادت بها عن الحقائق الواقعية المحلية ، واتضح ان تاييدها للوطنيين ضعيف • وان اتحاد الدول الافريقية والاسياوية على الصورة التي يبرز فيها امام منظمة الامم المتحدة له مفعول اكثر وقعا من ذلك • فمناصرة رجل مثل « نهرو » تنزع من الرغبات المغربية ما يكتسيها من شبهة المعارضة الدينية وتدخلها في نطاق القانون الدولي العام •

ان وجود منظمة الامم المتحدة يخلق حدا جديدا لما للدولة الحامية من حق في التصرف والافراط • لا شك ان فرنسا تخلصت من مناقشات ديسمبر 1952 باقل ما يمكن من الخسائر • لكن خصوم الاصلاح يكونون مخطئين ان ظنوا انهم منتصرون • فلئن لم تدن سياسة فرنسا فانه لم يقم بالدفاع عنها غير بقية الدول المستعمرة • وقد اعلنت الجمعية العامة حقها في النظر في المسألة باغلبية عظيمة ، وكانت القرارات التي صادقت عظيمة النتائج بالنسبة الى المستقبل • لذلك تدرك معنى التصريحات العدائية التي فاه بها المارشال « جوان » والجنرال « قيوم » ، ولو نستغرب من ان الحكومة لم تدعهما الى مزيد من التحفظ في مشاكل دولية خارجة عن اختصاصاتهما • ومهما يكن من الامر فان سياسة فرنسا في بلاد الحماية لم تعد مستقلة تمام الاستقلال • ومما لا شك فيه انه سوف لا يبعد الزمن الذي تتجلى فيه هاته الحقيقة •

تشبث بالنصوص القانونية تجاوزته الاحداث واتضح عقمه

غدا ستجد فرنسا نفسها امام نفس المشاكل ، وقد عقدتها المماطلات •

وسوف لا تجد لها حلا ما لم تقلع عن الاغاليط التقليدية • فالانقليز يعرفون كيف يرتحلون في الابان ، وبعد ذلك يتبين انهم بقوا على مكانتهم بصورة غير رسمية ولربما بقي لهم اكثر نفوذ مما كان لهم في الماضي •• اما فرنسا فلاتؤمن الا بالنصوص التي تصمم على التشبث بها حتى بعد ان تغير العالم • فما عسى ان تكون قيمة معاهدة القصر السعيد ، وقد وقع عليها في عصر كان يعتبر فيه العالم الاسلامي قريبا من الانهيار ، حين نشأت بعد سبعين سنة من الباكستان الى ليبيا دول مستقلة لم يبلغ بعضها درجة التطور التي بلغها اولئك الذين ندعي ابقاءهم تماما تحت الحجر ؟ ان صورة تشبث الحكومات الفرنسية بمبدإ الحماية لهي دليل على العقم ، فهي تظهر عجزها عن ايجاد حلول جديدة لمشاكل جديدة •

ان الوطنيين لا يسهلون في غالب الاحيان مهمة العناصر التقدمية الموجودة بفرنسا • فتصلبهم اللفظي وقابليتهم للانتشاء باللفظ دون اعارة الحقائق الواقعية ما يكفي من الاعتبار ، كل ذلك يذكر في الغالب باولئك الاخصائيين الذين يغادرون بيوتهم فيفوتهم معنى المشاكل الحقيقية • وعندما يقوم رجل مثل بورقيبة ، فيضع في كفتي الميزان المنافع والمضار التي تنجر عن موقف ما ، ثم يرمي بكل شجاعة بحزبه في تجربة قد خرج منها بعد تصفية كل الحسابات معظما كل التعظيم ، تجد « الانقياء » من الحزب الدستوري القديم ومن حزب الاستقلال يطالبون بادانته • فقبل رفض سياسة الاصلاح الايجابي الملموس ينبغي للمرء ان يملك الوسائل الفنية التي تقتضيها سياسة التصلب • ولا يظهر ان تلك الوسائل متوفرة الآن في المغرب • وعلاوة على ذلك فليس من المحقق ان الوطنية البرجوازية لا تساعد على تحويل الشعب عن مجرى تطوره الطبيعي • وقد يكون من المفيد لو استلهم رجال حزب الاستقلال والاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري من سياسة الحزب الدستوري الجديد الواقعية فقاموا « بنقدهم الذاتي » ، وتركوا الثرثرة الفارغة جانبا لفائدة اعمال ايجابية ملموسة يتيسر ترتيبها جيدا في نطاق مثل سياسي كالذي عرضه السلطان على شعب المغرب الاقصى في بلاغه الصادر في 8 اكتوبر 1952 • فقد يكون لبعض الاقتراحات الصريحة الملحقة ابعد مدى من الخطب والتصريحات الطويلة •

استحالة سياسة استعمارية

يوم تدرك فرنسا ان السياسة « الاستعمارية » لم يعد في الامكان اتباعها ،

وانه لا سبيل الى التحيل الى ما لا نهاية له مع التزامات الدستور الفرنسي ، تستطيع اذذاك محاولة فض المشاكل الاساسية القليلة المطروحة في افريقيا الشمالية • وقبل كل شيء لا يمكن لها في فرنسا ذاتها الا اتباع سياسة تشابه اسنة المنشار ما لم تكن بعثت لدى رئيس الحكومة ، وهو السلطة التنفيذية الوحيدة بدون نزاع ، هيئة لجمع الوثائق والابحاث من شانها ان تمكن رئيس الحكومة من فرض سياسة اسلامية بعيدة عن سياسة المحافظة التي تسلكها مكاتب الادارات الوزارية وعن جريان العمل التقليدي بسياسة النفوذ والشدة التي تتبعها الادارات في شمال افريقيا • وينبغي ان تكون على راس هذه الهيئة المكلفة بالشؤون الاسلامية شخصية من المقام الاول تلحق برئيس مجلس الوزراء بصفتها كاتب دولة • ويكون لها ما يكفي من النفوذ لتسمع كلمتها من وزيري الخارجية والداخلية • وينبغي ان توضع باشراف هاته الشخصية برامج شاملة من شانها ان تسمح بمناقشات واسعة تتم اثناءها المقابلة بين التضحيات والتعويضات عوض ان يترك الامر على حاله حتى تفتك منا تنازلا بعد تنازل جميع وسائل المبادلة التي قد تكون بايدينا •

انجاز الاتحاد الفرنسي

وقد يكون موضوع الابحاث الاولى يشتمل على بعض نقط مضبوطة ، واولها مسالة تنظيم الاتحاد الفرنسي • فاذا ما اريد الظفر بدخول بلاد الحماية فيه بصفتها دول مشاركة ، وهو حل من الحلول ، يجب قبل كل شيء ازالة العقبات التي احدثها دستور وضع من طرف واحد ، وحافظت فيه فرنسا على امتيازات فادحة • فلانرى اصلا كيف يمكن الحط من مقام رئيس الجمهورية لو كان المجلس الاعلى يترأسه بالتداول رؤساء سائر الدول المتمثلة فيه • بل بالعكس ، فان ذلك الامر ينمي التضامن داخل تلك الهياة ويزيد في قيمتها في نظر شعوب ما وراء البحار •

اما الاجراء الثاني فيتعلق باكساء جمعية الاتحاد الفرنسي صبغة جمعية فيدرالية حقيقية ، لها سلطة البت والتقرير في المسائل الراجعة الى بلاد ما وراء البحار • فالبرلمان تشغله تماما مشاكل فرنسا نفسها • وبعض القرارات التي تظهر حيوية بالنسبة للاهالي مثل ما جرى لمجلة الشغل ، يطول انتظارها الى ما لا نهاية له ، ولا تدرس الا امام نفر قليل من المدربين عليها الذين يؤلفون في الظاهر لجنة • فبالعكس من ذلك لجمعية فرساي ان تتولى

درس المواضيع التي تعرض عليها درسا عميقا ، ولا تنتظم الاغلبية فيها على غرار القواعد السياسية التقليدية • وفي هذا المضمار فان الحكومات قد تحملت مسؤولية ثقيلة بالنسبة لمستقبل الاتحاد الفرنسي اذ ابقت تلك الجمعية في حالة ابعاد ، وغطت مناقشاتها ، وحاولت قصرها على دور تمثيلي خارجي لا تريد هي الخضوع له • فلو كان في مقدور الاحزاب الوطنية استعمال منبر جمعية فرساي بكل حرية ، ولو كان لها ان تساهم داخل اللجان في اعمال ملموسة على قدم المساواة الكاملة لتيسرت ازالة كثير من الخلافات •

القانون الاساسي والانتخابات بالجزائر

فبدون هاته التدابير التي ينبغي اتخاذها والتي سوف لا تتخذ فما العمل في القريب العاجل ؟ اما في الجزائر فيتحتم اتخاذ تدابيرين اثنين : اولا الظفر بتطبيق القانون الاساسي تطبيقا مخلصا • فطريقة التزوير الانتخابي التي ابتدعت لعادلة « ارهاب » حزب مصالي الحاج ، وقد ساعدت هي عليه في الواقع ، قد استمر العمل بها ضد الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري ، وهو لا يخشى منه نداء للثورة ، لا لشيء سوى ان ذلك التزوير وسيلة سهلة للحكم • انه لمن العار حقا ان لا يتحرك في جميع الاحزاب بفرنسا تيار من الراي العام يضع حدا لمثل ذلك الضلال • فليحذف القانون الاساسي الجزائري ، والا فليطبق بكل الخلاص مثل ما كان يطالب به « ليون بلوم » • ولكن لا يترك سبيل للتمادي على تلك الصورة المزيفة للديموقراطية الانتخابية في حين نهزا بالانتخابات الاستبدادية في بلاد ما وراء السياج الحديدي •

ثم ينبغي تناول مشكلة التمثيل الانتخابي بكل شجاعة • فلا سبيل الى الابقاء الى ما لا نهاية له على نظام التساوي العددي الذي يتمثل بمقتضاه ثمانية ملايين من الاهالي بمثل مليون من الفرنسيين • فهناك احد الامرين : اما ان تعطى النيابة البرلمانية للمسلمين ، وهم فرنسيون ، خمس المقاعد في المجلس الوطني ، واما ان توحد هيأة الناخبين في الجزائر • ذلك خيار سوف يظهر المستقبل انه لا مناص منه • والهيئة الانتخابية الموحدة هو الحل العادل الوحيد • فليعدل موقتا بضمان تمثيل الفرنسيين غير المسلمين وتعيينهم من مجموع الناخبين ، فليس في ذلك ادنى ضرر • فان مثل هذا الشرط الانتقالي يفرض على اولئك المنتخبين مراعاة راى الاغلبية ، ويمكن من اختيار عدد من النواب الصالحين لعمل المجالس النيابية الفني • فلو تحققت هاتان المسالتان لربما زالت اركان الخلاف الاساسية من تلقائها •

وفيما يتعلق بالمغرب الاقصى وتونس فيجب الاعلان بكل تاكيد بان نظام الحماية تجاوزته الاحداث وانه لا سبيـل لاحيائه بتاتا • فمثـل ما يجرى الحديث على سياسة الادماج في الجزائر في حين لم تعد فيه ممكنة ، فانـه يجول في الخواطر تجديد الحماية واعطاؤها معناها الحقيقي بينما يسير جهـاز اداري عاجز عن التكيف بمهمة الرقابة المكلف بها • فالحكم المباشر امر دخـل في العادات والاخلاق وفي الاذهان وفي النصوص • فلا رئيس جهة ولا مراقب مدنيا يستطيع التخلص منه حتى ولو قيل له إنه عليه اتباع تصور آخر للامور • وقـد اعترف جميع الموظفين الذيـن القي عليهم السـؤال بانهـم لا يستطيعون تنفيذ هذا التقويم • فكيف يمكن حينئذ بعد اربعين سنة الرجوع في تيار قد عجز « ليوتي » عن عرقلته سنة 1920 ؟ ذلك تصور مجرد عقيم ينبغي تركه جانبا بكل نزاهـة •

ان التحول المتيسر الوحيد لا يتاتى الا بتغيير عميق للعلاقات على اساس معاهدة جديدة بين ملكي تونس والمغرب الاقصى وفرنسا • ولا يمكن التعلق الى ما لا نهاية له بقوالب قانونية بالية تشبه السفن القديمة التي دخلها الماء من كل جانب • فيجب بناء هيكل جديد صلب بمواد رفيعة • بيد ان الاستقلال الداخلي والحماية لا يجتمعان : « ان ما يقتضيه وضع الاستقلال الداخلي من كامل التصرف في السيادة الداخلية لهو امر يتنافى قانونيا مع بقاء رقابة دائمـة من الدولة الحامية على جميع اعمال ادارة الشؤون الداخلية للبلاد المحمية » حسب ما يراه رجل قانون بارز • والدستور والحماية ينسجمان مع بعضهما بعضـا تمام الانسجام • ولكن الاستقلال الداخلي والحماية لا ينسجمان • ومن ذلك كانت الحاجة للوصول الى الاستقلال الداخلي تدعو الى عقد ثنائي جديد يحدد العلاقات بين فرنسا وبين البلدان المحمية على اسس جديدة » (3) وهو ما قدره الدستور الفرنسي عندما نص في الفصل 61 على ان « وضعية الدول المشاركة في الاتحاد الفرنسي تستخلص لكل واحد منها من العقد المحدد لعلائقه مـع فرنسا » • فوضع الدولة المشاركة لا يكون الا نتيجة عقد ، نتيجة معاهـدة جديدة •

---

3) — « فكتور سلفيرا » الاصلاحات التونسية لشهر فيفري 1951 ، ص 51 — 52 •

فبدل التصميم على القول بان الحماية تستطيع ان تجيز كل شيء شريطة ان يعرف استعمالها ، كان على فرنسا ان تبادر بعرض مراجعة معاهدتي قصر السعيد وفاس • وعند ذلك فقط تصير قادرة على القيام بالدور العجيب الذى رسمه لها دستورها وهو قود الشعوب نحو التصرف فى شؤونها الخاصة تصرفا ديموقراطيا • ثم تعويضا للتضحية التى تقوم بها اذذاك بتسليمها فى امتيازات الحامى ، لها ان تعرض من جهة اندماج المحميتين القديمتين المنقلبتين الى دولتين مشاركتين ضمن اتحاد الجمهورية الفرنسية والدول المشاركة ، الاتحاد الذى يكون جميع اعضائه متساوين في الحقوق • ولها ان تعرض من جهة اخرى ، زيادة على الضمانات المنصوص عليها لفائدة مواطنيها والمجموعة الجديدة ، اقامة مؤسسات ديموقراطية تمكن الشعبين المغربى والتونسي من النمو السياسي والاجتماعي نموا حرا •

قد تظهر مثل هاته البرامج فى الساعة الراهنة تنازلا عن السيادة الفرنسية وترك المعمرين الفرنسيين وشانهم وانتصارا للعناصر الوطنية • وهى فى الواقع عكس ذلك تماما لان القيم الحقيقية التى يجب على فرنسا الاحتفاظ بها وهى العسكرية والاقتصادية والثقافية ربما تحافظ عليها فرنسا بصورة ناجعة • فعندما شرع « بيار فيينو » سنة 1936 فى مناقشة المعاهدة الفرنسية السورية مع وفد دمشق كان يعلم اذذاك بكل وضوح ما هى النقط التى قد يتنازل بشانها وما هى التى يتصلب فى خصوصها • وقد نجح فى ذلك ، وراح مناقشوه مغتبطين • فعند ذلك تالب عليه الديبلوماسيون وقواد الجيش وكبار رجال الكنيسة واصحاب البنوك ورجال الاعمال • فسقط ، ولم تتم المصادقة على المعاهدة • ومن ينازع اليوم فى ان ذلك الرجل الوطنى الذى اتهم بالتنازل لفائدة السوريين واللبنانيين عن حقوق الفرنسيين الابدية هو الذى كان يرى الراى الصحيح ؟

غدا قد تعيد المسالة نفسها فى افريقيا الشمالية ان لم نتخلص من نفس التعثرات القديمة • فان عهد الجمهورية الثالثة كان عهد تظافر العوامل الاستعمارية المحبوكة والمستغلة بحكمة لتشييد امبراطورية • ونخشى ان استمرت الجمهورية الرابعة فى ضلالها ان يكون عصرها عصر الفرص المتلاشية دون امل في تداركها •

18 فيفرى 1953 •

فهرس الاشخاص والاعلام

ـ أ ـ

— ت —

ـ غ ـ

ـ ف ـ

— ل —

ـ ن ـ

الاماكن والمدن والبلدان

— ب —

– ي –

الجماعات والقبائل

الديانات والطرق والمذاهب

الكتب والمجلات والجرائد

الاتفاقيات والمعاهدات والبرامج والمؤتمرات

الاحـزاب السياسيـة

المنظمات الشغيلة

الجمعيات والمنظمات :

تم طبع هذا الكتـــاب
بمطبعة الدار التونسية للنشــر
شوال 1396/اكتوبر 1976
تــونس

[redacted]

افريقيا الشمالية تسير
القوميات الاسلامية والسيادة الفرنسية

يعتبر هذا الكتاب الذي نفذت طبعتان منه في اقل من سنة ، سواء داخل فرنسا او خارجها ، المرجع الاساسي الذي يعتمد عليه في دراسة النواحي النظرية والعملية للحركات القومية المغربية التي آلت الى الاستقلال .

ولقد ارتكز هذا الكتاب على تجربة اربعين سنة في ميادين التعليم والادارة، خاصة في سلك الوظائف السامية لدى رئاسة الحكومة الفرنسية .

لقد احتفظ هذا الأثر باهميته رغم مرور الزمن ، بفضل القائمة الانتقادية للمراجع التي تضمنها ، ووضوح الرؤية لدى كاتبه ، ونزاهة اختياراته، وحيوية اسلوبه .

لقد دعا بعض الأخصائيين الامركيين الى ترجمته . كما ان « الدليل البيبليوغرافي » التابع للقسم التاريخي في الجيش قد عرف هذا الكتاب سنة 1969 فوصفه بانه « ذو لهجة حماسية حادة ولكنه من الصنف الأول ، اذ يحتوي على وثائق بالغة الاهمية » .

وعلى هذا ، فانه يبقى مرجعا لا غنى عنه لكل من يعنى بتقصي حقائق المغرب العربي الكبير .



المنجي سليم

● [illegible] في 15 سبتمبر 1908

● [illegible] منذ [illegible] سنه بجانب الرئيس [illegible] بورقيبة من أجل استقلال [illegible]

● سجن وأبعد العديد من المرات من طرف [illegible] الاستعمارية

● تولى [illegible] مختلفة
- ادارة [illegible]
- عضو [illegible] السياسي
- [illegible]

● [illegible]
وزير [illegible] (1955 – 1956)
[illegible] للمفاوضات التونسية [illegible] للوفد [illegible]
- وزيرا للداخلية
- [illegible] التونسي [illegible] لعب دورا [illegible] في المجال الدولي
- [illegible] الأمم المتحدة
- كاتب دولة [illegible]
- كاتب دولة [illegible] لرئيس الدولة
- [illegible] دولة للعدل

● توفي [illegible] 23 [illegible] سنة 1969

الطيب المهيري

● [illegible] المرسى في 27 جويلية سنة [illegible]

● انضم [illegible] الحر الدستوري الجديد [illegible]

● [illegible] الاستعماري فأودع

● السجن [illegible]

● عمل
- مديرا للحزب بالنيابة
- كاتبا عاما مساعدا للحزب
- عضوا بالديوان السياسي

● عين [illegible]
- وزيرا للداخلية
- كاتب دولة للداخلية سنة 1957 عند اعلان الجمهورية وظل كذلك الى وفاته في شهر جوان سنة 1965

الدكتور الصادق المقدم

● ولد بتونس في 24 فيفري سنة 1914

● كافح منذ حداثة [illegible] في منظمات الشباب [illegible] في صفوف الحزب وناله من أجل ذلك الاضطهاد الاستعماري في المحتشدات

● عضو بالديوان السياسي

● عضو اللجنة المركزية

● عين
- وزيرا للعدل
- وزيرا للصحة العمومية
- سفيرا لتونس بالقاهرة
- كاتب دولة للشؤون الخارجية
- سفيرا لتونس بباريس
- رئيسا لمجلس الأمة منذ سنة 1964

الحبيب الشطي

● ولد [illegible] في 9 اكتوبر 1916

● عمل [illegible] العديد من الصحف

ومديرا للبعض منها

● في نطاق المسؤوليات الحزبية
- عضو بالديوان السياسي
- عضو اللجنة المركزية للحزب
- وناله الاضطهاد الاستعماري بايداعه المحتشد

● عمل :
- نائبا لرئيس مجلس الأمة
- سفيرا لتونس ببيروت ودمشق وبغداد
- سفيرا لتونس بأنقرة وطهران
- سفيرا لتونس بلندن [illegible] بالرباط فالجزائر
- مديرا للديوان الرئاسي
- وزيرا للشؤون الخارجية منذ جانفي 1974

فتحي زهير

● ولد بتونس في 12 افريل سنة 1917

● [illegible] المحاماة منذ سنة 1940

● عمل بالحزب الحر الدستوري الجديد بصفة نشيطة مما ادى الى ايقافه من طرف السلط الاستعمارية العديد من المرات

● انتخب عضوا باللجنة المركزية للحزب

● عمل
- مدير ديوان لرئيس الحكومة
- وزيرا للشؤون الاجتماعية
- سفيرا لتونس بالرباط وروما [illegible]
- مديرا للمراسم [illegible] رئاسة الجمهورية
- نائبا [illegible] مجلس الأمة